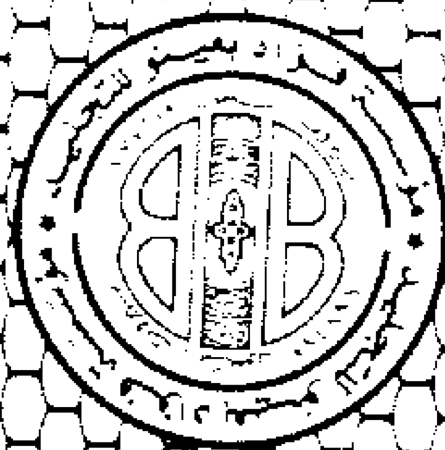
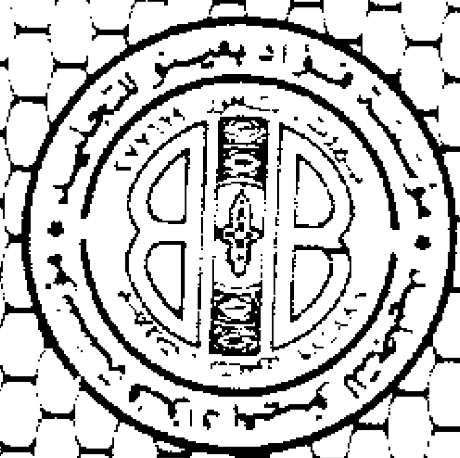
خالد محمد خالد

رجال حول الرسول

دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان





رجال حول الرسول

خالد محمد خالد

رجال حول الرسول

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت . لبنان

الطبعة الثانية

١٩٧٣

كتب المؤلف

١ - من هنا . . نبدأ
٢ - مواطنون . . لا رعايا
٣ - الديمقراطية ، أبدا . .
٤ - الدين للشعب
٥ - هذا . . أو الطوفان
٦ - لكي لا تحرثوا في البحر
٧ - الله ، ، والحرية { ثلاثة أجزاء
٨ - معًا على الطريق محمد والمسيح
٩ - إنه الإنسان
١٠- أفكار في القمة
١١- نحن البشر
١٢- إنسانيات محمد
١٣- الوصايا العشر
١٤- بين يدي عمر
١٥- في البدء كان الكلمة
١٦- كما تحدث القرآن
١٧- وجاء أبو بكر
١٨- مع الضمير الإنساني في مسيره ومصيره
١٩- كماتحدث الرسول
٢٠- أزمة الحرية في عالمنا
٢١- رجال حول الرسول
٢٢- في رحاب علي
٢٣- وداعًا . . عثمان
٢٤- أبناء الرسول في كربلاء
٢٥- معجزة الاسلام عمر بن عبد العزيز
٢٦- عشرة أيام في حياة الرسول
٢٧- . . والموعد الله
٢٨- الجزء الثاني من : كما تحدث الرسول
٢٩- الجزء الثالث من: كما تحدث الرسول

مراجع تاريخية

(١) الإصابة ، في تمييز الصحابة — ابن حجر العسقلاني
(٢) الاستيعاب ، في أسماء الأصحاب — ابن عبد البر
(٣) أسد الغابة ، في معرفة الصحابة — ابن الأثير
(٤) السيرة النبوية — ابن هشام
(٥) الطبقات الكبرى — ابن سعد
(٦) البداية والنهاية — ابن كثير
(٧) حلية الأولياء — أبو نعيم الأصبهاني

أُولَئِكَ الَّذِينَ
هَدَاهُمُ اللّٰهُ
وَأُولَئِكَ هُمْ
أُولُوا الأَلْبَابِ

صَدَقَ اللّٰهُ العَظِيمُ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ما كان حديثًا يُفترَى ، ولا فُتونًا يتردّد ، ذلك الحديث الذي رَوى به التاريخ أنباء أعظم ثُلّةٍ ظهرت في دنيا العقيدة والإيمان . . ! !

ذلك أن التاريخ الإنساني بطُوله وبعَرضه ، لم يشهد من التوثيق والصدق وتحرِّي الحقيقة ما شهدته تلك الحقبة من تاريخ الإسلام ورجاله السابقين ، حيث توفر على دراستها وتتبُّع أنبائها جُهدٌ بَشري خارق ، نهضت به أجيال مُتساوقة من علماءَ أفذاذٍ لم يدَعوا من ذلك العصر الأول للإسلام همسة ، ولا خلجة إلا وضعوها تحت مجَاهر الفحص وأضواء الدراسة والنقد .

* * *

فالعظمة الباهرة التي نراها على صفحات هذا الكِتاب لأولئك الرجال الشاهقين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ليست أساطير ، وإن بدت من فَرط إعجازها كالأساطير ! ! !

إنها حقائق تُشكل كل ما كان لأصحاب الرسول من شخصية وحياة . . وإنها لتسمو وتتألق ، لا بقدر ما يريد لها الكُتّاب والواصفون . بل بقدر ما أراد لها أصحابها وذَووها ، وبقدر ما بَذلُوا في سبيل التفوُّق والكمال من جهد خارق مبرور.

وهذا الكتاب لا يزعم لنفسه القدرة على تقديم هذه العظمة كاملة للقراء.. إذْ حسبُه أن يُومي إلى سِماتِها ، ويتطلع إلى سمائها.

أَلا إن التاريخ لم يشهد رجالا عقدوا عزمهم ونواياهم على غاية تناهَت في العدالة والسمو ، ثم نذروا لها حياتهم على نَسق تناهى في الجسارة والتضحية والبذل - كما شهد في أولئك الرجال حول الرسول.. ! !

* * *

لقد جاءوا الحياة في أوانهم المرتقب ، ويومهم الموعود..

فحين كانت الحياة تهيب بمن يجدد لِقِيَمِها الروحية شبابها وصوابها ، جاء هؤلاء مع رسولهم الكريم مبشرين وناسكين..

وحين كانت تهيب بمن يضع عن البشرية الرازحة أغلالها ، ويُحرّر وجودها ومصيرها ، جاء هؤلاء وراء رسولهم العظيم ثوارًا ومُحرِّرين..

وحين كانت تهيب بمن يستشرف للحضارة الإنسانية مطالع جديدة ورشيدة ، جاء هؤلاء رُوَّادًا ومُسْتَشرِفين..

* * *

كيف أنجز أولئك الأبرار كل هذا الذي أنجزوه في بضع سنين..؟!

كيف دَمْدَمُوا على العالم القديم بامبراطورياته وصولجانه وحوَّلوه إلى كَثيب مَهيل..؟؟

كيف شادوا بقرآن الله وكلماته عالما جديدًا يهتزُّ نَضْرَة.. ويتألق عظَمة.. ويتفوّق اقتدارًا..؟؟

وقبل هذا كله ، وفوق هذا كله . . كيف استطاعوا في مثل سرعة الضوء أن يضيئوا الضمير الإنساني بحقيقة التوحيد ويَكْنُسوا منه إلى الأبد وثَنِيَّة القُرون . . ؟ !

تلك هي معجزتهم الحقَّة . .

وأيضًا ، فإن معجزتهم الحقة تتمثل في تلك القدرة النفسية الهائلة التي صاغوا بها فضائلهم واعتصموا بإيمانهم على نحو يَجِلُّ عن النظير . . ! !

على أن كل معجزاتهم التي حققوها ، لم تكن سوى انعكاسٍ مُتواضع للمعجزة الكبرى التي أهَلَّت على الدنيا يوم أذِن الله لقرآنه الكريم أن يتنزَّل ، ولرسوله الأمين أن يُبلِّغ ، ولموكب الإسلام أن يبدأ على طريق النـــور خُطاه . . ! !

* * *

وفي هذا الكتاب ، الذي ظهر من قبلُ في خمسة أجزاء متفرقة ، ويظهر الآن في هذه الطبعة الموحَّدة المتكاملة – نُقدم « ستِّين » شخصية من أصحاب الرسول عليه وعليهم أفضل الصلاة وأبْهى السلام .

وكما ذكرنا في خاتمة الكتاب ، فإن هؤلاء « السِّتين » ينوبون عن الألوف العديدة والمجيدة من إخوانهم الذين عاصروا الرسول وآمنوا به ونَصَروه . . ففي صورهم هذه نرى صُوَر جميع الأصحاب .

نرى إيمانهم ، وثباتهم ، وبطولتهم ، وولاءهم لله وللرسول . .

نرى البذل الذي بذلوا . . والهول الذي احتملوا . . والفوز الذي أحرزوا . .

ونرى الدور الجليل الذي نهضوا به لتحرير البشرية كلها من وثنية الضمير ،

وضياع المصير ..

ولن يجد القارئ بين هؤلاء « الستين » خلفاء الرسول الأربعة :

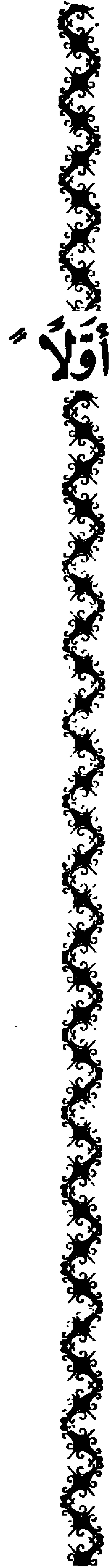
أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعليًا . . فقد وفقنا الله وأفردنا لكل منهم كتابًا . وقد ظهرت الكتب الأربعة – [وجاء أبو بكر . . بين يدي عمر . : في رحاب عَليّ . . وَدَاعًا عثمان . .]

* * *

والآن لِنقتربْ في خشوع وغبطة من أولئك الرجال الأبرار لنستقبل فيهم أروع نماذج البشرية الفاضلة وأبهاها . . ولنرى تحت الأسمال المتواضعة ، أسمى ما عرفت الدنيا من عظمة ورُشْد . . ولنشهد كتائب الحق وهي تطوي العالم القديم بأَيْمانِها ، زاحمة جوَّ السماء برايات الحقيقة الجديدة التي أعلنوا بها توحيد الربّ . . وتحرير الخَلْق . . .

خالد محمد خالد





النورُ الذي اتّبَعُوه

أيّ معلم كان.. وأي إنسان..؟؟

هذا المُتْرَعُ عظمة، وأمانة، وسموا..؟

ألا إن الذين بهرتهم عظمته لمعذورون..

وإن الذين افتدوه بأرواحهم لهم الرابحون..!

ابن عبد الله محمد.. رسول الله إلى الناس في قَيْظ الحياة..

أي سر توفَّرَ له فجعل منه إنسانًا يشرف بني الإنسان..؟

وبأية يد طُولَى، بسطها شطر السماء، فإذا كل أبواب رحمتها، ونعمتها وهُداها مفتوحة على الرحاب..؟!!

أي إيمان. وأي عزم، وأي مضاء..؟!

أي صدق، وأي طهر، وأي نقاء..!!

أي تواضع.. أي حب.. أي وفاء؟!

أي تقديس للحق..

أي احترام للحياة، وللأحياء..؟!

لقد آتاه الله من أنْعُمِه بالقدر الذي يجعله أهلا لحمل رايته والتحدث باسمه بل ويجعله أهلاً لأن يكون خاتم رسله..

ومِن ثَمَّ، كان فضل الله عليه عظيما..

ومهما تتبارَ القرائح والإلهام والأقلام – متحدثة عنه ، عازفة أناشيد عظمته ، فستظل جميعًا كأن لم تبرح مكانها ، ولم تحرك بالقول لسانها . . .

* * *

وإذا كانت صفحات الصدارة من هذا الكتاب ، تريد أن تستهل الكتاب بحديث عن الرسول عليه صلاة الله وسلامه ، فهي لا تطمع في أن توفي الحديث بعض حقه . . . ولا تزعم أنها تقدم الرسول العظيم إلى القراء .

إنما هي – لا غير – « بَنان » تومئ على استحياء إلى بعض سمات تفوقه وعظمته ، التي جعلت أفئدة الناس تهوي إليه ، والتي جذبت نحوه في ولاء لا نظير له هؤلاء الذين يتحدث الكتاب عن بعضهم من مهاجرين وأنصار ، والتي لم تكد الحياة تَنْشَقُ عبيرها ، حتى جعلت من كل رياحها وأنسامها بُشْرًا بين يديها ، ورُسُلا إلى كل بقاع الإنسان ومواطنه ، حاملة مبادئ الدعوة ، وعبير الداعي . . . صدقَ التعاليم ، وعظمة المعلم . . . نورَ الرسالة ، ورحمة الرسول . .

أجل . . تلك هي الغاية ، لا أكثر

أن نبصر في ضوء شعاع من ضيائه الغامر بعض سمات عظمته النادرة التي نادت إليه ولاء المؤمنين ، وجعلتهم يرون فيه الهدف والطريق . . . والمعلم والصديق . . .

* ما الذي جعل سادة قومه يسارعون إلى كلماته ودينه . . « أبو بكر » ، و« طلحة » ، و« الزبير » ، و« عثمان بن عفان » ، و« عبد الرحمن بن عوف » ، و« سعد بن أبي وقاص » . . . مُتَخَلِّين بهذه المسارعة المؤمنة

عن كل ما كان يحيطهم به قومهم من مجد وجاه ، مستقبلين – في نفس الوقت – حياة تمورُ مَوْرًا شديدًا بالأعباء ، وبالصعاب ، وبالصراع .؟!

* ما الذي جعل ضعفاء قومه يلوذون بحماه ، ويهرعون إلى رايته ودعوته وهم يبصرونه أعزل من المال .. ومن السلاح ... ينزل به الأذى ويطارده الشرُّ في تَحَدٍّ رهيب ، دون أن يملك عليه الصلاة والسلام له دفعًا ..؟!

* ما الذي جعل جبَّار الجاهلية – عمر بن الخطاب – وقد ذهب ليقطف رأسه العظيم بسيفه ، يعود ليقطِفَ بنفس السيف الذي زاده الإيمان مضاء ، رؤوس أعدائه ومضطهديه ..؟!

* ما الذي جعل صفوة رجال المدينة ووجهاءها يغدون إليه ليبايعوه على أن يخوضوا معه البحر والهول ، وهم يعلمون أن المعركة بينهم وبين قريش ستكون أكبر من الهول ..؟!

* ما الذي جعل المؤمنين به يزيدون ولا ينقصون ، وهو الذي يهتف فيهم صباح مساء : [لا أملك لكم نفعًا ، ولا ضرًا ... ولا أدري ما يُفعل بي ولا بكم]؟؟

* ما الذي جعلهم يصدِّقون أن الدنيا ستفتح عليهم أقطارها ، وأن أقدامهم ستخوض خوضًا في ذهب العالم وتيجانه .. وأن هذا القرآن الذي يتلونه في استخفاء ، سترده الآفاق عالي الصدح قوي الرنين ، لا في جيلهم فحسب .. ولا في جزيرتهم فحسب .. بل عَبْرَ جميع الزمان ، وجميع المكان ..؟!

ما الذي جعلهم يصدِّقون هذه النبوءة يحدثهم بها رسولهم ، وهم الذين يتلفتون فلا يجدون أمامهم وخلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ،

سوى القيظ ، والسَّغَب ، وحجارة تلفظ فَيْح الحميم ، وشجيرات يابسة ، طَلْعُها كأنه رؤوس الشياطين..؟!!

* ما الذي ملأ قلوبهم يقينًا وعزمًا..؟

إنه ابن عبد الله...

و من لكل هذا سواه..؟!

لقد رأوا رَأْيَ العين كل فضائله ومزاياه

رأوا طهره ، وعفته ، وأمانته ، واستقامته ، وشجاعته..

رأوا سموه ، وحنانه..

رأوا عقله ، وبيانه..

رأوا الشمس تتألق تألق صدقه وعظمة نفسه...

سمعوا نُمُوَّ الحياة يسري في أوصال الحياة ، عندما بدأ محمد يفيض عليها من وحي يومه ، وتأملات أمْسِه..!!

رأوا كل هذا ، وأضعاف هذا - لا من وراء قناع.. بل مواجهة وتمرسًا ، وبصرًا وبصيرة...

وحين يرى عربيٌّ تلك العصور شيئًا ويفحصه ، فلا ينبيئك آنئذ مثلُ خبير...

فهم أهل « القيافة والعيافة ».. يرى أحدهم وقع الأقدام على الطريق ، فيقول لك : هذه قدم فلان بن فلان..!

ويَشَمُّ أنفاس محدثه ، فيدرك ما تحت جوانحه من صدق وبهتان..!

هؤلاء ، رأوا « محمدًا » وعاصروه منذ أهَلَّ على الوجود وليدًا .

لم تَخْفَ عليهم من حياته خافية . .

حتى طور الطفولة ، ذلك الذي لا يلحظه إلا أهل الطفل وذووه . .

كان بالنسبة لمحمد مرئيًا مشاهدًا لأهل مكة جميعًا . .

ذلك أن طفولته لم تكن كبقية الطفولات . . . ولقد لفتت أنظار الناس إليها بقدر ما انطوت عليه من رجولة مبكرة ومُبادِرة . . وبقدر ما عَزَفت عن لهو الأطفال إلى جِدِّ الرجال . . ! !

فعلى سبيل المثال . . كانت قريش تتحدث عن حفيد عبد المطلب الذي ينأى عن ملاعب الأطفال ، وأسمارهم ، ويقول كلما دعي إليها : [أنا لم أُخلق لهذا] . . ! !

وكانت تتحدث عما أنبأتهم به وأذاعته بينهم مرضعته حليمة ، حين عادت به إلى أهله ، حاكية لهم من ملحوظاتها ومشاهداتها وتجربتها مع الطفل ما أقنعها بأنه طفل غير عادي ، وأنه ينطوي على سر يعلمه الله ، وقد تكشفه الأيام . .

وأما شبابه – يا لَطُهْرِ شبابه – فقد كان أكثر وضوحا وإسفارا . . وكان حديث قومه عنه وشغلهم به ، أكثر دأبا وإكبارا . .

وأما رجولته فقد كانت ملء كل عين ، وأُذُن ، وقلب .

وكانت فوق هذا ، ضمير مجتمعه وقومه ، يقيسون بسلوكها وتصرفاتها كل رؤاهم عن الحق ، والخير ، والجمال . . ! !

* * *

هي إذن حياة واضحة مقروءة.

من المهد إلى الممات.

كل رُؤاه.. كل خُطاه.. كل كلماته.. كل حركاته.. بل كل أحلامه، وأمانيه، وخاطرات نفسه، كانت من أول يوم أهَلَّ فيه على الدنيا حقًّا للناس جميعًا.

لكأن الله تعالى أراد هذا، ليقول للناس: هذا رسولي إليكم، وسيلته المنطق والعقل.. وهذه حياته كلها مذ كان جنينًا..

فبكل ما معكم من منطق وعقل، افحصوها.. وحاكموها..

هل ترون فيها شبهة..؟ هل تبصرون زيفًا..؟

هل كَذب مرة.. هل خان مرة..؟ هل هبط مرة..؟ هل ظلم إنسانًا.؟ هل كشف عورة..؟ هل خَفَرَ ذمة..؟

هل قطع رحمًا..؟ هل أهمل تبعة..؟ هل تخلى عن مروءة..؟

هل شتم أحدًا..؟ هل استقبل صنما..؟

ابحثوا جيدًا، وافحصوا تمامًا، فليس على طَوْرٍ من أطوار حياته سِتر ولا حجاب.

فإذا كانت حياته كما ترون وكما تبصرون نَقاء، وصدقًا، وعظمة...

أفيسيغ المنطق والعقل أن يعرف الكذبَ بعد سن الأربعين رجل هذه حياته.!

وعلى من يكذب..؟ على الله.. فيزعم أنه رسوله، اختاره واصطفاه وأوحى إليه..؟؟!!

لا . .

الحس والبداهة . يقولانها . .

والمنطق والعقل . يقولانها . .

فبأيِّ أسلوب تفكرون . . ؟ وبأي حق تكذبون . . ؟

* * *

هذا — فيما نحسب — كان مُنطلَق المؤمنين الأوائل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم — المهاجرين منهم . . والذين آوَوْا ونَصَروا . .

ولقد كان منطلقًا حاسمًا وسريعًا . ليس للتردد ولا للتلكؤ معه سبيل .

فإنسان له كل هذه الحياة المضيئة الطاهرة ، لا يمكن أن يكذب على الله . .

بهذه البصيرة النافذة . رأى أولئك المؤمنين نور الله فاتبعوه . .

* ولسوف يحمدون بصيرتهم هذه عندما يرون فيما بعد رسول الله ينصره ربه . وتدين له الجزيرة كلها . ويفتح عليهم من أبواب الرزق والغنائم ما لم يكونوا يحتسبون . . فإذا هو هو ، لا يزداد إلا زهدًا ، وتقشفًا ، وورعًا ، حتى يلقى ربه حين يلقاه ، وهو نائم فوق حصير تترك أعواده في الجسد انطباعاتها الضاغطة . . ! !

* وحين يرونه ، وهو الرسول الذي تملأ راياته الأفق عزيزة ظافرة ، يصعد المنبر ، ويستقبل الناس باكيًا وهو يقول :

[من كنتُ جلدتُ له ظهرًا ، فهذا ظهري فَلْيَقْتَدْ منه . . ومن كنتُ

أخذتُ له مالاً ، فهذا مالي فليأخُذْ منهُ] . .

* وحين يرونه ، وعمه العباس يسأله أن يوليه عملا من تلك الأعمال التي ظفر بها كثير من المسلمين العاديين ، فيصرفه في رفق قائلا له :

[إنّا – والله يا عَمِّ – لا نُوَلي هذا الأمر أحدًا يسأله . أو أحدًا يحرص عليه] . . ! !

* وحين يرونه لا يشارك الناس ما ينزل بهم من خَصاصة فحسب . بل يضع لنفسه ولأهل بيته مبدأ لا يحيدون عنه ، هو : [أن يكونوا أول من يجوع إذا جاع الناس ، وآخر من يشبع إذا شبع الناس] . . ! !

أجل ، سيزداد المؤمنون الأوائل حمدًا لبصيرتهم التي أحسنت رؤية الأمور في إقبالها ، بعد أن يزدادوا حمدًا وشكرًا لله الذي هداهم للإيمان .

* وسيرون أن الحياة التي كانت خير برهان على صدق صاحبها حين قال لهم : [إني رسول الله إليكم] كانت عظيمة حقًا . وكانت بعظمتها وطهرها خير برهان على صدق المعلم العظيم والرسول الكريم . فإن مستواها من العظمة والتفوق لم يهبط لحظة ولم يتعثر . بل ظل كما هو من المهد إلى الممات .

وعَبْر هذه الحياة و بعد بلوغها قمتها . تبين كضوء النهار أن صاحب هذه الحياة وهذه الرسالة ، لم يكن يسعى إلى جاه . ولا مال . ولا سيادة . فحين جاءته كل هذه معقودة بألويته الظافرة رفضها جميعًا . . وعاش حياته حتى اللحظة الأخيرة ، الأوّاب المتبتل .

لم تتخلف نفسه عن أغراض حياته العظمى قيد شعرة . .

ولم يخلف موعده مع الله في عبادة ولا في جهاد..

* فلا يكاد النصف الأخير من الليل يبدأ حتى ينهض قائمًا ، فيتوضأ ويظل كما اعتاد أبدًا يناجي ربه ويبكي.. ويصلي ويبكي..

* تراكمت الأموال بين يديه تلالا ، فلم يتغير ، ولم يأخذ منها إلا مثلما يأخذ أقل المسلمين شأنًا وأكثرهم فقرًا.. ثم مات ودرعه مرهونة..!!

* دانت البلاد كلها لدعوته ، ووقف أكثر ملوك الأرض أمام رسائله التي دعاهم بها إلى الإسلام وَجِلِين ضارعين.. فما استطاعت ذَرَّة من زَهْو وكبر ، أن تمر به ولو على بعد فراسخ..!

وحين رأى بعض القادمين عليه يهابونه في اضطراب ووَجَل قال لهم :

[هَوِّنوا عليكم ، إن أمي كَانَتْ تَأْكلُ القَدِيدَ بمكَّة]..!!

* ألقى كل أعداء دينه السلاح ، ومدوا إليه أعناقهم ليحكم فيها بما يرى ، بينما عشرة آلاف سيف تتوهج يوم الفتح فوق رُبَى مكة في أيدي المسلمين فلم يزد على أن قال لهم :

[اذهبوا ، فأنتم الطُّلَقاء]..!!

* حتى حقه في رؤية النصر الذي أفنى في سبيله حياته ، حرم نفسه منه ، فقد سار في موكب نصره يوم الفتح ، حانيًا رأسه حتى تعذر على الناس رؤية وجهه ، مرددًا بينه وبين نفسه ابتهالات الشكر المُبَلَّلة بدمعه.. رافعًا إياها في حياء ، إلى ربه العلي الكبير.. حتى وصل الكعبة ، وواجه الأصنام في زحامها ، فأعمل فيها مِعوله وهو يقول :

[جَاء الحقُّ وزَهَقَ الباطِلُ إنَّ الباطِلَ كَان زَهُوقًا]..!!

أَبَقِيَ ثمة ريب في رسالته . . ؟

إنسان ينذر حياته لدعوة ، ليس له فيها أي مغنم شخصي من ثراء ، أو منصب ، أو جاه ، أو نفوذ . . حتى الخلود التاريخي لشخصه لم يكن في حسابه ، لأنه لا يؤمن إلا بخلود عند الله . .

إنسان يقضي حياته من الطفولة إلى الأربعين في طهر وتأمل . . ثم يقضيها من الأربعين إلى منتهاها في عبادة وهداية وجهاد ونضال ، وتفتح له الدنيا ، فيركل كل أمجادها الباطلة ، ويظل لائذًا بمسلكه وعبادته ورسالته ، ثم يكون كاذبًا . . ؟ ؟

وفيم إذن كَذِبه . . ؟ ؟

ألا تَنَزَّهَ فيه الإنسان . . وتنزه فيه الرسول . . ! !

* * *

قلنا إن المنطق والعقل كانا – كما لا يزالان حتى اليوم – خير برهان على صدق محمد حين قال : إني رسول الله .

فليس يسيغ المنطق الرشيد ولا العقل السديد ، أن يكذب على الله إنسان هذه حياته من البدء إلى الختام . .

فالمؤمنون الأوائل الذين سارعوا إليه ، والذين يشرفنا أن نتعرف على صفحات هذا الكتاب إلى طرف من أبنائهم ، كان معهم – إذن – بعد هداية الله لهم ، برهان من المنطق والعقل أي برهان .

ها هو ذا محمد ، قبل رسالته . .

وها هو ذا ، بعد رسالته . .

ها هو ذا ، والمهد يستقبله . .

ثم ها هو ذا . وفراش الموت يُدَثِّره . .

هل ترى العين في طول حياته وعرضها من تَفاوُت . . ؟

أبدًا . .

والآن . لنقف قليلا على مقربة من السِّنيِّ الأولى لرسالته . .

* فتلك سنوات قَلّما نجد لها في تاريخ الثبات والصدق والعظمة نظيرًا . . ! !

* وتلك سنوات كشفت أكثر من سواها عن كل مزايا معلم البشرية وهاديها . . ! !

* وتلك سنوات . كانت فاتحة الكتاب الحي . . كتاب حياته وبطولاته . . بل كانت قبل سواها وأكثر من سواها مَهْدَ معجزاته . . ! !

هناك عبر تلك السنوات . ورسولُ الله وحيد أعزل ، قد غادر كل ما كان فيه من راحة وأمن واستقرار . . وخرج على الناس بما لا يألفون ، بل قولوا بما يكرهون . .

لقد خرج عليهم يوجه كلماته إلى عقولهم . . وما أشقَّ مهمة مَن يوجه خطابه إلى عقول الجماهير بدلا من عواطفها . .

ومحمد رسول الله . لم يفعل هذا فحسب . . فقد تهون عقبى توجيه الخطاب إلى العقول إذا كنت تقف مع الناس داخل دائرة العرف المشترك والأمل المشترك .

أما حين تناديهم من مستقبل بعيد ، تبصره ولا يبصرونه . . وتعيش فيه ولا يدركونه . .

أجل . . حين تخاطب عقولهم وتنهض لتهدم أسس حياتهم من قواعدها مخلصًا أمينًا ، لا يحفزك غرض ، ولا مجد ، ولا هوى ، فهنا المخاطرة التي لا يقدر عليها إلا أولو العزم من الأبرار والمرسلين . . !

ولقد كان الرسول بطل هذا الموقف ، وأستاذه العظيم .

لقد كانت عبادة الأصنام ، هي العبادة . . وشعائرها ، هي الدين . .

ولم يلجأ الرسول للمناورة – أية مناورة – . .

إن وعورة الطريق ، وفَداحة العبئ ، كانا يشفعان له لو أنه استعمل ذكاءه النادر في تهيئة الأنفس قبل أن يفاجئها بكلمة التوحيد . .

كان في وُسْعِه . وكان من حقه ، أن يمهد لعزل المجتمع عن آلهته التي يتوارث عبادتها عَبْر مئات السنين . فيبدأ بحركة تطويق والْتِفاف ، بعيدة قدر المستطاع عن تلك المواجهة الصاعقة التي يعلم أنها ستحرك ضده من أول لحظة كل أحقاد قومه ، وستشحذ ضده من أول لحظة كل ما معهم من سلاح . .

ولكنه لم يفعل . . وهذه آية أنه رسول ، سمع صوت السماء داخل قلبه يقول له قم ، فقام . . وبَلِّغ ، فبلَّغ . . في غير مُداجاة وفي غير هروب . . . ! !

لقد واجههم من اللحظة الأولى بجوهر الرسالة ولُباب القضية :

« يا أيها الناس ، إني رسول الله إليكم ، لتعبدوه ، ولا تشركوا به شيئًا » .

« إن هذه الأصنام لغو باطل ، لا تملك لكم ضرًا ولا نفعًا » .

من اللحظة الأولى ، واجههم بهذه الكلمات المبينة ، المسفرة ، ومن اللحظة الأولى ، واجه المعركة القاسية التي سيكتب عليه أن يخوضها حتى يغادر الحياة . . . ! !

أوَ كان المؤمنون الأوائل في حاجة لحافز يدفعهم إلى مبايعة هذا الرسول . . . ! !

أي ضمير حي ، لا يحركه هذا المشهد الفذُّ الفريد . . . ؟

مَشهد رجل لم يعرفه الناس إلا كامل العقل ، كامل الخلق ، يقف وحيدًا ، يواجه قومه بدعوة تتصدع من هول وقعها الجبال . . وتخرج الكلمات من فؤاده وفَمه صادعة رائعة . كأنما احتشدت فيها كل قوى المستقبل ومشيئته وتصميمه . . كأنها قدَرٌ يذيع بيانه . . ! !

لكن ، ربما تكون هذه ومضة روح خيرة ، وبعد حين يعود محمد إلى نفسه ، يعبد ربه كما يشاء ، تاركا آلهة قومه في مثواها ، وتاركا دين قومه لسبيله . .

لو أن هذه الخاطرة حَوَّمت حول بعض الأذهان آنئذ ، فإن محمدًا عليه الصلاة والسلام سرعان ما يبددها . . . فقد أوضح للناس تمامًا أنه رسول عليه البلاغ . . . وأنه لا يملك أن يسكت ولا أن ينطوي على نفسه بما اهتدت إليه من حق ونور.

بل إن كل قوى العالم والطبيعة ، لن تقدر على إسكاته وصَدِّه ، لأن الله هو الذي ينطقه ، ويحركه ، ويقود خطاه . .

وجاء رد قريش سريعًا ، كاللهب تطوح به ريح عاتية . . ! !

وبدأت المُنَغِّصات تنهال على نفسٍ ، لم تألف طوال حياتها سوى الإجلال الذي ليس بعده إجلال . .

وبدأ الرسول الرجل يُلَقِّن أول دروسه في أستاذية خارقة . وتفانٍ عجيب . .

وكانت صورة المشهد تملأ الزمان والمكان . بل والتاريخ . .

وذوو الضمائر الحية في مكة يطربون ، ويعجبون ، ويقتربون . .

رأوا رجلا شاهقًا عَلِيًا . . .

لا يدرون : هل استطال رأسه إلى السماء فلامسها . . . أم اقتربت السماء من رأسه فَتَوَّجَتْه . . . ؟ !

رأوا تفانيًا ، وصمودًا ، وعظمة . .

وكان أنضر ما رأوا ، وأروع ما بَصُروا به ، ذلك اليوم الذي ذهب فيه أشراف قريش إلى أبي طالب قائلين له :

[يا أبا طالب . . إن لك سِنًّا وشرفًا ومنزلةً فينا ، وإنا قد اسْتَنْهَيْنَاكَ من ابن أخيك ، فلم تَنْهَه عنَّا . .

وإنا – واللهِ – لا نصبرُ على هذا مِنْ شَتْم آبائنا ، وتَسْفِيه أحلامنا ، وَعَيْبِ آلهتنا ، حتى تَكُفَّهُ عنَّا ، أو نُنَازِله وإياكَ في ذلك ، حتى يهلك أحدُ الفريقين] . .

ويبعث أبو طالب إلى ابن أخيه ويقول له :

[يا ابنَ أخي . .

إن قومَكَ قد جاءُوني ، وكلموني في أمْرِكَ ، فَأَبْقِ عَلَيَّ وَعَلَى

نفْسِكَ ، ولا تُحَمِّلْني من الأمْرِ مَا لا أطيقُ] . .

ماذا يكون موقف الرسول اليوم . . ؟

إن الرجل الوحيد الذي كان يقف إلى جانبه ، يبدو وكأنه سيتخلى عنه . .

أوْيبدو ، وكأنه غير مستعد ولا قادر على مواجهة قريش التي شحذت كل أنيابها . . .

لم يتردد الرسول عليه الصلاة والسلام في الجواب ، ولم يَتَلَعْثَمْ عزمه . .

لا . . ولم يبحث عن الكلمات التي يثبت بها يقينه . . .

لقد كان يقينه هناك ناهضًا فوق مِنَصَّةِ الأستاذية ، يلقي على البشرية كلها أبلغ الدروس ، ويلقنها أمضى مبادئها .

وهكذا تحدث ، فلا ندري . . أإنسان يتكلم . . ؟ أم الوجود كله يعزف نشيدًا . . ؟ !

[يا عَمِّ . .

واللهِ، لو وَضَعُوا الشمسَ في يَميني ، والقمرَ في يَسَاري ، على أنْ أتْرُكَ هذا الأمْرَ حتى يُظْهِرَهُ الله أو أهْلِكَ فيهِ ، ما تَرَكْتُه] . . ! !

السلام عليك أيها النبي ، ورحمة الله وبركاته . .

ويا سيد الرجال . . لقد كانت كلماتك رِجالا . . ! ! !

* * *

استردّ أبو طالب من فوره كل إقدامه وإقدام آبائه ، وشدّ بكلتا يديه على يمين ابن أخيه قائلا له :

[قُلْ ما أحْبَبْتَ ، فوالله لا أُسْلِمك لشيءٍ أبدًا] . .

لم يكن « محمد » إذن يستمدُّ من عمه رغم اقتداره ، الحماية والأمن ، بل إن « محمدًا » هو الذي كان يفيض على كل من حوله الحماية والأمن والثبات . . !

أي إنسان من الناس الشرفاء ، يبصر مشهدًا كهذا . ثم لا يطير قلبه صوب هذا الرسول حبًا وتفانيًا وإيمانًا . . ؟

* * *

إن ثباته على الحق وصموده مع الرسالة ، وصبره على الهول في سبيل الله ، لا في سبيل نفسه أو نفعه . . .

كل ذلك كان حَرِيًّا أن يبهر العقول الذكية . . . ويوقظ العقول الحية ، فتتبع النور الذي يناديها ، وتسارع إلى الأمين الصادق الذي جاء يطهرها ، ويهديها .

•

لقد رآه الناس والأذى ينوشه من كل جانب ، والعزاء الذي كان يجده في عمه « أبي طالب » ، وفي زوجه « خديجة » تولى عنه . فقد ماتا في أيام متقاربة . . .

ومَن أراد أن يتصور مبلغ الاضطهاد ومدى الحرب التي شنتها قريش على الرسول الأعزل ، فحسبه أن يعلم أن « أبا لهب » نفسه ، الذي كان ألدَّ خصومه وأعدائه ، ناء ضميره ذات يوم بما يرى ، فأعلن أنه يحمي الرسول ويُجيره ، ويقاوم كل عدوان ينزل به . . ! ! لكن الرسول رد عليه جواره ، ولبث شامخًا ، ناهضًا ، متفانيًا . .

لا أحدَ يدفع عنه الأذى ، لأنه لا أحد يجد القدرة على أن يدفع عنه الأذى . . . ! !

حتى أبو بكر العظيم ، لم يكن يملك إلا أن يبكي . .

ذهب الرسول يوما إلى الكعبة ، وإذ هو يطوف بها وثب إليه أشراف قريش المتربصون به ، وأحاطوا به يقولون : أنت الذي تقول في آلهتنا كذا وكذا . . . ؟

فيجيبهم في هدوء : نعم ، أنا أقول ذلك . . . ! !

فيأخذون بمجمع ثوبه وأبو بكر يتوسل إليهم وهو يبكي ويقول : « أتقتلون رجلا أن يقول رَبِّيَ الله » . . . ؟؟

* * *

ومَن رأى الرسول يوم الطائف ، رأى من آيات صدقه وتفانيه ما هو به جدير ، وله أهل . . .

لقد يمم وجهه شطر « ثقيف » يدعوهم إلى الله الواحد القهار . .

ألا يكفيه ما يلقاه من عشيرته وأهله . . ؟

وألا يُحذره ذلك من أضعاف أضعاف هذا الأذى ، حين يجيئه من قوم ليس بينه وبينهم رَحِمٌ ولا قربى . . ؟

لا . . إن العواقب لا تدخل في حسابه بحال . .

لقد قال له ربه الأعلى : [عليك البلاغ] . .

وإنه ليذكر يوم اشتدت عليه سفاهات قومه ، فعاد إلى بيته وتدثر آسفًا حزينًا بفراشه ، فإذا صوت السماء يقرع فؤاده ، وإذا الوحي يأتيه من فوره ،

ملقيًا عليه الأمر الذي ألقاه عليه من قبلُ يوم الغار. .

[يا أيها المُدَّثِّر ، قُمْ فَأَنْذِرْ] . .

هو إذن مبلِّغ ونذير. .

وهو إذن رسول لا يبالي بالأذى ، ولا يبحث عن الراحة ، فليذهب إلى الطائف ؛ ليبلغ أهله كلمة الله. .

وهناك أحاط به أشراف البلد ، وكانوا أشد لؤمًا من زملائهم في مكة ، فقد أغرَوْا به الأطفال والسفهاء ، وتخلوا حتى عن أقدس خصال العربي ، وهي إكرام الضيف وحماية المستجير. .

لقد أطلقوا سفهاءهم وغلمانهم وراء الرسول صلى الله عليه وسلم يقذفونه بالحجارة . .

هذا الذي عرضت عليه قريش أن تجمع له من المال ما يجعله أغناها .

ومن الجاه ما يجعله زعيمها ومَلِكَها ، فرفض قائلا : [إنما أنا عبد الله ورسوله] . .

ها هو ذا في الطائف ، وقد آوى إلى بستان يحتمي بحائطه من مطاردة السفهاء. . . يمناه مبسوطة إلى السماء يدعو بها ربه. . . ويسراه تدفع عن وجهه الحجارة المقذوفة ، وهو يناجي خالقه ومولاه قائلا :

[إن لم يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلَا أُبالي ، ولكنَّ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لي] . .

أجل ، إنه لرسول يعرف كيف يناجي ربه في أدب عظيم . . !

فهو إذ يعلن أنه لا يبالي بالأذى في سبيل الله ، يعلن كذلك أنه في أشد

الحاجة إلى العافية ، يمنحها الله . .

إنه في موقف كهذا ، لا يتبذَّخ باحتماله وشجاعته ، ولا يَزْهُو . فمثل هذا الزهو في هذا الموقف قد يحمل معنى المنّ على الله .

وليس « محمد » من يخفى عليه ذلك .

ومِن ثَمَّ ، فإن خير ما يعبر في مثل هذا الموقف عن شجاعته واحتماله ، هو صوت ضراعته وابتهاله . . . !

وهكذا مضى يقول معتذرا إلى ربه ومبتهلا :

[اللهمَّ إليكَ أشْكُو ضَعْفَ قوَّتي ، وَقلّةَ حِيلَتي ، وهَوَاني على الناس . .

« يا أرحمَ الرَّاحِمِين ، أنتَ ربُّ المُسْتَضعَفِين ، وأنت رَبِّي ، إلى مَنْ تَكِلُني ؟ . . إلى بعيد يَتَجَهَّمُني ؟ أم إلى عدو مَلّكْتَهُ أمري . . . ؟ ؟ إن لم يَكُنْ بكَ غضبٌ عليَّ فلا أُبالي ، ولكن عافِيَتَك هي أوسَعُ لي .

« أعوذ بنور وجهك الذي أشْرَقَتْ له الظُّلمات ، وصلَح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن يَنزِل بي غضبُك ، أو يَحِلَّ عَليَّ سَخَطك . . .

« لك العُتْبى حتى ترضى . . . ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا بِكَ » . . .

أيُّ ولاء هذا الذي يحمله الرسول لدعوته . . ؟

فرد أعزل . . تواجهه المكائد أينما ولّى وسار . . .

ليس هناك من أسباب الحياة الدنيا ما يشد أزره ، ثم هو يحمل كل

هذا الإصرار ، وكل ذلك الصمود والولاء . . ؟

لقد رآه الناس يعود من الطائف إلى مكة لا يائسًا ، ولا مهزومًا ، بل أكثر ما يكون أملا وبشرًا وتفانيًا . .

وإنه ليعرض نفسه على القبائل ، ذاهبا إليها في أحيائها ومَواطنها :

فيوما عند قبيلة « كِندة » . .

ويوما عند « بني حنيفة » . .

ويوما عند « بني عامر » . .

وهكذا ، قبيلة بعد قبيلة . . .

يقول لهؤلاء جميعا :

[إني رسولُ الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا ، وأن تَخْلعوا ما تَعْبُدون من دونه من هذه الأوثان] . . .

وعند منازل القبائل القريبة ، كان « أبو لهب » يتبعه قائلا للناس : لا تصدقوه ، إنما يدعوكم إلى الضلال . . . ! !

ولقد رأى الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في موقف العُسْرة هذا ، يلتمس المؤمنين والنصراء ، فيلقاه الجحود والعداوة .

رأوه آنذاك يرفض كل مساومة ، ويرفض أن يكون للإيمان ثمن مِن دنيا . . حتى لو يكون هذا الثمن مجرد وعد منه بجاه أو سلطان .

ففي تلك الأيام اللافحة ، عرض نفسه على قبيلة « بني عامر بن صعصعة » ، وجلس يحدثهم عن الله ويتلو عليهم كلماته ، فسألوه :

[أرأيتَ إن نَحْنُ بَايَعْنَاكَ على أمرك ، ثمَّ أظْهَرَكَ الله على مَنْ خالَفَكَ ، أيَكُونُ لنا الأمْرُ مِنْ بَعْدِكَ]؟؟

فأجابهم عليه الصلاة والسلام قائلا :

[الأمرُ للهِ يَضَعُه حيث يشاء]... ! !

عندئذ انفضوا قائلين : لا حاجة لنا بأمرك...

وتركهم الرسول صلى الله عليه وسلم باحثًا عن المؤمنين الذين لا يشترون بإيمانهم ثمنًا قليلا.. ! !

* * *

ولقد رآه الناس ، وقد آمنت به قِلّة.. ومع هذا ، ورغم قلة عددهم فقد كان يجد فيهم إيناسًا وصحبة..

بَيْدَ أنَّ قريشًا قررت أن تتولى كُلٌّ قبيلة تأديب المؤمنين منها.

وفجأة نزل العذاب كالعاصفة المجنونة بالمسلمين جميعا ، ولم يترك المشركون جريمة إلا اقترفوها.

وهنا تقع المفاجأة التي لم تكن في الحسبان.

إن محمدًا يأمر جميع المسلمين بالهجرة إلى الحبشة ، وسيبقى هو وحده يواجه العدوان..؟ ! !

لماذا لا يهاجر ، ويبلغ كلمة الله في مكان آخر ، فالله رب العالمين ، وليس رب قريش وحدها..؟؟

او ، لماذا لا يبقيهم إلى جواره ، فإن في بقائهم نفعًا مؤكدًا.

فوجودهم في مكة رغم قلتهم يغري غيرهم بالدخول في دين الله.

ثم إن من بينهم عددًا غير قليل من أعلى أُسَرِ قريش وأكثرها قوة وبأسًا..

فهناك مثلا من بني أمية – عثمان بن عفان، وعمرو بن سعيد بن العاص، وخالد بن سعيد بن العاص.

وهناك من بني أسد – الزبير بن العوام، والأسود بن نوفل، ويزيد بن زمعة، وعمرو بن أمية.

وهناك من بني زهرة – عبد الرحمن بن عوف، وعامر بن أبي وقاص، ومالك بن أهيب، والمطلب بن أزهر...

هناك هؤلاء وسواهم ممن لن تصبر عائلاتهم طويلا على اضطهادهم وإنزال الأذى بهم، فلماذا لا يبقيهم الرسول صلى الله عليه وسلم بجانبه؛ ليشدّوا أزْرَه وليكونوا مناط قوة ممكنة في يده..؟؟

هنا تُومِضُ عظمة محمد رسول الله.. فهولا يريد فتنة، ولا يريد حربا أهلية؛ ولوكان فيها احتمال نصره، بل اليقين من نصره..!!

وهنا تتجلى إنسانيته ورحمته، فهولا يطيق أن يرى الناس يعذَّبون بسببه، مع علمه وإيمانه بأن التضحية ضريبة كل جهاد نبيل ودعوة عظيمة، فلتبذل التضحية حين لا يكون ثَمَّةَ مفر من بذلها..

أما الآن، وهناك إلى تَوَقِّي العذاب سبيل، فليذهب المسلمون إلى هذا السبيل...

ولماذا لا يذهب هو معهم..؟؟

إنه لم يؤمر بعد بالرحيل ، إن مكانه هنا . . . في أرض الأصنام .

وسيظل يهتف باسم الله الأحد . . وسيظل يتلقى العذاب والأذى دونَ ما ضجر ولا جزع . . . ما دام هو الذي يُؤْذَى وليس أولئك الضعفاء الذين آمنوا به واتبعوه . .

بل ولا أولئك الأشراف الذين آمنوا به واتبعوه كذلك . . ! !

ومَن كان يعرف من صُوَرِ الثبات ، ونبل الفداء ، نظيرًا لهذا ؛ فليأتنا به . .

إنه سمو لا يقدر عليه إلا أولو العزم من المرسلين ، والمختارين . . ! !

* * *

إن الإنسان والرسول ، التقيا في « محمد » لقاء وثيقًا باهرًا .

والذين استرابوا في رسالته ، لم يستريبوا في عظمته ولا في صفاء جوهره ونقاء إنسانيته . .

وإن الله الذي يعلم أين يجعل رسالته ، قد اختارلها إنسانا ، يزكيه أقصى ما تطمع البشرية في إدراكه من رفعة ، وسمو ، وأمانة . . .

لقد سمعه الناس ورأوه يزجرهم عن كل مبالغة في تعظيم شخصه ، بل وعَمَّا هو دون المبالغة بكثير وكثير . .

إنه ليزجرهم عن مجرد القيام له حين يقدم عليهم وهم جلوس فيقول لهم :

[لا تَقُومُوا كما تَقُومُ الأعاجِمُ ، يُعَظِّم بعضهم بعضاً] . .

وتُلِمُّ ظاهرة الكسوف بالشمس يوم وفاة ولده الحبيب « إبراهيم » ، فيتحدث المسلمون بأنها كسفت حزنا على « إبراهيم » ، فيسارع الرسول الأمين

العظيم إلى تفنيد هذا الادعاء ودحضه ، قبل أن يتحول إلى أسطورة . . . ويقف في المسلمين خطيبًا ويقول :

[إن الشمسَ والقمرَ آيتانِ من آياتِ الله ، لا يَنْخَسِفَانِ لموت أحد ، ولا لحياته] . . . ! ! !

إنه الأمين على عقول الناس وتفكيرهم ، وقيامه بحق هذه الأمانة ، خير عنده وآثَرُ لديه من ملْءِ الأرض مجدًا وتمجيدًا .

ولقد كان عليه الصلاة والسلام يعلم علم اليقين أنه جاء الحياة الإنسانية ليغيرها . وأنه ليس رسولا إلى قريش وحدها . ولا إلى العرب وحدهم . . بل رسول الله إلى الناس كافة . .

وقد فتح الله – سبحانه – بصيرته على المدى البعيد الذي ستبلغه دعوته ، وتخفُق عنده رايته .

ورأى رأْيَ اليقين مستقبل الدين الذي بَشّر به ، والخلود الحي الذي سيكون له ، إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها . . . ورغم ذلك كله لم ير في نفسه ، ولا في دينه ، ولا في نجاحه الذي لن تشهد الأرض له مثيلا ، أكثر من « لَبِنَة » في البناء . . ! !

ووقف الإنسان العظيم يعلن هذا في أوضح بيان فيقول :

[مَثَلي وَمَثَلُ الأنبياء قبلي ، كمثل رَجُل بَنى بَيتًا فأحسنَهُ وأجْمَلَهُ إلّا مَوْضعَ لَبِنَة في زاوية من زواياهُ ؛ فجعل الناسُ يطوفونَ به ويعجبُونَ لَهُ ، ويقولون : هَلّا وُضِعَتْ هذِهِ اللَّبِنَةُ . . ؟ ؟

فأنا تلك اللّبِنَةُ ، وأنا خاتمُ النبيين] . . ! !

كل هذه الحياة التي عاشها . .

كل جهاده و بطولاته . .

كل عظمته وطهره . .

كل هذا الفوز الذي حققه دينه في حياته ، والفوز الذي كان يعلم أنه سيبلغه بعد مماته . . .

كل ذلك ، وليس إلا « لَبِنَة » . . !

لبنة واحدة في بناء شاهق عريق . . ! !

وهو الذي يعلن هذا ، ويقوله ، ويصر على توكيده . . . ! !

ثم هو لا ينتحل بهذا القول تواضعا ، يغذي به جوعًا إلى العظمة في نفسه.

بل هو يؤكد هذا الموقف ، باعتباره حقيقة ، تشكل مسئوليةُ تبليغها وإعلانها ، جزءًا من جوهر رسالته . . .

ذلك أن التواضع ، على الرغم من أنه خلق من أخلاق « محمد » الأصيلة لم يكن الدليلَ الذي يدل على عظمته ويشير إليها . . . فإن عظمة الرسول بلغت من التفوق والأصالة ما جعلها آية نفسها ، وبرهان ذاتها . . .

* * *

هذا هو مُعَلِّم البشر ، وخاتم الأنبياء .

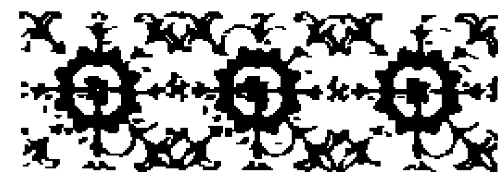
هذا هو النور الذي رآه الناس وهو يحيا بينهم بَشَرًا . . . ثم رآه العالم بعد رحيله عن الدنيا ، حقيقة وذِكرًا . . .

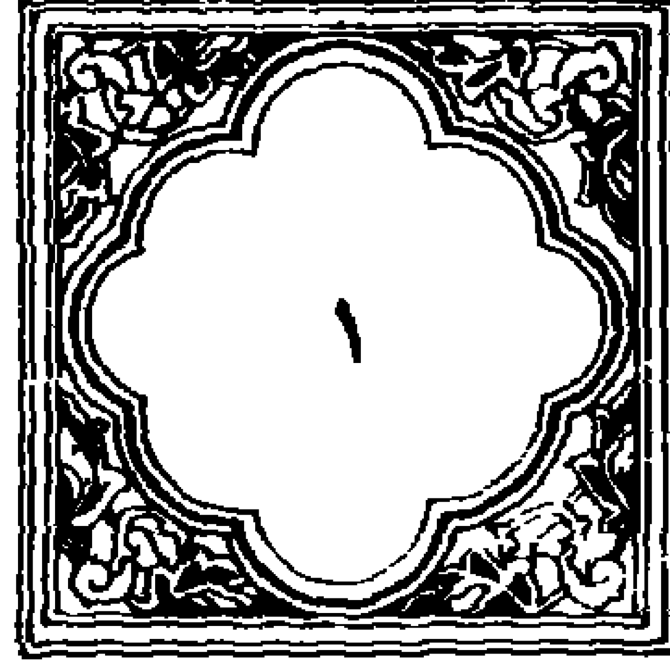
والآن . ونحن ذاهبون إلى لقاء نفر من أصحابه الكرام على صفحات

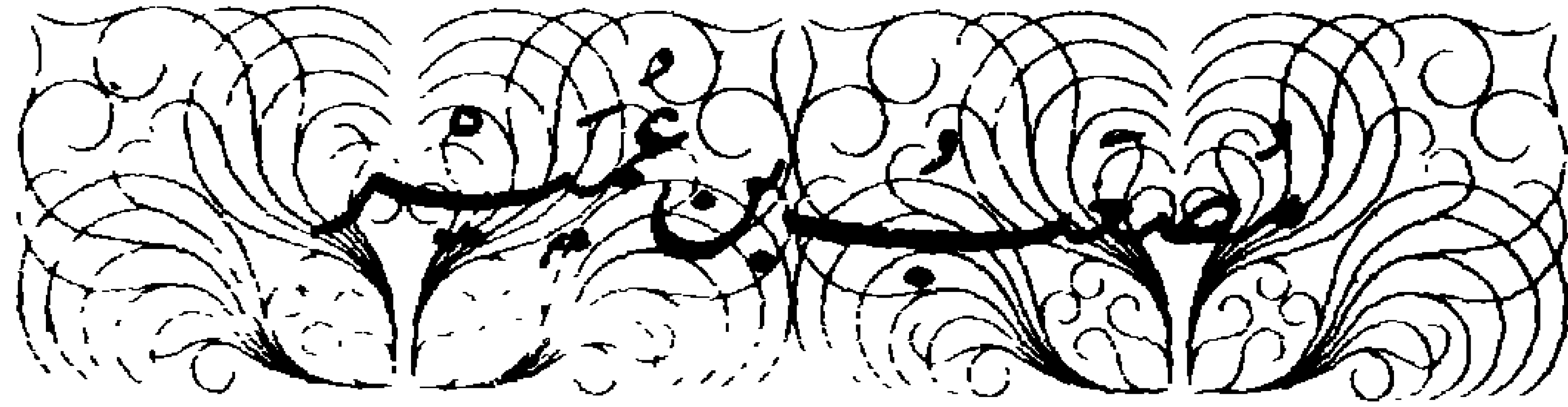
الكتاب المقبلة ، حيث يبهرنا من إيمانهم وتضحياتهم ، ومن عظمة الغَرض الذي أقاموه لحياتهم ، ما لا نكاد نعرف له نظيرًا . . ؛ فإن كل أسباب هذا الإعجاز ستكون واضحة أمامنا .

هذه الأسباب التي لم تكن شيئًا ، سوى النور الذي اتَّبعوه . . .

سوى محمد رسول الله ، الذي جمع الله له من رؤية الحق ، ورفعة النفس ، ما شَرُفَتْ به الحياة ، وأضاءت به مقادير الإنسان . . . ! !







أَوَّلُ سُفَرَاءِ الإِسلام -



هذا رجل من أصحاب محمد ، ما أجمل ان نبدا به الحديث .

غُرَّةُ فتيان قريش ، وأوفاهم بهاء ، وجمالا ، وشبابا . .

يصف المؤرخون والرواة شبابه ، فيقولون : « كان أعطرَ أهل مكة » . . .

وُلد في النعمة ، وغُذِّي بها ، وشبَّ تحت خمائلها . .

ولعله لم يكن بين فتيان مكة من ظفر من تدليل أبويه بمثل ما ظفر به « مصعب بن عمير » . .

ذلك الفتى الرَّيان ، المدلل المنعَّم ، حديث حِسَان مكة ، ولؤلؤة ندواتها ومجالسها ، أيمكن أن يتحول إلى أُسْطورة من أساطير الإيمان والفداء . . . ؟ ؟

بالله ما أروعه من نبأ . . نبأ « مصعب بن عمير » ، أو « مصعب الخير » كما كان لقبه بين المسلمين . . ! !

إنه واحد من أولئك الذي صاغهم الإسلام وربّاهم « محمد » عليه الصلاة والسلام . . .

ولكن أيّ واحد كان . . . ؟

إن قصة حياته لَشرفٌ لبني الإنسان جميعا . . .

لقد سمع الفتى ذات يوم ، ما بدأ أهل مكة يسمعونه عن محمد الأمين . . .

« محمد » الذي يقول إن الله أرسله بشيرا ونذيرا ، وداعيًا إلى عبادة الله

الواحد الأحد.

وحين كانت مكة تمسي وتُصْبِح ولا هَمَّ لها ، ولا حديث يَشغلها إلا الرسول عليه الصلاة والسلام ودينه ، كان فتى قريش المدَلّل أكثر الناس استماعا لهذا الحديث.

ذلك أنه كان على الرغم من حداثة سنه ، زينة المجالس والندوات ، تحرص كل ندوة على أن يكون « مُصعب » بين شهودها . ذلك أن أناقة المظهر ورجاحة العقل كانتا من خصال « ابن عمير » التي تفتح له القلوب والأبواب . .

ولقد سمع فيما سمع أن الرسول ومن آمن معه ، يجتمعون بعيدًا عن فضول قريش وأذاها . . . هناك على الصَّفا في دار « الأرقم بن أبي الأرقم » فلم يطل به التردد ، ولا التلبث والانتظار ، بل صحب نفسه ذات مساء إلى « دار الأرقم » تسبقه أشواقه ورُؤاه . . .

هناك كان الرسول يلتقي بأصحابه فيتلو عليهم من القرآن ، ويصلي معهم لله العلي الكبير.

ولم يكد « مصعب » يأخذ مكانه ، وتنساب الآيات من قلب الرسول متألقة على شفتيه ، ثم آخذةً طريقها إلى الأسماع والأفئدة ، حتى كان فؤاد « ابن عمير » في تلك الأمسية هو الفؤاد الموعود . . ! !

ولقد كادت الغبطة تخلعه من مكانه ، وكأنه من الفرحة الغامرة يطير.

ولكن الرسول بسط يمينه المباركة الحانية حتى لامست الصدر المتوهج ، والفؤاد المتوثب ، فكانت السكينة العميقة عُمق المحيط . . . وفي لمح البصر كان الفتى الذي آمن وأسلم يبدو ومعه من الحكمة ما يفوق ضِعف سنه وعمره ، ومعه من التصميم ما يُغَيِّر سير الزمان . . . ! ! !

* * *

كانت أم مصعب « خُنَاس بنت مالك » تتمتع بقوة فذة في شخصيتها ، وكانت تُهاب إلى حد الرهبة . .

ولم يكن « مصعب » حين أسلم لِيحاذر أو يخاف على ظهر الأرض قوة سوى أمه .

فلو أن مكة بكل أصنامها وأشرافها وصحرائها ، استحالت هَوْلاً يُقارعه ويصارعه ، لاستخفَّ به « مصعب » إلى حين . .

أما خصومة أمه ، فهذا هو الهول الذي لا يطاق . . !

ولقد فكر سريعا ، وقرر أن يكتم إسلامه حتى يقضي الله أمرًا .

وظل يتردد على دار الأرقم ، ويجلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو قرير العين بإيمانه ، وبتفاديه غضب أمه التي لا تعلم عن إسلامه خُبْرًا . .

ولكن مكة ، وفي تلك الأيام بالذات ، لا يخفى فيها سر ، فعيون قريش وآذانها على كل طريق ، ووراء كل بَصمة قَدم فوق رمالها الناعمة اللاهبة ، الواشية . . .

ولقد أبصر به « عثمان بن طلحة » وهو يدخل خفية إلى دار الأرقم . . . ثم رآه مرة أخرى وهو يصلي كصلاة محمد ، فسابق ريح الصحراء وزوابعها ، شاخصا إلى أم مصعب ، حيث ألقى عليها النبأ الذي طار بصوابها . . .

ووقف « مصعب » أمام أمه ، وعشيرته ، وأشراف مكة المتجمعين حوله يتلو عليهم في يقين الحق وثباته ، القرآن الذي يغسل به الرسول قلوبهم ، ويملؤها به حكمة وشرفا ، وعدلا وتُقى .

وهمت أمه أن تُسْكته بلطمة قاسية ، ولكن اليد التي امتدت كالسَّهم ، ما لبثت أن استرخت وترنحت أمام النور الذي زاد وسامة وجهه وبهاءه جلالا يفرض الاحترام ، وهدوءًا يفرض الإقناع . . .

ولكن ، إذا كانت أمه تحت ضغط أمومتها ستعفيه من الضرب والأذى ، فإن في مقدرتها أن تثأر للآلهة التي هجرها بأسلوب آخر . .

وهكذا مضت به إلى ركن قصي من أركان دارها ، وحبسته فيه ، وأحكمت عليه إغلاقه ، وظل رهين محبسه ذاك ، حتى خرج بعض المؤمنين مهاجرين إلى أرض الحبشة ، فاحتال لنفسه حين سمع النبأ ، وغافل أمه وحراسه ، ومضى إلى الحبشة مهاجرا أوّابا . .

ولسوف يمكث بالحبشة مع إخوانه المهاجرين ، ثم يعود معهم إلى مكة ، ثم يهاجر إلى الحبشة للمرة الثانية مع الأصحاب الذين يأمرهم الرسول بالهجرة فيطيعون .

ولكن ، سواء كان « مصعب » بالحبشة أم في مكة . فإن تجربة إيمانه تمارس تفوقها في كل مكان وفي كل زمان ، ولقد فرغ من إعادة صياغة حياته على النسق الجديد الذي أعطاهم محمد نموذجه المختار ، واطمأن « مصعب » إلى أن حياته قد صارت جديرة بأن تقدم قربانا لباريها الأعلى ، وخالقها العظيم . .

خرج يومًا على بعض المسلمين وهم جلوس حول رسول الله ، فما إن بصروا به حتى حنوا رؤوسهم وغضوا أبصارهم وذرفت بعض عيونهم دمعًا شجيًا . .

ذلك أنهم رأوه . . يرتدي جلبابًا مرقعًا باليًا ، وعاودتهم صورته الأولى قبل إسلامه ، حين كانت ثيابه كزهور الحديقة نضرة ، وَأَلَقًا ، وعطرًا . .

وتملّى رسول الله مشهده بنظرات حكيمة ، شاكرة ، مُحِبة ، وتألقت على شفتيه ابتسامته الجليلة ، وقال :

[لقد رأيت مُصعبًا هذا ، وما بمكة فتى أنْعَمُ عند أبويه منه ،

ثم ترك ذلك كله حبًّا لله ورسوله] . . ! !

لقد منعته أمه حين يئست من رِدَّته كل ما كانت تفيض عليه من نعمة . . وأبت أن يأكل طعامها إنسان هجر الآلهة وحاقت به لعنتها ، حتى لو يكون هذا الإنسان ابنها . . ! !

ولقد كان آخر عهدها به حين حاولت حبسه مرة أخرى بعد رجوعه من الحبشة . فآلى على نفسه لئن هي فعلت ليقتلن كل من تستعين به على حَبسه . .

وإنها لتعلم صدق عزمه إذا هَمَّ وعزم ، فودعته باكية ، وودعها باكيًا . .

وكشفت لحظة الوداع عن إصرار عجيب على الكفر من جانب الأم وإصرار أكبر على الإيمان من جانب الإبن . . فحين قالت له وهي تخرجه من بيتها : اذهب لشأنك ، لم أعد لك أما . . اقترب منها وقال :

[يا أُمَّه ، إني لكِ ناصح ، وعليك شَفوق ، فاشْهَدي أنه لا إله إلا الله ، وأن محمدًا عبده ورسوله] . .

أجابته غاضبة مهتاجة : « قسما بالثَّواقِب ، لا أدخل في دينك ، فَيُزْرَى برأيي ، ويضعف عقلي » . . ! !

وخرج مصعب من النعمة الوارفة التي كان يعيش فيها مؤثرا الشظف والفاقة . . وأصبح الفتى المتأنق المعطَّر ، لا يُرَى إلا مرتديا أخشن الثياب ، يأكل يوما ، ويجوع أياما ، ولكن روحه المتأنقة بسمو العقيدة ، والمتألقة بنور الله ، كانت قد جعلت منه إنسانا آخر يملأ الأعين جلالا ، والأنفس روعة . .

* *

وآنئذ ، اختاره الرسول لأعظم مهمة في حينها : أن يكون سفيره إلى المدينة ، يُفقِّه الأنصار الذين آمنوا وبايعوا الرسول عند العقبة ، ويُدخل غيرهم في دين الله ، ويُعِدُّ المدينة ليوم الهجرة العظيم . .

كان في أصحاب الرسول يومئذ من هم أكبر منه سنا وأكثر جاها ، وأقرب من الرسول قرابة . . ولكن الرسول اختار مصعب الخير ، وهو يعلم أنه يكل إليه بأخطر قضايا الساعة ، ويلقي بين يديه بمصير الإسلام في المدينة التي ستكون دار الهجرة ، ومنطلق الدعوة والدعاة ، والمبشرين والغزاة ، بعد حين من الزمان قريب . .

وحمل « مصعب » الأمانة مستعينًا بما أنعم الله عليه من عقل راجح وخلق كريم . . ولقد غزا أفئدة أهل المدينة بزهده وترفعه وإخلاصه ، فدخلوا في دين الله أفواجا . .

لقد جاءها يوم بعثه الرسول إليها وليس فيها سوى اثني عشر مسلمًا هم الذين بايعوا النبي من قبلُ بيعة العقبة ، ولكنه لم يكد يتم بينهم بضعة أشهر حتى استجابوا لله وللرسول . . ! !

وفي موسم الحج التالي لبيعة العقبة ، كان مسلمو المدينة يرسلون إلى مكة للقاء الرسول وفدًا يمثلهم وينوب عنهم . . وكان عدد أعضائه سبعين مؤمنًا ومؤمنة . . جاؤوا تحت قيادة معلمهم ومبعوث نبيهم إليهم « مصعب بن عمير » . .

لقد أثبت « مصعب » بكياسته وحسن بلائه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عرف كيف يختار . .

فلقد فهم « مصعب » رسالته تمامًا ووقف عند حدودها . . عرف أنه داعية إلى الله ، ومبشر بدينه الذي يدعو الناس إلى الهدى ، وإلى صراط مستقيم . . وأنه كرسوله الذي آمن به ، ليس عليه إلا البلاغ . .

هنالك نهض في ضيافة « أسعد بن زرارة » يَغْشَيان معًا القبائل والبيوت

والمجالس ، تاليًا على الناس ما معه من كتاب ربه ، هاتفًا بينهم في رفق عظيم بكلمة الله [إنما الله إله واحد] . . .

ولقد تعرض لبعض المواقف التي كان يمكن أن تُودِي به وبمن معه ، لولا فِطنة عقله ، وعظمة روحه . .

ذات يوم فاجأه وهو يعظ الناس « أُسَيد بن حُضَير » سيد بني عبد الأشهل بالمدينة ، فاجأه شاهرًا حربته ، يتوهج غضبًا وحنقًا على هذا الذي جاء يفتن قومه عن دينهم . . ويدعوهم لهجر آلهتهم ، ويحدثهم عن إله واحد لم يعرفوه من قبل ، ولم يألفوه من قبل . . !

إن آلهتهم معهم رابضة في مجاثمها ، إذا احتاجها أحدهم عرف مكانها وولى وجهه ساعيًا إليها ، فتكشف ضره وتلبي دعاءه . . . هكذا يتصورون ويتوهمون . .

أما إله محمد الذي يدعوهم إليه باسمه هذا السفير الوافد إليهم ، فما أحد يعرف مكانه ، ولا أحد يستطيع أن يراه . . ! !

وما إن رأى المسلمون الذين كانوا يجالسون « مُصعبًا » مَقْدِمَ « أسيد بن حضير » متوشحًا غضبه المتلظي ، وثورته المتحفزة ، حتى وَجِلوا . . لكن « مصعب الخير » ظل ثابتًا ، وديعًا ، متهللا . .

وقف أسيد أمامه مهتاجا ، وقال يخاطبه هو وأسعد بن زرارة :

« ما جاء بكما إلى حيِّنا ، تُسَفِّهان ضعفاءنا . . ؟ اعتزلانا ، اذا كنتما لا تريدان الخروج من الحياة » . . ! !

وفي مثل هدوء البحر وقوته . .

وفي مثل تهلل ضوء الفجر ووداعته . . انفرجت أسارير مصعب الخير

وتحرك بالحديث الطيب لسانه فقال :

[أَوَلاَ تجلس فتستمع . . ؟ ! فإن رضيتَ أمرنا قَبِلْته . . وإن كرهته كَفَفْنَا عنك ما تكره] . .

الله أكبر . . ما أروعها من بداية سيسعد بها الختام . . ! !

كان « أسيد » رجلا أريبًا عاقلا . . وها هو ذا يرى مصعبًا يحتكم معه إلى ضميره . . فيدعوه إلى أن يسمع لا غير . . فإن اقتنع ، تركه لاقتناعه ، وإن لم يقتنع ترك « مصعب » حيهم وعشيرتهم ، وتحول إلى حي آخر وعشيرة أخرى غير ضارّ ولا مُضَارّ . .

هنالك أجابه « أسيد » قائلا : أنصفت . . . وألقى حربته إلى الأرض وجلس يُصْغي . .

ولم يكد مصعب يقرأ القرآن ، ويفسر الدعوة التي جاء بها محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، حتى أخذت أسارير « أسيد » تبرق وتشرق . . وتتغير مع مواقع الكلم ، وتكتسي بجماله . . ! !

ولم يكد مصعب يفرغ من حديثه حتى هتف به « أسيد بن حضير » وبمن معه قائلا :

« ما أحسن هذا القول وأصدقه . . . كيف يصنع من يريد أن يدخل في هذا الدين » . . ؟ ؟

وأجابوه بتهليلة رَجّت الأرض رجًا ، ثم قال له مصعب :

[يطهر ثوبه وبدنه ، ويشهد ألا إلهَ إلا الله] . .

فغاب « أسيد » عنهم غير قليل ثم عاد يقطر الماء الطهور من شعر رأسه ، ووقف يعلن أنه يشهد ألا إلــٰه إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله . .

وسرى الخبر كالضوء . . وجاء « سعد بن معاذ » فأصغى لمصعب واقتنع ، وأسلم ، ثم تلاه « سعد بن عبادة » . . وتمت بإسلامهم النعمة ، وأقبل أهل المدينة بعضهم على بعض يتساءلون : إذا كان أسيد بن حضير ، وسعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة قد أسلموا ، ففيم تخلّفنا . . ؟ هيا إلى مصعب ، فلنؤمن معه ، فإنهم يتحدثون أن الحق يخرج من بين ثناياه . . ! !

* * *

لقد نجح أول سفراء الرسول صلى الله عليه وسلم نجاحًا منقطع النظير . . نجاحًا هو له أهل ، وبه جدير . .

وتمضي الأيام والأعوام ، ويهاجر الرسول وصحبه إلى المدينة ، وتتلمظ قريش بأحقادها . . وتعدّ عُدّة باطلها ، لتواصل مطاردتها الظالمة لعباد الله الصالحين . . وتقوم غزوة بدر ، فيتلقون فيها درسًا يفقدهم بقية صوابهم ويسعون إلى الثأر ، وتجيء غزوة أُحد . . ويعبئ المسلمون أنفسهم ، ويقف الرسول صلى الله عليه وسلم وسط صفوفهم يتفرس الوجوه المؤمنة ليختار من بينها من يحمل الراية . . ويدعو مصعب الخير ، فيتقدم ويحمل اللواء . .

وتَشِبُّ المعركة الرهيبة ، ويُحتدم القتال ، ويُخالف الرماة أمر الرسول عليه السلام ، ويغادرون مواقعهم في أعلى الجبل بعد أن رأوا المشركين ينسحبون منهزمين ، لكن عملهم هذا ، سرعان ما يحوِّل نصر المسلمين إلى هزيمة . . ويفاجأُ المسلمون بفرسان قريش تغشاهم من أعلى الجبل ، وتُعمل فيهم على حين غرة ، السيوف الظامئة المجنونة . .

وحين رأوا الفوضى والذعر يمزقان صفوف المسلمين ، ركّزوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم لينالوه . .

وأدرك « مصعب بن عمير » الخطر الغادر ، فرفع اللواء عاليًا ، وأطلق

تكبيرة كالزئير ، ومضى يصول ويجول ويتواثب .. وكل همه أن يلفت نظر الأعداء إليه ويشغلهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه ، وجَرَّد من ذاته جيشًا بأسره . . . أجل ، ذهب مصعب يقاتل وحده كأنه جيش لَجِبٌ غزير .

يد تحمل الراية في تقديس ..

ويد تضرب بالسيف في عنفوان ..

ولكن الأعداء يتكاثرون عليه ، يريدون أن يعبروا فوق جثته إلى حيث يلقون الرسول . .

ولْندع شاهد عيان يصف لنا مشهد الختام في حياة مصعب العظيم .. ! !

يقول ابن سعد : أخبرنا إبراهيم بن محمد بن شرحبيل العبدري ، عن أبيه قال :

[حمل « مصعب بن عمير » اللواء يوم أُحُد ، فلما جَالَ المسلمون ثبت بهِ مصعب ، فأقبل ابن قميئة وهو فارس ، فضربهُ على يَدِهِ اليمنى فقطعها ، ومصعب يقول : وما محمدٌ إلَّا رسولٌ قد خَلَتْ من قبلهِ الرُّسُل . . .

« وأخذ اللواء بيده اليسرى وَحَنَا عليهِ ، فضربَ يده اليُسْرَى فقطعها ، فَحَنَا على اللواء وضَمَّهُ بعَضُدَيْهِ إلى صدره وهو يقول : وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَتْ من قبلِه الرُّسُل . . .

« ثمَّ حملَ عليه الثالثة بالرُّمْح فَأَنْفَذَهُ وانْدَقَّ الرُّمْح ، ووقعَ مصعب ، وسقط اللواء] . . .

وقع مصعب .. وسقط اللواء .. ! !

وقع حِلْية الشهادة ، وكوكب الشهداء .. ! !

وقع بعد أن خاض في استبسال عظيم معركة الفداء والإيمان . .

كان يظن أنه إذا سقط ، فسيصبح طريق القتلة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خاليًا من المدافعين والحماة . .

ولكنه كان يعزي نفسه في رسول الله عليه السلام من فرط حبه لـه وخوفه عليه حين مضى يقول مع كل ضربة سيف تقتلع منه ذراعًا :

[وما محمد إلَّا رسولٌ قَدْ خَلَتْ من قبلهِ الرُّسُل] . .

هذه الآية التي سينزل الوحي فيما بعد يرددها ، ويكملها ، ويجعلها ، قرآنًا يُتْلى . .

* * *

وبعد انتهاء المعركة المريرة ، وُجد جثمان الشهيد الرشيد راقدًا ، وقد أخفى وجهه في تراب الأرض المضمخ بدمائه الزكية . .

لكأنما خاف أن يبصر وهو جثة هامدة رسولَ الله يصيبه السوء ، فأخفى وجهه حتى لا يرى هذا الذي يُحاذره ويخشاه . . ! !

أو لكأنه خجلان إذ سقط شهيدًا قبل أن يطمئن على نجاة رسول الله ، وقبل أن يؤدي إلى النهاية واجب حمايته والدفاع عنه . . ! !

لك الله يا مصعب . . يا من ذِكْرك عِطْر للحياة . . ! ! !

* * *

وجاء الرسول وأصحابه يتفقدون أرض المعركة ويودعون شهداءها . .

وعند جثمان مصعب ، سالت دموع وفية غزيرة . .

يقول خبَّاب بن الأرتّ :

[هاجَرْنَا معَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيل الله ، نبتغي

وَجْه الله . فوجبَ أجْرنَا على الله . . فمنا من مضى . ولم يأْكُل من أجره في دنياه شيئًا – منهم مصعب بن عمير – قُتِلَ يوم أُحُد . . فلم يُوجد لهُ شيءٌ يكفن فيه إلا نَمِرَة . . فكنا إذا وضعناها على رَأْسِهِ تَعَرَّتْ رجلاه . وإذا وضعناها على رِجْلَيْهِ برزت رأسه . فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجْعَلوها مما يَلِي رَأْسَهُ ، واجعلوا على رجليهِ من نباتِ الإذْخِرِ » . .] . .

وعلى الرغم من الألم الحزين العميق الذي سببه رُزء الرسول صلى الله عليه وسلم في عمه حمزة، وتمثيل المشركين بجثمانه تمثيلا أفاض دموع الرسول عليه السلام . وأوجع فؤاده . . .

وعلى الرغم من امتلاء أرض المعركة بجثث أصحابه وأصدقائه الذين كان كل واحد منهم يمثل لديه عالَمًا من الصدق والطهر والنور . .

على الرغم من كل هذا . فقد وقف على جثمان أول سفرائه . يودعه وينعاه . .

أجل . . وقف الرسول صلى الله عليه وسلم عند مصعب بن عمير وقال وعيناه تلفانه بضيائهما وحنانهما ووفائهما :

[مِنَ المؤمِنينَ رِجَالٌ صَدَقُوا ما عَاهَدُوا الله عليه] . .

ثم ألقى في أسَى نظرة على بُرْدته التي كُفِّن فيها وقال :

[لقد رأيتُكَ بمكة ، وما بها أَرَقّ حُلةً . ولا أحسنُ لِمَّةً منكَ . .

« ثم ها أنتَ ذا شَعِثُ الرأسِ في بُرْدَة] . . ؟ !

وهتف الرسول عليه السلام وقد وسعت نظراته الحانية أرض المعركة

بكل من عليها من « رفاق مصعب » وقال :

[إنَ رسول الله يشهدُ أنكم الشهدَاءُ عند الله . يومَ القيامة] . .

ثم أقبل على أصحابه الأحياء حوله وقال :

[أيها الناسُ زوروهم . وَأْتوهُمْ ، وسَلِّموا عليهم ، فوالذي نفسي بيده ، لا يُسَلِم عليهم مُسَلمٌ إلى يوم القيامة ، إلا رَدُّوا عليهِ السلام] . .

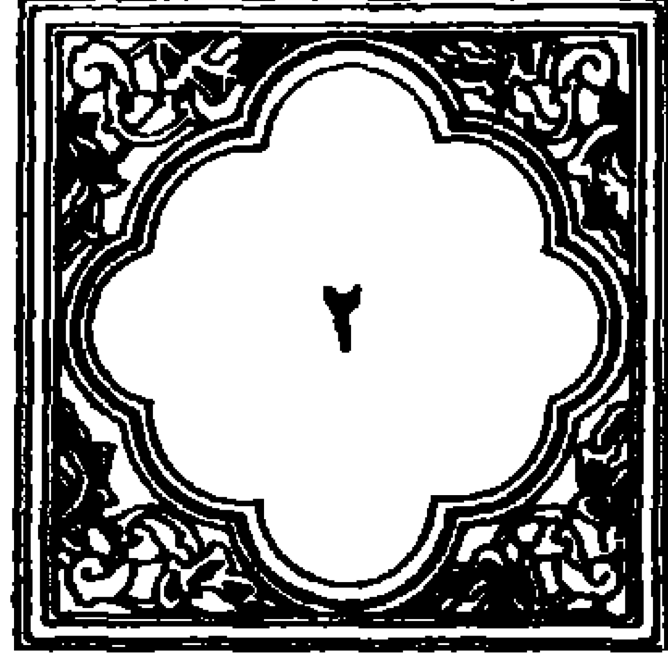
* * *

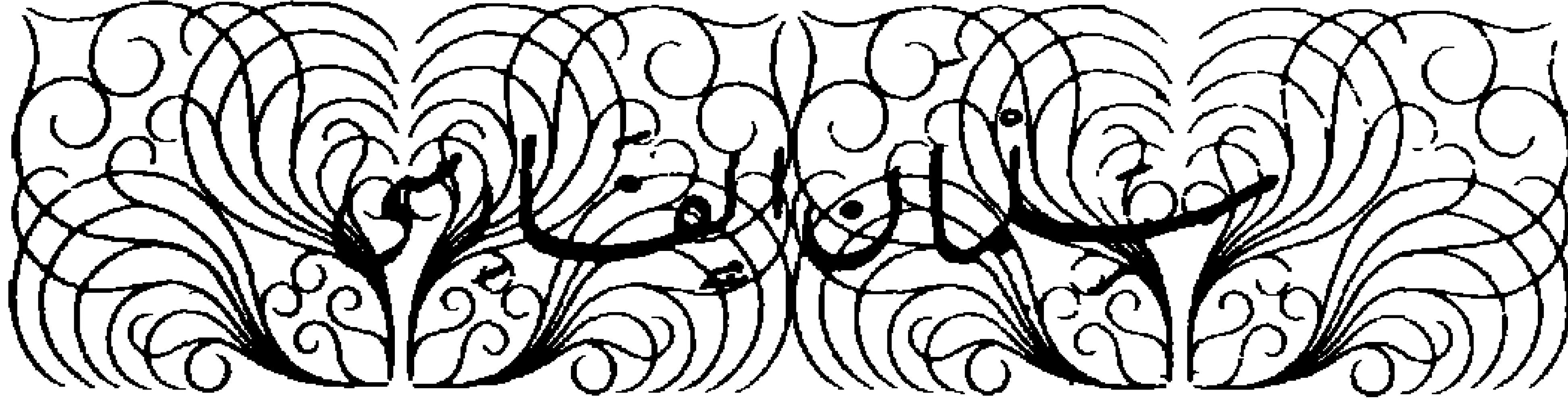
السلام عليك يا مصعب . . .

السلام عليكم معشر الشهداء . . .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . .







- الباحث عن الحقيقة -



من بلاد فارس ، يجيء البطل هذه المرة . .

ومن بلاد فارس ، عانَق الإسلامَ مؤمنون كثيرون فيا بعد ، فجعل منهم أفذاذًا لا يُلْحقون في الإيمان ، وفي العلم . . في الدين . وفي الدنيا . .

وإنها لإحدى روائع الإسلام وعظائمه . ألا يدخل بلدا من بلاد الله إلا ويثير في إعجاز باهر ، كل نبوغها ويحرك كل طاقاتها . ويخرج خبْء العبقرية المستكِنَّة في أهلها وذويها . . فإذا الفلاسفة المسلمون . . والأطباء المسلمون . . والفقهاء المسلمون . . والفلكيون المسلمون . . والمخترعون المسلمون . . وعلماء الرياضة المسلمون . .

وإذا بهم يبزغون من كل أفق . ويَطْلعون من كل بلد ، حتى تزدحم عصور الإسلام الأولى بعبقريات هائلة في كل مجالات العقل . والإرادة . والضمير . . . أوطانهم شَتَّى ، ودينهم واحد . . ! !

ولقد تنبأ الرسول عليه السلام بهذا المد المبارك لدينه . . لا . بل وعد به وَعْدَ صدق من ربه الكبير العليم . . . ولقد زُوِيَ له الزمان والمكان ذات يوم . ورأى رأي العين راية الإسلام تخفق فوق مدائن الأرض . وقصور أربابها . . .

وكان سلمان الفارسي شاهدًا . . وكان له بما حدث علاقة وُثقى .

كان ذلك يوم الخندق . . في السنة الخامسة للهجرة . إذ خرج نفر من زعماء اليهود قاصدين مكة . مؤلبين المشركين ومحزّبين الأحزاب على

الرسول والمسلمين ، متعاهدين معهم على أن يعاونوهم في حرب حاسمة تستأصل شأفة هذا الدين الجديد .

ووضعت خطة الحرب الغادرة ، على أن يهاجم جيش قريش وغَطَفان « المدينة » من خارجها ، بينما يهاجم بنو قُرَيظة من الداخل ، من وراء صفوف المسلمين ، الذين سيقعون آنئذ بين شِقَّيْ رَحَى تطحنهم ، وتجعلهم ذ كرى . . ! !

وفوجىء الرسول والمسلمون يومًا بجيش لَجِب يقترب من المدينة في عدة متفوقة وعتاد مُدَمْدم .

وسقط في أيدي المسلمين ، وكاد صوابهم يطير من هول المباغتة .

وصور القرآن الموقف ، فقال :

[إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ ، ومن أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وإِذ زاغتِ الأبصارُ ، وبَلَغَتِ القلوبُ الحناجِرَ ، وتَظُنُّون باللهِ الظُّنُونا] . .

أربعة وعشرون ألف مقاتل تحت قيادة أبي سفيان وعيينة بن حصن يقتربون من المدينة ليطوقوها وليبطشوا بطشتهم الحاسمة كي ينتهوا من محمد ودينه ، وأصحابه . .

وهذا الجيش لا يمثل قريشًا وحدها . . . بل ومعها كل القبائل والمصالح التي رأت في الإسلام خطرًا عليها .

إنها محاولة أخيرة وحاسمة يقوم بها جميع أعداء الرسول : أفرادًا ، وجماعات ، وقبائل ، ومصالح . .

ورأى المسلمون أنفسهم في موقف عصيب .

وجمع الرسول أصحابه ليشاورهم في الأمر..

وطبعًا ، أجمعوا على الدفاع والقتال .. ولكن كيف يكون الدفاع ؟؟

هنالك تقدم الرجل الطويل الساقين ، الغزير الشعر ، الذي كان الرسول يحمل له حبًا عظيماً ، واحترامًا كبيرًا .

تقدم « سلمان الفارسي » وألقى من فوق هضبة عالية ، نظرة فاحصة على المدينة ، فألفاها – كما عهدها – محصنة بالجبال والصخور المحيطة بها .. بيد أن هناك فجوة واسعة ، ممتدة ومهيأة ، يستطيع الجيش أن يقتحم منها الحِمَى في يُسر .

وكان « سلمان » قد خَبَر في بلاده فارس الكثير من وسائل الحرب وخدع القتال ، فتقدم للرسول صلى الله عليه وسلم بمقترحه الذي لم تعهده العرب من قبل في حروبها ... وكان عبارة عَن حفر خندق يغطي جميع المنطقة المكشوفة حول المدينة .

والله يعلم ، ماذا كان المصير الذي ينتظر المسلمين في تلك الغزوة لو لم يحفروا الخندق الذي لم تكد قريش تراه حتى دوختها المفاجأة ، وظلت قواتها جاثمة في خيامها شهرًا وهي عاجزة عن اقتحام المدينة . حتى أرسل الله – تعالى – عليها ذات ليلة ريحَ صَرْصَرٍ عاتية اقتلعت خيامها ، وبدّدَت شملها...

ونادى أبو سفيان في جنوده آمرًا بالرحيل إلى حيث جاءوا... فُلولاً يائسة منهوكة..!!

* * *

خلال حفر الخندق كان « سلمان » يأخذ مكانه مع المسلمين وهم

يحفرون ويدأبون . . وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يحمل معوله ويضرب معهم . وفي الرقعة التي يعمل فيها « سلمان » مع فريقه وصحبه ، اعترضت معاولهم صخرة عاتية . .

كان « سلمان » قوي البنية ، شديد الأَسْر ، وكانت ضربة واحدة من ساعده الوثيق تفلق هام الصخر وتنثره شظايا ، لكنه وقف أمام هذه الصخرة عاجزًا . . وتواصى عليها بمن معه جميعًا فزادتهم رهَقًا . . ! !

وذهب « سلمان » إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذنه في أن يُغَيِّروا مجرى الحفر تفاديًا لتلك الصخرة العنيدة المُتَحَدِّية .

وعاد الرسول عليه الصلاة والسلام مع « سلمان » يعاين بنفسه المكان والصخرة . .

وحين رآها ، دعا بمعول ، وطلب من أصحابه أن يبتعدوا قليلا عن مرمى الشظايا . . .

وسَمَّى الله ، ورفع كلتا يديه الشريفتين القابضتين على المعول في عزم وقوة ، وهوى به على الصخرة ، فإذا بها تنثلم ، ويخرج من ثنايا صدعها الكبير وهجًا عاليًا مضيئًا .

يقول « سلمان » لقد رأيته – أي الوهج – يضيءُ ما بين لابَتَيْها ، أي يضيءُ جوانب المدينة . . . وهتف الرسول صلى الله عليه وسلم مكبرًا :

[الله أكبر . . . أُعْطِيتُ مفاتيح فارس ، ولقد أضاء لي منها قصورُ الحيرَةِ ، ومدائنُ كِسْرَى ، وإن أُمَّتي ظاهرة عليها] . . .

ثم رفع المعول ، وهوت ضربته الثانية ، فتكررت الظاهرة ، وبرقت الصخرة المتصدعة بوهج مضيءٍ مرتفع ، وهلل الرسول عليه السلام مكبرًا :

[الله أكبر... أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الروم ، ولقد أضاء لي منها قصورها الحمراء ، وإن أُمَّتي ظاهرة عليها]...

ثم ضرب ضربته الثالثة فألْقت الصخرة سلامها واستسلامها ، وأضاء برقها الشديد الباهر ، وهلل الرسول وهلل المسلمون معه... وأنبأهم أنه يبصر الآن قصور سورية وصنعاء وسواها من مدائن الأرض التي ستخفق فوقها راية الله يومًا ، وصاح المسلمون في إيمان عظيم :

[هذا ما وَعَدَنا الله ورسولُه...

وصَدَق الله ورسولُه].. ! !

كان « سلمان » صاحب المشورة بحفر الخندق.. وكان صاحب الصخرة التي تفجّرَت منها بعض أسرار الغيب والمصير ، حين استعان عليها برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان قائمًا إلى جوار الرسول يرى الضوء ، ويسمع البشرى... ولقد عاش حتى رأى البشرى حقيقة يعيشها ، وواقعًا يحياه ، فرأى مدائن الفرس والروم..

رأى قصور صنعاء وسوريا ومصر والعراق..

رأى جَنَبات الأرض كلها تهتز بالدوي المبارك الذي ينطلق من رُبَى المآذن العالية في كل مكان مُشِعًّا أنوار الهدى والخير.. ! !

* * *

وها هو ذا ، جالس هناك تحت ظل الشجرة الوارفة الملتفة أمام داره « بالمدائن » يحدث جلساءه عن مغامرته العظمى في سبيل الحقيقة ، ويقص عليهم كيف غادر دين قومه الفرس إلى المسيحية ، ثم إلى الإسلام...

كيف غادر ثراء أبيه الباذخ ، ورمى نفسه في أحضان الفاقة ، بحثًا عن

خلاص عقله وروحه . . ! !

كيف بِيعَ في سوق الرقيق ، وهو في طريق بحثه عن الحقيقة . . ؟؟

كيف التقى بالرسول عليه السلام . . وكيف آمن به . . ؟

تعالوا نقترب من مجلسه الجليل ، ونصغ إلى النبإ الباهر الذي يرويه . .

* * *

[كنت رجلا من أهل أصبهان ، من قرية يقال لها « جي » . .

« وكان أبي دهقان أرضه .

وكنت من أحب عباد الله إليه . . .

وقد اجتهدت في المجوسية ، حتى كنت قاطن النار التي نوقدها ، ولا نتركها تخبو . .

« وكان لأبي ضيعة ، أرسلني إليها يومًا ، فخرجت ، فمررت بكنيسة للنصارى ، فسمعتهم يصلون ، فدخلت عليهم أنظر ما يصنعون ، فأعجبني ما رأيت من صلاتهم ، وقلت لنفسي هذا خير من ديننا الذي نحن عليه ، فما برحتهم حتى غابت الشمس ، ولا ذهبت إلى ضيعة أبي ، ولا رجعت إليه حتى بعث في أثري . . .

« وسألت النصارى حين أعجبني أمرهم وصلاتهم عن أصل دينهم ، فقالوا : في الشام . .

« وقلت لأبي حين عدت إليه : إني مررت على قوم يصلون في كنيسة لهم فأعجبتني صلاتهم ، ورأيت أن دينهم خير من

ديننا . . . فحاورني وحاورته . . . ثم جعل في رجلي حديدًا وحبسني . .

« وأرسلت إلى النصارى أخبرهم أني دخلت في دينهم ، وسألتهم إذا قدم عليهم رَكْبٌ من الشام ، أن يخبروني قبل عودتهم إليها لأرحل إلى الشام معهم ، وقد فعلوا ، فحطمت الحديد وخرجت ، وانطلقت معهم إلى الشام . .

« وهناك سألت عن عالِمهم ، فقيل لي : هو الأسقف ، صاحب الكنيسة ، فأتيته وأخبرته خبري ، فأقمت معه أخدم ، وأصلي ، وأتعلم . .

« وكان هذا الأسقف رجل سوء في دينه ، إذ كان يجمع الصدقات من الناس ليوزعها ، ثم يكتنزها لنفسه . .

« ثم مات . .

« وجاءوا بآخر فجعلوه مكانه ، فما رأيت رجلا على دينهم خيرًا منه ، ولا أعظم رغبة في الآخرة ، وزهدًا في الدنيا ودأبًا على العبادة . . .

« وأحببته حبًا ما علمت أنني أحببت أحدًا مثله قبله . . فلما حضره قدَره ، قلت له : إنه قد حضرك من أمر الله ما ترى ، فبم تأمرني ، وإلى من توصي بي ؟؟

قال : أيْ بني ، ما أعرف أحدًا من الناس على مثل ما أنا عليه إلا رجلا بالموصل . .

« فلما توفي ، أتيت صاحب الموصل ، فأخبرته الخبر ، وأقمت

معه ما شاء الله أن أقيم . ثم حضرته الوفاة . فسألته . فدلني على عابد في نصيبين . .

« فأتيته وأخبرته خبري . ثم أقمت معه ما شاء الله أن أقيم . فلما حضرته الوفاة سألته . فأمرني أن ألحق برجل في عمورية من بلاد الروم . فرحلت إليه . وأقمت معه . . واصطنعت لمعاشي بقرات وغنيمات . .

« ثم حضرته الوفاة . فقلت له : إلى من توصي بي ؟ فقال لي : يا بني ما أعرف أحدًا على مثل ما كنا عليه . آمرك أن تأْتيه . ولكنه قد أظلك زمان نبي يُبْعث بدين إبراهيم حنيفًا . . . يُهاجرُ إلى أرض ذات نخل بين حرَّتَين . فإن استطعت أن تخلص إليه فافعل .

وإن له آيات لا تخفى . فهو لا يأْكل الصدقة . . ويقبل الهدية . . وإن بين كتفيه خاتم النبوة . إذا رأيته عرفته .

« ومر بي ركب – ذات يوم – فسألتهم عن بلادهم . فعلمت أنهم من جزيرة العرب . فقلت لهم : أعطيكم بقراتي هذه وغنمي على أن تحملوني معكم إلى أرضكم ؟ . . قالوا : نعم . .

« واصطحبوني معهم حتى قدموا بي – وادي القرى – وهناك ظلموني ، وباعوني إلى رجل من يهود . . . وبصرت بنخل كثير ، فطمعت أن تكون هي البلدة التي وُصِفت لي ، والتي ستكون مهاجَر النبي المنتظر . . ولكنها لم تَكُنْها .

« وأقمت عند الرجل الذي اشتراني ، حتى قدم عليه يومًا رجل

من يهود بني قريظة ، فابتاعني منه ، ثم خرج بي حتى قدمت المدينة ! ! فوالله ما هو إلا أن رأيتها حتى أيقنت أنها البلد التي وُصِفت لي . . .

« وأقمت معه أعمل له في نخله في بني قريظة حتى بعث الله رسوله وحتى قدم « المدينة » ونزل بِقبَاء في بني عمرو بن عوف .

« وإني لفي رأس نخلة يومًا ، وصاحبي جالس تحتها إذ أقبل رجل من يهود ، من بني عمه ، فقال يخاطبه : قاتل الله بني قيلة إنهم ليتقاصَفون على رجل بقباء ، قادم من مكة يزعمون أنه نبي . .

« فوالله ما هو إلا أن قالها حتى أخذتني العُرَواء . فرجفت النخلة حتى كدت أسقط فوق صاحبي ! ! ثم نزلت سريعًا ، أقول : ماذا تقول . . ؟ ما الخبر . . ؟؟

« فرفع سيدي يده ولكزني لكزة شديدة ، ثم قال : مالك ولهذا . . ؟ أقبل على عملك . .

« فأقبلت على عملي . . ولما أمسيت جمعت ما كان عندي ثم خرجت حتى جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء . . . فدخلت عليه ومعه نفر من أصحابه ، فقلت له : إنكم أهل حاجة وغربة ، وقد كان عندي طعام نذرته للصدقة ، فلما ذكر لي مكانكم رأيتكم أحق الناس به فجئتكم به . .

ثم وضعته ، فقال الرسول لأصحابه : كلوا باسم الله . . وأمسك هو فلم يبسط إليه يدًا . . .

فقلت في نفسي : هذه والله ، واحدة ... إنه لا يأكل الصدقة .. ! !

« ثم رجعت ، وعدت إلى الرسول عليه السلام في الغداة ، أحمل طعامًا ، وقلت له عليه السلام : إني رأيتك لا تأكل الصدقة .. وقد كان عندي شيء أحب أن أكرمك به هدية ؛ ووضعته بين يديه ، فقال لأصحابه : كلوا باسم الله ...

وأكل معهم ..

قلت لنفسي : هذه والله ، الثانية ... إنه يأكل الهدية ... ! !

« ثم رجعت فمكثت ما شاء الله ، ثم أتيته ، فوجدته في البقيع قد تبع جنازة ، وحوله أصحابه وعليه شملتان مؤتزرًا بواحدة ، مرتديًا الأخرى ، فسلمت عليه ، ثم عدلت لأنظر أعْلى ظهره ، فعرف أني أريد ذلك ، فألقى بُرْدَته عن كاهله ، فإذا العلامة بين كتفيه .. خاتم النبوة ، كما وصفه لي صاحبي ..

فأكببت عليه أقبله وأبكي .. ثم دعاني عليه الصلاة والسلام فجلست بين يديه ، وحدثته حديثي كما أحدثكم الآن ..

« ثم أسلمت .. وحال الرِّقُّ بيني وبين شهود بدر وأُحُد ..

« وفي ذات يوم قال الرسول عليه السلام : [كاتِبْ سيِّدك حتى يُعْتِقك] فكاتبته ، وأمر الرسول الصحابة كي يعاونوني . وحرر الله رقبتي ، وعشت حُرًّا مسلمًا ، وشهدت مع رسول الله غزوة الخندق ، والمشاهد كلها][1] ..

* * *

(١) هذا الحديث المنقول – بتصرف يسير – عن « سلمان الفارسي » تحدث هو به وحكاه لابن عباس، رضي الله عنهما . ونقله ابن سعد في « الطبقات الكبرى » ج ٤ طبعة بيروت .

بهذه الكلمات الوِضاء العِذاب.. تحدث « سلمان الفارسي » عن مغامرته الزكية النبيلة العظيمة في سبيل بحثه عن الحقيقة الدينية الّتي تصله بالله ، وترسم له دوره في الحياة...

فأيُّ إنسان شامخ كان هذا الإنسان...؟

أي تفوق عظيم أحرزته روحه الطُّلَعَة ، وفرضته إرادته الغلَّابة على المصاعب فقهرتها ، وعلى المستحيل فجعلته ذَلولا..؟

أي تَبَتُّل للحقيقة.. وأي ولاء لها هذا الذي أخرج صاحبه طائعًا مختارًا من ضياع أبيه وثرائه ونعمائه إلى المجهول بكل أعبائه ، ومَشَاقِّه ، ينتقل من أرض إلى أرض.. ومن بلد إلى بلد.. ناصبًا ، كادحًا عابدًا.. تفحص بصيرته الناقدة الناس ، والمذاهب ، والحياة... ويظل في إصراره العظيم وراء الحق ، وتضحياته النبيلة من أجل الهدى حتى يباع رقيقًا... ثم يثيبه الله ثوابه الأوفى ، فيجمعه بالحق ، ويلاقيه برسوله ، ثم يعطيه من طول العمر ما يشهد معه بكلتا عينيه رايات الله تخفق في كل مكان من الأرض ، وعباده المسلمون يملأون أركانها وأنحاءها هدى ، وعمرانًا ، وعدلا...؟!!

* * *

ماذا نتوقع أن يكون إسلام رجل هذه همته ، وهذا صدقه؟

لقد كان إسلامَ الأبرار المتقين... وقد كان في زهده . وفطنته ، وورعه أشبه الناس بعمر بن الخطاب .

أقام أيامًا مع أبي الدرداء في دارواحدة.. وكان أبوالدرداء رضي الله عنه يقوم الليل ويصوم النهار.. وكان « سلمان » يأخذ عليه مبالغته في العبادة على هذا النحو .

وذات يوم حاول « سلمان » أن يثني عزمه عن الصوم ، وكان نافلة . .

فقال له « أبو الدرداء » معاتبًا : « أتمنعني أن أصوم لربي ، وأصلي له » . . . ؟ !

فأجابه سلمان قائلا :

[إن لعينيكَ عليك حَقًّا ، وإن لأهْلِكَ عليك حَقًّا – صُمْ وَأَفْطِرْ . . وَصَلِّ وَنَمْ] . .

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

[لقد أُشْبِعَ سَلْمَانُ عِلْمًا . . .] .

وكان الرسول عليه السلام يُطْري فطنته وعلمه كثيرًا ، كما كان يطري خُلُقه ودينه . .

ويوم الخندق ، وقفَ الأنصاريقولون : سلمان منا . . ووقف المهاجرون يقولون : بل سلمان منا . . .

وناداهم الرسول قائلا :

[سَلْمَانُ مِنَّا آلَ البيت] . . ! !

وإنه بهذا الشرف لجَدير . . .

وكان علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه يلقبه بـ« لقمان الحكيم » سئل عنه بعد موته فقال :

[ذاك امْرُؤٌ مِنَّا وإلينا أهْلَ البيتِ . . . مَنْ لكُمْ بمثل لُقْمَان الحكيم . . ؟

« أُوتِيَ العلم الأوَّلَ ، والعلم الآخر ، وقَرَأَ الكتابَ الأوَّلَ والكتاب

الآخر ، وكان بَحْرًا لا يُنزف] .

ولقد بلغ في نفوس أصحاب الرسول عليه السلام جميعًا المنزلة الرفيعة والمكان الأسمى .

ففي خلافة « عمر » جاء المدينة زائرًا ، فصنع « عمر » ما لا نعرف أنه صنعه مع أحد غيره أبدًا ، إذ جمع أصحابه وقال لهم :

[هيا بنا نخرج لاستقبال سلمان . .] ! !

وخرج بهم لاستقباله عند مشارف المدينة .

لقد عاش « سلمان » مع الرسول منذ التقى به وآمن معه مسلمًا حُرًّا ، ومجاهدًا وعابدًا .

وعاش مع خليفته « أبي بكر » ، ثم أمير المؤمنين « عمر » ، ثم الخليفة « عثمان » حيث لقي ربه أثناء خلافته .

وفي معظم هذه السنوات ، كانت رايات الإسلام تملأ الأفق ، وكانت الكنوز والأموال تحمل إلى « المدينة » فَيْئًا وجِزية ، فتُوَزَّع على الناس في صورة أعطيات منتظمة ، ومرتبات ثابتة .

وكثرت مسئوليات الحكم على كافة مستوياتها ، فكثرت الأعمال والمناصب تبعًا لها . .

فأين كان « سلمان » في هذا الخضمِّ . . ؟ وأين نجده في أيام الرخاء والثراء والنعمة تلك . . ؟

* * *

افتحوا أبصاركم جيدًا . . .

أترون هذا الشيخ المهيب الجالس هناك في الظل يضفر الخوص ويجدلُه ويصنع منه أوعية ومَكاتل..؟

إنه «سلمان»...!!

انظروه جيدًا...

انظروه جيدًا في ثوبه القصير الذي انحسر من قصره الشديد إلى ركبتيه..

إنه هو، في جلال مشيبِه، وبساطة إهابه.

لقد كان عطاؤه وفيرًا... كان بين أربعة آلاف وستة آلاف في العام – بيد أنه كان يوزعه جميعًا، ويرفض أن يناله منه درهم واحد، ويقول:

[أشتري خُوصًا بدرهم، فأعملهُ، ثمَّ أبيعهُ بثلاثة دراهم، فأُعيدُ درهمًا فيهِ، وأُنفِقُ درهمًا على عيالي، وأَتَصَدَّقُ بالثالث.. ولو أن عمر بن الخطاب نهاني عن ذلك ما انتهَيْتُ]!

* * *

ثم ماذا، يا أتباعَ محمد..؟؟

ثم ماذا يا شَرَف الإنسانية في كل عصورها ومَواطنها..؟؟

لقد كان بعضنا يظن حين يسمع عن تقشف بعض الصحابة وورعهم، مثل أبي بكر وعمر وأبي ذر وإخوانهم، أن مرجع ذلك طبيعة الحياة في الجزيرة العربية حيث يجد العربي متاع نفسه في البساطة..

فها نحن أولاء أمام رجل من فارس.. بلاد البذخ والترف والمدنية، ولم يكن من فقراء الناس بل من صفوتهم.. ما باله اليوم يرفض المال والثروة والنعيم، ويصر على أن يكتفي في يومه بدرهم يكسبه من عمل يده..؟

ما باله يرفض الإمارة ويهرب منها ويقول :

[إن استطعتَ أن تأكل التراب ولا تكُونَنَّ أميرًا على اثنين ؛ فافْعَلْ . .] .

ما باله يهرب من الإمارة والمنصب ، إلا أن تكون إمارة على سَرِيَّة ذاهبة إلى الجهاد . . وإلا أن تكون في ظروف لا يصلح لها سواه ، فَيُكْره عليها إكْراهًا ، ويمضي إليها باكيًا وَجِلاً . . ؟

ثم ما باله حين يلي هذه الإمارة المفروضة عليه فرضًا يأبى أن يأْخذ عطاءها الحلال . . ؟ ؟

روى هشام بن حسان عن الحسن :

[كان عَطَاء سَلْمَان خمسة آلاف ، وكان على ثلاثين ألْفًا من الناس يخْطُبُ في عَبَاءة يَفترِشُ نصفها ، ويلْبَسُ نِصْفها . . « وكَانَ إذا خرج عطاؤه أمْضَاهُ ، ويَأْكُلُ من عمل يديْهِ . . .].

ما باله يصنع كل هذا الصنيع ، ويزهد كل ذلك الزهد ، وهو الفارسيُّ ، ابن النعمة ، وربيب الحضارة . . ؟

لنستمع الجواب منه . وهو على فراش موته . تتهيأُ روحه العظيمة للقاء ربها العلي الرحيم .

دخل عليه « سعد بن أبي وقاص » يعوده . فبكى سلمان . .

قال له سعد : « ما يُبْكيك يا أبا عبد الله . . ؟ لقد توفي رسول الله وهو عنك راضٍ »

فأجابه سلمان :

[والله ما أبكي جزعًا من المَوْتِ . ولا حِرْصًا على الدّنيا ، ولكن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عَهِدَ إلينا عَهْدًا . فقال : لِيَكُنْ حَظ أحدكم من الدُّنيا مثلَ زَادِ الرَّاكِبِ . وها أنذا حَوْلِي هذهِ الأسَاوِدُ] ! !

يعني بالأساود الأشياء الكثيرة !

قال سعد : فنظرت ، فلم أر حوله إلا جفنة ومطهرة . فقلت له : يا ابا عبد الله اعهد إلينا بعهد نأْخذه عنك . فقال :

[يا سعد :

اذكُر الله عند هَمِّك إذا هَمَمَت . .

وعند حُكْمك إذا حكمت . .

وعند يدك إذا قَسَمْت . .]

هذا إذن هو الذي ملأ نفسه غِنى . بقدر ما ملأها عزوفًا عن الدنيا بأموالها . ومناصبها ، وجاهها . . عَهْدُ رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه والى أصحابه جميعًا : ألا يدعوا الدنيا تتملكهم . وألا يأخذ أحدهم منها إلا مثل زاد الراكب . .

ولقد حفظ « سلمان » العهد . ومع هذا هطلت دموعه حين رأى روحه تتهيأ للرحيل ، مخافة أن يكون قد جاوز المدى .

ليس حوله إلا جَفْنة يأكل فيها . ومطهرة يشرب منها ويتوضأ . . ومع هذا يحسب نفسه مترفًا . .

ألم أقل لكم إنه أشبه الناس بعمر . . ؟

وفي الأيام التي كان فيها أميرا على المدائن . لم يتغير من حاله شيء . فقد رفض – كما رأينا – أن يناله من مُكافأة الإمارة درهم . . . وظل يأكل من عمل الخوص . . ولباسه ليس إلا عباءة تنافس ثوبه القديم في تواضعها . .

وذات يوم ، وهو سائر في الطريق لقيه رجل قادم من الشام ومعه حِمل تين ، وتمر . .

كان الحمل يؤود الشامي ويتعبه ، فلم يكد يبصر أمامه رجلا يبدو عليه أنه من عامة الناس وفقرائهم ، حتى بدا له أن يضع الحمل على كاهله ، حتى إذا أبلغه وجهته أعطاه شيئًا نظير حَمله . .

وأشار للرجل فأقبل عليه ، وقال له الشامي : احمل عني هذا . . فحمله ومضيا معًا .

وإذ هما في الطريق بلغا جماعة من الناس ، فسلم عليهم ، فأجابوا واقفين : وعلى الأمير السلام . .

وعلى الأمير السلام . . ؟؟

أيّ أمير يعنون . . ؟ ! !

هكذا سأل الشامي نفسه . .

ولقد زادت دهشته حين رأى بعض هؤلاء يسارع صوب « سلمان » ليحمل عنه قائلين :

– عنك ، أيها الأمير . . ! !

فعلم الشامي أنه أمير المدائن « سلمان الفارسي » . فسقط في يده ، وهربت كلمات الاعتذار والأسف من بين شفتيه . واقترب ينتزع الحمل .

ولكن « سلمان » هز رأسه رافضًا وهو يقول :

[لا ، حتى أُبْلِغَكَ منزِلَكَ] . . ! ! .

* * *

سئل يومًا : ما الذي يبغض الإمارة إلى نفسك . . ؟

فأجاب :

[حلاوَة رَضاعها ، ومَرَارَة فِطَامها] . . .

ويدخل عليه صاحبه يومًا بيته ، فإذا هو يعجن ، فيسأله :

– أين الخادم . . ؟

فيجيبه قائلا :

[لقد بَعَثْنَاها في حاجةٍ ، فكَرِهْنا أن نجمعَ عليها عَمَلين . .] .

وحين نقول « بيته » فلنذكر تمامًا ، ماذا كان ذلك البيت . . . ؟ فحين هَمَّ « سلمان » ببناء هذا الذي يُسَمَّى مع التجوّز بيتًا ، سأل البنَّاء : كيف ستبنيه . . ؟ ؟

وكان البنّاء حصيفًا ذكيًا ، يعرف زهد « سلمان » وَوَرَعه . . . فأجابه قائلا : « لا تخف . . . إنها بناية تستظل بها من الحر ، وتسكن فيها من البرد ، إذا وقفت فيها أصابت رأسك ، وإذا اضطجعت فيها أصابت رجلك » . . ! !

فقال له سلمان :

[نَعَمْ ، هكذا فاصْنَعْ] ! !

* * *

لم يكن هناك من طيبات الحياة الدنيا شيءٌ ما يركن إليه « سلمان » لحظة ، أو تتعلق به نفسه أثارة ، إلا شيئاً كان يحرص عليه أبلغ الحرص ، ولقد ائتمن عليه زوجته ، وطلب إليها أن تخفيه في مكان بعيد وأمين.

وفي مرض موته ، وفي صبيحة اليوم الذي قبِض فيه ، ناداها :

[هَلُمِّي خَبِيَّكِ التي اسْتَخْبَأْتُك] . . ! !

فجاءت بها ، وإذا هي صُرّة مسك ، كان قد أصابها يوم فتح « جَلُوْلَاء » فاحتفظ بها لتكون عطره يوم مماته.

ثم دعا بقدح ماء نثر المسك فيه ، ثم ماثَهُ بيده ، وقال لزوجته :

[انْضَحِيه حولي . . . فإنه يحضُرُني الآن خَلْقٌ من خَلْقِ الله ، لا يأكلونَ الطعامَ ، وإنما يُحِبُّونَ الطِّيب] . . .

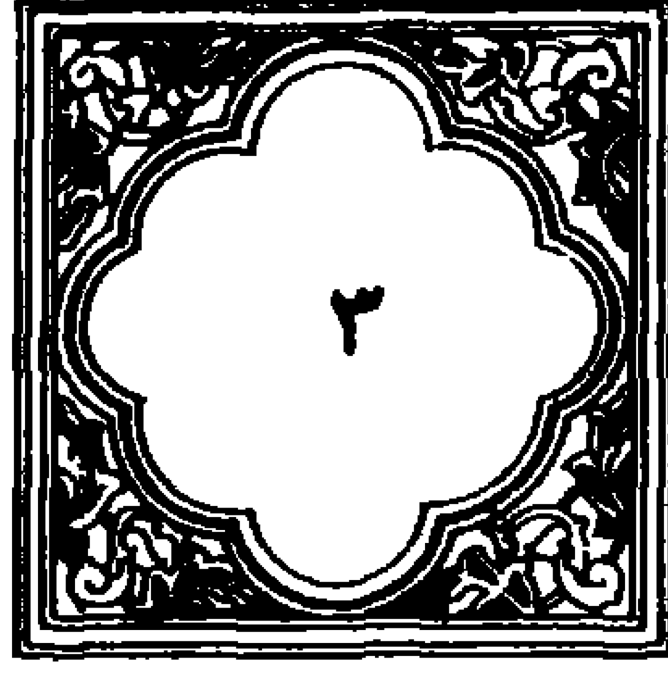
فلما فعلت قال لها : « اجْفَئي عليّ الباب وانزلي » . . . ففعلت ما أمرها به . . .

وبعد حين صعدت إليه ، فإذا روحه المباركة قد فارقت جسده ودنياه

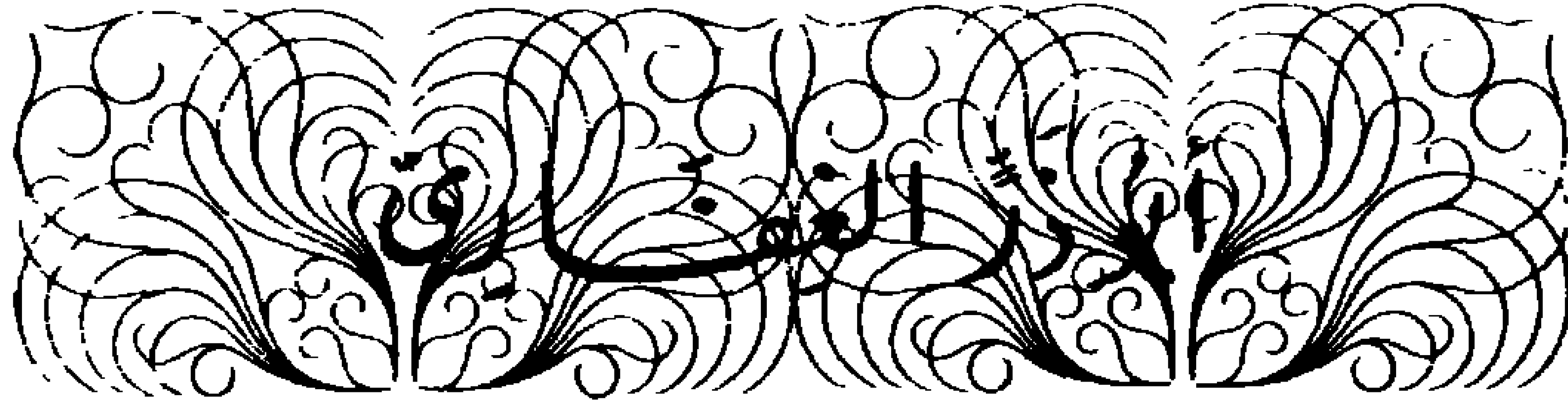
لقد لحقت بالملأ الأعلى ، وصعدت على أجنحة الشوق إليه ، إذ كانت على موعد هناك مع الرسول محمد ، وصاحبيه أبي بكر وعمر . ومع ثُلّةٍ مجيدة من الشهداء والأبرار.

* * *

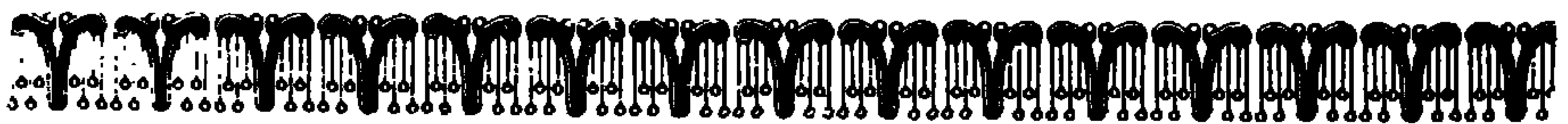
لطالما بَرَّح الشوق الظامئ بسلمان . .
وآن له اليوم أن يرتوي ، وينْهَل . .



٣



زَعيمُ المعارَضَة ، وَعَدُوُّ الثَرْوَات -



أقبل على مكة نشوان مغتبطًا . .

صحيح أن وَعْثاء السفر وفيح الصحراء قد وَقَذَاه بالضنى والألم ، بَيْدَ أنَّ الغاية التي يسعى إليها ، أنسته جراحه ، وأفاضت على روحه الحبور والبشر.

ودخلها متنكرًا ، كأنه واحد من أولئك الذين يقصدونها ليطَّوَّفوا بآلهة الكعبة العظام . . أوكأنه عابر سبيل ضل طريقه ، أو طال به السفر والارتحال فأوى إليها يستريح ويتزود .

فلو علم أهل مكة أنه جاء يبحث عن محمد عليه السلام ، ويستمع إليه لفتكوا به .

وهو لا يرى بأسًا في أن يفتكوا به ، ولكن بعد أن يقابل الرجل الذي قطع الفيافي ليراه ، وبعد أن يؤمن به ، إن اقتنع بصدقه واطمأن لدعوته . .

ولقد مضى يتسمَّع الأنباء من بعيد ، وكلما سمع قوما يتحدثون عن محمد اقترب منهم في حذر ، حتى جمع من نِثارات الحديث هنا وهناك ما دَلَّهُ على محمد ، وعلى المكان الذي يستطيع أن يراه فيه .

وفي صبيحة يوم ذهب إلى هناك ، فوجد الرسول صلى الله عليه وسلم جالسًا وحده ، فاقترب منه وقال : نَعِمْتَ صباحًا يا أخا العرب . .

فأجاب الرسول : وعليك السلام يا أخاه .

قال أبو ذر : أنشدني مما تقول . . .

فأجاب الرسول صلى الله عليه وسلم : ما هو بشعر فأنشدك ، ولكنه قرآن

كريم.

قال أبو ذر: اقرأ علي..

فقرأ عليه «الرسول»، و«أبو ذر» يصغي.. ولم يمض من الوقت غير قليل حتى هتف أبو ذر:

[أشهدُ ألَّا إله إلا الله...

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله].. !

وسأله النبي: ممن أنت يا أخا العرب..؟

فأجابه أبو ذر: من غِفَار..

وتألقت ابتسامة واسعة على فم الرسول صلى الله عليه وسلم، واكتسى وجهه بالدهشة والعجب..

وضحك أبو ذر كذلك، فهو يعرف سر العجب الذي كسا وجه الرسول عليه السلام حين علم أن هذا الذي يجهر بالإسلام أمامه إنما هو رجل من غِفَار..!!

فغِفَار هذه قبيلة لا يُدرَك لها شأو في قطع الطريق..!!

وأهلها مضرب الأمثال في السطو غير المشروع.. إنهم حلفاء الليل والظلام، والويل لمن يسلمه الليل إلى واحد من قبيلة غِفَار.

أفيجيءُ منهم اليوم - والإسلام لا يزال دينًا غضًّا مستخفيًا - واحد ليسلم..؟!

يقول «أبو ذر» وهو يروي القصة بنفسه:

[.....فجعَلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم يرفعُ بصرَهُ وَيُصَوِّبُهُ

تَعَجُّبًا ، لما كان مِنْ غِفَار ، ثم قال : إنَّ الله يهدِي مَنْ يشَاء] . !

أجل ، إن الله يهدي من يشاء .

ولقد كان « أبو ذر » رضي الله عنه أحد الذين شاء الله لهم الهدى ، وأراد بهم الخير.

وإنه لذو بَصَرٍ بالحق ، فقد روي عنه أنه أحد الذين كانوا يتألهون في الجاهلية ، أي يتمردون على عبادة الأصنام ، ويذهبون إلى الإيمان بإله خالق عظيم .

وهكذا ، ما كاد يسمع بظهور نبي يُسَفِّه الأصنام وعُبَّادها ، ويدعو إلى عبادة الله الواحد القهار ، حتى حثَّ إليه الخطى ، وشدَّ الرحَال .

* * *

أسلم أبو ذر من فوره . . .

وكان ترتيبه في المسلمين الخامس أو السادس . . .

إذن ، هو قد أسلم في الأيام الأولى ، بل الساعات الأولى للإسلام، وكان إسلامه مبكرًا . . .

وحين أسلم كان الرسول يهمس بالدعوة همسًا . . يهمس بها إلى نفسه ، وإلى الخمسة الذين آمنوا معه ، ولم يكن أمام أبي ذر إلا أن يحمل إيمانه بين جنبيه ، ويتسلل به مغادرًا مكة ، وعائدًا إلى قومه . . .

ولكن أبا ذر – جُنْدب بن جنادة – يحمل طبيعة فوارة جياشة .

لقد خلق ليتمرد على الباطل أنى يكون . . وها هو ذا يرى الباطل بعينيه . . حجارة مرصوصة ، ميلاد عابديها أقدم من ميلادها ، تنحني أمامها الجباه

والعقول، ويناديها الناس: لبيك.. لبيك..!!

وصحيح أنه رأى الرسول يُؤْثِرُ الهمس في أيامه تلك.. ولكن لا بد من صيحة يصيحها هذا الثائر الجليل قبل أن يرحل.

لقد توجه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فور إسلامه بهذا السؤال:

– يا رسول الله، بم تأمرني..؟

فأجابه الرسول: ترجع إلى قومك حتى يبلغك أمري..

فقال أبو ذر: والذي نفسي بيده لا أرجع حتى أصرخ بالإسلام في المسجد..!!

ألم أقل لكم..؟؟

تلك طبيعة متمردة جياشة. أفي اللحظة التي يكتشف فيها أبو ذر عالمًا جديدًا بأسره، يتمثل في الرسول الذي آمن به، وفي الدعوة التي سمع تباشيرها على لسانه.. أفي هذه اللحظة يراد له أن يرجع إلى أهله صامتًا..؟

هذا أمر فوق طاقته..

هنالك دخل المسجد الحرام ونادى بأعلى صوته:

[أشْهَدُ ألَّا إلهَ إلَّا الله.. وأشْهَدُ أنَّ محمدًا رسولُ الله]..

كانت هذه الصيحة – فيما نعلم – أول صيحة بالإسلام تحدّت كبرياء قريش وقرعت أسماعها.. صاحها رجل غريب ليس له في مكة حسب ولا نسب ولا حِمَى..

ولقد لقي ما لم يكن يغيب عن فطنته أنه مُلاقِيه.. فقد أحاط به المشركون وضربوه حتى صرعوه..

وترامى النبأ إلى العباس عم النبي . فجاء يسعى . وما استطاع أن ينقذه من بين أنيابهم إلا بالحيلة الذكية . فقد قال لهم :

« يا معشر قريش . أنتم تجار ، وطريقكم على غِفَار . وهذا رجل من رجالها ؛ إن يحرض قومه عليكم ، يقطعوا على قوافلكم الطريق » .. فثابوا إلى رشدهم وتركوه .

ولكن أبا ذر . وقد ذاق حلاوة الأذى في سبيل الله . لا يريد أن يغادر مكة حتى يظفر من طيباته بمزيد ... ! !

وهكذا . لا يكاد في اليوم الثاني – وربما في نفس اليوم – يلقى امرأتين تطوفان بالصنمين (أُساف ، ونائلة) وتدعوانهما ، حتى يقف عليهما ويسفه الصنمين تسفيهًا مهينًا .. فتصرخ المرأتان ، ويهرول الرجال كالجراد ، ثم لا يفتأون يضربونه حتى يفقد وعيه ..

وحين يفيق يصرخ مرة أخرى بأنه [يشهد ألا إلٰهَ إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله] ..

ويدرك الرسول عليه الصلاة والسلام طبيعة تلميذه الجديد الوافد ، وقدرته الباهرة على مواجهة الباطل .. بيد أن وقته لم يأت بعد ، فيعيد عليه أمره بالعودة إلى قومه ، حتى إذا سمع بظهور الدين عاد وأدلى في مجرى الأحداث دَلْوَه ..

* * *

ويعود « أبو ذر » إلى عشيرته وقومه ، فيحدثهم عن النبي الذي ظهر يدعو إلى عبادة الله وحده ويهدي لمكارم الأخلاق ، ويدخل قومه في الإسلام ، واحدًا . إثر واحد .. ولا يكتفي بقبيلته « غِفَار »، بل ينتقل إلى قبيلة « أسلم »

فيوقد فيها مصابيحه . . ! !

وتُتابع الأيام رحلتها في موكب الزمن ، ويهاجر الرسول إلى المدينة ، ويستقر بها والمسلمون معه .

وذات يوم تستقبل مشارفها صفوفًا طويلة من المشاة والركبان ، أثارت أقدامهم النَّقْع . . ولولا تكبيراتهم الصادعة ، لحسبهم الرائي جيشًا مغيرًا من جيوش الشرك . .

واقترب الموكب اللّجِب . . ودخل المدينة . . ويمم وجهه شطر مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ومقامه . .

لقد كان الموكب قبيلتي غفار وأسلم ، جاء بهما « أبو ذر » مسلمين جميعًا – رجالا ، ونساء . . شيوخًا ، وشبابًا ، وأطفالا . . ! !

وكان من حق الرسول عليه الصلاة والسلام أن يزداد عجبًا ودهشة . .

فبالأمس البعيد عجب كثيرًا حين رأى أمامه رجلا واحدًا من غفار يعلن إيمانه وإسلامه ، وقال معبرًا عن دَهَشِه :

[إن الله يهدي مَنْ يشاء] . . ! !

أما اليوم ، فإن قبيلة « غفار » بأجمعها تجيئه مسلمة . . قد قطعت في الإسلام بضع سنين منذ هداها الله على يد « أبي ذر » . . وتجيء معها قبيلة أسلم . .

إن عمالقة السطو وحلفاء الشيطان ، قد أصبحوا عمالقة في الخير ، وحلفاء للحق .

أليس الله يهدي من يشاء حقًا . . ؟؟

لقد ألقى الرسول عليه الصلاة والسلام على وجوههم الطيبة نظرات تفيض غبطة وحنانًا وودًّا..

ونظر إلى قبيلة « غفار » وقال :

[غِفَارٌ غَفَرَ الله لها]..

ثم إلى قبيلة « أسلم » وقال :

[وَأَسْلَمُ سَالمهَا الله]...

وأبو ذر.. هذا الداعية الرائع.. القوي الشكيمة ، العزيز المنال.. ألا يختصه الرسول عليه الصلاة والسلام بتحية..؟؟

أجل.. ولسوف يكون جزاؤه موفورًا ، وتحيته مباركة..

ولسوف يحمل صدره ، ويحمل تاريخه ، أرفع الأوسمة واكثرها جلالا وعزة..

ولسوف تفنى القرون والأجيال ، والناس يرددون رأي الرسول صلى الله عليه وسلم في أبي ذر:

[ما أَقَلّتِ الغَبْرَاء ، ولا أَظَلّتِ الخضراءُ أصدقَ لهجةً من أبي ذرّ]..!!

* * *

أصدقُ لهجةً من أبي ذر..؟؟

لقد قرأ الرسول عليه الصلاة والسلام مستقبل صاحبه ، ولخص حياته كلها في هذه الكلمات..

فالصدق الْجَسُور ، هو جوهر حياة أبي ذر كلها..

صدق باطنه ، وصدق ظاهره . .

صدق عقيدته ، وصدق لهجته . .

ولسوف يحيا حياته صادقًا . . لا يغالط نفسه ، ولا يغالط غيره ، ولا يسمح لأحد أن يغالطه . .

ولن يكون صدقه فضيلة خرساء . . فالصدق الصامت ليس صدقًا عند أبي ذر . . .

إنما الصدق جهر وعَلَن . . جهر بالحق وتحد للباطل . . تأييد للصواب ودحض للخطأ . . .

الصدق ولاء رشيد للحق ، وتعبير جريئ عنه ، وسير حَثِيثٌ معه . .

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يرى ببصيرته الثاقبة عبر الغيب القَصِيِّ والمجهول البعيد كل المتاعب التي سَيُفيئها على أبي ذر صدقه وصلابته ، فكان يأمره دائمًا أن يجعل الأناة والصبر نهجه وسبيله .

ألقى الرسول عليه يومًا هذا السؤال :

[يا أبا ذر ، كيفَ أنتَ إذا أدركك أُمَـــــرَاءُ يَسْتَأْثِرون بِالْفَيْء] . . ؟؟

فأجاب قائلا :

[إذًا والذي بَعَثَكَ بالحقِّ ، لأضْرِبَنَّ بسيفي] . . ! !

فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم :

[أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى خَيْرٍ من ذلك . . . ؟

اصْبِرْ حتى تَلْقَاني] . .

تُرَى لماذا سأله الرسول هذا السؤال بالذات..؟؟

الأمراء.. والمال..؟؟

تلك قضية «أبي ذر» التي سيهبها حياته، وتلك مشكلته مع المجتمع ومع المستقبل...

ولقد عرفها الرسول عليه السلام فألقى عليه هذا السؤال، ليزوده بهذه النصيحة الثمينة: [اصبر حتى تلقاني]..

ولسوف يحفظ «أبو ذر» وصية معلمه ورسوله.. فلن يحمل السيف الذي توعد به الأمراء الذين يُثرون من مال الأمة.. ولكنه أيضًا لن يسكت عنهم لحظة من نهار..

أجل.. إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم ينهاه عن حمل السيف في وجوههم، فإنه لا ينهاه عن أن يحمل في الحق لسانه البتار..

ولسوف يفعل...

* * *

مضى عهد الرسول، ومن بعده عصر أبي بكر، وعصر عمر في تفوق كامل على مغريات الحياة ودواعي الفتنة فيها..

حتى تلك النفوس المشتهية الراغبة، لم تكن تجد لرغباتها سبيلا ولا منفذًا..

وأيامئذ، لم تكن ثمة انحرافات يرفع أبو ذر ضدها صوته ويلفحها بكلماته اللاهبة..

ولقد طال عهد أمير المؤمنين عمر، فارضًا على ولاة المسلمين وأمرائهم

وأغنيائهم في كل مكان من الأرض ، زهدًا ، وتقشفًا ، وعدلا يكاد يكون فوق طاقة البشر. .

إن واليًا من ولاته في العراق ، أو في الشام ، أو في صنعاء. . أو في أيٍّ من البلاد النائية البعيدة ، لا يكاد يأكل نوعًا من الحلوى ، لا يجد عامة الناس قدرة على شرائه ، حتى يكون الخبر قد وصل إلى « عمر » بعد أيام. . وحتى تكون أوامره الصارمة قد ذهبت تستدعي ذلك الوالي إلى المدينة ليلقى حسابه العسير. . ! !

لِيَهْنَأْ « أبو ذر » إذن. . وليهنأ كثيرًا ما دام الفاروق العظيم أميرًا للمؤمنين. .

وما دام لا يضايق أبا ذر في حياته شيءٌ مثلما يضايقه استغلال السلطة ، واحتكار الثروة ، فإن ابن الخطاب بمراقبته الصارمة للسلطة ، وتوزيعه العادل للثروة سيتيح له الطمأنينة والرضى. .

وهكذا تفرغ لعبادة ربه ، وللجهاد في سبيله. . غير لائذ بالصمت إذا رأى مخالفة هنا ، أو هناك. . وقلّما كان يرى. .

بيد أن أعظم ، وأعدل ، وأروع حكام البشرية قاطبة يرحل عن الدنيا ذات يوم ، تاركًا وراءه فراغًا هائلا ، ومحدثًا رحيله من ردود الفعل ما لا مَفَرَّ منه ولا طاقة للناس به ، وتستمر الفتوح في مدها ، ويعلو معها مد الرغبات والتطلع إلى مناعم الحياة وترفها. .

ويرى « أبو ذر » الخطر. .

إن ألوية المجد الشخصي توشك أن تفتن الذين كل دورهم في الحياة أن يرفعوا راية الله. .

إن الدنيا بزخرفها الباطل وغرورها الضاري . توشك أن تفتن الذين كل

رسالتهم أن يجعلوا منها مزرعة للأعمال الصالحات..

إن المال الذي جعله الله خادمًا مطيعًا للإنسان، يوشك أن يتحول إلى سيد مستبد..

ومع من..؟؟

مع أصحاب «محمد» الذي مات ودرعه مرهونة، بينما أكوام الفيء والغنائم عند قدميه..!!

إن خيرات الأرض التي ذرأها الله للناس جميعًا.. وجعل حقهم فيها متكافئًا توشك أن تصير حِكرًا ومزية..

إن السلطة التي هي مسئولية ترتعد من هول حساب الله عليها أفئدة الأبرار، تتحول إلى سبيل للسيطرة، وللثراء، وللترف المدمر الوبيل..

رأى «أبو ذر» كل هذا فلم يبحث عن واجبه ولا عن مسئوليته.. بل راح يمد يمينه إلى سيفه.. وهزَّ به الهواء فمزقه، ونهض قائمًا يواجه المجتمع بسيفه الذي لم تعرف له كَبْوَة.. لكن سرعان ما رن في فؤاده صدى الوصية التي أوصاه بها الرسول، فأعاد السيف إلى غمده، فما ينبغي أن يرفعه في وجه مسلم..

«وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنًا إلا خطأ»..

ليس دوره اليوم أن يَقتل.. بل أن يعترض..

وليس السيف أداة التغيير والتقويم، بل الكلمة الصادقة، الأمينة، المستبسِلَة..

الكلمة العادلة التي لا تضل طريقها، ولا ترهب عواقبها.

لقد أخبر الرسول يومًا ، وعلى ملأ من أصحابه ، أن الأرض لم تُقِلَّ ، وأن السماء لم تُظِلَّ أصدق لهجة من أبي ذر . .

ومن كان يملك هذا القدر من صدق اللهجة ، وصدق الاقتناع ، فما حاجته إلى السيف . . ؟

إن كلمة واحدة يقولها ، لَأَمْضَى من ملئ الأرض سيوفًا . .

فليخرج بصدقه هذا ، إلى الأمراء . . إلى الأغنياء . . إلى جميع الذين أصبحوا يشكلون بركونهم إلى الدنيا خطرًا على الدين الذي جاء هاديًا ، لا جابيًا . . ونبوة ، لا مُلْكا . . ورحمة ، لا عذابا . . وتواضعًا ، لا استعلاء . . وتكافؤًا ، لا تمايزًا . . وقناعة ، لا جشعًا . . وكفاية ، لا ترفًا . . واتئادًا في أخذ الحياة ، لا فتونًا بها ولا تهالُكًا عليها . .

فليخرج إلى هؤلاء جميعًا ، حتى يحكم الله بينه وبينهم بالحق ، وهو خير الحاكمين .

* * *

وخرج أبو ذر إلى معاقل السلطة والثروة ، يغزوها بمعارضته مَعقِلاً معقلا . . وأصبح في أيام معدودات الراية التي التفت حولها الجماهير والكادحون . . حتى في الأقطار النائية التي لم يره أهلها بعد . . طار إليها ذكره . . وأصبح لا يمر بأرض ، بل ولا يبلغ اسمه قومًا إلا أثار تساؤلات هامة تهدد مصالح ذوي السلطة والثراء .

ولو أراد هذا الثائر الجليل أن يتخذ لنفسه ولحركته علَمًا خاصًا لما كان الشعار المنقوش على هذا العلم سوى مِكْواة تتوهج حمرة ولهبًا ، فقد جعل نشيده وهتافه الذي يردده في كل زمان ومكان . . ويردده الناس عنه كأنه نشيد . .

هذه الكلمات :

[بَشِّر الكانِزِينَ الذينَ يكنزون الذهب والفضة بمكَاوٍ من نار تُكْوَى بها جباهُهُم وجُنُوبهم يوم القيامة] . . ! !

لا يصعد جبلا ، ولا ينزل سهلا ، ولا يدخل مدينة ، ولا يواجه أميرًا إلا وهذه الكلمات على لسانه.

ولم يعد الناس يبصرونه قادمًا عليهم إلا استقبلوه بهذه الكلمات :

« بشر الكانزين بمكاو من نار » . .

لقد صارت هذه العبارة علمًا على رسالته التي نذرلها حياته ، حين رأى الثروات تتركز وتُحْتكر . وحين رأى السلطة استعلاء واستغلالا . . وحين رأى حب الدنيا يطغى ويوشك أن يطمركل ما صنعته سنوات الرسالة العظمى من جمال وورع ، وتفان وإخلاص . .

ولقد بدأ بأكثر تلك المعاقل سيطرة ورهبة . . هناك في الشام حيث « معاوية بن أبي سفيان » يحكم أرضًا من أكثر بلاد الإسلام خصوبة وخيرًا وفَيئًا . . وإنه ليعطي الأموال ويوزعها بغير حساب ، يتألف بها الناس الذين لهم حظ ومكانة ، ويؤمِّن بها مستقبله الذي كان يرنو إليه طموحه البعيد.

هناك الضياع والقصور والثروات تفتن البقية الباقية من حملة الدعوة ، فليدرك « أبو ذر » الخطر قبل أن يحيق ويدمر . .

وحسر زعيم المعارضة رداءه المتواضع عن ساقيه ، وسابق الريح إلى الشام . .

ولم يكد الناس العاديون يسمعون بمقدمه حتى استقبلوه في حماسة وشوق ، والتفوا حوله أينما ذهب وسار . .

حدثنا يا أبا ذر..

حدثنا يا صاحب رسول الله..

ويلقي أبو ذر على الجموع حوله نظرات فاحصة ، فيرى أكثرها ذوي خَصاصة وفقر.. ثم يرنو ببصره نحو المشارف القريبة فيرى القصور والضياع..

ثم يصرخ في الحافِّينَ حوله قائلا :

[عجبتُ لمن لا يجدُ القوتَ في بيته ، كيف لا يخرج على الناسِ شَاهرًا سيفه]...؟؟!!!

ثم يذكر من فوره وصية رسول الله أن يضع الأناة مكان الانقلاب ، والكلمة الشجاعة مكان السيف.. فيترك لغة الحرب هذه ويعود إلى لغة المنطق والإقناع ، فيعلم الناس أنهم جميعًا سواسية كأسنان المشط.. وأنهم جميعًا شركاء في الرزق.. وأنه لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى.. وأن أمير القوم ووليهم ، هو أول من يجوع إذا جاعوا ، وآخر من يشبع إذا شبعوا..

لقد قرر أن يخلق بكلماته وشجاعته رأيا عاما في كل بلاد الإسلام يكون له من الفطنة ، والمناعة ، والقوة ما يجعله شكيمة لأمرائه وأغنيائه ، وما يحول دون ظهور طبقات مستغلة للحكم ، أو محتكرة للثروة..

وفي أيام قلائل ، كانت الشام كلها كخلايا نحل وجدت ملكتها المطاعة.. ولو أعطى « أبو ذر » إشارة عابرة بالثورة لاشتعلت نارًا.. ولكنه - كما قلنا - حصر اهتمامه في خلق رأي عام يفرض احترامه ، وصارت كلماته حديث المجالس والمساجد والطريق.

ولقد بلغ خطره على الامتيازات الناشئة مداه ، يوم ناظر معاوية على ملأ من الناس ، ثم أبلغ الشاهدُ للمناظرة ، الغائب عنها ، وسارت الرياح

بأخبارها . .

لقد وقف « أبو ذر » أصدق العالمين لهجة ، كما وصفه نبيه وأستاذه . .

وقف يسائل معاوية في غير خوف ولا مُداراة عن ثروانه قبل أن يصبح حاكما ، وعن ثروته اليوم . . ! !

عن البيت الذي كان يسكنه بمكة ، وعن قصوره بالشام اليوم . . ! !

ثم يوجه السؤال للجالسين حوله من الصحابة الذين صحبوا معاوية إلى الشام وصار لبعضهم ضياع وقصور.

ثم يصيح فيهم جميعًا : أفأنتم الذين نزل القرآن على الرسول وهو بين ظهرانيهم . . ؟؟

ويتولى الإجابة عنهم : نعم أنتم الذين نزل فيكم القرآن ، وشهدتم مع الرسول المشاهد . .

ثم يعود ويسأل : أولا تجدون في كتاب الله هذه الآية :

[والذين يكْنِزُونَ الذهبَ والفِضَّة ولا يُنْفِقُونها في سبيل الله فَبَشِّرْهُم بعَذَابٍ أليم . . .

« يومَ يُحْمى عليها في نارِ جَهَنَّم ، فَتكْوَى بها جِبَاهُهُم ، وجُنُوبهم ، وظُهُورُهم ، هذا ما كَنَزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كُنْتُم تكْنزون] . . ؟؟

ويخترم معاوية طريق الحديث قائلا : لقد أنزلت هذه الآية في أهل الكتاب . .

ويصيح أبو ذر: لا . . بل أنزلت لنا ولهم . .

ويتابع أبو ذر القول ناصحًا معاوية ومن معه أن يخرجوا عن كل ما بأيديهم من ضياع وقصور وأموال.. وألا يدّخر أحدهم لنفسه أكثر من حاجات يومه.

وتتناقل المحافل والجموع نبأ هذه المناظرة وأنباء أبي ذر...

ويتعالى نشيد أبي ذر في البيوت والطرقات:

[بشِّر الكانزين بمكاوٍ من نار يوم القيامة]..

ويستشعر معاوية الخطر، وتفزعه كلمات الثائر الجليل، ولكنه يعرف له قدره، فلا يقربه بسوء، ويكتب من فوره للخليفة عثمان رضي الله عنه يقول له: «إن أبا ذر قد أفسد الناس بالشام»..

ويكتب عثمان لأبي ذر يستدعيه إلى المدينة.

ويحسر أبو ذر طرف ردائه عن ساقيه مرة أخرى ويسافر إلى المدينة تاركا الشام في يوم لم تشهد دمشق مثله يومًا من أيام الحفاوة والوداع..!!

* * *

[لا حاجةَ لي في دُنْيَاكم]....!!

هكذا قال «أبو ذر» للخليفة «عثمان» بعد أن وصل المدينه، وجرى بينهما حوار طويل.

لقد خرج عثمان من حواره مع صاحبه، ومن الأنباء التي توافدت عليه من كل الأقطار عن مشايعة الجماهير لآراء أبي ذر، بإدراك صحيح لخطر دعوته وقوتها - وقرر أن يحتفظ به إلى جواره في المدينة، محددًا بها إقامته.

ولقد عرض عثمان قراره على أبي ذر عرضًا رفيقًا، رقيقًا، فقال له:

« ابق هنا بجانبي ، تغدو عليك اللِّقَاحُ وتروح » . .

وأجابه أبو ذر :

[لا حاجة لي في دنياكم] . . !

أجل ، لا حاجة له في دنيا الناس . . . إنه من أولئك القديسين الذين يبحثون عن ثراء الروح ، ويحيون الحياة ليعطوا ، لا ليأخذوا . . ! !

لقد طلب من الخليفة عثمان رضي الله عنه أن يأذن له بالخروج إلى « الرَّبَذَة » فأذن له . .

ولقد ظل وهو في احتدام معارضته أمينًا لله ورسوله ، حافظًا في أعماق روحه نصيحة النبي عليه السلام له ألا يحمل السيف . . . لكأنَّ الرسول رأى الغيب كله . . . غيب « أبي ذر » ومستقبله ، فأهدى إليه هذه النصيحة الغالية.

ومن ثَمَّ لم يكن « أبو ذر » ليخفي انزعاجه حين يرى بعض المولَعِين بإيقاد الفتنة يتخذون من كلماته ودعوته سببًا لإشباع وَلَعِهم وكيدهم .

جاءه يومًا وهو في الربذة وفد من الكوفة يسألونه أن يرفع راية الثورة ضد الخليفة ، فزجرهم بكلمات حاسمة :

[واللهِ لوأنَّ عثمان صَلَبني على أطول خشبة ، أوجبل ، لسمعتُ وأطعتُ ، وصبرتُ ، واحْتَسَبْتُ ، ورَأيتُ ذلك خيرًا لي . . .

« ولو سَيَّرَني ما بين الأفُقِ إلى الأفق ، لسمعتُ وأطعتُ ، وصبرتُ ، واحتسبتُ ، ورأَيتُ ذلك خيرًا لي . . .

« ولورَدّني إلى منزلي ، لسمعتُ وأطعتُ ، وصبرتُ واحتسبت ، ورأيت ذلك خيرًا لي] . . .

ذلك رجل لا يريد غرضًا من أغراض الدنيا ، ومن ثَمَّ أفاء الله عليه نور البصيرة . . ومن ثم مرة أخرى أدرك ما تنطوي عليه الفتنة المسلحة من وبال وخطر فتحاشاها . . كما أدرك ما ينطوي عليه الصمت من وبال وخطر ، فتحاشاه أيضًا ، ورفع صوته – لا سيفه – بكلمة الحق ولهجة الصدق ، لا أطماع تُغْرِيه . . ولا عواقب تَثنيه . . !

لقد تفرغ « أبو ذر » للمعارضة الأمينة وتَبَتّل .

وسيقضي عمره كله يُحدِّق في أخطاء الحكم وأخطاء المال ؛ فالحكم والمال يملكان من الإغراء والفتنة ما يخافه « أبو ذر » على إخوانه الذين حملوا راية الإسلام مع رسولهم صلى الله عليه وسلم ، والذين يجب أن يظلوا لها حاملين.

والحكم والمال أيضًا ، هما عصب الحياة للأمم والجماعات ، فإذا اعتورهما الضلال تعرضت مصاير الناس للخطر الأكيد .

ولقد كان أبو ذر يتمنى لأصحاب الرسول ألا يلي أحد منهم إمارة أو يجمع ثروة ، وأن يظلوا كما كانوا رُوَّادًا للهدى ، وعُبَّادًا لله . .

وقد كان يعرف ضراوة الدنيا وضراوة المال ، وكان يدرك أن أبا بكر وعمر لن يتكررا . . . ولَطالما سمع النبي عليه الصلاة والسلام يحذر أصحابه من إغراء الإمارة ويقول عنها :

[. . . إنها أمَانَة ، وإنها يوم القيَامَة خِزْيٌ وندامة . . إلا منْ أخذَهَا بحقهَا ، وأدَّى الذي عليه فيها] . . .

ولقد بلغ الأمر بأبي ذر إلى تجنب إخوانه إن لم يكن مقاطعتهم ؛ لأنهم وَلُوا الإمارات ، وصار لهم بطبيعة الحال ثراء ووفرة . .

لقيه أبو موسى الأشعري يومًا ، فلم يكد يراه حتى فتح له ذراعيه وهو

يصيح من الفرح بلقائه : « مرحبًا أبا ذر.. مرحبًا بأخي ».

ولكن أبا ذر دفعه عنه وهو يقول :

[لست بأخيك ، إنما كنتُ أخاك قبل أن تكون واليًا وأميرًا].. !

كذلك لقيه أبو هريرة يومًا واحتضنه مُرحبًا ، ولكن أبا ذر نحاه عنه بيده وقال له :

[إليك عني.. ألست الذي وليت الإمارة ، فتطاولت في البنيان ، واتخذْتَ لك ماشية وزرعًا].. ؟؟

ومضى أبو هريرة يدافع عن نفسه ويبرئها من تلك الشائعات..

وقد يبدو « أبو ذر » مبالغًا في موقفه من الحكم ومن الثروة..

ولكن لأبي ذر منطقه الذي يشكله صدقه مع نفسه ، ومع إيمانه ، فأبو ذر يقف بأحلامه وأعماله.. بسلوكه ورؤاه ، عند المستوى الذي خلّفه لهم رسول الله وصاحباه.. أبو بكر ، وعمر..

وإذا كان البعض يرى في ذلك المستوى مثالية لا يدرك شأوها ؛ فإن أبا ذر يراها قدوة ترسم طريق الحياة والعمل ، لا سيما لأولئك الرجال الذين عاصروا الرسول عليه السلام ، وصلُّوا وراءه ، وجاهدوا معه ، وبايعوه على السمع والطاعة.

كما أنه – كما ذكرنا من قبل – يدرك بوعيه المضيْ ، ما للحكم وما للثروة من أثر حاسم في مصاير الناس ، ومِنْ ثَمّ فإن أي خلل يصيب أمانة الحكم ، أو عدالة الثروة ، يشكل خطرًا داهمًا يجب دحضه ومعارضته.

* * *

ولقد عاش أبو ذر ما استطاع حاملا لواء القدوة العظمى للرسول عليه السلام وصاحبيه ، أمينًا عليها ، حارسًا لها .. وكان أستاذًا في فن التفوق على مغريات الإمارة ، والثروة ..

عُرِضت عليه إمارة بالعراق فقال :

[لا والله... لن تميلوا عليّ بدنياكم أبدًا]...

ورآه صاحبه يومًا يلبس جلبابًا قديمًا فسأله :

- أليس لك ثوب غير هذا..؟! لقد رأيت معك منذ أيام ثوبين جديدين...؟

فأجابه أبو ذر:

[يا ابن أخي... لقد أعطيتهما من هو أَحْوَجُ إليهما مني]...

قال له : والله إنك لمحتاج إليهما ! !

فأجاب أبو ذر:

[اللهم غَفرًا... إنكَ لَمعَظِّمٌ للدنيا ، أَلَسْتَ ترى عَلَيَّ هذه البُرْدَة...؟؟ ولي أخرى لصلاة الجمعة ، ولي عنزة أَحْلُبهَا ، وأَتَانٌ أركبها ، فأي نعمة أفضل مما نحن فيهِ]...؟؟

* * *

وجلس يومًا يحدِّث ويقول :

[أوصاني خليلي بسبع...

* أمرني بحبِّ المساكين ، والدُّنُوّ منهم..

* وأمرني أن أنظر إلى مَنْ هُوَ دُوني ، ولا أنظر إلى مَنْ هُوَ

فوقي . . .

* وأمرني ألّا أسألَ أحدًا شيئًا . . .

* وأمرني أن أَصِلَ الرَّحِم . . .

* وأمرني أن أقولَ الحقَّ وإن كان مُرًّا . . .

* وأمرني ألّا أخافَ في الله لَوْمَةَ لائم . . .

* وأمرني أن أُكْثِرَ من : لا حوْلَ ولا قوَّةَ إلّا باللهِ] .

ولقد عاش هذه الوصية ، وصاغ حياته وَفْقَهَا ، حتى صار « ضميرًا » بين قومه وأمته . .

يقول الإمام علي :

[لم يبْقَ اليومَ أحدٌ لا يُبَالي في اللهِ لَوْمَة لائم غير أبي ذر] . . ! !

عاش يناهض استغلال الحكم ، واحتكار الثروة . .

عاش يَدْحَض الخطأ ، ويبني الصواب . .

عاش متبتلا لمسئولية النصح والتحذير . .

يمنعونه من الفتوى ، فيزداد صوته بها ارتفاعا ، ويقول لمانعيه :

[والذي نفسي بيده ، لو وَضَعْتُمُ السيفَ فوق عُنُقي ، ثم ظننتُ أني مُنْفِذٌ كلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن تحتَزُّوا لأنفَذْتُها] . . ! !

ويا ليت المسلمين استمعوا يومئذ لقوله ونصحه . .

إذن لماتت في مهدها تلك الفتن التي تَفَاقَم فيما بعدُ أمرها واستفحل خطرها ، وعرَّضت الدولة والمجتمع والإسلام لأخطار ، ما كان أقساها من

أخطار.

والآن يعالج « أبو ذر » سكرات الموت في الربذة... المكان الذي اختار الإقامة فيه إثر خلافه مع « عثمان » رضي الله عنه، فتعالوا بنا إليه نؤدِّ للراحل العظيم تحية الوداع، ونبصر في حياته الباهرة مشهد الختام.

إن هذه السيدة السمراء الضامرة، الجالسة إلى جواره تبكي، هي زوجته...

وإنه ليسألها: فيم البكاء والموت حق...؟

فتجيبه بأنها تبكي: [لأنك تموت، وليس عندي ثوب يسعك كفنًا].. !!!

فيبتسم ابتسامة الشفَق الغارب، ويقول لها: اطمئني...

[.... لا تبكي، فإني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذاتَ يوم وأنا عنده في نفر من أصحابه يقول: لَيَمُوتَنَّ رجل منكم بِفَلاَةٍ من الأرض، تشهده عصابة من المؤمنين...

« وكل من كان معي في ذلك المجلس مات في جماعة وقرية، ولم يبق منهم غيري... وها أنذا بالفَلاَة أموت، فراقبي الطريق... فستطلع علينا عِصَابة مِنَ المؤمنين، فإني واللهِ ما كَذَبْتُ ولا كُذِبت]..

وفاضت روحه إلى الله..

ولقد صدق...

فهذه القافلة التي تغذُّ السير في الصحراء، تؤلف جماعة من المؤمنين،

وعلى رأسهم « عبد الله بن مسعود » صاحب رسول الله .

وإن « ابن مسعود » ليبصر المشهد قبل أن يبلغه . . . مشهد جسد ممتد يبدو كأنه جثمان ميت . وإلى جواره سيدة وغلام يبكيان . .

ويلوي زمام دابته واتركب معه صوب المشهد ، ولا يكاد يُلقي نظرة على الجثمان ، حتى تقع عينه على وجه صاحبه وأخيه في الله والإسلام أبي ذر .

وتفيض عيناه بالدمع ، ويقف على جثمانه الطاهر يقول :

[صدقَ رسولُ الله . . . تمشي وحدك ، وتموت وحدك ، وتُبْعَثُ وحدك] . . ! !

ويجلس « ابن مسعود » رضي الله عنه يروي لصحبه تفسير تلك العبارة التي نعاه بها : « تمشي وحدك . . . وتموت وحدك . . . وتبعثُ وحدك] . .

* * *

كان ذلك في غزوة « تَبُوك » . . . سنة تسع من الهجرة ، وقد أمر الرسول عليه السلام بالتهيؤ لملاقاة الروم ، الذين شرعوا يكيدون للإسلام ويأتمرون به .

وكانت الأيام التي دعى الناس فيها للجهاد أيام عُسْرَة وقَيْظ . .

وكانت الشُقَّة بعيدة . . والعدو مخيفًا . . .

ولقد تقاعس عن الخروج نفر من المسلمين ، تعللوا بشتى المعاذير .

وخرج الرسول وصحبه . . . وكلما أمعنوا في السير ازدادوا جهدًا ومشقة ، فجعل الرجل يتخلف ، ويقولون : يا رسول الله ، تخلَّف فلان ، فيقول :

[دَعوهُ . .

فإن يَكُ فيه خيرٌ فَسَيُلْحِقه الله بكم . .

وإن يَكُ غير ذلك فقد أراحكم اللهُ منه] . . ! !

وتلفَّت القوم ذات مرة ، فلم يجدوا أبا ذر . . وقالوا للرسول عليه السلام : لقد تخلف أبو ذر ، وأبطأ به بعيره . . .

وأعاد الرسول عليهم مقالته الأولى . . .

كان بعير « أبي ذر » قد ضَعُفَ تحت وطأة الجوع والظمأ والحر وتعثرت من الإعياء خُطَاه . . .

وحاول « أبو ذر » أن يدفعه للسير الحثيث بكل حيلة وجهد ، ولكن الإعياء كان يلقي ثقله على البعير . .

ورأى أبو ذر أنه بهذا سيتخلف عن المسلمين وينقطع دونهم الأَثر ، فنزل من فوق ظهر البعير ، وأخذ متاعه وحمله على ظهره ومضى ماشيًا على قدميه ، مهرولا ، وسط صحراء ملتهبة . كيما يدرك رسوله عليه السلام وصحبه . .

وفي الغَداة ، وقد وضع المسلمون رحالهم ليستريحوا ، بَصُرَ أحدهم فرأى سحابة من النقع والغبار تخفي وراءها شبح رجل يغذ السير . .

وقال الذي رأى : يا رسول الله ، هذا رجل يمشي على الطريق وحده . . .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم :

[كُنْ أَبَا ذَرّ] . . .

وعادوا لما كانوا فيه من حديث ، ريثما يقطع القادم المسافة التي تفصله عنهم ، وعندها يعرفون من هو . . .

وأخذ المسافر الجليل يقترب منهم رويدًا . . . يقتلع خطاه من الرمل المتلظي اقتلاعا ، وحِمْله فوق ظهره يؤوده . . . ولكنه مغتبط فرحان لأنه

أدرك القافلة المباركة ، ولم يتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإخوانه المجاهدين . . .

وحين بلغ أول القافلة ، صاح صائحهم : يا رسول الله ، إنه والله أبو ذر. . . .

وسار أبو ذر صوب الرسول .

ولم يكد صلى الله عليه وسلم يراه حتى تألقت على وجهه ابتسامة حانية وآسِيَة ، وقال :

[يرحَمُ اللهُ أبا ذَرّ. . .

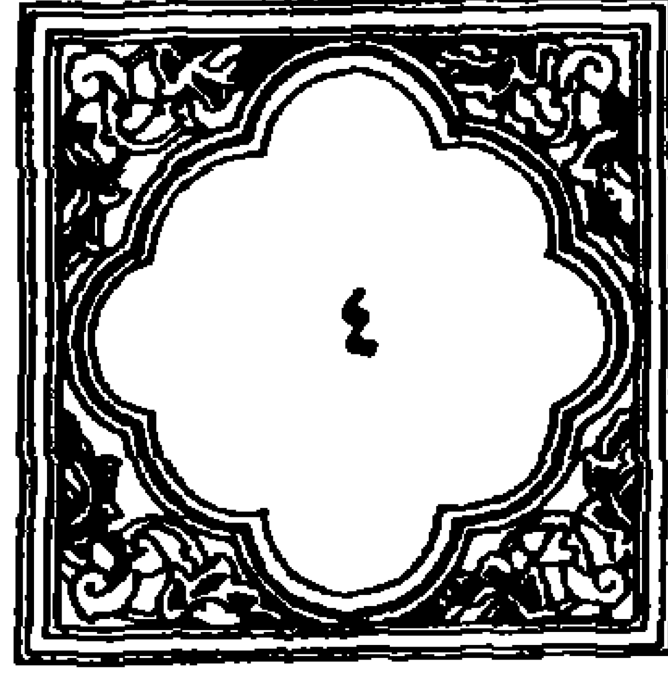
يمشي وحده . .

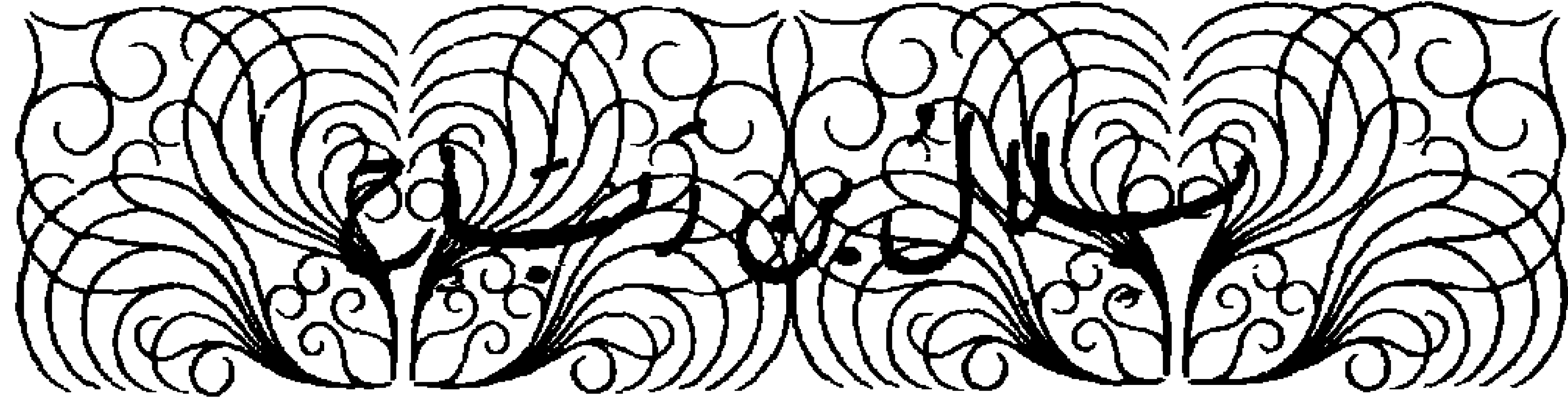
ويموت وحده . . .

ويُبْعَث وحده . . .]

وبعد مضي عشرين عامًا على هذا اليوم ، أو تزيد ، مات أبو ذر وحيدًا ، في فلاة الربذة . . . بعد أن سار حياته كلها وحيدًا على طريق لم يتألق فوقه سواه . . . ولقد بُعث في التاريخ وحيدًا في عظمة زهده ، وبطولة صموده . . .

ولسوف يبعث عند الله وحيدًا كذلك ؛ لأن زحام فضائله المتعددة ، لن يترك بجانبه مكانًا لأحد سواه . . . ! ! !





- السَاخِرُ مِنَ الأهوال !! -



كان « عمر بن الخطاب » . إذا ذُكِر « أبو بكر » قال :

[أبو بكر سيِّدُنَا . وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا] . . .

يعني « بلالا » . . .

وإن رجلا يلقبه عمر بـ« سيدنا » لهو رجل عظيم ومحظوظ . . .

لكن هذا الرجل الشديد السمرة . النحيف الناحل . المفرط الطول الكثّ الشعر ، الخفيف العارضين – كما وصفه الرواة – لم يكن يسمع كلمات المدح والثناء توجه إليه . وتغدق عليه . إلا ويحني رأسه ويغُضّ طرفه ، ويقول وعبراته على وجنتيه تسيل :

[إنما أنا حَبَشِيٌّ . . . كُنْتُ بالأمس عَبْدًا] . . . ! !

فمن هذا الحبشي الذي كان بالأمس عبدًا . . . ؟ ؟

إنه « بلال بن رباح » مؤذِّن الإسلام ، ومزعج الأصنام . . .

إنه إحدى معجزات الإيمان والصدق .

إحدى معجزات الإسلام العظيم . . .

فمن كل عشرة مسلمين . منذ بدأ الإسلام إلى اليوم . وإلى ما شاء الله سنلتقي بسبعة – على الأقل – يعرفون « بلالاً » . .

أي أن هناك مئات الملايين من البشر عَبْرَ القرون والأجيال عرفوا بلالا ، وحفظوا اسمه . وعرفوا دوره . تماما كما عرفوا أعظم خليفتين في الإسلام :

أبي بكر، وعمر..!!

وإنك لتسأل الطفل الذي لا يزال يحبو في سنوات دراسته الأولى — في مصر، أو باكستان. أو الملايو. أو الصين...

وفي الأمريكتين. وأوربا. وروسيا..

وفي العراق. وسوريا. وتركيا. وإيران. والسودان..

في تونس، والجزائر، والمغرب..

في أعماق أفريقيا. وفوق هضاب آسيا...

في كل بقعة من الأرض يقطنها مسلمون. تستطيع أن تسأل أي طفل مسلم: مَنْ بلال. يا غلام..؟

فيجيبك: إنه مؤذِّن الرسول.. وإنه العبد الذي كان سيده يعذبه بالحجارة المستعرة ليردّه عن دينه. فيقول:

[أَحَدٌ.. أَحَدٌ..]

وحينما تبصر هذا الخلود الذي منحه الإسلام بلالا... فاعلم أن بلالا هذا. لم يكن قبل الإسلام أكثر من عبد رقيق. يرعى إبل سيده على حفنات من التمر، وكان من المحتوم عليه — لولا الإسلام — أن يظل عبدًا تائهًا في الزحام. حتى يطويه الموت. ويطَوِّح به إلى أعماق النسيان...

لكن صدق إيمانه. وعظمة الدين الذي آمن به بوّأه في حياته. وفي تاريخه مكانًا عليًا بين عظماء الإسلام وقديسيه..!!

إن كثيرين من عِلْيَةِ البشر، وذوي الجاه والنفوذ والثروة فيهم. لم يظفروا بمعشار الخلود الذي ظفر به «بلال» العبد الحبشي...!!

بل إن كثيرين من أبطال التاريخ لم ينالوا من الشهرة التاريخية بعض الذي ناله بلال...

إن سواد بشرته، وتواضع حسبه ونسبه، وهَوَانَهُ على الناس كعبد رقيق، لم يحرمه حين آثر الإسلام دينًا، من أن يتبوأ المكان الرفيع الذي يؤهله له صدقه، ويقينه، وطهره، وتفانيه..

إن ذلك كله، لم يكن له في ميزان تقييمه وتكريمه أي حساب، إلا حساب الدهشة حين توجد العظمة في غير مظانها..

فلقد كان الناس يظنون، أن عبدًا مثل بـــلال، ينتمي إلى أصـــول غريبة... ليس له أهل، ولا حول.. لا يملك من حياته شيئًا، فهو ملك لسيده الذي اشتراه بماله... يروح ويغدو وسط شُوَيْهات سيده وإبله وماشيته..

كانوا يظنون أن مثل هذا الكائن، لا يمكن أن يقدر على شيء ولا أن يكون شيئًا...

ثم إذا هو يُخلف الظنون جميعًا، فيقدر على إيمان، هيهات أن يقدر على مثله سواه... ثم يكون أول مؤذن للرسول وللإسلام – العمل الذي كان يتمناه لنفسه كل سادة قريش وعظمائها من الذينَ أسلموا واتبعوا الرسول..!!

أجل... «بلال بن رباح»!

أَيَّةُ بطولة... وأَيَّةُ عظمة تعبر عنها هذه الكلمات الثلاث – بلال ابن رباح –...؟!!

* * *

إنه حبشي من أُمَّة السود.. جعلته مقاديره عبدًا لأناس من بني جُمَح

بمكة ، حيث كانت أُمّهُ إحدى إمائهم وجواريهم . .

كان يعيش عيشة الرقيق ، تمضي أيامه متشابهة قاحلة ، لا حق له في يومه ، ولا أمل له في غده . . ! !

ولقد بدأت أنباء « محمد » تنادي سمعه ، حين أخذ الناس في مكة يتناقلونها ، وحين كان يصغي إلى أحاديث سادته وأضيافهم ، سيما « أمية ابن خلف » أحد شيوخ « بني جمح » القبيلة التي كان « بلال » أحد عبيدها . .

لطالما سمع أميةَ وهو يتحدث مع أصدقائه حينًا ، وأفراد قبيلته أحيانًا عن الرسول حديثًا يطفح غيظًا ، وغمًا ، وشرًا . .

وكانت أذن بلال تلتقط من بين كلمات الغيظ المجنون ، الصفات التي تصور له هذا الدين الجديد . . . وكان يحس أنها صفات جديدة على هذه البيئة التي يعيش فيها . . . كما كانت أذنه تلتقط من خلال أحاديثهم الراعدة المتوعدة – اعترافهم بشرف محمد وصدقه وأمانته . . ! !

أجل . . . إنه ليسمعهم يعجبون ، ويَحَارُون ، في هذا الذي جاء به محمد . . ! ! !

ويقول بعضهم لبعض : ما كان محمد يومًا كاذبًا . ولا ساحرًا . . ولا مجنونًا . . وإن لم يكن لنا بد من وَصْمِهِ اليوم بذلك كله ؛ حتى نصدّ عنه الذين سيسارعون إلى دينه . . ! !

سمعهم يتحدثون عن أمانته . .

عن وفائه . .

عن رجولته وخلقه . .

عن نزاهته ورجاحة عقله . .

وسمعهم يتهامسون بالأسباب التي تحملهم على تحدِّيه وعداوته ، تلك هي : ولاؤهم لدين آبائهم أولا . . . والخوف على مجد قريش ثانيًا – ذلك المجد الذي يفيئه عليها مركزها الديني ، كعاصمة للعبادة والنسك في جزيرة العرب كلها ، ثم الحقد على بني هاشم ، أن يخرج منهم دون غيرهم نبي ورسول . . !

* * *

وذات يوم ، يبصر « بلال بن رباح » نور الله ، ويسمع في أعماق روحه الخيِّرة رنينه ، فيذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويُسْلِم . . .

ولا يلبث خبر إسلامه أن يذيع . . وتدور الأرض برؤوس أسياده من بني جمح . . تلك الرؤوس التي نفخها الكبر وأثقلها الغرور . . . ! ! وتجثم شياطين الأرض فوق صدر « أمية بن خلف » الذي رأى في إسلام عبد من عُبْدانهم لطمة جللتهم جميعًا بالخزي والعار . .

عبدهم الحبشي يُسْلِم ، ويتبع محمدًا . . ؟ ! !

ويقول « أمية » لنفسه : ومع هذا فلا بأس . . إن شمس هذا اليوم لن تغرب إلا بإسلام هذا العبد الآبق . . ! !

ولكن الشمس لم تغرب قط بإسلام بلال بل غربت ذات يوم بأصنام قريش كلها ، وحماة الوثنية فيها . . !

* * *

أما بلال فقد كان له موقف ليس شرفًا للاسلام وحده – وإن كان الإسلام أحق به – ولكنه شرف للانسانية جميعًا . .

لقد صمد لأقسى ألوان التعذيب صمود الأبرار العظام.

ولكأنما جعله الله للناس مثلا على أن سواد البشرة وعبودية الرقبة لا ينالان من عظمة الروح إذا وجدت إيمانها، واعتصمت بباريها. وتشبثت بحقها..

لقد أعطى «بلال» درسًا بليغًا للذين في زمانه، وفي كل زمان، للذين على دينه، وعلى كل دين.. درسًا فحواه أن حرية الضمير وسيادته لا يباعان بملءِ الأرض ذهبًا، ولا بملئها عذابًا..

لقد وُضِع عُرْيانًا فوق الجمر، على أن يزيغ عن دينه، أو يزيف اقتناعه فأبى...

لقد جعل الرسول عليه السلام، والإسلام، من هذا العبد الحبشي المستضعف أُستاذًا للبشرية كلها في فن احترام الضمير، والدفاع عن حريته وسيادته..

لقد كانوا يخرجون به في الظهيرة التي تتحول الصحراء فيها إلى جهنم قاتلة... فيطرحونه على حصاها الملتهب وهو عُرْيان، ثم يأتون بحجر متسعر كالحميم ينقله من مكانه بضعة رجال، ويلقون به فوق جسده وصدره...

ويتكرر هذا العذاب الوحشي كل يوم، حتى رَقّت لبلال من هول عذابه بعض قلوب جَلّاديه، فرضوا آخر الأمر أن يخلوا سبيله، على أن يذكر آلهتهم بخير ولو بكلمة واحدة – لا غير – تحفظ لهم كبرياءهم، ولا تتحدث قريش أنهم انهزموا صاغرين أمام صمود عبدهم وإصراره...

ولكن حتى هذه الكلمة الواحدة التي يستطيع أن يلقيها من وراء قلبه، ويشتري بها حياته ونفسه، دون أن يفقد إيمانه، ويتخلى عن اقتناعه..

حتى هذه الكلمة الواحدة العابرة رفض «بلال» أن يقولها..!

نعم ، لقد رفض أن يقولها ، وصار يردد مكانها نشيده الخالد :

[أَحَدٌ . . . أَحَدٌ . . .]

يصيح به جلادوه ، بل ويتوسلون إليه قائلين : « اذكر اللَّاتَ والعُزَّى » . . فيجيبهم :

[أَحَدٌ . . . أَحَدٌ . . .]

يقولون له : قل كما نقول . .

فيجيبهم في تهكم عجيب ، وسخرية كاوية :

[إن لساني لا يُحْسِنُه] . . . ! !

ويظل « بلال » في ذوب الحميم وصخره ، حتى إذا حان الأصيل أقاموه ، وجعلوا في عنقه حبلا ، ثم أمروا صبيانهم أن يطوفوا به جبال مكة وشوارعها . . . وبلال لا يلهج لسانه بغير نشيده المقدس [أحد . . أحد . .] .

وكأني بهم إذا جَنّ عليهم الليل يساومونه :

– غدًا قل كلمات خيرٍ في آلهتنا ، قل : ربِّيَ اللاّتَ والعُزّى ؛ لِنَذَرَك وشأنك ، فقد تعبنا من تعذيبك ، حتى لكأننا نحن المعَذَّبون !

فيهز رأسه ويقول : [أحدٌ . . أحدٌ] .

ويلكزه أمية بن خلف وينفجر غمًّا وغيظًا ، ويصيح :

– أي شؤم رمانا بك يا عبد السوء . . ؟ واللات والعزى لأجعلنك للعبيد والسادة مثلا . .

ويجيب بلال في يقين المؤمن وعظمة القديس :

[أحدٌ . . أحدٌ . .]

ويعود للحديث والمساومة ، مَن وُكل إليه تمثيل دور المشفق عليه ، فيقول :

– خلٍّ عنك يا أمية . . . واللات لن يُعَذّب بعد اليوم ، إن بلالا منا . . . أمه جاريتنا ، وإنه لن يرضى أن يجعلنا بإسلامه حديث قريش وسخريتها . . .

ويحدق بلال في الوجوه الكاذبة الماكرة ، ويفتر ثغره عن ابتسامة كضوء الفجر ، ويقول في هدوء يزلزلهم زلزالا :

[أَحَدٌ . . أحَدٌ . .]

وتجيء الغداة وتقترب الظهيرة ، ويؤخذ بلال إلى الرَّمْضاء ، وهو صابر محتسب ، صامد ثابت .

ويذهب إليهم أبو بكر الصديق وهم يعذبونه ، ويصيح بهم :

[أتقتلون رجلا أنْ يقولَ رَبِّيَ الله] . . ؟؟

ثم يصيح في أمية بن خلف : خذ أكثر من ثمنه واتركه حرًا . . .

وكأنما كان أمية يغرق وادركه زورق النجاة . .

لقد طابت نفسه وسَعِدَت حين سمع أبا بكر يعرض ثمن تحريره إذ كان اليأس من تطويع بلال قد بلغ في نفوسهم أشده ، ولأنهم كانوا من التجار ، فقد أدركوا أن بيعه أربح لهم من موته . .

باعوه لأبي بكر الذي حَرَّره من فوره ، وأخذ « بلال » مكانه بين الرجال الأحرار . . .

وحين كان الصدِّيق يتأبط ذراع بلال منطلقًا به إلى الحرية قال له أمية :

– خذه ، فواللَّاتِ والعُزَّى ، لو أبيتَ إلا أن تشتريه بأوقية واحدة لَبِعْتُكَهُ

بها . . .

وفطن « أبو بكر » لما في هذه الكلمات من مرارة اليأس وخيبة الأمل وكان حَرِيًّا ألا يجيبه . . .

ولكن لأن فيها مساسًا بكرامة هذا الذي قد صار أخا له . ونِدًّا ، أجاب أمية قائلا :

– والله لو أبيتم أنتم إلا مائة أوقية لدفعتها . . . ! !

وانطلق بصاحبه إلى رسول الله يبشره بتحريره . . وكان عيدًا عظيما !

وبعد هجرة الرسول والمسلمين إلى المدينة ، واستقرارهم بها ، يُشَرِّعُ الرسول للصلاة أذانها . . .

فمن يكون المؤذِّن للصلاة خمس مرات كل يوم . . . ؟ وتصدح عبر الأفق تكبيراته وتهليلاته . . ؟

إنه بلال . . . الذي صاح منذ ثلاث عشرة سنة والعذاب يهدّه ويشويه أن : [الله أحد . . أحد] .

لقد وقع اختيار الرسول عليه اليوم ليكون أول مؤذِّن للإسلام .

وبصوته النديّ ، الشجيّ ، مضى يملأ الأفئدة إيمانًا ، والأسماع روعة وهو ينادي :

الله أكبر . . الله أكبر

الله أكبر . . الله أكبر

أشهد أَلَّا إله إِلَّا الله

أشهد أَلَّا إله إِلَّا الله

أشهد أن محمدًا رسول الله

أشهد أن محمدًا رسول الله

حَيَّ على الصلاة

حَيَّ على الصلاة

حَيَّ على الفلاح

حَيَّ على الفلاح

الله أكبر.. الله أكبر

لا إله إلَّا الله....

وينشب القتال بين المسلمين ، وجيش قريش ، الذي قدم المدينة غازيًا....

وتدور الحرب عنيفة قاسية ضارية... وبلال هناك يصول ويجول في أول غزوة يخوضها الإسلام ، غزوة « بدر»... تلك الغزوة التي أمر الرسول عليه السلام أن يكون شعارها : [أحد... أحد].

* * *

في هذه الغزوة ألقت قريش بأفلاذ كبدها ، وخرج أشرافها جميعًا لمصارعهم..!!

ولقد هَمَّ بالنكوص عن الخروج « أمية بن خلف ».. هذا الذي كان سيدًا لبلال ، والذي كان يعذبه في وحشية قاتلة...

همَّ بالنكوص لولا أن ذهب إليه صديقه « عقبة بن أبي معيط » حين علم نبأ تخاذله وتقاعده ، حاملا في يمينه « مجمرة » حتى إذا واجهه وهو جالس

وسط قومه ، ألقى المجمرة بين يديه وقال له : يا أبا علي ، اسْتَجْمِرْ بهذه ؛ فإنما أنت من النساء . . ! ! !

وصاح به أمية قائلا : قبحك الله ، وقبح ما جئت به . .

ثم لم يجد بُدًّا من الخروج مع الغزاة فخرج . .

أَيَّةُ أسرار للقدر ، يطويها وينشرها . . ؟

لقد كان عقبة بن أبي معيط أكبر مشجع لأمية على تعذيب بلال ، وغير بلال من المسلمين المستضعفين . . .

واليوم ، هو نفسه الذي يغريه بالخروج إلى غزوة بدر التي سيكون فيها مصرعه . . ! !

كما سيكون فيها مصرع عقبة أيضًا !

لقد كان « أمية » من القاعدين عن الحرب . . . ولولا تشهير عقبة به على النحو الذي رأينا لما خرج . . ! !

ولكن الله بالغ أمره ، فليخرج « أمية » فإن بينه وبين عبدٍ من عِبَاد الله حسابًا قديمًا ، جاء أوان تصفيته ، فالدَّيَّان لا يموت ، وكما تَدِينُون ، تُدَانون . . . ! !

وإن القدر ليحلو له أن يسخر بالجبارين . . . فعقبة الذي كان أمية يُصْغي لتحريضه ، ويسارع إلى هواه في تعذيب المؤمنين الأبرياء ، هو نفسه الذي سيقود أمية إلى مصرعه . .

وبيد مَن . . . ؟

بيد بلال نفسه . . وبلال وحده ! !

نفس اليد التي طوّقها بالسلاسل أمية ، وأوجع صاحبها ضربًا ، وعذابا . .

هذه اليد ذاتها ، هي اليوم ، وفي غزوة بدر ، على موعد أجاد القدر توقيته ، مع جلاد قريش الذي أذلَّ المؤمنين بغيًا وعَدْوًا . .

ولقد حدث هذا تمامًا . . .

وحين بدأ القتال بين الفريقين ، وارتجَّ جانب المعركة من قِبَل المسلمين بشعارهم : [أحد . . أحد . .] انخلع قلب أمية ، وجاءه النذير . .

إن الكلمة التي كان يردِّدها بالأمس عبده تحت وقع العذاب والهول قد صارت اليوم شعار دِينٍ بأسره وشعار الأمة الجديدة كلها . . . ! !

[أحَدٌ . . أحد . .] ؟؟ ! !

أهكذا . . ؟ وبهذه السرعة . . وهذا النمو العظيم . . ؟؟

* * *

وتلاحَمَت السيوف ، وحَمِيَ القتال . . .

وبينما المعركة تقترب من نهايتها ، لمح أمية بن خلف « عبد الرحمن ابن عوف » صاحب رسول الله ، فاحتمى به ، وطلب إليه أن يكون أسيره رجاء أن يخلص بحياته . . .

وقَبِلَ عبد الرحمن عرضه وأجاره ، ثم سار به وسط المعمعة إلى مكان الأسرى .

وفي الطريق لمحه « بلال » فصاح قائلا :

[رَأْسُ الكفر ، أُمَيَّةُ بن خَلَف . . . لا نجَوْتُ إنْ نجا] . . .

ورفع سيفه ليقطف الرأس الذي طالما أثقله الغرور والكِبْر ، فصاح به عبد الرحمن بن عوف :

[أيْ بلال . . . إنه أسيري] .

أسير ، والحرب مشبوبة ودائرة . . ؟ ؟

أسير ، وسيفه يقطر دمًا مما كان يصنع قبل لحظة في أجساد المسلمين...؟

لا . . . ذلك في رأي بلال ضحك بالعقول وسخرية . . . ولقد ضحك أمية وسخر بما فيه الكفاية . .

سخر حتى لم يترك من السخرية بقية يدخرها لمثل هذا اليوم ، وهذا المأزق ، وهذا المصير . . . ! !

ورأى « بلال » أنه لن يقدر وحده على اقتحام حِمى أخيه في الدين « عبد الرحمن بن عوف » ، فصاح بأعلى صوته في المسلمين :

[يا أنصار الله . . . رأسُ الكُفر أمية بن خلف ، لا نَجَوْتُ إن نجا] . . . !

وأقبلت كوكبة من المسلمين تقطر من سيوفهم المنايا ، وأحاطت بأمية وابنه – وكان يحارب مع قريش – ولم يستطع عبد الرحمن بن عوف أن يصنع شيئًا . . . بل لم يستطع أن يحمي أدْراعه التي بدَّدَها الزحام .

وألقى بلال على جثمان أمية الذي هَوَى تحت السيوف القاصفة نظرة طويلة ، ثم هرول عنه مسرعًا وصوته النَّدِي يصيح :

[أحدٌ . . أحد . .] .

* * *

لا أظن أن من حقنا أن نبحث عن فضيلة التسامح لدى بلال في مثل هذا المقام...

فلو أن اللقاء بين بلال وأمية تمّ في ظروف أخرى ، لجاز لنا أنْ نسأل بلالا حق التسامح ، وما كان لرجل في مثل إيمانه وتقاه أن يبخل به .

لكن اللقاء الذي تم بينهما ، كان في حرب ، جاءها كل فريق ليفني غريمه...

السيوف تتوهج.. والقتلى يسقطون.. والمنايا تتواثب ، ثم يبصر بلال أمية الذي لم يترك في جسده موضع أنملة إلا ويحمل آثار تعذيبه .

وأين يبصره وكيف..؟

يبصره في ساحة الحرب والقتال يحصد بسيفه كل ما يناله من رؤوس المسلمين ، ولو أدرك رأس بلال ساعتئذ لطوّح به..

في ظروف كهذه يلتقي الرجلان فيها ، لا يكون من المنطق العادل في شيءٔ أن نسأل بلالا : لماذا لم يصفح الصفح الجميل..؟؟

* * *

وتمضي الأيام.. وتفتح مكة...

ويدخلها الرسول عليه السلام شاكرًا مكبّرًا على رأس عشرة آلاف من المسلمين..

ويتوجه إلى الكعبة رأسًا... هذا المكان المقدس الذي زحمته قريش بعدد أيام السنة من الأصنام..!!

لقد جاء الحق ، وزهق الباطل..

ومن اليوم لا عُزَّى.. ولا لات.. ولا هُبَل.. لن يحني الإنسان بعد اليوم هامته لحجر، ولا وثن... ولن يعبد الناس ملئ ضمائرهم إلا الله الذي ليس كمثله شيئ، الواحد الأحد، الكبير المتعال..

ويدخل الرسول الكعبة، مصطحبًا معه بلالاً...!

ولا يكاد يدخلها حتى يواجه تمثالا منحوتًا، يمثل إبراهيم عليه السلام وهو يَسْتَقْسِمُ بالأزلام، فيغضب الرسول ويقول:

[قاتَلَهُم الله...

ما كان شيخنا يَسْتَقْسِمُ بالأزلام... ما كان إبراهيمُ يهوديًّا، ولا نصرانيًا، ولكن كان حنيفًا مسلمًا، وما كان من المشركين].

ويأمر بلالا أن يعلو ظهر المسجد، ويؤذن.

ويؤذن بلال... فيالروعة الزمان، والمكان، والمناسبة..!!

كَفَّت الحياة في مكة عن الحركة، ووقفت «الألوف المسلمة» كالنسمة الساكنة، تردد في خشوع وهمس كلمات الأذان وراء بلال.

والمشركون في بيوتهم لا يكادون يصدِّقون:

أهذا هو محمد وفقراؤه الذين أخرجوا بالأمس من هذه الديار..؟؟

أهذا هو حقًا، ومعه عشرة آلاف من المؤمنين..؟؟

أهذا هو حقًا الذي طاردناه، وقاتلناه، وقتلنا أحبَّ أهله وقرباه إليه...؟؟

أهذا هو حقًا، الذي كان يخاطبنا من لحظات ورقابنا بين يديه، ويقول لنا:

[اذهبوا . . فأنتمُ الطُّلقَاء] . . ! !

ولكن ثلاثة من أشراف قريش ، كانوا جلوسًا بفناء الكعبة ، وكأنما يلفحهم مشهد بلال وهويدوس أصنامهم بقدميه ، ويرسل من فوق رُكامِها المَهِيل صوته بالأذان المنتشر في آفاق « مكة » كلها كعبير الربيع . . .

أما هؤلاء الثلاثة ، فهم : أبو سفيان بن حرب – وكان قد أسلم منذ ساعات – وعَتَّاب بن أُسَيد ، والحارث بن هشام – وكانا لم يُسْلِما بعدُ – .

قال عَتَّاب وعينه على بلال وهو يصدح بأذانه :

– لقد أكرم الله أُسَيدًا ، ألا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه .

وقال الحارث :

– أما والله ، لو أعلم أن محمدًا محقٌّ لاتبعته . . ! !

وعقب أبوسفيان الداهية على حديثهما قائلا :

– إني لا أقول شيئًا ، فلو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصى ! !

وحين غادر النبي الكعبة رآهم ، وقرأ وجوههم في لحظة ، وقال وعيناه تتألقان بنور الله ، وفرحة النصر :

– قد علمت الذي قلتم . . . !!!!

ومضى يحدثهم بما قالوا . .

فصاح الحارث وعتاب :

– نشهد أنك رسول الله ، والله ما سَمِعَنَا أحد فنقول أخبرك . . ! !

واستقبلا بلالا بقلوب جديدة . . . في افئدتهم صدى الكلمات التي سمعوها في خطاب الرسول أول دخوله مكة :

[يا مَعْشَرَ قريش...

إن الله قد أَذْهَبَ عنكم نَخْوَةَ الجاهلية وتَعَظُّمَها بالآباء...

«الناسُ من آدم... وآدم من تراب]...

* * *

وعاش بلال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. يشهد معه المشاهد كلها، ويؤذِّن للصلاة، ويُحيي ويَحمي شعائر هذا الدين العظيم الذي أخرجه من الظلمات إلى النور. ومن الرِّقِّ إلى الحرية...

وعلا شأن الإسلام، وعلا معه شأن المسلمين. وكان بلال يزداد كل يوم قربا من قلب رسول الله الذي كان يصفه بأنه [رجلٌ من أهل الجنة]...

لكن بلالا بقي كما هو كريمًا متواضعًا، لا يرى نفسه إلا أنه: [الحبشيّ الذي كان بالأمس عبدًا]..!!

ذهب يومًا يخطبُ لنفسه ولأخيه زوجتين فقال لأبيهما:

[أنا بلال، وهذا اخي، عبدان من الحبَشَة... كُنّا ضَالّيْن فهدانا الله... وكُنّا عَبْدَيْنِ فأعْتَقَنَا الله... إن تُزَوِّجُونا، فالحمدُ للهِ... وإن تمْنَعُونَا، فاللهُ أكبر]...!!

* * *

وذهب الرسول إلى الرفيق الأعلى راضيًا مرضيًا. ونهض بأمر المسلمين من بعده خليفته «أبو بكر الصدِّيق»..

وذهب بلال إلى خليفة رسول الله يقول له:

[يا خليفة رسول الله...

إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أفضلُ عملِ المؤمنِ ، الجهادُ في سبيل الله] . . .

قال له أبو بكر : فما تشاء يا بلال . . ؟

قال : أردت أن أرابط في سبيل الله حتى أموت . .

قال أبو بكر: ومن يُؤَذِّنُ لنا . . ؟؟

قال بلال وعيناه تفيضان من الدمع : إني لا أُؤَذِّنُ لأحد بعد رسول الله .

قال أبو بكر : بل ابق وأذِّن لنا يا بلال . .

قال بلال : إن كنتَ أعتقتَني لأكون لكَ فليكن ما تريد ، وإن كنت أعتقتني لله فدعني وما أعتقتني له . . .

قال أبو بكر : بل أعتقتك لله يا بلال . .

ويختلف الرواة ، فيروي بعضهم أنه سافر إلى الشام حيث بقي بها مجاهدًا ومرابطًا .

ويروي بعضهم الآخر ، أنه قَبِلَ رجاء أبي بكر في أن يبقى معه بالمدينة ، فلما قبِضَ وَوَلِيَ الخلافة عمر ، استأذنه وخرج إلى الشام .

على أية حال ، فقد نذر بلال بقية حياته وعمره للمرابطة في ثغور الإسلام ، مصممًا على أن يلقى الله ورسوله وهو على خير عمل يُحِبَّانه .

ولم يعد يصدح بالأذان صوته الشجيّ الحفيّ المهيب . ذلك أنه لم يكن ينطق في أذانه : [أشهد أن محمدًّا رسول الله] حتى تجيش به الذكريات فيختفي صوته تحت وقع أساه ، وتصيح بالكلمات دموعه وعبراته .

وكان آخر أذان له ، أيام زار الشام أمير المؤمنين عمر . وتوسل المسلمون

إليه أن يحمل بلالا على أن يؤذِّن لهم صلاة واحدة.

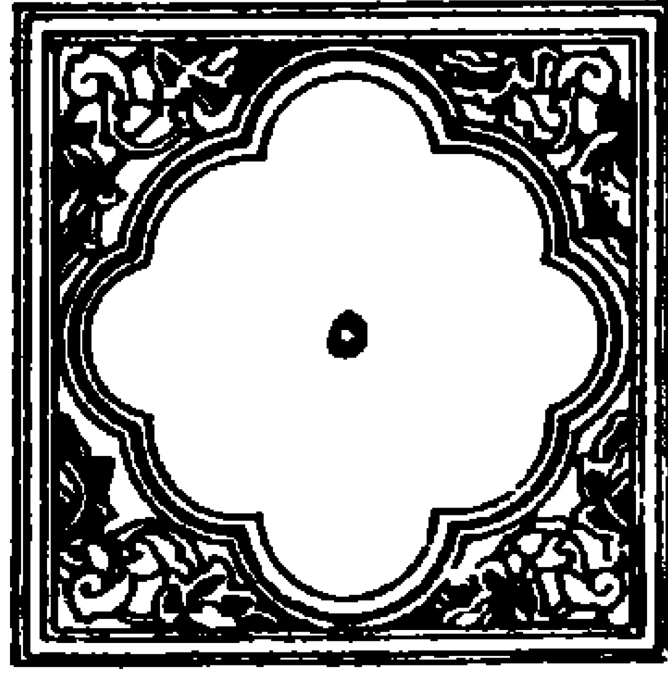
ودعا أمير المؤمنين بلالا ، وقد حان وقت الصلاة ورجاه أن يؤذِّن لها.

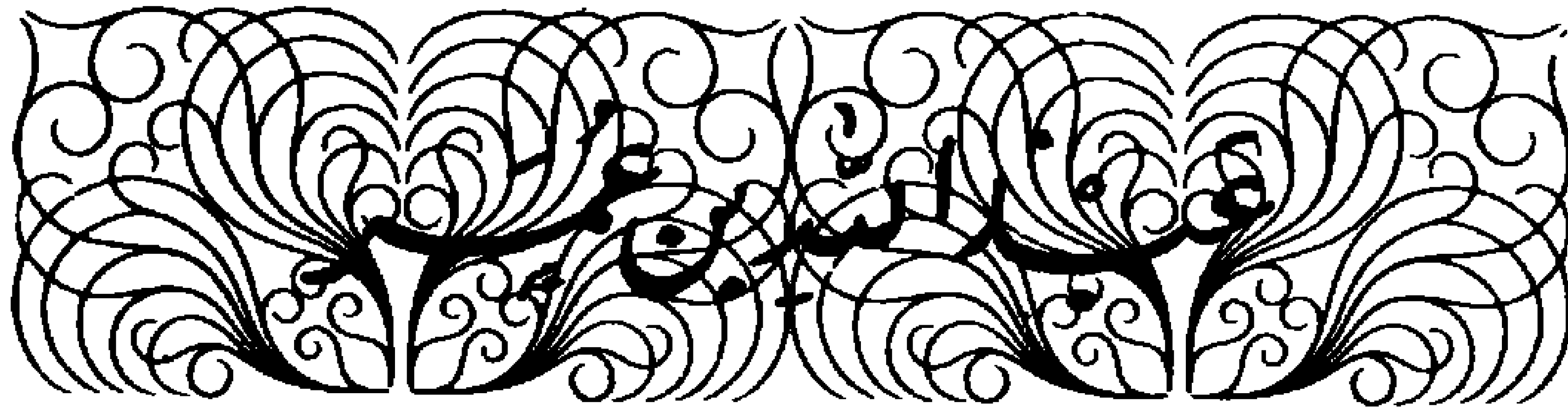
وصعد بلال وأذَّن... فبكى الصحابة الذين كانوا أدركوا رسول الله وبلال يؤذِّن له... بكوا كما لم يبكوا من قبل أبدا... وكان « عمر » أشدهم بكاء... ! !

* * *

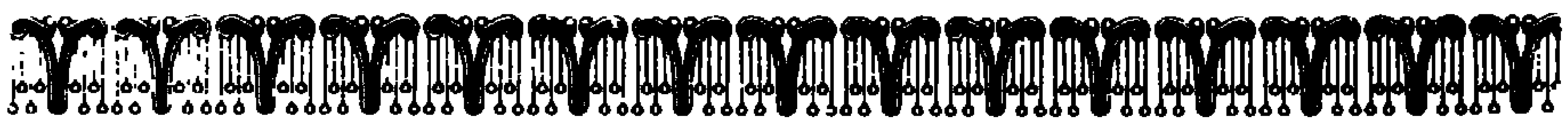
ومات بلال في الشام مرابطا في سبيل الله كما أراد.

وتحت ثَرَى دمشق يثوى – اليوم – رُفات رجل من أعظم رجال البشر صلابة في الوقوف إلى جانب العقيدة والاقتناع...





- الْمُثابِرُ، الأَوَّاب



تحدث وهو على قِمَّةِ عمرِه الطويل فقال :

[لقد بايعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم . .

فما نَكَثْتُ ولا بَدَّلْتُ إلى يومي هذا . . .

وما بايَعْتُ صاحبَ فتنة . . .

ولا أيقظتُ مؤمنًا من مرقده] . . .

وفي هذه الكلمات تلخيص وثيق لحياة الرجل الصالح الذي عاش فوق الثمانين . والذي بدأت علاقته بالإسلام وبالرسول . وهو في الثالثة عشرة من عمره . حين صحب أباه إلى غزوة بدر . راجيًا أن يكون له بين المجاهدين مكان . لولا أن رده الرسول عليه السلام لصغر سنه . . .

من ذلك اليوم . . بل وقبل ذلك اليوم حين صحب أباه في هجرته إلى المدينة . . بدأت صلة الغلام ذي الرجولة المبكرة بالرسول عليه السلام وبالإسلام . . .

ومن ذلك اليوم إلى اليوم الذي يلقى فيه ربه . بالغًا من العمر خمسة وثمانين عاما . سنجد فيه حيثما نلقاه . المثابرَ الأوَّابَ الذي لا ينحرف عن نهجِهِ قيدَ شعرة . ولا يندّ عن بيعة بايعها . ولا يخِيسُ بعهد أعطاه . . .

وإن المزايا التي تأخذ الأبصار إلى « عبد الله بن عمر » لكثيرة .

فعلمه ، وتواضعه ، واستقامة ضميره ونهْجِه ، وجودُه ، وَوَرَعُه ، ومُثابرته على العبادة وصدق استمساكه بالقدوَة . . .

كل هذه الفضائل والخصال ، صاغ ابن عمر منها ، وبها ، شخصيته الفذة ، وحياته الطاهرة الصادقة . . .

لقد تعلم من أبيه « عمر بن الخطاب » خيرًا كثيرًا . . وتعلم مع أبيه من « رسول الله » الخير كله ، والعظمة كلها . . .

لقد أحسن كأبيه الإيمان بالله ، وبرسوله . . ومن ثم ، كانت متابعته خطى الرسول أمرًا يبهر الألباب . .

فهو ينظر ، ماذا كان الرسول يفعل في كل أمر ، فيحاكيه في دقة وإخْبَات . .

هنا مثلا ، كان الرسول عليه الصلاة والسلام يصلي . . فيصلي ابن عمر في ذات المكان . .

وهنا ، كان الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو قائمًا ، فيدعو ابن عمر قائمًا . . .

وهنا كان الرسول يدعو جالسًا ، فيدعو عبد الله جالسًا . . .

وهنا ، وعلى هذا الطريق نزل الرسول يومًا من فوق ظهر ناقته ، وصلى ركعتين ؛ فيصنع ابن عمر ذلك إذا جمعه سفر بنفس البقعة والمكان . . .

بل إنه ليذكر أن ناقة الرسول دارت به دورتين في هذا المكان بمكة ، قبل أن ينزل الرسول من فوق ظهرها ، ويصلي ركعتين ، وقد تكون الناقة فعلت ذلك تلقائيًا لتهيئ لنفسها مناخها .

لكن عبد الله بن عمر لا يكاد يبلغ هذا المكان يوما حتى يدور بناقته ثم يُنِيخُها ، ثم يصلي ركعتين لله . . . تمامًا كما رأى المشهد من قبل مع رسول الله . . ! !

ولقد أثار فَرْطُ اتباعه هذا ، أم المؤمنين « عائشة » رضي الله عنها فقالت :

[ما كان أحد يتبع آثار النبي صلى الله عليه وسلم في منازله ، كما كان يتبعه ابن عمر..].

ولقد قضى عمره الطويل المبارك على هذا الولاء الوثيق ، حتى لقد جاء على المسلمين زمان كان صالحهم يدعو ويقول :

[اللهمَّ أبْقِ عبد الله بن عمر ما أَبْقَيْتني . كي أقْتَدِيَ به ، فإني لا أعلمُ أحدًا على الأمرِ الأوَّلِ غيره]..

* * *

وبقوة هذا التَّحَرِّي الشديد الوثيق لخطى الرسول وسنّته ، كان ابن عمر يتهيَّب الحديث عن رسول الله ، ولا يروي عنه عليه السلام حديثًا إلا إذا كان ذاكرًا كل حروفه ، حرفًا.. حرفا.

وقد قال معاصروه :

[لم يكن من أصحاب رسول الله أحدٌ أشدّ حَذَرًا من ألّا يزيدَ في حديث الرسول أو يَنْقُصَ منه ، من عبد الله بن عمر]...!!

وكذلك كان شديد الحذر والتّحوّط في الفُتْيا...

جاءه يوما سائل يستفتيه ، فلما ألقى على ابن عمر سؤاله ، أجابه قائلا :

[لا عِلْمَ لي بما تسأل عنه]...

وذهب الرجل إلى سبيله.. ولا يكاد يبتعد عن ابن عمر خطوات حتى يفرك ابن عمر كفّيْهِ جَذْلانَ فَرِحا ويقول لنفسه :

[سُئِل ابن عمر عما لا يَعْلم ، فقال لا أعلم] . . . !

كان يخاف أن يجتهد في فتياه ، فيخطئ في اجتهاده ، وعلى الرغم من أنه يحيا وفق تعاليم دين عظيم ، يجعل للمخطئ أجرًا ، وللمصيب أجرين ، فإن وَرَعَه كان يسلبه الجسارة على الفُتْيا .

وكذلك كان يَنْأى به عن مناصب القضاة . . .

لقد كانت وظيفة القضاء من أرفع مناصب الدولة والمجتمع ، وكانت تضمن لشاغلها ثراء ، وجاها ، ومجدًا . .

ولكن ما حاجة ابن عمر الوَرِع للثراء ، وللجاه ، وللمجد . . ؟ !

دعاه يوما الخليفة « عثمان » رضي الله عنهما ، وطلب إليه أن يشغل منصب القضاء ، فاعتذر . . وألح عليه عثمان ، فثابر على اعتذاره . .

وسأله عثمان : أتعصيني ؟ ؟

فأجاب ابن عمر :

[كلا . . . ولكن بلغني أن القضاة ثلاثة . . .

قاضٍ يقضي بجهل ، فهو في النار . .

وقاضٍ يقضي بهوًى ، فهو في النار . .

وقاضٍ يجتهدُ ويصيب ، فهو كَفاف ، لا وِزْرَ ، ولا أجر . . .

وإني لسائِلُكَ بالله أن تُعْفِيني] . . .

وأعفاه عثمان ، بعد أن أخذ عليه العهدَ ألا يخبر بهذا أحدًا .

ذلك أن عثمان يعلم مكانة ابن عمر في أفئدة الناس ، وإنه ليخشى

إذا عرف الأتقياء الصالحون عزوفه عن القضاءِ أن يتابعوه وينهجوا نهجه وعندئذ لا يجد الخليفة تقيًّا يعمل قاضيا . .

وقد يبدو هذا الموقف لعبد الله بن عمر سِمَةً من سمات السلبية .

بيد أنه ليس كذلك ؛ فعبد الله بن عمر لم يمتنع عن القضاء وليس هناك من يَصْلح له سواه . . . بل كان هناك كثيرون من أصحاب الرسول الورعين الصالحين ، وكان بعضهم يشتغل بالقضاء والفتيا بالفعل . .

ولم يكن في تخلي ابن عمر عنه تعطيل لوظيفة القضاء ، ولا إلقاء بها أيدي الذين لا يصلحون لها . . ومن ثَمَّ فقد آثر البقاء مع نفسه ، ينمِّيها ويزكيها بالمزيد من الطاعة ، والمزيد من العبادة . .

كما أنه في ذلك الحين من حياة الإسلام ، كانت الدنيا قد فتحت على المسلمين وفاضت الأموال ، وكثرت المناصب والإمارات .

وشرع إغراء المال والمناصب يقترب من بعض القلوب المؤمنة ، مما جعل بعض أصحاب الرسول ، ومنهم ابن عمر ، يرفعون راية المقاومة لهذا الإغراء باتخاذهم من أنفسهم قُدْوَةً ومَثَلاً في الزهد والوَرَع وفي العزوف عن المناصب الكبيرة ، وقهر فتنتها وإغرائها . . .

* * *

لقد كان « ابْن عمر » أخا الليل ، يقومه مصليا . . . وصديق السحر يقطعه مستغفرًا وباكيا . . .

ولقد رأى في شبابه رؤيا فسرها الرسول تفسيرًا جعل قيام الليل منتهى آمال عبد الله ، ومناط غبطته وحبُوره . .

ولنصغ إليه يحدثنا بنفسه عن نبأ رؤياه :

[رأيتُ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن بيدي قطعةَ إسْتَبْرَق ، وكأني لا أُرِيدُ مكانا من الجنة إلّا طارَتْ بي إليه . . .

« ورأيت كأنّ اثنين أتياني ، وأرادا أن يذهبا بي إلى النار ، فتلقّاهما مَلَك فقال : لا تُرَعْ ، فخلّيَا عني . .

« فقَصَّت حَفْصَةُ – أُختي – على النبي صلى الله عليه وسلم رُؤياي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نِعْمَ الرجلُ عبدُ اللهِ ، لوكان يُصلي من الليل فَيُكْثِرُ] . . .

ومن ذلك اليوم إلى أن لقي ربه ، لم يدع قيام الليل في حِلّه . ولا في ترحاله . . .

فكان يصلي ويتلو القرآن ، ويذكر ربه كثيرًا . . وكان كأبيه . تهطل دموعه حين يسمع آيات النذير في القرآن .

يقول « عبيد بن عمير » : قرأت يوما على عبد الله بن عمر هذه الآية :

[فكيفَ إذا جئنا من كلِّ أُمَّةٍ بشهيدٍ ، وَجئنا بكَ على هؤلاء شهيدًا . . . يومئذٍ يَوَدُّ الذين كَفَرُوا وَعَصَوُا الرسولَ لو تُسَوَّى بهم الأرضُ ولا يَكْتُمُونَ اللهَ حديثًا] . . .

فجعل ابن عمر يبكي حتى نديت لحيته من دموعه .

وجلس يوما بين إخوانه ، فقرأ :

[وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِين . الذين إذا اكْتَالُوا على الناسِ يَسْتَوْفون . . . وإذا كالُوهُمْ أو وَزَنُوهُم يُخْسِرُون . . ألا يَظُنُّ أولئك أنهم مَبْعُوثون ، ليومٍ عظيم . . يومَ يقومُ الناسُ لِربِّ العَالمين] . . .

ثم مضى يردِّدُ الآية :

[. . . يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمين] . .

ودموعه تسيل كالمطر . . . حتى وقع من كثرة وَجْدِه وبكائه . . ! !

* *

ولقد كان جوده ، وزهده ، وورعه ، تعمل معًا في فن عظيم ، لتشكل أروع فضائل هذا الإنسان العظيم . . فهو يعطي الكثير ؛ لأنه جواد . .

ويعطي الحلال الطيب ، لأنه وَرِع . .

ولا يبالي أن يتركه الجود فقيرًا ؛ لأنه زاهد . . ! !

وكان « ابن عمر » رضي الله عنه ، من ذوي الدخول الرغيدة الحسنة ، إذ كان تاجرًا أمينًا ناجحًا شطر حياته . . وكان راتبه من بيت المال وفيرًا . . ولكنه لم يدخر هذا العطاء لنفسه قط ، إنما كان يرسله غَدَقا على الفقراء ، والمساكين ، والسائلين . .

يحدثنا « أيوب بن وائل الراسبي » عن واحدة من مكرماته ، فيخبرنا أن ابن عمر جاءه يوما أربعة آلاف درهم ، وقطيفة . .

وفي اليوم التالي ، رآه « أيوب بن وائل » في السوق يشتري لراحلته علفًا نَسِيئة – أي دَيْنا – . .

فذهب « ابن وائل » إلى أهل بيته وسألهم : أليس قد أتى لأبي عبد الرحمن – يعني ابن عمر – بالأمس أربعة آلاف ، وقطيفة . . ؟

قالوا : بلى . .

قال : فإني رأيته اليوم بالسوق يشتري علفًا لراحلته ولا يجد معه ثمنه .

قالوا : إنه لم يبت بالأمس حتى فرقها جميعًا ، ثم أخذ القطيفة وألقاها على ظهره . وخرج .. ثم عاد وليست معه ، فسألناه عنها . فقال : إنه وهبها لفقير .. ! !

فخرج « ابن وائل » يضرب كفًا بكف . حتى أتى السوق فتوقّل مكانًا عاليًا ، وصاح في الناس :

[يا معشر التُّجار ...

ما تصنعون بالدنيا ، وهذا ابنُ عمر تأتيه آلافُ الدراهم فيوزعها ، ثم يُصْبح فيستدين عَلَفًا لراحلته] ...؟؟! !

ألا إن من كان « محمد » أستاذه ... و« عمر » أباه . لعظيم ، وكفء لكل عظيم .. ! !

إن جود عبد الله بن عمر ، وزهده ، وورعه ، هذه الخصال الثلاثة ، كانت تحكي لدى عبد الله صدق القدوة .. وصدق البُنُوَّة ..

فما كان لمن يمعن في التأسي برسول الله ، حتى إنه ليقف بناقته حيث رأى الرسول يوما يقف بناقته . ويقول : [لعل خُفًّا يقع على خف] .. !

والذي يذهب في بر أبيه وتوقيره والإعجاب به إلى المدى الذي كانت شخصية عمر تفرضه على الأعداء . فضلا عن الأقرباء . فضلا عن الأبناء ..

أقول : ما كان ينبغي لمن ينتمي لهذا الرسول . ولهذا الوالد أن يصبح للمال عبدًا ..

ولقد كانت الأموال تأتيه وافرة كثيرة .. ولكنها تمر به مرورا .. وتعبر داره عبورا ..

ولم يكن جوده سبيلا إلى الزهو ، ولا إلى حسن الأحدوثة ؛

ومن ثم ، فقد كان يخص به المحتاجين والفقراء .. وقلما كان يأكل طعاما وحده .. فلا بد أن يكون معه أيتام ، أو فقراء .. وطالما كان يعاتب بعض أبنائه ، حين يولمون للأغنياء ، ولا يأتون معهم بالفقراء ، ويقول لهم :

[تَدْعُون الشِّبَاع ، وتَدَعُون الجياع] ... ! !

وعرف الفقراء عطفه ، وذاقوا حلاوة بره وحنانه ، فكانوا يجلسون في طريقه ، كي يصحبهم إلى داره حين يراهم .. وكانوا يَحُفُّون به كما تحف أفواج النحل بالأزاهير ترتشف منها الرحيق .. !

* * *

لقد كان المال بين يديه خادما لا سيدًا ..

وكان وسيلة لضرورات العيش ، لا للترف ..

ولم يكن ماله وحده ، بل كان للفقراء فيه حق معلوم . بل حق متكافئ لا يتميز فيه بنصيب ..

ولقد أعانه على هذا الجود الواسع زهده .. فما كان « ابن عمر » يتهالك على الدنيا ، ولا يسعى إليها ، بل ولا يرجو منها إلا ما يستر الجسد من لباس ، ويقيم الأود من طعام ..

أهداه أحد إخوانه القادمين من خُراسان حُلّة ناعمة أنيقة ، وقال له :

- لقد جئتك بهذا الثوب من خراسان ، وإنه لتقر عيناي ، اذ أراك تنزع عنك ثيابك الخشنة هذه ، وترتدي هذا الثوب الجميل ..

قال له ابن عمر : أرِنيهِ إذن ..

ثم لمسه وقال : أحرير هذا . . ؟؟

قال صاحبه : لا . . . إنه قطن .

وتملاّه عبد الله قليلا ، ثم دفعه بيمينه وهو يقول : [لا . . إني أخاف على نفسي . . أخاف أن يجعلني مختالاً فخورًا . . والله لا يحب كل مختال فخور] . . ! ! !

واهداه يوما صديق وعاء مملوءًا . .

وسأله ابن عمر: ما هذا . . ؟

قال : هذا دواء عظيم جئتك به من العراق . .

قال ابن عمر : وماذا يُطَبِّبُ هذا الدواء . . ؟؟

قال : يهضم الطعام . .

فابتسم ابن عمر وقال لصاحبه : [يهضم الطعام . . ؟؟ إني لم أشبع من طعام قط منذ أربعين عامًا] . . ! ! !

إن هذا الذي لم يشبع من طعام منذ أربعين عاما ، لم يكن يترك الشبع خصاصة . . بل زهدًا وورعا ، ومحاولة للتأسي برسوله وأبيه . .

كان يخاف أن يقال له يوم القيامة :

[أَذْهَبْتُم طَيِّبَاتِكُم في حَياتكم الدنيا ، واسْتَمْتَعْتم بها] . .

وكان يدرك أنه في الدنيا ضيف ، وعابر سبيل . .

ولقد تحدث عن نفسه فقال :

[ما وَضَعتُ لَبِنَةً عَلى لَبِنَةٍ ، ولا غَرَسْتُ نخلةً منذُ تُوفّي رَسُول

اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] . . .

ويقول ميمون بن مهران :

[دخلت على ابن عمر . فقوّمتُ كل شيءٍ في بيته من فراش ، ولحاف . وبساط . . . ومن كلّ شيءٍ فيهِ . فما وجدته يُساوِي مائة درهم] . . . ! ! !

لم يكن ذلك عن فقر . . فقد كان ابن عمر ثريًا . .

ولا كان ذلك عن بخل . . فقد كان جوادًا سخيًا . .

وإنما كان عن زهد في الدنيا . وازدراء للترف . والتزام لمنهجه في الصدق والورع . .

ولقد عمَّر ابن عمر طويلا . وعاش في العصر الأموي الذي فاضت فيه الأموال وانتشرت الضياع ، وغطى البذخ أكثر الدور . . بل قلْ أكثر القصور . .

ومع هذا ، بقي ذلك الطود الجليل شامخًا ثابتًا ، لا يبرح نهجه ولا يتخلى عن ورعه وزهده .

وإذا ذُكِّر بحظوظ الدنيا ومتاعها التي يهرب منها قال :

[لقد اجتمعتُ وأصحابي على أمر ، وإني أخاف إن خالَفْتُهم ألّا ألْحَقَ بهم] . . .

ثم يُعلّم الآخرين أنه لم يترك دنياهم عجزًا . فيرفع يديه إلى السماء ويقول :

[اللهم إنك تعلم أنه لولا مخافَتُك لزاحمنا قومَنا قريشًا في هذه

الدنيا] . . .

* * *

أجل . . . لولا مخافة ربه لزاحم في هذه الدنيا ، ولكان من الظافرين . .

بل إنه لم يكن بحاجة إلى أن يزاحم ، فقد كانت الدنيا تسعى إليه وتطارده بطيباتها ومغرياتها . .

وهل هناك كمنصب الخلافة إغراء . . ؟ ؟

لقد عرض على « ابن عمر » مرات وهو يُعْرِض عنه . . وهُدِّد بالقتل إن لم يقبل ، فازداد له رفضًا ، وعنه إعراضًا . . ! !

يقول الحسن رضي الله عنه :

[لما قُتِلَ عثمان بن عفان ، قالوا لعبد الله بن عمر : إنك سيدُ الناس ، وابن سَيِّدِ الناس ؛ فاخرج نُبَايع لك الناس . . .

« قال : إني واللهِ لئن استطعتُ ، لا يُهْرَاقُ بسببي مِحْجَمَة مِنْ دم . . .

قالوا : لَتَخْرُجَنَّ ، أو لنقتلنك على فِرَاشك . . . فأعاد عليهم قوله الأول . . .

فأطْمَعُوه . . وخوَّفوه . . فما استقبلوا منه شيئًا] . . ! !

وفيما بعد . . وبينما كان الزمان يمر ، والفتن تكثر ، كان ابن عمر دومًا هو الأمل ، فيلح الناس عليه ، كي يقبل منصب الخلافة ، ويجيئوا له بالبيعة ، ولكنه كان دائمًا يأبى . .

ولقد يشكل هذا الرفض مأخذًا يوجه إلى ابن عمر . .

بيد أنه كان له منطقه وحجته.

فبعد مقتل عثمان رضي الله عنه ، ساءت الأمور وتفاقمت على نحو ينذر بالسوء وبالخطر..

وابن عمر ، وإن يك زاهدًا في جاه الخلافة ، فإنه يتقبل مسئولياتها ويحمل أخطارها ، ولكن شريطة أن يختاره جميع المسلمين طائعين ، مختارين ، أما أن يُحمل واحد لا غير على بيعته بالسيف ، فهذا ما يرفضه ويرفض الخلافة معه..

وآنئذ ، لم يكن ذلك ممكنًا.. فعلى الرغم من فضله ، وإجماع المسلمين على حبه وتوقيره ، فإن اتساع الأمصار ، وتنائيها ، والخلافات التي احتدمت بين المسلمين ، وجعلتهم شيعًا تتنابذ بالحرب ، وتتنادى للسيف ، لم يجعل الجو مهيأ لهذا الإجماع الذي يشترطه عبد الله بن عمر..

لقيه رجل يوما فقال له : ما أحد شر لأمة محمد منك..!

قال ابن عمر: ولم..؟ فوالله ما سفكت دماءهم ، ولا فرقت جماعتهم ، ولا شققت عصاهم..

قال الرجل : إنك لو شئت ما اختلف فيك اثنان..

قال ابن عمر: ما أحب أنها أتتني ، ورجل يقول : لا ، وآخر يقول : نعم.

وحتى بعد أن سارت الأحداث شوطًا طويلا ، واستقر الأمر لمعاوية.. ثم لابنه يزيد من بعده.. ثم ترك معاوية الثاني ابن يزيد الخلافة زاهدًا فيها بعد أيام من توليها..

حتى في ذلك اليوم ، وابن عمر شيخ مسن كبير ، كان لا يزال أمل

الناس ، وأمل الخلافة . . فقد ذهب إليه « مروان » وقال له :

- هَلُمَّ يدك نبايع لك ، فإنك سيد العرب وابن سيدها . .

قال له ابن عمر : كيف نصنع بأهل المشرق . . ؟

قال مروان : نضربهم حتى يبايعوا . .

قال ابن عمر :

[واللهِ ما أُحِبُّ أنها تكون لي سبعين عامًا ، ويُقْتلُ بسببي رجل واحد] . . . ! !

فانصرف عنه مروان وهو ينشد :

إني أرى فِتنةَ تغلي مَراجلها   والملك بعد أبي ليلى لمن غَلبا

يعني بأبي ليلى ، معاوية بن يزيد . .

* * *

هذا الرفض لاستعمال القوة والسيف ، هو الذي جعل « ابن عمر » يتخذ من الفتنة المسلحة بين أنصار علي ، وأنصار معاوية ، موقف العُزلة والحياد جاعلًا شعاره ونهجه هذه الكلمات :

[مَنْ قال : حَيَّ عَلَى الصلاة أَجَبْتُه . .

ومن قال : حَيَّ عَلَى الفلاح أَجَبْتُه . .

ومن قال : حَيَّ عَلَى قَتْلِ أخيك المسلم ، وأَخْذِ مالهِ قلتُ : لا] . . ! !

ولكنه في عزلته تلك وفي حياده ، لا يمالئ باطلا . .

فلطالما جَابَهَ معاوية وهو في أوج سلطانه بتحديات أوجعته وأربكته . . حتى توعده بالقتل ، وهو القائل : « لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت » . . ! !

وذات يوم ، وقف الحجاج خطيبًا ، فقال : « إن ابن الزبير حَرَّف كتاب الله » !

فصاح ابن عمر في وجهه : [كذبت . . كذبت . . كذبت . .]

وسُقط في يد الحجاج ، وصعقته المفاجأة ، وهو الذي يَرهبه كل شيء ، فمضى يتوعد « ابن عمر » بِشَرٍّ جزاء . .

ولوح ابن عمر بذراعه في وجه الحجاج ، وأجابه والناس منبهرون : [إن تفعل ما تتوعد به فلا عجب ، فإنك سفيه مُسَلَّط] . . ! !

ولكنه – رغم قوته وجرأته – ظل إلى آخر أيامه، حريصًا على ألا يكون له في الفتنة المسلحة دور ونصيب ، رافضًا أن ينحاز فيها لأي فريق . . يقول أبو العالية البراء :

[كُنتُ أمشي يوما خلف ابن عمر ، وهو لا يشعر بي ، فسمعته يقول لنفسه :

« واضعين سُيُوفهم عَلَى عَوَاتِقِهِم ، يقتلُ بعضهم بعضًا يقولون :

« يا عبدَ اللهِ بن عمر ، أَعْطِ يَدَكَ] . . . ؟ !

وكان يتفجر أسى وألمًا ، حين يرى دماء المسلمين تسيل بأيديهم . . ! !

وكان – كما قرأنا له في مفتتح حديثنا هذا عنه – [لا يوقظ مؤمنًا من

مرقده] . .

ولو استطاع أن يمنع القتال ، ويصون الدم لفعل . ولكن الأحداث كانت أقوى منه ، فاعتزلها .

ولقد كان قلبه مع علي رضي الله عنه . بل وكان معه يقينه فيما يبدو ، حتى لقد روي عنه أنه قال في أخريات أيامه :

[ما أجدُني آسَى عَلَى شيْ فاتني من الدنيا إلا أني لم أُقاتل مع عليّ ، الفِئَةَ الباغية] . . ! !

على أنه حين رفض أن يقاتل مع الإمام عليّ الذي كان الحق له . وكان الحق معه ، فإنه لم يفعل ذلك هربا ، ولا التماسًا للنجاة . . بل رفضًا للخلاف كله ، والفتنة كلها . وتجنبًا لقتال لا يدور بين مسلم ومشرك ، بل بين مسلمين يأكل بعضهم بعضًا . .

ولقد أوضح ذلك تماما حين سأله نافع فقال : « يا أبا عبد الرحمن ، أنت ابن عمر . . وأنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت وأنت ، فما يمنعك من هذا الأمر – يعني نصرة عليّ – . . ؟ ؟

فأجابه قائلا :

[يمنعني أن الله تعالى حَرَّم عليّ دمَ المسلم . لقد قال عزّوجل : (قاتِلوهم حتى لا تَكُونَ فتنة . ويكونَ الدينُ للهِ . .)

ولقد فعلنا . وقاتلنا المشركين حتى كان الدينُ لله . أمّا اليوم . فنيم نُقَاتِل . . . ؟ ؟

لقد قاتلتُ ، والأوثانُ تملأ الحرم . . . من الركن إلى الباب . حتى نَضَاها الله من أرض العرب . . .

أَفأُقاتِلُ اليوم من يقول : لا إله إلا الله] . . ؟ !

هكذا كان منطقه ، وكانت حجته ، وكان اقتناعه . .

فهو إذن لم يتجنب للقتال ولم يشترك فيه ، لا هروبًا ، أوسلبية ، بل رفضًا لإقرار حرب أهلية بين الأمة المؤمنة ، واستنكافا عن أن يشهر مسلم في وجه مسلم سيفا . .

ولقد عاش « عبد الله بن عمر » طويلا . . وعاصر الأيام التي فتحت فيها أبواب الدنيا على المسلمين ، وفاضت الأموال ، وكثرت المناصب ، واستشرت المطامح والرغبات . .

لكن قدرته النفسية الهائلة ، غيرت كيمياء الزمن . . ! ! فجعلت عصر الطموح ، والمال ، والفتن . . جعلت هذا العصر بالنسبة إليه ، أيام زهد . وورع ، وسلام ، عاشها المثابر الأوَّاب بكل يقينه ، ونسكه ، وترفعه . . ولم يُغْلب قط على طبيعته الفاضلة التي صاغها وصقلها الإسلام في أيامه الأولى العظيمة الشاهقة . .

لقد تغيرت طبيعة الحياة ، مع بدء العصر الأموي ، ولم يكن ثَمَّةَ مفر من ذلك التغير . . وأصبح العصر يومئذ ، عصر توسع في كل شيء . . تَوسُّع لم تستجب إليه مطامح الدولة فحسب ، بل ومطامح الجماعة والأفراد أيضًا .

ووسط لُجج الإغراء ، وجيشان العصر المفتون بمزايا التوسع ، وبمغانمه ، ومباهجه — كان « ابن عمر » يعيش مع فضائله ، في شغل عن ذلك كله بمواصلة تقدمه الروحي العظيم .

ولقد أحرز من أغراض حياته الجليلة ما كان يرجو حتى لقد وصفه معاصروه فقالوا :

[مات « ابنُ عمر » وهو مثل « عمر » في الفضل] .

بل لقد كان يطيب لهم حين يبهرهم أَلَقُ فضائله . أن يقارنوا بينه وبين والده العظيم « عمر » .. فيقولون :

[كان « عمر » في زمان له فيه نُظَراء . وكان « ابن عمر » في زمان ليس له فيه نظير] .. ! !

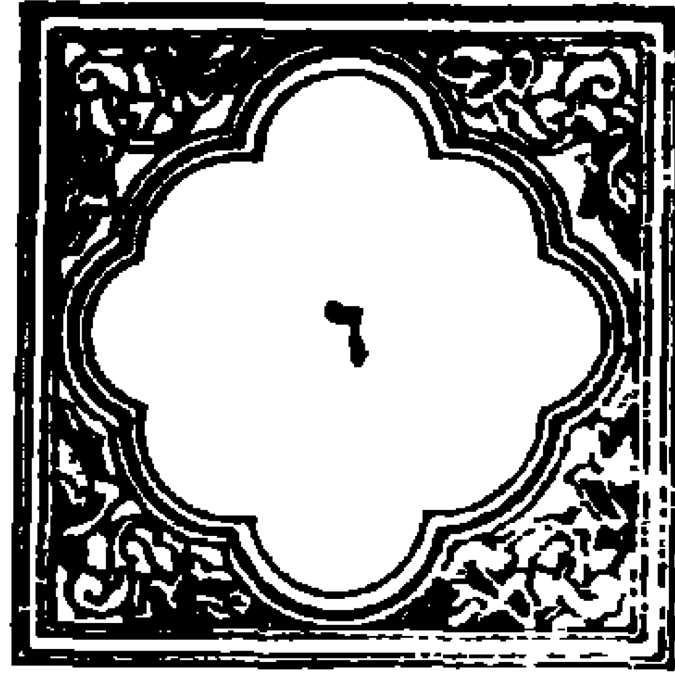
وهي مبالغة يَغفرها استحقاق ابن عمر لها .. أما « عمر » فلا يقارن بمثله أحد .. وهيهات أن يكون له في كل عصور الزمان نظير ..

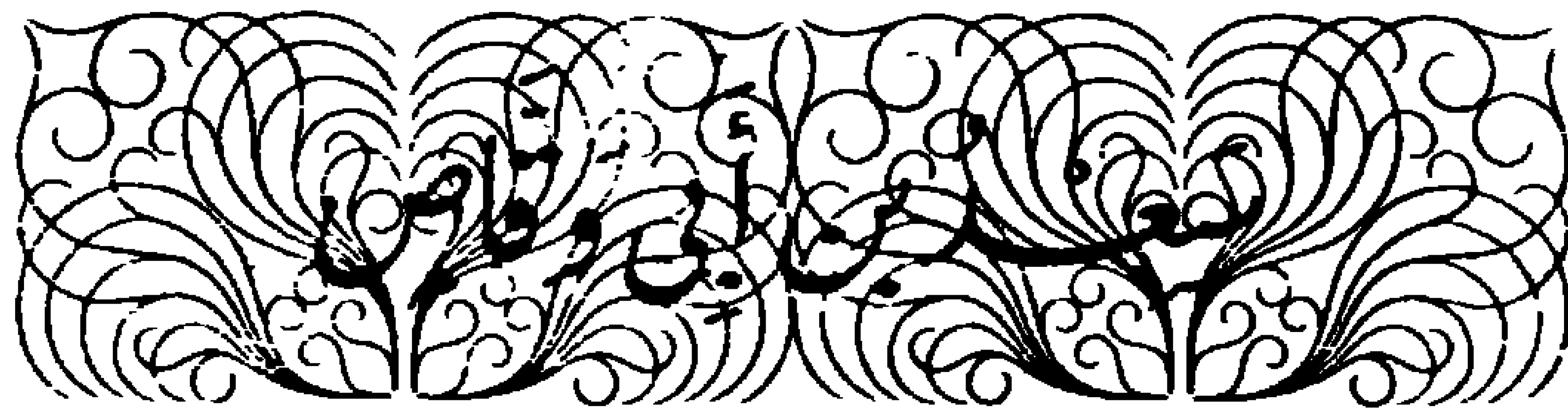
* * *

وفي العام الثالث والسبعين للهجرة .. مالت الشمس للمغيب ، ورَفعت إحدى سفن الأبدية مراسيها ، مبحرة إلى العالم الآخر والرفيق الأعلى ، حاملة جثمان آخر ممثل لأيام الوحي - في مكة والمدينة - عبد الله بن عمر ابن الخطاب[1] ..

---

(١) كان آخر الصحابة رحيلا عن الدنيا كلها - أنس بن مالك - رضي الله عنه . توفي بالبصرة . عام واحد وتسعين للهجرة ، وقيل عام وتسعين .





- الأَسَدُ فِي بَرَاثِنِهِ !! -



أقلقت الأنباء أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » ، عندما جاءته تترى بالهجمات الغادرة التي تشنها قوات الفرس المسلحة على المسلمين . . وبمعركة الجسر التي ذهب ضحية لها في يوم واحد أربعة آلاف شهيد . . وبنقض أهل العراق عهودهم ، والمواثيق التي كانت عليهم . . فقرر أن يذهب بنفسه ليقود جيوش المسلمين ، في معركة فاصلة ضد فارس . .

وركب في نفر من أصحابه مستخلفًا على المدينة « عليّ بن أبي طالب » كرم الله وجهه . .

لكنه لم يكد يمضي عن المدينة ، حتى رأى بعض أصحابه أن يعود ، وينتدب لهذه المهمة واحدًا غيره من الأصحاب . .

وتبنى هذا الرأي « عبد الرحمن بن عوف » ، معلنًا أن المخاطرة بحياة أمير المؤمنين على هذا النحو والإسلامُ يعيش أيامه الفاصلة ، عمل غير سديد . .

وأمر « عمر » أن يجتمع المسلمون للشورى ونودي : — الصلاة جامعة — واستدعي علي بن أبي طالب ، فانتقل مع بعض أهل المدينة إلى حيث كان أمير المؤمنين وأصحابه . . وانتهى الرأي إلى ما نادى به عبد الرحمن بن عوف ، وقرر المجتمعون أن يعود « عمر » إلى المدينة ، وأن يختار للقاء الفرس قائدًا آخر من المسلمين . .

ونزل أمير المؤمنين على هذا الرأي ، وعاد يسأل أصحابه :

- فمن ترون أن نبعث إلى العراق . . ؟ ؟

وصمتوا قليلا يفكرون . .

ثم صاح عبد الرحمن بن عوف : قد وجدته . . . ! !

قال عمر : فمن هو . . ؟

قال عبد الرحمن :

[الأسدُ في بَراثِنِه . . سعد بن مالك الزُّهري . .]

وأيد المسلمون هذا الاختيار ، وأرسل أمير المؤمنين إلى سعد بن مالك الزهري - الذي هو سعد بن أبي وقاص - وولاه إمارة العراق ، وقيادة الجيش . .

فمن هو هذا « الأسد في براثنه » . . ؟

من هذا الذي كان إذا قدم على الرسول وهو بين أصحابه حياه وداعبه قائلا :

[هذا خالي . . . فَلْـيُرِنِي امْرُؤٌ خالَهُ] . . ! !

إنه سعد بن أبي وقاص . . جده أُهَيْب بن مناف . عم السيدة آمنة أم رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

لقد عانق الإسلام وهو ابن سبع عشرة سنة ، وكان إسلامه مبكرًا ، وإنه ليتحدث عن نفسه ، فيقول :

[. . ولقد أتى عَلَيَّ يوم ، وإني لَثُلُثُ الإسلام] . . ! !

يعني أنه كان ثالث أول ثلاثة سارعوا إلى الإسلام . . .

ففي الأيام الأولى التي بدأ الرسول يتحدث فيها عن الله الأحد ، وعن

الدين الجديد الذي يزف الرسول بُشراه ، وقبل أن يتخذ النبي صلى الله عليه وسلم من دار الأرقم مَلاذًا له ولأصحابه الذين بدأوا يؤمنون به ..كان سعد بن أبي وقاص قد بسط يمينه إلى رسول الله مبايعًا . .

وإن كُتب التاريخ والسِّيَر لتحدثنا بأنه كان أحد الذين أسلموا بإسلام أبي بكر ، وعلى يديه . .

ولعله يومئذ أعلن إسلامه مع الذين أعلنوه بإقناع أبي بكر إياهم ، وهم عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله .

وهذا لا يمنع سبقه بالإسلام سِرًّا . .

وإن لسعد بن أبي وقاص لأمجادًا كثيرة يستطيع أن يباهي بها ويفخر . .

بيد أنه لم يتغنَّ من مزاياه تلك ، إلا بشيئين عظيمين . .

أولهما : أنه أول من رَمَى بسهم في سبيل الله ، وأول من رُمِيَ أيضًا . .

وثانيهما : أنه الوحيد الذي افتداه الرسول بأبويه فقال له يوم أُحُد :

[ارْمِ سعد . . فِدَاكَ أبي وأُمِّي] . .

أجل . . كان دائمًا يتغنى بهاتين النعمتين الجزيلتين ، ويلهج بشكر الله عليهما فيقول :

[والله ، إني لأَوَّلُ رجل من العرب رَمى بسهم في سبيل الله] . .

ويقول علي بن أبي طالب :

[ما سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يَفْدِي أحدًا بأبويه إلا سعدًا ، فإني سمعته يوم أُحُد يقول :
ارْمِ سعد . . فِدَاك أبي وأمي] . .

كان سعد يُعَدُّ من أشجع فرسان العرب والمسلمين وكان له سلاحان رمحه . . ودعاؤه . .

إذا رمى في الحرب عدوًّا أصابه . . وإذا دعا الله دعاء أجابه . . ! !

وكان ، وأصحابه معه ، يردُّون ذلك إلى دعاء الرسول له . . فذات يوم وقد رأى الرسول صلى الله عليه وسلم منه ما سرّه وقرَّ عينه ، دعا له هذه الدعوة المأثورة . .

[اللهم سَدِّدْ رَمْيَتَه . . وَأَجِبْ دَعْوَته] . .

وهكذا عرف بين إخوانه وأصحابه بأن دعوته كالسيف القاطع ، وعرف هو ذلك من نفسه وأمره ، فلم يكن يدعو على أحد إلا مفوضًا إلى الله أمره .

من ذلك ما يرويه « عامر بن سعد » فيقول :

[رأى سعد رجلا يسُبُّ عليًّا ، وطلحة ، والزُّبير ، فنهاهُ ، فلم يَنْتَهِ . . فقال له : إِذَنْ أدْعُو عليك . فقال الرجل : أراك تتهدَّدُني كأنك نبي . . ! !

« فانصرف سعد وتوضأ وصلى ركعتين . ثم رفع يديه وقال : اللهم إن كُنت تعلم أن هذا الرجل قد سَبَّ أقوامًا سَبَقَت لهم منك الحسنى ، وأنه قد أسْخَطك سَبُّهُ إياهم ، فاجعله آية وعِبْرَة . . .

« فلم يمض غير وقت قصير ، حتى خرجت من إحدى الدور ناقة نَادَّة لا يردُّها شيء حتى دخلت في زحام الناس – كأنها تبحث عن شيء – ثم اقتحمت الرجل فأَخَذَتْهُ بين قوائمها . . وما زالت تَتَخَبَّطه حتى مات] . . ! !

إن هذه الظاهرة ، تنبيء أول ما تنبيء عن شفافية روحه ، وصدق يقينه ، وعمق إخلاصه .

وكذلكم كان سعد ، روحه حر . . ويقينه صلب . . وإخلاصه عميق . .

وكان دائب الاستعانة على دعم تقواه باللقمة الحلال ، فهو يرفض في إصرار عظيم كل درهم فيه أثارة من شبهة . .

ولقد عاش سعد ، حتى صار من أغنياء المسلمين وأثريائهم ، ويوم مات خلف وراءه ثروة غير قليلة . . ومع هذا فإذا كانت وفرة المال وحَلالُه ، قلما يجتمعان ، فقد اجتمعا بين يدي سعد . . إذ آتاه الله ، الكثير ، الحلال ، الطيب . .

ولقد كان رضي الله عنه أستاذًا في فن العطاء ، مثلما كان أستاذًا في فن الانتقاء . .

وقدرته على جمع ماله من الحلال الخالص ، يضاهيها – وربما يفوقها – قدرته على إنفاقه في سبيل الله . .

في حجة الوداع ، كان هناك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصابه المرض ، وذهب الرسول يعوده ، فسأله سعد قائلا :

[يا رسول الله ، إني ذو مال ، ولا يَرِثُني إلا ابنة ،

أفأتَصَدَّق بِثُلُثَيْ مالي . . ؟

قال النبي : لا . .

قلت : فَبِنِصْفِهِ . . ؟

قال النبي : لا . .

قلت : فبِثُلُثِه . . ؟

قال النبي : نعم ، والثلثُ كثير . . إنك إن تَذَرْ وَرَثتك أغنياء ، خير من أن تَذَرَهم عالةً يتكَفَّفُون الناس . وإنك لن تُنْفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجِرْتَ بها ، حتى اللقمة تضعُهَا في فم امرأتك] . .

ولم يظل سعد أبًا لبنت واحدة . . فقد رزق بعد هذا أبناء آخرين .

* * *

وكان سعد كثير البكاء من خشية الله .

وكان إذا استمع للرسول يعظهم ، ويخطبهم ، فاضت عيناه من الدمع حتى تكاد دموعه تملؤ حجره . .

وكان رجلا أوتي نعمة التوفيق والقبول . .

ذات يوم والنبي جالس مع أصحابه ، رنا بصره إلى الأفق في إصغاءِ مَن يتلقى همسًا وسرًا . . ثم نظر في وجوه أصحابه وقال لهم :

[يطلعُ عليكم الآن رجل من أهل الجنة] . .

وأخذ الأصحاب يتلفتون صوب كل اتجاه يستشرفون هذا السعيد الموفق المحظوظ . .

وبعد حين قريب ، طلع عليهم سعد بن ابي وقاص .

ولقد لاذ به فيما بعد « عبد الله بن عمرو بن العاص » سائلا إياه في إلحاح أن يدله على ما يتقرب به إلى الله من عبادة وعمل ، جعله أهلا لهذه المثوبة ، وهذه البشرى . . فقال له سعيد :

[لا شيء أكثر ممَّا نعمل جميعًا ونَعْبُد . . .

غير أني لا أحمل لأحد من المسلمين ضِغْنًا ولا سوءًا] .

هذا هو « الأسد في براثنه » كما وصفه عبد الرحمن بن عوف . .

وهذا هو الرجل الذي اختاره عمر ليوم القادسية العظيم . .

كانت كل مزاياه تتألق أمام بصيرة أمير المؤمنين وهو يختاره لأصعب مهمة تواجه الإسلام والمسلمين . .

* إنه مستجاب الدعوة . . إذا سأل الله النصر أعطاه إياه . .
* وإنه عَفُّ الطُّعْمة . . عف اللسان . . عف الضمير . .
* وإنه واحد من أهل الجنة ، كما تنبأ له الرسول . .
* وإنه الفارس يوم بدر . . والفارس يوم أُحُد . . والفارس في كل مشهد شهده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . .
* وأخرى ، لا ينساها « عمر » ولا يغفل عن أهميتها وقيمتها وقدرها بين الخصائص التي يجب أن تتوفَّر لكل من يتصدى لعظائم الأمور ، تلك هي صلابة الإيمان . .

إن عمر لا ينسى نبأ سعد مع أُمِّه يوم أسلم واتبع الرسول . .

يومئذ أخفقت جميع محاولات رده وصده عن سبيل الله . . فلجأت

أُمُّه إلى وسيلة لم يكن أحد يشك في أنها ستهزم روح سعد وترد عزمه إلى وثنية أهله وذويه . .

لقد أعلنت أُمه صومها عن الطعام والشراب . حتى يعود سعد إلى دين آبائه وقومه ، ومضت في تصميم مستميت تواصل إضرابها عن الطعام والشراب حتى أشرفت على الهلاك . .

كل ذلك وسعد لا يبالي ، ولا يبيع إيمانه ودينه بشيء ، حتى لو يكون هذا الشيئ حياة أُمه . .

وحين كانت تشرف على الموت ، أخذه بعض أهله إليها ليلقي عليها نظرة وداع ؛ مؤملين أن يرق قلبه حين يراها في سكرة الموت . .

وذهب سعد . . ورأى مشهدًا يذيب الصخر . .

بيد أن إيمانه بالله وبرسوله كان قد تفوق على كل صخر ، وعلى كل فولاذ ، فاقترب بوجهه من وجه أمه ، وصاح بها لتسمعه :

[تعلمينَ واللهِ يا أُمَّه . . لوكانت لك مائةُ نَفْسٍ ، فخرجت نَفْسًا نفْسًا ما تركْتُ ديني هذا لشيئ . . .

فكُلي – إن شئتِ – أو لا تأْكلي] . . . ! !

وعدلت أمه عن عزمها . . ونزل الوحي يُحيِّي موقف سعد ، ويؤيده فيقول :

[وإِنْ جاهَدَاك عَلَى أَنْ تُشْرِك بِي ما ليس لكَ به علمٌ فلا تُطِعْهُما] . .

أليس هو « الأسد في براثنه » حقًا . . ؟ ؟

إذن فليغرس أمير المؤمنين لواء القادسية في يمينه . وليَرْمِ به الفرس المتجمعين في أكثر من مائة ألف من المقاتلين المدربين . المدجَّجين بأخطر ما كانت تعرفه الأرض يومئذ من عتاد وسلاح . . تقودهم أذكى عقول الحرب يومئذ ، وأدهى دُهاتها . .

أجل . . إلى هؤلاء في فيالقهم الرهيبة . يخرج سعد في ثلاثين ألف مقاتل لا غير . . في أيديهم رماح . . مجرد رماح . . ولكن في قلوبهم إرادة الدين الجديد بكل ما تمثله من إيمان ، وعنفوان ، وشوق نادر وباهر إلى الموت ، وإلى الشهادة . . ! ! !

والْتَقَى الجمعان . . .

ولكن . لا . . لم يلتق الجمعان بعد . .

وإن سعدًا هناك ينتظر نصائح أمير المؤمنين عمر وتوجيهاته . . . وها هو ذا كتاب « عمر » إليه يأمره فيه بالمبادرة إلى القادسية . فإنها - باب فارس - ويلقي على قلبه كلمات كلها نور وهدى :

[يا سعد بن وهيب . .

لا يَغُرَّنك من الله ، أن قيل : خالُ رسُول اللهِ وصاحبه . فإن الله ليس بينه وبين أحد نَسَبٌ إلّا بطاعته . . . والناسُ شريفُهم ووضيعهم في ذات الله سواء . . . اللهُ ربهم ، وهم عِبَادُه . . يتفاضلون بالعافية ، ويُدْرِكُون ما عند الله بالطاعة . . . فانظر الأمرَ الذي رأيتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم منذُ بُعث إلى أن فارقنا عليه . فالْزَمْهُ ، فإنهُ الأمر . . .]

ثم يقول له :

[اكْتب إليَّ بجميع أحوالكم . . . وكيف تنزلون . . . ؟

وأينَ يكون عدوكم منكم . . .

واجعلني -بكُتُبِكَ إليَّ- كأني أَنظُر إليكم] . . . ! !

ويكتب سعد إلى أمير المؤمنين فيصف له كل شيْ . حتى إنه لَيكادُ يحدد له موقف كل جندي ومكانَه . .

وينزل سعد القادسية ، ويتجمع الفرس جيشًا وشعبًا . كما لم يتجمعوا من قبل . ويتولى قيادة الفرس أشهر وأخطر قوادهم « رُستم » . .

ويكتب سعد إلى عمر . فيكتب إليه أمير المؤمنين :

[لا يَكْرِبَنَّك ما تسمع منهم ، ولا ما يأتونك به ، واستعن بالله ، وتوكل عليه ؛ وابعث إليه رجالًا من أهل النظر والرأي والجلدِ ، يَدْعُونه إلى الله . . . واكْتب إليَّ في كل يوم . .]

ويعود سعد فيكتب لأمير المؤمنين قائلا : [إن « رستم » قد عسكر بـ« ساباط » وجر الخيول والفيلة . وزحف علينا] .

ويجيبه عمر مُطَمئنًا ومشيرًا . . .

إن سعدًا الفارس الذكي المقدام . خال رسول الله . والسابق إلى الإسلام ، بطل المعارك والغزوات . والذي لا يَنْبو له سيف ، ولا يزيغ منه رمح . . يقف على رأس جيشه في إحدى معارك التاريخ الكبرى . يقف وكأنه جندي عادي . . لا غرور القوة ، ولا صلف الزعامة ، يحملانه على الركون المفرط لثقته بنفسه . . بل هو يلجأ إلى أمير المؤمنين في المدينة

وبينهما أبعاد وأبعاد ، فيرسل له كل يوم كتابا ، ويتبادل معه والمعركة الكبرى على وشك النشوب – المشورة والرأي . .

ذلك أن سعدًا يعلم أن عمر في المدينة لا يُفْتي وحده ، ولا يقرر وحده . . بل يستشير الذين حوله من المسلمين ومن خيار أصحاب رسول الله . . وسعد لا يريد رغم كل ظروف الحرب أن يحرم نفسه ، ولا أن يحرم جيشه ، بَرَكَة الشورى وجدواها ، لا سِيَّما حين يكون بين أقطابها « عمر » الملهم العظيم . .

* * *

وينفذ سعد وصية عمر . فيرسل إلى « رستم » قائد الفرس نفرًا من صحابه يدعونه إلى الله وإلى الإسلام . .

ويطول الحوار بينهم وبين قائد الفرس ، وأخيرًا ينهون الحديث معه ذ يقول قائلهم :

[إنَّ الله اختارنا لِيُخْرج بنا من يشاء من خَلْقِه من الوثنية إلى التوحيد . . ومن ضِيق الدنيا إلى سَعَتِها ، ومِنْ جَوْر الحكام إلى عدل الإسلام . . .

« فمن قَبِلَ ذلك منا . قَبِلْنَا منه . وَرَجَعنا عنه ، ومن قاتلنَا قاتلناهُ حتى نُفْضِي إلى وَعدِ الله . . .]

ويسأل رستم : – وما وَعْدُ الله الذي وعدكم إياه . . ؟ ؟

فيجيبه الصحابي :

[الجنةُ لشهدائنا . والظَّفَر لأحيائنا . . .]

ويعود الوفد إلى قائد المسلمين سعد . ليخبروه أنها الحرب . .

وتمتلئ عينا سعد بالدموع . .

لقد كان يود لو تأخرت المعركة قليلا . أو تقدمت قليلا . . فيومئذ كان مرضه قد اشتد عليه وثقلت وطأته . . وملأت الدمامل جسده حتى ما كان يستطيع أن يجلس ، فضلا أن يعلو صهوة جواده ويخوض عليه معركة بالغة الضراوة والقسوة . . ! !

فلو أن المعركة جاءت قبل أن يمرض ويسقم . أو لو أنها استأخرت حتى يَبِلّ ويُشفى ، إذن لأبلى فيها بلاءه العظيم . . أما الآن . . ولكن . لا ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم علمهم ألا يقول أحدهم : لو . . لأن « لو » هذه تعني العجز ، والمؤمن القوي لا يعدم الحيلة ، ولا يعجز أبدًا . .

عندئذ هب « الأسد في براثنه » ووقف في جيشه خطيبًا ، مستهلّا خطابه بالآية الكريمة :

[بسم الله الرحمن الرحيم
ولقد كَتبنا في الزَّبُور من بعد الذِّكْرِ أن الأرض يَرِثُهَا عِبَاديَ الصَّالحون] . .

وبعد فراغه من خطبته ، صلى بالجيش صلاة الظهر ، ثم استقبل جنوده مكبرًا أربعًا : اللهُ أكبر . اللهُ أكبر . . اللهُ أكبر . اللهُ أكبر . .

ودوّى الكون وأوّبَ مع المكبرين ، ومد ذراعه كالسهم النافذ مشيرًا إلى العدو ، وصاح في جنوده : هيا على بركة الله . .

وصعد هو متحاملا على نفسه وآلامه إلى شرفة الدار التي كان ينزل

بها ويتخذها مركزًا لقيادته . . وفي الشرفة جلس متكئا على صدره فوق وسادة . باب داره مفتوح . . وأقل هجوم من الفرس على الدار يسقطه في أيديهم حيًا أو ميتًا . . ولكنه لا يرهب ولا يخاف . .

دماملة تنبح وتنزف ، ولكنه عنها في شغل . فهو من الشرفة يكبر ويصيح . . ويصدر أوامره لهؤلاء : أن تقدموا صوب الميمنة . . ولأولئك : أن سُدُّوا ثغرات الميسرة . . أمامك يا مُغيرة . . وراءهم يا جرير . . اضرب يا نعمان . . اهجم يا أشعث . . وأنت يا قعقاع . . تقدموا يا أصحاب محمد . . ! !

وكان صوته المفعم بقوة العزم والأمل ، يجعل من كل جندي فردٍ ، جيشًا بأسره . .

وتهاوى جنود الفرس كالذباب المترنج . . وتهاوت معهم الوثنية وعبادة النار . . ! !

وطارت فلولهم المهزومة بعد أن رأوا مصرع قائدهم وخيرة جنودهم ، وطاردهم الجيش المسلم حتى « نهاوند » . . ثم « المدائن » فدخلوها ليحملوا إيوان كسرى وتاجه ، غنيمة وفيئًا . . ! !

* * *

وفي موقعة « المدائن » أبلَى سعد بلاء عظيما . .

وكانت موقعة المدائن ، بعد موقعة القادسية بقرابة عامين – جرت خلالهما مناوشات مستمرة بين الفرس والمسلمين ، حتى تجمعت كل فلول الجيش الفارسي وبقاياه في المدائن نفسها ، متأهبة لموقف أخير وفاصل . . .

وأدرك « سعد » أن الوقت سيكون بجانب أعدائه . فقرر أن يَسْلُبهم هذه المزية . . ولكن أنّى له ذلك وبينه وبين المدائن نهر دجلة في موسم فيضانه وجيشانه . .

هنا موقف يثبت فيه « سعد » أنه حقًّا كما وصفه عبد الرحمن ابن عوف « الأسد في براثنه » . . ! !

وإن إيمان « سعد » وتصميمه ليتألقان في وجه الخطر ، ويتسوَّران المستحيل في استبسال عظيم . . ! !

وهكذا ، أصدر « سعد » أمره إلى الجيش بعبور « دجلة » . . وأمر بالبحث عن « مَخاضة » في النهر تمكن من هذا العبور . . وأخيرًا عثروا على مكان لا يخلو عبوره من المخاطرة البالغة . .

وقبل أن يبدأ الجيش عملية العبور فطن القائد « سعد » إلى وجوب تأمين مكان الوصول على الضفة الأخرى التي يرابط العدو حولها . . وعندئذ جهز كتيبتين . .

الأولى : وأطلقوا عليها « كتيبة الأهوال » وأَمّر « سعد » عليها « عاصم بن عمرو » ، والثانية واسمها « الكتيبة الخرساء » وأَمّر عليها « القعقاع بن عمرو » . .

وكان على جنود هاتين الكتيبتين أن يخوضوا الأهوال لكي يفسحوا على الضفة الأخرى مكانًا آمنًا للجيش العابر على أثرهم . . ولقد أدوا عملهم بمهارة مذهلة . .

ونجحت خطة « سعد » يومئذ نجاحًا يذهل له المؤرخون . .

نجاحًا أذهل سعد بن أبي وقاص نفسه . .

وأذهل صاحبه ورفيقه في المعركة « سلمان الفارسي » الذي أخذ يضرب كفًّا بكف دهشة وغبطة ، ويقول :

[إنَّ الإسلام جديد . .

ذُلِّلت والله لهم البحار ، كما ذُلِّلَ لهم البرّ . .

والذي نَفْسُ سلمان بيده ليخرُجُنَّ منه أفواجًا ، كما دخلوه أفواجًا] . . ! !

ولقد كان . . وكما اقتحموا نهر دجلة أفواجًا ، خرجوا منه أفواجًا . . لم يخسروا جنديًّا واحدًا ، بل لم تضع منهم شكيمة فرس . .

ولقد سقط من أحد المقاتلين قدحه ، فعزّ عليه أن يكون الوحيد بين رفاقه الذي يضيع منه شيء ، فنادى في أصحابه ليعاونوه على انتشاله ، ودفعته موجة عالية إلى حيث استطاع بعض العابرين التقاطه . . ! !

وتصف لنا إحدى الروايات التاريخية ، روعة المشهد وهم يعبرون دجلة ، فتقول :

[أمر سعد المسلمين أن يقولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل . . ثم اقْتَحَم بفرسه دجلة ، واقْتَحَم الناس وراءه ، لم يتخلف عنه أحد ، فساروا فيها كأنما يسيرون على وجه الأرض حتى ملأوا ما بين الجانبين ، ولم يَعُدْ وَجْه الماء يُرَى من أفواج الفرسان والمشاة ، وجعل الناس يتحدثون وهم يسيرون على وجه الماء وكأنهم يتحدثون على وجه الأرض ؛ وذلك بسبب ما شعروا به من الطمأنينة والأمن ، والوثوق

بأمر الله ونصره ، وَوَعْدِهِ ، وتأييده] . . ! !

* * *

ويوم ولّى عمر سعدًا إمارة العراق ، راح يبني للناس ويُعمِّر . . كوَّف الكوفة ، وأرسى قواعد الإسلام في البلاد العريضة الواسعة . .

وذات يوم شكاه أهل الكوفة لأمير المؤمنين . . لقد غلبهم طبعهم المتمرد القلق ، فزعموا زعمهم المضحك . . قالوا : « إن سعدًا لا يحسن يصلي » . . ! !

ويضحك « سعد » ملء فمه ، ويقول :

[والله إني لأصلي بهم صلاة رسول الله . . أطيل في الركعتين الأوليين ، وأقصر في الأخريين] . .

ويستدعيه عمر إلى المدينة ، فلا يغضب ، بل يلبي نداءه من فوره . .

وبعد حين يعتزم عمر إرجاعه إلى الكوفة ، فيجيبه سعد ضاحكًا :

[أتأمرني أن أعود إلى قوم يزعمون أني لا أحسن الصلاة] . . ؟ ؟ ! !

ويؤثر البقاء في المدينة . .

وحين اعْتُدِيَ على أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وأرضاه ، اختار من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ستة رجال ، ليكون إليهم أمر اختيار الخليفة الجديد ، قائلا إنه اختار ستة مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض . . وكان من بينهم سعد بن أبي وقاص .

بل يبدو من كلمات « عمر » الأخيرة ، أنه لو كان مختارًا للخلافة

واحدًا من الصحابة لاختار لها سعدًا..

فقد قال لأصحابه وهو يوصيهم ويودعهم :

[إن وَلِيَهَا سعد فذاك . . .

وإن وَلِيَهَا غيره فَلْيَسْتَعِنْ بسعد] .

* * *

ويمتد العمر بسعد . . . وتجيء الفتنة الكبرى ، فيعتزلها . . بل ويأمر أهله وأولاده ألا ينقلوا إليه شيئًا من أخبارها . . .

وذات يوم تشرئب الأعناق نحوه ، ويذهب إليه ابن أخيه هاشم ابن عتبة بن أبي وقاص ، ويقول له :

– يا عم ، ها هنا مائة ألف سيف يرونك أحق الناس بهذا الأمر.

فيجيبه سعد :

[أُرِيدُ من مائة ألف سيف ، سيفًا واحدًا... إذا ضَرَبْتُ به المؤمنَ لم يصنع شيئًا ، وإذا ضربتُ به الكافر قَطَع]...!!

ويدرك ابن أخيه غرضه ، ويتركه في عزلته وسلامه..

وحين انتهى الأمر لمعاوية ، واستقرت بيده مقاليد الحكم سأل سعدًا :

– مالك لم تقاتل معنا...؟؟

فأجابه :

[إني مررت بريح مُظْلِمة ، فقلت : أخ... أخ...
وَأَنَخْتُ رَاحِلَتِي حتى انجلتْ عني...] .

فقال معاوية : ليس في كتاب الله أخ . . أخ . . ولكن قال الله تعالى :

[وإنْ طائفتان من المؤمنين اقْتَتَلُوا ، فَأَصْلِحُوا بينهما ، فإن بَغَتْ إحداهما على الأخرى ، فقاتِلُوا التي تَبْغِي حتّى تَفِيْءَ إلى أمرِ اللهِ] . . .

وأنت لم تكن مع الباغية على العادلة . ولا مع العادلة على الباغية .

وأجابه سعد قائلا :

[ما كُنْتُ لِأُقاتِلَ رجلا – يعني علي بن أبي طالب – قال له رسول الله : أنتَ مِني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيَّ بَعْدِي] .

* * *

وذات يوم من أيام العام الرابع والخمسين للهجرة . وقد جاوز سعد سن الثمانين ، كان هناك في داره بالعقيق يتهيأ للقاء الله .

ويروي لنا ولده لحظاته الأخيرة فيقول :

[كان رأسُ أبي في حِجْري ، وهو يَقْضِي . فبكيتُ فقال : ما يُبْكيك يا بُنَي . . . ؟؟

« إن الله لا يُعذِّبني أبدًا . . . وإني من أهل الجنة] . . . ! !

إن صلابة إيمانه لا يوهنها حتّى رهبة الموت وزلزاله .

ولقد بشره الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو مؤمن بصدق الرسول عليه الصلاة والسلام أوثق إيمان . . . وإذن ففيم الخوف . . ؟

[إن الله لا يعذبني أبدًا ، وإني من أهل الجنة] .

بيد أنه يريد أن يلقى الله وهو يحمل أروع وأجمل تذكار جَمَعه بدينه وَوَصَله برسوله... ومن ثمَّ فقد أشار إلى خزانته ففتحوها، ثم أخرجوا منها رداء قديمًا قد بَلِيَ وأخلق. ثم أمر أهله أن يكفنوه فيه قائلا:

[لقد لقيتُ المشركين فيه يومَ بَـدْرٍ، ولقـد ادَّخَرتُه لهـذا اليوم]... ! !

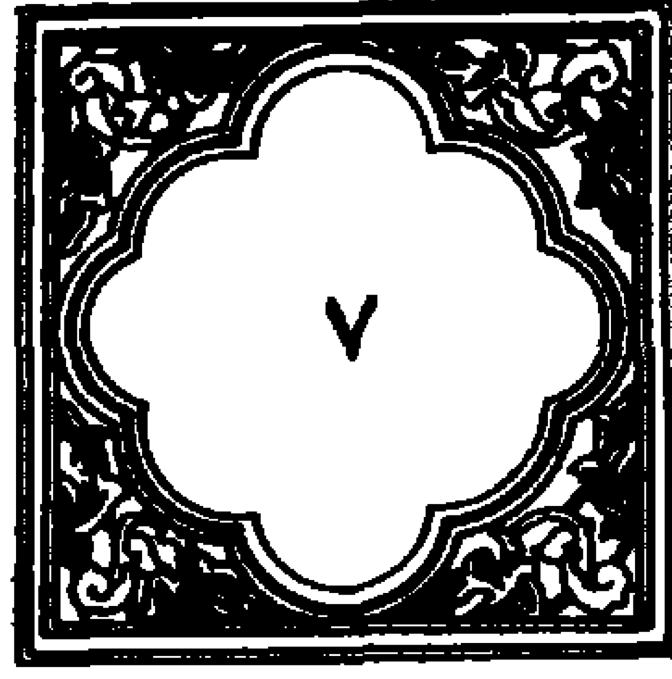
أجل، إن ذلك الثوبَ الخَلَق، لم يعد مجرد ثوب.. إنه العَلَم الذي يخفق فوق حياة مديدة شامخة عاشها صاحبها مؤمنًا، صادقا، شجاعا ! !

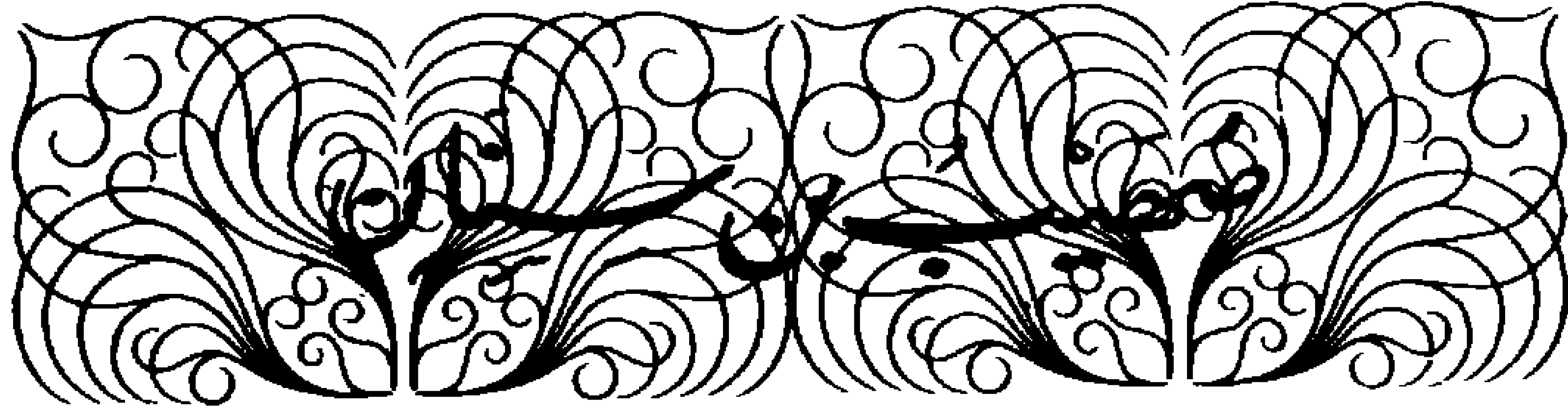
وفوق أعناق الرجال حُمِلَ إلى المدينة جثمان آخر المهاجرين وفاة، ليأخذ مكانه في سلام إلى جوار ثُلّة طاهرة عظيمة من رفاقه الذين سبقوه إلى الله، ووجدت أجسامهم الكادحة مرفأ لها في تراب البقيع وثراه.

* * *

وداعًا، سعد.. ! !

وداعًا، بطل القادسية، وفاتح المدائن، ومُطْفئ النار المعبودة في فارس إلى الأبد.. ! !





- رَبِحَ الْبَيْعُ أَبَا يَحْيَى !!



وُلد في أحضان النعيم . . .

فقد كان أبوه حاكم « الأُبلّة » ووليًا عليها لكسرى . . وكان من العرب الذين نزحوا إلى العراق قبل الإسلام بعهد طويل ، وفي قصره القائم على شاطئ الفرات ، مما يلي الجزيرة والموصل ، عاش الطفل ناعمًا ، سعيدًا . .

وذات يوم تعرضت البلاد لهجوم الروم . . . وأسر المغيرون أعدادًا كثيرة وسَبَوْا ذلك الغلام « صهيب بن سنان » . . .

ويقتنصه تجار الرقيق ، وينتهي تطوافه الطويل إلى مَكة ، حيث بيع لعبد الله بن جُدْعان ، بعد أن قضى طفولته كلها وصدر شبابه في بلاد الروم ، حتى أخذ لسانهم ولهجتهم .

ويُعْجب سيده بذكائه ونشاطه وإخلاصه ، فيعتقه ويحرِّره ، ويهيئ له فرصة الاتجار مَعَه .

وذات يوم . . . ولْندع صديقه « عَمّار بن ياسر » يحدثنا عن ذلك اليوم :

[لقيتُ صُهَيْب بن سِنَان على باب دار الأرقم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فيها . . .

فقلت له : ماذا تريد . . ؟

فأجابني : وماذا تريد أنت . . ؟

قلت له : أريد أن أدخل على محمد ، فأسْمَع ما يقول .

قال : وأنا أُريدُ ذلك . .

فدخلنا على الرسول صلى الله عليه وسلم . فَعَرَض علينا الإسلام ، فأسلمنا . .

ثم مكثنا على ذلك حتى أَمْسَيْنَا . . .

ثم خرجنا ، ونحن مُسْتَخْفِيَان] . . ! !

عرف صهيب إذن طريقه إلى دار الأرقم . . .

عرف طريقه إلى الهدى والنور ، وأيضًا إلى التضحية الشاقة والفداء العظيم . . .

فعبور الباب الخشبي الذي كان يفصل داخل دار الأرقم عن خارجها لم يكن يعني مجرد تخطي عتبة . . . بل كان يعني تخطي حدود عالَمٍ بأسْرِه . . !

عالَمٌ قديم ، بكل ما يمثله من دين وَخُلُق ، ونظام ، وحياة . . يتخطاه إلى عالم جديد بكل ما يمثله من دين وخلق ، ونظام ، وحياة . .

وتخَطِّي عتبة دار الأرقم ، التي لم يكن عرضها ليزيد عن قدم واحدة كان يعني – في حقيقة الأمر وواقعه – عبور خِضَمٍّ من الهول . . واسع ، وعريض . . .

واقتحام تلك العقبة ، أعني تلك العتبة ، كان إيذانًا بعهدٍ زاخرٍ بالمسئوليات الجسام . . . !

وبالنسبة للفقراء ، والغرباء ، والرقيق ، كان اقتحام عقبة دار الأرقم يعني تضحية تفوق كل مألوف من طاقات البشر.

وإن صاحبنا « صُهَيْبًا » لرجل غريب . . وصديقه الذي لقيه على باب الدار « عمار بن ياسر » رجل فقير . . . فما بالهما يستقبلان الهول ويُشَمِّران

سواعدهما لملاقاته..؟؟

إنه نداء الإيمان الذي لا يقاوم...

وإنها شمائل محمد عليه الصلاة والسلام، التي يملؤ عبيرها أفئدة الأبرار هُدًى وحبًّا...

وإنها روعة الجديد المُشْرِق. تبهر عقولا سَئِمَت عفونة القديم، وضلاله وإفلاسه...

وإنها قبل هذا كله رحمة الله يصيب بها من يشاء... وهُداه يهدي إليه من يُنيب...

* * *

أخذ «صهيب» مكانه في قافلة المؤمنين...

وأخذ مكانًا فسيحًا وعاليًا بين صفوف المضطهدين والمعذبين..!!

ومكانا عاليا كذلك بين صفوف الباذلين والمفتدين...

وإنه ليتحدث صادقا عن ولائه العظيم لمسئولياته كمسلم بايع الرسول، وسار تحت راية الإسلام، فيقول:

[لم يشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهدًا قط، إلا كُنتُ حاضِرَه...

ولم يُبَايع بَيْعَةً قط إلا كُنتُ حاضِرَها...

ولم يَسِرْ سَرِيَّةً قط، إلا كُنتُ حاضِرَها...

ولا غزا غزاةً قط، أوَّلَ الزمان وآخره، إلّا كُنتُ فيها عن يمينه أو شماله...

وما خافَ – المسلمونَ – أمامَهُم قط ، إلّا كُنتُ أمامَهُم . . .
ولا خافوا وراءهم ، إلا كُنتُ وراءهم . . .
وما جعلتُ رَسُولَ الله صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم بيني وبين العدوِّ
أبدًا حتى لَقِيَ رَبَّهُ] . . . ! ! !

هذه صورة باهرة لإيمان فَذّ ، وولاء عظيم . .

ولقد كان « صهيب » رضِي الله عنه وعن إخوانه أجمعين ، أهلا لهذا الإيمان المتفوق من أول يوم استقبل فيه نور الله . ووضع يمينه في يمين رسوله . .

يومئذ ، أخذت علاقاته بالناس ، وبالدنيا ، بل وبنفسه طابعًا جديدًا .

يومئذ ، امتشَق نفسًا صُلبة ، زاهدة متفانية ، وراح يستقبل بها الأحداث فيطوِّعها . . والأهوال فَيُرَوِّعُها

ولقد مضى – كما حدثنا من قبل – يواجه تبعاته في إقدام جَسُور . . فلا يتخلف عن مشهد ولا عن خطر . . منصرفا ولعه وشغفه عن المغانم إلى المغارم . . وعن شهوة الحياة ، إلى عشق الخطر وحب الموت . .

ولقد افتتح أيام نضاله النبيل وولائه الجليل بيوم هجرته ، ففي ذلك اليوم تخلى عن كل ثروته وجميع ذهبه الذي أفاءته عليه تجارته الرابحة خلال سنوات كثيرة قضاها في مكة . . تخلى عن كل هذه الثروة وهي كل ما يملك في لحظة لم يَشُب جلالها تردد ولا نكوص .

فعندما همّ الرسول بالهجرة ، علم صهيب بها ، وكان المفروض أن يكون ثالث ثلاثة ، هم : الرسول . . وأبو بكر . . وصهيب . .

بيد أن القرشيين كانوا قد بيتوا أمرهم لمنع هجرة الرسول . .

ووقع « صهيب » في بعض فخاخهم . فعُوِّق عن الهجرة بعض الوقت بينما كان الرسول وصاحبه قد اتخذا سبيلهما على بركة الله . .

وحاور « صهيب » وداور ، حتى استطاع أن يفلت من شانئيه ، وامتطى ظهر ناقته ، وانطلق يقطع بها الصحراء وثبًا . .

بيد أن قريشًا أرسلت في أثره قَناصتَها فأدركوه . . ولم يكد صهيب يراهم ويواجههم من قريب حتى صاح فيهم قائلا :

[يا معشرَ قُرَيش . . .

لقد عَلِمتم أني مِن أَرْمَاكُمْ رَجُلًا . . . وَأَيْمُ الله لا تَصلُون إليَّ حتى أرْميَ بكل سهم معي في كنانتي ثم أضربكم بسيفي حتى لا يبقى في يدي منه شيء ، فَأَقْدِموا إن شئتم . . .

وإن شئتم دللتكُمْ على مالي ، وتتركوني وشأني] . .

ولقد استَامُوا لأنفسهم ، وقبلوا أن يأخذوا ماله قائلين له :

– أتيتنا صعلوكا فقيرًا ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت بيننا ما بلغت ، والآن تنطلق بنفسك وبمالك . . ؟ ؟

فدلهم على المكان الذي خبأ فيه ثروته ، وتركوه وشأنه . وقفلوا إلى مكة راجعين . .

والعجب أنهم صدقوا قوله في غير شك ، وفي غير حذر . فلم يسألوه بينة . . بل ولم يستحلفوه على صِدْقه . . ! ! وهذا موقف يضفي على

صهيب كثيرًا من العظمة يستحقها كرجل صادق وأمين . . ! !

واستأنف « صهيب » هجرته وحيدًا سعيدًا ، حتى أدرك الرسول عليه الصلاة والسلام في « قباء » . .

كان الرسول جالسًا وحوله بعض أصحابه حين أهل عليهم « صهيب » ، ولم يكد الرسول يراه حتى ناداه متهللا :

[رَبِحَ البيعُ أبا يحيي . . ! !

رَبِحَ البيعُ أبا يحيي] . . ! !

وآنئذ ، نزلت الآية الكريمة :

[وَمِنَ الناسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابتغاءَ مَرْضاةِ الله ، واللهُ رَؤُفٌ بالعباد] . . .

أجل ، لقد اشترى « صهيب » نفسه المؤمنة بكل ثروته التي أنفق في جمعها شبابه ، كل شبابه . . ولم يحس قط أنه المغبون .

فما المال ، وما الذهب ، وما الدنيا كلها ، إذا بقي له إيمانه ، وإذا بقيت لضميره سيادته . . ولمصيره إرادته . . ؟ ؟

كان الرسول يحبه كثيرًا . . وكان « صهيب » إلى جانب ورعه وتقواه ، خفيف الروح ، حاضر النكتة . .

رآه الرسول يوما يأكل رطبًا ، وكان بإحدى عينيه رمد . .

فقال له الرسول ضاحكا : « أتأكل الرطب وفي عينيك رمد » . . ؟

فأجاب قائلا : [وأيُّ بأس . . ؟ إني آكله بعيني الأخرى] . . ! !

وكان جوادًا مِعطاء . . ينفق كل عطائه من بيت المال في سبيل الله ،

يُعين محتاجا . . يغيث مكروبا . . « ويطعم الطعام على حبه مسكينًا ويتيما وأسيرًا » .

حتى لقد أثار سخاؤه المفرط انتباه « عمر » فقال له : أراك تُطْعم كثيرًا حتى إنك لتسرف . . ؟

فأجابه « صهيب » لقد سمعت رسول الله يقول :

[خِيَارُكمْ مَنْ أَطْعَمَ الطعامَ] . . .

* * *

ولئن كانت حياة « صهيب » مترعة بالمزايا والعظائم ، فإن اختيار عمر بن الخطاب إياه ليؤم المسلمين في الصلاة مزية تملأ حياته ألقًا وعظمة . .

فعندما اعتدي على أمير المؤمنين وهو يصلي بالمسلمين صلاة الفجر . .

وعندما أحس نهاية الأجل ، فراح يلقي على أصحابه وصيته وكلماته الأخيرة قال :

[ولْيُصَلِّ بالناس صُهَيْب] . . .

لقد اختار عمر يومئذ ستة من الصحابة ، ووكل إليهم أمر اختيار الخليفة الجديد . .

وخليفة المسلمين ، هو الذي يؤمهم في صلواتهم . . ففي الأيام الشاغرة بين وفاة أمير المؤمنين ، واختيار الخليفة الجديد ، من يؤم المسلمين في الصلاة . . ؟

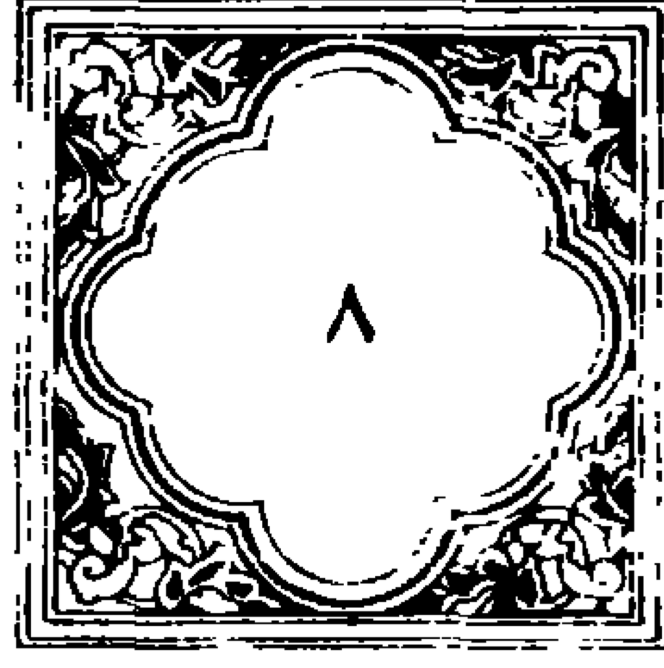
إن « عمر » وخاصة في تلك اللحظات التي تأخذ فيها روحه الطاهرة طريقها إلى الله ليستأني ألف مرة قبل أن يختار . فإذا اختار ، فلا أحد

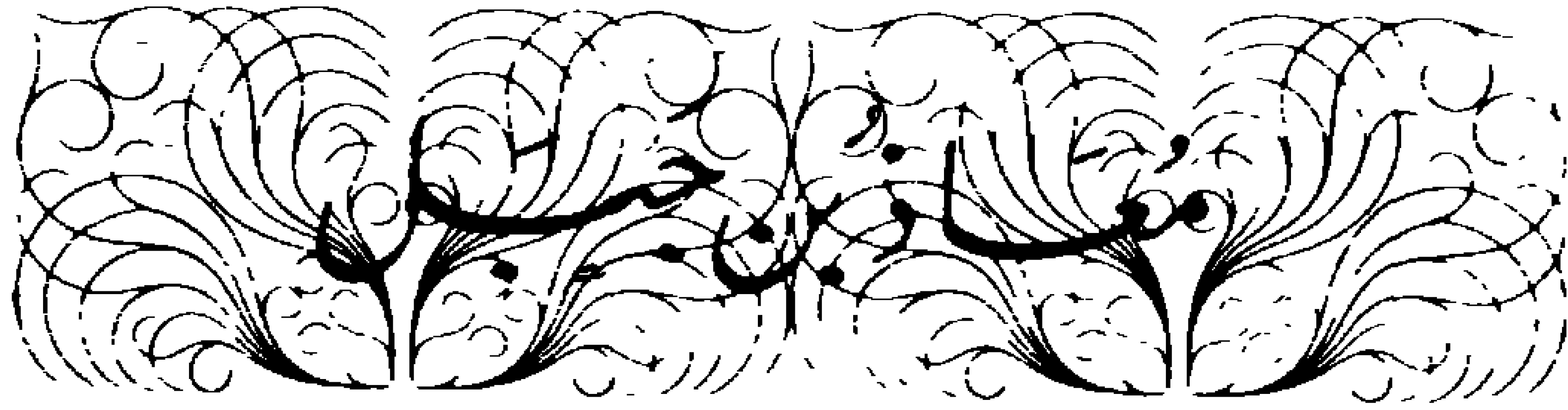
هناك أوفر حظًا ممن يقع عليه الاختيار . .

ولقد اختار عمر صهيبا . .

اختاره ليكون إمام المسلمين في الصلاة حتى ينهض الخليفة الجديد . . بأعباء مهمته . .

اختاره وهو يعلم أن في لسانه عجمة ، فكان هذا الاختيار من تمام نعمة الله على عبده الصالح « صهيب بن سنان » . .





ـ أَعْلَمُهُم بِالحَلالِ وَالحَرام .



عندما كان الرسول عليه السلام يبايع الأنصار بيعة العقبة الثانية ، كان يجلس بين السبعين الذين يتكوّن منهم وفدهم ، شاب مشرق الوجه ، رائع النظرة ، برّاق الثنايا .. يبهر الأبصار بهدوئه وسَمْتِه ، فإذا تحدث ازدادت الأبصار انبهارًا .. ! !

ذلك كان « مُعَاذُ بن جَبَل » رضي الله عنه ..

هو إذن رجل من الأنصار ، بايع يوم العقبة الثانية ، فصار من السابقين الأولين ..

ورجل له مثل أسبقيته ، ومثل إيمانه ويقينه ، لا يتخلف عن رسول الله في مشهد ولا في غزاة ، وهكذا صنع معاذ ..

على أن آلق مزاياه ، وأعظم خصائصه – كان فقهه ..

بلغ من الفقه والعلم المدى الذي جعله أهلا لقول الرسول عنه :

[أَعْلَمُ أُمَّتي بالحلالِ والحرام ، مُعاذُ بن جَبَل] ..

وكان شبيه عمر بن الخطاب في استنارة عقله ، وشجاعة ذكائه ، سأله الرسول حين وجهه إلى اليمن :

[بمَ تقضي يا مُعاذُ] ؟

فأجابه قائلا :

[بكتاب اللهِ] ...

قال الرسول :

[فإن لم تَجِدْ في كتابِ اللهِ] . . ؟؟

قال معاذ :

[أقْضي بِسُنَّة رسوله] . . .

قال الرسول :

[فإن لم تَجِدْ في سُنَّةِ رسوله] . . ؟؟

قال معاذ :

[أَجْتَهِدُ رأيي ، لا آلُوا] . . .

فتهلل وجه الرسول وقال :

[الحمدُ للهِ الذي وَفَّقَ رسولَ رسولِ اللهِ لما يُرْضِي رسولَ اللهِ] . .

فَولاءُ « معاذ » لكتاب الله ، ولسُنَّة رسوله لا يحجب عقله عن متابعة رؤاه ، ولا يحجب عن عقله تلك الحقائق الهائلة المستسِرَّة ، التي تنتظر من يكتشفها ويواجهها .

ولعل هذه القدرة على الاجتهاد ، والشجاعة في استعمال الذكاء والعقل ، هما اللتان مكنتا معاذاً من ثرائه الفقهي الذي فاق به أقرانه وإخوانه ، وصار كما وصفه الرسول عليه الصلاة والسلام « أعلم الناس بالحلال والحرام » .

وإن الروايات التاريخية لتصوره - حيثما كان - العقل المضيء الحازم الذي يحسن الفصل في الأمور . .

فهذا « عائذ الله بن عبد الله » يحدثنا أنه دخل المسجد يومًا مع أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم في أول خلافة عمر . . قال :

[فجلستُ مجلسًا فيه بضعٌ وثلاثون ، كلهم يَذْكُرون حديثًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي الحلقة شاب شديد الأُدْمَة ، حلو المنطق ، وضيء ، وهو أَشَبُّ القوم سِنًّا ، فإذا اشتبه عليهم من الحديث شيءٌ رَدُّوهُ إليه فأَفْتَاهُمْ ، ولا يحدثهم إلّا حِينَ يسألُونَهُ ، ولما قُضِيَ مجلسهم دَنَوْتُ منه وسَأَلْتُهُ : مَنْ أنتَ يا عبد الله؟؟ قال : أنا مُعاذ بن جبل] . .

وهذا أبو مسلم الخولاني يقول :

[دخلتُ مسجد « حمص » فإذا جماعة من الكهول يتوسَّطُهُم شاب بَرَّاق الثنايا ، صامت لا يتكلم . . فإذا امْتَرَى القومُ في شيءٍ تَوَجَّهُوا إليه يسألونَهُ . . فقلتُ لجليس لي : مَنْ هذا . . ؟ قال : مُعَاذُ بن جَبَل . . فوقع في نفسي حُبُّه] . .

وهذا شهر بن حَوْشَب يقول :

[كان أصحاب رَسُول اللهِ صلى الله عليه وسلم إذا تحدثوا وفيهم مُعَاذ بن جَبَل ، نظروا إليه هيبةً له] . . .

ولقد كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يستشيره كثيرًا . .

وكان يقول في بعض المواطن التي يستعين فيها برأي معاذ وفقهه :

[لولا مُعَاذ بن جَبَل لَهَلَكَ عمر] . . .

ويبدو أن معاذًا كان يمتلك عقلا أحسن تدريبه ، ومنطقًا آسِرًا مقنعًا ، ينساب في هدوء وإحاطة . .

فحيثما نلتقي به من خلال الروايات التاريخية عنه ، نجده كما أسلفنا واسطة العِقْد . .

فهو دائمًا جالس والناس حوله..

وهو صموت، لا يتحدث إلا على شوق الجالسين إلى حديثه..

وإذا اختلف الجالسون في أمر. أعادوه إلى معاذ ليفصل فيه..

فإذا تكلم، كان كما وصفه أحد معاصريه:

[كأنما يخرج من فمه نورٌ ولُؤلُؤ]...

ولقد بلغ كل هذه المنزلة في علمه. وفي إجلال المسلمين له، أيام الرسول وبعد مماته، وهو شاب.. فلقد مات مُعَاذ في خلافة عمر ولم يجاوز من العمر ثلاثا وثلاثين سنة..!!

* * *

وكان «معاذ» سَمْح اليد. والنفس. والخلق..

فلا يسأل عن شيْ إلا أعطاه جزلان مغتبطًا.. ولقد ذهب جوده وسخاؤه بكل ماله..

ومات الرسول صلى الله عليه وسلم. ومعاذ باليمن منذ وجهه النبي إليها يعلم المسلمين ويفقههم في الدين..

وفي خلافة أبي بكر رجع معاذ من اليمن. وكان عمر قد علم أن معاذًا أثرى.. فاقترح على الخليفة أبي بكر أن يشاطره ثروته وماله..!! ولم ينتظر عمر. بل نهض مسرعًا إلى دار معاذ وألقى عليه مقالته..

كان «معاذ» طاهر الكف. طاهر الذمة. ولئن كان قد أثرى، فإنه لم يكتسب إثمًا. ولم يقترف شبهة. ومن ثم فقد رفض عرض عمر، وناقشه رأيه..

وتركه عمر وانصرف..

وفي الغداة، كان معاذ يطوي الأرض حثيثًا شطر دار عمر..

ولا يكاد يلتقي به حتى يعانقه ودموعه تسبق كلماته ويقول:

[لقد رأيتُ الليلةَ في منامي أني أخوض حَوْمَةَ ماء، أخشى على نفسي الغرق، حتى جئت فخلصتني يا عمر]..

وذهبا معًا إلى أبي بكر.. وطلب معاذ إليه أن يشاطره ماله، فقال أبو بكر: «لا آخذ منك شيئًا»..

فنظر عمر إلى معاذ وقال له: «الآن، حَلَّ وطاب»..

ما كان أبو بكر الورع ليترك لمعاذ درهمًا واحدًا، لو علم أنه أخذه بغير حق..

وما كان عمر متجنيًا على معاذ بتهمة أو ظن..

وإنما هو «عصر المُثُل» كان يزخر بقوم يتسابقون إلى ذُرَى الكمال الميسور، فنهم الطائر المحلق، ومنهم المهرول، ومنهم المقتصد.. ولكنهم جميعًا في قافلة الخير سائرون.

* * *

ويهاجر «معاذ» إلى الشام، حيث يعيش بين أهلها والوافدين عليها معلمًا وفقيهًا، فإذا مات أميرها أبو عبيدة الذي كان الصديق الحميم لمعاذ، استخلفه أمير المؤمنين عمر على الشام، ولا يمضي عليه في الإمارة سوى بضعة أشهر حتى يلقى ربه مخبتًا منيبًا..

وكان عمر رضي الله عنه يقول:

[لو اسْتَخْلَفْتُ مُعَاذ بن جَبَل ، فسألني ربي : لماذا اسْتَخْلَفْتُه ؟
لقلتُ : سمعتُ نبيك يقول : إن العلماء إذا حضروا ربهم
عزَّ وَجَلَّ ، كان مُعَاذُ بين أيديهم] . . .

والاستخلاف الذي يعنيه عمر هنا ، هو الاستخلاف على المسلمين جميعًا ، لا على بلد أو ولاية . .

فلقد سئل عمر قبل موته : لو عهدت إلينا . . ؟ أي اخترت خليفتك بنفسك وبايعناك عليه . .

فأجاب قائلاً :

[لو كان مُعَاذُ بن جبل حيًّا ، ووَلَّيْته ، ثم قَدِمْتُ على ربي
عزَّ وجلَّ ، فسألني : مَنْ وَلَّيْتَ عَلَى أُمة محمد ، لقلتُ :
وَلَّيْتُ عليهم مُعَاذ بن جبل ، بعد أن سمعت النبي يقول :
مُعَاذ بن جبل إمامُ العلماء يوم القيامة] . .

* * *

قال الرسول صلى الله عليه وسلم يومًا :

[يا مُعَاذ . . والله إني لَأُحِبُّكَ فلا تَنْسَ أن تقول في عَقِب
كل صلاة : اللهم أَعِنِّي على ذِكْرك وشكرك وحُسْن
عبادتك] . . .

أجل . . اللهم أَعِنِّي . . فقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام دائب الإلحاح على هذا المعنى العظيم الذي يدرك الناس به أنه لا حول لهم ولا قوة ، ولا سند ولا عون إلا بالله ، ومن الله العلي العظيم . .

ولقد حَذِقَ مُعَاذ الدرس وأجاد تطبيقه . .

لقيه الرسول ذات صباح فسأله :

[كيف أصبحتَ يا مُعَاذ] . . ؟؟

قال :

[أصبحتُ مؤمنًا حقًا يا رسول الله] . .

قال النبي :

[إن لكل حق حقيقة ، فما حقيقةُ إيمانك] . . ؟؟

قال معاذ :

[ما أصبحتُ صباحًا قط ، إلا ظننت أني لا أُمْسِي . .
ولا أَمْسَيْتُ مساءًا إلا ظَنَنْتُ أني لا أُصْبِح . .
ولا خطوتُ خطوة إلا ظننتُ أني لا أتْبِعُهَا غيرها . .
وكأني أنظرُ إلى كل أُمَّة جاثية تُدْعَى إلى كِتَابها . .
وكأني أرى أهل الجنة في الجنة يُنَعَّمُون . .
وأهلَ النار في النار يُعَذَّبون . . .

فقال له الرسول :

[عرفتَ فالزمْ] . . .

أجل . . لقد أسلم « مُعَاذ » كل نفسه وكل مصيره للهِ ، فلم يَعُد يبصر شيئًا سواه . .

ولقد أجاد ابن مسعود وصفه حين قال :

[إن « مُعَاذًا » كان أُمَّةً ، قَانِتًا للهِ حَنِيفًا . ولقد كُنَّا نُشَبِّه

مُعَاذًا بإبراهيم عليه السلام] . . .

* * *

وكان « مُعَاذ » دائب الدعوة إلى العلم . وإلى ذكر الله . .

وكان يدعو الناس إلى التماس العلم الصحيح النافع ويقول :

[احذروا زَيْغ الحكيم . .

واعرفوا الحقَّ بالحقِّ ، فإن للحق نورًا] . . ! !

وكان يرى العبادة قصدًا ، وعدلا . .

قال له يومًا أحد المسلمين : علّمني .

فسأله معاذ : وهل أنت مطيعي إذا علمتك . . ؟ ؟

قال الرجل : إني على طاعتك لحريص . .

فقال له معاذ :

[صُمْ ، وأَفْطِر . .

وصَلِّ . ونَمْ[1] . .

واكْتَسِبْ ، ولا تأثَمْ . .

ولا تموتنَّ إلا مُسْلِمًا . .

وإياك ودَعْوَة المظلوم] . .

وكان يرى العلم معرفة ، وعملا . . فيقول :

[تَعلّموا ما شئتم أن تَتعلّموا ، فلن يَنفعكم اللهُ بالعلم حتى

---

(١) أي لا تقم الليل كله مصليا .

تَعْمَلُوا] . . .

وكان يرى الإيمان بالله وذكره – استحضارًا دائمًا لعظمته ، ومراجعة دائمة لسلوك النفس .

يقول الأسود بن هلال :

[كُنَّا نمشي مع مُعَاذ ، فقال لنا : اجلسوا بنا نُؤْمِنْ ساعة] . .

ولعل سبب صمته الكثير كان راجعًا إلى عملية التأمل والتفكر التي لا تهدأ ولا تكف داخل نفسه . . هذا الذي كان كما قال للرسول : لا يخطو خطوة ، ويظن أنه سيتبعها بأخرى . . وذلك من فرط استغراقه في ذكره رَبَّه ، واستغراقه في محاسبته نفسَه . .

* * *

وحان أجل معاذ . ودُعِي للقاء الله . .

وفي سكرات الموت تنطلق عن اللاشعور حقيقة كل حي ، وتجري على لسانه – إن استطاع الحديث – كلمات تلخص أمره وحياته . .

وفي تلك اللحظات قال معاذ كلمات عظيمة تكشف عن مؤمن عظيم .

فقد كان يحدق في السماء ويقول مناجيًا ربه الرحيم :

[اللهمَّ إني كُنتُ أخافك ، لكنني اليوم أرجوك ، اللهمَّ إنك تعلم أنِّي لم أكُن أُحِبُّ الدنيا لِجَرْيِ الأنهار ، ولا لِغَرْسِ الأشجار . . ولكن لظمْأ الهواجر ومُكَابدةِ الساعات ، ونَيْلِ المزيد من العلم والإيمان والطاعة] . . .

وبسَط يمينه كأنه يصافح الموت ، وراح في غيبوبته يقول :

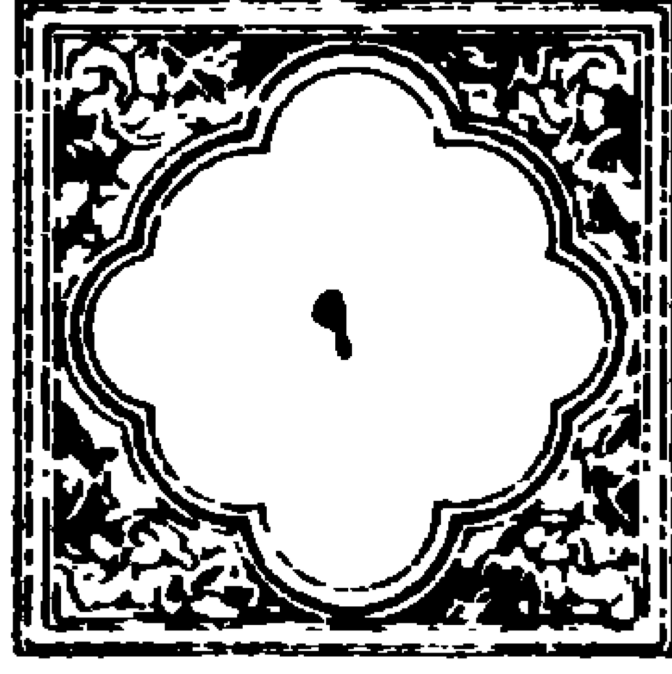
[مرحبًا بالموت . .

حبيبٌ جاء عَلَى فاقَة] . . .

* * *

وسافر « معاذ » إلى الله . . .







أَوَّلُ فِرْسانِ الإِسْلام -



تحدث عنه أصحابه ورفاقه ، فقالوا :

[أوَّلُ من عَدَا بهِ فَرَسُه في سبيل الله ، المِقْدادُ بن الأسود]...

والمقداد بن الأسود ، هو بطلنا هذا « المِقْدادُ بن عَمْرو » كان قد حالف في الجاهلية « الأسود بن عبد يغوث » فتبناه ، فصار يدعى « المقداد بن الأسود » حتى إذا نزلت الآية الكريمة التي تنسخ التبني ، نُسِب لأبيه « عمرو ابن سعد »..

والمقداد من المبكِّرين بالإسلام ، وسابع سبعة جاهروا بإسلامهم وأعلنوه ، حاملا نصيبه من أذى قريش ونقمتها ، في شجاعة الرجال وغبطة الحواريين..!!

ولسوف يظل موقفه يوم « بدر » لوحة رائعة لا يَنْصُلُ بهاؤها..

موقف شامخ ، تمنى كل من رآه لو أنه كان صاحب هذا الموقف العظيم..

يقول عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله :

[لقد شهدتُ من المقداد مشهدًا ، لَأَنْ أكُونَ صاحبَهُ ، أحبّ إليَّ مما في الأرض جميعًا]..

في ذلك اليوم الذي بدأ عصيبًا.. حيث أقبلت قريش في بأسها الشديد وإصرارها العنيد ، وخيلائها وكبريائها..

في ذلك اليوم ، والمسلمون قلة ، لم يمتحنوا من قبل في قتال من أجل

الإسلام ، فهذه أول غزوة لهم يخوضونها . .

ووقف الرسول يَعجُم إيمان الذين معه ، ويبلو استعدادهم لملاقاة الجيش الزاحف عليهم في مُشاتِه وفرسانه . .

وراح يشاورهم في الأمر ، وأصحاب الرسول يعلمون أنه حين يطلب المشورة والرأي ، فإنه يفعل ذلك حقًا ، وأنه يطلب من كل واحد حقيقة اقتناعه ، وحقيقة رأيه ، فإن قال قائلهم رأيا يغاير رأي الجماعة كلها ، ويخالفها ، فلا حرج عليه ولا تثريب . .

ولقد خشي « المقداد » أن يكون بين المسلمين من له بشأن المعركة تحفظات . . وقبل أن يسبقه أحد بالحديث هَمّ هو بالسبق ليصوغ بكلماته القاطعة شعار المعركة ، ويسهم في تشكيل ضميرها . .

ولكنه قبل أن يحرك شفتيه ، كان أبو بكر الصديق قد شرع يتكلم ، فاطمأن المقداد كثيرًا . . وقال أبو بكر فأحسن . . وتلاه عمر بن الخطاب فقال وأحسن . .

ثم تقدم المقداد وقال :

[يا رسُولَ اللهِ . .

امْضِ لما أراكَ اللهُ ، فنَحنُ معك . . .

واللهِ لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى :

اذهب أنتَ وربُّكَ فقَاتِلَا ، إنا ها هُنَا قاعِدُون . . .

بل نقولُ لك : اذهبْ أنتَ وربُّكَ فقَاتِلَا ، إنا معكما مُقَاتِلون . . . ! !

والذي بَعَثَكَ بالحق . لو سِرْتَ بنا إلى بَرْكِ الغِماد لَجالَدْنا معك مِنْ دونه حتى تَبلُغه . ولَنُقَاتِلَنَّ عن يمينك . وعن يسارك ، وبين يديك . ومِنْ خَلْفك حتى يَفْتَح الله لك] . . .

انطلقت الكلمات كالرصاص المقذوف . . وتهلل وجه الرسول وأشرق فمه عن دعوة صالحة دعاها للمقداد . . وسرت في الحشد الصالح المؤمن حماسة الكلمات الفاصلة التي أطلقها « المقداد بن عمرو » والتي حددت بقوتها وإقناعها نوع القول لمن أراد قــولا . . وطراز الحديث لمن يريــد حديثًا . . ! !

أجل ، لقد بلغت كلمات المقداد غايتها من أفئدة المؤمنين ، فقام سعد بن معاذ زعيم الأنصار . وقال :

[يا رَسُولَ الله . . . .

لقد آمنَّا بك وصَدَّقناك . وشهدنا أنَّ ما جئت به هو الحق . . . وأعطيناك على ذلك عُهودنا ومَوَاثِيقنا . فامْضِ يا رَسُولَ الله لما أردتَ ، فنحنُ معك . . . والذي بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحرَ فَخُضْتَهُ لخضناهُ معك . ما تخلف مِنَّا رجلٌ واحد ، وما نَكْرَهُ أن تَلْقى بنا عَدُوَّنا غدًا . .

« إنا لَصُبُرٌ في الحرب . صُدُقٌ في اللِّقاء . . . ولعلَّ الله يُرِيكَ منا ما تقرُّ به عَينكَ . . . فَسِرْ بنا على بركة الله] . . .

وامتلأ قلب الرسول بِشرا . .

وقال لأصحابه :

[سِيروا ، وأَبْشِرُوا] . . .

والتقى الجمعان...

وكان فرسان المسلمين يومئذ ثلاثة لا غير: «المقداد بن عمرو»، و«مرثد بن أبي مرثد»، و«الزبير بن العوام». بينما كان بقية المجاهدين مشاة. أو راكبين إبلا..

* * *

إن كلمات المقداد التي مرت بنا من قبل، لا تصور شجاعته فحسب، بل تصور لنا حكمته الراجحة، وتفكيره العميق..

وكذلك كان المقداد..

كان حكيمًا، أريبًا، ولم تكن حكمته تعبر عن نفسها في مجرد كلمات، بل هي تعبر عن نفسها في مبادئ نافذة، وسلوك قويم مُطَّرِد. وكانت تجاربه قوتًا لحكمته وريًا لفطنته..

ولّاه الرسول عليه السلام إحدى الإمارات يوما، فلما رجع سأله النبي:

[كيفَ وجدتَ الإمارة]..؟؟

فأجاب في صدق عظيم:

[لقد جَعَلتني أنظُرُ إلى نفسي كما لو كُنتُ فوقَ الناس، وهم جميعًا دُوني....

والذي بعثكَ بالحق، لا أتأمَّرَن على اثنين بعد اليوم، أبدًا]..

إذا لم تكن هذه هي الحكمة، فماذا تكون..؟؟

وإذا لم يكن هذا هو الحكيم.. فمن يكون..؟؟

رجل لا يخدع عن نفسه، ولا عن ضعفه..

يلي الإمارة ، فيغشى نفسه الزهو والصلف ، ويكتشف في نفسه هذا الضعف ، فيقسم ليجنبنها مظانه ، وليرفضن الإمارة بعد تلك التجربة ويتحاماها.. ثم يبر بقسمه فلا يكون أميرًا بعد ذلك أبدًا..!!

لقد كان دائب التغني بحديث سمعه من رسول الله.. هوذا:

[إن السعيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الفِتن]....

وإذا كان قد رأى في الإمارة زهوًا يفتنه. أو يكاد يفتنه، فإن سعادته إذن في تجنبها..

ومن مظاهر حكمته، طول أناته في الحكم على الرجال..

وهذه أيضًا تعلمها من رسول الله.. فقد علمهم عليه السلام أن قلب ابن آدم أسرع تقلبًا من القِدرِ حين تغلي..

وكان المقداد يرجئ حكمه الأخير على الناس إلى لحظة الموت، ليتأكد أن هذا الذي يريد أن يصدر عليه حكمه لن يتغير ولن يطرأ على حياته جديد.. وأي تغيرٍ. أو أي جديد بعد الموت..؟؟

وتتألق حكمته في حنكة بالغة خلال هذا الحوار الذي ينقله إلينا أحد أصحابه وجلسائه. يقول:

[جلسْنا إلى المِقْدَادِ يومًا، فمرَّ به رجل...

فقال مخاطبًا المِقْدَاد: طوبى لهاتين العينين اللتين رَأتَا رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم...

واللهِ لَوَدِدْنا أنَّا رأينا ما رأيت، وشهدنا ما شهدت فأقبلَ عليه المقداد وقال:

« ما يَحْمِلُ أحدكم على أن يتمَنَّى مشهدًا غَيَّبه اللهُ عنه ، لا يدري لو شهدَهُ كيف كان يصيرُ فيه؟؟ واللهِ ، لقد عاصَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوامٌ كَبَّهُمُ الله عزَّ وجلَّ عَلَى مناخِرِهم في جهنم . . . أَوَلَا تحمدون الله الذي جَنَّبَكم مِثْلَ بلائهم ، وأخرجكم مؤمنين بربكم وبنبيكم] . . .

حكمة . . . وأية حكمة . . ! !

إنك لا تلتقي بمؤمن يحب الله ورسوله ، إلا وتجده يتمنى لو أنه عاش أيام الرسول ورآه . . !

ولكن بصيرة « المقداد » الحاذق الحكيم تكشف البعد المفقود في هذه الأمنية . .

ألم يكن من المحتمل لهذا الذي يتمنى لو أنه عاش تلك الأيام . . أن يكون من أصحاب الجحيم . . ؟

ألم يكن من المحتمل أن يكفر مع الكافرين . . ؟؟

وأليس من الخير إذن أن يحمد الله الذي رزقه الحياة في عصور استقر فيها الإسلام ، فأخذه صَفْوًا عَفْوًا . . ؟؟

هذه نظرة المقداد ، تتألق حكمة وفطنة . . وفي كل مواقفه ، وتجاربه ، وكلماته ، كان الأريبَ الحكيم .

* * *

وكان حب المقداد للإسلام عظيما . . .

وكان إلى جانب ذلك ، واعيًا وحكيما . . .

والحب حين يكون عظيما وحكيما ، فإنه يجعل من صاحبه إنسانًا عليًا ، لا يجد غبطةَ هذا الحب في ذاته .. بل في مسئولياته ..

والمقداد بن عمرو من هذا الطراز ..

فحبه الرسولَ ، ملأ قلبه وشعوره بمسئولياته عن سلامة الرسول ، ولم يكن تُسمع في المدينة فزعة ، إلا ويكون المقداد في مثل لمح البصر ، واقفًا على باب رسول الله ممتطيًا صهوة فرسه ، ممتشقًا مُهَنَّدَهُ وحسامه .. ! !

وحبه الإسلام ، ملأ قلبه بمسئولياته عن حماية الإسلام .. ليس فقط من كيد أعدائه .. بل ومن خطأ أصدقائه ..

خرج يوما في سَرِيَّة ، تمكن العدو فيها من حصارهم ، فأصدر أمير السرية أمره بألا يرعى أحد دابته .. ولكن أحد المسلمين لم يحِط بالأمر خُبْرا ، فخالفه ، فتلقى من الأمير عقوبة أكثر مما يستحق ، أو لعله لا يستحقها على الإطلاق ..

فمر المقداد بالرجل يبكي ويصيح ، فسأله ، فأنبأه ما حدث ..

فأخذ المقداد بيمينه ، ومضيا صوب الأمير ، وراح المقداد يناقشه حتى كشف له خطأه وقال له :

[والآن ، أَقِدْهُ من نفسك ...
ومَكِّنْهُ مِنَ القصاص] .... ! !

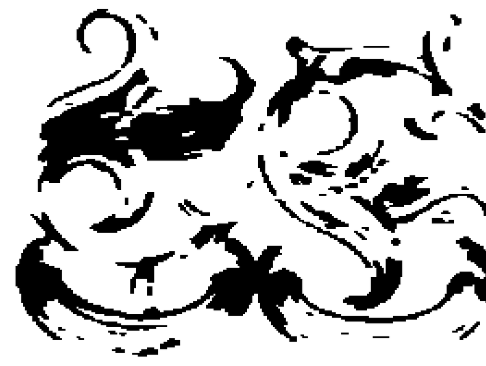
وأذعن الأمير .. بيد أن الجندي عفا وصفح ، وانتشى « المقداد » بعظمة الموقف ، وبعظمة الدين الذي أفاء عليهم هذه العزة ، فراح يقول وكأنه يغني :

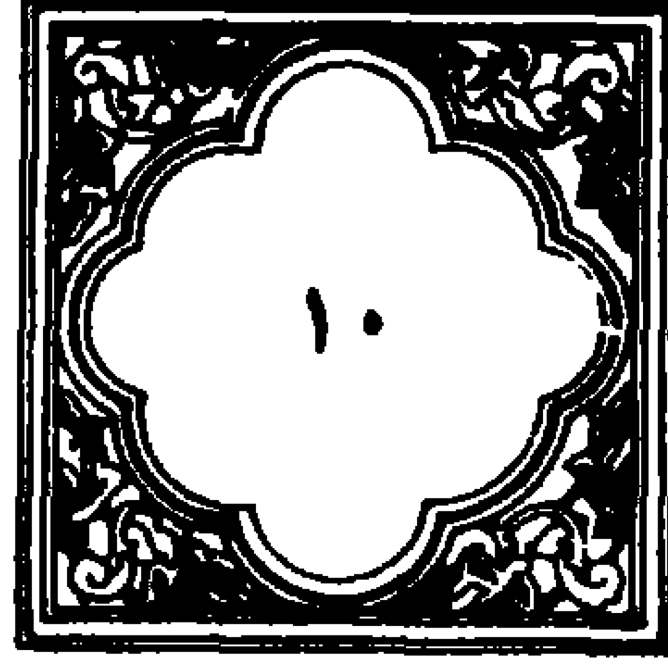
[لأموتَنّ . والإسلامُ عزيز] . . . . ! !

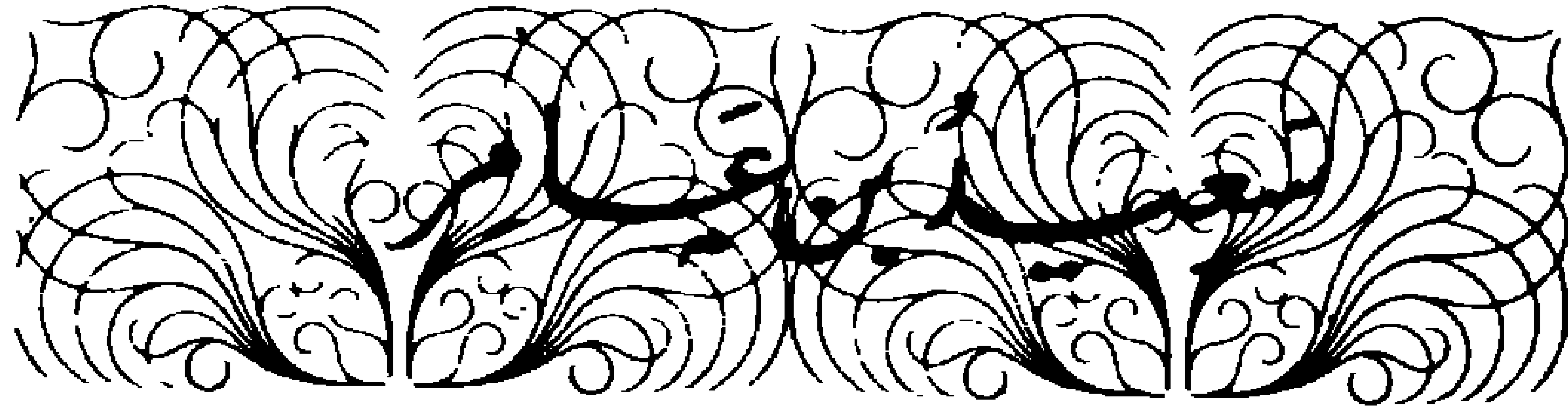
أجل . . تلك كانت أمنيته ، أن يموت والإسلام عزيز . . ولقد ثابر مع المثابرين على تحقيق هذه الأمنية مثابرة باهرة جعلته أهلا لأن يقول له الرسول عليه الصلاة والسلام :

[إن الله أمرني بحُبِّك . . .

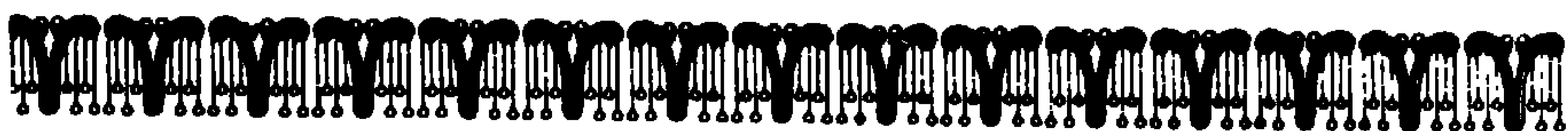
وأنبأني أنه يُحبك] . . .







- العظمة تحت الأسمال !! -



أيُّنا يعرف هذا الإسم ، وأيُّنا سَمِعَ به من قبل . . ؟؟

أغلب الظن أن أكثرنا ، إن لم نكن جميعًا ، لم نسمع به أبدًا . . وكأني بكم إذ تطالعونه الآن تتساءلون : – ومَنْ يكون سعيد بن عامر هذا . . ؟؟

أجل . . . سنعلم – اللحظة – من هذا السعيد . . ! !

* * *

إنه واحد من كبار أصحاب رسول الله ، وإن لم يكن لاسمه ذلك الرنين المألوف لأسماء كبار الأصحاب .

إنه واحد من كبار الأتقياء الأخفياء . . ! !

ولعل من نافلة القول وتكراره ، أن ننوه بملازمته رسول الله في جميع مشاهده وغزواته . . فذلك كان نهج المسلمين جميعًا . وما كان لمؤمن أن يتخلف عن رسول الله في سِلْمٍ أو في جهاد .

أسلم « سعيد » قبيل فتح خيبر ، ومنذ عانق الإسلام وبايَع الرسول ، أعطاهما كل حياته ، ووجوده ، ومصيره .

فالطاعة ، والزهد ، والسمو . . والإخْبَات ، والورع ، والترفع .

كل الفضائل العظيمة وجدت في هذا الأنسان الطيب الطاهر أخًا وصديقًا كبيرًا . .

وحين نسعى للقاء عظمته ورؤيتها ، علينا أن نكون من الفطنة بحيث لا نخدع عن هذه العظمة وندعها تفلت منا وتتنكر . .

فحين تقع العين على « سعيد » في الزحام ، لن ترى شيئًا يدعوها للتلبث والتأمل . .

ستجد العين واحدًا من أفراد الكتيبة النامية.. أشعث أغبر.. ليس في ملبسه، ولا في شكله الخارجي، ما يميزه عن فقراء المسلمين بشيء..!!!

فإذا جعلنا من ملبسه ومن شكله الخارجي دليلا إلى حقيقته، فلن نبصر شيئًا؛ فإن عظمة هذا الرجل أكثر أصالة من أن تتبدى في أيٍ من مظاهر البذخ والزخرف.

إنها هناك كامنة مخبوءة وراء بساطته وأسماله..

أتعرفون اللؤلؤ المخبوء في جوف الصدف..؟ إنه شيء يشبه هذا!..

* * *

عندما عزل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب معاوية عن ولاية الشام، تلفت حواليه يبحث عن بديل يوليه مكانه.

وأسلوب «عمر» في اختيار ولاته ومعاونيه، أسلوب يجمع أقصى غايات الحذر، والدقة، والأناة.. ذلك أنه كان يؤمن أن أي خطأ يرتكبه وَالٍ له في أقصى الأرض سيسأل الله عنه اثنين: عمر. أولا.. وصاحب الخطأ ثانيًا...

ومعاييره في تقييم الناس واختيار الولاة مرهفة، ومحيطة، وبصيرة، أكثر ما يكون البصر حدة ونفاذًا..

والشام، يومئذ حاضرة كبيرة، والحياة فيها قبل دخول الإسلام بقرون، تتقلب بين حضارات متساوقة.. وهي مركز هام للتجارة. ومرتع رحيب للنعمة.. وهي بهذا، ولهذا، دار إغراء. ولا يصلح لها في رأي عمر إلا قديس تفر كل شياطين الإغراء أمام عزوفه.. وإلا زاهد، عابد، قانت، أواب..

وصاح عمر :- قد وجدته .. إليَّ بسعيد بن عامر .. ! !

وفيما بعد ، يجيءُ سعيد إلى أمير المؤمنين ويعرض عليه ولاية حمص ..

ولكن سعيدًا يعتذر .. ويقول : [لا تَفْتِنِّي ، يا أمير المؤمنين] ..

فيصيح به عمر :

[والله ، لا أَدَعُك .. أتَضَعُون أمانتكم وخلافتكم في عُنُقي .. ثم تتركوني] .. ؟ ؟ ! !

واقتنع سعيد في لحظة ، فقد كانت كلمات عمر حَرِيَّة بهذا الإقناع .

أجل .. ليس من العدل أن يقلدوه أمانتهم وخلافتهم ، ثم يتركوه وحيدًا .. وإذا انفض عن مسئولية الحكم أمثال سعيد بن عامر ، فأنَّى لعمر من يعينه على تبعات الحكم الثقال .. ؟ ؟

خرج سعيد إلى حمص ، معه زوجته وكانا عروسين جديدين ، وكانت عروسه منذ طفولتها فائقة الجمال والنضرة .. وزوده عمر بقدر طيب من المال .

ولما استَقَرَّا في حمص .. أرادت زوجته أن تستعمل حقها كزوجة في استثمار المال الذي زوده به عمر .. وأشارت عليه بأن يشتري ما يلزمهما من لباس لائق ، ومتاع وأثاث .. ثم يدخر الباقي ..

وقال لها سعيد : ألا أدلكَ علي خير من هذا .. ؟ ؟ نحن في بلاد تجارتها رابحة ، وسوقها رائجة ، فلنعط هذا المال من يتجر لنا فيه وينميه ..

قالت : فإن خسرتْ تجارته .. ؟

قال سعيد : سأجعل ضمانها عليه .. ! !

قالت : فنعم إذن..

وخرج سعيد ، فاشترى بعض ضرورات عيشه المتقشف ، ثم فرق جميع المال في الفقراء والمحتاجين..

ومرت الأيام.. وبين الحين والحين تسأله زوجه عن تجارتهما وأيّان بلغت الأرباح..

ويجيبها سعيد : إنها تجارة موفقة.. وإن الأرباح تنمو وتزيد.

وذات يوم سألته نفس السؤال أمام قريب له كان يعرف حقيقة الأمر فابتسم ، ثم ضحك ضحكة أوحت إلى روع الزوجة بالشك والريب ، فألحت عليه أن يصارحها الحديث ، فقال لها : لقد تصدق بالمال جميعه من ذلك اليوم البعيد.

فبكت زوجة سعيد ، وآسفَها أنها لم تذهب من هذا المال بطائل فلا هي ابتاعت لنفسها ما تريد ، ولا المال بَقِي..

ونظر إليها « سعيد » وقد زادتها دموعها الوديعة الآسية جمالا وروعة.

وقبل أن ينال المشهد الفاتن من نفسه ضعفًا ، ألقى بصيرته نحو الجنة. فرأى فيها أصحابه السابقين الراحلين ، فقال :

[لقد كان لي أصحابٌ سَبَقوني إلى الله.. وما أُحِبُّ أن أنحرِفَ عن طريقهم ولوكانت لِيَ الدنيا بما فيها].. ! ! !

وإذ خشي أن تُدِلَّ عليه بجمالها ، قال وكأنه يوجه الحديث إلى نفسه معها :

[تَعْلَمين أن في الجنة من الْحُور العين والخيراتِ الحِسَان ،

ما لو أطلّت واحدةٌ منهنَّ على الأرض لأضاءتها جميعًا ، ولَقَهَرَ نورُها نورَ الشمس والقمر معًا . . . فَلأَن أُضَحِّيَ بك من أجْلِهن ، أحْرَى وَأَوْلَىٰ من أن أضحيَ بهنَّ من أجلك] . . ! ! !

وأنهى الحديث كما بدأه ، هادئًا ، باسما ، راضيا . .

وسكنت زوجته ، وأدركت أنه لا شيءَ أفضل لها من السير في طريق سعيد ، وحمل النفس على محاكاته في زهده وتقواه . . ! !

* * *

كانت « حمص » أيامئذ ، توصف بأنها « الكوفة الثانية » وسبب هذا الوصف ، كثرة تمرد أهلها واختلافهم على ولاتهم .

ولما كانت « الكوفة » في العراق صاحبة السبق في هذا التمرد فقد أخذت « حمص » اسمها لما شابهتها . .

وعلى الرغم من ولع الحمصيين بالتمرد كما ذكرنا ، فقد هدى الله قلوبهم لعبده الصالح سعيد ، فأحبوه وأطاعوه .

ولقد سأله عمر يومًا فقال : [إن أهل الشام يحبونك] . ؟

فأجابه سعيد قائلا : [لأني أعاونهم وأواسيهم] . . ؟

بيد أنه مهما يكن حب أهل حمص لسعيد ، فلا مفر من أن يكون هناك بعض التذمر والشكوى . . على الأقل لتثبت « حمص » أنها لا تزال المنافس القوي لـ « كوفة » العراق . . ! !

وذات يوم ، وأمير المؤمنين عمر يزور « حمصا » سأل أهلها في جمع

حاشد : ما تقولون في سعيد . . ؟ ؟

وتقدم البعض يشكون منه . . وكانت شكوى مباركة ، فقد كشفت عن جانب من عظمة الرجل ، عجيب جد عجيب . . ! !

طلب عمر من الزمرة الشاكية أن تعدد نقاط شكواها ، واحدة ، واحدة . .

فنهض المتحدث بلسان هذه الزمرة : وقال : نشكو منه أربعا . .

[* لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار . . .

* ولا يُجيب أحدًا بليل . . .

* وله في الشهر يومان لا يخرج فيهما إلينا ولا نراه ،

* وأُخْرَى لا حيلة له فيها ولكنها تضايقنا ، وهي أنه تأخذه الغَشْيَة – أي الإغماء – بين الحين والحين] . .

وجلس الرجل . .

وأطرق عمر مليًا ، وابتهل إلى الله همسًا وقال :

[اللهمَّ إني أعرفُه من خير عِبَادك . . .

اللهمَّ لا تُخيِّب فيه فِرَاستي] . . .

ودعاه للدفاع عن نفسه ، فقال سعيد :

* أما قولهم : إني لا أخرج إليهم حتى يتعالى النهار . .

[فَوَاللهِ لقد كُنتُ أكْرَهُ ذكر السبب . . . إنه ليس لأهلي خادم ، فأنا أعجن عجيني ، ثم أدَعُهُ حتى يختمر ، ثم أخبز خبزي ، ثم أتوضأُ للضحى ، ثم أخرجُ إليهم] . .

وتهلل وجه عمر ، وقال : الحمد الله . . والثانية . . ؟ !

وتابع سعيد حديثه :

* وأما قولهم : لا أجيب أحدًا بليل . .

[فوالله ، لقد كُنتُ أكْرهُ ذِكْرَ السبب . . . إني جعلت النهار لهم ، والليل لربي] . . .

* وأما قولهم : إن لي يومين في الشهر لا أخرج فيهما . .

[فليس لي خادم يغسل ثوبي ، وليس لي ثياب أُبدِّلُها ، فأنا أغسل ثوبي ثم أنتظر حتى يجفَّ بعد حين . . وفي آخر النهار أخرج إليهم] . .

* وأما قولهم : إن الغشية تأخذني بين الحين والحين . .

[فقد شهدتُ مصرع خُبَيْبِ الأنصاري بمكة ، وقد بَضَعَتْ قريش لحمه ، وحملوه على جَذَعة ، وهم يقولون له : أتحبُّ أن محمدًا مكانك ، وأنت سليمٌ مُعافى . . ؟ فيجيبهم قائلاً : واللهِ ما أُحِبُّ أني في أهلي وولدي ، معي عافيةُ الدنيا ونعيمها ، ويُصَابُ رسول الله بشوكة . .

« فكلما ذكَرتُ ذلك المشهد الذي رأيته ، وأنا يومئذ من المشركين ، ثم تذكَّرْتُ تركي نُصْرَة خُبَيْب يومها ، أرتجف خوفًا من عذاب الله ، ويَغْشَاني الذي يغشاني] . .

وانتهت كلمات سعيد ، التي كانت تغادر شفتيه مبللة بدموعه الورعة الطاهرة . . .

ولم يتمالك عمر نفسه ونشوته ؛ فصاح من فرط حبوره :

[الحمدُ لله الذي لم يُخيِّبْ فِرَاستي] . . ! !

وعانق سعيدًا ، وقبل جبهته المضيئة العالية . .

* * *

أيُّ حظ من الهدى ناله هذا الطراز من الخلق . . ؟ ؟

أي معلم كان رسول الله . . ؟ ؟

وأي نور نافذ ، كان كتاب الله . . ؟ ؟

وأي مدرسة مُلْهمة ومعلمة ، كان الإسلام . . ؟ ؟

ولكن ، هل تستطيع الأرض أن تحمل فوق ظهرها عددًا كثيرًا من هذا الطراز . . ؟ ؟

إنه لو حدث هذا ، لما بقيت أرضًا . . إنها تصير فردوسًا . .

أجل . . تصير الفردوس الموعود . .

ولما كان الفردوس لم يأت زمانه بعد ، فإن الذين يمرون بالحياة ويعبرون الأرض من هذا الطراز المجيد الجليل . . قليلون دائمًا ، ونادرون . .

و « سعيد بن عامر » واحد منهم . .

كان عطاؤه وراتبه كثيرًا بحكم عمله ووظيفته ، ولكنه كان يأخذ منه ما يكفيه وزوجه . . ثم يوزع باقيه على بيوت أخرى فقيرة . .

ولقد قيل له يوما :

« توسَّع بهذا الفائض على أهلك وأصهارك » .

فأجاب قائلا :

[ولماذا أهلي ، وأصْهَاري . . ؟ ؟

لا والله ، ما أنا ببائعٍ رِضَا الله بِقَرَابة] . . .

وطالما كان يقال له :

« توسَّع على نفسك وأهل بيتك في النفقة وخذ من طيبات الحياة » . .

ولكنه يجيب دائمًا ، ويردد أبدًا كلماته العظيمة هذه :

[ما أنا بالمتخلِّف عن الرَّعِيل الأوَّلِ ، بعد أن سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يَجْمع اللهُ عزَّ وجلَّ الناسَ للحساب ، فيجيءُ فُقَرَاءُ المؤمنين يَزِفُّونَ كما تزِفُّ الحمام ، فَيُقال لهم : قِفُوا للحساب ، فيقولون : ما كان لنا شيْ نُحَاسب عليه . . . فيقول الله : صَدَقَ عِبَادي . . فيدخلون الجنة قبل الناس] . . .

* * *

وفي العام العشرين من الهجرة ، لقي سعيد ربه أنقى ما يكون صفحة ، وأتقى ما يكون قلبًا ، وأنضر ما يكون سيرة . .

لقد طال شوقه إلى الرَّعِيل الأول الذي نذر حياته لحفظ عهده ، وتَتَبُّع خطاه . .

أجل . . طال شوقه إلى رسوله ومعلمه . . وإلى رفاقه الأوَّابين المتطهرين . .

واليوم يلا قيهم قرير العين ، مطمئن النفس ، خفيف الظهر . .

ليس معه ولا وراءه من أحمال الدنيا ومتاعها ما يثقل ظهره وكاهله . .

ليس معه إلا وَرَعه ، وزُهده ، وتُقاه ، وعظمة نفسه وسلوكه . .

فضائلُ تُثْقِلُ الميزان ، ولكنها لا تُثْقِلُ الظهور . . ! !

ومزايا هَزَّ بها صاحبها الدُّنيا ، ولم يَهُزَّها غرور . . ! !

* * *

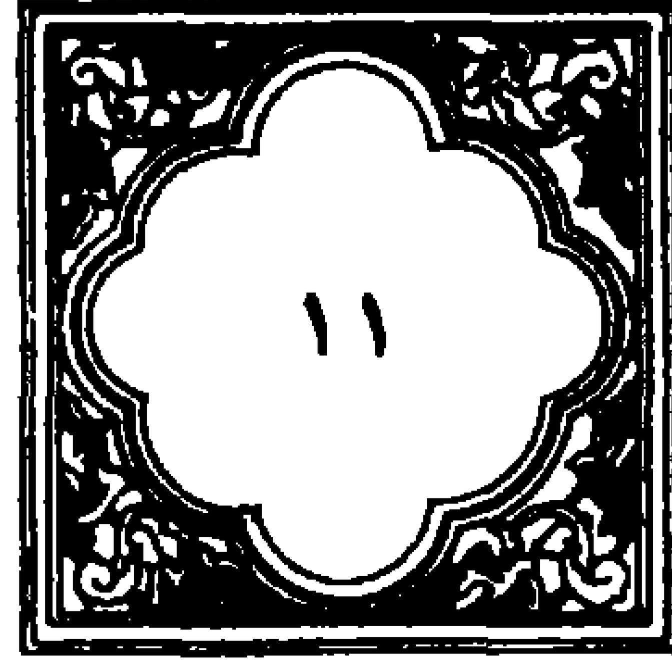
سلامٌ عَلَى سَعِيد بن عامر . .

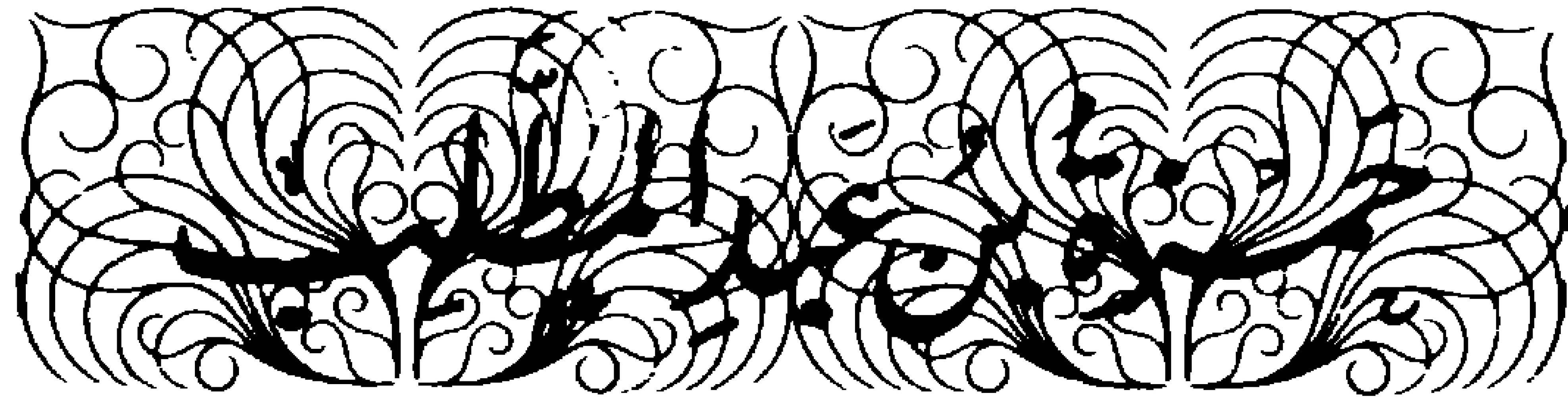
سلامٌ عليه في محياه ، وأُخراه . .

وسلامٌ ، ثم سلامٌ ، على سيرته وذكراه . .

وسلامٌ على الكرام البَرَرَة . . أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . .







أَسَدُ الله ، وَسَيِّدُ الشُّهَداء



كانت مكّةُ تَغِطُّ في نومها . بعد يوم ملء بالسعي ، وبالكدّ ، وبالعبادة ، وباللهو . .

والقُرشيون يتقلّبون في مَضاجعهم هاجعين . . . غير واحد هناك يَتَجَافَى عن المَضْجَع جَنْبَاه ، يأوِي إلى فراشه مبكرًا ، ويستريح ساعات قليلة ، ثم ينهض في شوق عظيم ؛ لأنه مع الله على موعد ، فيعْمَدُ إلى مُصَلّاه في حجرته ، ويظل يناجي ربه ويدعوه . . وكلما استيقظت زوجته على أزيز صدره الضّارع وابتهالا ته الحارَّة المُلِحَّة ، وأخذتْهَا الشفقة عليه ، ودعته أن يرفُق بنفسه ، ويأخذ حظه من النوم – يجيبها ودموع عينيه تُسَابِقُ كلماته :

[لقد انقضى عهدُ النوم يا خديجة] . . . ! ! !

لم يكن أمره قد أَرَّق قريشًا بعد ، وإن كان قد بدأ يشغل انتباهها ؛ فلقد كان حديث عهد بدعوته ، وكان يقول كلمته سِرًّا وَهَمْسًا .

كان الذينْ آمنوا به يومئذ قليلين جدًا . .

وكان هناك مِن غير المؤمنين به مَن يحمل له كل الحب والإجلال ؛ ويطوي جوانحه على شوق عظيم إلى الإيمان به والسير في قافلته المباركة . لا يمنعه سوى مُواضعات العُرف والبيئة ، وضغوط التقاليد والوراثة ، والتردُّد بين نداء الغروب ، ونداء الشُّرُوق .

من هؤلاء كان حمزة بن عبد المطلب . . عم النبي صلى الله عليه

وسلم وأخوه من الرضاعة .

* * *

كان « حمزة » يعرف عَظَمَةَ ابنِ أخيه وكمالَه . . وكان على بينة من حقيقة أمره ، وجوهر خصالِه . .

فهو لا يعرفه معرفة العم بابن أخيه فحسب . . بل يعرفه معرفة الأخ ، والصَّدِيق . . . ذلك أن الرسول وحمزة من جيل واحد . وسِنٍّ متقاربة . . نشآ معًا ، ولعبا معًا ، وتآخيا معًا . وسارا معًا على الدرب من أوله خطوة خطوة . .

ولَئِن كان شباب كل منهما قد مضى في طريق - فأخذ « حمزة » يُزاحم أندادَه في نيل طيبات الحياة . وإفساح مكان لنفسه بين زعماء مكة وسادات قريش . . بينما عكف « محمد » على أضواء روحه التي انطلقت تُنير له طريق الله وعلى حديث قلبه الذي نأى به من ضوضاء الحياة إلى التأمّل العميق ، وإلى التهيُّؤ لمصافحة الحق وتلَقِّيه . .

نقول : لَئِنْ كان شباب كل منهما قد اتخذ وِجْهةً مُغايرة ، فإن « حمزة » لم تغب عن وعيه لحظةً من نهار فضائلُ تِرْبِه وابنِ أخيه . . تلك الفضائل والمكارم التي كانت تحِلُّ صاحبها مكانًاعليًّا في أفئدة الناس كافَّةً ، وترسم صورة واضحة لمستقبله العظيم .

في صبيحة ذلك اليوم ، خرج « حمزة » كعادته .

وعند الكعبة وجد نَفَرًا من أشراف قريش وسادتها فجلس معهم ، يستمع لما يقولون . .

كانوا يتحدثون عن « محمد » . . .

ولأول مرة رآهم « حمزة » يستحوذ عليهم القلق من دعوة ابن أخيه . . وتظهر في أحاديثهم عنه نبرة الحقد ، والغيظ ، والمرارة .

لقد كانوا من قبل لا يُبالون ، أوهُمْ يتظاهرون بعدم المبالاة والاكتراث.

أما اليوم ، فوجوههم تموج موجًا بالقلق ، والهمِّ ، والرغبة في الافتراس . .

وضحك « حمزة » من أحاديثهم طويلا . . ورماهم بالمبالغة، وسوء التقدير . . .

وعقّب أبو جهل مؤكدًا لجلسائه أن « حمزة » أكثر الناس علمًا بخطر ما يدعو إليه « محمد » ولكنه يريد أن يُهوِّن من الأمر حتى تنام قريش . ثم تصبح يوما ، وقد ساءَ صَباحُها . وظهر أمرُ ابن أخيه عليها . .

ومَضَوْا في حديثهم يُزَمْجِرُون ، ويتوعدون . . و« حمزة » يبتسم تارة ، ويمتعض تارة أخرى ، وحين انفضَّ الجمع وذهب كُلٌّ إلى سبيله ، كان « حمزة » مُثقَل الرأس بأفكار جديدة ، وخواطر جديدة ، راح يستقبل بها أمر ابن أخيه ، ويُناقشه مع نفسه من جديد . . . ! ! !

* * *

ومضت الأيام ، ينادي بعضها بعضا ومع كل يوم تزداد هَمْهَمَةُ قريش حول دعوة الرسول . .

ثم تتحوَّل الهمهمة إلى تحرُّش . و« حمزة » يرقُب الموقف من بعيد . .

إن ثباتَ ابن أخيه لَيَبْهَرُه . . . وإن تفانيه في سبيل إيمانه ودعوته لَهُوَ شيءٌ جديد على قريش كلها ، رغم ما عُرِفَتْ به من تفانٍ وصُمود . . ! !

ولو استطاع الشك يومئذ أن يخدع أحدًا عن نفسه في صدق الرسول وعظمة سجاياه ، فما كان هذا الشكُّ بقادر على أن يجد إلى وعي « حمزة » مَنْفَذًا أو سبيلا . .

فحمزةُ خير مَن يعرف محمدًا – من طفولته الباكرة . . إلى شبابه الطاهر . . إلى رجولته الأمينة السَّامِقَة . .

إنه يعرفه كما يعرف نفسه . بل أكثر مما يعرف نفسه . ومنذ جاءَا إلى الحياة معا . . وترعْرَعا معا . . وَبَلَغا أشُدَّهُمَا معا . . وحياة محمد كلها نقية كأشعة الشمس . . ! ! لا يذكر حمزة شبهة واحدة ألَمَّت بهذه الحياة . . لا يذكر أنه رآه يوما غاضبا ، أو قانِطًا ، أو طامعا ، أو لاهيا ، أو مهزوزًا . .

وحمزةُ لم يكن يتمتع بقوة الجسم فحسب ، بل وبرجاحة العقل ، وقوة الإرادة أيضًا . .

ومن ثَمَّ لم يكن من الطبيعي أن يتخلَّف عن مُتابعة إنسان يعرف فيه كل الصدق وكل الأمانة . . وهكذا طوى صَدْره إلى حين على أمر سيتكَشَّف في يوم قريب . .

* * *

وجاء اليوم الموعود . . .

وخرج « حمزة » من داره ، مُتوشحًا قَوْسَه ، مُيَمِّمًا وجهه شَطْرَ الفلاة ليمارِس هوايته المحببة ، ورياضته الأثيرة – الصيد . . وكان صاحب مَهارة فائقة فيه . .

وقضى هناك بعض يومه . . ولما عاد من قَنَصِه ، ذهب كعادته إلى الكعبة ليطوف بها قبل أن يَقْفِل راجعًا إلى داره .

وقريبا من الكعبة ، لَقيته خادم لعبد الله بن جُدْعان . . .

ولم تكد تبصره حتى قالت له :

[يا أبا عُمَارة . . لو رأيت ما لَقِي ابنُ أخيك محمد آنفًا ، من أبي الحكَم بن هِشام . . وجَدَه هناك جالسا ، فآذاه ، وسَبَّه ، وَبَلَغ منه ما يَكْرَه] . .

ومضت تشرح له ما صنع أبو جهل برسول الله . .

واستمع حمزة جيدًا لقولها ، ثم أطرق لحظة ، ثم مد يمينه إلى قوسه فَثَبَّتهَا فوق كتفه . . ثم انطلق في خُطًى سريعة حازمة صَوْب الكعبة ، راجيًا أن يلتقي عندها بأبي جهل . . فإن هو لم يجده هناك ، فسيُتَابعُ البحث عنه في كل مكان حتى يُلاقيه . .

ولكنه لا يكاد يبلغ الكَعبة ، حتى يُبصر أبا جهل في فِنائها يتوسَّط نَفَرًا من سادة قريش . .

وفي هدوء رهيب ، تقدم حمزة من أبي جهل ، ثم استلَّ قوسَهُ وهَوَى بها على رأس أبي جهل فَشَجَّه وأدماه ، وقبل أن يُفيق الجالسون من الدهشة ، صاح حمزة في أبي جهل :

[أَتَشْتُم محمدًا ، وأنا على دِينه أقولُ ما يقول . . ؟ ! ألَا فَرُدَّ ذَلك عَلَيَّ إن استطعت] . . .

وفي لحظة ، نَسيَ الجالسون جميعًا الإهانة التي نزلت بزعيمهم أبي جهل والدم الذي ينزِفُ من رأسِه ، وشغلتهم تلك الكلمة التي حاقَتْ بهم كالصاعقة . . الكلمة التي أعلن بها « حمزة » أنه على دين « محمد » يرى ما يراه ، ويقول ما يقوله . .

أَحمزةُ يُسْلِم..؟؟

أَعَزُّ فِتْيان قريش وأقواهُم شكيمة..؟؟

إنها الطَّامَّة التي لن تملك قريش لها دفعًا.. فإسلام حمزة سيُغري كثيرين من الصَّفْوَةِ بالإسلام، وسيجد محمد حوله من القوة والبأس ما يُعَزِّز دعوته ويشدُّ أَزْرَه. وتصحو قريش ذات يوم على هدير المعاول تُحطم أصنامها وآلهتها..!!

أجَلْ.. أسلَم حمزة، وأعلن على الملأ الأمرَ الذي كان يطوي عليه صدره، وترك الجمعَ الذَّاهِل يَجْتَرُّ خيبة أمله، وأبا جَهل يَلْعق دِمَاءَه النازفة من من رأسه المشجوج.. ومدَّ حمزة يمينه مرة أخرى إلى قوسه فَثَبَّتها فوق كَتِفه، واستقبل الطريق إلى داره في خطواته الثابتة. وبَأسِه الشديد..!

* * *

كان حمزة يحمل عقلاً نافذًا. وضميرًا مستقيما..

وحين عاد إلى بيته، ونَضَا عنه متاعب يومه. جلس يفكر، ويُدير خواطره على هذا الذي حدث من قريب..

كيف أعلن إسلامه.. ومتى..؟؟

لقد أعلنه في لحظةٍ من لحظات الحَمِيَّة، والغضب، والانفعال..

لقد ساءه أن يُساءَ ابن أخيه، ويُظلَم دون أن يجد له ناصرًا، فغضب له، وأخذتْه الحميَّةُ لشرف بني هاشم، فَشَجَّ رأس أبي جهل وصرخ في وجهه بإسلامه...

ولكن، هل هذا هو الطريق الأمثل لكي يغادر الإنسان دين آبائه وقومه.. دين الدهور والعصور.. ثم يستقبل دينًا جديدًا لم يختبر بعد تعاليمه،

ولا يعرف عن حقيقته إلا قليلا..

صحيح أنه لا يشك لحظة في صدق «محمد» ونزاهة قصده.. ولكن أيمكن أن يستقبل امرؤٌ دينًا جديدًا ، بكل ما يفرضه من مسئوليات وتبعات ، في لحظة غَضَب ، مثلما صنع حمزة الآن..؟؟

لقد كان يطوي صدره على احترام هذه الدعوة الجديدة التي يحمل ابن أخيه لواءها..

ولكن ، إذا كان مقدورًا له أن يكون أحد أتباع هذه الدعوة ، المؤمنين بها ، والذّائدين عنها.. فما الوقت المناسب للدخول في هذا الدين..؟

لحظةُ غَضَب وحَمِيَّة..؟ أم أوقاتُ تفكير ورَوِيّة..؟؟

وهكذا فرضت عليه استقامة ضميره ، ونزاهةُ تفكيره أن يُخضع المسألة كلها من جديد لتفكير صارم ودقيق..

وشرَع يفكر.. وقضى أيامًا ، لا يهدأ له فيها خاطر.. ولياليَ لا يرقأُ له فيها جَفْن..

وحين نَنْشُد الحقيقة بواسطة العقل ، يفرض الشك نفسه كوسيلة إلى المعرفة..

وهكذا ، لم يكد حمزة يستعمل عقله في بحث قضية الإسلام ، ويوازن بين الدين القديم ، والدين الجديد ، حتى ثارت في نفسه شكوك أزْجاها الحنين الفِطريُّ الموروث إلى دين آبائه.. والتهيُّب الفِطري الموروث من كل جديد..

واستيقظَتْ كل ذكرياته عن الكعبة ، وآلهتها ، وأصنامها.. وعن الأمجاد الدينية التي أفاءتها هذه الآلهة المنحوتة على قريش كلها ، وعلى

مكة بأسرها . .

وبدا الانسلاخ من هذا التاريخ كله . . وهذا الدين القديم العريق . . هُوَةً تتعاظَمُ مُجْتازَها . .

وعجب « حمزة » كيف يتسنى لإنسان أن يُغادر دين آبائه بهذه السهولة وهذه السرعة . . وندم على ما فعل . . ولكنه واصل رحلة العقل . . ولما رأى أن العقل وحده لا يكفي لجأ إلى الغيب بكل إخلاصه وصِدْقه . .

وعند الكعبة ، كان يستقبل السماء ضارعًا ، مبتهلا ، مستنجدًا بكل ما في الكون من قدرة ونور ، كي يهتدي إلى الحق وإلى الطريق المستقيم . .

ولْنصْغِ إليه وهو يروي بقية النبأ فيقول :

[. . ثم أدركَني الندم على فراق دين آبائي وقومي . . وبتُّ من الشكِ في أمر عظيم . لا أكْتَحِلُ بنوم . .

« ثم أتيتُ الكعبة . وتضرَّعتُ إلى الله أن يشرح صدري للحق . ويُذهبَ عني الريْب . . فاستجاب الله لي وملأ قلبي يقينا . .

« وغدوتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما كان من أمري . فدعا الله أن يثبت قلبي على دينه . . .]

وهكذا أسلم « حمزة » إسلام اليقين . .

أعزّ الله الإسلام بحمزة . . . ووقف شمخًا قويا يذود عن رسول الله . وعن المستضعفين من أصحابه . .

ورآه أبو جهل يتنقب في صفوف المسلمين . فأدرك أنها الحرب لا محالة . وراح يُحرض قريشًا على إنزال الأذى بالرسول وصحبه ، ومضى يُهيِّئ لحرب أهلية يشفي عن طريقها مَغايظَه وأحقاده . .

ولم يستطع حمزَةُ – طبعًا – أن يمنع كل الأذى . . ولكن إسلامه مع ذلك كان وقايةً ودرعا . . كما كان إغراء ناجحًا لكثير من القبائل التي قادها إسلام حمزة أولا . ثم إسلام عمر بن الخطاب بعد ذلك إلى الإسلام فدخلَتْ فيه أفواجًا . . ! !

ومنذ أسلم « حمزة » نذَر كل عافيته . وبأسه . وحياته . لله ولدينه حتى خلع النبي عليه هذا اللقب العظيم :

[أَسَدُ الله . وأَسَدُ رسوله] . . .

وأول سرِيَّة خرج فيها المسلمون للقاء عدو . كان أميرها حمزة . . .

وأول راية عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحد من المسلمين . كانت لحمزة . .

ويوم التَقى الجمعان في غزوة « بَدْر » . كان أسَدُ الله وأسَدُ رسوله هناك يصنع الأعاجيب . . ! !

* * *

وعادت فُلول قريش من بدر إلى مكة تتعثَّر في هزيمتها وخيبتها . . ورجع أبو سفيان مخلوع القلب ، مطأطئ الرأس . وقد خلَّف على أرض المعركة جُثَثَ سادة قريش ، من أمثال أبي جهل . . وعُتبة بن ربيعة . . وشيبة بن ربيعة . . وأُميَّة بن خلَف . وعُقبة بن أبي مُعَيط . . والأسود بن عبد الأسد المخزومي . . والوليد بن عتبة . . والنضر بن الحارث . . والعاص بن

سعيد . . وطعمة بن عَدِي . . وعَشَرات مثلهم من رجال قريش وصناديدها .

وما كانت قريش لتتجرَّع هذه الهزيمة المنكرة في سلام . . فراحَتْ تُعِدُّ عُدّتها ، وتحشد بأسَها ويأسَها ، لتثأر لنفسها ولشرفها ولقتلاها . .

وصمَّمت قريش على الحرب . .

* * *

وجاءت غزوة « أُحُد » حيث خرجت قريش على بَكْرة أبيها ، ومعها حُلفاؤها من قبائل العرب ، بقيادة أبي سفيان مرة أخرى

وكان زعماء قريش يَهْدِفون بمعركتهم الجديدة هذه إلى رجُلين اثنين : الرسول عليه صلاة الله وسلامه . . وحمزة رضي الله عنه وأرضاه . .

أجل . . والذي كان يسمع أحاديثهم ومؤامراتهم قبل الخروج للحرب ، يرى كيف كان « حمزة » بعد الرسول ، بيت القصيد وهَدَفَ المعركة . .

ولقد اختاروا قبل الخروج ، الرجلَ الذي وكلوا إليه أمر حمزة ، وهو عبدٌ حَبَشي ، كان ذا مهارة خارقة في قَذْف الحَرْبة . . جعلوا كل دوره في المعركة أن يتصيَّد « حمزة » ويُصَوِّب إليه ضربةً قاتلة من رمحه ، وحذروه من أن ينشغل عن هذه الغاية بشيء آخر ، مهما يكن مصير المعركة واتجاه القتال .

ووعدوه بثمن غال وعظيم — هو : حُرِّيته . . فقد كان الرجل واسمه « وَحْشِيّ » عبدًا لجُبير بن مُطْعَم . . وكان عم جُبَيْر قد لقي مصرعه يوم بَدْر فقال له جُبَيْر :

[اخرج مع الناس ، وإن أنت قتلتَ حمزة فأنت عتيق] . . . !

ثم أحالوه إلى « هند بنت عُتْبة » زوجة أبي سفيان لتزيده تحريضًا .

ودَفْعًا إلى الهدف الذي يريدون..

وكانت هندٌ قد فقدت في معركة « بدر » أباها ، وعمها ، وأخاها ، وابنها.. وقيل لها إن « حمزة » هو الذي قتل بعض هؤلاء ، وأَجْهَزَ على البعض الآخر..

من أجل هذا كانت أكثر القرشيين والقرشيَات تحريضًا على الخروج للحرب . لا لشيء إلا لتظفر برأس حمزة مهما يكن الثمن الذي تتطلبه المغامرة.. ! !

ولقد لَبِثَتْ أيامًا قبل الخروج للحرب ، ولا عمل لها إلا إفراغ كل حقدها في صدر « وَحْشِيٍّ » ورسم الدور الذي عليه أن يقوم به..

ولقد وعدته إن هو نجح في قتل حمزة بأثمن ما تملكه المرأة من متاع وزينة – فلقد أمسكت بأناملها الحاقدة قُرطها اللؤلؤي الثمين وقلائدها الذهبية التي تزدحم حول عنقها . ثم قالت وعيناها تحدِّقان في وَحْشيّ :

[كُلُّ هذا لك ، إن قتلت حمزة]... ! ! !

وسالَ لُعاب وَحْشِيٍّ.. وطارت خواطره توَّاقَةً مُشْتاقَةً إلى المعركة التي سيربح فيها حريته ، فلا يصير بَعْدُ عبدًا أو رقيقًا . والتي سيخرج منها بكل هذا الحلي الذي يُزيِّن عنق زعيمة نساء قريش . وزوجة زعيمها ، وابنة سيِّدها.. ! !

كانت المؤامرة إذن.. وكانت الحرب كلها تريد « حمزة » رضي الله عنه بشكل واضح وحاسم.

* * *

وجاءت غزو أحد...

والْتَقى الجيشان.. وتوسط « حمزة » أرض الموت والقتال ، مرتديًا لباس الحرب.. وعلى صدره ريشة النعام التي تعود أن يزين بها صدره في القتال...

وراح يصول ويجول ، لا يريد رأسًا ، إلا قطعه بسيفه ، ومضى يضرب في المشركين ، وكأنَّ المنايا طَوْعُ أَمْرِه ، يقذف بها من يشاء فتصيبه في صَمِيمه..!!

وصال المسلمون جميعًا حتى قاربوا النصر الحاسم.. وحتى أخذت فُلول قريش تنسحب مذعورة هاربة.. ولولا أن ترك الرماة مكانهم فوق الجبَل ، ونزلوا إلى أرض المعركة ليجمعوا غنائم العدو المهزوم.. لولا تركُهم مكانهم وفَتْحُهم الثغرة الواسعة لفرسان قريش لكانت « غزوة أُحُد » مقبرة لقريش كلها: رجالها.. ونسائها.. بل وخَيْلها.. وإبلِها..!!

لقد دَهَم فرسانها المسلمين من ورائهم على حين غفلة ، وأعملوا فيهم سيوفَهم الظامِئة المجنونة.. وراح المسلمون يجمعون أنفسهم من جديد ، ويحملون سلاحهم الذي كان بعضهم قد وضعه حين رأى جيش قريش ينسحب ويُوَلي الأدبار.. ولكن المفاجأة كانت قاسية وعنيفة.

ورأى « حمزة » ما حدَث فضاعف قوته ونشاطه وبلاءَه..

وأخذ يضرب عن يمينه وشماله... وبين يديه ومن خَلْفِه... و« وَحْشيٌّ » هناك يَرْقُبه ، ويتحيَّن الفرصة الغادرة ليوجِّه نحوه ضَرْبته..

ولْنَدَعْ « وَحْشِيًّا » يصف لنا المشهد بكلماته:

[... وكنتُ رجلا حَبَشِيًّا ، أَقْذِفُ بالحربة قَذْفَ الحبشة ، فقَلَّمَا أُخطئ بها شيئًا... فلما الْتَقى الناس خرجتُ أنظر

« حمزة » وأتبَصَّره حتى رأيته في عرض الناس مثل الجمَل الأوْرَق.. يهُدُّ الناسَ بسيفه هَدًّا ، ما يقف أمامه شيْ..

« فواللهِ إني لأتَهَيَّأُ له - أريده ، وأستتر منه بشجرة لِأتقَحَّمَهُ أو لِيَدْنُوَ مني ، إذْ تقَدَّمني إليه « سباعُ بن عبد العُزّى ». فلما رآه حمزة صاح به : هَلُمَّ إلَيَّ يا ابن مُقَطِّعَة البُظور. ثم ضربه ضربة فما أخطأ رأسه...

« عندئذ هَزَزْتُ حَرْبَتِي ، حتى إذا رَضيتُ منها دفعتها فوَقَعَتْ في ثُنَّتِه حتى خَرَجَتْ من بين رجليه.. ونَهض نحوي ، فَغُلب على أمره ثم مات...

« وأتيتُه فأخذتُ حربتي ، ثم رجعتُ إلى المعسكر فقعدتُ فيه ، إذ لم يكن لي فيه حاجة - فقد قتلتهُ لأُعْتَق...]

ولا بأس في أن نَدَعَ « وحشيًا » يكمل حديثه :

[فلما قدمْتُ مكَّة أُعْتِقْت . ثم أقمتُ بها حتى دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فهربت إلى الطائف..

« فلما خرج وفدُ الطائف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لِيُسْلِم تَعَيَّتْ عليَّ المذاهب. وقلت : ألْحَق بالشام ، أو اليمن ، أو سواها...

« فواللهِ إني لفي ذلك من هَمِّي إذ قال لي رجل : ويْحَكَ... ! ! إن رسول الله ، واللهِ لا يَقْتل أحدًا من الناس يدخل دينه...

« فخرجتُ حتى قَدِمْت على رسول الله صلى الله عليه وسلم

المدينة فلم يَرَني إلا قائمًا أمامه أشهد شهادة الحق . فلما رآني قال : أَوَحْشِيٌّ أنت . . ؟ قلت : نعم يا رسول الله . . قال : فحدِّثْني كيف قتلتَ حمزة . فحدثْتُه . . . فلما فَرَغْتُ من حديثي قال : وَيْحك . . غَيِّبْ عني وَجْهَك . . فكُنتُ أتنكَّب طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان ؛ لئلا يراني حتى قبضه الله إليه . .

« فلما خرج المسلمون إلى مسيلمة الكذَّاب صاحب اليمامة خرجْتُ معهم ، وأخذتُ حربتي التي قتلتُ بها حمزة . . . فلما التقى الناس رأيتُ مسيلمة الكَذَّاب قائمًا ، في يده السيف ، فتهيَّأتُ له ، وهَزَزْتُ حربتي ، حتى إذا رضيتُ منها دفعتها عليه فوقَعَتْ فيه . . .

« فإن كُنتُ قد قتلت بحربتي هذه خير الناس وهو حمزة . . فإني لأرجو أن يغفر الله لي إذْ قتلتُ بها شَرَّ الناس مُسَيْلِمةَ] . . .

* * *

هكذا سقط أسَدُ الله وأسَدُ رسوله . شهيدًا مجيدًا . . . ! !

وكما كانت حياتهُ مُدَوِّيةً ، كانت موتته مُدَوِّيةً كذلك . . .

فلم يكتف أعداؤه بمقتله . . وكيف يكْتفون أو يَقْنعون . وهم الذين جَنَّدوا كل أموال قريش وكل رجالها في هذه المعركة التي لم يريدوا بها سوى الرسول وَعَمِّه حمزة . . .

لقد أمرت « هند بنت عُتبة » زوجة أبي سفيان . . أمَرت « وَحْشِيًّا » أن يأتيها بكبد حمزة . . واستجاب الحبشي لهذه الرغبة المسعورة . . وعندما

عاد بها إلى هند كان يناولُها الكبد بيمناه . ويتلقى منها قرطها وقلائدها بيُسْراه ، مكافأة له على إنجاز مهمته . .

وَمَضَغَتْ هند بنت عتبة الذي صرعه المسلمون ببدر . وزوجة أبي سفيان قائد جيش الشرك والوثنية . . مَضَغَتْ كبد حمزة . راجيةً أن تشفي تلك الحماقة حقدها وَغِلّها . ولكن الكَبدَ استَعْصَتْ على أنيابها . وَأَعْجزتْها أن تسيغَها . فأخرجتها من فمها . ثم عَلَتْ صَخرة مرتفعة . وراحت تصرخ قائلة :

نَحنُ جَزينــــاكُم بيوم بَدْرِ
والحربُ بعـــد الحربِ ذات سُعْرِ
ما كان عن عُتْبَـــةَ لي من صَبْرِ
ولا أخي . وعمِّــهِ . وَبكْرِي
شَفَيْتُ نفسي وَقَضَيْتُ نَـــذْري
أزاح وَحْشِيّ غَليل صـــدري

وانتهت المعركة ، وامتطى المشركون إبِلَهم . وساقوا خَيْلَهم قافلين إلى مكة . .

ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه معه إلى أرض المعركة لينظر شهداءها . .

وهناك في بطن الوادي . وإذ هو يتفحص وجوه أصحابه الذين باعوا لله أنفسهم . وقدّموها قرابين مبرورة لربهم الكبير . وقف فجأة . . . ونظر . فوجم . . وضغط على أسنانه . . وَأسْبَل جفْنيه . .

فما كان يتصور قط أن يهبط الخلق العربي إلى هذه الوحشية البشعة .

فيُمَثِّلَ بجثمان ميت على الصورة التي رأى فيها جثمان عمه الشهيد المجيد « حمزة بن عبد المطلب » أسَدِ الله.. وسيد الشهداء..

وفتح الرسول عينيه التي تألق بريقهما كوَمْضِ القدَر.. وقال وعيناه على جثمان عمه:

[لَن أُصابَ بِمثلِك أبدًا..
وما وَقَفْتُ موقفًا قطُّ أغيظَ إليّ من مَوْقفي هذا..].

ثم التفت إلى أصحابه وقال:

[لولا أن تحزن صَفِيَّة - أختُ حمزة - ويكُون سُنَّة من بعدي، لَتركْتهُ حتى يكُون في بُطون السِّباع وحواصِلِ الطيرِ...
وَلَئِنْ أظْهَرني الله على قريش في مَوْطن من المواطن، لأُمثِّلَنَّ بثلاثين رجلاً منهم..]

فصاح أصحاب الرسول:

[واللهِ، لَئِنْ أظفرنا اللهُ بهم يومًا من الدهر، لَنُمَثِّلَنَّ بهم، مُثْلَةً لم يُمثِّلها أحدٌ من العرب..!!]

ولكن الله الذي أكرم « حمزة » بالشهادة، يكرمه مرة أخرى بأن يجعل من مصرعه فُرصة لدرس عظيم يحمي العدالة إلى الأبد، ويجعل الرحمة حتى في العقوبة والقصاص واجبًا وَفَرْضًا..

وهكذا لم يكد الرسول صلى الله عليه وسلم يفرغ من إلقاء وعيده السالف حتى جاءه الوحي وهو في مكانه لم يبرحه بهذه الآيات الكريمة:

[ادْعُ إلى سبيلِ رَبِّك بالحكمة والموعظة الحسنة، وَجَادِلْهم

بالتي هي أَحْسَن . إن رَبَّك هو أعلمُ بِمَنْ ضَلَّ عن سبيله ، وهو أعلَمُ بالمهتدين . .

وإن عَاقَبْتُمْ فعَاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ به ، ولَئِنْ صَبَرْتُم لَهُوَ خَيْرٌ للصابرين . .

وَاصْبِرْ . وما صَبْرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم . ولا تَكُ في ضيق مِمَّا يمكُرون . .

إن الله مع الذين اتقَوْا ، والذين هُمْ مُحْسِنون . .]

وكان نزول هذه الآيات . في هذا الموطن . خير تكريم لحمزة الذي وَقَعَ أَجْرُهُ على الله . .

* * *

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يُحبه أعظم الحب . فهو كما ذكرنا من قبل لم يكن عَمَّه الحبيب فحسب . .

بل كان أخاه من الرضاعة . . .

وتِرْبَه في الطفولة . . .

وَصَدِيقَ العمر كله . . .

وفي لحظات الوداع هذه ، لم يجد الرسول صلى الله عليه وسلم تحيةً يُوَدِّعُه بها خيرًا من أن يُصَلِّيَ عليه بعدد شهداء المعركة جميعًا . .

وهكذا حُمل جثمان « حمزة » إلى مكان الصلاة على أرض المعركة التي شهدت بَلاءَه ، واحتضنت دماءه . . فصلى عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ثم جيء بشهيد آخر ، فصلى عليه الرسول . . ثم رُفع وَتُرِك

حمزة مكانه ، وجيء بشهيد ثالث فوضع إلى جوار حمزة وصلى عليهما الرسول . .

وهكذا جيء بالشهداء . . شهيد بعد شهيد . . والرسول صلى الله عليه وسلم يصلي على كل منهم وعلى حمزة معه حتى صلى على عَمِّه يومئذ سبعين صلاة . . .

* * *

وينصرف الرسول من المعركة إلى بيته ، فيسمع في طريقه نِسَاءَ بني عبد الأشْهَل يَبْكِين شهداءَهُن ، فيقول عليه الصلاة والسلام من فَرْط حنانه وَحُبِّه :

[لكِنَّ حَمزَةَ لا بَوَاكِيَ لهُ] . . ! !

ويسمعها « سعد بن معاذ » فيظنُّ أن الرسول صلى الله عليه وسلم يطيب نفسًا إذا بكَت النساء عَمَّه ، فيسرع إلى نساء بني الأشْهَل ويأمُرُهُنَّ أن يبكين حمزة ، فيفعَلْنَ . . ولا يكاد الرسول يسمع بكاءَهن حتى يخرج إليهن ، ويقول :

[ما إلى هذا قَصَدْت ، ارْجِعْنَ يرحمكن الله ، فلا بُكَاءَ بعد اليوم] . .

ولقد ذهب أصحاب الرسول يتبارون في رثاء « حمزة » وتمجيد مناقبه العظمى . .

فقال حسَّان بن ثابت في قصيدة طويلة له :

دَعْ عنك دارًا قد عفـــا رَسْمُها

وَابْكِ على حَمـــزَةَ ذي النائل

اللاَّبس الخيـــل إذا أحْجَمَتْ
كَاللّيث في غابتـــه ، البـــاسِل
أبيضُ في الذروة من هـــاشم
لم يَمْرِ دون الحق بالبـــاطِل
مَالَ شَهيـــدًا بَيْنَ أسيـــافكم
شُلّتْ يدا وَحْشيّ مِنْ قاتـــل

* * *

وقال عبد الله بن رَوَاحَة :

بكَتْ عيني وحقّ لهـــا بُـــكَاها
وما يُغْـــني البـــكاء ولا العويل
عَلَى أسَدِ الإله غَـــــداةَ قالوا :
أحَمْزةُ ذاكُم الرجُـــل القتيـــل
أُصيبَ المســـلمون به جميعًـــا
هناك وقد أُصيبَ به الرســـول
أبا يَعْلى ، لكَ الأركان هُـــدَّت
وأنتَ المـــاجدُ البَرُّ الوصـــول

* * *

وقالت صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول صلى الله عليه وسلم وأخت حمزة :

دعاهُ إلهُ الحقِّ ذو العرش دعوةً
إلى جنـــة يحيا بها ، وسرور

فذلك ما كُنَّا نُرجِّي ونرتجي
لحمزةَ يومَ الحشرِ خيرَ مصير
فوالله لا أنْسَاك ما هَبَّتِ الصَّبا
بكاءً وحزنًا ، مَحْضري وَمَسِيري
على أسدِ اللهِ الذي كان مِدْرَهًا
يذودُ عن الإسلام كلّ كَفُور
أقولُ وقد أعْلَى النَّعيُّ عشيرتي
جزى اللهُ خيرًا من أخ ونَصِير

على أن خيرَ رِثاء عطَّر ذكراه كانت كلمات الرسول له حين وقف على جثمانه ساعةَ رآه بين شهداء المعركة وقال :

[رحمةُ اللهِ عليك ، فإنك كنت – ما عَلِمْتُ – وَصُولا للرحم ، فَعُولاً للخيرات] . . .

* * *

لقد كان مُصاب النبي صلى الله عليه وسلم في عمه العظيم « حَمزة » فادحًا . . . وكان العَزَاءُ فيه مُهمة صعبة . . . بَيْدَ أنّ الأقدار كانت تَدَّخر لرسول الله أجملَ عَزَاء .

ففي طريقه من « أُحُد » إلى داره مرَّ عليه الصلاة والسلام بسيدة من بني دينار استشهد في المعركة أبوها ، وزوجها ، وأخوها . . .

وحين أبْصَرَت المسلمين العائدين من الغزو ، سارعتْ نحوهم تسألهم عن أنباء المعركة . . .

فنَعَوْا إليها الزوج . . والأب . . والأخ . . .

وإذا بها تسألهم في لهفة :

[وماذا فعلَ رسُولُ اللهِ] . . ؟؟

قالوا :

[خيرًا . . .

هو بحمد الله كما تُحِبِّين] . . . ! !

قالت :

[أَرُونيه ، حتى أنظُرَ إليه] . . ! !

ولبثوا بجوارها حتى اقترب الرسُول صلى الله عليه وسَلم ، فلما رأته أقبلت نحوه تقول :

[كلُّ مُصيبة بعدك . أمرها يَهُون] . . . ! !

* * *

أجَلْ . . .

لقد كان هذا أجْمَلَ عَزاء وأبقاه . . .

ولعلَّ الرسُول صلى الله عليه وسلم قد ابتسم لهذا المشهد الفذِّ الفريد ، فليس في دنيا البذْل ، والولاء ، والفِدَاء لهذا نظير . . .

سيدة . . ضعيفة ، مسكينة ، تفقد في ساعة واحدة أباها ، وزوجها ، وأخاها . . . ثمَّ يكون رَدُّها على النَّاعي لحظة سماعها النبأ الذي يهدُّ الجبال :

[وماذا فَعَلَ رسُول الله] . . . ؟؟ ! !

لقد كان مشهدًا أجاد القدَرُ رَسْمَه وتوقيتَهُ ليجعل منه للرسول الكريم صلى الله عليه وسَلم عَزَاءً أيَّ عَزَاء . . . في أسَدِ اللهِ ، وَسَيِّدِ الشُّهدَاء . . . ! !





أوّلُ صَادِحٍ بِالقُرآن



قبل أن يدخل رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم دار الأرقم ، كان « عبد الله بن مسعود » قد آمن به ، وأصبح سادس سِتة أسلموا واتَّبعَوا الرسُول ، عليه وعليهم صلاة الله وسلامه . . .

هو إذن من الأوائل المبكِّرين . . .

ولقد تحدّث عن أوَّل لقاء له برسُول الله فقال :

[كنت غلامًا يافعًا . أرعى غنمًا لعُقْبَةَ بن أبي مُعَيْط فجاء النبي صلى الله عليه وسَلم ، وأبو بكر ، فقالا : يا غلام ، هل عندك من لَبنٍ تَسْقينا . . . ؟؟

« فقلت : إني مُؤْتَمَن . ولستُ سَاقِيَكما . . .

« فقال النبي عليه الصلاة والسلام : هل عندك من شاةٍ حائلٍ ، لم يَنْزُ عليها الفحل . . ؟ ؟

« قلت : نعم . . .

« فأتيتهما بها ، فاعْتَقَلَها النبي ومسحَ الضَّرْع ودعا رَبَّه فحَفل الضرع . . . ثم أتاه أبو بكر بصخرة مُتَقَعِّرَة . فاحْتَلب فيها ، فشرب أبو بكر ، ثم شربْتُ . . . ثم قال للضَّرْع : اقْلِصْ ، فقلَص . . .

« فأتيت النبي بعد ذلك ، فقلت : عَلِّمني من هذا القوْل.

فقال : إنك غُلامٌ مُعَلَّم] . . .

* * *

لقد انبهر عبد الله بن مسعود حين رأى عبد الله الصالح ورسوله الأمين يدعو ربه . ويمسح ضرعًا لا عهد له باللبن بعدُ . فإذا هو يُعْطي من خير الله وَرِزْقِه لَبنًا خالصًا سائغًا للشاربين . . ! !

وما كان يدري يومها . أنه إنما يشهد أهون المعجزات وأقلها شأنًا . وأنه عما قريب سيشهد من هذا الرسُول الكريم معجزات تهز الدنيا . وتملؤها هدى ونورًا . . .

بل ما كان يدري يومها . أنه وهو ذلك الغلام الفقير الضعيف الأجير الذي يرعى غنم عُقبة بن أبي مُعَيْط . سيكون إحدى هذه المعجزات . يوم يخلق الإسلام منه مُؤْمِنًا يهزم بإيمانه كبرياء قريش . ويقهر جبروت سادتها . . .

فيذهب . وهو الذي لم يكن يجرؤ أن يمر بمجلس فيه أحد أشراف مكة إلا مطرق الرأس حثيث الخطى . . . نقول : يذهب بعد إسلامه إلى مَجْمع الأشراف عند الكعبة . وكل سَادات قريش وزعمائها هنالك جالسون فيقف على رؤوسهم . ويرفع صوته الحلو المثير بقرآن الله :

[بسم الله الرحمن الرحيم

الرَّحْمٰن . . عَلَّمَ القرآن . . خلق الإنسان . . عَلَّمهُ البَيَان .

الشمسُ والقمرُ بحُسْبَان . . والنجمُ والشجَرُ يَسْجُدان] .

ثم يُوَاصل قراءته . وزعماء قريش مشدوهون . لا يصدقون أعينهم التي ترى . . . ولا آذانهم التي تسمع . . . ولا يتصوَّرون أن هذا الذي يتحدى

بأسهم وكبرياءهم . . . إنما هو أجيرُ واحد منهم ، وراعي غنم لشريف من شرفائهم . . عبد الله بن مسعود الفقير المغمور . . ! !

ولْنَدَع شاهد عيان يصف لنا ذلك المشهد المثير . .

إنه « الزُّبير » رضي الله عنه يقول :

[كان أول من جهرَ بالقرآن بعد رسُول اللهِ صلى الله عليه وسلم بمكة . « عبد الله بن مسعود » رضي الله عنه . إذ اجتمع يومًا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا :

والله ما سمعتْ قريش هذا القرآن يُجْهَرُ لها به قط ، فمَنْ رَجُلٌ يُسْمِعُهُموه . . . ؟؟

فقال عبد الله بن مسعود : أنا . .

قالوا : إنا نخْشَاهم عليك ، إنما نريد رجلاً له عَشِيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه . . .

قال : دعوني ، فإن الله سَيَمْنَعُني . .

« فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضُّحَى ، وقريش في أنديتها ، فقام عند المقام ثم قرأ : بسم الله الرحمن الرحيم – رافعًا بها صوته – الرحمن . . علّم القرآن ، ثم استقبلَهم يقرؤها . .

فتأمَّلوه قائلين : ماذا يقولِ ابنُ أُمِّ عَبْد . . ؟؟ إنه لَيتلُو بعض ما جاء به محمد . . .

فقاموا إليه وجعلوا يضربون وجهه ، وهو ماض في قراءته حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلُغ . . .

ثم عاد إلى أصحابه مُصابا في وجهه وجسده ، فقالوا له : هذا الذي خشيناهُ عليك . . .

فقال : ما كان أعداءُ الله أهونَ عَلَيَّ منهم الآن ، ولئن شِئْتم لَأُغَادِيَنَّهُمْ بمثلها غدًا . . .

قالوا له : حَسْبُك ، فقد أسْمَعْتَهُمْ ما يكرهون] . . ! !

أجلْ . . . ما كان « ابن مسعود » يوم بَهرَه الضَّرْع الذي حَفَل باللبن فجأة وقبل أوانِهِ . . ما كان يومَها يعلم أنه هوونُظَراؤه من الفقراء والبُسَطَاء ، سيكونون إحدى معجزات الرسول الكبرى ، يومَ يحملون راية الله ، ويقهرون بها نور الشمس وضوء النهار . . ! !

ما كان يعلم أن ذلك اليوم قريب . . .

ولكن سرعان ما جاء اليوم ، ودقت الساعَة ، وصار الغلامُ الأجير الفقير ، الضائع . . مُعْجزةً من المعجزات . . ! !

* * *

لم تكن العين لِتَقَعَ عليه في زحام الحياة . . .

بل ولا بعيدًا عن الزحام . . . ! !

فلا مكان له بين الذين أُوتوا بَسْطةً في المال ، ولا بين الذين أُوتوا بَسْطَةً في الجسم ، ولا بين الذين أُوتوا حظًا من الجاه . . .

فهو من المال مُعدِم . . . وهو في الجسم ناحلٌ ، ضامر . . . وهو في الجاه مغمور . . .

ولكن الإسلام يمنحه مكان الفقر نصيبًا رابيًا وحظوظًا وافية من خَزائن

كسرى وكنوز قيصر.. !

ويمنحه مكان ضمور جسمه وضعف بنيانه، إرادة تقهر الجبّارين، وتُسهم في تغيير مصير التاريخ.. !

ويمنحه مكان انزوائه وضَياعِهِ، خُلودًا، وعلمًا. وشرفًا، تجعله في الصدارة بين أعلام التاريخ... !!

ولقد صَدَقَتْ فيه نُبوءة الرسول عليه الصلاة والسلام يوم قال له: « إنك غلامٌ مُعَلّم » فقد عَلّمه ربه. حتى صار فقيه الأمة. وعميد حَفَظة القرآن جميعًا...

يقول عن نفسه:

[أخذتُ من فَمِ رسول الله صلى الله عليه وسلم سَبْعين سُورة. لا يُنَازعني فيها أحد]..

ولكأنما أراد الله مَثُوبَتَهُ حين خاطر بحياته في سبيل أن يجهر بالقرآن ويُذيعه في كل مكان بمكة أثناء سنوات الاضطهاد والعذاب فأعطاه سبحانه موهبة الأداء الرائع في تلاوته. والفهم السديد في إدراك معانيه...

ولقد كان الرسُول يوصي أصحابه أن يقتدوا بابن مسعود فيقول:

[تَمَسَّكُوا بعهد ابنِ أُمِّ عَبْد]...

ويوصيهم بأن يُحَاكُوا قراءته، ويتعلموا منه كيف يتلون القرآن.

يقول عليه السلام:

[من أحَبَّ أن يَسْمَعَ القرآن غضًا كما أُنزلَ فَلْيَسْمَعْهُ مِنْ ابن أمِّ عَبْد]...

[منْ أحَبَّ أن يقرأ القرآن غضًّا كما أُنزِل ، فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَة ابن أُمّ عَبْد] . . ! !

ولطالما كان يطيبُ للرسُول عليه السلام أن يستمع للقرآن من فم ابن مسعود . . .

دعاه الرسول يوما ، وقال له :

[اقرأ عَلَيَّ يا عَبْد الله] . . .

قال عبد الله :

[أقرأ عليك . وعليك أُنزل يا رسْول الله]؟ !

فقال له الرسول :

[إني أُحِبُّ أن أسمعه من غيري] . . .

فأخذ ابن مسعود يقرأ من سُورة النساءِ حتى وصل قوله تعالى :

[فَكَيْفَ إذا جِئْنَا مِنْ كلِّ أُمَّةٍ بشهيدٍ وَجِئنَا بكَ عَلَى هؤلاءِ شهيدًا . . .

« يومئذٍ يَوَدُّ الذين كفروا وَعَصَوُا الرسُولَ لوْ تُسَوَّى بهم الأرضُ . . . ولا يَكْتُمُون اللهَ حديثًا] . . .

فغلب البكاءُ رسُول الله ، وفاضت بالدموع عَيْناه . وأشار بيده إلى ابن مسعود : أن . . [حَسْبُكَ . . حَسْبُكَ يا ابن مسعود] . . .

وتحدَّث هو بنعمة الله فقال :

[والله ، ما نزل من القرآن شيءٌ إلا وأنا أعلم في أيِّ شيءٍ نزلَ ، وما أحدٌ أعْلم بكتاب الله مني ، ولو أعلم أحدًا تُمْتَطَى إليه

الإبل أعلم مني بكتاب الله لأتيتُه وما أنا بخيركم] ! !

ولقد شهد لهُ بهذا السَّبْق أصحاب رسُول الله صلى الله عليه وسلم.

قال عنه أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه :

[لقد مُلِئَ فِقهًا] . .

وقال أبو موسى الأشعري :

[لا تسألونا عن شيءٍ ما دام هذا الْحَبْرُ فيكم] .

ولم يكن سبقه في القرآن والفقه موضعَ الثناء فحسب . . . بل كان كذلك أيضًا سبقه في الورع والتُّقى .

يقولُ عنه حُذَيفة :

[ما رأيتُ أحدًا أشبه برسُولِ الله في هَدْيِه ، وَدَلِّه ، وَسَمْتِه من ابن مسعود . . .

« ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن ابن أُمِّ عَبْد أقربهم إلى الله زلْفَى] . . . ! !

واجتمع نفر من الصحابة يومًا عند علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه فقالوا له :

[يا أمير المؤمنين ، ما رأينا رَجُلا كان أحسن خُلُقًا ولا أَرْفَقَ تعليما ، ولا أحسَنَ مُجَالسةً ، ولا أشدَّ وَرَعًا من عبد الله ابن مسعود . . .

قال علي :

نَشَدْتُكُم الله ، أهوَ صِدْقٌ مِنْ قلوبكم . . . ؟ ؟

قالوا :

نعم . . .

قال :

[اللهم إني أُشْهِدُكَ . . . اللهمَّ إني أقول فيه مثلَ ما قالوا ، أو أفضل . . .

« لقد قرأ القرآن فأحَلّ حَلاَله ، وحَرَّم حَرَامَه . . .فقيهٌ في الدين ، عالِمٌ بالسُّنَّة] . . . ! !

* * *

وكان أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام يتحدثون عن « عبد الله ابن مسعود » فيقولون :

[إنْ كان لَيُؤْذَنُ له إذا حُجِبْنَا ، وَيَشْهَدُ إذا غِبْنَا] . . .

وهم يريدون بهذا ، أن عبد الله رضي الله عنه كان يظفر من الرسول صلى الله عليه وسلم بفُرص لم يظفر بها سواه ، فيدخل عليه بيته أكثر مما يدخل غيره ، ويُجَالسه أكثر مما يُجَالسه سواه . . وكان دون غيره من الصَّحْب موضِع سِرِّه ونجواه ، حتى كان يُلَقَّبُ بـ« صاحب السَّواد » أي صاحب السِّر . . .

يقول أبو موسى الأشعري رضي الله عنه :

[لقد رأيتُ النبي صلى الله عليه وسلم ، وما أرى إلا ابن مسعود من أَهْله] . . .

ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يُحبُّه حبًّا عظيما ، وكان

يُحِب فيه وَرَعَه وفِطْنته . وعظمةَ نفسه .. حتى قال الرسول صلى الله عليه وسلم فيه :

[لو كُنتُ مُؤَمِّرًا أحدًا دُونَ شُورَى المسلمين . لَأمَّرْتُ ابن أُمِّ عَبْد] ...

وقد مرت بنا من قبل ، وصية الرسول لأصحابه :

[تَمسكُوا بِعَهدِ ابن أُمِّ عَبْد] ...

وهذا الحب . وهذه الثقة أهَّلَاه لأن يكون شديد القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وَأُعْطِيَ ما لم يُعْطَ أحدٌ غيره حين قال له الرسول عليه السلام : « إذْنُكَ عَلَيَّ أن ترفَع الحجاب » ..

فكان هذا إيذانًا بحقه في أن يطرق باب الرسول عليه أفضل السلام في أي وقت يشاء من ليل أو نهار ..

وهكذا قال عنه أصحابه :

[كانَ يُؤْذَنُ لهُ إذا حُجِبْنَا ، وَيَشْهَدُ إذا غِبْنَا] ...

ولقد كان ابن مسعود أهْلاً لهذه المزيَّة .. فعلى الرغم من أن الخُلْطَة الدانية على هذا النحو ، من شأنها أن ترفع الكُلْفَة . فإن ابن مسعود لم يَزْدَدْ بها إلا خشوعًا ، وإجلالاً . وأدبًا ...

ولعلَّ خير ما يُصَوِّر هذا الخلق عنده . مظهره حين كان يُحَدِّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاته ...

فعلى الرغم من نُدرة تحدُّثه عن الرسول عليه السلام ، نجده إذا حرَّك شفتيه ليقول : سمعتُ رسول الله يحدث ويقول ... تأخذه الرِّعدة

الشديدة ويبدو عليه الاضطراب والقلَق ، خَشْية أن يَنْسَى فيضع حَرْفًا مكان حَرْف . . ! !

وَلْنَسْتمع لإخوانه يصفون هذه الظاهرة . .

يقول عمرو بن ميمون :

[اختلفتُ إلى عبد الله بن مسعود سَنةً . ما سمعتهُ يُحَدّث فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . إلا أنه حدَّث ذات يوم بحديث فجرَى على لسانه : قال رسول الله ، فعلاهُ الكَرْبُ حتى رأيتُ العَرَق يتحدَّر عن جبهته ، ثم قـــال - مُسْتَدْرِكا - قريبًا من هذا قال الرسول] . . ! !

ويقول عَلْقَمَةُ بن قيس :

[كان عبد الله بن مسعود يقوم عَشِيَّةَ كل خميس مُتحدِّثًا . فما سمعتهُ في عَشِيَّةٍ منها يقول : قال رسول الله غيرَ مرة واحدة . . فنظرتُ إليه وهو مُعتمدٌ عَلَى عَصَا ، فإذا عصاهُ ترتَجف ، وتتزَعْزَع] . . ! !

ويحدثنا مسروق عن عبد الله :

[حدَّث ابن مسعود يومًا حديثًا فقال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . ثم أُرْعِدَ وَأُرْعِدَت ثيابه . . . ثم قال : أوْ نَحْوَ ذا . . . أو شِبْهَ ذا] . . ! !

إلى هذا المدى العظيم بَلَغ إجلالُه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، وبلَغ توقيرُه إيَّاه ، وهذه أمارَةُ فطنته قبل أن تكون أمارةَ تُقَاه . . . ! !

فالرجل الذي عاصَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من غيره ، كانَ إدراكُه لجلال هذا الرسول العظيم إدراكًا سديدًا .. ومن ثَمَّ كان أَدَبُه مع الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته ، ومع ذِكْرَاه في مماته ، أدبًا فريدًا .. ! !

* * *

لم يكن يفارق رسُول الله صلى الله عليه وسَلم في سفر ، ولا في حَضَر . .

ولقد شهد المشاهد كلها ، والغزوات جميعها . . وكان له يوم بدر شأن مذكور مع أبي جهل الذي حصدته سيوف المسلمين في ذلك اليوم الجليل...

وعرف خلفاء الرسُول وأصحابه له قدره . . فَوَلاَّهُ أمير المؤمنين عمر على بيت مال الكوفة . وقال لأهلها حين أرْسَلَهُ إليهم :

[إني واللهِ الذي لا إله إلا هو ، قد آثرتُكُمْ به على نفسي ، فخذوا منه وتعلّموا] . .

ولقد أحبَّهُ أهل الكُوفة حُبًّا لم يظفر بمثله أحدٌ قبله ، ولا أحدٌ مثله . . .

وإجماع أهل الكُوفة على حُب إنسان ، أمر يشبه المعجزات . .

ذلك أنهم تمرُّد وثورة ، لا يَصْبرون على طعام واحد . . ! ! ولا يطيقون الهدوء والسَّلام . .

ولقد بلَغ من حبهم إياه أن أحاطوا به حين أراد الخليفة عثمان رضي الله عنه عزلَه عن الكُوفة وقالوا له : « أَقِمْ معنا ولا تخرج ، ونحن نمنعك أن يصل إليك شيء تكرهه منه » . .

ولكن ابن مسعود أجابهم بكلمات تُصوِّر عظمة نفسه وَتُقَاهَا ، إذ

قال لهم :

[إن له عَلَيَّ الطاعة . وإنها ستكون أمور وفتن ، ولا أُحب أن أكون أَوَّلَ من يفتح أبوابها] . . ! !

إن هذا الموقف الجليل الورع يَصِلُنا بموقف ابن مسعود من الخليفة عثمان . . . فلقد حدث بينهما حِوار وخلاف تفاقَما حتى حُجِبَ عن عبد الله راتبه ومعاشُه من بيت المال . . . ومع ذلك لم يقل في عثمان كلمة سُوءٍ واحدة . . .

بل وقف موقف المُدَافع والمُحَذِّر حين رأى التذمُّر في عهد عثمان يَتحَوَّل إلى ثورة . .

وحين ترامى إلى سمعه مُحاولات اغتيال الخليفة عثمان ، قال كلمته المأثورة :

[لَئن قَتَلُوه ، لا يستخلفون بعده مِثلَه] . .

ويقول بعض أصحاب ابن مسعود :

[ما سمعتُ ابن مسعود يقول في عثمان سُبَّةً قطّ] . .

* * *

ولقد آتاه الله الحِكْمة مثلما أعطاه التقوى .

وكان يملك القدرة عَلَى رؤية الأعماق ، والتعبير عنها في أناقة وسَداد . .

لنستمع له مثلا وهو يُلَخص حياة عمر العظيمة في تركيز باهر فيقول :

[كان إسلامُه فتحًا . . . وكانت هِجرتُه نصرًا . . . وكانت إمارتهُ رحمة . . .]

ويتحدث عما نسميه اليوم نِسْبِيَّة الزمان فيقول :

[إن رَبَّكُمْ ليس عِنْدَهُ ليلٌ ولا نهار.. نورُ السماوات والأرض مِنْ نور وجهه].. ! !

ويتحدث عن العمل وأهميته في رفع المستوى الأدبي لصاحبه ، فيقول :

[إني لأَمْقُتُ الرجل ، إذْ أراه فارغًا... ليس في شيءٌ من عَمل الدنيا ، ولا عَمَلِ الآخرة]...

ومن كلماته الجامعة :

[خيرُ الغِنَى غِنَى النفس ، وخيرُ الزاد التقوى ، وشرُّ العَمَى عَمَى القلب ، وأعظم الخطايا الكذب ، وشرُّ المكاسِب الرِّبا ، وشرُّ المأْكَل مالُ اليتيم ومَنْ يعفُ ، يعْفُ الله عنه ، ومن يَغْفِرْ ، يَغْفِر الله له]...

* * *

هذا هو عبد الله بن مسعود صاحب رَسُول الله صلى الله عليه وسلم.

وهذه ومضة من حياةٍ عظيمة مستبسلة ، عاشها صاحبها في سبيل الله ، ورسُوله ، ودينه..

هذا هو الرجل الذي كان جسمه في حَجْم العصفور.. ! !

نحيف ، قصير ، يكاد الجالسُ يوازيه طولاً وهو قائم..

له ساقان ناحِلتان دقيقتان... صعَد بهما يومًا أَعْلى شجرة يَجْتَني منها أرَاكًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم.. فرأى أصحاب النبي دقتهما

فضحكوا ، فقال عليه الصلاة والسلام :

[تضحكون من سَاقَي ابنِ مسعود ، لَهُما أثْقَلُ في الميزان عند الله من جبل أُحُد] . . ! !

أجَلْ . . . هذا هو الفقير ، الأجير ، الناحِلُ الوَهْنان . . الذي جعل منه إيمانه ويقينهُ إمامًا من أئمة الخير والهُدى والنور . .

ولقد حَظِيَ من توفيق الله ومن نعمته بما جعله أحد العشرة الأوائل بين أصحاب الرسُول صلى الله عليه وسلم . . أولئك الذين بُشِّرُوا وهم على ظهر الأرض برضوان الله وَجَنَّته . . .

وخاض المعارك الظافرة مع الرسُول عليه السلام ، ومع خلفـــائه من بعده . .

وشهد أعظم امبراطوريتين في عالَمِ وعصره تفتحان أبوابهما طائعة خاشعة لرايات الإسلام ومشيئته . . .

ورأى المناصب تبحث عن شاغليها من المسلمين ، والأموال الوفيرة تَتَدَحْرَجُ بين أيديهم ، فما شَغَلَه من ذلك شيءُ عن العهد الذي عاهد عليه الله ورسوله . . . ولا صرفَه صارفٌ عن إخْبَاتِه وتواضُعهِ ومَنهج حياته . . .

ولم تكن له من أمانِيِّ الحياة سِوَى أُمْنِيَّة واحدة كان يأخذه الحنين إليها دَوْمًا فيُرَدِّدها ، ويتغنى بها ، ويتمنى لو أنه أدركَها . .

وَلْنُصْغِ إليه يحدِّثنا بكلماته عنها :

[قمتُ من جَوْف الليل وأنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

في غزوة تبوك . . فرأيت شُعلةً من نار في ناحية العسكر فاتَّبَعتها أنظر إليها ، فإذا رسول الله ، وأبو بكر وعمر ، وإذا « عبدُ الله ذو البِجَادَيْنِ المُزَنيُّ » قد مات وإذا هم قد حَفَروا له ، ورسُول الله صلى الله عليه وسلم في حُفرته . وأبو بكر وعمر يُدَلِّيَانِهِ إليه ، والرسول يقول : أَدْنِيَا إليَّ أخا كما . . . فدلّيَاهُ إليه . فلما هَيَّأَه لِلَحْده قال : اللهم إني أَمْسَيْتُ عنه راضيًا فارض عنه . . . فيا لَيْتني كنتُ صاحبَ هذه الحفرة] . . ! !

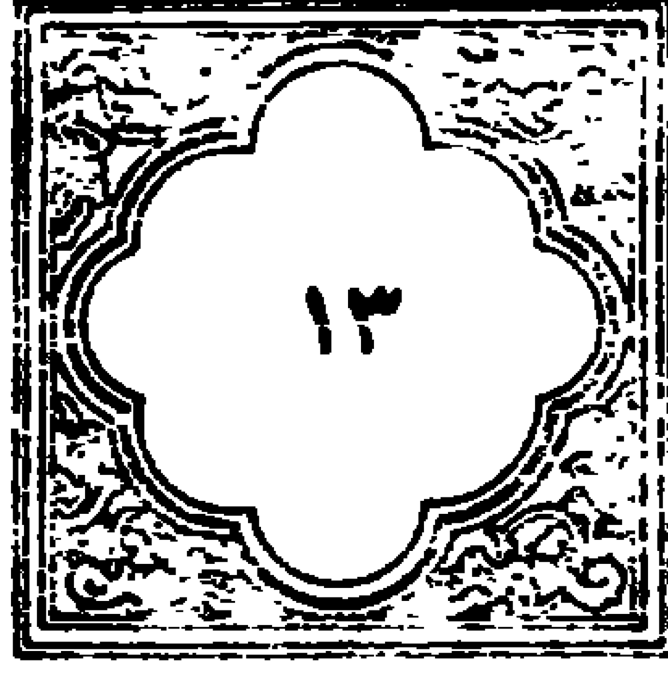
* * *

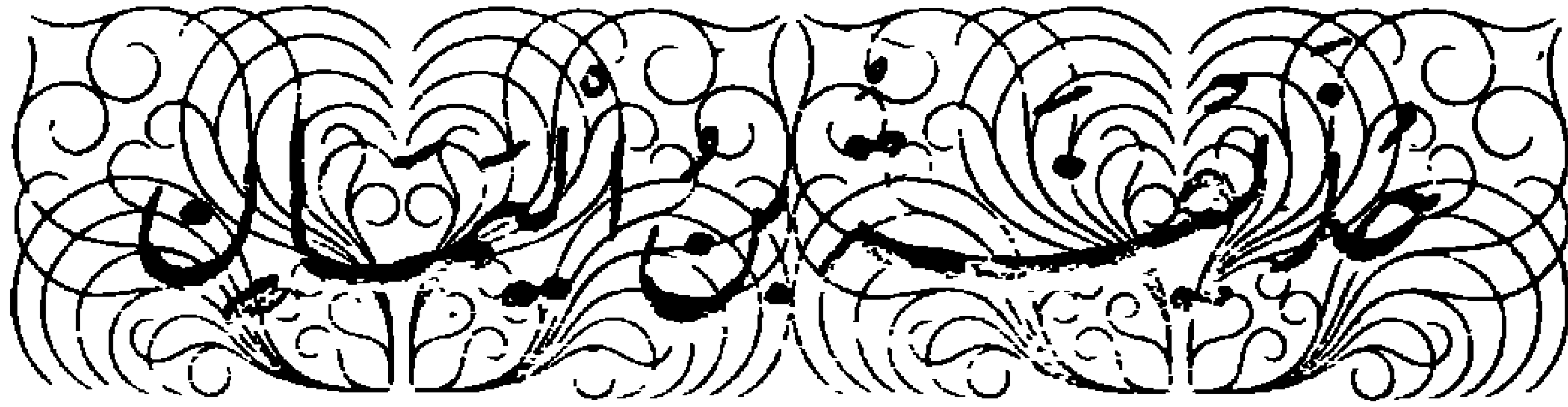
تلك أُمنيته الوحيدة التي كان يرجوها في دنياه . . .

وهي –كما ترون– لا تمتُّ بسبب إلى ما يتهافَتُ الناس عليه من مجد . وثراء . ومنصب ، وجاه . . .

ذلك أنها أُمنيَّة رجل كبير القلب . عظيم النفس ، وثيق اليقين . . . رجل هداهُ الله . وربَّاه الرسول ، وقاده القرآن . . . ! !







عَدُوّ النِّفاق، صَدِيقُ الوُضُوح



خرج أهل المدائن أفواجًا يستقبلون واليهُم الجديد الذي اختاره لهم أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه...

خرجوا ، تسبقهم أشواقهم إلى هذا الصحابيِّ الجليل الذي سمعوا الكثير عن ورعه وتُقَاهُ... وسمعوا أكثر عن بلائه العظيم في فتوحات العراق...

وإذ هم ينتظرون الموكب الوافِدَ ، أبصروا أمامهم رجلاً مُضيئًا ، يركب حمارًا عَلَى ظهره إكافٌ قديمٌ ، وقد أَسْدَل الرجل سَاقيه ، وأمسك بكلتا يديه رغيفًا ومِلحًا ، وهو يأكل ويمضغ طعامه..!!

وحين توسَّط جمعهم ، وعرفوا أنه «حذيفة بن اليمان» الوَالي الذي ينتظَرون . كاد صوابهم يطير..!!

ولكن . فيمَ العجب..!!

وماذا كانوا يتوقعون أن يجيءَ اختيار عمر...؟!

الحق أنهم معذورون ، فما عَهِدَت بلادهم أيامَ فارس . ولا قبلَ فارس وُلَاةً من هذا الطراز الجليل..!!

* * *

وسار حُذيفة . والناس محتشدون حوله . وحافُّون به...

وحين رآهم يُحَدِّقُون فيه كأنهم ينتظرون منه حديثًا ، ألْقى على وجوههم نظرة فاحصة . ثم قال :

[إيَّاكم ومَوَاقفَ الفِتَن] . . ! !

قالوا :

وما مَوَاقفُ الفتن يا أبا عبد الله . . ؟

قال :

[أبواب الأمراء . .

يدخلُ أحَدُكُمْ على الأمير أو الوالي . فيصدِّقه بالكذب . ويمتدحه بما ليس فيه] . . ! !

وكان استهلالاً بارعا ، بقدر ما هو عجيب . . ! !

واستعاد الناس من فورهم ما سَمعوه عن واليهم الجديد ، من أنه لا يمقُتُ في الدنيا كلها ولا يحتقر من نقائصها شيئًا أكثر مما يمقتُ النفاق ويحتقره .

وكان هذا الاستهلال أصدق تعبير عن شخصية الحاكم الجديد . وعن منهجه في الحكم والولاية . . .

* * *

فـ« حذيفة بن اليمان » رجل جاء الحياة مُزَودًا بطبيعة فريدة تَتَّسم ببغض النفاق ، وبالقدرة الخارقة على رؤيته في مكامِنه البعيدة . . .

ومنذ جاء هو وأخوه صفوان في صحبة أبيهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتنق ثلاثتهم الإسلام ، والإسلام يزيد موهبته هذه مضاءً وصَقْلا . . . فلقد عانق « دينًا » قويًا ، نظيفًا ، شجاعًا ، قويمًا . . . يحتقر الجبن ، والنفاق ، والكذب . . .

وتأدَّب على يدي « رسول » واضح كفَلَق الصبح ، لا تخفى عليهم من حياته ، ولا من أعماق نفسه خافية . . صادق وأمين . . يحب الأقوياء في الحق ، ويمقت الملتوين ، والمرائين ، والمخادعين . . . ! !

فلم يكن ثَمَّتَ مجال تترعرعُ فيه مَوْهبة « حذيفة » وتزدهر ، مثل هذا المجال ، في رحاب هذا الدين ، وبين يدي هذا الرسول ، ووسْط هذا الرَّعيل العظيم من الأصحاب . . . ! !

ولقد نَمَتْ موهبته فعلا أعظمَ نماء . . . وتخصص في قراءة الوجوه والسرائر . . . يقرأ الوجوه في نظرة ، وَيَبْلو كُنْهَ الأعماق المُسْتَسِرَّة ، والدخائل المخبوءة في غير عناء . . . ! !

ولقد بلغ من ذلك ما يريد ، حتى كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، وهو الملهمُ الفَطِنُ الأريب ، يستدلُّ برأي حذيفة ، وببصيرته في اختيار الرجال ومعرفتهم .

ولقد أُوتي « حذيفة » من الحصافة ما جعله يُدْرِك أن الخير في هذه الحياة واضح لمن يريده . . وإنما الشر هو الذي يتنكَّر ويتخفى ، ومن ثَمَّ يجب على الأريب أن يُعْنَى بدراسة الشرِّ في مآتيه ، ومظانِّه . . .

وهكذا عكَف « حذيفة » رضي الله عنه على دراسة الشرِّ والأشرار ، والنفاق والمنافقين . . .

يقول :

[كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني . .

« قلت : يا رسول الله ، إنا كنا في جاهلية وشر ، فجاءنا الله

بهذا الخير . . فهل بعد هذا الخير من شر . . ؟

« قال : نعم . . .

« قلت : فهل بعد هذا الشر من خير . . ؟

« قال : نعم ، وفيه دَخَن . . .

« قلت : وما دَخَنُه . . ؟ ؟

« قال : قوم يستنون بغير سنتي . . ويهتدون بغير هَدْيِي ، تعرف منهم وتنكر . . .

« قلت : وهل بعد ذلك الخير من شر . . ؟ ؟

« قال : نعم ! دعاة على أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها . . .

« قلت : يا رسول الله ، فما تأمرني إن أدركني ذلك . . ؟

« قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم . . .

« قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام . . ؟ ؟

« قال تعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك] . . ! !

أرأيتم قوله : « كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني » . . ؟ ؟

لقد عاش « حذيفة بن اليمان » مفتوح البصر والبصيرة على مآتي الفتن . ومسالك الشرور ليتقيها ، وليحذر الناس منها. ولقد أفاء عليه هذا بصرًا بالدنيا ، وخبرة بالناس ، ومعرفة بالزمن . . وكان يدير المسائل في فكره

وعقله بأسلوب فيلسوف ، وحصافة حكيم...

يقول رضي الله عنه :

[إن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم ، فدعا الناس من الضلالة إلى الهدى ، ومن الكفر إلى الإيمان ، فاستجاب له من استجاب ؛ فحيا بالحق من كان ميتاً...

« ومات بالباطل من كان حيا..

« ثم ذهبت النبوة . وجاءت الخلافة على منهاجها...

« ثم يكون ملكا عضوضاً... ! !

« فمن الناس من ينكر بقلبه ويده . ولسانه... أولئك استجابوا للحق...

« ومنهم من ينكر بقلبه ولسانه ، كافًّا يده . فهذا ترك شعبة من الحق...

« ومنهم من ينكر بقلبه ، كافا يده ولسانه . فهذا ترك شعبتين من الحق...

« ومنهم من لا ينكر بقلبه . ولا بيده . ولا بلسانه . فذلك ميت الأحياء].. ! ! !

ويتحدث عن القلوب وعن حياة الهدى والضلال فيها فيقول :

[القلوب أربعة :

* قلبٌ أَغْلَفُ ، فذلك قلب الكافر...

* وقلبٌ مصفح . فذلك قلبُ المنافق...

* وقلبٌ أَجرد ، فيه سِرَاج يُزْهِر ، فذلك قلبُ المؤمن . . .
* وقلبٌ فيه نفاق وإيمان ، فمثلُ الإيمان كمَثَل شجرة يُمِدُّها ماءٌ طيب . . وَمَثَلُ النفاق كمثل القُرْحة يُمِدُّها قَيْح ودم : فأيهما غلَبَ ، غَلَبَ] . . ! !

وخبرة حُذيفة بالشر ، وإصراره على مقاومته وتحدِّيه ، أكْسبا لِسَانه وكلماته شيئًا من الحِدَّة ، ويُنبئنا هو بهذا في شجاعة نبيلة :

فيقول :

[جئتُ النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، إن لي لسانًا ذَرِبًا على أهلي ، وأخشى أن يُدْخِلني النار . . .
« فقال لي النبي عليه الصلاة والسلام : فأين أنت من الاستغفار . . ؟؟ إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرَّة] . . .

* * *

هذا هو حُذيفة عدوُّ النفاق ، صديقُ الوُضوح . .

ورجل من هذا الطراز ، لا يكون إيمانه إلا وثيقًا . . ولا يكون ولاؤه إلا عميقًا . . وكذلكم كان حُذيفة في إيمانه وولائه . .

لقد رأى أباه المسلم يُصْرَع يوم أُحُد . . وبأيْدٍ مسلمة . قتلتهُ خطأ وهي تحسَبُهُ واحدًا من المشركين . . . ! !

وكان حذيفة يتلفَّت صُدْفة ، فرأى السيوف تَنوشهُ ، فصاح في ضاربيه : أبي . . . أبي . . . إنه أبي . . . ! !

لكن القضاء كان قد حُمَّ . . .

وحين عرف المسلمون . تولاهم الحزن والوُجوم.. لكنه نظر إليهم في إشفاقٍ ومغفرة ، وقال :

[يَغْفِرُ الله لكم ، وهو أرحَمُ الراحمين] . . .

ثم انطلق بسيفه صَوْبَ المعركة المشبوبة يُبلي فيها بلاءه ، ويُؤَدِّي واجبه . . .

وتنتهي المعركة ، ويبلغ الخبر رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلّم فيأمر بالدِّيَةِ عن والد حذيفة « حُسيْل بن جابر» رضي الله عنه ، فيعتذر ابنه حُذيفة عنها ، ويتصدَّق بها على المسلمين ، فيزداد الرســـول له حُبا وتقديرًا . . ! !

* * *

وإيمان حذيفة وولاؤه ، لا يعترفان بالعجز ، ولا بالضعف . . . بل ، ولا بالمستحيل . . .

في غزوة الخندق . . وبعد أن دبَّ الفشل في صفوف كفار قريش وحلفائهم من اليهود ، أراد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقف على آخر تطورات الموقف هناك في معسكر أعدائه . .

كان الليل مظلمًا ورهيبًا . . . وكانت العواصف تزأر وتصطَخِب ، كأنما تريد أن تقتلع جبال الصحراء الراسيات من مكانها . . . وكان الموقف كله بما فيه من حصار وعناد وإصرار يبعث على الخوف والجزع ، وكان الجوع المضني قد بلغ مبلغًا وَعْرًا بين أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم . . .

فمن يملك آنئذ القوة ، أيَّ قوة ، ليذهب وسط مخاطِرَ حالكة إلى معسكر الأعداء ويقتحمه ، أو يتسلل داخله ، ثم يبلو أمرهم ويعرف

أخبارَهم . . . ؟؟

إن الرسول هو الذي سيَختار من أصحابه من يقوم بهذه المهمة البالغة العُسْر . . .

تُرَى من يكُونُ البطَل . . ؟؟

إنه هو . . حُذَيْفَة بن اليمان . . !

دعاه رَسُول الله صَلى اللهُ عليه وسلم فلَبَّى ، ومن صِدْقِهِ العظيم يخبرنا وهو يروي النبأ ، أنه لم يكن يملك إلا أن يُلَبي . . مُشيرًا بهذا إلى أنه كان يرهب المهمة الموكولة إليه ، ويخشى عواقبها ، والقيام بها تحت وطأة الجوع ، والصقيع ، والإعياء الشديد الذي خلفهم فيه حصار المشركين شهرًا أو يزيد . . !

وكان أمرُ حذيفة تلك الليلة عجبًا . . .

فلقد قطع المسافة بين المعسكرين ، واخترق الحصار . . . وتسلَّلَ إلى معسكر قريش ، وكانت الريح العاتية قد أطفأت نيران المعسكر ، فخيم عليه الظلام ، واتخذ حذيفة رضي الله عنه مكانه وسط صفوف المحاربين . .

وخشي أبو سفيان قائد قريش ، أن يَفْجأهم الظلام بمتسللين من المسلمين ، فقام يحذر جيشه . . . وسمعه حذيفة يقول بصوته المرتفع :

« يا معشَرَ قريش ، لينظر كل منكم جليسه ، وليأخذ بيده ، وليعرف اسمه » . . .

يقول حذيفة :

[فسارَعْتُ إلى يد الرجل الذي بجواري ، وقلت له : من

أنت...؟؟ فقال : فلان بن فلان]..!!

وهكذا أَمَّن وجوده بين الجيش في سلام..!

واستأنف أبو سفيان نداءه إلى الجيش قائلا : « يا معشَرَ قريش... إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقام.. لقد هلكت الكُراع – أي الخيل – – والخُفّ – أي الإبل.. وأخْلَفَتْنا بنو قُرَيْظَة ، وبَلغنا عنهم الذي نكْرَه ، ولَقِينا من شِدَّة الريح ما تَرون.. ما تَطْمَئِنُّ لنا قِدْر.. ولا تقومُ لنا نار.. ولا يَسْتَمْسِكُ لنا بناء.. فارتحلوا ؛ فإني مُرْتَحِل »..

ثم نهض فوق جمله ، وبدأ المسير ، فتبعه المحاربون..

يقول حذيفة :

[لولا عَهْدُ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم إليَّ ألّا تُحدِثَ شيئًا حتى تأتيني ، لقتلته بِسَهْم]..

وعاد حذيفة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فأخبره الخبر ، وزفَّ إليه البُشرى..

* * *

إن الذي يرى « حُذيفة » ، ويتأمل تفكيره ، وفلسفته ، وعُكُوفَه على المعرفة ، لا يكاد يتوقع منه أيَّةَ بُطولَة في ميادين الحرب والقِتال..

ومع هذا ، فإن حُذيفة يُخلِف في هذا المجال كل الظُّنون..

ورَجلُ « الصَّوْمَعَةِ » العابد ، المتأمِّل ، لا يكاد يحمل سيفَه ويُقابل جيوش الوثنية والضلال حتى يكشف عن عبقرية تبهر الأبصار...

وحسبنا أن نعلم ، أنه كان ثالثَ ثلاثة ، أو خامس خمسة ، كانوا

أصحاب السبْق العظيم في فتوح العراق جميعها.. !

وفي همدان ، والريّ ، والدّيْنَور ، تَمَّ الفتح على يديه..

وفي معركة « نهاوند » العظمى ، حيث احتشد الفُرس في مائة ألف مقاتل وخمسين ألفا... اختار أمير المؤمنين عمر لقيادة الجيوش المسلمة « النعمان بن مُقرّن » ثم كتب إلى « حُذيفة » أن يسير إليه على رأس جيش من الكُوفة..

وأرسل عمر إلى المقاتلين كتابه يقول :

[إذا اجتمع المسلمون ، فليكُن كُلُّ أمير على جيشه..

ولْيكُن أمير الجيوش جميعًا النُّعْمان بن مقرن..

فإذا استُشهِد النعمان ، فليأخذ الرايةَ حُذيفة.. فإذا استُشهِد ،

فجرير بن عبد الله]..

وهكذا ، مضى أمير المؤمنين يختار قواد المعركة حتى سَمَّى منهم سبعة..

والتقى الجيشان..

الفرس في مائة ألف وخمسين ألفًا...

والمسلمون في ثلاثين ألفًا ، لا غير..

ونشِب قتال يفوق كل نظير.. ودارت معركة من أشد معارك التاريخ فدائية وعُنْفًا..

وسقط قائد المسلمين شهيدًا.. سقط « النعمان بن مقرن ».. وقبل أن تهوي الراية المسلمة إلى الأرض ، كان القائد الجديد قد تسلّمها بيمينه ،

وساق بها رياح النصر في عُنفوانٍ لَجِبٍ واستبسال عظيم.. ولم يكن هذا القائد سوى « حُذيفة بن اليمان »...

حمل الراية من فَوره ، وأوْصى بألا يُذاع نبأ موت النعمان حتى تنجلي المعركة.. ودعا « نعيم بن مقرن » فجعله مكان أخيه « النعمان » تكريمًا له...

أنجزتْ ذلك كله في لحظات – والقتال يدور– بَديهتهُ المشرقة.. ثم انثَنَى كالإعصار المُدمْدم على صفوف الفُرس صائحًا :

[الله أكبر: صدَق وَعْدَه ! !

الله أكبر: نَصَرَ جُنْدَه ! !]

ثم لَوَى زمام فَرسه صَوْب المقاتلين في جيوشه ونادى : يا أتباع محمد.. ها هي ذي جنان الله تتهيَّأ لاستقبالكم ، فلا تُطيلوا عليها الانتظار..

هَيَّا ، يا رجال بَدْر..

تقدموا ، يا أبطال الخندق ، وأُحُد ، وتَبُوك..

لقد احتفظ « حُذيفة » بكل حماسة المعركة وأشواقها ، إن لم يكُن قد زاد منها وفيها..

وانتهى القتال بهزيمة ساحقة للفرس... هزيمة لا نكاد نجد لها نظيرًا.. ! !

* * *

هذا العبقري في حِكْمته ، حين تضمُّه صَوْمَعَتهُ..

والعبقري في فدائيته ، حين يقف فوق أرض قتال..

هوكذلك ، العبقري في كل مُهمَّة تُوكَل إليه ، ومَشُورةٍ تُطْلب منه . .

فحين انتقل « سعد بن أبي وقاص » والمسلمون معه من المدائن إلى الكُوفة ، واستوطنوها . .

وذلك بعد أن أنزل مُناخ المدائن بالعرب المسلمين أذًى بليغًا ، مما جعل عمر يكتب لسعد كي يغادرها فورًا بعد أن يبحث عن أكثر البقاع مُلاَءَمة ، فينتقل بالمسلمين إليها . . .

يومئذ ، مَنْ الذي وُكل إليه أمر اختيار البقعة والمكان . . ؟

إنه « حُذيفة بن اليمان » . . ذهب ومعه « سلمان بن زياد » ، يرتادان للمسلمين المكان الملائم . .

فلما بلغا أرض الكُوفة ، وكانت حصباءَ جرداءَ مُرْمِلَة ، شَمَّ حُذيفة عليها أنسام العافية ، فقال لصاحبه : هنا المنزل إن شاء الله . .

وهكذا خُطِّطت الكُوفة وأَحَالَتْهَا يَدُ التعمير إلى مدينة عامرة . .

وماكاد المسلمون ينتقلون إليها ، حتى شُفِي سَقِيمهم ، وقَوِي ضَعِيفُهم ، وَنَبَضَتْ بالعافية عُرُوقُهم . . . ! !

لقد كان « حُذيفة » واسع الذكاء ، متنوع الخبرة ، وكان يقول للمسلمين دائمًا :

[ليس خياركم الذين يتركون الدنيا للآخرة . . ولا الذين يتركون الآخرة للدنيا . . ولكن الذين يأخذون من هذه . . ومن هذه] .

* * *

وذات يوم من أيام العام الهجري السادس والثلاثين.. دُعيَ للقاء الله..

وإذْ هو يتهيَّأ للرحلة الأخيرة دخل عليه بعض أصحابه، فسألهم: أَجِئتُم معكُم بأكْفَان..؟؟

قالوا: نعم..

قال: أَرُونيها..

فلما رآها، وجَدها جديدة فَارِهَة..

فارتَسمت على شفتيه آخر بَسَمَاتِه السَّاخِرة، وقال لهم:

[ما هٰذَا لي بكَفَن... إنما يكفيني لُفافتان بيضاوان ليس معهما قميص..

فإني لن أترك في القبر إلا قليلا، حتى أُبَدَّل خيرًا منهما.. أو شَرًّا منهما]...!!

وتَمتَم بكلمات، ألْقَى الجالسون أسماعهم إليها فسمعوها..

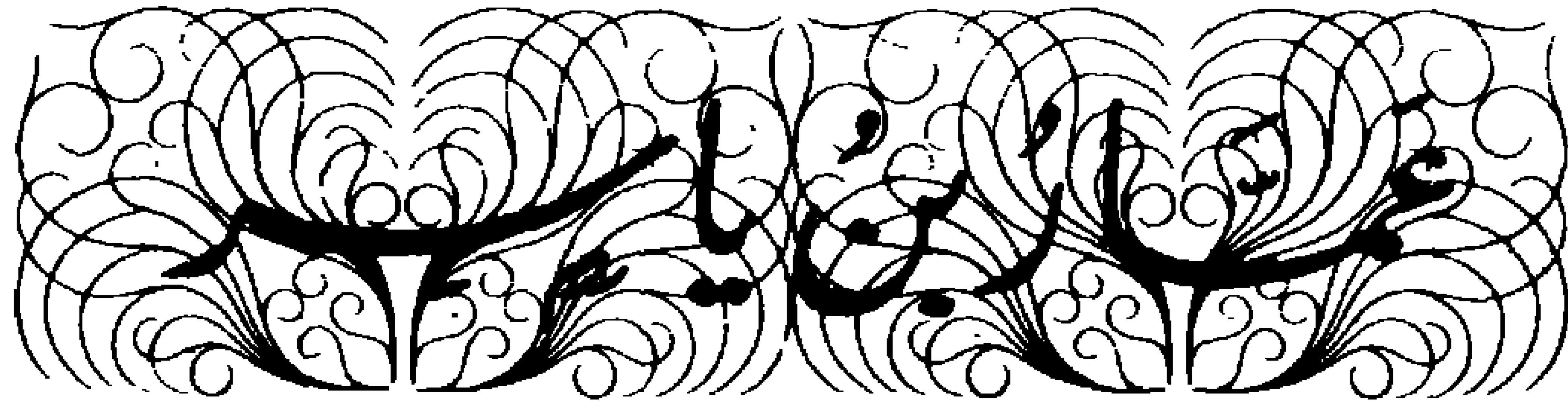
[مرحَبًا بالموت..

حبيبٌ جاء عَلَى شَوْق..

لا أفْلَحَ مَنْ نَدِمَ]...

وصَعدت إلى الله رُوحٌ من أعظم أرواح البَشر، ومِن أكثرها تُقًى، وتألقًا، وإخْباتًا..





رَجُلٌ مِنَ الْجَنَّةِ ..!!



لوكان هناك أناس يُولَدُون في الجنة ، ثم يَشِبّون في رحابها ويكبرون . . ثم يُجَاء بهم إلى الأرض ليكونوا زينةً لها ، ونورًا لكانَ « عَمَّار » ، وأُمُّه « سُمَيَّة » ، وأبوه « ياسر » من هؤلاء . . ! !

ولكن لماذا نقول : لَوْ . . ولماذا نفترض هذا الافتراض ، وقد كان آلُ ياسرٍ من أهل الجنة فعلاً . . ؟ ؟

وما كان الرسول عليه الصلاة والسلام مُوَاسيًا لهم فحسب حين قال :

[صَبْرًا آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة] . .

بل كان يُقرر حقيقة يعرفها ، ويُؤكِّد واقعًا يُبصره ويراه . .

* * *

خرج ياسر بن عامر ، والد « عمَّار » ، من بلده في اليمن يطلُب أخًا له ، ويبحث عنه . . .

وفي مكة طاب له المقام ، فاستوطنها محالفًا أبا حُذيفة بن المغيرة . .

وزوَّجه أبو حُذيفة إحدى إمائه « سُميَّة بنت خياط » . . .

ومن هذا الزواج المبارك رَزَق الله الأبوين « عَمَّارا » . . .

وكان إسلامهم مبكرًا . . . شأن الأبرار الذين هداهم الله . .

وشأن الأبرار المُبَكِّرين أيضًا ، أخذوا نصيبهم الأوْفَى من عذاب قريش وأهوالها . . ! !

ولقد كانت قريش تتربَّص بالمؤمنين الدوائر..

فإن كانوا ممن لهم في قومهم شَرَف ومَنَعة، تَوَلَّوْهم بالوعيد والتهديد، ويلقى أبو جهل المؤمن منهم فيقول له: «تركتَ دين آبائك وهم خير منك.. لنُسفِّهَنَّ حلمك.. وَلَنَضَعَنَّ شَرَفك.. ولَنُكَسِّدَنَّ تجارتك.. ولَنُهْلِكَنَّ مالَك».. ثم يشنون عليه حرب أعصاب حامية.

وإن كان المؤمنون من ضعفاء مكة وفقرائها، أو عبيدها، أصْلَتْهُم سعيرًا.

ولقد كان آل ياسر من هذا الفريق..

ووُكلَ أمر تعذيبهم إلى بني مخزوم، يخرجون بهم جميعًا.. ياسر، وسُمَيَّةَ، وعمّار، كل يوم إلى رمضاء مكة الملتهبة، ويَصُبُّون عِليهم من جحيم العذاب ألوانًا وفُنُونا!!

ولقد كان نصيب «سمية» من ذلك العذاب فادحًا ورهيبًا. ولن نفيض في الحديث عنها الآن.. فلنا إن شاء الله مع جلال تضحيتها، وعظمة ثباتها لقاءٌ نتحدث عنها وعن نظيراتها وأخواتها في تلك الأيام الخالدات..

ولْيَكُن حسْبُنا الآن أن نذكر في غير مبالغة أن «سُمَيَّة» الشهيدة وقفت يومذاك موقفًا يمنح البشرية كلها من أولها إلى آخرها شرفًا لا ينْفَد، وكرامةً لا يَنْصل بهاؤُها..!

موقفا، جعل منها «أُمًّا» عظيمة للمؤمنين في كل العصور.. وللشرفاء في كل الأزمان..!!.

* * *

كان الرسول عليه الصلاة والسلام يخرج إلى حيث عَلِم أن آل ياسر يُعذّبون..

ولم يكن أيامئذ يملك من أسباب المقاومة ودفع الأذى شيئًا..

وكانت تلك مشيئة الله..

فالدين الجديد – مِلّةُ إبراهيم حنيفا –.. الدين الذي يرفع « محمد » لواءه ، ليس حركة إصلاح عابرة وعارضة.. إنما هو نَهْجُ حياةٍ للبشرية المؤمنة.. ولا بد للبشرية المؤمنة هذه أن ترث مع الدين تاريخه بكل بطولاته ، وتضحياته ، ومُخاطراته..

إن هذه التضحيات النبيلة الهائلة ، هي « الخرَسَانة » التي تهَبُ الدين والعقيدة ثباتًا لا يزول ، وخلودًا لا يَبْلَى.. ! ! !

إنها « العَبير » يملأ أفئدة المؤمنين وَلاءً ، وغِبطة ، وحُبورًا.

وإنها « المَنَار» الذي يهدي الأجيال الوافدة إلى حقيقة الدين ، وصِدْقه وعَظمته..

وهكذا ، لم يكن هناك بُدٌّ من أن يكون للإسلام تضحياته وضحاياه ، ولقد أضاء القرآن الكريم هذا المعنى للمسلمين في أكثر من آية ..

فهو يقول :

[أَحَسِبَ الناسُ أن يُتْرَكُوا ، أَنْ يقولوا آمنّا ، وهُم لا يُفْتَنُون]؟ !

* * *

[أم حَسِبْتُم أن تدخلُوا الجنة ، ولَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الذين جاهدوا

منكم ، ويعلَمَ الصابرين]؟

* * *

[ولقد فَتنَّا الذين من قَبْلهم ، فليعلَمنَّ الله الذين صَدَقُوا ، وليَعلَمنَّ الكاذبين].

* * *

[أمْ حسبْتُم أن تُترَكُوا ، ولَمَّا يَعلَمِ اللهُ الذين جاهدوا مِنْكُم..]

* * *

[ما كان الله لِيَذَرَ المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يَمِيزَ الخبيثَ من الطيب]..

* * *

[وما أصابَكُم يوم التَقَى الجمعان ، فبِإذْن الله ، ولِيَعْلَم المؤمنين].

أجَل.. هكذا علَّم القرآن حَمَلته وأبناءه ، أن التضحية جوهر الإيمان ، وأن مقاومة التحدِّيات الغاشمة الظالمة بالثبات وبالصبر وبالإصرار... إنما تُشكِّل أبهى فضائل الإيمان وأروعها...

ومن ثَمَّ فإن دين الله هذا وهويضع قواعده . ويُرسِي دعائمه ، ويُعطي مُثُلَه ، لا بد له أن يَدْعَم وجوده بالتضحية ، ويُزكِّي نَفْسه بالفداء ، مختارًا لهذه المهمة الجليلة نفرًا من أبنائه وأوليائه وأبراره يكونون قُدوَةً سامقة ومثلا عاليًا للمؤمنين القادمين.

ولقد كانت « سُميَّة ».. وكان « ياسر ».. وكان « عمَّار » من هذه

الثلّة المباركة العظيمة التي اختارتها مَقادير الإسلام لتصوغ من تضحياتها وثباتها وإصرارها وثيقة عظمته وخلوده..

* * *

قلنا: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج كل يوم إلى أسرة ياسر، مُحَيِّيا صمودها وبطولتها.. وكان قلبه الكَبير يذوب رحمةً وحنانا لمشهدهم وهم يتلقَّوْن من العذَاب ما لا طاقة لهم به.

وذات يوم، وهو يعودُهم ناداه عمَّار:

[يا رسولَ الله.. لقد بلَغ منَّا العذابُ كُلَّ مَبْلَغ]..

فناداه الرسول:

[صَبرًا أبا الْيَقْظان..

صَبرًا آلَ ياسِر..

فإنَّ مَوْعِدَكم الجنة]...

ولقد وصفَ أصحابُ «عمار» العذاب الذي نزلَ به في أحاديث كثيرة.

فيقول عمرو بن الحكم:

[كان عمار يُعذَّب حتى لا يدري ما يقول].

ويقول عمرو بن ميمون:

[أَحْرقَ المشركون عمار بن ياسر بالنار، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر به، ويُمِرُّ يده على رأسه ويقول: يا نارُكوني بَرْدًا وسلاما على «عمار»، كما كُنتِ بردًا وسلاما

على إبراهيم] . .

على أن ذلك الهوْل كله لم يكن لِيفْدَح روح عمار . وإنْ فدَح ظهره ودغْدغَ قُواه . .

ولم يشعر عمار بالهلاكِ حقا ، إلا في ذلك اليوم الذي استنجد فيه جَلّادوه بكل عبقريتهم في الجريمة والبغي . . فمن الكَيِّ بالنار ، إلى صَلْبِهِ على الرمضاء المتسَعِّرة تحت الحجارة الملتهبة . . إلى غَطِّه في الماء حتى تختنق أنفاسُه ، وتتسلخ قُرُوحه وجروحُه .

في ذلك اليوم إذْ فقَدَ وعيه تحت وطأة هذا الهول فقالوا له : اذكر آلهتنا بخير ، وأخذوا يقولون له ، وهو يُرَدِّد وراءهم القول في غير شعور .

في ذلك اليوم ، وبعد أن أفاق قليلا من غيبوبة تعذيبه ، تذكَّر ما قال فطار صوابُهُ ، وتجسمت هذه الهفوة أمامَ نفسه حتى رآها خطيئة لا مغفرة لها ولا كفّارة . . . وفي لحظات معدودات ، أوْقعَ به الشعور بالإثم من العذاب ما أضْحى عذابُ المشركين تجاهه بَلسَمًا ونعيمًا . . . ! !

ولو تُرِك « عمار » لمشاعره تلك بضع ساعات لقَضَتْ عليه لا محالة . .

لقد كان يحتملُ الهول المُنْصَبَّ على جسده ، لأن روحه هناك شامخة . . أما الآن وهو يظن أن الهزيمة أدركت روحه فقد أشرفت به همومه وجزعه على الموت والهلاك . .

لكن الله العليّ الكبير أراد للمشهد المثير أن يبلُغَ جلالَ ختامه . . .

وبسط الوحيُ يمينه المباركة مصافحًا بها عمارًا ، وهاتفًا به : انهض أيها البطل . . . لا تثريب عليك ولا حَرَج . .

ولقي رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحبه فألفاه يبكي . فجعل

يمسح دموعه بيده ، ويقول له :

« أخذكَ الكُفار ، فغطوك في الماء ، فقلت : كذا ... وكذا ...؟؟ »

أجاب « عمار » وهو ينتحب : نعم يا رسول الله ...

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبتسم : « إن عادوا ، فقل لهم مثل قولك هذا » ... ! !

ثم تلا عليه الآية الكريمة :

[إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطمَئِنٌّ بالإيمان] ..

واستردَّ « عمار » سكينة نفسه ، ولم يَعُدْ يجد للعذاب المنقضِّ على جسده ألمًا ، ولم يَعُدْ يلْقي له بالا ..

لقد رَبح رُوحه ، وربح إيمانه ... ولقد ضمنَ القرآن له هذه الصفقة المباركة ، فليكُن بعدئذ ما يكون .. ! ! !

وصَمَدَ « عمار » حتى حَلَّ الإعياء بجلَّادِيه ، وارتَدُّوا أمام إصراره صاغرين ... ! !

* * *

استقرَّ المسلمون بالمدينة بعد هجرة رسولهم إليها ، وأخذ المجتمع الإسلامي هناك يتشكل سريعًا ، ويَسْتَكمل نفسه ..

ووسط هذه الجماعة المسلمة المؤمنة ، أخذ « عمارٌ » مكانًا عَلِيًّا ... ! !

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحبُّه حبًا عظيمًا ، ويباهي أصحابه بإيمانه وهديه ...

يقول عنه صلى الله عليه وسلم :

[إن عَمَّارًا مُلِئَ إيمانًا إلى مُشَاشِهِ[1]]..

وحين وقع سوء تفاهُم عابر بين خالد بن الوليد وبين عمار، قال الرسول:

[مَنْ عَادَى عمارًا، عاداه الله، ومن أبغض عمارًا، أبغضهُ الله...]

ولم يكن أمام خالد بن الوليد – بطل الإسلام – إلا أن يسارع إلى عمار معتذرًا إليه، وطامعًا في صفحه الجميل..!!

وحين كان الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه يبنون المسجد بالمدينة إثْرَ نزولهم بها، ارتجز الإمام علي كرم الله وجهه أُنشودة راح يرددها، ويرددها المسلمون معه، فيقولون:

لا يَسْتوي مَنْ يَعْمُر المساجدا

يَدْأَبُ فيها قائمًا، وقاعدا

ومَنْ يُرَى عن الغُبَار حائِدا

وكان عمار يعمل في ناحية من المسجد، فأخذ يردد الأنشودة ويرفع بها صوته... وظن أحد أصحابه أن عَمَّارًا يعرض به. فغاضبه ببعض القول فغضب الرسول صلى الله عليه وسلم وقال:

[ما لَهُمْ ولِعَمَّار...؟؟

يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار...

إن عَمَّارًا جِلْدَة ما بين عَيْنَيَّ وأنفي]...

---

(١) أي إلى ما تحت عظامه.

وإذا أحبَّ رسول الله مسلمًا إلى هذا الحد ، فلا بد ان يكون إيمانه ، وبلاؤه ، وولاؤه ، وعظمة نفسه ، واستقامة ضميره ونهجه . . . قد بلغت المدى ، وانتهت إلى ذروة الكمال الميسور . . ! !

وكذلكم كَان عمار . . .

لقد كَالَ الله له من نعمته وهُداه بالمِكْيَال الأوفى ، وبلغ في درجات الهدى واليقين ما جعل الرسول صلى الله عليه وسلم يُزَكِّي إيمانه ، ويرفعه بين أصحابه قُدْوَةً ومثلا فيقول :

[اقْتَدُوا باللّذَيْنِ من بعدي أبي بكر وعمر . . . واهْتَدُوا بهَدْيِ عَمَّار] . . .

ولقد وصفه الرواة ، فقالوا :

« كان طُوَالاً ، أشْهَلَ ، رَحْب ما بين المنكبين . . من أطول الناس سكُوتًا ، وأقلهم كلامًا » . . .

فكيف سارت حياة هذا العملاق ، الصامت ، الأشهل ، العريض الصدر ، الذي يحمل جسدهُ آثار تعذيبه المرَوِّع ، كما يحمل – في نفس الوقت – وثيقة صُمُودِهِ المذْهِل ، وعظمته الخارقة . . . ؟ !

كَيف سارَت حياة هذا الحَوارِيِّ المخلص ، والمؤمن الصادق ، والفِدَائيِّ الباهر . . ؟ ؟

لقد شهد مع مُعَلِّمه ورسوله جميع المشاهد . . بدرًا ، وأُحُدًا ، والخندق وتَبُوك . . . وبقيَّتها جميعًا .

ولما ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، واصلَ العملاق زحفه . . .

ففي لقاء المسلمين مع الفرس ، ومع الروم ، ومن قبلُ ذلك في لقائهم مع جيوش الرِّدَة الجرَّارة ، كان « عمار » هناك في الصَّفِّ الأوَّل دومًا.. جنديًا باسلاً أمينًا ، لا تَنْبو لسيفه ضربة.. ومؤمنًا وَرِعًا جليلا ، لا تأخذه عن الله رغبة..

وحين كان أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » يختار ولاة المسلمين في دِقّةٍ وتحَفُّظٍ من يختارُ مصيره ، كانت عيناه تقعان دومًا في ثقة أكيدة على « عمار بن ياسر »..

وهكذا سارَعَ إليه وولّاه الكُوفة . وجعلَ ابنَ مسعود معه على بيت مالها...

وكتب إلى أهلها كتابا يبشرهم فيه بواليهم الجديد . فقال :

[إني بعثتُ إليكم عَمَّار بن ياسر أميرًا... وابن مسعود مُعَلِّما ووزيرًا...

وإنهما لمن النُّجَباء ، من أصحاب محمد ، ومن أهل بَدْر]...

ولقد سار « عمار » في ولايته سَيْرًا شقَّ على الطامعين في الدنيا تَحَمُّله حتى تألَّبُوا عليه أو كادوا...

لقد زادته الولاية تواضُعا ، وورعًا ، وزهدًا..

يقول ابن أبي الهُذَيْل ، وهو من معاصريه في الكوفة :

[رأيت عمار بن ياسر وهو أمير الكوفة يشتري من قِثّائها ، ثم يربطها بحبل ويحملها فوق ظهره ، ويمضي بها إلى داره].. !!!

ويقول له واحد من العامَّة وهو أمير الكوفة : « يا أجدَع الأذُن » يُعيِّره بأذُنه التي قُطعت بسيوف المرتدين في حرب اليمامة . . فلا يزيد الأمير الذي بيده السُّلطة على أن يقول لشاتمه :

[خَيْرَ أُذُنَيَّ سَبَبْت . . لقد أُصيبتْ في سبيل الله] . . ! !

أجل . . لقد أُصيبت في سبيل الله يومَ اليمامة ، وكان يومًا من أيام عمار المجيدة . . إذ انطَلق هذا العملاق في استبسالٍ عاصف يحصُد في جيش مُسَيلمة الكذاب ، ويُهدي إليه المنايا والدَّمار . .

وإذ يرى في المسلمين فُتورًا يرسل بين صفوفهم صياحَه المزلزل ، فيندفعون كالسهام المقذوفة .

يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

[رأيتُ عمار بن ياسر يوم اليمامَة على صخرة ، وقد أشرَفَ يصيح : يا مَعْشَر المسلمين . . أمِن الجنة تَفِرُّون . . ؟ أنا عمار ابن ياسر ، هَلُمُّوا إليَّ . . فنظرت إليه ، فإذا أُذُنُه مقطوعة تتأَرْجَح ، وهو يقاتل أشدَّ القتال] . . . ! ! !

أَلَا مَنْ كان في شَكٍّ من عظمة محمد الرسول الصادق ، والمُعلِّم الكامل ، فَليقف أمام هذه النماذج من أتْباعه وأصحابه ، وليسألْ نفسه : هل يقدر على إنجاب هذا الطراز الرفيع سوى رسول كريم ، ومُعَلِّم عظيم ؟ ؟

إذا خاضوا في سبيل الله قتالا اندفعوا اندفاع من يبحث عن المنيَّةِ ، لا عن النصر . . ! !

وإذا كانوا خُلُفَاءَ وَحُكَّامًا ، ذهب الخليفة يحلُبُ شِياه الأيامَى ، ويعجن خبز اليتامى . . . كما فعل أبو بكر ، وعمر . . ! !

وإذا كانوا وُلاة ، حملوا طعامهم على ظهورهم مربوطًا بحبل . . كما فعل عمار . أو تنازلوا عن راتبهم وجلسوا يصنعون من الخوص المجدول أوعيةً ومكاتل ، كما صنع سَلْمان . . ! !

ألا فلْنَحْنِ الجباه تحيةً وإجلالاً للدين الذي أنجبهم . وللرسول الذي ربَّاهم . . وقَبْل الدين والرسول ، لله العلي الكبير الذي اجْتباهم لهذا كله . . وهَداهُم لهذا كله . . وجعلَهم رُوَّادًا لخيْرِ أُمَّةٍ أُخرجت للناس . . ! !

* * *

كان حذيفة بن اليمان ، الخبير بـ« لُغَةِ » السَّرائر والقلوب يتهيّأ للقاء الله ، ويعالج سكَراتِ الموت حين سأله أصحابه الحافين حولَه قائلين له « بمَن تأمُرنا ، إذا اختلف الناس » . . ؟

فأجابهم حذيفة ، وهو يُلْقي بآخر كلماته :

[عليكُم بابْنِ سُمَيَّة . . فإنه لَنْ يُفَارِق الحق حتى يموت] . . .

أجلْ . . إن عمارًا لَيدُورُ مع الحق حيث يدور . . والآن ونحن نَقْفُو آثاره المباركة ، ونتتبع معالم حياته العظيمة ، تعالَوْا نَقترب من مَشهـــد عظيم . . .

ولكن ، قبل أن نواجه هذا المشهد في روعته وجلاله . . في صِوْلَته وكمالِه . . في تفانيه وإصراره . . في تَفوُّقه واقْتداره . . تعالَوْا نُبصر مشهدًا آخر يسبق هذا المشهد ، ويتنبَّأ به ، وَيُهيِّئ له . . .

كان ذلك إثر استقرار المسلمين بالمدينة ، وقد نهض الرسول الأمين وحوله الصحابة الأبرار ، شُعْثًا لربهم وغُبْرًا ، يبنون بيته ، ويقيمون مَسْجده . . قد امتلأت أفئدتهم المؤمنة غبطة ، وتألّقتْ بِشرًا ، وابتهلَتْ

حمدًا لربها وشكرًا..

الجميع يعملون في حُبورٍ وأمل.. يحملون الحجارة ، أو يعجنون المِلاط.. أو يقيمون البناء..

فَوْجٌ هنا ، وفَوْجٌ هناك...

والأفقُ السعيد يردد تغريدهم الذي يرفعون به أصواتهم المحبورة :

لَئن قَعَدْنَا والنبيُ يعمل لَذَاكَ مِنَّا العمَلُ المضَلَّل

هكَذا يغنون وينشدون...

ثم تتعالى أصواتهم الصادحة بتغريدة أخرى :

اللهمَّ إن العيشَ عَيْشُ الآخرة فارْحَم الأنْصارَ والمُهاجِرَه

وتغريدة ثالثة :

لا يَسْتَوي مَنْ يَعمرُ المساجدا

يَدْأَبُ فيها قائمًا وقاعدًا

ومَنْ يُرَى عَن الغُبار حائدًا

إنها خلايا الله تَعمل.. إنهم جنُوده ، يحملون لواءه ، ويرفعون بناءه...

ورسولُه الطيِّب الأمين معهم ، يحمل من الحجارة أَعْتاها ، ويُمارِسُ من العمل أشَقّهُ... وأصواتُهم لمغرِّدَة تحكي غبطة أنفسهم الراضية المخْبِتَة.. والسماء من فوقهم تغبط الأرض التي تحملهم فوق ظهرها.. والحياة المُتهللة تشهدُ أَبْهَى أعْيادها..!!

و« عمار بن ياسر » هناك وَسْط المهرجان الحافل يحمل الحجارة الثقيلة

من مَنْحَتِها إلى مُستقرِّها . . .

ويُبصره « الرحْمةُ المُهدَاة » محمد رسول الله ، فيأخذه إليه حنانٌ عظيم ، ويقترب منه وينفض بيده البارَّة الغُبار الذي كَسَى رأسه ، ويتأمل وجهه الوديع المؤمن بنظرات ملؤها نورُ الله ، ثم يقول على مَلأْ من أصحابه جميعًا :

[وَيْحَ ابن سُميَّة . . ! ! تَقتُلُه الفِئَةُ الباغِية] . . .

وتتكَرر النُّبوءة مرة أخرى . . . حين يسقط جدار كان يعمل تحته ، فيظن بعض إخوانه أنه قد مات ، فيذهب ينعاه إلى الرسول ، ويُفَزَّع الأصحاب من وَقْع النبأ . . . لكَن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول في طمأنينة وثقة :

[ما مات عمار . . تَقْتُل عمارًا الفِئَةُ الباغية] . . .

فمن تكُونُ هذه الفِئَةُ يا ترى . . . ؟ ؟

ومتى ، وأين . . ؟ ؟

لقد أصْغى « عمار » للنبوءة إصغاءَ من يَعْرِف صِدْق البصيرة التي يحملها رسولُه العظيم . .

ولكنه لم يُروَّع . . فهو منذ أسلم ، وهُو مُرَشَّحٌ للموت وللشهادة في كل لحظة من ليل أو من نهار . . .

ومضت الأيام . . والأعوام . .

ذهب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . . ثم لَحق به إلى رضوان الله أبو بكر . . ثم لحق بهما إلى رضوان الله عمر . . .

وَوَلِيَ الخلافة « ذو النورَيْنِ » عثمان بن عفان . . .

وكانت المؤامرات ضدَّ الإسلام تعمل عملَهَا المستميت ، وتحاولُ أن تربح بالغدر وإثارة الفتن ما خَسِرَتْه في الحرب . .

وكان مقتل « عمر » أول نجاح أحرزته هذه المؤامرات التي أخذت تَهُبُّ على المدينة كريح السَّمُوم من تلك البلاد التي دمَّر الإسلام مُلكها وعُروشها . . .

وأغراها استشهاد عمر على مواصلة مساعيها ، فألَّبت الفتن وأيقظتها في معظم بلاد الإسلام . . .

ولعل عثمان – رضي الله عنه – لم يُعط الأمور ما تستحقه من اهتمام وحَذَر ، واستجابة ، فوَقَعت الواقعة واستشهدَ عثمان رضي الله عنه ، وانفتحت على المسلمين أبواب الفتنة . . . وقام معاوية يُنَازِع الخليفة الجديد عليًّا كرَّم الله وجهه حقَّه في الأمر ، وفي الخلافة . . .

وتعدَّدت اتجاهات الصحابة . . فمنهم من نَفَض يديه من الخلاف وأوى إلى بيته ، جاعلاً شعاره كلمة ابن عمر :

[مَنْ قال حَيَّ عَلَى الصلاة أَجَبْتُه . . .
ومَنْ قال حَيَّ عَلَى الفلاح أَجَبْتُه . . .
ومَنْ قال حَيَّ عَلَى قَتْل أخيك المسلم وأخذ ماله ،
قلتُ : لا] . . .

ومنهم من انحاز إلى معاوية . . .

ومنهم من وقف إلى جوار « عليّ » صاحب البيعة ، وخليفة المسلمين . .

تُرَى أين يقف اليوم عمار؟؟

أين يقف الرجل الذي قال عنه رسُول الله صلى الله عليه وسلم :

[.. واهتدُوا بِهَدْيِ عَمَّار]..؟

أين يقف الرجل الذي قال عنه النبي عليه الصلاة والسلام :

[مَنْ عادَى عَمَّارًا عاداهُ الله]..؟

والذي كان إذا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته يقترب من منزله قال :

[مَرْحَبًا بالطيِّب المطيَّب ، ائذنوا له]..!!

لقد وقف إلى جوار علي بن أبي طالب ، لا مُتَحَيِّزًا ولا مُتَعَصِّبًا ، بل مُذْعنًا للحقِّ ، وحافظًا للعهد...

فعليٌّ خليفة المسلمين ، وصاحب البيعة بالإمامة... ولقد أخذ الخلافة وهو لها أهلٌ وبها جدير...

وعليٌّ – قبل هذا وبعد هذا – صاحب المزايا التي جعلت منزلته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كمنزلة هارون من موسى..

إن « عمارًا » الذي يدور مع الحق حيث دار ، ليهتدي بنور بصيرته وإخلاصه إلى صاحب الحق الأوحد في هذا النزاع.. ولم يكن صاحب الحق يومئذ في يقينه سوى الإمام عليّ ، فأخذ مكانه إلى جواره...

وفَرِحَ « عليٌّ » رضي الله عنه بنصرته فرحا لعله لم يفرح يومئذ مثله وازداد إيمانًا بأنه على الحق ما دام رجل الحق العظيم « عمار » قد أقبل عليه وسار معه...

وجاء يوم صِفِّين الرهيب .

وخرج الإمام علي يُواجه العمل الخطير الذي اعتبره تمرُّدًا يحمل هو مسئولية قَمْعِه .

وخرج معه « عمار » . .

كان « عمار » قد بلغ من العمر يومئذ ثلاثًا وتسعين . .

ثلاث وتسعون عاما . ويخرج للقتال . . ؟ ؟

أجَل ، ما دام يعتقد أن القتال مسئوليته وواجبه . . ولقد قاتلَ أشدَّ وأروعَ مما يقاتلُ أبناء الثلاثين . . . ! !

كان الرجل الدائم الصمت . القليل الكلام ، لا يكاد يحرك شفتيه حين يحركهما إلا بهذه الضراعة :

[عائِذٌ باللهِ مِنْ فتنة . .

عائِذٌ باللهِ مِنْ فِتْنة . .] .

وبُعَيْدَ وفاة رسُول الله صلى الله عليه وسلم ظلت هذه الكلمات ابْتِهَالَهُ الدائم . . .

وكلما كانت الأيام تمر ، كان هو يكثر من لهجه وتَعَوُّذِه . . . كأنما كان قلبه الصافي يحِسُّ الخطر الداهم كلما اقتربت أيامه . .

وحين وقع الخطر ، وَنَشِبَت الفتنة ، كان « ابن سُمَيَّة » يعرف مكانه فوقف يوم « صِفِّين » حاملاً سيفه ، وهو ابن الثالثة والتسعين – كما قلنا – ليناصر به حقًّا يُؤْمن بوجوب مُنَاصَرَته . . .

ولقد أعلن وجهة نظره في هذا القتال قائلا :

[أيها الناس :

سيروا بنا نحو هؤلاء القوم الذين يزعُمون أنهم يثأرن لعثمان ، ووالله ما قَصْدُهم الأخذُ بثأره . ولكنهم ذاقوا الدنيا . واسْتَمْرَأُوها . وعلموا أنَّ الحقَّ يحولُ بينهم وبين ما يتمرَّغون فيه من شهواتهم ودنياهم . .

« وما كان لهؤلاء سابِقَةٌ في الإسلام يستحقون بها طاعة المسلمين لهم . ولا الولاية عليهم ، ولا عرفت قلوبهم من خشية الله ما يحملهم على اتِّبَاع الحق . . .

« وإنهم لَيُخَادِعون الناس بِزَعْمِهِم أنهم يثأرون لدم عثمان . وما يريدون إلا أن يَكُونوا جَبَابِرَةً ومُلوكًا] . .

ثم أخذ الرَّاية بيده . ورفعها فوق الرؤوس عالية خافقة . وصاح في الناس قائلا :

[والذي نفسي بيدِهِ . . لقد قاتلتُ بهذه الرَّاية مع رسُول الله صلى الله عليه وسلم ، وهاأنَذَا أُقاتلُ بها اليوم . . .

« والذي نفسي بيده . لو هزمونا حتى يبلغوا سَعَفَاتِ هجرَ ، لعلمتُ أننا على الحقِّ ، وأنهم على الباطل] . . .

ولقد تبعَ الناسُ عمارًا ، وآمنوا بصدق كلماته . .

يقولُ « أبو عبد الرحمن السُّلَميُّ » :

[شهدنا مع « عليّ » رضي الله عنه « صِفِّين » ، فرأيتُ « عَمَّار بن ياسر » رضي الله عنه لا يأخذُ في ناحيةٍ من نواحيها ،

ولا وَادٍ من أوْدِيتها ، إلاّ رأيتُ أصحابَ محمد صلى الله عليه وَسَلّمَ يتبعونه كأنه عَلَمٌ لهم] . . ! !

كان « عمار » وهو يجول في المعركة ويصول ، يُؤْمِنُ أنه واحد من شهدائها . . .

وقد كانت نُبُوءَة الرسُول عليه الصلاة تأْتَلِقُ أمامَ عينيه بحروف كبيرة :

[تَقْتُلُ عَمَّارًا الفِئَةُ الباغية] . . .

من أجل هذا كان صوته يجلجل في أفق المعركة بهذه التغريدة :

[اليوْمَ أَلْقَى الأحِبَّه

محمدًا ، وصَحْبَه] ! !

ثم يندفع كقذيفة عاتية صَوْب مكان معاوية ومن حوله من الأمويين ويُرسل صياحه عاليًا مُدَمْدِمًا :

لقـد ضَرَبْنَاكم على تَنْزِيلـه
والـيـومَ نضربُكُمْ عَلَى تأويله
ضَرْبًا يُزِيلُ الهامَ عن مَقِيـله
ويُذْهِلُ الخليـلَ عن خَليـله
أو يَرْجع الحـقُّ إلى سبيله

وهو يعني بهذا أن أصحاب الرسُول السابقين ، وعمارًا منهم ، قاتلوا الأمويين بالأمس وعلى رأسهم أبو سفيان الذي كان يحمل لواء الشرك ، ويقود جيوش المشركين . .

قاتلوهم بالأمس ، وكان القرآن الكريم يأمرهم صراحة بقتالهم لأنهم

مشركون . .

أما اليوم ، وإن يكونوا قد أسلموا ، وإن يَكُن القرآن الكريم لا يأمرهم صراحة بقتالهم ، إلا أن اجتهاد « عمار » رضي الله عنه في بحثه عن الحق ، وفهمه لغايات القرآن ومراميه يُقْنِعانِهِ بقتالهم حتى يعود الحقّ المغتصب إلى ذوايه ، وحتى تنطفئ إلى الأبد نار التمرُّد والفتنة . . .

ويعني كذلك ، أنهم بالأمس قاتلوا الأمويين لكفرهم بالدين وكفرهم بالقرآن . . .

واليوم . . يقاتلونهم لانحرافهم بالدين ، وَزَيْغهم عن القرآن الكَرِيم وإساءتهم تأويله وتفسيره ، ومحاولتهم تطويع آياته ومراميه لأغراضهم وأطماعهم . . ! !

كان ابن الثالثة والتسعين ، يخوض آخر معارك حياته المستبسلة الشامخة . .

كان يُلَقِّن الحياة قبل أن يرحل عنها آخر دروسه في الثبات على الحق ، ويترك لها آخر مواقفه العظيمة ، الشريفة ، المُعَلِّمَة . . .

ولقد حاول رجال معاوية أن يتجنَّبوا عَمَّارًا ما استطاعوا ، حتى لا تقتله سيوفهم فيتَبين للناس أنهم « الفِئةُ الباغية » . .

بَيْدَ أنَّ شجاعة عمَّار الذي كان يقاتل وكأنه جيش وحده ، أفْقَدَتْهم صوابهم ، فأخذ بعض جنود معاوية يتحيَّنون الفرصة لإصابته ، حتى إذا تمكَّنوا منه أصابوه . .

* * *

كان جيش معاوية ينتظم كثيرين من المسلمين الجددُ . . الذين أسلموا على قَرْع طبول الفتح الإسلامي في البلاد الكَثيرة التي حررها الإسلام من

سيطرة الروم والفرس.. وكان أكثر هؤلاء وقودَ الحرب الأهلية التي سبّبها تمرّد معاوية ونكوصه عن بيعة علي.. الخليفة . والإمام.. كانوا وَقُودَها وزيتَها الذي يزيدها اشتعالا...

وهذا الخلاف على خطورته . كان يمكن أن ينتهي بسلام لو ظلّت الأمور بأيدي المسلمين الأوائل.. لكنه لم يكَدْ يتخذ أشكاله الحادَّة حتى تَنَاوَلَتْه أيْدٍ كثيرة لا يهُمُّها مَصير الأسلام . وذهَبت تُذكي النار وتزيدها ضِرَاما...

شاع في الغداة خبر مقتل عَمَّار . وذهب المسلمون يتناقل بعضهم عن بعض نُبُوءَةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم التي سمعها أصحابه جميعًا ذات يوم بعيد . وهم يبنون المسجد بالمدينة..

[وَيْحَ ابْنَ سُمَيَّة . تَقْتُلُه الفِئَةُ الباغية]..

وعرف الناس الأن . من تكون الفِئَةُ الباغية.. إنها الفئة التي قتلت عَمَّارًا.. وما قتله إلا فئة مُعاوية..

وازداد أصحاب عليٍّ بهذا إيمانًا..

أما فريق مُعاوية . فقد بدأ الشك يغزو قلوبهم . وتهيّأ بعضهم للتمرُّد ، والانضمام إلى عليٍّ..

ولم يكد معاوية يسمع بما حدث . حتى خرج يذيع في الناس أن هذه النبوءة حق . وأن الرسول صلى الله عليه وسلم تنبّأ حقا بأن عَمَّارًا ستقتله الفئة الباغية.. ولكن من الذي قتل عمارًا..؟ ثم صاح في الناس الذين معه قائلا :

« إنما قتله الذين خرجوا به من داره ، وجاءوا به إلى القتال »..

وَانْخدع بعض الذين في قلوبهم هوى بهذا التأويل المتهالك . واستأنفت المعركة سيرها إلى ميقاتها المعلوم . .

* * *

أما « عَمار » . فقد حمله الإمام « عليٌّ » فوق صدره إلى حيث صلّى عليه والمسلمون معه . . ثم دفَنَه في ثِيابه . .

أجَلْ – في ثِيابه المُضمَّخَةِ بدمه الزكيِّ الطَّهور . . فما في كُلِّ حرير الدنيا وديباجها ما يصلُح أن يكون كَفنًا لشهيد جليل ، وَقِدِّيس عظيم من طراز عمَّار . .

ووقف المسلمون على قبره يَعْجَبُون . . ! !

منذ ساعات كان « عمار » يُغَرِّدُ بينهم فوق أرض المعركة . . . تملؤ نفسه غبطة الغريب المُضْنَى يُزَفُّ إلى وطنه ، وهو يصيح :

[اليوم أَلْقَى الأحِبَّة ، محمدًا وصحبَه] . . ! ! ! !

أكان معهم اليوم على موعد يعرفه ، وميقاتٍ ينتظره . . ؟؟ ! !

وأقبل بعض الأصحاب على بعضهم يتساءلون . .

قال أحدهم لصاحبه : – أتذكر أَصِيلَ ذلك اليوم بالمدينة ونحن جالسون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وفجأة تهلّلَ وجهه وقال : « اشتاقت الجنةُ لعمَّار » . . ؟؟

قال له صاحبه نعم ، ولقد ذكر يومها آخرين . . منهم عليٌّ . وسلْمان . وبلال . . .

إذن ، فالجنَّة كانت مُشتاقَةً لعمار . .

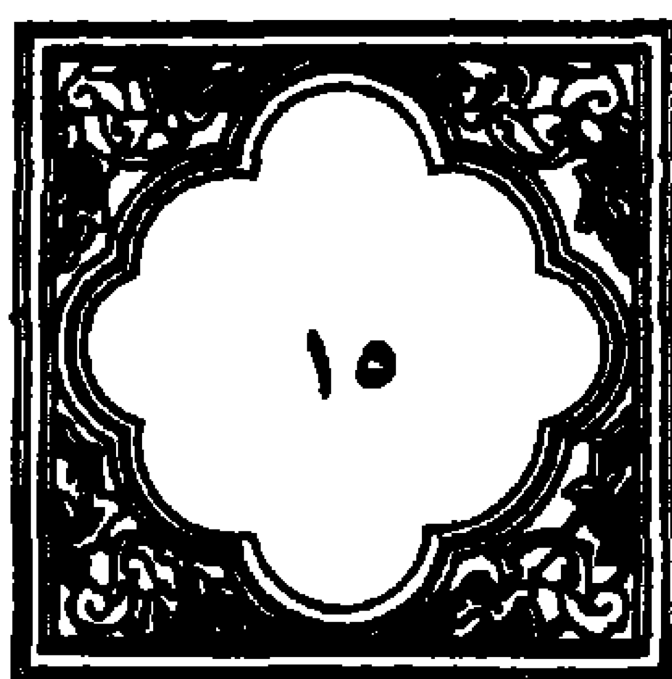
وإذن ، فقد طال شوقها إليه ، وهو يَسْتَمْهِلها حتى يؤدي كل تَبِعَاته ، ويُنْجز آخر واجباته . .

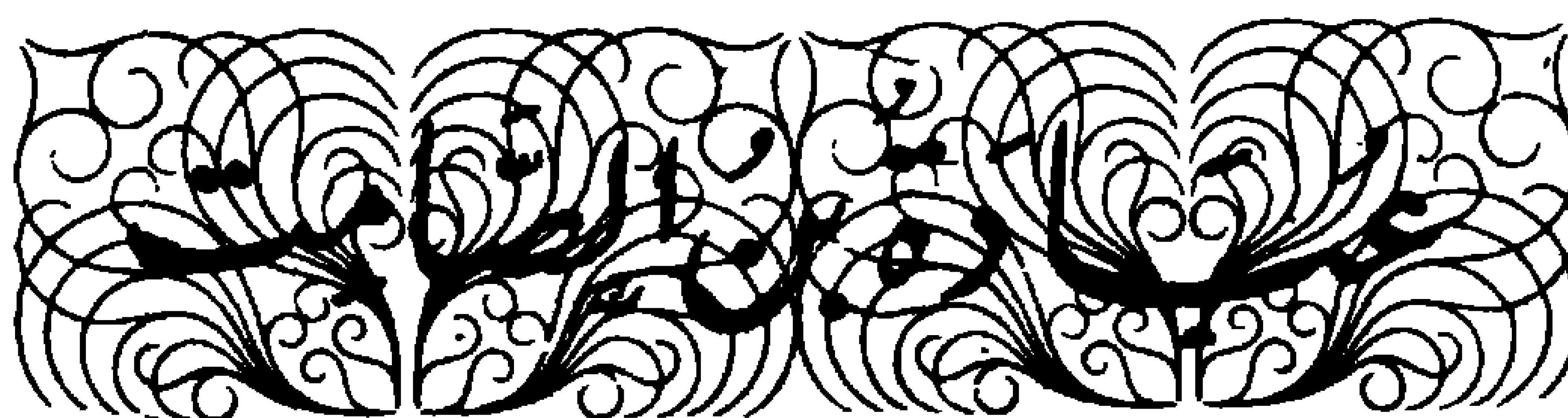
ولقد أَدَّاها في ذِمَّة ، وأَنْجَزها في غِبْطة . .

أفما آنَ له أن يُلَبِّيَ نداء الشَّوق الذي يهتف به من رحاب الجنان . . ؟ ؟

بَلى . . آن له أن يلبي النداء . . فما جزاءُ الإحسان إلا الإحسان . . وهكذا أَلْقَى رُمْحَه ومضى . .

وحين كان تُراب قبره يُسَوَّى بيد أصحابه فوق جثمانه ، كانت رُوحُه تُعَانِقُ مصيرها السعيد هناك . . في جَنَّات الخُلْد ، التي طال شوقُها لعمَّار . . !





نَقِيبٌ فِي حِزْبِ ٱللَّهِ



إنه واحد من الأنصار، قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم:

[لو أنَّ الأنصار سلَكُوا واديًا أو شِعْبًا. لَسلَكْتُ وَادِيَ الأنصار وَشِعْبهم، ولولا الهجرةُ لكُنْتُ امْرَءًا من الأنصار]...

و «عُبادةُ بن الصامت» بعد كَوْنه من الأنصار، فهو واحد من زعمائهم الذين اتخذهم الرسول نُقباء على أهليهم وعشائرهم..

وحينما جاء وفدُ الأنصار الأول إلى مكة ليُبايع الرسول على الإسلام، تلك البيعةَ المشهورةَ بـ«بيعة العَقَبة الأولى» كان «عُبادَة» رضي الله عنه. أحد الاثني عشر مؤمنًا، الذين سَارَعُوا إلى الإسلام. وَبَسَطوا أيْمَانَهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مُبايعين، وَشَدُّوا على يمينه مُؤَازِرين ومُسْلمين..

وحينما كان موسمُ الحج في العام التَّالِي يشهد «بَيْعَة العَقَبة الثانية» يُبايعها وفد الأنصار الثاني، مُكَوَّنًا من سبعين مؤمنا ومُؤمِنة. كان «عُبادَة» أيضًا من زعماء الوفد ونُقباء الأنصار...

وفيما بعد. والمشاهدُ تتوالى.. ومَواقفُ التضحية وَالبَذْل. والفداء تتتابَع. كان عُبادة هناك لم يَتخلّف عن مَشْهد. ولم يبخلْ بتضحية...

ومنذ اختار الله ورسوله. وهو يقوم على أفضل وجهٍ بتبعات هذا الاختيار...

كُلُّ ولائِهِ لله.. وكل طاعته لله.. وكل علاقاته بأقربائه. وبحُلفائه. وبأعدائه. إنما يُشَكِّلُهَا إيمانه، ويُشكلها السُّلوك الذي يفرضه هذا الإيمان..

كانت عائلة « عُبَادَة » مرتبطة بحلف قديم مع يهود بني قَيْنُقَاع بالمدينة...

ومنذ هاجر الرسول وأصحابه إلى المدينة ، ويهودها يتظاهرون بمُسَالَمَته.. حتى كانت الأيام التي تعقُب غزوة بدر وتسبق غزوة أُحُد . فشرَع يهود المدينة يتنمَّرون..

وافْتعلَتْ إحدى قبائلهم – بنو قَيْنُقَاع – أسبابا للفتنة وللشَّغَب على المسلمين..

ولا يكاد « عُبادة » يرى موقفهم هذا ، حتى ينبذ إليهم عهدهم وَيَفْسَخَ حِلفهم قائلاً :

[إنما أتَوَلّى اللهَ ، ورسولَه ، والمؤمنين]...

فيتنزل القرآن مُحَيِّيًا موقفه وولاءه ، قائلاً في آياته :

[وَمَنْ يَتولَّ اللهَ ورسولَهُ ، والذين آمنوا ، فإنَّ حزبَ الله هم الغالبون]...

* * *

لقد أعلنت الآية الكريمة قيام حزب الله...

وحِزْبُ الله ، هم أولئك المؤمنون الذين ينهضون حول رسول الله صلى الله عليه وسلم حاملين راية الهُدَى والحق ، والذين يُشكِّلون امتدادًا مُباركًا لصفوف المؤمنين الذين سبقوهم عَبْرَ التاريخ ناهضين هم الآخرين حول أنبيائهم وَرُسُلِهم ، مُبَلِّغين في أزمانهم وأعصارهم كلمة الله الحيِّ القيُّوم..

ولن يقتصر حِزْبُ الله – هذه المرة – على أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . بل سيمتد عَبْرَ الأجيال الوافدة . والأزمنة المقبلة حتى يَرِثَ الله الأرض ومَنْ عليها . ضامًّا إلى صفوفه كل مؤمن بالله و برسوله . .

وهكذا . فإن الرجل الذي نزلَتْ هذه الآية الكريمة تُحَيِّي موقفه وتَشِيدُ بولائه وإيمانه . لن يظلَّ مجرد نقيب من نُقباء الأنصار في المدينة ، بل سيصير نقيبًا من نُقباء الدين الذي ستُزْوَى له أقطارُ الأرض جميعًا . .

أجل ، لقد أصبح « عُبَادَة بن الصامت » نقيبُ عشيرته من الخزْرج . رائدًا من رواد الإسلام وإمامًا من أئمة المسلمين يخفق اسمه كالراية في معظم أقطار الأرض – لا في جيل . أو في جيلين . أو ثلاثة – بل إلى ما شاء الله من أجيال . . ومِنْ أزمان . . ومِنْ آماد . . ! !

* * *

سمع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يومًا يتحدث عن مسئولية الأمراء والوُلاة . .

سمعه يتحدث عليه الصلاة والسلام ، عن المصير الذي ينتظر من يُفَرِّط منهم في حق ، أو تعبث ذِمَّته بمال . . فَزُلْزِلَ زِلْزَالا ، وأقسم بالله ألا يكون أميرًا على اثنين أبدًا . .

ولقد بَرَّ بقسمه . . .

وفي خلافة أمير المؤمنين « عمر » رضي الله عنه ، لم يستطع الفاروق أن يحمله على قبول منصب مَّا ، اللهم إلا تعليم الناس وَتَفْقِيههم في الدين . .

أجل . . هذا هو العمل الوحيد الذي آثره « عُبادَة » ، مُبتعدًا بنفسه عن الأعمال الأخرى ، المحفوفة بالزَّهْو ، وبالسُّلطان ، وبالثَّراء ،

والمحفوفة أيضًا بالأخطار التي يخشاها على دينه ومصيره..

وهكذا سافر إلى الشام ثالث ثلاثة: هو، ومعاذ بن جبل. وأبو الدَّرْدَاء.. حيث ملأوا البلاد عِلْمًا وفِقهًا ونورًا..

وسافر «عُبادة» إلى فلسطين حيث وليَ قضاءها بعض الوقت، وكان يحكمها باسم الخليفة آنذاك، معاوية..

* * *

كان «عُبادة بن الصامت» وهو ثاوٍ في الشام يرنو ببصره إلى ما وراء الحدود.. إلى المدينة المُنَوَّرة عاصمة الإسلام ودار الخلافة، فيرى فيها عمر بن الخطاب.. رجل لم يُخلَق من طرازه سواه..!!

ثم يرتدُّ بصره إلى حيث يقيم، في فلسطين.. فيرى معاوية بن أبي سفيان.. رجل يُحب الدُّنيا، ويعشَقُ السُّلطان..

و«عُبادة» من الرَّعيل الأول الذي عاش خير أيام حياته وأعظمها وأثْرَاها مع الرسول الكريم.. الرَّعيل الذي صهره النضال وصقلته التضحية، وعانق الإسلام رَغَبًا، لا رَهَبًا.. وباع لله نفسه وماله...

«عُبادة» من الرَّعيل الذي ربّاه محمد بيديه، وأفرغ عليه من روحه، ونوره، وعظمته...

وإذا كان هناك مِن الأحياء مَثَلٌ أعلى للحاكم يملأ نفس عُبادة رَوْعة، وقلبه ثقة، فهو ذلك الرجل الشاهق الرابض هناك في المدينة.. عمر بن الخطاب...

فإذا مضى «عُبادة» يقيس تصرفات معاوية بهذا المقياس، فستكون

الشقة بين الأثنين واسعة ، وسيكون الصدام محتومًا . . وقد كان . . . ! !

* * *

يقول عُبادة رضي الله عنه :

[بَايَعْنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عَلَى ألاّ نخاف في الله لومةَ لَائم] . .

و« عُبادة » خير مَنْ يَفي بالبيعة . . وإذن فهو لن يخشى معاوية بكل سُلْطَانِه ، وسيقف بالمرصاد لكل أخطائه . .

ولقد شهد أهل فلسطين يومئذ عجبًا . . وترامَتْ أنباء المعارضة الجسورَة التي يَشُنها « عُبادة » على معاوية إلى أقطار كثيرة من بلاد الإسلام فكانت قُدْوَة ونبراسًا . . .

وعلى الرغم من الحلم الواسع الرحيب الذي اشتهر به « معاوية » فقد ضاق صدره بمواقف « عُبادة » ورأى فيها تهديدًا مُباشرًا لهيبة سُلطانه . .

ورأى « عُبادة » من جانبه أن مَسَافَةَ الخُلْف بينه وبين معاوية تزداد وتتسع ، فقال لمعاوية : « واللهِ لا أُسَاكِنُك أرضًا واحدةً أبدًا » . . وغادر فلسطين إلى المدينة . .

* * *

كان أمير المؤمنين عمر ، عظيمَ الفطنة ، بعيدَ النظر . . . وكان حريصًا على ألاّ يدعَ أمثال معاوية من الوُلاة الذين يعتمدون على ذكائهم ويستعملونه بغير حساب دون أن يحيطهم بنفَر من الصحابة الورعين الزاهدين والنُّصَحاءِ المخلصين ، كي يَكْبَحُوا جِمَاح الطموح والرغبة لدى أولئك الوُلاة ، وكي يكونوا لهم وللناس تذكِرَةً دائمة بأيام الرسول وعهده . . .

من اجل هذا ، لم يكد أمير المؤمنين يبصر « عُبادة بن الصامت » وقد عاد إلى المدينة حتى سأله : « ما الذي جاء بك يا عُبادة » . . ؟؟ ولما قصَّ عليه ما كان بينه وبين معاوية قال له عمر:

[ارجع إلى مكانك . فَقَبَّح الله أرضًا ليس فيها مِثْلُك] . . ! !

ثم أرسل عمر إلى معاوية كتابا يقول فيه :

[لا إمْرَةَ لك عَلَى عُبادة] . . ! !

أجل . . إن عُبادة أمير نفسِه . . .

وحين يُكرِّم عمر الفاروق رجلاً مثل هذا التكريم ، فإنه يكون عظيما . .

ولقد كان « عُبادة » عظيما في إيمانه ، وفي استقامة ضميره وحياته . .

* * *

وفي العام الهجري الرابع والثلاثين ، تُوفي بالرَّملة في أرض فلسطين هذا النَّقيب الراشِد من نُقَباء الأنصار والإسلام ، تاركًا في الحياة عَبِيره وشَذاه . .





أستاذ في الفداء



خرج نَفَرٌ من القرشيين . يغذّون الخُطى . ميممين وجوههم شَطْر دار « خبَّاب » ليتسلموا منه سيوفهم التي تعاقَدُوا معهُ على صنعها . .

وقد كان « خبَّاب » سيَّافًا ، يصنع السيوف ويبيعها لأهل مكة ، ويُرْسل بها إلى الأسواق . .

وعلى غير عادة « خبَّاب » الذي لا يكاد يُفارق داره وعمله ، لم يجده ذلك النفر من قريش فجلسوا ينتظرونه . .

وبعد حين طويل جاء « خبَّاب » على وجهه علامة استفهام مضيئة . وفي عينيه دموعٌ مغتبطة . . وحيَّا ضيوفه وجلس . . .

وسألوه عَجلين : هل أتممت صنع السيوف يا خبَّاب ؟؟

وجفَّت دموع خبَّاب ، وحل مكانها في عينيه سرور متألق ، وقال وكأنه يُنَاجي نفسه : إن أمره لَعَجَب . .

وعاد القوم يسألونه : أيُّ أمر ، يا رجُل . . ؟؟ نسألك عن سيوفنا ، هل أتممتَ صُنعها . . ؟؟

ويستَوْعبهم « خبَّاب » بنظراته الشاردة الحالمة ويقول :

– هل رأيتموه . . ؟ وهل سمعتم كلامه . . ؟؟

وينظر بعضهم لبعض في دهش وعَجَب . . .

ويعود أحدهم فيسأله في خُبْث :

- هل رأيته أنت يا خبَّاب..؟؟

ويسخر «خبَّاب» من مكر صاحبه، فيردّ عليه السؤال قائلا:

- من تَعْني..؟؟

ويجيب الرجل في غيظ: أعني هذا الذي تعنيه..؟؟

ويجيب «خبَّاب» بعد إذْ أرَاهُم أنه أبعد منالاً من أن يُسْتَدْرَج، وأنه إن اعترف بإيمانه الآن أمامهم، فليس لأنهم خدعوه عن نفسه، واستدرجوا لسانه، بل لأنه رأى الحق وعانَقَهُ. وقرر أن يَصْدَع به ويجهر..

يُجيبهم قائلا، وهو هائم في نشوته وغبطة رُوحه:

- أجَلْ.. رأيته. وسمعته.. رأيتُ الحق يتفجَّر من جوانبه، والنور يتلألأ بين ثناياه..!!

وبدأ عملاؤه القرشيون يفهمون. فصاح به أحدهم:

- مَنْ هذا الذي تتحدث عنه يا عبد أُمِّ أنمار..؟؟

وأجاب «خبَّاب» في هدوء القدِّيسين:

- ومَنْ سِوَاه، يا أخا العرب.. مَنْ سِواه في قومك. يتفجَّر من جوانبه الحق، ويخرج النور من بين ثناياه..؟!

وصاح آخر، وقد هَبَّ مذعورًا:

- أراك تعني محمدًا...

وهزَّ «خبَّاب» رأسه المفعم بالغبطة، وقال:

- نعم، إنه هو رسول الله إلينا، ليخرجنا من الظُّلُمات إلى النور..

ولا يدري «خبَّاب» ماذا قال بعد هذه الكلمات، ولا ماذا قيل

له.. كل ما يذكره أنه أفاق من غيبوبته بعد ساعات طويلة ليرى زواره قد انفضُّوا.. وجسمه وعظامه تُعَاني رُضُوضًا وآلامًا، ودمه النازف بُضَمِّخ ثوبه وجسده..!!

وحدَّقَتْ عيناه الواسعتان فيما حوله.. وكان المكان أضيق من أن يتسع لنظراتهما النافذة، فتحامل على آلامه، ونهض شَطْرَ الفضاء، وأمام باب داره وقف متوكئًا على جدارها، وانطلقت عيناه الذكيتان في رحلة طويلة تُحَدِّقَان في الأفق، وتدوران ذات اليمين وذات الشمال.. إنهما لا تقفان عند الأبعاد المألوفة للناس.. إنهما تبحثان عن البُعد المفقود..

أجلْ.. تبحثان عن البُعد المفقود في حياته، وفي حياة الناس الذين معه في مكة، والناس في كل مكان وفي كل زمان..

تُرى، هل يكون الحديث الذي سمعه من «محمد» عليه الصلاة والسلام اليوم، هو النور الذي يهدي إلى ذلك البعد المفقود في حياة البشر كافة..؟؟

واستغرق «خبَّاب» في تأمُّلات سامية، وتفكير عميق.. ثم عاد إلى داخل داره.. عاد يُضَمِّد جراح جسده، ويُهيئه لاستقبال تعذيب جديد، وآلام جديدة..!!

ومن ذلك اليوم أخذ «خبَّاب» مكانه العالي بين المعذَّبين والمضطهدين..

أخذ مكانه العالي بين الذين وقفوا رغم فقرهم، وضعفهم، يواجهون كبرياء قريش وعُنْفها وجُنُونها...

أخذ مكانه العالي بين الذين غرسوا في قلوبهم سارية الراية التي أخذت

تخفق في الأفق الرحيب ناعيةً عصرَ الوثنية ، والقيصرية . . مُبشرةً بعالم الله الذي يعبده الناس وحده مخلصين له الدِّين . . ومُبشرة بأيام المستضعفين والكادحين ، الذين سيقفون تحت ظل هذه الراية سَوَاسِيَة مع أولئك الذين استغلوهم من قبل ، وأذاقوهم الحرمان والعذاب . .

وفي استبسال عظيم ، حمل خبَّابٌ تبعاته كرائد . .

يقول الشَّعْبي :

[لقد صبر « خبَّابٌ » ، ولم تَلِنْ له بين أيدي الكفار قناة ، فجعلوا يلصقون ظهره العاري بالرَّضَف[1] حتى ذهب لحمه] . . ! !

أجَلْ . . كان حظ « خبَّاب » من العذاب كبيرًا . ولكن مقاومته وصبره كانا أكبر من العذاب . .

لقد حوَّل كفار قريش جميع الحديد الذي كان بمنزل « خبَّاب » والذي كان يصنع منه السيوف . . حوّلوه كله إلى قيود وسلاسل ، كان يُحمى عليها في النار حتى تستعر وتتوهج ، ثم يُطوَّق بها جسده ويداه وقدماه . .

ولقد ذهب يومًا مع بعض رفاقه المضطهدين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا جَزِعين من التضحية ، بل راجين العافية ، فقالوا : « يا رسول الله . . ألا تَسْتَنْصِرُ لنا . . ؟ ؟ » أي تسألُ الله لنا النصر والعافية . .

ولْندع « خبَّابًا » يروي لنا النبأ بكلماته :

[شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدٍ له في ظل الكعبة ، فقلنا : يا رسول الله ، ألا تَسْتَنْصِرُ لنا . . ؟ ؟

(١) أي الحجارة المحماة .

« فجلس صلى الله عليه وسلم . وقد احمرَّ وجهه وقال :

« قد كان مَنْ قبلكم يُؤْخذ منهم الرَّجُل . فَيُحْفَر لـــــه في الأرض . ثم يُجَاءُ بالمنشار ، فيجعل فوق رأسه . ما يَصْرِفه ذلك عن دينه . . ! !

« وَتُمْشَط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه ، ما يَصْرِفه ذلك عن دينه . . ! !

« وَلَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمر حتى يسير الراكب من « صَنْعَاء » إلى « حضرمَوْت » لا يَخشى إلا الله عزّ وجلّ . والذئبَ على غَنَمه . ولكنكم تَعْجَلُون] . . ! !

سمع « خبَّاب » ورفاقه هذه الكلمات . فازداد إيمانهم وإصرارهم وقرَّرُوا أن يُرِيَ كل منهم ربَّه ورسوله ما يُحِبَّان من تصميم . وصبر . وتضحية .

وخاض « خَبَّاب » معركة الهول صابرًا . صامدا . مُحْتَسِبًا . . .
واستنجد القرشيون بـ« أُمِّ أنمار » سيدة خبَّاب التي كان عبدًا لها قبل أن تُعْتِقه . فأقبلت واشتركت في حملة تعذيبه . .

وكانت تأخذ الحديد المحمى الملتهب . وتضعه فوق رأسه ونافوخه . وخبّاب يتلوى من الألم . لكنه يكظم أنفاسه . حتى لا تخرج منه زفرة تُرْضي غرور جلاديه . . ! !

ومرَّ به رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما . والحديد المحميُّ فوق رأسه يُلهبه ويشويه . فطار قلبه رحمة وحنانا وأسى . ولكن ماذا يملك عليه الصلاة والسلام يومها لخباب . . ؟ ؟

لا شيْ.. إلاّ أن يُثَبِّته ويدعو له..

هنالك رفع الرسول صلى الله عليه وسلم كفيه المبسوطتين إلى السماء، وقال:

[اللهمَّ انصُرْ خَبَّابًا]...

ويشاء الله ألا تمضي سوى أيام قليلة حتى ينزل « بأُم أنمار» قصاص عاجل. كأنما جعله القدر نذيرًا لها ولغيرها من الجلادين. ذلك أنها أُصيبت بِسُعار عصيب وغريب جعلها -كما يقول المؤرخون- تعـــوي مثل الكلاب..!!

وقيل لها يومئذ: لا علاج لها سوى أن يُكْوَى رأسها بالنار..!!

وهكذا شهد رأسها العنيد سطوة الحديد المُحْمِيِّ يُصَبِّحه ويُمَسِّيه..!!

* * *

كانت قريش تقاوم الإيمان بالعذاب... وكان المؤمنون يقاومون العذاب بالتضحية.. وكان « خَبَّاب » واحدا من أولئك الذين اصطفتهم المقادير لتجعل منهم أساتذة في فن التضحية والفداء...

ومضى « خَبَّاب » ينفق وقته وحياته في خدمة الدين الذي خفقت أعلامه...

ولم يكتف -رضي الله عنه- في أيام الدعوة الأولى بالعبادة والصلاة بل استثمر قدرته على التعليم، فكان يغشى بيوت بعض إخوانه من المؤمنين الذين يكتمون إسلامهم خوفا من بطش قريش. فيقرأ معهم القرآن ويُعلمهم إياه...

ولقد نبغ في دراسة القرآن وهو يتنزَّل آية ، آية.. وسورة ، سورة حتى إن « عبد الله بن مسعود » . وهو الذي قال عنه رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « من أراد أن يقرأ القرآن غَضاً كما أُنْزِلَ ، فليقرأه بقراءة ابن أُم عَبْد »...

نقول :

حتى « عبد الله بن مسعود » كان يعتبر « خَبَّابَا » مَرْجِعًا فيما يتصلُ بالقرآن حفظًا ودراسة..

وهو الذي كان يدرس القرآن لـ« فاطمة بنت الخطاب » وزوجها « سعيد بن زيد » عندما فاجأهم « عمر بن الخطاب » متقلدًا سيفه الذي خرج به ليصفي حسابه مع الإسلام ورسوله . لكنه لم يكد يتلو القرآن المسطور في الصحيفة التي كان يُعَلِّم منها « خَبَّاب » . حتى صاح صيحته المباركة :

[دُلُّوني عَلَى محمد]..!!

وسمع « خباب » كلمات « عمر » هذه ، فخرج من مخبأه الذي كان قد تَوَارى فيه . وصاح :

[يا عمر...

والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصَّك بدعوة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فإني سمعته بالأمس يقول : « اللهم أَيِّد الإسلام بأحبِّ الرجلين إليك.. أبي الحكم بن هشام وعمر بن الخطاب »...

وسأله عمر من فوره : وأين أجد الرسول الآن يا خبّاب..؟؟

وأجاب خبَّاب :

[عند الصّفا ، في دار الأرقم بن أبي الأرقم] . . .

ومضى « عمر » الى حظوظه الوافية ، ومصيره العظيم . . . ! !

* * *

شهد « خبَّاب بن الأرَتّ » جميع المشاهد والغزوات مع رسول الله ، وعاش عمره كله حفيظًا على إيمانه ويقينه . . .

وعندما فاض بيت مال المسلمين بالمال أيام « عمر » ، و« عثمان » ، رضي الله عنهما ، كان « خبَّاب » صاحب راتب كبير بوصفه من المهاجرين السابقين إلى الإسلام . .

وقد أتاح هذا الدخل الوفير لخباب أن يبتني دارًا له بالكوفه ، وكان يضع أمواله في مكان مَّا من الدار يعرفه أصحابه وَرُوَّاده . . . وكل من وقعت به حاجةٌ ، يذهب فيأخذ من المال حاجته . . .

ومع هذا ، فقد كان « خبَّاب » لا يَرْقَأُ له جَفن ، ولا تجفُّ له دمعة كلما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين بذلوا حياتهم لله ، ثم ظفروا بلقائه قبل أن تُفتَح الدنيا على المسلمين ، وتكثر في أيديهم الأموال .

اسمعوه وهو يتحدث إلى عُوَّادِه الذين ذهبوا يعودونه وهو رضي الله عنه في مرض موته .

قالوا له :

– أبشِرْ يا أبا عبد الله ، فإنك مُلَاقٍ إخوانك غدًا . . .

فأجابهم وهو يبكي :

[أمَا إنه ليسَ بي جزَع... ولكنكم ذكَّرتموني أقوامًا.
وإخوانًا، مَضَوْا بأُجورهم كلها لم ينالوا من الدنيا شيئًا..
« وإنّا بقينا بعدهم حتى نلنا من الدنيا ما لم نجد له موضعًا
إلا التراب]...

وأشار إلى داره المتواضعة التي بناها.

ثم أشار مرة أخرى إلى المكان الذي فيه أمواله وقال:

[والله ما شَدَدْتُ عليها من خيط. ولا مَنَعْتها عن سائل].. !

ثم التفت إلى كفنه الذي كان قد أُعِدَّ له. وكان يراه ترفًا وإسرافًا وقال ودموعه تسيل:

[انظروا.. هذا كفني..
لكنَّ « حمزة » عمَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يوجَدْ
له كفن يوم استشهد إلا بُرْدَة ملحاء... إذا جُعلت على
رأسه قَلَصَتْ عن قدميه، وإذا جعلت على قدميه قلصت
عن رأسه]... ! !

* * *

ومات « خبَّاب » في السنة السابعة والثلاثين للهجرة...

مات أستاذ صناعة السيوف في الجاهلية..

وأستاذ صناعة التضحية والفداء في الإسلام... ! !

مات الرجل الذي كان أحد الجماعة الذين نزل القرآن يدافع عنهم. ويحييهم عندما طلب بعض السادة من قريش أن يجعل لهم رسول الله

صلى الله عليه وسلم يومًا . وللفقراء من أمثال « خبَّاب » . و« صهيب » ، و« بلال » يومًا آخر.

فإذا القرآن العظيم يَحْتَضِنُ رجال الله هؤلاء في تمجيد لهم وتكريم ، وَتُهِلُّ آياته قائلةً للرسول الكريم :

[ولا تَطْرُدِ الذين يَدعون ربَّهم بالغَدَاةِ والْعَشِيِّ يريدون وَجْهه ، ما عليكَ مِن حسابهم من شيْ ، وما من حِسَابِكَ عليهم مِن شيْ فتطردَهم فتكون من الظالمين . .

« وكذلك فَتَنَّا بعضهم ببعض ليقولوا : أَهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا ؟ ! أَلَيْسَ اللهُ بأعلَمَ بالشاكرين . . ؟

« وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا . فَقُلْ : سَلَامٌ عليكم ، كتب رَبُّكُم على نفسِهِ الرَّحْمَةَ] . .

وهكذا ، لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يراهم بعد نزول هذه الآيات حتى يبالغ في إكرامهم فيفرش لهم رداءه ، وَيُرَبِّتُ على أكتافهم ، ويقول لهم :

[أهلًا بمَنْ أَوْصاني بهم ربي] . . .

أجَلْ . . مات واحد من الأبناء البَرَرَة لأيام الوحي . وجيل التضحية . . .

* * *

ولعلَّ خير ما نودِّعه به . كلمات الإمام عليّ كَرَّم الله وجهه حين كان عائدًا من معركة صِفين . فوقعت عيناه على قبر غَضٍّ رطيب ، فسأل : قبرُ من هذا . . ؟

فأجابوه : إنه قبر خبَّاب . .

فتملّاه خاشعًا ، آسيًا ، وقال :

رَحِمَ اللهُ خبَّابا . .

لقد أسلَم راغبا . .

وهاجر طائعا . .

وعاش مُجَاهدا . .



أبو عبيدة بن الجراح

أمين هذه الأمة



مَن هذا الذي أمسك الرسول بيمينه وقال عنه :

[إن لكل أمة أمينًا ، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجرَّاح] . . ؟؟

مَن هذا الذي أرسله النبي في غزوة ذات السَّلاسل مددًا لعمرو بن العاص ، وجعله أميرًا على جيش فيه أبو بكر ، وعمر . . ؟؟

من هذا الصحابي الذي كان أول من لُقِّب بـ« أمير الأمراء » . . ؟؟

مَن هذا الطويل القامة ، النحيف الجسم ، المعروق الوجه ، الخفيف اللحية ، الأثْرم ، ساقط الثنِيَّتَيْن . . ؟؟

أجَلْ . . مَن هذا القويُّ الأمين الذي قال عنه عمر بن الخطاب وهو يجود بأنفاسه :

[لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيًّا لاستَخلَفتُه فإن سألني ربي عنه ، قلت : استَخْلَفتُ أمين الله ، وأمين رسوله] . . ؟؟

إنه أبو عُبيدة . . « عامر بن عبد الله بن الجرَّاح » . . .

أسلم على يد أبي بكر الصديق في الأيام الأولى للإسلام ، قبل أن يدخل الرسول صلى الله عليه وسلم دار الأرقم ، وهاجر إلى الحبشة في الهجرة الثانية ، ثم عاد منها ليقف إلى جوار رسوله في بدر ، وأُحُد ، وبقيَّة المشاهد جميعها ، ثم ليواصِلَ سَيْره القويَّ الأمين بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم في صحبة خليفته أبي بكر ، ثم في صحبة أمير المؤمنين عمر ،

نابذًا الدنيا وراء ظهره ، مستقبلاً تبعاتِ دينه في زُهد ، وتقوى ، وصمود ، وأمانة .

* * *

عندما بايع « أبو عبيدة » رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على أن ينفق حياته في سبيل الله . كان مُدركا تمام الإدراك ما تعنيه هذه الكلمات الثلاث – في سبيل الله – وكان على أتم استعداد لأن يُعطي هذا السبيل كل ما يتطلبه من بَذل وتضحية . . .

ومنذ بسط يمينه مُبايعًا رسوله ، وهو لا يرى في نفسه ، وفي أيَّامِه ، وفي حياته كلها سوى أمانة استَوْدَعَه الله إياها لينفقها في سبيله وفي مَرْضاته ؛ فلا يَجْري وراء حظ من حظوظ نفسه . . ولا تصرِفُه عن سبيل الله رغبة ولا رَهْبة . .

ولما وفّى أبو عبيدة بالعهد الذي وفّى به بقية الأصحاب ، رأى الرسول في مسلك ضميره ، ومسلك حياته ما جعله أهلا لهذا اللقب الكريم الذي أفاءه عليه ، وأهداه إليه ، فقال عليه الصلاة والسلام :

[أمينُ هذه الأمّة ، أبو عبيدة بن الجرّاح]

* *

إن أمانة « أبي عبيدة » على مستوياته ، لهي أبرزُ خِصاله . . ففي غزوة أُحُد أحسَّ من سَيْر المعركة حِرْص المشركين ، لا على إحراز النصر في الحرب ، بل قبل ذلك ودون ذلك ، على اغتيال حياة الرسول العظيم ، فاتفق مع نفسه على أن يظَلَّ مكانه في المعركة قريبًا من مكان رسول الله .

ومضى يضرب بسيفه الأمين مثلِه . في جيش الوثنية الذي جاء باغيًا

وعاديًا يريد أن يُطفئ نور الله..

وكلما استدرجته ضرورات القتال وظروف المعركة بعيدًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتل وعيناه لا تسيران في اتجاه ضرباته.. بل هما متجهتان دومًا إلى حيث يقف الرسول ويقاتل، ترقُبانه في حرص وقلق..

وكلما تراءى لأبي عبيدة خَطر يقترب من النبي، انخلع من موقفه البعيد وقطع الأرض وثْبًا حيث يدْحَض أعداءَ الله ويردُّهم على أعقابهم قبل أن ينالوا من الرسول مَنالا..!!!

وفي إحدى جولاته تلك، وقد بلَغ القتال ذروة ضراوته أحاط بأبي عبيدة طائفةٌ من المقاتلين، وكانت عيناه كعادتهما تُحدِّقان كعيني الصقر في موقع رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكاد أبو عبيدة يفقد صوابه إذ رأى سهمًا ينطلق من يدٍ مشركة فيصيب النبي، وعمِل سيفه في الذين يحيطون به وكأنه مائة سيف، حتى فرَّقهم عنه، وطار صَوْبَ الرسول، فرأى دمه الزكيَّ يسيل على وجهه، ورأى الرسول الأمين يمسح الدم بيمينه وهو يقول:

[كيف يُفلح قوم خَضبُوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم]..؟؟

ورأى حَلْقتين من حلَقِ المِغفَر الذي يضعه الرسول فوق رأسه قد دخَلَتا في وجنتي النبي، فلم يُطِق صبرًا.. واقترب يقبض بثناياه على حَلْقة منهما حتى نزعها من وجنة الرسول، فسقطت ثَنِيَّة، ثم نزع الحلْقة الأخرى، فسقطت ثنيته الثانية..

وما أجملَ أن نترك الحديث لأبي بكر الصديق يصف لنا هذا المشهد

بكلماته . .

[لما كان يوم أُحُد ، ورُميَ رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخلَت في وَجْنَتِه حَلْقتان من المِغْفر ، أقبلْتُ أسعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنسان قد أقبل من قِبَل المشرق يَطير طيرَانا ، فقلت : اللهم اجعله طاعة . حتى إذا توافَيْنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذا هو أبو عبيدة بن الجرَّاح قد سبقني . فقال : أسألك بالله يا أبا بكر أن تتركني فأنزعها من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم . . .

« فتركتُه . فأخذ أبو عبيدة بثَنِيَّته إحدى حَلْقتي المغفر . فنزعها وسقط على الأرض وسقطت ثنيته معه . .

« ثم أخذ الحلقة الأخرى بثنيته الأخرى فسقطت . . . فكان أبو عبيدة في الناس أثْرم .] . ! ! !

وأيامَ اتسعت مسئوليات الصحابة وعَظُمت ، كان أبو عبيدة في مستواها دومًا بصدقه وبأمانته . . .

فإذا أرسله النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة الخَبَط أميرًا على ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا من المقاتلين ، وليس معهم من زاد سوى جراب تمر . . والمهمة صعبة ، والسفَر بعيد ، استقبل أبو عبيدة واجبه في تفانٍ وغبطة ، وراح هو وجنوده يقطعون الأرض ، وزادُ كل واحد منهم طوال يوم حفنة تمر ، حتى إذا أوشك التمر أن ينتهي ، يهبط نصيب كل واحد إلى تمرة في اليوم . . حتى إذا فرغ التمر جميعه راحوا يتصيَّدون « الخَبط » أي ورق الشَّجر بِقسيِّهم ، فيسحقونه ويسفونه ويشربون عليه الماء . . ومن أجل هذا

سميت هذه الغزوة بغزوة « الخبَط » . .

لقد مضوا لا يُبالون بجوع ولا بحرمان ، ولا يعنيهم إلا أن ينجزوا مع أميرهم القوي الأمين المهمة الجليلة التي اختارهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لها . . ! !

* * *

لقد أحب الرسول عليه السلام « أمين الأمة » أبا عبيدة كثيرًا . . وآثره كثيرًا . .

ويوم جاءه وفد « نجران » من اليمن مُسْلمين ، وسألوه أن يبعث معهم مَنْ يعلمهم القرآن والسنة والإسلام ، قال لهم الرسول :

[لَأبْعَثَنَّ معكم رجلاً أمينًا ، حَقَّ أمين . . حَقَّ أمين . . حَقَّ أمين] . . ! !

وسمع الصحابة هذا الثناء من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتمنى كل منهم لو يكون هو الذي يقع عليه اختيار الرسول ، فتصير هذه الشهادة الصادقة من حظِّه ونصيبه . .

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

[ما أحبَبْتُ الإمارة قط ، حُبِيِّ إياها يومئذ ، رجاء أن أكون صاحبها ؛ فرُحْتُ إلى الظهر مُهَجِّرا ، فلما صلَّى بنا رسُول الله صلى الله عليه وسلم الظهر ، سلَّم ، ثم نظر عن يمينه ، وعن يساره ، فجعلتُ أتطاوَلُ له ليراني . . .

« فلم يزَل يلْتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجرَّاح ، فدعاه فقال : اخرج معهم ، فاقْضِ بينهم بالحق فيما

اختلفوا فيه.. فذهَب بها أبو عبيدة]...!!!

إن هذه الواقعة لا تعني طبعًا أن « أبا عبيدة » كان وحده دون بقية الأصحاب موضع ثقة الرسول وتقديره..

إنما تعني أنه كان واحدًا من الذين ظفروا بهذه الثقة الغالية، وهذا التقدير الكريم...

ثم كان الواحد، أو الوحيد الذي تسمح ظروف العمل والدعوة يومئذ بغيابه عن المدينة، وخروجه في تلك المهمة التي تُهَيِّئه مزاياه لإنجازها..

وكما عاش أبو عبيدة مع الرسول صلى الله عليه وسلم أمينًا، عاش بعد وفاة الرسول أمينًا.. يحمل مسئولياته في أمانة تكفي أهل الأرض لو اغترفوا منها جميعًا..

ولقد سار تحت راية الإسلام أنى سارت – جنديا، كأنه بفضله وبإقدامه الأمير.. وأميرًا – كأنه بتواضعه وبإخلاصه واحدًا من عامّة المقاتلين..

وعندما كان خالد بن الوليد.. يقود جيوش الإسلام في إحدى المعارك الفاصلة الكبرى.. واستهلَّ أمير المؤمنين عمر عهده بتولية أبي عبيدة مكان خالد...

لم يكد أبو عبيدة يستقبل مبعوث عمر بهذا الأمر الجديد، حتى استكتمه الخبر، وكتمه هو في نفسه طاويا عليه صدرَ زاهدٍ، فَطِنٍ، أمين.. حتى أَتَمَّ القائد « خالد » فتحه العظيم...

وآنئذ، تقدم إليه في أدب جليل بكتاب أمير المؤمنين!!

ويسأله خالد:

[يرحَمْك اللهُ أبا عبيدة .. ما منعك أن تخبرني حين جاءك الكتاب] .. ؟؟

فيجيبه أمين الأمّة :

[إني كرهتُ أن أكْسِر عليك حَرْبك ، وما سُلْطان الدنيا نريد ، ولا للدنيا نعمل ، كلنا في الله إخْوة] .. ! ! !

* * *

ويصبح أبو عبيدة – أميرَ الأُمراء – بالشام .. ويصير تحت إمرته أكثر جيوش الإسلام طولًا وعرضًا .. عَتادًا وعددًا ..

فما كنت تحسبه حين تراه إلا واحدًا من المقاتلين .. وفردًا عاديا من المسلمين ..

وحين ترامَى إلى سمعه أحاديث أهل الشام عنه ؛ وانبهارهم بأمير الأمراء هذا .. جمعهم وقام فيهم خطيبًا ..

فانظروا ماذا قال للذين رآهم يُفتنون بقوته ، وعظمته ، وأمانته ..

[يا أيها الناس ..

« إني مُسلم من قريش ..

« وما مِنْكم من أحد ، أحمرَ ، ولا أسْوَدَ ، يَفْضُلُني بتقوى إلا وَدِدْتُ أني في إهابه] .. ! !

حيَّاك الله أبا عبيدة ...

وحيَّا الله دينًا أنجبَكَ ورسولا علّمك ..

مسلم من قريش ، لا أقل ولا أكثر .

الدين : الإسلام . .

والقبيلة : قريش . .

هذه لا غير ، هَوِيَّته . .

أما هو كأمير للأمراء ، وقائد لأكثر جيوش الإسلام عددًا ، وأشدها بأسًا ، وأعظمها فوزًا . . .

أما هو كحاكم لبلاد الشام . أمره مُطاع ومشيئته نافذة . .

كل ذلك ومِثْله معه ، لا ينال من انتباهه لَفْتَة . وليس له في تقديره حساب . . أيُّ حساب . . . ! !

* * *

ويزور أميرُ المؤمنين « عمر بن الخطاب » الشام . ويسأل مستقبليه :

أين أخي . . ؟ ؟

فيقولون : مَنْ . . ؟

فيجيبهم : أبو عبيدة بن الجراح .

ويأتي أبو عبيدة ، فيعانقه أمير المؤمنين عمر . . . ثم يصحبه إلى داره . فلا يجد فيها من الأثاث شيئًا . . . لا يجد إلا سيفه ، وتِرْسَه ورَحْلَهُ . .

ويسأله عمر وهو يبتسم :

[ألا اتخذتَ لنفسك مثلما يصنع الناس] . . ؟

فيجيبه أبو عبيدة :

[يا أمير المؤمنين ، هذا يُبَلِّغُني المَقِيل] . . . ! !

* * *

وذات يوم ، وأمير المؤمنين عمر الفاروق يُعالج – في المدينة – شئون عالمه المسلم الواسع ، جاءه الناعي ، أن قد مات أبو عبيدة . .

وأسبل الفاروق جفنيه على عينين غُصَّتَا بالدموع . . .

وغاض الدمع ، ففتح عينيه في استسلام . . .

وترحّم على صاحبه ، واستعاد ذكرياته معه رضي الله عنه في حنان صابر . . .

وأعاد مقالته عنه :

[لو كُنت مُتَمَنِّيًا ، ما تَمنَّيتُ إلا بيتًا مملوءًا برجال من أمثال أبي عبيدة] . . .

* * *

ومات أمين الأمة فوق الأرض التي طهرها من وثنية الفرْس ، واضطهاد الرومان . . .

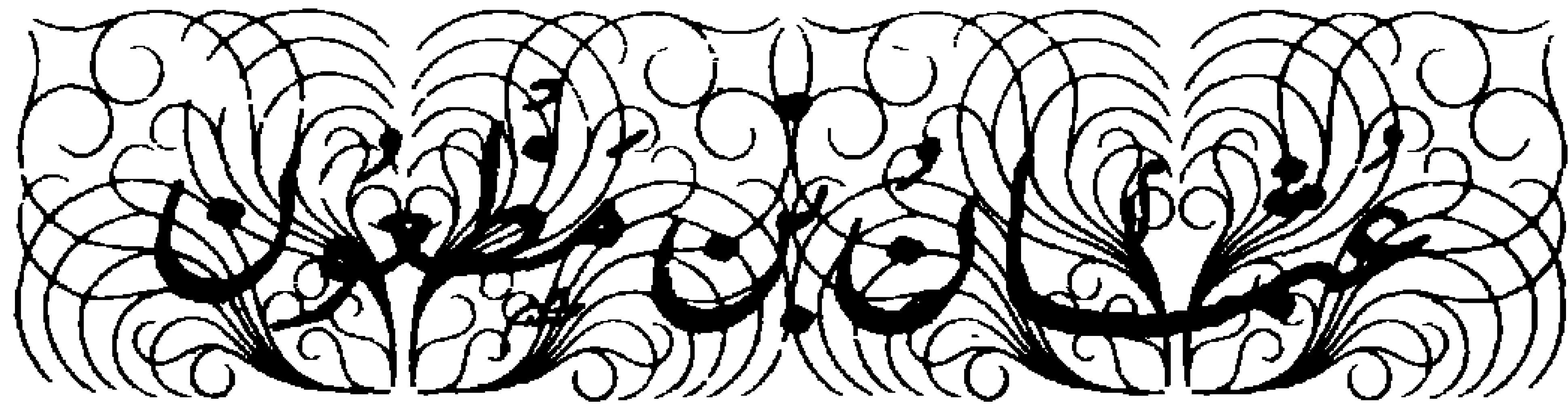
وهناك اليوم تحت ثرى الأُرْدُنّ يَثوي رفاتٌ نبيل ، كان مستقرًّا لروح خيِّر ، ونفس مطمئنة . . .

وسواءٌ عليه – وعليكَ – أن يكون قبره اليوم معروفًا أو غير معروف . .

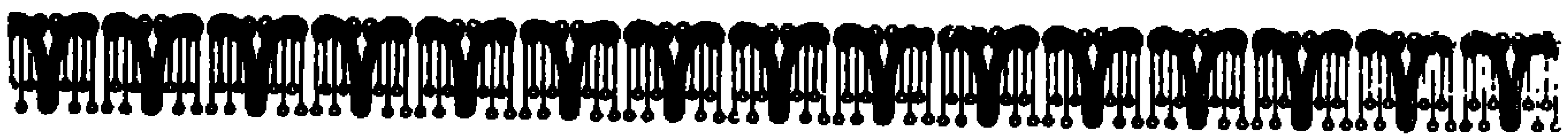
فإنك إذا أردت أن تبلُغه لَنْ تكون بحاجة إلى من يقودك إليه . .

ذلك أنَّ عَبِير رُفاته ، سيَدُلك عليه . . . ! !





رَاهِبٌ، صَوْمَعَتُهُ الحَيَاة



إذا أردت أن تَرَتب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وَفْقَ سَبْقهم الزمني إلى الإسلام فاعلم إذا بلَغت الرقم « الرابع عشر » أن صاحبه هو « عثمان بن مظعون » . .

واعلم كذلك ، أن ابن مظعون هذا ، كان « أوَّلَ » المهاجرين وفاة بالمدينة . . كما كان « أوَّل » المسلمين دَفْنًا بالبقيع . . . .

واعلم أخيرًا . أن هذا الصحابيَّ الجليل الذي تُطالع الآن سيرته كان راهبًا عظيمًا . . لا مِنْ رُهْبان الصوامع ، بل من رهبان الحياة . . ! !

أَجَلْ . . . كانت الحياة بكل جَيَشانها ، ومسئولياتها ، وفضائلها ، هي صومعته . .

وكانت رَهْبَانيّته عملا دائبًا في سبيل الحق ، وتفانيًا مثابرًا في سبيل الخير والصلاح . . .

* * *

عندما كان الإسلام يتسرّب ضوؤه الباكر النَّدِيُّ من قلب الرسول صلى الله عليه وسلم . . . ومن كلماته – عليه الصلاة والسلام – التي يلقيها في بعض الأسماع سرًّا وخُفْيَة . . .

كان « عثمان بن مظعون » هناك . . . واحدًا من القِلّةِ التي سَارَعَت إلى الله والتفّت حول رسوله . . .

ولقد نزل به من الأذى والضرّ . ما كان ينزل يومئذ بالمؤمنين

الصابرين الصامدين . . .

وحين آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه القلة المؤمنة المضطهدة بالعافية . آمرًا إياها بالهجرة إلى الحبشة . مُؤْثِرًا أن يبقى في مُواجهة الأذى وحده . كان « عثمان بن مظعون » أميرَ الفوجِ الأوّل من المهاجرين . مُصْطَحِبًا معه ابنه « السائب » مُوَلِّيًا وجهه شطر بلاد بعيدة عن مكايد عدو الله « أبي جهل » . وضَرَاوَة قريش . وهَوْل عذابها . . .

وكشأن المهاجرين إلى الحبشة في كلتا الهجرتين . . . الأولى والثانية . لم يزدَدْ « عثمان بن مظعون » رضي الله عنه إلا استمساكا بالإسلام . واعتصامًا به . . .

والحق أن هجرَتَيِ الحبشة تمثلان ظاهرة فريدة . ومجيدة . في قضية الإسلام . . .

فالذين آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم وصدَّقوه . واتَّبعوا النور الذي أُنزل معه . كانوا قد سئموا الوثنية بكل ضلالاتها وجهالاتها . وكانوا يحملون فِطْرَة سديدة لم تعُدْ تُسِيغُ عبادة أصنام منحوتة من حجارة أو معجونة من صَلْصَال . . . ! !

وحين هاجروا إلى الحبشة واجهوا فيها دينًا سائدًا . ومنظمًا . . . له كنائسه وأحبارُه ورهبانه . . .

وهو – مهما تكن نظرتهم إليه – بعيد عن الوثنية التي ألفوها في بلادهم . وعن عبادة الأصنام بشكلها المعروف وطُقوسها التي خلفوها وراء ظهورهم . . .

ولا بد أن رجال الكنيسة في الحبشة قد بذلوا جهودًا لاستمالة هؤلاء المهاجرين لدينهم ، وإقناعهم بالمسيحية دينًا . . .

ومع هذا كله نرى أولئك المهاجرين يبقون على ولائهم العميق للإسلام ولمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . مترقبين في شوق وقلق ، ذلك اليوم القريب الذي يعودون فيه إلى بلادهم الحبيبة ، ليعبدوا الله وحده ، وليأخذوا مكانهم خلف رسولهم العظيم . . . في المسجد أيام السلام . . . وفي ميدان القتال ، إذا اضطرتهم قُوَى الشِّرْكِ للقتال . .

* * *

في الحبشة – إذن – عاش المهاجرون ، آمنين مطمئنين . . . وعاش معهم « عثمان بن مظعون » الذي لم ينس في غربته مكايد ابن عمه « أُمية ابن خلف » . وما ألحقه به وبغيره من أذى وضُرّ ، فراح يتسلى بهجائه ويتَوَعَّده :

تَرِيشُ نِبَالًا لا يُوَاتِيكَ ريشها
وتبري نبالًا ، ريشها لك أجمعُ
وحاربت أقوامًا كرامًا أعــزَّة
وأهلكْتَ أقوامًا بهم كنت تَفزعُ
ستعلم إن نَابَتْكَ يومًا مُلِمَّةٌ
وَأَسْلَمك الأوباشُ مــا كنتَ تصنع

* * *

وبينما المهاجرون في دار هجرتهم يعبدون الله ، ويتدارسون ما معهم من القرآن ، ويحملون – رغم الغربة – توهج روح منقطع النظير . .

إذ الأنباء تواتيهم أن قريشًا أسلمت ، وسجدت مع الرسول لله الواحد القهار . . .

هنالك حمل المهاجرون أمتعتهم وطاروا إلى مكة تسبقهم أشواقهم ، وَيَحْدُوهم حَنينهم . . .

بَيْدَ أنهم ما كادوا يقتربون من مشارفها حتى تبينوا كذب الخبر الذي بلغهم عن إسلام قريش . .

وساعتئذ سُقِط في أيديهم ، ورأوا أنهم قد عَجِلوا . . ولكن أنَّى يذهبونَ وهذه مكة على مرمى البصر . . . ! ! !

وقد سمع مشركو مكة بمقدم الصيد الذي طالما طاردوه ونصبوا شباكهم لا قتناصه . . . ثم ها هو ذا الآن ، تحين فرصته ، وتأتي به مقاديره . . ! !

كان « الجِوَارُ » – يومئذ – تقليدًا من تقاليد العرب ذات القداسة والإجلال ، فإذا دخل رجل مستضعف في جوار سيد قرشي ، أصبح في حِمًى منيع لا يُهْدَر له دم ، ولا يضطرب منه مأمن . . .

ولم يكن العائدون سواء في القدرة على الظفر بجوار . .

من أجل ذلك ظفر بالجوار منهم قلة ، كان من بين أفرادها « عثمان ابن مظعون » الذي دخل في جوار « الوليد بن المغيرة » .

وهكذا دخل مكة آمنًا مطمئنًا ، ومضى يعبر دروبها ، ويشهد ندواتها ، لا يُسَام خَسْفًا ولا ضَيْمًا . . .

* * *

ولكن « ابن مظعون » . . . الرجل الذي يصقله القرآن ، ويربيه

محمد صلى الله عليه وسلم . يتلفت حواليه . فيرى إخوانه المسلمين من الفقراء والمستضعفين ، الذين لم يجدوا لهم جوارًا ولا مجيرًا . . . يراهم والأذى ينوشهم من كل جانب . . . والبغي يطاردهم في كل سبيل . . . بينما هو آمن في سِرْبه ، بعيد من أذى قومه . فيثور روحه الحر . ويجيش وجدانه النبيل . ويتفوق بنفسه على نفسه . ويخرج من داره مصممًا على أن يخلع جوار الوليد ، وأن يَنْضُو عن كاهله تلك الحماية التي حرمته لذة تحمل الأذى في سبيل الله ، وشرف الشَّبَهِ بإخوانه المسلمين . طلائع الدنيا المؤمنة . وبشائر العالم الذي ستتفجر جوانبه غدًا إيمانًا . وتوحيدًا . ونورًا . . .

ولْندعْ « شاهد عيان » يصف لنا ما حدث :

[لما رأى « عثمان بن مظعون » ما فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاء . وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد بن المغيرة . قال : والله إن غُدُوِّي ورواحي آمنًا بجوار رجل من أهل الشرك . وأصحابي وأهل ديني يَلْقَوْن من البلاء والأذى ما لا يُصيبني . لنقصٌ كبير في نفسي . .

« فمشى إلى الوليد بن المغيرة . فقال له :

– يا أبا عبد شمس وَفَتْ ذمتك . وقد رددتُ إليك جوارك . .

« فقال له :

– لِمَ . يا ابن أخي . . . لعله آذاك أحدٌ من قومي . . ؟ ؟

« قال : لا ، ولكني أرضى بجوار الله . ولا أريد أن

أستجير بغيره . .

« فانطلقْ إلى المسجد فارْدُدْ عَلَيَّ جِوَاري علانية ، كما أجَرْتني علانية . .

« فانطلقا حتى أتيا المسجد ، فقال الوليد : هذا عثمان . . قد جاء يرُدُّ عَلَيَّ جِوَاري . .

قال عثمان : صدق . . ولقد وَجَدْته وفيًّا كريم الجوار ، ولكنني أحببتُ ألا أستجيرَ بغير الله . .

« ثم انصرف عثمان ، ولبيد بن ربيعة في مجلس من مجالس قريش ينشدهم ، فجلس معهم عثمان ، فقال لبيد :

* أَلَا كلُّ شيءٍ ما خَلَا الله باطل *

« فقال عثمان : صدقت . . .

قال لبيد :

* وكلُّ نعيم لا مَحَالَةَ زائل *

قال عثمان : كذبت . . . نعيم الجنة لا يزول . .

« فقال لبيد : يا معشر قريش . والله ما كان يُؤْذَى جليسُكُم ، فمتى حدث هذا فيكم . . ؟ ؟

« فقال رجل من القوم : إن هذا سفيه فَارَقَ ديننا . . فلا تَجِدَنَّ في نفسك من قوله . .

« فرد عليه « عثمان بن مظعون » حتى شَرِيَ أمرهما . فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فأصابها . والوليد بن المغيرة

قريب ، يرى ما يحدث لعثمان ، فقال : أما والله يا ابنَ أخي إن كانت عَيْنُك عَمَّا أصابها لَغَنِيَّة ، لقد كنت في ذِمَّة مَنيعة . .

« فقال عثمان : بل والله إن عيني الصحيحة لَفَقِيرَةٌ إلى مثل ما أصاب أختها في الله . . . وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس . . . ! ! !

« فقال له الوليد : هلم يا ابن أخي ، إن شئت فعـــد إلـــى جواري . . .

« قال ابن مظعون : لا . . .] . . .

وغادر « ابن مظعون » هذا المشهد وعينه تَضِجُّ بالألم ، ولكن روحه تتفجر عافية ، وصلابة ، وبشرًا . .

ولقد مضى في الطريق إلى داره يتغنى بشعره هذا :

فإن تَكُ عيـــني في رضا الله نالها

يَدَا مُلْحِدٍ في الدين ليسَ بمهتدي

فقد عَوَّضَ الرحمنُ منهـــا ثوابه

وَمَنْ يُرْضِـــهِ الرحمن يا قوم يَسْعَدِ

فإني وإن قُلْتُم غَـــوِيٌّ مُضَلَّلٌ

لأحْيا على دينِ الرســـول محمدِ

أُرِيدُ بذاك اللهَ ، والحق ديننـــا

على رَغْمِ من يبغي علينا وَيَعْتَدِي

* * *

هكذا ضرب « عثمان بن مظعون » مَثَلاً ، هو لَهُ أهل ، وبه جدير. . .

وهكذا شهدت الحياة إنسانًا شامخًا يُعَطِّر الوجود بموقفه الفَذّ هذا . . وبكلماته الرائعة الخالدة :

[والله ، إنَّ عَيْني الصحيحة ، لَفقيرةٌ إلى مِثْلِ ما أصاب أُخْتَها في الله . . وإني لَفي جِوارمَنْ هُوَأعَزُّ منك وَأقْدَر] . . ! !

ولقد ذهب « عثمان » بعد رَدِّ جوَار الوليد يتلقى من قريش أذاها ، وكان بهذا سعيدًا جدَّ سعيد . . . فقدكان ذلك الأذى بمثابة النار التي تُنْضِج الإيمان وتصهره وتُزَكّيه . .

وهكذا سار مع إخوانه المؤمنين ، لا يروعهم زَجْر . . ولا يَصُدُّهم إثخان . . ! !

* * *

ويُهاجر « عثمان » إلى المدينة ، حيث لا يُؤَرِّقُه أبو جهل هناك ، ولا أبو لَهَب . . ولا أُمَيَّة ، ولا عُتْبة . . ولا شيءُ من هذه الغِيلان التي طالما أَرَّقَتْ ليلهم ، وأَدْمَتْ نهارهم . . .

يذهب إلى المدينة مع أولئك الأصحاب العِظام الذين نجحوا بصمودهم وبثباتهم في امتحان تَناهَتْ عُسْرَتُه وَمَشَقَّته وَرَهْبَته ، والذين لم يُهاجروا إلى المدينة ليستريحوا ويَكْسَلُوا . . بل لينطلقوا من بابها الفسيح الرحب إلى كل أقطار الأرض حاملين راية الله ، ومُبشرين بكلماته وآياته وهُداه . .

وفي دار الهجرة المُنَوَّرَة ، يتكَشَّف جوهر « عثمان بن مظعون » وتستبين حقيقته العظيمة الفريدة ، فإذا هو العابد ، الزاهد ، المتَبَتِّل ، الأواب . . .

وإذا هو الرَّاهِب الجليل ، الذكيُّ الذي لا يأوي إلى صَوْمَعَةٍ يعتزل

فيها الحياة . . .

بل يملأ الحياة بعمله . وبجهاده في سبيل الله . . .

أجَلْ . . .

رَاهِب الليل . فارس النهار ، بل رَاهِب الليل والنهار ، وفارسُهما معًا . . .

ولئن كان أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم . لا سيَّما في تلك الفترة من حياتهم ، كانوا جميعًا يحملون رُوح الزهد والتبتُّل . فإن ابن مظعون كان له في هذا المجال طابعه الخاص . . إذْ أَمْعَن في زهده وتفانيه إمعانًا رائعًا . أحال حياته كلها في ليله ونهاره إلى صلاةٍ دائمة مضيئة ، وتَسْبيحةٍ طويلةٍ عَذْبَة . . ! !

وما إن ذاق حلاوة الاستغراق في العبادة حتى هَمَّ بتقطيع كل الأسباب التي تربط الناس بمناعِم الحياة . . .

فمضى لا يلبس إلا الملبس الخَشِن . ولا يأكل إلا الطعام الجشِب . . .

دخل يومًا المسجد . ورسُولُ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه جلوس ، وكان يرتدي لباسًا تمزَّق ، فرقَّعه بقطعة من فروة . . فَرَقَّ له قلب الرسول صلى الله عليه وسلم ، ودَمِعَت عيون أصحابه . فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم :

[كيف أنتم يوم يَغْدُو أحدكُم في حُلّة . ويروح في أُخْرى . . وتُوضَعُ بين يديه قَصْعة ، وتُرْفَعُ أُخرى . . وسَتَرْتُم بُيُوتكم كما تُسْتَر الكَعبة . . ؟ !] . .

قال الأصحاب :

[وَدِدْنَا أن ذلك يكون يا رسول الله ، فنُصيب الرخاء والعيش] . . .

فأجابهم الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا :

[إن ذلك لَكَائِن . . وأنتم اليوم خيرٌ منكم يومئذ] . . .

وكان بديهيًّا ، وابن مظعون يسمع هذا ، أن يزداد إقبالا على الشَّظَف وهربًا من النعيم . . ! !

بل حتى الرَّفَث إلى زوجته نأى عنه وانتهى ، لولا أن عَلِمَ الرسول عليه السلام ذلك فناداه وقال له :

[إن لِأَهْلِك عليك حَقًّا] . . .

* * *

وأحبَّه الرسول صلوات الله عليه ، حُبًّا عظيمًا . . .

وحين كانت رُوحه الطاهرة تتهيأ للرحيل ليكون صاحبها أول المهاجرين وفاةً بالمدينة ، وأوَّلهم ارتيادًا لطريق الجنة ، كان الرسول عليه السلام ، هناك إلى جواره . .

ولقد أَكَبَّ على جبينه يُقَبِّله ، ويُعَطِّره بدموعه التي هطَلَتْ من عينيه الوَدُودَتَيْن فضمَّخَتْ وجه « عثمان » الذي بدا ساعة الموت في أَبْهَى لحظات إشراقه وجلاله . .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم يُوَدِّع صاحبه الحبيب :

[رَحمكَ اللهُ أبا السَّائب . . . خَرَجْتَ من الدنيا ، وما أَصَبْتَ منها ، ولا أصابَتْ منك] . . .

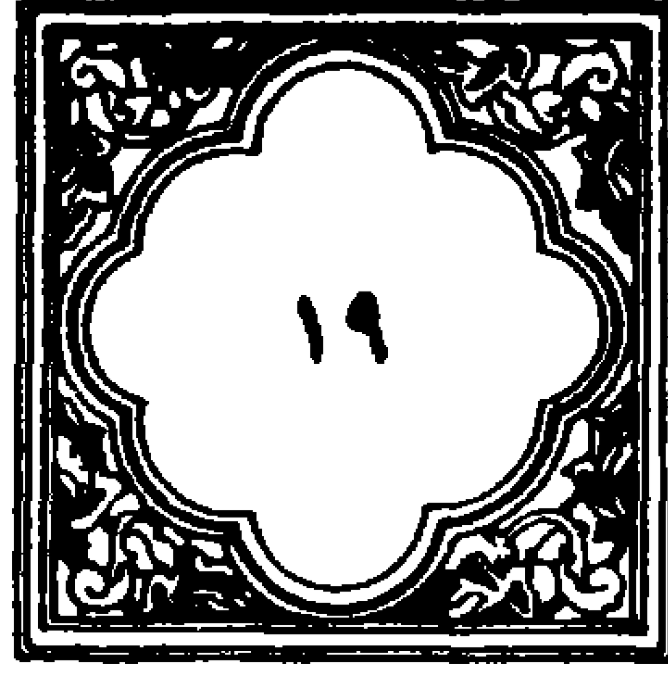
* * *

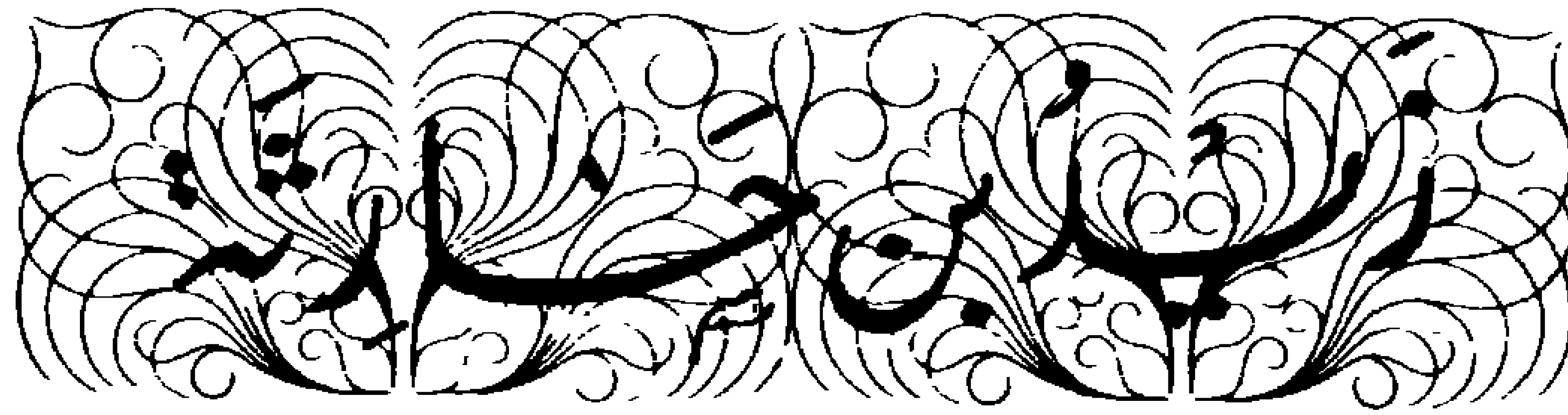
ولم يَنْس الرسولُ الودود صاحبه بعد موته ، بل كان دائم الذِّكْر له ، والثناء عليه . . .

حتى لقد كانت كلمات وداعه عليه الصلاة والسلام لابنته رُقَيَّة ، حين فَاضَتْ رُوحُها :

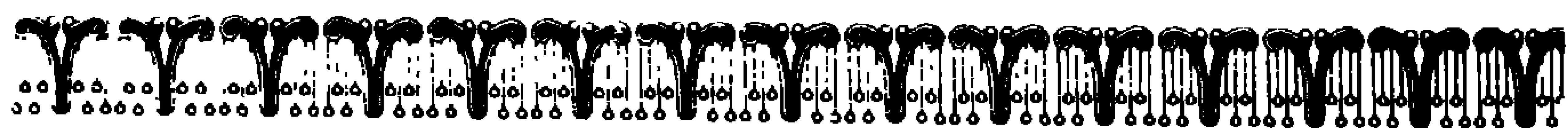
[الْحَقِي بِسَلَفِنَا الخيِّر ، عثمان بن مظعون] . . ! ! !







لَمْ يُحِبَّ حُبَّهُ أحَد!!



وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يُودع جيش الإسلام الذاهب لملاقاة الروم في غزوة « مُؤتة » ويعلن أسماء أمراء الجيش الثلاثة ، قائلا :

[عليكُم زيدُ بن حارثة . . . فإن أُصيب زيد ، فجعفر بن أبي طالب . . فإن أُصيب جعفر ، فعبد الله ابن رَوَاحَة] . .

فمن هو « زيد بن حارثة » . . ؟؟

من هذا الذي حمل دون سواه لقب « الحِبّ » . . حِبّ رسول الله . . ؟

أما مَظْهَرُه وشكله ، فكان كما وصفه الرُّواة والمؤرخون :

« قصير ، آدَمُ – أي أسمر – شديد الأُدْمَة ، في أنفه فَطَس » . .

وأمَّا نَبَأه ، فعظيم جِدُّ عظيم . . ! !

* * *

أعدَّ « حارثة » أَبو « زيد » الراحلة والمتاع لزوجته « سُعْدى » التي كانت تَزْمع زيارة أهلها في بني مَعْن .

وخرج يودع زوجته التي كانت تحمل بين يديها طفلهما الصغير « زيد ابن حارثة » وكلما همَّ أن يَسْتَوْدِعَهما القافلة التي خرجت الزوجة في صحبتها ويعود هو إلى داره وعمله ، دفعه حنانٌ خَفِيٌّ وعجيب لمواصلة السير مع زوجته وولده . .

لكنَّ الشُقَّةَ بَعُدَتْ ، والقافِلَةُ أَغَذّت سيرها ، وآن لحارثة أَن يودع الوليد وَأُمَّه ، ويعود . .

وهكذا وَدَّعهما ودموعه تسيل.. ووقف طويلا مُسَمرًا في مكانه حتى غابا عن بصره ، وأحسَّ كأنَّ قلبه لم يَعُدْ في مكانه.. كأنَّه رحل مع الرَّاحِلِين... ! ! !

* * *

ومكثت « سُعْدى » في قومها ما شاء الله لها أن تمكُث..

وذات يوم فوجئ الحيُّ.. حيُّ بني مَعْن بإحدى القبائل المناوئة له تُغير عليه ، وتنزل الهزيمة ببني مَعْن ، ثم تحمل فيما حملت من الأسرى ذلك الطفل اليَفَع « زيد بن حارثة »...

وعادت الأم إلى زوجها وحيدة.

ولم يكد « حارثة » يعرف النبأ حتى خرَّ صَعِقًا ، وحمل عصاه على كاهله ، ومضى يجوب الديار ، ويقطع الصحارى ، ويُسَائل القبائل والقوافل عن ولده وحبَّة قلبه زيد ، مُسَلِّيًا نفسه ، وحاديًا ناقته بهذا الشِّعر الذي راح ينشده من بديهته ومن مآقيه :

بكيتُ على زيد ولم أَدْرِ ما فعل
أحيٌّ فيُرْجَى ؟ أم أتى دونه الأجَلْ
فوالله ما أَدْرِي ، وإني لَسَائِلٌ
أَغَالَكَ بَعْدِي السَّهْلُ؟ أم غَالَكَ الْجَبَلْ
تُذَكِّرُنيهِ الشمسُ عند طلوعها
وتَعْرِض ذِكراهُ إذا غَرْبُهَا أَفَلْ
وإن هَبَّتِ الأرواح هيَّجْنَ ذِكره
فيا طولَ ما حُزني عليه . ويا وَجَلْ

* * *

كان الرِّق في ذلك الزمان البعيد يفرض نفسه كظرف اجتماعي يحاول أن يكون ضرورة . .

كان كذلك . في « أثينا » . حتى في أزهى عصور حريتها ورُقِيها . . .

وكان كذلك . في « روما » . . .

وفي العالم القديم كله . . وبالتالي في « جزيرة العرب » أيضًا . .

وعندما اختطفت القبيلة المغيرة عَلَى « بني مُعْن » نَصْرَها . وعادت حامِلةً أسراها . ذهبت إلى « سوق عكاظ » التي كانت منعقدة آنئذ . وباعوا الأسرى . .

ووقع الطفل « زيد » في يد « حكيم بن حزام » الذي وهبه بعد أن اشتراه لعمته « خديجة » .

وكانت خديجة رضي الله عنها . قد صارت زوجة لمحمد بن عبد الله . الذي لم يكن الوحي قد جاءه بعد . بَيْد أنه كان يحمل كل الصفات العظيمة التي أهَّلَتْه بها الأقدار ليكون غدا من المرسلين . . .

ووهَبت خديجة بدورها خادمها « زيدًا » لزوجها « رسول الله » فتقبله مسرورًا وأعْتَقَه من فَوْرِه . وراح يمنحه من نفسه العظيمة ومن قلبه الكبير كل عطف ورعاية . .

وفي أحد مواسم الحج . التقى نَفَر من حَيٍّ « حارثة » بزيد في مكة . ونَقلوا إليه لَوْعة والديه . وحمَّلهم « زيد » سلامه وحنانه وشوقه لأمه وأبيه . وقال للحجّاج من قومه :

[أخبروا أبي أني هنا مع أكرم والد] . . .

ولم يكد والد زيد يعلم مُستقر ولده حتى أغذَّ السَّير إليه . ومعه أخوه . .

وفي مكة مضيا يسألان عن « الأمين محمد » . . ولما لقياه قالا له :

[يا ابن عبد المُطَّلب . . .

« يا ابن سَيِّد قومه . أنتم أهل حرَم . تفكُّون العاني . وتُطْعمون الأسير . . . جئناك في وَلَدِنَا . فامْنُنْ علينا وأحسِنْ في فدائه] . . .

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم تعلق زيد به . وكان في نفس الوقت يُقدِّر حق أبيه فيه . .

هنالك قال لحارثة :

[ادعوا زيدًا . وخيِّروه ، فإن اختاركم فهو لكم بغير فِدَاء . . . وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختارُ عَلَى من اختارني فداء] . . ! !

وتهلّل وجهُ « حارثة » الذي لم يكُن يتوقع كل هذا السَّماح . وقال : « لقد أنصفتنا . وزدْتَنَا عَلَى النَّصَف » . .

ثم بعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى زيد . ولما جاء سأله :

[هل تعرف هؤلاء] . . ؟ ؟

قال زيد : نعم ، هذا أبي . . . وهذا عَمِّي . . .

وأعاد عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ما قاله لحارثة . . . وهنا قال زيد :

[ما أنا بالذي أختار عليك أحدًا . أنت الأبُ . والعمّ] . . . ! !

ونَدِيَتْ عينا رَسُول الله صلى الله عليه وسلم بدموع شاكرة وحَانِية ، ثم أمسك بيد زيد ، وخرج به إلى فِنَاء الكَعبة ، حيث قريش مجتمعة هناك ، ونادى الرسول :

[اشْهَدُوا أنَّ زَيْدًا ابني . . يَرِثني وَأَرِثُهُ] . . . ! !

وكاد قلب « حارثة » يطير من الفرح . . . فابْنُهُ لم يَعُدْ حُرًّا فحسب ، بل وابنًا للرجل الذي تسميه قريش « الصادق الأمين » سليل بني هاشم ، وموضع حفاوة مكة كلها . .

وعاد الأب والعم إلى قومهما ، مطمئنين على ولدهما الذي تركاهُ سَيِّدًا في مكة ، آمنًا ومعافًى ، بعد أن كان أبوه لا يدري : أغالهُ السهلُ ، أم غالَـهُ الجبَل . . ! !

* * *

تبنَّى الرسول زيدًا . . . وصار لا يُعْرَف في مكة كلها إلا باسمه هذا — « زيد بن محمد » . . .

وفي يوم باهر الشُّرُوق ، نادى الوحي محمدًا :

[اقرأ باسم رَبِّك الذي خلَقَ ، خلَقَ الإنسان من عَلَق ، اقرأ ، وَرَبُّك الأكْرَم ، الذي عَلَّم بالقلم . عَلَّم الإنسان ما لم يعلَم] . . .

ثم تتابَعتْ نداءاتُهُ . وكلماتهُ :

[يا أيها المُدَّثِّر . قُمْ فأَنْذِرْ . وربّكَ فكَبِّرْ] . . .

[يا أيها الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إليكَ من رَبِّك . وإن لَمْ تَفْعَلْ فما بلّغتَ رِسَالته . واللهُ يَعْصِمُكَ من الناس . إن اللهَ لا يهدِي القومَ الكافرين] . . .

وما إن حَمَل رسول الله صلى الله عليه وسلم تَبِعَةَ الرسالة حتى كان « زيد » ثانيَ المسلمين . . بل قيل إنهْ كان أوَّلَ المسلمين . . ! ! !

* * *

أحَبَّهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم حُبًّا عظيما . وكان بهذا الحبِّ خَليقًا وجديرًا . . . فوفاؤه الذي لا نظير له . وعظمةُ روحه . وعِفه ضميره ولسانه ويده . . .

كل ذلك وأكثر من ذلك كان يَزِينُ خِصَال « زيد بن حارثة » أو « زيد الْحِبّ » كما كان يُلَقِّبُهُ أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام . . .

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها :

[ما بعثَ رسول الله صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ زيدَ بن حارثة في جيش قطّ إلا أمّرَهُ عليهم . ولو بقي حيًّا بعد الرســـول لاسْتَخْلَفه] . . .

إلى هذا المدى كانت منزلة « زيد » عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

فمن « كان » زيد هذا . . ؟ ؟

إنه – كما قلنا – ذلك الطفل الذي سُبِيَ . ثم بيع . ثم حرّره الرسول وأعتقه . . .

وإنه ذلك الرجل القصير ، الأسمر ، الأفطس الأنْف ، بَيْد أنّه أيضًا

ذلك الإنسان الذي « قَلْبه جميعٌ . ورُوحُه حُرّ » . .

ومن ثمَّ وجد له في الإسلام ، وفي قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلى منزلة وأرفع مكان . فلا الإسلام ولا رسوله من يعبأ لحظة بجاه النسب . ولا بوجاهة المظهر.

ففي رحاب هذا الدين العظيم . يتألق « بلال » ويتألق « صهيب » ويتألق « عمَّار» و« خبّاب » و« أسامة » و« زيد » . .

يتألقون جميعًا كأبرار . وقادة . . .

لقد صحح الإسلام قيم الحياة حين قال كتابه الكريم :

[إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ] . . .

وفتحَ الأبواب والرِّحاب للمواهب الخيِّرة . وللكفايات النظيفة ، الأمينة . المُعْطِية . .

وزوَّج رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدًا من ابنة عمته « زينب »

ويبدو أن « زينب » رضي الله عنها قد قبلت هذا الزواج تحت وطأة حيائها أن ترفض شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم . أو ترغب بنفسها عن نفسه . . .

ولكن الحياة الزوجية أخذت تتعثر . وتستنفد عوامل بقائها . فانفصل زيد عن زينب .

وحملَ الرسول صلى الله عليه وسلم مسئوليته تجاهَ هذا الزواج الذي كان مسئولا عن إمضائه . والذي انتهى بالانفصال . فضمَّ ابنة عمته إليه واختارها زوجة له . ثم اختار لزيد زوجة جديدة هي « أم كلثوم بنت عقْبة » . . .

وذهب الشانئون يُرْجِفون في المدينة : كيف يتزوَّج « محمد » مطلقة ابْنِه زيد ؟ ؟

فأجابهم القرآن مفرِّقًا بين الأدعياء والأبناء . . بين التبنِّي والبنوَّة ، ومقررًا إلغاء عادة التبني ، ومُعْلِنًا :

[ما كانَ محمدٌ أبَا أَحدٍ مِنْ رِجالكم ، ولكنْ رسولَ الله ، وخاتَمَ النبيين] .

وهكذا عاد لزيد اسمه الأول : « زيد بن حارثة » .

* * *

والآن . . .

هل ترون هذه القوات المسلمة ال ارجة إلى معركة « الجموح » . .

إن أميرها هو « زيد بن حارثة » .

وهذه القوات الزاحفة إلى معارك « الطرَف » ، و« الْعِيص » ، و« حِسْمي » ، وغيرها . .

إن أميرها جميعًا ، هوزيد بن حارثة . . .

فهوكما سمعنا السيدة عائشة رضي الله عنها تتحدث من قبل : « لم يبعثه النبي عليه الصلاة والسلام في جيش قط ، إلا جعله أميرَ هذا الجيش » . .

حتى جاءت « غزوة مُؤْتة » . .

كان الروم بامبراطوريتهم الهرِمَة ، قد بدأوا يُوجسون من الإسلام خيفة . . . بل صاروا يرون فيه خطرًا يهدِّدُ وجودهم ، لا سِيَّما في بلاد الشام التي يستعمرونها ، والتي تُتَاخِمُ بلاد هذا الدين الجديد ، المنطلق في

عنفوان واكتساح ... .

وهكذا راحوا يتخذون من الشام نقطة وثوب على الجزيرة العربية ، وبلاد الإسلام . . .

* * *

أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم هدفَ المُنَاوشات التي بدأها الروم ليَعْجُموا بها عود الإسلام ، فقرر أن يُبَادرهم ، وَيُقْنِعهم بتصميم الإسلام على المقاومة . . .

وهكذا . .

وفي جُمادى الأولى من العام الثامن الهجري خرج جيش الإسلام إلى أرض « البَلْقَاء » بالشام ، حتى إذا بلغوا تُخُومَها لقيتهم جيوش هرقل من الروم ومن القبائل المُسْتعربة التي كانت تقطن الحدود . . .

ونزل جيش الروم في مكان يسمى « مَشارف » . . .

بينما نزل جيش الإسلام بجوار بلدة تسمى « مُؤْتَة » ، حيث سميت الغزوَة باسمها . . .

* * *

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدرك أهمية هذة الغزوَة وَخَطَرَها فاختار لها ثلاثة من رُهْبان الليل ، وفرسان النهار . . .

ثلاثة من الذين باعوا لله أنفسهم فلم يَعد لهم مطمع ولا أمنيَّة إلا في استشهاد عظيم يُصَافحون إثرهُ رضْوان الله تعالى ، وَيُطَالعون وجهه الكريم . . .

وكان هؤلاء الثلاثة وَفْقَ ترتيبهم في إمارة الجيش هم :

* زيد بن حارثة

* جعفر بن أبي طالب

* عبد الله بن رَوَاحة

رضي الله عنهم وأرضاهم ، ورضي عن الصحابة أجمعين . . .

وهكذا رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما وقف يُوَدِّع الجيش يُلقي أمره السالف :

[عليكم زيد بن حارثة . . .

فإن أُصِيبَ زيد ، فجعفر بن أبي طالب . . . .

فإن أُصِيبَ جعفر ، فعبد الله بن رَوَاحة] . . .

وعلى الرغم من أن « جعفر بن أبي طالب » كان من أقرب الناس إلى قلب ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم . . .

وعلى الرغم من شجاعته ، وجسارته ، وحَسَبه ونسَبه ، فقد جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمير التالي لـ « زيد » . وجعل « زيدًا » الأمير الأول للجيش . . .

وبمثل هذا ، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يُقرر دومًا حقيقةَ أن الإسلام دين جديد جاء يُلْغي كل العلاقات الإنسانية الفاسدة ، والقائمة على أسس من التمايز الفارغ الباطل ، لينشئ مكانها علاقات جديدة ، رشيدة ، قوامها إنسانية الإنسان . . ! !

* * *

ولكأنما كان رسول الله عليه السلام يقرأ غيب المعركـــــة المقبلة

حين وضع أمراء الجيش على هذا الترتيب : زيد ، فجعفر ، فابن رَوَاحَة . . فقد لَقوا ربهم جميعًا وَفْقَ هذا الترتيب أيضًا . . ! !

ولم يكد المسلمون يطالعون جيش الروم الذي حزروه بمائتي ألف مقاتل حتى أذهلهم العدد الذي لم يكُن لهم في حساب . . .

ولكن متى كانت معارك الإيمان معارك كثرة . . ؟ ؟

هنالكَ أقدموا ولم يُبَالُوا . . . وأمامهم قائدهم « زيد » حاملاً راية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مُقْتحمًا رماح العدو ونبالَه وسيوفه ، لا يبحث عن النصر ، بقدر ما يبحث عن المَضْجَع الذي ترسُو عنده صفقته مع الله الذي اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالَهم بأن لهم الجنة .

لم يكن « زيد » يرى حواليه رمال البلقاء ، ولا جيوش الروم بل كانت روابي الجنة ، وَرَفْرَفها الْخُضْر ، تخفق أمام عينيه كالأعلام ، تُنْبِئُه أن اليوم يومُ زِفَافِه . . .

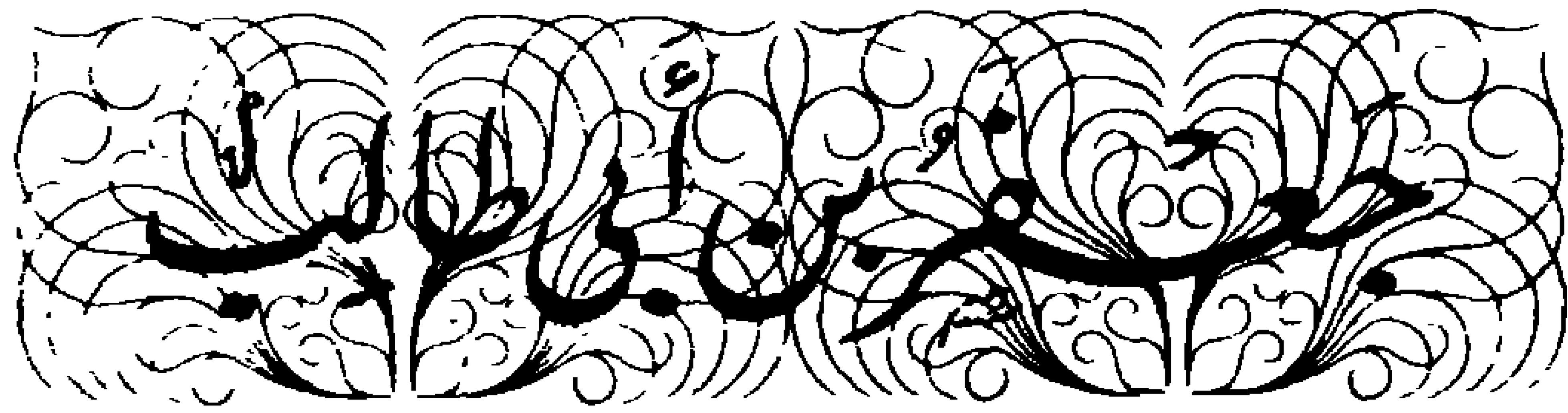
وكان وهو يضرب ، ويقاتل ، لا يُطَوِّح رءوس مقاتليه ، إنما يفتحُ الأبواب ، ويفضُّ الأغلاق التي تحول بينه وبين الباب الكبير الواسع ، الذي سَيُدْلِفُ منه إلى دار السلام ، وجنات الخلد ، وجوار الله . .

وعانق « زيد » مصيره . . .

وكانت روحه وهي في طريقها إلى الجنة تبتسم محبورة وهي تبصرُ جثمان صاحبها ، لا يلفه الحرير الناعم ، بل يُضَمِّخه دم طهور سال في سبيل الله . . .

ثم تتسع ابتسامتها المطمئنة الهانئة ، وهي تبصر ثاني الأمراء « جعفرًا » يندفع كالسهم صَوْب الراية ليتَسلَّمها ، وليحملها قبل أن تغيب في التراب . .





أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي..



انظروا جلالَ شَبابه . .

انظروا نَضرة إهابه . .

انظروا أناتَه وَحِلمَه . . حدَبَه . . وبِرَّه . . تواضُعه وَتقَاه . .

انظروا شجاعته التي لا تعرف الخوف . . . وَجُودَه الذي لا يخاف الفقر . . .

انظروا طهره وَعِفَّته . .

انظروا صِدْقه وأمانته . .

انظروا فيه كل رائعة من روائع الحسن ، والفضيلة ، والعظمة ، ثم لا تَعجبوا ، فأنتم أمامَ أشْبَهِ الناس بالرسول خَلْقًا ، وَخُلُقًا . .

أنتم أمام مَن كَنَّاه الرسول بـ « أَبي المساكين » . .

أنتم تِجَاهَ مَن لَقَبَه الرسول بـ « ذي الْجَنَاحَيْن » . .

أنتم تِلْقَاءَ « طائر الجنة » الغِرِّيد . . جَعْفَر بن أبي طالب . . ! ! عظيم من عظماء الرَّعيل الأول الذين أَسْهموا أعظم إسْهام في صَوْغ ضمير الحياة . . ! !

* * *

أقبل على الرسول صلى الله عليه وسلم مُسْلِمًا ، آخذًا مكانه العالي بين المؤمنين المُبكِّرين . .

وأسْلَمت معه في نفس اليوم زوجته « أَسماء بنت عُمَيْس » . .

وحملا نصيبهما من الأذى ، ومن الاضطهاد في شجاعة وغِبْطَة . . .

فلما اختار الرسول لأصحابه الهجرة إلى الحبشة ، خرج جعفر وزوجه حيث لَبثا بها سنين عَددا ، رُزِقا خلالها بأولادهما الثلاثة – محمد ، وعبد الله . وعَوْف . . .

* * *

وفي الحبشة كان « جعفر بن أبي طالب » المتحدثَ اللَبِقَ ، المُوَفّقَ باسم الإسلام ورسوله . .

ذلك أن الله أنعم عليه – فيما أَنعم – بذكاء القلب ، وإشراق العقل ، وفِطْنة النفس ، وفصاحة اللِّسان . .

ولَئن كان يوم « مُؤْتة » الذي سيقاتل فيه فيما بعد حتى يستشهد . . . أَروع أَيامه وأمجدها وأخلدها . .

فإن يوم « المحاوَرَة » التي أَجراها أمام النجاشي بالحبشة ، لن يقلَّ روعة ، ولا بهاء ، ولا مجدًا . .

لقد كان يومًا فَذًّا ، ومَشهدًا عجبًا . .

* *

وذلك أَن قريشًا لم يُهدِّئ من ثورتها ، ولم يُذْهِب مِن غَيظها ، ولم يُطامِنْ من أحقادها ، هجرةُ المسلمين إلى الحبشة ، بل خَشِيَتْ أن يقوى هناك بأسُهم ، ويتكاثَر جمعهم . . وحتى إذا لم تُواتِهِمْ فرصة التكاثُر والقوَّة ، فقد عزَّ على كبريائها أَن ينجو هؤلاء من نقمتها ، ويُفلِتُوا من قبضتها . . . ويظلوا هناك في مُهَاجَرِهم أَملا رحْبًا تهتز له نفس الرسول ، وينشرح له

صدر الإسلام . .

هنالك قرر سادتها إرسال مبعوثَين إلى النجاشي يحملان هدايا قريش النفيسة ، ويحملان رجاءها في أن يُخرج من بلاده هؤلاء الذين جاءوا إليها لا ئذين ومستجيرين . . .

وكان هذان المبعوثان : عبد الله بن أبي ربيعة . وعمرو بن العاص . وكانا لم يُسْلما بعد . . .

* * *

كان « النجاشي » الذي كان يجلس أيامئذ على عرش الحبشة ، رجلا يحمل إيمانًا مستنيرًا . . وكان في قرارة نفسه يعتنق مسيحية صافية واعية ، بعيدة من الانحراف . نائية عن التعصب والانغلاق . .

وكان ذِكْرُهُ يسبقه . . وسيرته العادلة . تنشر عبيرها في كل مكان تبلغه . .

من أجل هذا . اختار الرسول صلى الله عليه وسلم بلاده دار هجرة لأصحابه . . .

ومن أجل هذا ، خافت قريش ألا تَبلُغ لديه ما تريد فحمَّلت مَبْعُوثَيْها هدايا ضخمة للأساقفة . وكبار رجال الكنيسة هناك . وأوصى زعماء قريش مبعوثيهم ألّا يقابلا النجاشي حتى يعطيا الهدايا للبطارقة أولا ، وحتى يُقْنِعاهُم بوجهة نظرهما ؛ ليكونوا لهما عَوْنًا عند النجاشي .

وحَطَّ الرسولان رحالهما بالحبشة ، وقابلا بها الزعماء الروحانيين كافةً ، ونَثَرا بين أيديهم الهدايا التي حملاها إليهم . . ثم أرسَلا للنجاشي هداياه .

ومَضيًا يُوغِران صدور القسُس والأساقفة ضد المسلمين المهاجرين ، ويستنجدان بهم لحمل النجاشي على إخراجهم من بلاده .

وحُدِّدَ يومٌ يَلْقيان فيه النجاشي . ويُواجهان بين يديه خُصوم قريش الذين تُلاحِقُهم بكيدها وأذاها .

* * *

وفي وقار مهيب ، وتواضع جليل ، جلس « النجاشي » على كرسيه العالي ، تحفُّ به الأساقفة ورجال الحاشية ، وجلس أمامه في البهوالفسيح ، المسلمون المهاجرون ، تَغْشَاهُم سَكِينَةُ الله . وتُظِلُهُمْ رَحْمتهُ . . ووقف مبعوثا قريش يكرّران الاتهام الذي سبق أن ردَّدَاه أمام « النجاشي » حين أذن لهم بمقابلة خاصة قبل هذا الاجتماع الحاشد الكبير :

« أيها الملك . . إنه قد ضَوَى إلى بلدك غلمان سُفَهاء ؛ فارقوا دين قومهم ولم يدخُلوا في دينك ، بل جاءوا بدين ابتدعوه . لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعَثنا إليك فيهم أشرافُ قومهم من آبائهم ، وأعمامهم ، وعشائرهم ، لتردَّهُم إليهم » . . .

وولّى النجاشي وجهه شَطْر المسلمين ، ملقيًا عليهم سؤاله :

« ما هذا الدين الذي فارقْتم فيه قومكُم ، واستَغْنيتم به عن ديننا » . . ؟

ونهض « جعفر » قائمًا . . ليؤدي المهمة التي كان المسلمون المهاجرون قد اختاروه لها إبَّان تشاوُرهم ، وقبل مجيئهم إلى هذا الاجتماع . .

نهض « جعفر » في تؤدَةٍ وجلال ، وألقى نظراتٍ مُحِبَّةٍ على الملك الذي أحسن جوارهم وقال :

[يا أيها الملك . . .

« كنّا قومًا أهْلَ جاهلية : نعبدُ الأصنام ، ونأكل المَيْتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونُسِيءُ الجوار ، ويأكل القويُّ منا الضعيف . . حتى بعث الله إلينا رسولاً مِنّا ، نعرف نسَبَه ، وصِدْقه ، وأمَانَتَه ، وعفافه ، فدعانا إلى اللهِ لنوحِّده ونعبُدَه ، ونخلعَ ما كُنّا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان . . .

« وأمَرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصِلَةِ الرَّحم ، وحُسْن الجوار ، والكَفِّ عن المحارم والدماء . .

« ونهانا عن الفواحش ، وقَوْلِ الزُّور ، وأكْلِ مال اليتيم ، وقذْفِ المُحْصنات . . فَصَدَّقْنَاه وآمنَّا به ، واتبعناه على ما جاءه من ربه ، فعَبدْنَا الله وحده ولم نُشْرِك به شيئًا ، وحرَّمْنَا ما حرَّمَ علينا ، وأحْلَلْنَا ما أحلَّ لنا ، فغدا علينا قَوْمُنا ، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ، ليردُّونا إلى عبادة الأوثان ، وإلى ما كُنّا عليه من الخبائث . . .

« فلما قهرونا ، وظلمونا ، وضيَّقُوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ورغِبنا في جوارك ، ورَجَوْنا ألّا نُظلَمَ عندك] . . .

* * *

ألقى « جعفر » بهذه الكلمات المسْفرة كضوء الفجر ، فملأت نفس جاشي إحساسًا وروعة . . والتفت إلى « جعفر » وسأله :

« هل معك مما أُنزل على رسولكم شيءٌ » . . ؟ ؟

قال جعفر : نعم . .

قال النجاشي : فاقرأْهُ عليَّ . .

ومضى « جعفر » يتلو آيات من سورة مريم ، في أداء عَذْب ، وخُشوع آسر . . فبكى النجاشي . . وبكى معه أساقِفَتُهُ جميعًا . .

ولما كَفْكَفَ دُموعه الهاطلة الغزيرة ، التفت إلى مبعوثي قريش ، وقال :

[إن هذا ، والذي جاء به عيسى ، ليَخرج من مِشْكَاةٍ واحدة . . . انطلقا فلا والله ، لا أُسْلِمْهُمْ إليكما] . . . ! ! !

* * *

انفضَّ الجمع ، وقد نصر الله عباده وآزرهم ، بينما رُزِئَ مندوبا قريش بهزيمة مُنكرة . . .

لكن « عمرو بن العاص » كان داهيةً واسعَ الحيلة ، لا يتجرَّع الهزيمة ، ولا يُذعن لليأس . .

وهكذا لم يكد يعود مع صاحبه إلى نُزُلهما ، حتى ذهب يفكر ويُدبّر ، وقال لزميله :

« واللهِ لأرجعن للنجاشي غدًا ، ولآتينّه عنهم بما يَسْتَأْصِلُ خَضْرَاءَهم » . . .

وأجابه صاحبه : « لا تفعل ، فإن لهم أرحامًا ، وإن كانوا قد خالفونا » . . .

قال عمرو : « والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد ، كبقية العِباد » . . .

هذه إذن هي المكيدة الجديدة التي دبَّرها مبعوث قريش للمسلمين كي يلجئهم إلى الزاوية الحادَّة ، ويضعهم بين شِقَّيِ الرَّحى ؛ فإن هم قالوا : إن عيسى عبد من عباد الله ، حركوا ضدهم أضغان الملك والأساقفة . . . وإن هم نَفَوْا عنه البشرية ، خرجوا من دينهم . . . ! !

* * *

وفي الغداة أغَذّا السير إلى مقابلة الملك ، وقال له عمرو :

« أيها الملك : إنهم ليقولون في عيسى قولاً عظيمًا » . . .

واضطرب الأساقفة . . .

واهتاجتهم هذه العبارة القصيرة . . .

ونادوا بدعوة المسلمين – مرة أخرى – لسؤالهم عن موقف دينهم من المسيح . . .

وعلم المسلمون بالمؤامرة الجديدة ، فجلسوا يتشاورون . . .

ثم اتفقوا على أن يقولوا الحق الذي سمعوه من نبيهم عليه الصلاة والسلام ، لا يحيدون عنه قيد شعرة ، وليكن ما يكون . . ! !

وانعقد الاجتماع من جديد ، وبدأ النجاشي الحديث سائلا جعفر :

[ماذا تقولون في عيسى] . . ؟ ؟

ونهض « جعفر » مرة أخرى كالمنار المضيء وقال :

[نقولُ فيه ما جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم : هو عَبْدُ الله ورسولُه ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، ورُوحٌ منهُ] . . .

فهتف النجاشي مُصَدِّقًا ومُعْلِنًا أن هذا هو ما قاله المسيحُ عن نفسه . . .

لكنّ صفوف الأساقفة ضَجَّت بما يُشْبه النكير . . .

ومضى النجاشيُّ المستنيرُ المؤمن يتابع حديثه قائلا للمسلمين :

[اذهبوا ، فأنتم آمنون بأرضي ، ومن سبَّكم أو آذاكم ، فعليه غُرْمُ ما يفعل] . .

ثم التفتَ صَوْب حاشيته ، وقال وسبَّابَتُهُ تشيرُ إلى مَبعوثَيْ قريش :

[ردُّوا عليهما هداياهُما ، فلا حاجة لي بها . .

« فوالله ما أخَذَ الله مني الرِّشوة حين ردَّ عَلَيَّ مُلكي ، فآخذ الرِّشوة فيه] . . . ! !

وخرج مبعوثا قريش مخذولَيْن ، حيث وَلّيَا وجهيهما من فورهما شطر مكة عائدين إليها . . .

وخرج المسلمون بزعامة « جعفر » ليستأنفوا حياتهم الآمنة في الحبشة ، لابثين فيها كما قالوا : « بخير دار . . مع خير جار . . » حتى يأذن الله لهم بالعودة إلى رسولهم وإخوانهم وديارهم . .

* * *

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحتفل مع المسلمين بفتح « خيبر » حين طلع عليهم قادمًا من الحبشة « جعفر بن أبي طالب » ومعه مَن كانوا لا يزالون بالحبشة من المهاجرين . .

وأُفْعِمَ قلبُ الرسول عليه الصلاة والسلام بمقدمه غبطة ، وسعادة ، وبشرًا . . .

وعانقه النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول :

[لا أدري بأيِّهما أنا أُسَرُّ : بفتح خَيْبر . . . أم بقـــدوم جَعْفر . . .]

وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه إلى مكة ، حيث اعتمروا عُمْرة القضاء ، وعادوا إلى المدينة ، وقد امتلأت نفس « جعفر » روعة بما سمع من أنباء إخوانه المؤمنين الذين خاضوا مع النبي صلى الله عليه وسلم غزوة « بدر » ، و« أُحُد » . . . وغيرهما من المشاهد والمغازي . . . وفاضت عيناه بالدمع على الذين صَدَقوا ما عاهدوا الله عليه ، وقَضَوْا نحبهم شهداء أبرارًا . . .

وطار فؤاده شوقًا إلى الجنة ، وأخذ يتحين فرصة الشهادة ، ويترقب لحظتها المجيدة . . ! !

* * *

وكانت « غزوة مؤتة » التي أسلفنا الحديث عنها ، تتحرك راياتها في الأفق مُتَأَهِّبة للزحف ، وللمسير . . .

ورأى « جعفر » في هذه الغزوة فرصة العمر ، فإمَّا أن يحقق فيها نصرًا كبيرًا لدين الله ، وإما أن يظفر باستشهاد عظيم في سبيل الله . . .

وتقدم من رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجُوه أن يجعل له في هذه الغزوة مكانًا . . .

كان « جَعْفَر » يعلم علم اليقين أنها ليست نزهة . . . بل ولا حربًا صغيرة . . إنما هي حرب لم يَخُضِ الإسلام مثلها من قَبْلُ . . . حرب مع جيوش امبراطورية عريضة باذخة ، تملك من العتاد والأعداد ، والخبرة والأموال ما لا قِبَلَ للعرب ولا للمسلمين به ، ومع هذا طار قلبه

شوقًا إليها ، وكان ثالثَ ثلاثة جَعلهم الرسول قواد الجيش وأُمراءه . . .

وخرج الجيش ، وخرج جعفر معه . . .

والتقى الجمعان في يوم رهيب . . .

وبينما كان من حق « جعفر » أن تأخذه الرهبة عندما بَصُر بجيش الروم ينتظم مائتي ألف مُقاتل ، فإنه على العكْس ، أخذته نَشْوَة عارمة إذ أحسَّ في أَنَفَةِ المؤمن العزيز ، واعتداد البطل المقتدر أنه سَيقاتلُ أكْفاءً له وأندادًا . . . ! !

وما كادت الراية توشك على السقوط من يمين « زيد بن حارثة » ، حتى تلقاها « جعفر » باليمين . . . ومضى يقاتل بها في إقدام خارق . . ا إقدام رجل لا يبحث عن النصر ، بل عن الشهادة . . .

وتكاثر عليه وحوله مقاتلة الروم ، ورأى فرسه تعوق حركته فاقْتحَم عنها فنزل . . . وراح يُصَوب سيفه ويُسَدِّده إلى نحور أعدائه كنقمـة القَدَر . . . ولمح واحدًا من الأعداء يقترب من فرسه ليَعْلو ظهرها ، فعزَّ عليه أن يمتطي صهوتها هذا الرِّجس ، فبسط نحوها سيفه ، وعَقَرَها . . . ! !

وانطلَق وسط صفوف الروم المتكالبة عليه يُدَمْدِمُ كالإعصار ، وصوته يتعالَى بهذا الرَّجَز المتوهج :

يا حَبَّــذَا الجنةُ واقترابُهـا طَيِّبَــةً ، وباردًا شرابُهــا
والروم رُومٌ ، قد دنا عذابُها كافرةٌ بعيــدةٌ أنسابُهــا

عَلَيَّ إذْ لَاقَيْتُها ضِرابُهـا

وأدرك مُقاتلو الروم مقدرة هذا الرجل الذي يُقاتل ، وكأنه جيشٌ لَجِب . . .

وأحاطوا به في إصرارٍ مجنون على قتله .. وحُوصِر بهم حصارًا لا منفذ فيه لنجاة ..

وضربوا بالسيوف يمينه ، وقبل أن تسقط الراية منها على الأرض تلقاها بشماله .. وضربوها هي الأخرى ، فاحتضن الراية بِعَضُدَيْه ..

في هذه اللحظة تركَّزت كل مسئوليته في ألّا يدعَ راية رسول الله صلى الله عليه وسلم تلامِسُ التراب وهو حيّ ..

وحين تكوَّمَتْ جثته الطاهرة ، كانت سارية الراية مغروسة بين عَضُدَيْ جُثْمانه ، ونادت خَفَقَاتُها « عبد الله بن رواحة » فشق الصفوف كالسهم نحوها ، وأخذها في قوة ، ومضى بها إلى مَصيرٍ عظيمٍ .. ! !

* * *

وهكذا ، صنع « جعفر » لنفسه موتة من أعظم مَوْتات البشر .. ! !

وهكذا لقي ربه الكبير المُتعال ، مُضَمَّخًا بفدائيته ، مُدَثَّرًا ببطولته ..

وأنبأ العليمُ الخبير رسوله بمصير المعركة ، وبمصير جعفر ، فاستودعه الله ، وبكى ..

وقام إلى بيت ابن عمه ، ودعا بأطفاله وبنيه ، فَتَشَمَّمَهُم ، وَقَبَّلَهم ، وَذرِفَتْ عيناه ...

ثم عاد إلى مجلسه ، وأصحابه حافُّون به ، ووقف شاعر الإسلام « حسَّان بن ثابت » يرثي جعفرًا ورفاقه :

غَداةَ مَضَوْا بالمؤمنين يقودهم
إلى الموتِ مَيمونُ النَّقيبة أزهَرُ
أغَرّ كضوء البدر من آل هاشم

فطاعَنَ حتى مالَ غيرَ مُوَسَّدِ
أبيٌّ إذا سِيمَ الظُّلامَةَ . مِجْسَرُ

فصــــار مع المستشهدين ثوابه
لمعترك فيـــه القَنــا يتكسَّرُ

وكُنا نرى في جعفر مــن محمدٍ
جنانٌ ، ومُلْتفُّ الحدائق أخضَرُ

فما زال في الإسلام من آل هاشم
وفاءً وأمرًا حازمًا حين يأمرُ

دعائمُ عزٍّ لا يَزُلْنَ ومفْخَــرُ

وينهض بعد « حسَّان » ، « كعب بن مالك » . فيرسِلُ شِعره الجزْل

وَجْدًا على النَّفرِ الذين تتابَعــوا
يومًا بمؤتة . أُسْنِدُوا لم يُنقلــوا

صلى الإلٰهُ عليهمُو من فتيــة
وســقى عظامَهم الغمامُ المُسْبِلُ

صَبَرُوا بمُؤْتَةَ للإلٰهِ نفوسَهــم
حذرَ الرَّدى ، ومخافةً أن يَنْكُلوا

إذ يهتـــــدون بجعفر ولواؤه
قُدَّام أَوَّلِهم ، فَنِعْــــم الأوَّلُ

حتى تفرَّجت الصفوف وجعفر
حيث الْتقى وعْث الصفوف مُجَدَّل

فتغير القمرُ المنــــير لِفَقده

والشمس قد كَسَفَتْ ، وكادَت تأفِل

* * *

وذهب المساكين جميعًا يبكون أباهم . . فقد كان جعفر رضي الله عنه « أبا المساكين » . .

يقول أبو هريرة :

[كان خير الناس للمساكين جعفر بن أبي طالب] . . .

أجل ، كان أجود الناس بماله وهو حَيّ . . فلما جاء أجلُه أبى إلا أن يكون من أجود الشُهداء وأكثرهم بَذْلاً لروحه وحياته . .

يقول عبد الله بن عمر :

[كنتُ مع جعفر في غزوة مُؤْتة ، فالْتَمسناه ، فوجدناه وبه بضع وتسعون ما بين طعنة ورَمْية] . . ! !

بضع وتسعون طعنة سيف ، ورمية رُمح . . ؟ ؟ ! !

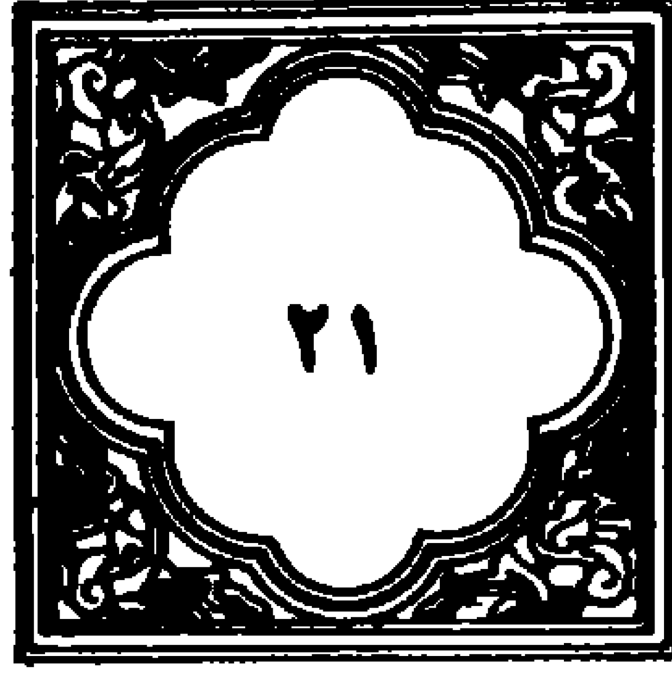
ومع هذا ، فهل نال القتلة من روحه ومن مصيره مَنالا . . ؟ ؟

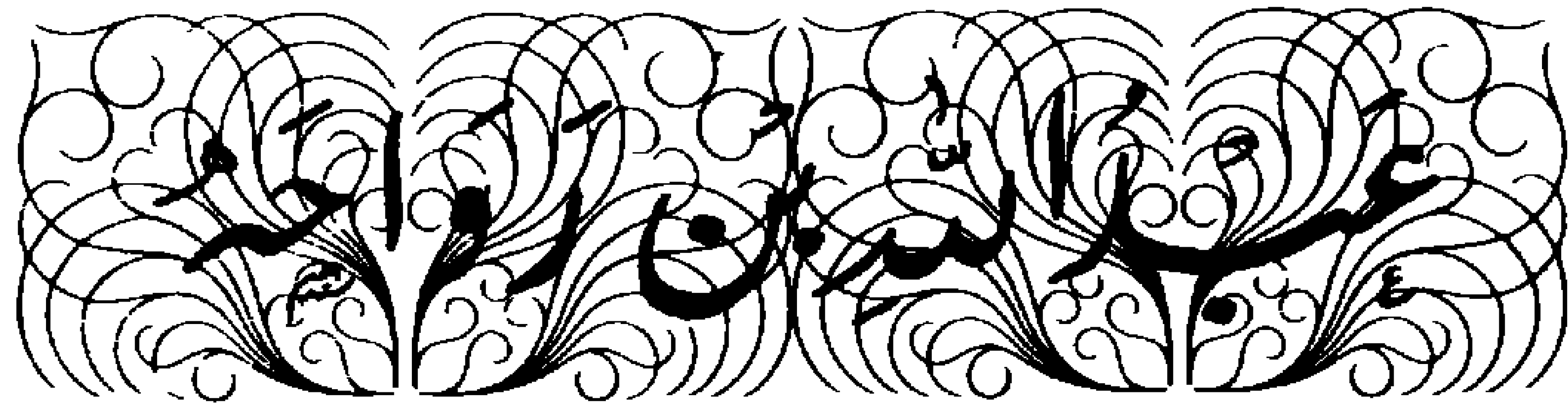
أبدًا . . . وما كانت سيوفهم ورماحهم سوى جِسْر عبَر عليه الشهيد المجيد إلى جوار الله الرحيم الأعلى ، حيث نزل في رحابه مكانًا عَلِيًّا . .

إنه هنالك في جنان الخُلْد ، يحمل أوسمة المعركة على كل مكان من جسدٍ أنهكَتْه السيوف والرماح . .

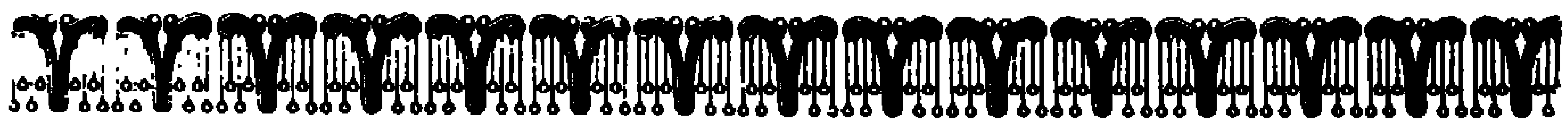
وإن شئتم ، فاسمعوا قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[لقد رأيتُه في الجنَّة . . له جناحان مُضَرَّجان بالدماء . . مَصْبُوغ القوادِمِ] . . . ! ! !





يَا نَفْسُ، إِلَّا تُقْتَلِي تَمُوتِي!!



عندما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يجلس مُستخفِيًا من كفار قريش مع الوفد القادم من المدينة هناك عند مشارف مكة ، يُبايع اثني عشر نقيبًا من الأنصار بَيْعَة العقَبَةِ الأولى ، كان « عبد الله بن رَوَاحة » واحدًا من هؤلاء النُّقَباء – حَمَلَةِ الإسلام إلى المدينة ، والذين مهَّدت بيعتهم هذه للهجرة التي كانت بِدَوْرها مُنطَلقًا رائعًا لدين الله ، الإسلام . . .

وعندما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يُبايع في العام التالي ثلاثة وسبعين من الأنصار أهل المدينة بَيْعَةَ العَقَبة الثانية ، كان « ابن رواحة » العظيم واحدًا من النُّقَباء المبايعين . . .

وبعد هجرة الرسول وأصحابه إلى المدينة واستقرارهم بها ، كان عبد الله بن رواحة من أكثر الأنصار عملا لِنُصرة الدين ودَعْم بِنائه ، وكان من أكثرهم يقظة لمكايد عبد الله بن أُبَيّ الذي كان أهل المدينة يتهيأون لتتويجه ملكا عليها قبل أن يهاجر الإسلام إليها ، والذي لم تُبارِحْ حُلْقومَه مرارةُ الفرصة الضائعة ، فمضى يستعمل دهاءه في الكيد للإسلام .

بينما مضى عبد الله بن رواحة يتعَقَّب هذا الدهاء ببصيرة مُنيرة ، أفْسدت على « ابن أُبَيّ » أكثر مُناوراته ، وشَلَّت حركة دهائه . . ! !

وكان « ابن رَوَاحَة » رضي الله عنه ، كاتبًا في بيئة لا عَهْد لها بالكتابة إلا يسيرًا . .

وكان شاعرًا ، ينطلق الشعر من بين ثناياه عَذْبًا قويا . .

ومنذ أسلَم . وضع مَقدرته الشعرية في خدمة الإسلام . .

وكان الرسول يحب شِعره ويستزيده منه . .

جلس عليه السلام يومًا مع أصحابه ، وأقبل عبد الله بن رواحة ، فسأله النبي :

[كيف تقول الشِّعر إذا أردتَ أن تقول] . . ؟ ؟

فأجاب عبد الله : [أنظُر في ذاك ثم أقول] . .

ومضى على البديهة ينشد :

يا هاشمَ الخـــير إن الله فضّلكم
على البرية فضـــــلاً ما له غِيَرُ
إني تفرّستُ فيك الخـــير أعرفُه
فِراســـةً خالَفتهمْ في الذي نظروا
ولو سألْتَ أو استنْصَرت بعضهمو
في حلِّ أمرك ما رَدُّوا ولا نَصَروا
فثبَّت اللهُ ما آتاك من حَسَنٍ
تثبيت موسى ونَصْرًا كالذي نُصِرُوا

فسُرَّ الرسول ورضي وقال له :

[وإياك ، فَثَبَّتَ الله] . .

وحين كان الرسول عليه الصلاة والسلام يطوف بالبيت في عمرة القضاء كان ابن رواحة بين يديه ينشد من رجَزه :

يا رب لولا أنت ما اهتدَيْنا ولا تصـــدَّقْنا ولا صلَّيْنــا
فأنْزِلَنْ سَكينةً علينـــــا وثَبِّت الأقدام إن لاقَيْنــا

إن الّذِين قد بَغْوا علينـــا إذا أرادوا فتنـــةً أبَيْنا

وكان المسلمون يرددون انشودته الجميلة . .

ويحزن الشاعر المُكْثِر ، حين تنزل الآية الكريمة :

[والشُّعراءُ يَتبعهم الغاوَون] . .

ولكنه يَسْتَرِدُّ غِبْطَة نفسه حين تنزل آية أخرى :

[إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكَروا اللهَ كثيرًا ، وانتَصروا من بعد ما ظُلموا . . .]

* * *

وحين يُضطر الإسلام لخوض القتال دفاعًا عن نفسه ، يحمل « ابن رَوَاحة » سيفه في مَشاهِد « بَدْر » و« أُحُد » و« الخندق » و« الحُدَيْبِيةَ » و« خَيْبر » جاعلاً شعاره دَوْمًا هذه الكلمات من شعره وقَصِيدِه :

[يا نَفْسُ إلّا تُقْتَلي تَموُتي] . . .

وصائحًا في المشركين في كل معركة وغَزَاة :

خَـــلُّوا بَني الكُفّارِ عن سبيله

خلّوا ، فكُلُّ الخـــير في رسولهِ

* * *

وجاءتْ غزوة « مُؤْتَة » . .

وكان عبد الله ثالث الأمراء ، كما أسلفنا في الحديث عن « زيد » و« جعفر » . .

ووقف « ابن رواحة » رضي الله عنه والجيش يتأهَّب لمغادرة المدينة . .

وقف يقول وينشد :

لكنني أسأل الرحمن مغفـرةً وضَرْبة ذات فَرْع تَقْذف الزَبدا
أو طعنةً بيديْ حرَّانَ مُجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكَبِدا
حتى يُقال إذا مرُّوا على جَدَثي يا أرشَدَ اللهُ من غازٍ ، وقد رشَدا

أجَلْ . . تلك كانت أُمنيته ، ولا شيءَ سواها . . ضربة سيف أو طعنة رُمح ، تنقُله إلى عالم الشُهداء الظافرين . . ! !

* * *

وتحرَّك الجيش إلى مُؤتة ، وحين استشرف المسلمون عدوَّهم حَزرُوا جيش الروم بمائتي ألف مقاتل . . . إذ رأَوْا صفوفا لا آخر لها ، وأعدادًا تفوق الحصر والحساب . . ! !

ونظر المسلمون إلى عددهم القليل ، فوَجِموا . . وقال بعضهم :

« فلْنبعث إلى رسول الله ، نخبره بعدد عدونا ، فإما أن يُمدَّنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بالزحف فنطيع » . .

بَيْدَ أَنَّ « ابن رَوَاحة » نهض وسْط صفوفهم كالنّهار ، وقال لهم :

[يا قوم . . .

« إنّا والله ، ما نُقاتل أعداءنا بعَدَد ، ولا قوة ، ولا كَثْرة . . .

« ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكْرمنا الله به . . .

« فانطلقوا . . . فإنما هي إحدى الحُسْنَيَيْنِ – النصر ، أو الشهادة] . . .

وهتف المسلمون الأقلون عددًا ، الأكثرون إيمانًا ، . . .

هتفوا قائلين :

[قد واللهِ ، صدق ابنُ رَوَاحَةَ] . . .

ومضى الجيش إلى غايته ، يلاقي بعدده القليل مائتي ألف ، حشدهم الروم للقتال الضّاري الرهيب . . .

* * *

والْتقى الجيشان كما ذكَرنَا من قبل . . .

وسقط الأمير الأول « زيد بن حارثة » شهيدًا مجيدًا . .

وتلاه الأمير الثاني « جعفر بن أبي طالب » حتى أدرك الشهادة في غِبْطة وعَظمة . . .

وتلاه ثالث الأمراء « عبد الله بن رَوَاحَة » فحمل الراية من يمين « جعفر » . . . وكان القتال قد بلغ ضراوته ، وكادت القلة المسلمة تتوهُ في زحام الجيش العَرَمْرَمِ اللَّجِب ، الذي حشدَهُ هِرْقَل . . .

وحين كان « ابن رَوَاحة » يقاتل كجندي ، كان يصول ويجول في غير تَردُّد ولا مُبالاة . . .

أما الآن . . . وقد صار أميرًا للجيش ومسئولاً عن حياته ، فقد بدا أمام ضَرَاوة الروم ، وكأنما مَرَّت به لَمْسةُ تردُّدٍ وتهيُّب ، لكنه ما لبث أن استجاش كل قُوَى المخاطرة في نفسه وصاح . . .

أقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلِنَّـــه ما لي أراكِ تكرَهِينَ الجنَّه ؟ ؟

يا نفسُ إلا تُقْتَـــلي تموتي هذا حِمَام الموتِ قد صَلِيتِ

وما تَمنَّيْتِ فقــد أُعْطِيتِ   إن تَفْعــلي فعلهما هُدِيتِ

يعني بهذا صاحبيه اللذيْنِ سبقاه إلى الشهادة : زيدا ، وجعفر . . .

* إن تَفْعَلي فِعْلَهُمَا هُدِيتِ . . . *

وانطلق يعصف بالروم عَصْفًا . . .

ولولا كتابٌ سَبَق بأن يكون اليومَ موعدُهُ مع الجنة ، لظلَّ يضرب بسيفه حتى يُفْني الجموع المقاتلة . . . لكن ساعة الرحيل دقت معلنة بَدْءَ مسيرته إلى الله ، فَصَعَد شهيدًا . . .

هوى جَسَدُه ، فصعدت إلى الرفيق الأعلى رُوحُه المستبسلة الطاهرة . . .

وتحققت أغلى أمانيه :

حتى يُقالَ إذا مَرُّوا على جَدَثي

يا أَرْشَد اللهُ من غازٍ ، وقد رَشَدَا

نعم . . يا ابن رَوَاحة . .

يا أرشَدَ اللهُ من غازٍ ، وقَدْ رَشدا . . ! ! !

* * *

وبينما كان القتالُ يدور فوق أرض البلقاء بالشام ، كان رَسُول الله صلى الله عليه وسلم يجلسُ مع أصحابه في المدينة ، يُحَادِثهم ويُحادِثونه . . .

وفجأة ، والحديث ماضٍ في تهلل وطمأنينة ، صمت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأَسْبَل جَفنيه قليلا . . . ثم رفعهما لينطلق من عينيه بريق ساطع يُبَلِّله أَسًى وحنان . . ! !

وطَوَّفَتْ نظراته الآسية بوجوه أصحابه وقال :

[أخذَ الرَّاية « زيد بن حارثة » فقاتل بها حتى قُتِلَ شهيدًا . . .

« ثم أخذَها « جعفر » فقاتل بها ، حتى قُتلَ شهيدًا .

وصمت قليلا ، ثم استأنف كلماته قائلا :

« ثم أخذَها « عبد الله بن رَوَاحة » فقاتل بها ، حتى قُتِلَ شهيدًا] . . .

ثم صمت قليلاً ، وتألَّقت عيناهُ بومض متهلِّلٍ ، مطمئن ، مشتاق ، ثم قال :

[لقد رُفِعُوا إلَيَّ في الجنَّة] . . . ! !

أيَّة رِحْلة مجيدة كانت . . .

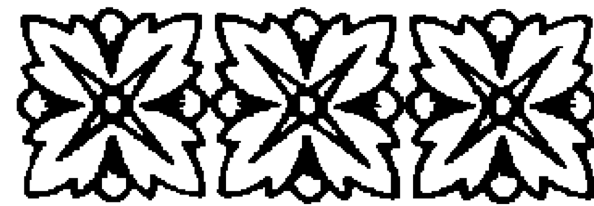
وأيُّ اتفاق سعيد كان . . .

لقد خرجوا إلى الغزو معًا . . .

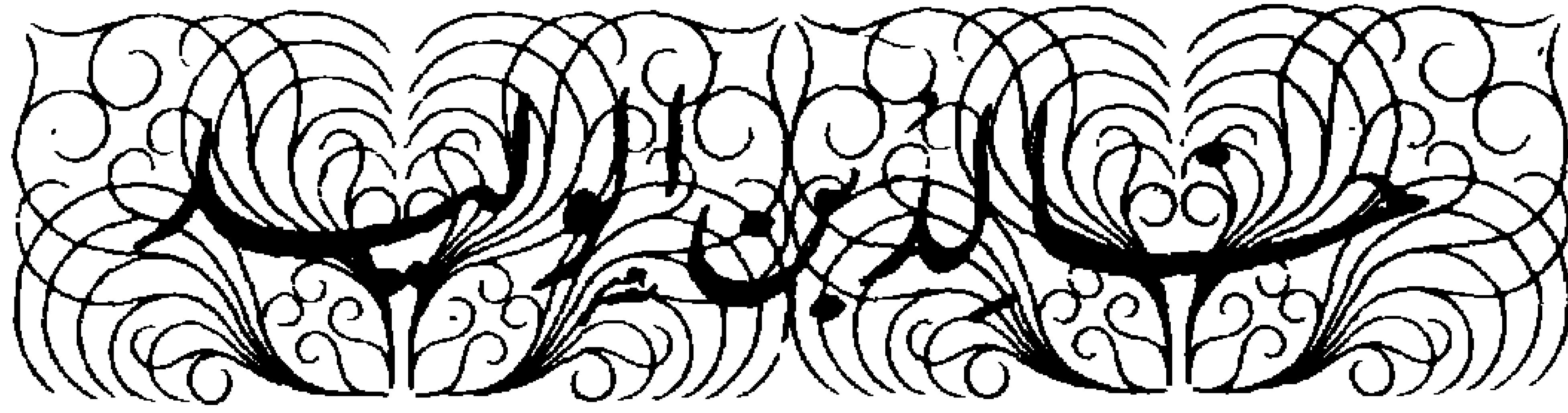
وصعدوا إلى الجنَّة معًا . . .

وكانت خير تحيَّة تُوَجَّهُ لذكراهم الخالدة ، كلمات رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه :

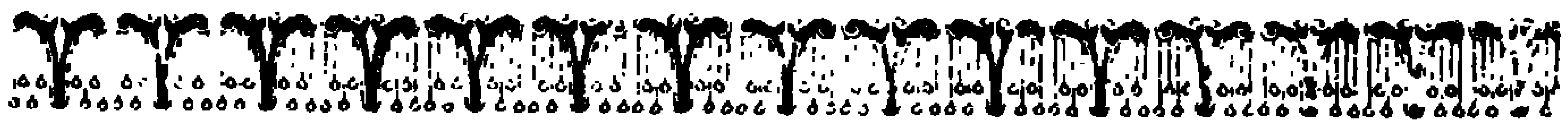
[لقد رُفِعُوا إلَيَّ في الْجَنَّة] . . ! !







لا ينام، ولا يترك أحدا ينام !!



إن أمره لَعَجب . . ! !

هذا الفاتِكُ بالمسلمين يومَ « أُحُد » . . . والفاتِكُ بأعداء الإسلام بَقيَّة الأيام . . ! !

أَلَا فلْنأت على قصته من البداية . .

ولكن أيَّةُ بِداية . . ؟ ؟

إنه هو نفسه ، لا يكاد يعرف لحياته بَدءًا إلا ذلك اليوم الذي صافح فيه الرسول مُبَايعًا . .

ولو استطاع لَنحَّى عن عمره وحياته ، كل ما سبق ذلك اليوم من سنين ، وأيام . . .

فلنبدأ معه إذن من حيث يحب . . . من تلك اللحظة الباهرة التي خشع فيها قلبه لله ، وتلقَّت روحه فيها لمسة من يمين الرحمن – وكلتَا يديه يمين – فتفجرت شوقًا إلى دينه ، وإلى رسوله ، وإلى استشهاد عظيم في سبيل الحق ، ينضو عن كاهِله أوزارَ مُناصرته الباطل في أيامه الخاليات . . .

* * *

لقد خلا يومًا إلى نفسه ، وأدار خواطره الرشيدة على الدين الجديد الذي تزداد راياته كل يوم تألُّقًا وارتفاعًا ، وتمنَّى على الله علاَّم الغيُوب أن يَمُدَّ إليه من الهُدى بسبَب . . والتمعتْ في فؤاده الذكيّ بشَائرُ اليقين ، فقال :

[واللهِ لقد استقام المَنْسِم ، . .

« وإن الرجل لرسول . .
فَحَتَّى ، مَتَى . . ؟ ؟
أذهبُ واللهِ ، فَأُسْلِم] . . .

ولْنصْغِ إليه – رضي الله عنه – يحدثنا عن مَسيرِه المبارك إلى رَسول الله عليه الصلاة والسلام ، وعن رحلته من مكة إلى المدينة ليأخذ مكانه في قافلة المؤمنين :

« . . وَودِدْتُ لو أجد من أُصاحِب ، فلقيتُ عثمان بن طلحة ، فذكرتُ له الذي أريد فأسرعَ الإجابة ، وخرجنا جميعًا فأدْلَجنا سَحَرا . . فلما كنا بالسهلّ إذا عمرو بن العاص ، فقال مرحبًا بالقوم . قلنا : وَبك . . .

« قال : أين مَسيركُم ؟ فأخبرناه . وأخبرَنا أيضًا أنه يريد النبي ليُسلم . . .

« فاصطحبنا حتى قدمنا المدينة أول يوم من صفر سنة ثمان . . فلما اطَّلَعْتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمت عليه بالنبوة فردَّ على السلام بوجه طلق . فأسلمتُ وشهدت شهادة الحق . .

« فقال الرسول : قد كنت أرى لك عقلاً رجوتُ ألا يُسْلمك إلا إلى خير . .

« وبايعتُ رسول الله وقلت : استغفِر لي كل ما أوضَعْتُ فيه من صَدٍّ عن سبيل الله . .

« فقال : إن الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله . .

« قلت : يا رسول الله على ذلك . .

« فقال : اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه مِنْ صَدٍّ عن سبيلك . .

« وتقدم عمرو بن العاص ، وعثمان بن طلحة ، فأسلما وبايعا رَسُولَ الله » . .

* * *

أرأيتم قوله للرسول : « استغفر لي كل ما أوضعتُ فيه من صَدٍّ عن سبيل الله » . . ؟ ؟

إن الذي يضع على هذه العبارة بصره ، وبَصيرتَهَ . سيهتدي إلى فهم صحيح لتلك المواقف التي تشبه الألغاز في حياة سيف الله وبطل الإسلام . . .

وعندما نبلغ تلك المواقف في قصة حياته ستكون هذه العبارة دليلنا لفهمها وتفسيرها . . .

أما الآن ، فمع « خالد » الذي أسلم لِتَوِّه لنرى فارس قريش وصاحب أعنَّة الخيل فيها ، لنرى داهيةَ العرب كافة في دنيا الكرِّ والفرِّ ، يعطي لآلهة آبائه وأمجاد قومه ظهره ، ويستقبل مع الرسُول والمسلمين عالمًا جديدًا ، كتب الله له أن ينهض تحت راية محمد وكلمة التوحيد . .

مع خالد – إذن – وقد أسلم ، لنرى من أمره عجبًا . . . ! ! !

* * *

أتذكرون نبأ الثلاثة الشهداء أبطال معركة مؤتة . . ؟ ؟

لقد كانوا : زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن

رواحة . . .

لقد كانوا أبطال غزوة « مُؤتة » بأرض الشام . . تلك الغزوة التي حشد لها الروم مائتي ألف مقاتلٍ ، والتي أبلى المسلمون فيها بلاء منقطع النظير . .

وتذكرون العبارة الجليلة الآسية التي نعى بها الرسول صلى الله عليه وسلم قادة المعركة الثلاثة حين قال :

[أخذ الرايةَ « زيد بن حارثة » فقاتل بها حتى قُتل شهيدًا .

« ثم أخذها « جعفر » فقاتل بها ، حتى قُتِلَ شهيدًا . . .

« ثم أخذها « عبد الله بن رَوَاحَة » فقاتل بها حتى قُتِلَ شهيدًا].

كان لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا بقيَّة . ادَّخرناها لمكانها على هذه الصفحات . .

هذه البقيَّة هي :

[ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله ، ففتح الله على يديه] . .

فمن كان هذا البطل . . ؟ ؟

لقد كان « خالد بن الوليد » . . . الذي سارع إلى غزوة « مؤتة » جنديًا عاديًا تحت قيادة القواد الثلاثة الذين جعلهم الرسول على الجيش : زيد ، وجعفر ، وابن رَوَاحَة ، والذين استشهدوا بنفس الترتيب على أرض المعركة الضارية . . .

وبعد سقوط آخر القواد شهيدًا ، سارع إلى اللواء « ثابت بن أقرم » فحمله بيمينه ورفعه عاليًا وسط الجيش المسلم حتى لا تُبعثر الفوضى صفوفه . .

ولم يكد « ثابت » يحمل الراية حتى توجه بها مسرعًا إلى خالد بن الوليد ، قائلا له :

[خذ اللواء يا أبا سُليمان] . .

ولم يجد خالد من حقه وهو حديث العهد بالإسلام أن يقود قومًا فيهم الأنصار والمهاجرون الذين سبقوه بالإسلام .

أدب ، وتواضع ، وعرفان ، ومزايا ، هو لها أهلٌ وبها جدير . . ! !

هنالك قال مجيبًا « ثابت بن أقرم » :

[لا . . لا آخُذ اللواء ، « أنت أحق به . . لك سِنٌ وقد شهدتَ بدرًا] . .

[وأجابه ثابت : « خُذه ، فأنت أدرى بالقتال مني ، ووالله ما أخذتهُ إلا لك » .

ثم نادى في المسلمين : أترضَوْن إمْرَةَ خالد . . ؟

قالوا : نعم . .

واعتلى العبقري جواده . ودفع الراية بيمينه إلى الأمام كأنما يقرع بها أبوابًا مغلقة آن لها أن تُفتح على طريق طويل لاَحِب سيقطعه البطل وَثْبًا . وثبًا . . في حياة الرسول وبعد مماته ؛ حتى تبلغ المقادير بعبقريته الخارقة أمرًا كان مقدورًا . .

* * *

وَلِيَ « خالد » إمرة الجيش ، بعد أن كان مصير المعركة قد تحدَّد . فضحايا المسلمين كثيرون ، وجناحهم مَهيض . . وجيش الروم في كثرته الساحقة كاسح ، ظافر ، مُدَمْدِم . .

ولم يكن بوسع أية كفاية حربية أن تغير من المصير شيئًا ، فتجعل المغلوب غالبًا ، والغالب مغلوبًا . .

وكان العمل الوحيد الذي ينتظر عبقريًا لكي ينجزه . هو وَقف الخسائر في جيش الإسلام ، والخروج ببقيته سالمة ، أي الانسحاب الوقائي الذي يحول دون هلاك بقية القوة المقاتلة على أرض المعركة .

بَيْدَ أنَّ انسحابا كهذا كان من الاستحالة بمكان . .

ولكن ، إذا كان صحيحًا أنه « لا مستحيل على القلب الشجاع » فمن أشجع من خالد قلبًا ، ومن أروع عبقريةً وأنفذ بصيرة . . ؟ ؟ !

هُنالك تقدم سيف الله يرمق أرض القتال الواسعة بعينين كعيني الصقر ، ويدير الخُطط في بديهته بسرعة الضوء . . ويقسم جيشه – والقتال دائر – إلى مجموعات ، ثم يكل إلى كل مجموعة بمهامها . . وراح يستعمل فنَّه المعجز ودهاءه البليغ حتى فتح في صفوف جيش الروم ثغرة فسيحة واسعة ، خرج منها جيش المسلمين كله سليما معافى ، بعد أن نجا بسببٍ من عبقرية بطل الإسلام من كارثة ماحقة ما كان لها من زوال . . ! !

وفي هذه المعركة أنعم الرسول على خالد بهذا اللّقب العظيم :

* * *

وتنكُث قُريش عهدها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيتحرك المسلمون تحت قيادته لفتح مكة . .

وعلى الجناح الأيمن من الجيش . يجعل الرسول خالد بن الوليد أميرًا . . .

ويدخل « خالد » مكة ، واحدًا من قادة الجيش المسلم . والأمة المسلمة ، بعد أن شهدته سهولها وجبالها ، قائدًا من قواد جيش الوثنية والشرك زمنًا طويلا . .

وتخطُر له ذكريات الطفولة ، حيث مراتعها الحلوة . . وذكريات الشباب ، حيث ملاهيه الصاخبة . .

ثم تستجيشه ذكريات الأيام الطويلة التي ضاع فيها عمره قربانًا خاسرًا لأصنام عاجزة كاسدة . .

وقبل أن يعضَّ الندم فؤاده ينتفض تحت روعة المشهد وجلاله . .

مشهد النور الزاحف على مكة . . . مشهد المستضعفين الذين لا تزال جسومهم تحمل آثار العذاب والهول ، يعودون إلى البلد الذي أخرجوا منه بَغْيًا وعَدْوًا – يعودون إليه على صهوات جيادهم الصاهلة ، وتحت رايات الإسلام الخافقة . . وقد تحوَّل همسُهم الذي كانوا يتناجَوْن به في دار الأرقم بالأمس – إلى تكبيرات صادعة رائعة ترجُّ مكة رَجًّا ، وتهليلات باهرة ظافرة ، يبدو الكون معها ، وكأنه كله في عيد . . ! !

كيف تمت المعجزة . . ؟ ؟

أيّ تفسير لهذا الذي حدث ؟

لا شيء . . . لا شيء إلا هذه الآية التي يرددها الزاحفون الظافرون وسط تهليلاتهم وتكبيراتهم حين ينظر بعضهم إلى بعض فرحين قائلين :

[وَعْدَ اللهِ . . لا يُخلِفُ اللهُ وَعْدَه] . . ! !

ويرفع خالد رأسه إلى أعلى . ويرمُق في إجلال وغبطة وحُبور رايات الإسلام تملأ الأُفق . . فيقول لنفسه :

– أجَلْ . . إنه وعد الله . ولا يُخلف الله وعده . . ! !

ثم يحني رأسه شاكرًا نعمة ربه الذي هداه للإسلام وجعله في يوم الفتح العظيم هذا ، واحدًا من الذين يحملون الإسلام إلى مكة . . وليس

من الذين سيحملهم الفتح على الإسلام . .

* * *

ويظل « خالد » إلى جانب رسول الله ، واضعًا كفاياته المتفوقة في خدمة الدين الذي آمن به من كل يقينه ، ونذرَ له كل حياته .

وبعد أن يلحق الرسول الكريم بالرفيق الأعلى ، ويحمل أبو بكر الصديق مسئولية الخلافة ، وتَهُبُّ أعاصير الردّة غادرة ماكرة ، مطوقةً الدين الجديد بزئيرها المُصمّ وانتفاضها المُدَمْدِم . . يضع أبو بكر عينه لأول وهلة على بطل الموقف ورجل الساعة . . أبي سليمان . سيف الله . خالد ابن الوليد . . ! !

وصحيح أن أبا بكر لم يبدأ معارك المرتدين إلا بجيش قاده هو بنفسه ولكن ذلك لا يمنع أنه ادَّخر خالدًا ليوم الفصل ، وأن خالدًا في المعركة الفاصلة التي كانت أخطر معارك الردة جميعًا ، كان رجلها الفذ وبطلها الملهم . . .

* * *

عندما بدأت جموع المرتدين تتهيأ لإنجاز مؤامراتها الضخمة ، صمم الخليفة العظيم أبو بكر على أن يقود جيش المسلمين بنفسه . ووقف زعماء الصحابة يبذلون محاولات يائسة لصده عن هذا العزم ، ولكنه ازداد تصميمًا . . ولعله بهذا أراد أن يعطي القضية التي دعا الناس لخوض الحرب من أجلها أهمية وقداسة ، لا يؤكدها في رأيه إلا اشتراكه الفعلي في المعارك الضارية التي ستدور رحاها بين قُوى الإيمان ، وبين جيوش الردة والضلال ، وإلا قيادته المباشرة لبعض أو لكل القوات المُسْلمة . . .

ولقد كانت انتفاضات الردة بالغة الخطورة ، على الرغم من أنهـا بدأت وكأنها تمرُّدٌ عارض . .

لقد وجد فيها جميعُ الموتورين من الإسلام والمتربصين به فرصتهم النادرة – سواء بين قبائل العرب – أم على الحدود ، حيث يَجثُم سُلطان الروم والفرس . هذا السلطان الذي بدأ يحسُّ خطر الإسلام الأكبر عليه . فراح يدفع الفتنة في طريقه من وراء ستار . . ! !

ونشبت نيران الفتنة في قبائل : أسَد . وغطفان . وعَبس ، وطيئ وذبيان . . .

ثم في قبائل : بني عامر . وهَوَازِن . وسليم . وبني تميم . .

ولم تكد المناوشات تبدأ حتى استحالت إلى جيوش جرَّارة قوامُها عشرات الألوف من المقاتلين . . .

واستجاب للمؤامرة الرهيبة أهل البحرين . وعُمان . والمهرة . وواجه الإسلام أخطر محنة . واشتعلت الأرض من حول المسلمين نارًا . . .

ولكن . كان هناك أبو بكر . . ! ![1]

عبَّأ أبو بكر المسلمين وقادهم إلى حيث كانت قبائل بني عبس . وبني مرة . وذبيان قد خرجوا في جيش لَجِب . .

ودار القتال . وتطاوَلَ . ثم كُتب للمسلمين نصر مُؤَزَّر وعظيم . . .

ولم يكد الجيش المنتصر يسفر بالمدينة . حتى ندبه الخليفة للمعركة التالية . . .

---

(١) راجع صورة هذا الموقف المشهود في كتابنا « وجاء أبو بكر »

وكانت أنباء المرتدين وتجمعاتهم تزداد كل ساعة خطورة . . وخرج أبو بكر على رأس هذا الجيش الثاني ، ولكن كبار الصحابة يفرغ صبرهم ، ويجمعون على بقاء الخليفة بالمدينة . ويعترض « الإمام عليّ » طريق أبي بكر ويأخذ بزمام راحلته التي كان يركبها وهو ماض أمام جيشه الزاحف . فيقول له :

[إلى أين ، يا خليفة رسُولِ الله . . ؟ ؟

« إني أقول لك ما قاله رَسُول الله يوم أُحُد :

« لُمّ سيفك يا أبا بكر ، ولا تَفجَعْنا بنفسك . .]

وأمام إجماع مُصمم من المسلمين ، رضي الخليفة أن يبقى بالمدينة وقسَّم الجيش إلى إحدى عشرة مجموعة . . رسم لكل مجموعة دورها . . .

وعلى مجموعة ضخمة من تلك المجموعات كان خالد بن الوليد أميرًا . .

ولما عقد الخليفة لكل أمير لواءه ، اتجه صوب « خالد » وقال يخاطبه :

[سمعتُ رَسُولَ الله يقول : نِعم عبدُ الله . وأخو العَشيرة ، خالد بن الوليد ، بسَيفٌ مِنْ سُيوف الله . سَلَّه الله على الكُفار والمنافقين] . .

* * *

ومضى خالد إلى سبيله ينتقل بجيشه من معركة إلى معركة ، ومن نصر إلى نصر حتى كانت المعركة الفاصلة . . .

* * *

فهناك باليمامة كان بنو حنيفة ومن انحاز إليهم من القبائل ، قد جيَّشوا أخطر جيوش الردة قاطبة ، يقوده « مسيلمة الكذّاب » . .

وكانت بعض القوات المسلمة قد جربت حظها مع جيش مسيلمة ، فلم تبلغ منه منالا . .

وجاء أمر الخليفة إلى قائده « المظفّر » أنْ سرْ إلى بني حنيفة . . وسار خالد . .

ولم يكد « مسيلمة » يعلم أن ابن الوليد في الطريق إليه حتى أعاد تنظيم جيشه ، وجعل منه خطرًا حقيقيًا ، وخصمًا رهيبًا . .

والتقى الجيشان . .

وحين تُطالع في كتب السيرة والتاريخ – سَيْرَ تلك المعركة الهائلة ، تأخُذك رهبة مُضْنية ، إذ تجد نفسك أمام معركة تُشبه في ضراوتها وجَبروتها معارك حروبنا الحديثة ، وإنْ تخلَّفت عنها في نوع السلاح وظروف القتال . . .

نزل خالد بجيشه على كَثِيب مُشْرِف على اليمامة ، وأقبل مسيلمة في خُيلائه وبغيه ، صفوفُ جيشه من الكثرة كأنها لا تُؤْذِن بانتهاء . . . ! !

وسلم خالد الألوية والرايات لقادة جيشه ، والتَحم الجيشان ، ودار قتال رهيب . ثم رهيب . . وسقط شهداء المسلمين تباعًا كزهور حديقة طوّحت بها عاصفة عنيدة . . ! !

وأبصر خالد رجحان كفَّة الأعداء ، فاعتلى بجواده ربوة قريبة ، وألقى على المعركة نظرة سريعة ، ذكية وعميقة . .

ومِنْ فَوْرِه أدرك نقاط الضعف في جيشه وأحصاها . .

رأى الشعور بالمسئولية قد وَهَنَ تحت وقع المفاجأة التي دهمهم بها جيش مسيلمة ، فقرر في نفس اللحظة أن يشدَّ في أفئدة المسلمين جميعًا زناد المسئولية إلى أقصاه . . فمضى ينادي إليه فيالق جيشه وأجنحته ، وأعاد تنسيق مواقعه على أرض المعركة ، ثم صاح بصوته المنتصر :

[امْتازُوا ، لِنرى اليومَ بلاءَ كُلِّ حَيّ] . .

وامْتازُوا جميعًا . .

مضى المهاجرون تحت رايتهم ، والأنصار تحت رايتهم [وكُلُّ بني أبٍ على رايتهم] . .

وهكذا صار واضحًا تمامًا ، من أين تجيءُ الهزيمة حين تجـــيءُ . . واشتعلت الأنفس حماسة ، واتَّقَدَتْ مضاءًا ، وامتلأت عزمًا وروعة . .

و« خالد » بين الحين والحين ، يرسل تكبيرة أو تهليلة ، أو صيحة يلقي بها أمرًا ، فتتحول سيوف جيشه إلى مقادير لا رَادَّ لأمرها ، ولا مُعَوِّق لغاياتها . .

وفي دقائق معدودة تحوَّل اتجاه المعركة وراح جُنود مسيلمة يتساقطون بالعشرات ، فالمئات ، فالألوف ، كذباب خَنَقتْ أنفاس الحياة فيــه نَفثاتُ مُطَهر صاعق مُبيد . . ! !

لقد نقل « خالد » حماسته كالكهرباء إلى جنوده ، وحلَّت رُوحه في جَيشه جميعًا . . وتلك كانت إحدى خصال عبقريته الباهرة . .

وهكذا سارت أخطر معارك الردة وأعنف حروبها ، وقُتِلَ « مسيلمة » . .

وملأت جُثث رجاله وجَيشه أرض القتال ، وطويت تحت التراب

إلى الأبد راية الدّعيِّ الكذاب . .

* * *

وفي المدينة صلَّى الخليفة لربه الكبير المُتعال صلاة الشكر ، إذْ منحهم هذا النصر ، وهذا البطل . . .

وكان أبو بكر قد أدرك بفطنته وبصيرته ما لِقُوَى الشر الجاثمة وراء حدود بلاده من دور خطير في تهديد مصير الإسلام وأهله . . الفرس في العراق . . والروم في بلاد الشام . . .

إمبراطوريتان خَرِعَتان ، تتشبثان بخيوط واهنة من حظوظهما الغاربة وتَسومان الناس في العراق وفي الشام سوء العذاب ، بل وتسخرهم – وأكثرهم عرَب – لقتال المسلمين العرَب الذين يحملون راية الدين الجديد ، ويضربون بمعاوله قلاع العالم القديم كله ، ويجتثّون عفنَه وفساده . . !

هنالك ، أرسل الخليفة العظيم المُبارك توجيهاته إلى « خالد » أن يمضي بجيشه صَوْب العراق . .

ويمضي البطل إلى العراق ، وليت هذه الصفحات كانت تتسع لِتَتَبّع مواكب نصره . إذن لرأينا من أمرها عجبًا .

لقد استهلَّ عمله في العراق بكُتُب أرسلها إلى جميع وُلاةِ كسرى ونوابه على ألوية العراق ومدائنه . . .

[بسم الله الرحمن الرحيم

« من خالد بن الوليد . . إلى مرازبة فارس . .

« سلام على من اتَّبعَ الهُدى

« أما بعد ، فالحمد لله الذي فضّ خدمَكم ، وسلب مُلككُم ، ووهَّن كَيْدَكُم

« مَن صَلَّى صلاتَنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا فذلكم المسلم . له ما لنا وعليه ما علينا

« إذا جاءكم كتابي فابعثوا إليَّ بالرُّهْن واعتقدوا مني الذمَّة

« وإلّا ، فوالذي لا إله غيره لأبعثن إليكم قومًا يحبون الموت كما تحبون الحياة] . . ! ! !

وجاءته طلائعه التي بثَّها في كل مكان بأنباء الزُّحوف الكثيرة التي يُعدها له قواد الفرس في العراق ، فلم يضيع وقته ، وراح يقذف بجنوده على الباطل لِيدْمغَه . . وطويت له الأرض طيًّا عجيبًا .

في الأُبُلَّة ، إلى السّدير ، فالنّجف ، إلى الحيرة ، فالأنبار ، فالكاظمية. مواكب نصر تتبعها مواكب . . وفي كل مكان تُهلُّ به رياحُه البُشريات ترتفع للإسلام راية يأوي إلى فَيْئِها الضعفاء والمستَعبدون .

أجل ، الضعفاء والمستعبدون من أهل البلد الذين كان الفرس يستعمرونهم ويسومونهم العذاب . .

وكم كان رائعًا من خالد أن بدأ زحفه بأمر أصدره إلى جميع قواته :

[لا تتعرضوا للفلاحين بسوء ، دعوهم في شغلهم آمنين ،
إلّا أن يخرج بعضهم لقتالكم ، فآنئذ قاتلوا المقاتلين] . .

وسار بجيشه الظافر كالسكين في الزبد الطرِيّ حتى وقف على تُخوم الشام . . .

وهناك دوَّت أصوات المؤذنين ، وتكبيرات الفاتحين .

تُرى هل سمع الروم في الشام . . ؟ ؟

وهل تبينوا في هذه التكبيرات نَعْيَ أيامهم ، وعالَمِهم . . ؟ ؟

أجل ، سمعوا . . وفُزِّعوا . .وقرروا أن يخوضوا في جنون معركة اليأس والضياع . . !

* * *

كان النصر الذي أحرزه الإسلام على الفرس في العراق بشيرًا بنصر مثله على الروم في الشام . .

فجنَّد الصديق أبو بكر جيوشًا عديدة ، واختار لإمارتها نفرًا من القادة المهرة – أبو عبيدة بن الجراح . . وعمرو بن العاص . . ويزيد بن أبي سفيان ، ثم معاوية بن أبي سفيان . .

وعندما نمت أخبار هذه الجيوش إلى أمبراطور الروم نصح وزراءه وقواده بمصالحة المسلمين ، وعدم الدخول معهم في حرب خاسرة . .

بيد أن وزراءه وقواده أصَرُّوا على القتال وقالوا :

[والله لَنَشْغَلَنَّ أبا بكر عن أن يُورِدَ خيله إلى أرضنا] . . .

وأعدوا للقتال جيشًا بلغ قوامه مائتي ألف مقاتل ، وأربعين ألفًا .

وأرسل قادة المسلمين إلى الخليفة بالصورة الرهيبة للموقف فقال أبو بكر :

[والله لَأشْفِيَنَّ وَسَاوِسَهم بخالد] . . ! ! !

وتلقى « تِرياقُ الوساوس » . . وساوس التمرد والعدوان والشرك،تلقَّى أمر الخليفة بالزحف إلى الشام ، ليكون أميرًا على جيوش الإسلام التي

سبقته إليها . . .

وما أسرع ما امتثل خالد وأطاع ، فترك على العراق « المُثَنَّى بن حارثة » وسار مع قواته التي اختارها حتى وصل مواقع المسلمين بأرض الشام ، وأنجز بعبقريته الباهرة تنظيم الجيش المسلم وتنسيق مواقعه في وقت وجيز ، وبين يدي المعركة واللقاء ، وقف في المقاتلين خطيبًا فقال بعد أن حَمِد ربه وأثنى عليه :

[إن هذا يومٌ من أيام الله ، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي . . .

« أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم ، وتعالوا نَتعَاور الإمارة – أي نتبادلها – فيكُون أحدنا اليوم أميرًا ، والآخر غدًا ، والآخر بعد غد ، حتى يتأمَّر كلكم] . . .

* هذا يوم من أيام الله . . .

ما أروعها من بداية . . . ! !

* لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي . . .

وهذه أكثر روعة وأوفى ورَعا ! !

ولم تنقص القائد العظيم الفِطْنة المفعمة بالايثار ، فعلى الرغم من أن الخليفة وضعه على رأس الجيش بكل أمرائه ، إلا أنه لم يشأ أن يكون عَوْنًا للشيطان على أنفس أصحابه ، فتنازل لهم عن حقه الدائم في الإمارة وجعلها دُولةً بينهم جميعًا . . .

اليوم أمير . . وغدًا أمير ثان . . وبعد غد أمير آخر . . وهكذا . . .

كان جيش الروم بأعداده وبعتاده ، شيئًا بالغ الرهبة . .

لقد أدرك قواد الروم أن الزمن في صالح المسلمين ، وأن تطاوُل القتال وتكاثُر المعارك يهيئان لهم النصر دائمًا ، من أجل ذلك قرروا أن يحشدوا كل قواهم في معركة واحدة يُجهزون خلالها على العرب حيث لا يبقى لهم بعدها وجود ، وما من شك في أن المسلمين أحسُّوا يومذاك من الرهبة والخطر ما ملأ نفوسهم المقدامة قلقًا وخوفًا . .

ولكن إيمانهم كان يَخِفّ لخدمتهم في مثل تلك الظلمات الحالكات ، فإذا فَجْرُ الأمل والنصر يغمرهم بسنَاه . . ! !

ومهما يكن بأس الروم وجيوشهم ، فقد قال أبو بكر ، وهو بالرجال جِدُّ خبير :

[خالِدٌ لهَاَ] . . ! ! !

وقال :

[واللهِ ، لأشفِيَنَّ وسَاوسهم بخالد] . .

فليأت الروم بكل هوْلِهِم ، فمع المسلمين الترياق . . ! !

عبَّأ ابن الوليد جيشه ، وقسمه إلى فيالق ، ووضع للهجوم والدفاع خُطة جديدة تتناسب مع طريقة الروم بعد أن خبر وسائل إخوانهم الفرس في العراق . . ورسم للمعركة كل مقاديرها . .

ومِنْ عَجب أن المعركة دارت كما رسم خالد وتوقَّع ، خُطوة خُطوة وحركة حركة ، حتى ليبدو وكأنه لو تنبأ بعدد ضربات السيوف في المعركة ، لما أخطأ التقدير والحساب . . ! !

كل مُناورة توقعها من الروم صنعوها . .

كل انسحاب تنبأ به فعلوه . .

وقبل أن يخوض القتال كان يشغل باله قليلا ، احتمالُ قيام بعض جنود جيشه بالفرار – خاصَّةً أولئك الذين هم حديثو العهد بالإسلام – بعد أن رأى ما ألقاه منظر جيش الروم من رهبة وجزع . .

وكان خالد يتمثَّل عبقرية النصر في شيءٍ واحد ، هو « الثبات » . .

وكان يرى أن حركة هروب يقوم بها اثنان أو ثلاثة . يمكن أن تشيع في الجيش من الهلع والتمزُّق ما لا يقدر عليه جيش العدو بأسره . . .

من أجل هذا ، كان صارمًا – أيَّ صارم – تجاه الذي يلقي سلاحه ويولي هاربًا . .

وفي تلك الموقعة بالذات – موقعة اليرموك – وبعد أن أخذ جيشه مواقعه – دعا نساء المسلمين – ولأول مرة سلَّمهن السيوف ، وأمرهن ؛ بالوقوف وراء صفوف المسلمين من كل جانب ، وقال لهن :

[مَنْ يُوَلي هاربا ، فاقْتُلْنَه] . . .

وكانت لفتة بارعة أدت مهمتها على أحسن وجه . . ! !

وقُبيل بدء القتال طلب قائد الروم أن يبرز إليه خالد ليقول له بضع كلمات . .

وبرز إليه خالد ، حيث تواجها فوق جواديهما في الفراغ الفاصل بين الجيشين . .

وقال « ماهان » قائد الروم يخاطب خالدًا :

[قد علمنا أنه لم يخرجكم من بلادكم إلا الجهد والجوع . .

« فإن شئتم ، أعطيتُ كل واحد منكم عشرة دنانير ، وكسوة ، وطعامًا ، وترجعون إلى بلادكم ، وفي العام القادم أبعث إليكم بمثلها] . . ! !

وضغط خالد الرجل والبطل على أسنانه ، وأدرك ما في كلمات قائد الروم من سوء الأدب . .

وقرر أن يرد عليه بجواب مناسب ، فقال له :

[إنه لم يخرجنا من بلادنا الجوع كما ذكرت ، ولكننا قوم نشرب الدماء ، وقد علمنا أنه لا دم أشهى ولا أطيب من دم الروم ، فجئنا لذلك] . . . ! ! !

ولَوَى البطل زمام جواده عائدًا إلى صفوف جيشه . ورفع اللواء عاليًا مُؤذنًا بالقتال . .

[الله أكبر] . .

[هُبِّي رياح الجنة]

كان جيشه يندفع كالقذيفة المصبوبة .

ودار قتال ليس لضراوته نظير . .

وأقبل الروم في فيالق كالجبال . .

وبدا لهم من المسلمين ما لم يكونوا يحتسبون . .

ورسم المسلمون صُوَرًا تبهر الألباب من فدائيتهم وثباتهم . .

• فهذا أحدهم يقترب من أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه والقتال دائر ، ويقول :

[إني قد عزمتُ على الشهادة ، فهل لك من حاجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أُبلغها له حين ألقاهُ] ؟ ؟

فيجيب أبو عبيدة :

[نعم . . . قل له : يا رسول الله إنا قد وَجَدنا ما وَعَدنا ربنا حقًا] . .

ويندفع الرجل كالسهم المقذوف . . . يندفع وسط الهول مشتاقًا إلى مصرعه ومضجعه . . . يَضرب بسيفه ، ويُضرب بآلاف السيوف حتى يرتفع شهيدًا . . . ! !

* وهذا « عِكْرمة بن أبي جهل » . .

أجل . . ابن أبي جهل . .

ينادي في المسلمين حين ثَقُلَتْ وطأة الروم عليهم قائلا :

[لطالما قاتلْتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يهديني الله إلى الإسلام ، أَفأَفِرُّ من أعداء الله اليوم] ؟ ؟

ثم يصيح : [من يُبايعُ على الموت] . . .

فبايعه على الموت كوكبة من المسلمين – ثم ينطلقون معًا إلى قلب المعركة لا باحثين عن النصر ، بل عن الشهادة . . . ويتقبل الله بَيْعَهم وبَيْعَتهم ، فيستشهدون . . ! !

* وهؤلاء آخرون أصيبوا بجراح أليمة ، وجيئ لهم بماء يبللون به أفواههم ، فلما قدم الماء إلى أولهم ، أشار للساقي أنْ أعط أخي الذي بجواري فجُرحُه أخطر ، وظمأه أشدُّ . فلمَّا قدم الماء إليه ، أشار بدوره

لجاره . فلمَّا انتقل إليه أشار بدوره لجاره . .

وهكذا . . حتى جادت أرواح أكثرهم ظامئة . . ولكن أنضرما تكون تفانيًا وإيثارًا . . ! !

أجل . .

لقد كانت معركة « اليرموك » مجالا لفدائية يعزُّ نظيرها .

* ومن بين لوحات الفداء الباهرة التي رسمتها عَزَمَاتٌ مُقْتدرة ، تلك اللوحة الفذة . . . لوحة تحمل صورة خالد بن الوليد على رأس مائة لا غير من جنده ، ينقضون على ميسرة الروم وعددها أربعون ألف جندي ، وخالد يصيح في المائة الذين معه :

[والذي نفسي بيده مابقي مع الروم من الصبر والجلَد إلا ما رأيتم .

« وإني لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم] . .

مائة . . يخوضون في أربعين ألف . . ثم ينتصرون . . ! !

ولكن أي عجب ؟ ؟

أليس ملئ قلوبهم إيمان بالله العلي الكبير . . ؟ ؟

وإيمان برسوله الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم ؟ ؟

وإيمانٌ بقضية ، هي أكثر قضايا الحياة برًّا ، وهُدًى ، ونُبلا ؟

وأليس خليفتهم « الصدِّيق » رضي الله عنه ، هذا الذي ترتفع راياته فوق الدنيا ، بينما هو في المدينة – العاصمة الجديدة للعالم الجديد – يحلُبُ بيده شِياهَ الأيَامَى ، ويعجن بيديه خبز اليتامى . . ؟ ؟

وأليس قائدهم « خالد بن الوليد » ترياق وساوس التجبر ، والصّلَف ، والبغي ، والعدوان ، وسيف الله المسلول على قوَى التخلُّفِ ، والتعفُّن ، والشِّرْك ؟ ؟

أليس ذلك ، كذلك . . ؟

إذن ، هُيِّي رياح النصر . . .

هُبِّي قوية عزيزة ، ظافرة ، قاهرة . .

* * *

لقد بهرت عبقرية « خالد » قواد الروم وأمراء جيشهم ، مما حمل أحدهم ، واسمه « جرجه » على أن يدعو خالدًا للبروز إليه في إحدى فترات الراحة بين القتال .

وحين يلتقيان ، يوجه القائد الروماني حديثه إلى خالد قائلا :

[يا خالد . .

اصدقني ، ولا تكذبني فإن الحر لا يكذب . .

« هل أنزل الله على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاك إياه ، فلا تَسُلّه على أحد إلا هزمته ؟ ؟]

قال خالد :

[لا . . .]

قال الرجل :

[فبمَ سُمِّيت سيف الله ؟]

قال خالد :

[إن الله بعثَ فينَا رسوله ، فمنا من صدَّقه ومنا من كذَّب . . .
وكنت فيمن كذَّب حتى أخذ الله قلوبنا إلى الإسلام ، وهدانا برسوله فبايعناه . .

« فدعا لي الرسول ، وقال لي : أنت سيف من سيوف الله ، فهكذا سُمِّيت . . سيف الله] . .

قال القائد الروماني :

[وإلام تَدْعُون . . ؟]

قال خالد :

[إلى توحيد الله ، وإلى الإسلام] . .

قال :

[هل لمن يدخل في الإسلام اليوم مثل ما لكم من المثوبة والأجر؟]

قال خالد : [نعم ، وأفضل . . .]

قال الرجل : [كيف ، وقد سبقتموه . . ؟ ؟]

قال خالد :

[لقد عشنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأينا آياته ومعجزاته وحقّ لمن رأى ما رأينا ، وسمع ما سمعنا أن يُسلم في يُسْر . .

« أما أنتم يا مَنْ لم تَرَوْه ولم تسمعوه ، ثم آمنتم بالغيب ، فإن أجْرَكم أجزل وأكبر إذا صَدَقْتُم الله سرائركم ونوايا كم] . .

وصاح القائد الروماني ، وقد دفع جواده إلى ناحية خالد ، ووقف بجواره :

[علمني الإسلام يا خالد] . . ! ! !

وأسلم . . وصلى لله ركعتين . . لم يُصَل سواهما ، فقد أستأنف الجيشان القتال . . وقاتل « جرجه الروماني » في صفوف المسلمين مستميتًا في طلب الشهادة حتى نالها وظفر بها . . ! !

* * *

وبعد . فها نحن أولاء نواجه العظمة الإنسانية في مشهد من أبْهَى مشاهدها . . إذ كان خالد يقود جيش المسلمين في هذه المعركة الضارية ، ويستلُّ النصر من بين أنياب الروم استلالا فَذًّا ، بقدر ما هو مُضْن ورهيب – وإذا به يفاجأ بالبريد القادم من المدينة يحمل كتاب الخليفة الجديد – أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . . وفيه تحية الفاروق للجيش المسلم ، ونَعْيُه خليفةَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، ثم أمره بتنحية خالد عن القيادة ، وتولية « أبي عبيدة بن الجرَّاح » مكانه . .

قرأ « خالد » الكتاب ، ، وهمهم بابتهالات الترحُّم على أبي بكر والتوفيق لعمر . .

ثم طلب من حامل الكتاب ألّا يبوح لأحد بما فيه وألْزَمَهُ مكانًا أمره ألا يغادره ، وألا يتصل بأحد قط . .

استأنف قيادته للمعركة مُخْفيًا موت أبي بكر وأوامر عمر حتى يتحقق النصر الذي بات وشيكًا وقريبًا . .

ودقَّت ساعة الظَّفَر ، واندحر الروم . .

وتقدم البطل من أبي عبيدة مؤديًا إليه تحية الجندي لقائده . . وظنها « أبو عبيدة » في أول الأمر دعابَةً من دعابات القائد الذي حقق نصرًا لم يكن في الحسبان . . بيد أنه ما فتِئَ أن رآها حقيقة وجدًّا ، فقبل خالدًا بين عينيه ، وراح يُطْري عظمة نفسه وسجاياه . .

وثَمَّت رواية تاريخية أخرى ، تقول : إن الكتاب أرسل من أمير المؤمنين عمر إلى أبي عبيدة ، وكتم أبو عبيدة النبأ عن خالد حتى انتهت المعركة . . .

وسواء كان هذا الأمر أو ذاك ، فإن مَسْلَكَ خالد في كلتا الحالتين هو الذي يعنينا . . ولقد كان مسلكًا بالغ الروعة والعظمة والجلال . .

ولا أعرف في حياة « خالد » كلها موقفًا ينبئ بإخلاصه العميق وصدقه الوثيق ، مثل هذا الموقف . .

فسواء عليه أن يكون أميرًا ، أو جنديًا . .

إن الإمارة كالجندية ، كلاهما سبب يؤدي به واجبه نحو الله الذي آمن به ، ونحو الرسول الذي بايعه ، ونحو الدين الذي اعتنقه وسار تحت رايته . .

وجهده المبذول وهو أمير مُطَاع . . . كجهده المبذول وهو جندي مُطِيع . . ! !

ولقد هيأ له هذا الانتصار العظيم على النفس ، كما هَيَّأه لغيره ، طراز الخلفاء الذين كانوا على رأس الأمة المسلمة والدولة المسلمة يومذاك . .

أبو بكر وعمر . .

اسمان لا يكاد يتحرك بهما لسان ، حتى يخطر على البال كل مُعجزٍ

من فضائل الإنسان ، وعظمة الإنسان . .

وعلى الرغم من الوُدِّ الذي كان مفقودًا – أحيانًا – بين عمر وخالد ، إلا أن نزاهة عمر ، وعدله ، وورعه ، وعظَمته الخارقة ، لم تكن قط موضع تَسَاؤل لَدى خالد . .

ومن ثم لم تكن قراراته موضع شك ؛ لأن الضمير الذي يُمْليها ، قد بلغ من الورَع ، ومن الاستقامة ، ومن الإخلاص والصدق أقصى ما يبلغه ضمير مُنَزَّهٌ ورشيد .

* * *

لم يكن أمير المؤمنين عمر يأخذ على خالد مِنْ سُوء ، ولكنه كان يأخذ على سيفه التسرُّع ، والحِدَّة . .

ولقد عبَّرَ عن هذا حين اقترح على أبي بكر عزله إثْرَ مقتل مالك بن نويرة ، فقال :

[إن في سيف خالد رَهقًا] . .

أي خِفَّةً ، وحِدَّةً ، وتَسَرُّعًا . .

فأجابه الخليفة الصدِّيق :

[ما كنت لِأشِيمَ سيفا سَلَّهُ الله على الكافرين] . .

لم يقل « عمر » إن في خالد رهَقًا . . بل جعل الرهَق صفة لسيفه لا لشخصه ، وهي كلمات لا تنمّ عن أدب أمير المؤمنين فحسب ، بل وعن تقديره لخالد أيضًا . .

و« خالد » رجل حرب من المهد إلى اللَّحد . .

فبيئته ، ونشأته ، وتربيته ، وحياته كلها - قبل الإسلام وبعده - كانت كلها وِعَاءً لفارس ، مُخَاطر ، داهية . .

ثم إن إلحاح ماضيه قبل الإسلام ، والحروب التي خاضها ضد الرسول وأصحابه - والضربات التي أسقط بها سيفه أيام الشرك رءوسًا مؤمنة ، وجباهًا عابدة - كل هذا كان له على ضميره ثِقَل مُبْهِظ ، جعل سيفه تَوّاقًا إلى أن يُطَوِّح من دعامات الشرك أضعاف أضعاف ما طَوَّح من حَمَلة الإسلام . .

وإنكم لتذكرون العبارة التي أوردناها أوَّل هذا الحديث والتي جاءت في سياق حديثه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال له :

[يا رسول الله . .

استغفِر لي كُلَّ ما أوْضَعْتُ فيه من صَدٍّ عن سبيل الله] . .

وعلى الرغم من إنْباء الرسول صلى الله عليه وسلم إياه ، بأن الاسلام يَجُبُّ ما كان قبله ، فإنه ظل يتوسَّل على الظفر بعهد من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يستغفر الله له فيما صَنَعَتْ من قبلُ يداه . .

والسيف حين يكون في يد فارس خَارِق كخالد بن الوليد ، ثم يحرك اليدَ القابضة عليه ضمير مُتَوَهج بحرارة التطهُّر والتعويض ، ومُفعمٌ بولاءٍ مطلق لدين تُحيط به المؤامرات والعداوات ، فإن من الصعب على هذا السيف أن يتخلى عن مبادئه الصارمة ، وحِدَّته الخاطفة . .

وهكذا رأينا سيف خالد يُسبّب لصاحبه المتاعب .

فحين أرسله النبي عليه السلام بعد الفتح إلى بعض قبائل العرب القريبة من مكة ، وقال له :

[إني أبعثك داعيًا ، لا مُقاتلا]

غلَبه سيفُه على أمره ودفَعه إلى دَوْر المُقاتل . . متخليًا عن دور الداعي الذي أوصاه به الرسول مما جعله عليه السلام ينتفض جزَعًا وألمًا حين بلغه صنيع خالد . وقام مستقبلا القبلة ، رافعًا يديه ، معتذرًا إلى الله بقوله :

[اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد]

ثم أرسل عليًا فوَدَى لهم دماءهم وأموالهم .

وقيل إن خالدًا اعتذر عن نفسه بأن عبد الله بن حُذافة السَّهمي قال له : إن رسول الله قد أمرك بقتالهم لامتناعهم عن الإسلام . .

كان خالد يحمل طاقة غير عادية . . وكان يَستبدُّ به تَوْقٌ عارم إلى هدم عالَمه القديم كله . .

ولو أننا نبصره وهو يهدم صَنَم « العُزَّى » الذي أرسله النبي لهدمه .

لو أننا نبصره وهو يُدمدم بمعوله على هذه البناية الحجرية ، لأبْصَرنا رجلا يبدو كأنه يقاتل جيشًا بأسره ، يُطوِّح رؤوس أفراده ويُتبر بالمنايـــا صفوفه .

فهو يضرب بيمينه ، وبشماله ، وبقدمه ، ويصيح في الشظايا المتناثرة ، والتراب المتساقط :

[يا عُزَّى كفرانك ، لا سُبْحانَك

إني رأيتُ الله قد أهانَك . . ! !]

ثم يحرقها ويشعل النار في ترابها . . !

كانت كل مظاهر الشِّرك وبقاياه في نظر خالد – كالعُزَّى لا مكان لها

في العالم الجديد الذي وقف خالد تحت أعلامه . .

ولا يعرف خالد أداةً لتصفيتها إلا سيفه . .

وإلَّا . . [كُفرانك ، لا سُبْحانك . .

إني رأيتُ الله قد أهانك] . . . ! !

* * *

على أنا إذ نتمنَّى مع أمير المؤمنين عمر . لو خلا سيف خالد من هـــذا الرَّهَق ، فإننا سنظلُّ نردد مع أمير المؤمنين عمر -- قوله :

[عجزَت النساء أن يَلِدْن مثلَ خالد] . . ! !

لقد بكاه عمر يوم مات بُكاءً كثيرًا . وعلِم الناس فيما بعد أنه لم يكن يبكي فَقده فحسب ، بل ويبكي فرصة أضاعها الموت من عمر إذ كان يعتزم ردّ الإمارة إلى خالد بعد أن زال افتتان الناس به . ومُحّصَتْ أسباب عزله ، لولا أن تداركَهُ الموت وسارع خالد إلى لقاء ربه .

نعم ، سارَع البَطل العظيم إلى مَثْوَاه في الجنَّة . .

أما آنَ له أن يستريح . . ؟ ؟ هو الذي لم تَشْهد الأرض عدوا للراحة مثله . . ؟ ؟

أما آن لجسده المجهد أن ينام قليلا . . ؟ ؟ هو الذي كان يصفه أصحابه وأعداؤه بأنه :

[الرجل الذي لا ينام ، ولا يترك أحدًا ينام] . . ؟ ؟

أمَّا هو ، فلو خُيِّر لاختار أن يمدَّ الله له في عمره مزيدًا من الوقت يواصل فيه هدم البقايا المتعفنة القديمة ، ويُتابع عمله وجهاده في سبيل الله

والإسلام . . .

إن رَوْحَ هذا الرجل وريْحانَه لَيوجدان دائما وأبدا . حيث تصهل الخيل ، وتلتمع الأسنَّة ، وتخفق رايات التوحيد فوق الجيوش المسلمة . .

وإنه ليقول :

[ما لَيلَةٌ يُهْدَى إليَّ فيها عَرُوس ، أو أبَشَّر فيها بوليد ، بأحبَّ إليَّ من ليلة شديدة الجليد ، في سَرِيَّة من المهاجرين ، أصَبِّحُ بهم المشركين]

من أجل ذلك ، كانت مأساة حياته - في رأيه - أن يموت على فراشه ، وهو الذي قضى حياته كلها فوق ظهر جواده ، وتحت بريق سيفه . .

هو الذي غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقهر أصحاب الرِّدَّة ، وسوَّى بالتراب عرشي فارس والروم ، وقطع الأرض وثبًا ، في العراق خطوة خطوة . . حتى فتحه للإسلام - وفي بلاد الشام خطوة خطوة ، حتى فتحها كلها للإسلام . . .

أميرًا ، يحمل شظف الجنديّ وتواضعه . . وجنديا ، يحمل مسئولية الأمير وقُدْوَته .

كانت مأساة حياة البطل أن يموت البطل على فراشه . . ! !

هنالك قال ودموعه تنثال من عينيه :

[لقد شهدت كذا ، وكذا زحفًا ، وما في جسدي موضع إلا وفيه ضربة سيف ، أو طعنة رمح ، أو رَمْيَةُ سهم . .

« ثم ها أنذا أموتُ على فراشي حَتْفَ أنفي كما يموت البعير ،
فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجُبنَاء] . . ! !

كلمات لا يجيد النطق بها في مثل هذا الموطن ، إلا مثل هذا الرجل .

وحين كان يستقبل لحظات الرحيل ، شرع يُمْلي وصيَّته . .

أتدرون إلى مَن أوْصَى . . ؟ ؟

إلى عمر بن الخطاب ذاته . . ! !

أتدرون ماذا كانت تَركتُه . . ؟

فرسَه وسلاحَه . . ! !

ثم ماذا . . ؟ ؟

لا شيءَ قط ، مما يقتني الناس ويمتلكون . . ! !

ذلك أنه لم يكن يستحوذ عليه وهو حي ، سوى اقتناء النصر وامتلاك الظفر على أعداء الحق .

وما كان في متاع الدنيا جميعه ما يستحوذ على حرْصه . .

شيءٌ واحد ، كان يحرص عليه في شغف واسْتماتة . . تلك هـي « قَلَنْسُوَته » . .

سقطت منه يوم اليرموك . فأضْنَى نفسه والناس في البحث عنها . . فلما عُوتِب في ذلك قال :

[إن فيها بعضًا من شَعر ناصية رسول الله وإني أتفاءل بها ، وأستَنْصِر] .

* * *

وأخيرًا ، خرج جثمان البطل من داره محمولا على أعناق أصحابه ورمَقَتْه أم البطل الراحل بعينين اختلط فيهما بريق العزم بغاشِيَة الحزن فقالت تودعه :

أنت خير من ألفِ ألفٍ من القو م إذا ما كَبَتْ وجوه الرجال
أشجاعٌ . . ؟ فأنت أشجع من لَيْ ثٍ غَضَنْفَر يَذُودُ عن أشبال
أجوادٌ . . ؟ فأنت أجود من سَيل غامر يسيلُ بين الجبـــال

وسمعها « عمر » فازداد قلبه خَفْقًا . . ودمعُه دَفْقًا . . وقال :

[صدَقَتْ . .

واللهِ إنْ كان لكذلك] . .

وثَوى البطل في مَرْقَدِه . .

ووقف أصحابه في خشوع ، والدنيا من حولهم هاجعة ، خاشعة ، صامتة . .

لم يقطع الصمت المهيب سوى صهيل فرس جاءت - كما نتخيلها - تركُض بعد أن خلَعت رَسَنَهَا ، وقطعت شوارع المدينة وثبًا وراء جثمان صاحبها ، يقودها عَبيرُه وأريجُه .

وإذ بلغت الجمع الصامت والقبر الرطب لوّحت برأسها كالراية . وصَهيلها يصدح . . تمامًا مثلما كانت تصنع والبطل فوق ظهرها ، يهدُّ عروش فارس والروم ، ويشفي وساوس الوثنية والبغي ، ويزيح من طريق الإسلام كل قُوى التقهقر والشرك . .

وراحت - وعيناها على القبر لا تزيغان - تعلو برأسها وتهبط ، مُلوِّحةً لسيدها وبطلها ، مُؤدية له تحية الوداع . . ! !

ثم وقفت ساكنة – ورأسُها مرتفع . . وجبهتها عالية . . ولكن من مآقيها تسيل دموع غِزار وكبار . . ! !

لقد وقفها « خالد » مع سلاحه في سبيل الله .

ولكن . . هل سيقدر فارس على أن يمتطي صهوتها بعد خالد . . ؟ ؟

وهل ستُذّلل ظهرها لأحد سواه . . ؟ ؟

إيه يا بطلَ كل نَصر . .

ويا فَجْرَ كُل ليل . .

لقد كنت تعلو بروح جيشك على أهوال الزحف بقولك لجندك :

[عند الصَّباح يحمد القوم السُّرَى]

حتى ذهبَتْ عنك مثَلا . .

وها أنت ذا ، قد أتْممْتَ مَسْراك . .

فَلِصبَاحك الحمد ، أبا سليمان . . ! !

ولذكراك المجدُ ، والعِطْر ، والخُلد ، يا خالد . . ! !

ودَعْنا . . نُردِّد مع أمير المؤمنين عمر كلماتِه العِذاب الرِّطاب التي ودَّعَك بها ورثاك :

« رَحِمَ اللهُ أبا سليمان »

« ما عِنْدَ الله خَيرٌ مما كان فيه »

« ولقــــد عاش حَميدًا »

« ومـــاتَ سعــيدًا »





أدهى العرب، لولا الإسلام

كان الأنصار يُعاملونه على حَداثةِ سنّه كزعيم . .

وكانوا يقولون : « لو استطعنا أن نَشتري لقيس لحيةً بأموالنا لفعلنا » . .

ذلك أنه كان أجْردَ ، ولم يكن ينقصه من صفات الزعامة في عُرْف قومه سوى اللحية التي كان الرجال يتوجون بها وجوههم .

فمن هذا الفتى الذي ودَّ قومُه لو يتنازلون عن أموالهم لِقاء لحيَة تكسُو وجهه ، وتكمل الشكل الخارجي لعظمته الحقيقية ، وزعامته المتفَوقة . . ؟؟

إنه قيس بن سعد بن عُبادة .

مِن أجود بيوت العرب وأعرقها . . . البيت الذي قال فيه الرسول عليه الصلاة والسلام .

[إن الجودَ شيمَةُ أهل هذا البيت] . .

وإنه الداهية الذي يتفجرَّ حيلةً ، ومَهارة ، وذكاء ، والذي قال عن نفسه وهو صادق :

[لولا الإسلام ، لمكرتُ مكرًا لا تُطيقُه العرب] . . ! !

ذلك أنه كان حادّ الذكاء ، واسع الحيلة ، مُتوقّد الذهن .

ولقد كان مكانه يوم صفين مع علي ضد معاوية . . وكان يجلس مع نفسه فيرسم الخدعة التي يمكن أن تودِي بمعاوية وبمن معه في يوم أو بعض يوم ، بيد أنه يتفحَّص خُدعته هذه التي تفتّق عنها ذكاؤه فيجدها مــن

المكْر السَّيئ الخطرِ ، ثم يذكر قول الله سبحانه :

[ولا يَحيقُ المكْرُ السَّيئُ إلَّا بأهله] . . .

فيهُبُّ من فوره مستنكرًا ، مستغفرًا ، ولسان حاله يقول :

[واللهِ لَئن قدِّر لمعاوية أن يغلبنا . فلن يغلبنا بذكائه ، بل بوَرَعِنا وتَقْوانا] . . ! !

إن هذا الأنصاريَّ الخزْرَجِيَّ من بيتِ زَعامَة عظيم . وَرِث المكارمَ كابرًا عن كابرًا . . فهو ابن سعد بن عبادة ، زعيم الخزرج الذي سيكون لنا معه فيما بعدُ لِقاء . .

وحين أسلم « سعد » أخذ بيد ابنه « قيس » وقدمه إلى الرسول قائلاً :

[هذا خادِمُكَ يا رَسُولَ الله] . .

ورأى الرسول في « قيس » كلَّ سِمات التفوُّق وأمائرِ الصلاح . .

فأدْناهُ منه وقرّبه إليه وظل قيس صاحب هذه المكانة دائمًا . .

يقول « أَنَسٌ » صاحب رسول الله :

[كان قيسُ بن سعد من النبي ، بمكان صاحِب الشرطة من الأمير] . .

وحين كان قيس ، قبل الإسلام يُعامل الناس بذكائه كانوا لا يحتملون منه وَمْضةَ ذِهن ، ولم يكن في المدينة وما حولها إلا من يحسب لدهائه ألف حساب . . فلما أسلم ، علَّمه الإسلام أن يُعامل الناس بإخلاصه ، لا بدهائه ، ولقد كان ابنًا بارًا للإسلام ، ومِنْ ثَمَّ نحَّى دهاءه جانبًا ، ولم يعد ينسج به مُناوراته القاضية . . وصار كلما واجه موقعًا صعبًا ، يأخذه

الحنين إلى دهائه المقيد ، فيقول عبارته المأثورة :

[لولا الإسلام ، لمكَرْت مَكرًا لا تُطيقه العَرَب] . . . ! ! !

* * *

ولم يكن بين خِصاله ما يَفوقُ ذكاءه سِوى جودِه . . ولم يكن الجودُ خُلُقًا طارئًا على قيس ، فهو من بيتٍ عريق في الجود والسخاء ، وكان لأسرة قيس – على عادة أسخياء العرب وأثريائهم يومئذ – مُنادٍ يقف فوق مُرتَفَع لهم وينادي الضّيفان إلى طعامهم نهارًا . . أو يُوقِد النار لتَهدي الغريب الساري ليلا . . وكان الناس أيامئذ يقولون : « من أحبَّ الشَّحْمَ ، واللحم ، فلْيأت أطُمَ دُلَيم بن حارثة » . . .

و« دليم بن حارثة » هو الجد الثاني لقيس . . .

ففي هذا البيت العريق أُرْضِعَ قيسٌ الجود والسماح . .

تحدث يومًا أبو بكر وعمر حول جود قيس وسخائه وقالا :

[لو تركنا هذا الفتى لسخائه ، لأهلك مال أبيه] . .

وعلم « سعد بن عُبادة » بمقالتهما هذه عن ابنه قيس ، فصاح قائلاً : « من يُعْذِرُني من أبي قحافة ، وابن الخطاب . . يُبَخِّلان علـيَّ ابني » . . . ! ! !

وأقْرض أحد إخوانه المُعْسرِين يومًا قرضًا كبيرًا . .

وفي الموعد المضروب للوفاء ذهب الرجل يردُّ إلى قيس قَرْضه فأبى أن يقبله وقال :

[إنا لا نعود في شيْ أعطيناه] . . . ! !

* * *

وللفطرة الإنسانية نهج لا يتخلّف، وسُنّة لا تتبدَّل.. فحيث يوجد الجود توجد الشجاعة..

أجل.. إن الجود الحقيقي والشجاعة الحقيقية توأمان، لا يتخلّف أحدهما عن الآخر أبدًا.. وإذا وجدْتَ جودًا ولم تجد شجاعة، فاعلم أن هذا الذي تراه ليس جودًا.. إنما هو مظهر فارغ وكاذب من مظاهر الزَّهْو والادِّعاء.. وإذا وَجدتَ شجاعة لا يصاحبها الجود، فاعلم كذلك أنها ليست شجاعة، إنما هي نزوة من نزوات التهوُّر والطيش..

ولما كان «قيس بن سعد» يُمسك أعِنّةَ الجود بيمينه فقد كان يُمسك بذات اليمين أعِنَّةَ الشجاعة والإقدام..

لكأنه المَعْنِيُّ بقول الشاعر:

إذا ما رايَةٌ رُفِعت لِمَجْدِ   تلَقَّاها عَرابَةُ باليمين

تألّقت شجاعته في جميع المشاهد التي صاحب فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حيّ..

وواصَلتْ تألّقاتِها، في المشاهد التي خاضها بعد أن ذهب الرسول إلى الرفيق الأعلى..

والشجاعة التي تعتمد على الصدق بدل الدهاء.. وتتوسَّل بالوضوح والمواجهة، لا بالمناوَرَة والمُراوغة، تُحمّل صاحبها من المصاعب والمشاقّ ما يَؤُوده ويُضنيه..

ومنذ ألْقَى قيس وراء ظهره، قدرته الخارقة على الدهاء والمناورة، وحمل هذا الطراز من الشجاعة المُسْفِرة الواضحة، وهو قرير العين بما تُسببه له من مَتاعب وما تَجلِبهُ من تَبِعات..

إن الشجاعة الحقَّة تنقذف من اقتناع صاحبها وحده . .

هذا الإقتناع الذي لا تُكوِّنه شهوة أو نزوة ، إنما يُكونه الصدق مع النفس ، والإخلاص للحق . .

وهكذا حين نَشِب الخلاف بين عليّ ومعاوية ، نرى قَيْسًا يخلو بنفسه ، ويبحث عن الحق من خلال اقتناعه ، حتى إذا رآه مع « عليّ » ينهض إلى جواره شامخًا ، قويًا ، مُسْتَبسِلا . .

وفي معارك صِفّين ، والجمَل ، والنهروَان ، كان قيس أحد أبطالها المُسْتَبْسِلِين . .

كان يحمل لواء الأنصار وهو يصيح :

هذا اللواء الذي كُنَّا نَحُفُّ بــه
مع النبي ، وجبريلٌ لنـــا مَدَدُ
ما ضَرَّ من كانت الأنصارُ عَيْبَتَه
ألّا يكون له من غــيرهم أحدُ

ولقد ولّاه الإمام « عليّ » حكم مصر . .

وكانت عين معاوية على مصر دائمًا . . كان ينظر إليها كأثمن دُرَّة في تاجه المنتظر . .

من أجل ذلك لم يكد يرى قيسًا يتولى إمارتها حتى جُنَّ جنونه وخشي أن يَحُول قيس بينه وبين مصر إلى الأبد ، حتى لو انتصر هو على « الإمام عليّ » انتصارًا حاسمًا . .

وهكذا راح بكل وسائله الماكرة ، وحِيله التي لا تُحجِم عن أمر ، يَدُسُّ عند علي ضد قيس ، حتى استدعاه الإمام من مصر . .

وهنا وجد قيس فرصة سعيدة ليستعمل ذكاءه استعمالا مَشروعا ، فلقد أدرك بفطنته أن معاوية لعب ضدّه هذه اللعبة بعد أن فشل في استمالته إلى جانبه ، لكي يوغر صدره ضد الإمام عليّ ، ولكي يضائل من ولائه له . . وإذن ، فخير رد على دهاء معاوية ، هو المزيد من الولاء لعلي . وللحق الذي يُمثله علي ، والذي هو في نفس الوقت مَناط الاقتناع الرشيد والأكيد لقيس بن سعد بن عبادة . .

وهكذا لم يُحسَّ لحظة أن عليًّا عزله عن مصر . فما الولاية ، وما الإمارة ، وما المناصب كلها عند قيس إلا أدوات يخدم بها عقيدتـــه ودينه . . ولئن كانت إمارته على مصر وسيلة لخدمة الحق ، فإن موقفه بجوار علي فوق أرض المعركة وسيلة أخرى لا تقل أهمية ولا رَوْعة . .

* * *

وتبلغ شجاعة قيس ذروة صدقها ونُهاها ، بعد استشهاد عليٍ وبيعة الحسن . .

لقد اقتنع قيس بأن الحسن رضي الله عنه . هوالوارث الشرعي للإمامة فبايعه ووقف إلى جانبه غير مُلْقٍ إلى الأخطار بالا . .

وحين يضطرهم معاوية لامتشاق السيوف ، ينهض قيس فيقود خمسة آلاف من الذين حلقوا رءوسهم حدادًا على الإمام علي . .

ويُؤْثِرُ الحسن أن يُضمِّد جراح المسلمين التي طال شُحُوبها ، ويضع حدًا للقتال المُفني المُبيد ، فيفاوض معاوية ثم يبايعه . .

هنا يدير « قيس » خواطره على المسألة من جديد ، فيرى أنه مهما يكن في موقف الحسن من الصواب ، فإن الجنود قيس في ذِمَّته حق

الشورى في اختيار المصير ، وهكذا يجمعهم ويخطب فيهم قائلا :

[إن شئتم جالَدْتُ بكم حتى يموتَ الأعجَلُ منا ، وإن شئتم أخذتُ لكم أمانا] . .

واختار جنوده الأمر الثاني ، فأخذ لهم الأمان من مُعاوية الذي ملأ الحبورُ نفسَه حين رأى مقاديره تُريحه من أقوى خصومه شكيمة وأخطرهم عاقبة . .

وفي المدينة المنورة - عام تسع وخمسين - مات الداهية الذي رَوَّضَ الإسلامُ دهاءه . .

مات الرجل الذي كان يقول :

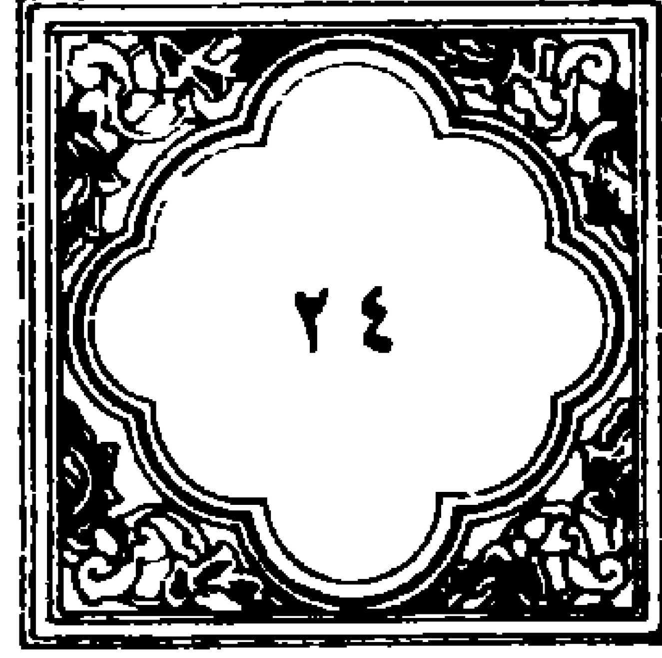
لولا أني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

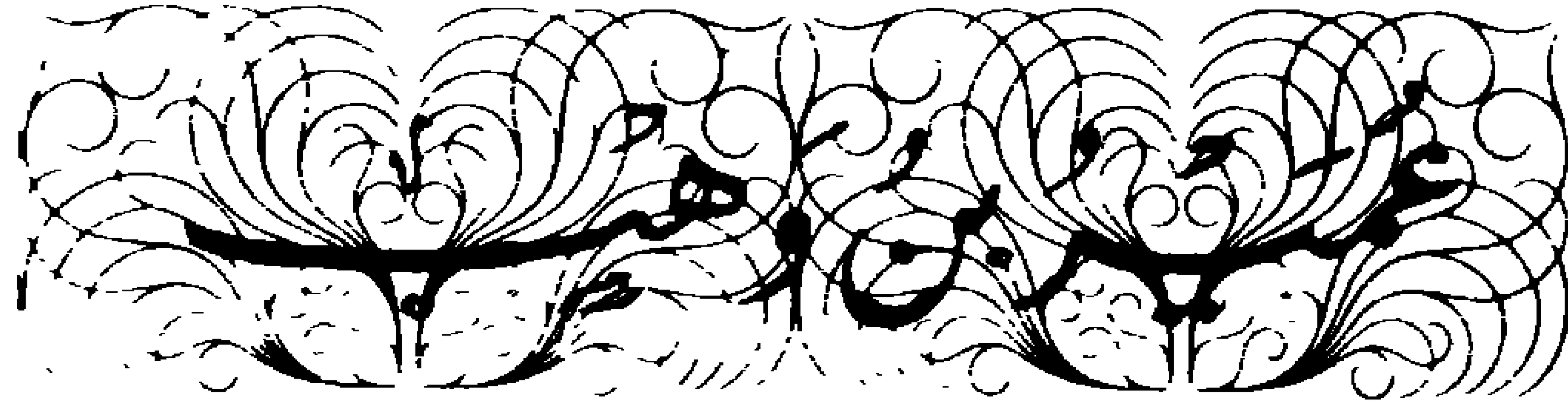
[المكرُ . والخديعة في النار . لكنتُ من أمكر هذه الأمة] . . .

مات في سلام . تاركًا للحياة عَبيرَ رجل صادق . واضح . جواد . شُجاع . .

أجَل . . مات . تاركا وراءه عَبيرَ رجل أمين على كل ما للإسلام عنده من ذِمَّة . وعهد . وميثاق . .







شيطانُ الجاهلية، وحَوارِيُّ الإسلام

في يوم « بدر » ، كان واحدًا من قادة قريش الذين حملوا سيوفهم ليُجهزوا على الإسلام .

وكان حديد البصَر ، محكَمَ التقدير ، ومن ثمَّ ندبه قومه ليستطلع لهم عدد المسلمين الذين خرجوا مع الرسول للقَائهم ، ولينظر إن كان لهم من ورائهم كمينٌ أو مَدَد . . .

وانطلق « عمير بن وهب الجمحي » وصَال بفرسه حـــول معسكر المسلمين ، ثم رجع يقول لقومه : « إنهم ثلاثمائة رجل ، يزيدون قليلا أو ينقصون » وكان حَدْسُه صحيحًا .

وسألوه : هل وراءهم أمدادٌ لهم ؟ ؟ فأجابهم قائلا :

[لم أجد وراءهم شيئًا . . . ولكن يا معشر قريش ، رأيتُ المطايا تحمل الموت الناقع . . . قوم ليس معهم مَنَعة ولا ملجأ إلا سيوفهم . . .

« والله ما أرى أن يُقتل رجل منهم حتى يَقْتُلَ رجلا منكم ، فإذا أصَابوا منكم مِثْلَ عددهم ، فما خيرُ العيش بعـــد ذلك . . ؟ ؟

« فانظروا رأيكم] . . .

وتأثَّرَ بقوله ورأيه نفرٌ من زعمَاء قريش ، وكادوا يجمعون رجالهم ويعودون إلى مكة بغير قتَال ، لولا أبو جهل الذي أفسد عليهم رأيهم ،

وأضرم في النفوس نَار الحقد ، ونَار الحرب ، التي كان هو أوّلَ قَتْلاَهَا . . .

* * *

كان أهل مكة يُلَقبونه بـ : « شيطَان قريش » . . .

ولقد أبلى « شيطان قريش » يوم بدر بلاءً لم يُغْنه ولم يُغْن قومه شيئًا ، فعَادت قوات قريش إلى مكة مهزومة مدحورة ، وخلَّف « عمير بن وهب » في المدينة بُضْعَة منه . . . إذ وقع ابنه في أيدي المسلمين أسيرًا . . .

وذات يوم ضمَّهُ مجلس بابن عمه « صفوان بن أُميَّة » . . . وكان صفوان يمضغ أحقَاده في مرارة قاتلة ، فإن أباه « أُميَّة بن خلف » قد لقي مصرعه في بدر ، وسكنت عظَامُه القَليب .

جلس « صفوان » و« عمير » يجْترَّان أحقادهمَا . . .

وَلْنَدْع « عروَة بن الزبير » ينقل إلينَا حديثهما الطويل :

[قال صفوان ، وهو يذكر قتلى بدر : والله ما في العيش بعدهم خير . . ! !

وقال له عمير : صدقت ، وَوَاللهِ لولا دَيْنٌ عَلَيَّ لا أملك قضَاءَه ، وعِيَالٌ أخشى عليهم الضيْعَة بعدي لركبتُ إلى محمد حتى أقتله ، فإن لي عنده عِلّةً أعتَلُّ بهَا عليه : أقول قدمت من أجل ابني هذا الأسير .

« فاغتنمهَا صفوان وقال :

عَلَيَّ دَيْنك . . . أنَا أقضيه عنك . . . وعيَالُك مع عيالي أُوَاسيهم ما بقوا . . .

فقال له عمير : إذن فاكتم شأني وشأنك . . .

ثم أمر « عمير » بسيفه فَشُحِذ لهُ وسُمَّ ، ثم انطلق حتى قدم المدينة .

« وبينما « عمر بن الخطاب » في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ، ويذكرون ما أكرمهم الله به ، إذ نظر عمر ، فرأى « عمير بن وهب » قد أناخَ راحلته على باب المسجد ، متوشحًا سيفه ، فقال :

هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ، والله ما جاء إلا لشرّ . . . فهو الذي حرَّش بيننا وحَزَرَنَا للقوم يوم بدر . . .

« ثم دخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا نبي الله هذا عدو الله « عمير بن وهب » قد جاء مُتَوشحًا سيفه . .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

أدْخِله عَلَيَّ . . « فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنُقُه فَلَبَّبه بهَا ، وقَال لرجَال ممن كانوا معه من الأنصار ، ادخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون .

« ودخل به عمر على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو آخذٌ بحمالة سيفه في عُنقه فلما رآه الرسول قال : دعه يا عمر . . . ادْنُ يا عمير . .

« فدنا عمير وقال : انعموا صباحا ، وهي تحية الجاهلية

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ، بالسلام . . . تحية أهل الجنة .

فقال عمير : أما والله يا محمد إن كُنتُ بها لَحديثَ عهد .

« قال الرسول : فما جاء بك يَا عمير . . ؟ ؟

قال : جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم .

قال النبي : فما بال السيف في عُنُقك . . ؟ ؟

قال عمير : قبَّحها الله من سيوف ، وهل أغنَت عنَّـــا شيئًا . . ؟ !

قال الرسول صلى الله عليه وسلم : أصدقني يا عمير ، ما الذي جئتَ له . . ؟

قال : ما جئت إلا لذلك .

« قال الرسول صلى الله عليه وسلم : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فذكرتما أصحَاب القليب من قريش ، ثم قلت : لولا دَيْنٌ عليَّ ، وعيالٌ عندي لخرجتُ حتى أقتل محمدًا ، فتحمّل لك صفوانُ بدينك وعيالك عَلَى أن تقتلني له ، واللهُ حائلٌ بينكَ وبين ذلك . . ! ! !

« وعندئذ صَاح عمير : أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله . . . هذا أمرٌ لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله ما أنبأك به إلا الله ، فالحمدلله الذي هداني للإسلام . .

فقال الرسول لأصحابه : فَقِّهوا أخاكم في الدين وأقرئوه

القرآن ، وأطلقوا له أسيره] . . ! !

* * *

هكذا أسلم عمير بن وهب . . .

هكذا أسلم « شيطان قريش » وغشيه من نور الرسول والإسلام ما غشيه فإذا هو في لحظة ينقلب إلى « حَوَاريٍّ » للإسلام . . ! !

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

[والذي نفسي بيده ، لخنزيرٌ كان أحبَّ إليَّ من عمير حين طلع علينَا . .

ولَهُوَ اليوم أحبُّ إليَّ من بعض ولدي] . . ! !

* * *

جلس « عمير » يفكر بعمق في سمَاحة هذا الدين ، وفي عظمة هذا الرسول :

وتذكّر أيّامه الخوالي في مكة وهو يكيد للإسلام ويحاربه قبل هجرة الرسول وصحبه إلى المدينة .

ثم تذكّر بلاءه وقتالَه يوم بدر . .

ثم ها هو يجيءُ اليوم متوشحًا سيفه ليقتل به الرسول .

كل ذلك يمحوه في لحظة من الزمان قوله : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » . . . ! !

أيّةُ سماحة ، وأيُّ صفاء ، وأية ثقة بالنفس يحملها هذا الـــدين العظيم . . ! !

أهكذا في لحظةٍ يمحو الإسلام كل خطاياه السالفة ، وينسى المسلمون كل جرائره وعداواتــه السابقة ، ويفتحون له قلوبهم ، ويأخذونــه بالأحضان . . ؟ !

أهكذا ، والسيف الذي جاء معقودًا على شرٍّ طوِيَّة وشرٍّ جريمة ، لا يزال يلمع أمام أبصارهم ، يُنْسى ذلك كله ، ولا يُذْكَرُ الآن إلا أن عُميرًا بإسلامه ، قد أصبح – وفي لحظة واحدة – واحدًا من المسلمين ومن أصحاب الرسول ، له ما لهم . . وعليه ما عليهم . . ؟ ! !

أهكذا ، وهو الذي ودَّ عمر بن الخطاب منذ لحظتين أن يقتله ، يصبح أحبّ إلى عمر من ولده وبنيه . . ؟ ؟ ! !

إذا كانت لحظة واحدة من الصدْق ، تلك التي أعلن فيها عمير إسلامه ، تحظى من الإسلام بكل هذا التقدير والتكريم والمثوبة والإجلال ، فإن الإسلام إذن لهو دينٌ عظيم . . ! !

* * *

وفي لحظات عَرَف « عُمير » واجبه تجاه هذا الدين . . أن يخدمَه بقدر ما حاربَه . . وأن يدعُوَ إليه ، بقدر ما دعا ضِدَّه . . وأن يُرِيَ الله ورسوله ما يُحبُّ اللهُ ورسولُه من صدق ، وجهاد ، وطاعة . . وهكذا أقبل على رسول الله ذات يوم ، قائلا :

[يا رسول الله : إني كنتُ جاهدًا على إطفاء نور الله ، شديدَ الأذى لمن كان على دين الله عزَّ وجلّ ، وإني أحب أن تأذَن لي فأقدُمَ مكة ، فأدعوهم إلى الله تعالى ، وإلى رسوله ، وإلى الإسلام ، لعلّ الله يهديهم ، وإلَّا آذيتُهم في دينهم كما

كنتُ أوذِي أصحابك في دينهم] . .

* * *

في تلك الأيام ، ومنذ فارق « عمير » مكة متوجهًا إلى المدينة ، كان « صفوان بن أُمية » الذي أغرى عميرًا بالخروج لقتل الرسول ، يمشي في شوارع مكة مختالا . ويغشي مجالسها وندواتها فرحًا محبورًا . . !

وكلما سأله قومه وإخوته عن سرِّ فرحه ونشوته ، بينما عظام أبيه لا تزال ساخنة في حظائر بدر . يفرك كفَّيه في غرور ويقول للناس : « أبشروا بوقعة يَأتيكم نبأها بعد أيام . تُنسيكم وقعة بدر » . . ! !

وكان يخرج إلى مشارف مكة كل صباح يسأل القوافل والرُّكبان :

« ألم يحدُث بالمدينة أمر » .

وكانوا يجيبونه بما لا يُحب ولا يَرضى . فما منهم من أحدٍ سمع أو رأى في المدينة حدَثًا ذا بال . .

ولم ييأس صفوان . . بل ظلَّ مُثابرًا على مُساءلَةِ الركبان ، حتى لقي بعضهم يومًا فسأله : « ألم يحدث بالمدينة أمر » . . ؟ ؟

فأجابه المسافر : بلى . حدَث أمر عظيم . . ! !

وتهلَّلت أسارير « صفوان » وفاضت نفسه بكل ما في الدنيا من بهجة وفرح . .

وعاد يسأل الرجل في عَجَلة المشتاق : « ماذا حدث . ؟ اقصُصْ عليّ » . . وأجابه الرجل : « لقد أسلم « عمير بن وهب » . وهو هناك يتفقه في الدين . ويتعلم القرآن » . . . ! !

ودارت الأرض بصفوان . . والوَقعة التي كان يُبشر بها قومه . والتي كان ينتظرها لتنسيه وقعة بدر ، جاءته اليوم في هذا النبأ الصاعق لتجعله حُطامًا . . ! !

* * *

وذات يوم بلغ المسافر داره . . وعاد « عمير » إلى مكة شاهرًا سيفه ، متحفزًا للقتال ، ولقيه أول ما لقيه صفوان ابن أمية . .

وما كاد يراه حتى هم بمهاجمته ، ولكن السيف المتحفز في يد عمير ردَّه إلى صوابه ، فاكتفى بأن ألقى على سمع عمير بعض شتائمه ثم مضى لسبيله . . .

دخل « عمير بن وهب » مكة مُسْلمًا ، وهو الذي فارقها من أيام مشركا .

دخلها وفي روعه صورة عمر بن الخطاب يوم أسلم ، ثم صاح فَوْر إسلامه قائلا :

[واللهِ لا أَدَع مكانًا جلستُ فيه بالكفر ، إلَّا جَلَسْتُ فيه بالإيمان] . .

ولكأنما اتخذ « عمير » من هذه الكلمات شعارًا ، ومن ذلك الموقف قدوة ، فقد صمم على نذر حياته للدين الذي طالما حاربَه . . ولقد كان في موقف يسمح له بأن يُنزِل الأذى بمن يريد له الأذى .

وهكذا راح يُعوِّض ما فاته . . ويُسابق الزمن إلى غايته ، فيبشر بالإسلام ليلا ونهارًا . علانيةً وإجهارًا . .

في قلبه إيمانه يَفيض عليه أمْنًا ، وهدى ، ونورًا . .

وعلى لسانه كلماتُ حق ، يدعو بها إلى العدل والإحسان والمعروف والخير . . .

وفي يمينه سيفه ، يُرهب به قُطاع الطرق الذين يَصُدُّون عن سبيل الله مَن آمنَ به ، ويَبْغونها عِوَجا .

وفي بضعة أسابيع كان الذين هُدُوا إلى الإسلام على يد « عمير بن وهب » يفوق عددهم كل تقدير يمكن أن يخطر بالبال .

وخرج « عمير » بهم إلى المدينة في موكب طويل مُشرق .

وكانت الصحراء التي يجتازونها في سفرهم لا تكتم دهشتها وعجبها من هذا الرجل الذي مرَّ بها من قريب حاملا سيفه ، حاثًّا خطاه إلى المدينة ليقتل الرسول . . ثم عَبَرها مرة أخرى راجعًا من المدينة بغير الوجه الذي ذهب به يُرَتل القرآن من فوق ظهر ناقته المحبورة . . ثم ها هو ذا يجتازها – أي الصحراء – مرة ثالثة . . على رأس موكب طويل من المؤمنين يملأون رحابها تهليلا ، وتكبيرًا . .

* * *

أجل إنه لنبأ عظيم . . نبأ « شيطان قريش » الذي أحالَتْه هداية الله إلى « حَواريّ » باسل من حَوَارِيِّ الإسلام ، والذي ظل واقفًا إلى جوار رسول الله في الغزوات والمشاهد ، وظلَّ ولاؤه لدين الله راسخًا بعد رحيل الرسول عن الدنيا .

وفي يوم فتح مكة لم ينس « عمير » صاحبه وقريبه « صفوان بن أُمية » فراح إليه يُناشده الإسلام ويدعوه إليه بعد أن لم يبق شك في صدق الرسول ، وصدْق الرسالة . .

بَيْدَ أنَّ صفوان كان قد شد رحاله صَوْب « جُدَّة » لِيُبحِر منها إلى اليمن . .

واشتدَّ إشفاق عمير على صفوان ، وصمم على أن يسترده من يد الشيطان بكل وسيلة .

وذهب مسرعًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له :

[يا نبيَّ الله ، إن صفوان بن أُمية سيد قومه ، وقد خرج هاربًا منك ليقذف نفسه في البحر فأمِّنْه صلى الله عليك ،
فقال النبي : هو آمِن .

« قال : يا رسول الله فأعطِني آية يعرف بها أمانك . فأعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم عمامته التي دخل فيها مكة] . .

ولْندَع « عروة بن الزبير » يُكمل لنا الحديث :

[فخرج بها عمير حتى أدركه وهو يريد أن يركب البحر ، فقال : يا صفوان ، فِدَاك أبي وأمي . . اللهَ اللهَ في نفسك أن تُهلكَها . . هذا أمانُ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جئتك به . .

« قال له صفوان : وَيْحَك ، اغرُب عني فلا تكلمني . .
قال : أيْ صفوان . . فداك أبي وأمي ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضلُ الناس ، وأبَرُّ الناس ، وأحْلَمُ الناس ، وخيرُ الناس . . عِزّه عِزُّك ، وشَرَفُه شَرَفُك . .
قال : إني أخاف على نفسي . .

قال : هو أحْلَمُ من ذاك وأكرم . .

« فرجع معه حتى وقف به على رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

فقال صفوان للنبي صلى الله عليه وسلم : إن هذا يزعُم أنك قد أمَّنْتَنِي . .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم : صدَق . .

قال صفوان : فاجعلني فيه بالخيار شهرين . .

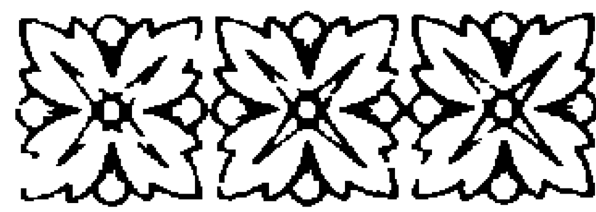
قال الرسول صلى الله عليه وسلم : أنت بالخيار فيه أربعة أشهر] . .

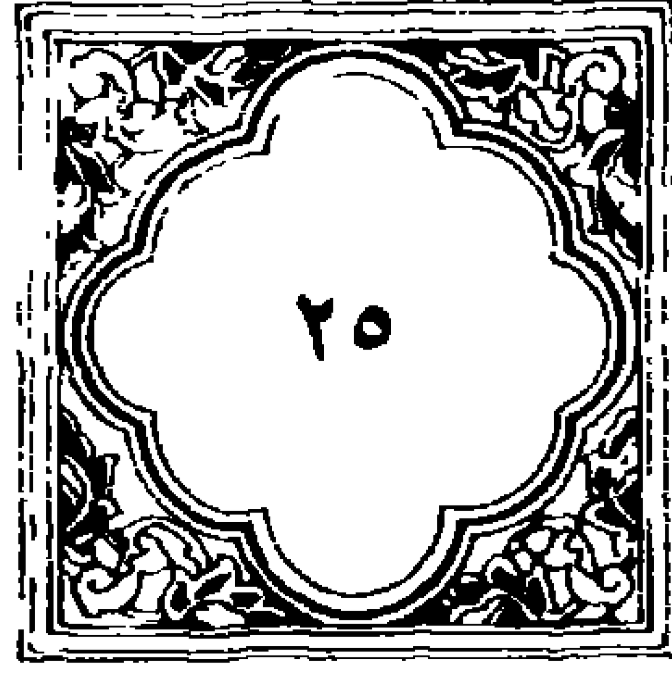
وفيما بعد أسلم صفوان . .

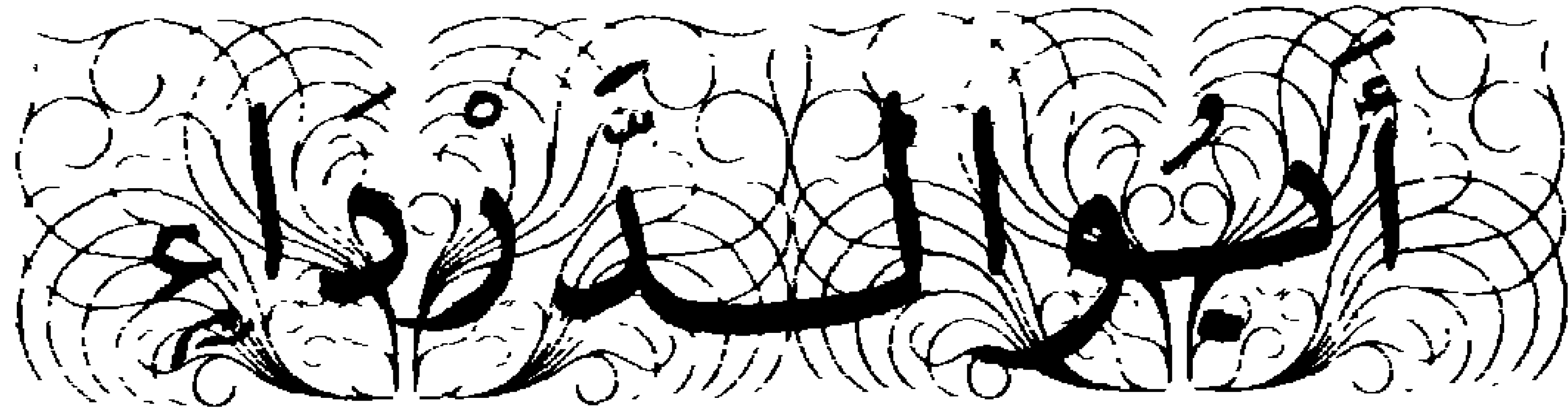
وسعِد عُمَير بإسلامه أيَّما سعادة . .

* * *

وواصل « ابن وهب » مسيرته المباركة إلى الله ، مُتَّبعًا أثَرَ الرسول العظيم الذي هدى الله به الناس من الضلالة ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور.







أى حكيم كان.. ؟!



بينما كانت جيوش الإسلام تضرب في مناكب الأرض . . هادرة ظافرة . . كان يقيم بالمدينة فيلسوف عجيب . . وحكيم تتفجر الحكمة من جوانبه في كلمات تناهت نَضْرَةً وبهاء . .

وكان لا يفتأ يقول لمن حوله :

[ألا أخبركم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند باريكم ، وأنماها في درجاتكم ، وخيرٌ من أن تغزو عدوكم ، فتضربوا رقابهم ويضربوا رقابكم ، وخيرٌ من الدراهم والدنانير . . ؟ ؟] . .

وتَشْرَئِبُّ أعناق الذين يُنصتون له . . ويسارعون بسؤاله :

[أيُّ شيءٍ هو . . يا أبا الدَّرْدَاء] . . ؟ ؟

ويستأنف « أبو الدرداء » حديثه فيقول ووجهه يتألَّق تحت ضوء الإيمان والحكمة :

[ذِكْرُ الله . .

و لَذِكْرُ الله أكبر] . . ! !

* * *

لم يكن هذا الحكيم العجيب يُبشر بفلسفة انعزالية ولم يكن بكلماته هذه يُبشر بالسَّلْبِية ، ولا بالانسحاب من تبعات الدين الجديد . . تلك التبعات التي يأخذ الجهاد مكان الصدارة منها . .

أجل . . ما كان « أبو الدرداء » ذلك الرجل ، وهو الذي حمل سيفه

مجاهدًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أسلم ، حتى جاء نصر الله والفتح . . .

بَيْدَ أنه كان من ذلك الطراز الذي يجد نفسه في وجودها الممتلئ الحي ، كلما خلا إلى التأمُّل ، وأوَى إلى محراب الحكمة ، ونذر حياته لنشدان الحقيقة واليقين . . ؟ ؟

ولقد كان حكيمُ تلك الأيام العظيمة « أبو الدرداء » رضي الله عنه إنسانًا يتملكه شوق عارم إلى رؤية الحقيقة واللقاء بها . .

وإذ قد آمن بالله وبرسوله إيمانًا وثيقًا ، فقد آمن كذلك بأن هذا الإيمان بما يمليه من واجبات وفهم ، هو طريقه الأمثل والأوحد إلى الحقيقة . .

وهكذا عكف على إيمانه مسلمًا إليه نفسه ، وعلى حياته يصوغها وفْق هذا الإيمان في عزم ، ورُشد ، وعظمة . .

ومضى على الدَّرب حتى وصل . . وعلى الطريق حتى بلغ مُسْتوى الصدق الوثيق . . وحتى كان يأخذ مكانه العالي مع الصادقين تمامًا حين يُنَاجي ربه مُرتلا آيتَه . .

[إن صلاتي ونُسُكي ومحيَاي ومماتي لله رب العالمين] . .

أجل . . لقد أنتهى جهاد « أبي الدرداء » ضدَّ نفسه ، ومع نفسه إلى تلك الذروة العالية . . إلى ذلك التفوُّق البعيد . . إلى ذلك التفاني الرهباني . . الذي جعل حياته –كلّ حياته . . لله رب العالمين . . ! !

* * *

والآن ، تعالوا نقترب من الحكيم والقدّيس . . ألا تبصرون الضياء الذي يتلألأ حول جبينه . . ؟ ؟

ألا تشمُّون العبير الفواح القادم من ناحيته . . ؟ ؟

إنه ضياء الحكمة ، وعبير الإيمان . .

ولقد الْتقى الإيمان والحكمة في هذا الرجل الأوَّاب لقاء سعيدًا ، أيَّ سعيد . . . ! ! !

سُئلت أمه عن أفضل ما كان يحب من عمل . . فأجابت :

[التفكُّر والاعتبار] . .

أجَلْ . . لقد وعَى تمامًا قول الله في أكثر من آية :

[فاعْتَبروا يَا أُولي الأبْصار] . .

وكان وهو يحُضّ إخوانه على التأمُّل والتفكر يقول لهم :

[تفكُّر ساعة خير من عبادة ليلة] . .

لقد استولت العبادة والتأمل ونشدان الحقيقة على كل نفسه . . وكل حياته . .

ويوم اقتنع بالإسلام دينًا ، وبايع الرسول صلى الله عليه وسلم على هذا الدين الكريم ، كان تاجرًا ناجحًا من تجار المدينة النابهين ، وكان قد قضى شطر حياته في التجارة قبل أن يُسلم ، بل وقبل أن يأتي الرسول والمسلمون إلى المدينة مُهاجرين . .

بيد أنه لم يمض على إسلامه غير وقت وجيز حتى . . .

ولكن لِندَعْه هو يكمل لنا الحديث :

[أسلمتُ مع النبي صلى الله عليه وسلم وأنا تاجر . .

« وأردتُ أن تجتمع لي العبادة والتجارة فلم يجتمعا . .

« فرفضتُ التجارة وأقبلتُ على العبادة . .

« وما يسرني اليوم أن أبيع وأشتري فأربح كل يوم ثلاثمائة دينار ، حتى لو يكون حانوتي على باب المسجد . . .

« ألا إني لا أقول لكم : إن الله حرّم البيع . .

« ولكني أحبُّ أن أكون من الذين لا تُلْهيهم تجارةٌ ولا بَيعٌ عن ذكر الله] . . ! ! !

أرأيتم كيف يتكلم فيوفي القَضيَّة حقها ، وتُشرق الحكمة والصدق من خِلال كلماته . . ؟ ؟

إنه يُسارع قبل أن نسأله : وهل حرم الله التجارة يا أبا الدرداء . . . ؟ ؟

يسارع فَينفُض عن خواطرنا هذا التساؤل ، ويشير إلى الهدف الأسمى الذي كان ينشده ، ومن أجله ترك التجارة رغم نجاحه فيها . .

لقد كان رجلاً ينشد تخصصًا روحيًا وتفوّقًا يرنو إلى أقصى درجات الكمال الميسور لبني الإنسان . .

لقد أراد العبادة كمعراج يرفعه إلى عالم الخير الأسمى ، ويشارف به الحق في جلاله ، والحقيقة في مَشرِقها ، ولو أرادها مجرد تكاليف تُؤَدَّى ، ومحظورات تُترك ، لاستطاع أن يجمع بينها وبين تجارته وأعماله . . .

فكم من تُجارٍ صالحين . . وكم من صالحين تُجَّار . .

ولقد كان مِنْ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من لَمْ تُلْهِهم تجارتُهم ولا بيعُهم عن ذكر الله . . . بل اجتهدوا في إنماء تجارتهم وأموالهم ليخدموا بها قضية الإسلام ، ويكْفوا بها حاجات المسلمين . . .

ولكن منهج هؤلاء الأصحاب ، لا يغمز مَنهج أبي الدرداء ، كما أن منهجه لا يغمز منهجهم ، فكلٌ مُيَسَّرٌ لما خُلِق له . .

وأبو الدرداء يُحِسُّ إحساسًا صادقًا أنه خلِق لما نذرَ له حياته . . . التخصُّص في نُشدان الحقيقة بممارسة أقصى حالات التبتُّل وَفْق الإيمان الذي هداه إليه رَبه ، ورَسولُه ، والإسلام . .

سموه إن شئتم تصوُّفا . .

ولكنه تصوُّف رَجُلٍ توفّر له مِنْ فطنة المؤمن ، وقُدرَة الفيلسوف ، وتجربة المحارب ، وفقه الصحابيّ ، ما جعل تصوُّفه حركة حيّةً في بناء الروح ، لا مجرد ظلال صالحة لهذا البناء . . ! !

أجَلْ . .

ذلكم هوأبوالدَّرْداء ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلميذه . .

وذلكم هو أبو الدرداء ، القدِّيس ، والحكيم . .

رجل دفع الدنيا بكلتا راحَتَيْه ، وذادها بصدره . .

رجل عكَف على نفسه حتى صقلها وزكاها ، وحتى صارت مرآة صافية انعكَس عليها من الحكمة ، والصواب ، والخير ، ما جعل من أبي الدرداء معلمًا عظيما وحكيما قويما . . .

سعداءُ ، أولئك الذين يُقبلون عليه ، ويُصْغون إليه . .

ألَا تعالوا نقترب من حكمته يا أولِي الألباب . .

* * *

ولنبدأ بفلسفته تجاه الدنيا وتجاه مباهجها وزُخرفها . .

إنه متأثر حتى أعماق روحه بآيات القرآن الرادعة عن :

[الَّذي جمع مالاً وعدَّدَه . . يحْسَبُ أنَّ مالَهُ أخْلَدَه] . .

ومتأثر حتى أعماق روحه بقول الرسول :

[ما قلَّ وكَفَى ، خيرٌ مما كثُر وألهى] . .

ويقول عليه السلام :

[تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم ، فإنه من كانت الدنيا أكبر هَمِّه ، فرَّق الله شَمْله ، وجعل فقره بين عينيه . .

« ومن كانت الآخرة أكبر هَمِّه جمع شمله ، وجعل غناه في قلبه ، وكان الله إليه بكل خير أسرع] .

من أجل ذلك ، كان يرثي لأولئك الذين وقعوا أسْرَى طموح الثروة ويقول :

[اللهم إني أعوذ بك من شَتات القلب . . .

سُئِل :

وما شتَاتُ القلب يا أبا الدرداء . . . ؟ ؟

فأجاب :

أن يكون لي في كل وادٍ مال] . . . ! ! !

وهو يدعو الناس إلى امتلاك الدنيا بالاستغناء عنها . . . فذلك هو الامتلاك الحقيقي لها . . . أما الجري وراء أطماعها التي لا تؤذن بانتهاء ، فذلك شرُّ ألوان العبودية والرِّقّ .

هنالك يقول :

[من لم يكن غنيًّا عن الدنيا ، فلا دُنيا له] . .

والمال عنده وسيلة للعيش القنوع المعتدل ، ليس غير.

ومن ثم فإن على الناس أن يأخذوه من حلال ، وأن يكسبوه في رفْق واعتدال ، لا في جشع وتَهالُك . .

فهو يقول :

[لا تأكل إلا طيبًا . .

ولا تكسب إلا طيبًا . .

ولا تُدخِل بيتك إلا طيبًا] .

ويكتب لصاحب له فيقول :

[. . أما بعد ، فلستَ في شيءٌ من عَرَضِ الدنيا ، إلا وقد كان لغيرك قَبْلَكْ . . وهو صائر لغيرك بعدَك . . وليس لك منه إلا ما قدَّمتَ لنفسك . . فآثِرْها على مَنْ تجمع له المال من ولَدِك ليكون له إرْثًا ، فأنت إنما تجمع لواحد من اثنين :

« إما ولد صالح يعمل فيه بطاعة الله ؛ فيسعد بما شَقيتَ به . .

« وإما ولد عاص ، يعمل فيه بمعصية الله ، فتشقى بما جمعتَ له . .

« فَثِقْ لهم بما عند الله من رزق ، وانْجُ بنفسك] . . !

كانت الدنيا كلها في عين أبي الدرداء مجرد عارية . .

عندما فُتحت « قبرص » وحُمِلَتْ غنائم الحرب إلى المدينة رأى الناس أبا الدرداء يبكي . . واقتربوا دهِشين يسألونه ، وتولَّى توجيه السؤال إليه

« جُبَير بن نفير » :

قال له :

[يا أبا الدرداء ، ما يبكيك في يوم أعزَّ الله فيه الإسلام وأهله] . . ؟ ؟

فأجاب أبو الدرداء في حكمة بالغة وفهم عميق :

[وَيحَكَ يا جُبَير . .

« ما أهونَ الخَلْق على الله إذا هم تركوا أمره . .

« بينما هي أمة قاهرة ، ظاهرة ، لها المُلك ، تركَتْ أمر الله ، فصارت إلى ما ترى] . . ! !

أجَلْ . .

وبهذا كان يُعلل الانهيار السريع الذي تُلْحقه جيوش الإسلام بالبلاد المفتوحة . . إفلاس تلك البلاد من روحانية صادقة تَعصِمُها ، ودين صحيح يصلها بالله . .

ومن هنا أيضًا ، كان يخشى على المسلمين أيامًا تنحلُّ فيها عُرَى الإيمان ، وتضعُف روابطهم بالله ، وبالحق ، وبالصلاح ، فتنتقل العارية من أيديهم ، بنفس السهولة التي انتقلت بها من قبل إليهم . . ! !

* * *

وكما كانت الدنيا بأسرها مجرد عارية في يقينه ، كذلك كانت جسرًا إلى حياة أبقى وأروع . .

دخل عليه أصحابه يعودونه وهو مريض ، فوجدوه نائمًا على فراش

من جلد . .

فقالوا له : « لو شئت كان لك فراش أطيب وأنعم . . »

فأجابهم وهو يشير بسبَّابته ، وبريق عينيه صوب الأمام البعيد :

[إن دارنا هُناك . .

« لها نجمع . . وإليها نرجع . .

« نَظْعَنُ إليها . . ونعملُ لها] . . !

وهذه النظرة إلى الدنيا ليست عند أبي الدرداء وجهة نظر فحسب ، بل ومنهج حياة كذلك . .

خطب يزيد بن معاوية ابنته « الدَّرْداء » فردَّه ، ولم يَقْبل خطبته . . ثم خطبها واحد من فقراء المسلمين وصالحيهم ، فزوجها أبو الدرداء منه . .

وعجب الناس لهذا التصرُّف ، فعلَّمهم أبو الدرداء قائلا :

[ما ظنُّكم بالدَّرْداء إذا قام على رأسها الخدَم والخِصْيان وبهَرها زُخرف القصور . .

« أين دِينها منها يومئذ] . . ؟ ؟ ! !

هذا حكيم قويم النفس ، ذكيُّ الفؤاد . .

وهو يرفُض من الدنيا ومن متاعها كل ما يشُدُّ النفس إليها ، ويُوَلِّه القلب بها . .

وهو بهذا لا يهرب من السعادة بل يهرب إليها . .

فالسعادة الحقة عنده هي أن تمتلك الدنيا ، لا أن تمتلكك الدنيا .

وكلما وقفت مطالب الناس في الحياة عند حدود القناعة والاعتدال ،

وكلما أدركوا حقيقة الدنيا كجسر يعبرون عليه إلى دار القرار والمآل والخلود ، كلما صنعوا هذا ، كان نصيبهم من السعادة الحقة أوْفى وأعظم . .

وإنه ليقول :

[ليس الخير أن يكثُر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يعظُم حِلْمُك ، ويكثُر عِلمك ، وأن تُباري الناس في عبادة الله تعالى] . . .

وفي خلافة عثمان رضي الله عنه . وكان معاوية أميرًا على الشام نزل – أبو الدرداء – على رغبة الخليفة في أن يَلِيَ القضاء . .

وهُناك في الشام وقف بالمرصاد لجميع الذين أغْرَتْهُم مباهج الدنيا ، وراح يُذكّر بمنهج الرسول في حياته . وزهده . وبمنهج الرَّعيل الأول من الشهداء والصّدّيقين . .

وكانت الشام يومئذ حاضرةً تموج بالمباهج والنعيم . .

وكأنَّ أهلها ضاقوا ذرعًا بهذا الذي ينغّص عليهم بمواعظه متاعهم ودنياهم . . .

فجمعهم أبو الدرداء ، وقام فيهم خطيبًا :

[يا أهل الشام . .

« أنتم الإخوان في الدين ، والجيرانُ في الدار . والأنصار على الأعداء . .

« ولكن ما لي أراكم لا تَسْتحيون . . ؟ ؟

« تجمعون ما لا تأكلون . .

« وتبنون ما لا تسْكُنون . .

« وترجُون ما لا تبلُغُون . .

« قد كانت القرون من قبلكم يجمعون ، فيُوعون . .

« ويُؤَملون ، فيُطيلون . .

« ويبنون ، فيوثقون . .

« فأصبح جمعهُم بورا . .

« وأملهُم غرورًا . .

« وبيُوتهم قبورًا . .

« أولئك قوم عاد ، ملأوا ما بين عدن إلى عُمان أموالاً وأولادًا . .]

ثم ارتسمت على شفتيه بسمة عريضة ساخرة ، ولوّح بذراعه في الجمع الذاهل ، وصاح في سخرية لافحة :

[مَنْ يشترى مني تَرِكة آل عاد بدرهمين] . . ؟ ! !

رجل باهر ، رائع ، مضيٌ ، حكمته مؤمنة ، ومشاعره وَرِعَة . ومنطقه سديد ورشيد . . ! !

والعبادة عند « أبي الدرداء » ليست غرورًا ولا تَأَليًا . إنما هي التماس للخير . وتعرُّض لرحمة الله . وضراعةٌ دائمة تذكّرُ الإنسان بضعفه . وبفضل ربه عليه :

إنه يقول :

[التمسوا الخير دهركم كله . . .

وتعرَّضوا لنفحات رحمة الله ، فإن لله نَفَحَات من رحمته
يصيب بها من يشاء من عباده . .

« وسلوا الله أن يستُرَ عَوْراتكم ، ويُؤَمِّنْ رَوْعاتكم] . . .

كان ذلك الحكيم مفتوح العينين دائمًا على غرور العبادة . يحذِّر منه الناس .

هذا الغرور الذي يصيب بعض الضعاف في إيمانهم حين يأخذهم الزهو بعبادتهم . فَيَتَألَّوْنَ بها على الأخرين ويُدِلُّون . .

فلنستمع له يقول :

[مثقال ذرَّة من بِرٍّ صاحب تقوى ويقين . أرجح وأفضل
من أمثال الجبال من عبادة المغتَرِّين] . . .

ويقول أيضًا :

[لا تُكلِّفوا الناس ما لم يُكلَّفوا . .
ولا تُحَاسِبوهم دون ربِّهم . .
عليكُم أنفسكم ، فإن من تتبَّع ما يرى في الناس يَطُلْ
حُزْنه] . . . ! !

إنه لا يريد للعابد مهما يَعْلُ في العبادة شأْوُهُ أن يُجَرِّد من نفسه « دَيَّانًا » تجاه العباد .

عليه أن يحمد الله على توفيقه ، وأن يُعَاون بدعائه وبنبل مشاعره ونواياه أُولئك الذين لم يدركوا مثل هذا التوفيق .

هل تعرفون حكمة أنضر وأبهى من حكمة هذا الحكيم . . ؟ ؟

يحدثنا صاحبه « أبو قلابة » فيقول :

[مرّ « أبو الدرداء » يومًا على رجل قد أصاب ذنبًا ، والناس يسبُّونه ، فنهاهم وقال : أرأيتم لو وجدتموه في حفرة . . أَلَمْ تكونوا مُخْرِجيه منها . . ؟

قالوا : بلى . .

قال : فلا تسبُّوه إذن ، واحمدوا الله الذي عافاكم .

قالوا : أفلا تبغضه . . ؟

قال : إنما أُبغضُ عمله ، فإذا تركه فهو أخي] . . !

* * *

وإذا كان هذا أحد وجهي العبادة عند « أبي الدرداء » ، فإن وجهها الآخر هو العلم والمعرفة . .

إن « أبا الدرداء » يقدس العلم تقديسًا بعيدًا . . . يقدسه كحكيم ، ويقدسه كعابد ، فيقول :

[لا يكُون أحدكم تقيًا حتى يكُون عالمًا . . .

ولن يكُون بالعلم جميلا ، حتى يكُون به عاملا] . .

أجَلْ . . .

فالعلم عنده فهم ، وسلوك . . معرفة ، ومنهج . . فكرة ، وحياة . .

ولأن تقديسه هذا تقديس رجل حكيم ، نراه ينادي بأن المعلم كالمتعلم كلاهما سواء في الفضل ، والمكانة ، والمثوبة . . .

ويرى أن عظمة الحياة مَنوطةٌ بالعلم الخيِّر قبل أي شيْ سواه . .

ها هو ذا يقول :

[ما لي أرى علماءكم يذهبون ، وجُهَّالكم لا يتعلمون ؟ ؟
ألَا إن مُعَلم الخير والمتعلم في الأجر سواء . . ولا خير في سائر الناس بعدهما] . . .

ويقول أيضًا :

[الناس ثلاثة . .

عالم . .

ومتعلم . .

والثالث هَمَج لا خير فيه] .

وكما رأينا من قبل ، لا ينفصل العلم في حكمة أبي الدرداء رضي الله عنه عن العمل .

يقول :

[إن أخشى ما أخشاه على نفسي أن يُقال لي يوم القيامة على رؤوس الخلائق : يا عُوَيمر ، هل علمت ؟ ؟

فأقول : نعم . . .

فيُقالُ لي : فماذا عَمِلتَ فيما عَلِمت . . ؟ ؟] .

وكان يُجِلُّ العلماء العاملين ويوقرهم توقيرًا كبيرًا ، بل كان يدعو ربه ويقول :

[اللهمَّ إني أعوذ بك أن تلعَنني قلوب العلماء . . .

قيل له :

[وكيف تلعنك قلوبهم ؟

قال رضي الله عنه :

[تكرهني . . . !]

أرأيتم . . . ؟ ؟

إنه يرى في كراهية العالِم لَعْنة لا يُطيقها . . . ومن ثمَّ فهو يضرع إلى ربه أن يُعيذه منها . . .

وتستوصي حكمة « أبي الدرداء » بالإخاء خيرًا ، وتبنى علاقة الإنسان بالإنسان على أساس من واقع الطبيعة الإنسانية ذاتها ، فيقول :

[مُعَاتبة الأخ خيرٌ لك من فقْدِه ، ومَنْ لك بأخيك كله . . ؟

« أَعْطِ أخاك ولِن له . .

« ولا تُطع فيه حاسدًا ، فتكون مثله . .

« غدًا يأتيك الموت ، فيكفيك فَقْدُه . . .

وكيف تبكيه بعد الموت ، وفي الحياة ما كنت أدَّيْـــــتَ حقه] . . . ؟ ؟

ومُرَاقبة الله في عباده قاعدة صُلْبة يبني عليها « أبو الدرداء » حقوق الإخاء . . .

يقول رضي الله عنه وأرضاه :

[إني أبغض أَن أظلم أحدًا . . ولكني أُبغض أَكثر وأَكثر ، أَن أَظلم مَنْ لا يستعينُ عليَّ إلا بالله العليِّ الكبير] . . . ! !

يا لَعَظَمة نفسك ، وإشراق روحك يا أبا الدرداء . . . ! !

إنه يحذر الناس من خداع الوهم ، حين يظنُّون أَن المستضعَفِين العُزَّل أَقرب منالاً من أَيديهم ، ومن بأسهم . . ! !

ويذكِّرهم أن هؤلاء في ضعفِهم يملكُون قوة ماحقة حين يتوسَّلون إلى الله عزَّ وجلَّ بِعَجزهم ، ويطرحون بين يديه قضيتهم ، وهوانهم على الناس . . . ! !

* * *

هذا هو– أبو الدرداء الحكيم . . . ! !

هذا هو– أبو الدرداء الزاهد ، العَابد ، الأَوَّاب . . .

هذا هو– أبو الدرداء الذي كان إذا أطْرَى النَاسُ تُقَاهُ ، وسألوه الدعاء ، أجابهم في تواضع وثيق قائلا :

« لا أُحْسِنُ السِّباحة . . . وأخافُ الغرَق » . . . ! !

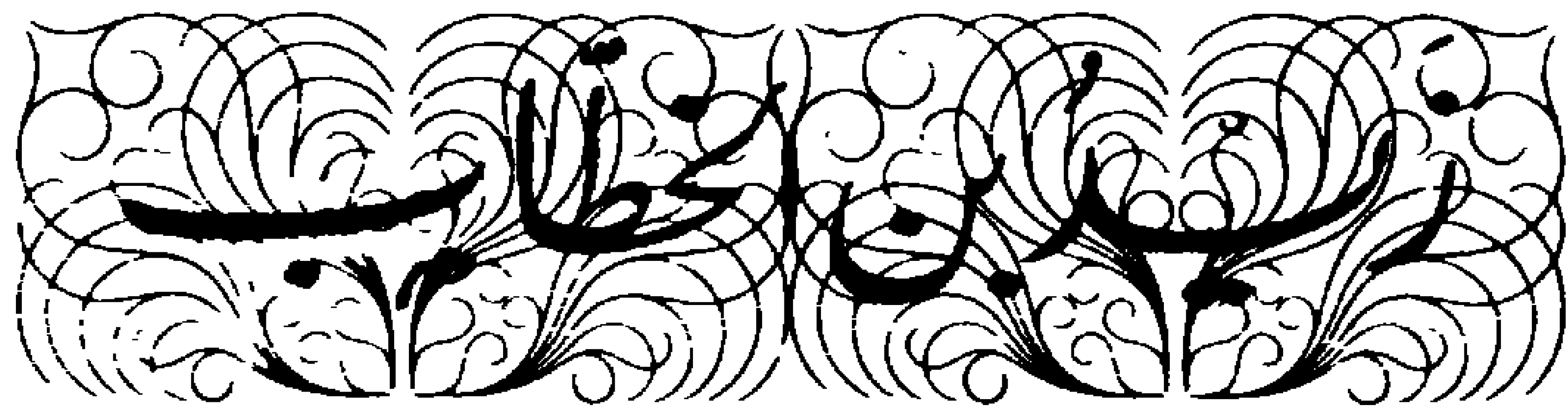
* * *

كل هذا ، ولا تحسن السباحة يا أبا الدرداء . . ؟ ؟

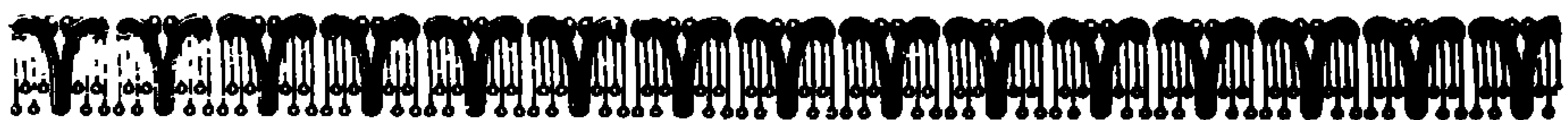
ولكن أيُّ عجب ، وأنت تربية الرسول عليه الصلاة والسلام . . . وتلميذ القرآن . . . وابن الإسلام الأَوَّل . . . وصاحب أَبي بكر وعمر ، وبقيَّة الرجال . . . ! ؟







صقر يوم اليمامة



جلس النبي صلى الله عليه وسلم يومًا ، وحوله جماعة من المسلمين وبينما الحديث يجري ، أطرق الرسول لحظات ، ثم وجه الحديث لمن حوله قائلا :

[إن فيكم لرَجُلا ضِرْسه في النار أعظم من جبل أُحُد] . .

وظل الخوف ، بل الرعب من الفتنة في الدين ، يراود ويُلحُّ على جميع الذين شهدوا هذا المجلس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . . كل منهم يحاذر ويخشى أن يكون هو الذي يتربص به سوء المنقَلَب وسوء الختام . .

ولكن جميع الذين وُجِّهَ إليهم الحديث يومئذ ختم لهم بخير ، وقضَوْا نَحْبهم شهداء في سبيل الله . وما بقي منهم حيًا سوى أبي هريرة والرَّجال ابن عُنفوة .

ولقد ظل أبو هريرة ترتعد فرائصه خوفًا من أن تصيبه تلك النبوءة . ولم يرقَأ له جفن ، وما هدأ له بال حتى دفع القدَرُ الستار عن صاحب الحظ التعس . فارتدَّ الرجَّال عن الإسلام ولحق بمُسيْلمةَ الكذاب ، وشهد له بالنُّبوة .

هنالك استبان الذي تنبأ له الرسول صلى الله عليه وسلم بسوء المنقلب وسوء المصير . .

والرَّجَّال بن عنفوة . . هذا . ذهب ذات يوم إلى الرسول مُبايعًا ومُسْلمًا ، ولما تَلقَّى منه الإسلام عاد إلى قومه . . ولم يرجع إلى المدينة إلا

إثر وفاة الرسول واختيار الصديق خليفة على المسلمين . . ونقل إلى أبي بكر أخبار أهل اليمامة والتفافهم حول مسيلمة ، واقترح على الصدِّيق أن يكون مبعوثه إليهم يُثبتهم على الإسلام ، فأذن له الخليفة . .

وتوجّه الرَّجال إلى أهل اليمامة . . ولما رأى كثرتهم الهائلة ظنّ أنهم الغالبون ، فحدثته نفسه الغادرة أن يحتجز له من اليوم مكانًا في دولة « الكذَّاب » التي ظنَّها مقبلة وآتية ، فترك الإسلام ، وانضمَّ لصفوف « مسيلمة » الذي سخا عليه بالوعود .

وكان خطر الرَّجال على الإسلام أشدَّ من خطر مسيلمة ذاته .

ذلك ، لأنه استغل إسلامه السابق ، والفترة التي عاشها بالمدينة أيام الرسول ، وحفظه لآيات كثيرة من القرآن ، وسفارته لأبي بكر خليفة المسلمين . . استغل ذلك كله استغلالا خبيثًا في دعم سلطان « مسيلمة » وتوكيد نُبُوّته الكاذبة .

لقد سار بين الناس يقول لهم : إنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنه أشْرك مسيلمة بن حبيب في الأمر » . . وما دام الرسول صلى الله عليه وسلم قد مات ، فأحق الناس بحمل راية النبوة والوحي بعده ، هو مسيلمة . . ! !

ولقد زادت أعداد الملتفين حول « مسيلمة » زيادة طافحة بسبب أكاذيب « الرَّجال » هذا . . وبسبب استغلاله الماكر لعلاقاته السابقة بالإسلام وبالرسول .

وكانت أنباء « الرَّجال » تبلُغ المدينة ، فيتحرَّق المسلمون غيظًا من هذا المرتدِّ الخَطر الذي يُضلُّ الناس ضلالا بعيدًا ، والذي يوسِّع بضلاله

دائرة الحرب التي سيضطر المسلمون أن يخوضوها .

وكان أكثر المسلمين تغيُّظًا ، وتحرُّقًا للقاء « الرَّجال » صحابي جليل تتألَّق ذكراه في كتب السيرة والتاريخ تحت هذا الاسم الحبيب « زيد ابن الخطاب » . . ! !

زيد بن الخطاب . . ؟ ؟

لا بد أنكم قد عرفتموه . .

إنه أخو عمر بن الخطاب . .

أجل . . أخوه الأكبر . . والأسْبق . .

جاء الحياة قبل عمر ، فكان أكبر منه سِنّا . .

وسبقه إلى الإسلام . . كما سبقه إلى الشهادة في سبيل الله . .

* * *

وكان « زيد » بطلا باهر البطولة . . وكان العمل الصامت . الممعن في الصمت جوهر بطولته .

وكان إيمانه بالله وبرسوله وبدينه إيمانًا وثيقًا ، ولم يتخلَّف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشهد ولا في غَزاة .

وفي كل مشهد لم يكن يبحث عن النصر ، بقدر ما يبحث عن الشهادة . . !

ويومَ أُحُد ، حين حَمِيَ القتال بين المشركين والمؤمنين . راح زيد بن الخطاب يضرب ، ويضرب . .

وأبصره أخوه عمر بن الخطاب ، وقد سقط درعه عنه ، وأصبح أدنى مَنالا للاعداء ، فصاح به عمر.

[خُذ دِرْعي يا زيد ، فقاتل بها] . .

فأجابه زيد :

[إني أريد من الشهادة ما تُريده يا عمر] . ! ! !

وظل يقاتل بغير درع في فدائية باهرة ، واستبسال عظيم .

* * *

قلنا : إنه رضي الله عنه ، كان يتحرّق شوقًا للقاء « الرَّجال » متمنيًا أن يكون الإجهاز على حياته الخبيثة من حظه وحده . . فالرَّجَّال في رأي « زيد » لم يكن مرتدًا فحسب . . بل كان كذَّابًا ، منافقًا ، وصوليًا .

لم يرتدَّ عن اقتناع . . بل عن وُصولية حقيرة ، ونفاق بغيض هزيل .

وزيد في بغضه النفاق والكذب ، كأخيه عمر تمامًا . . !

كلاهما ، لا يثير اشمئزازه ، ولا يستجيش بَغضاءه ، مثل النفاق الذي تُزجيه النفعية الهابطة ، والأغراض الدنيئة .

ومن أجل تلك الأغراض المنحطَّة ، لعب « الرَّجال » دوره الآثم ، فأرْبى عدد الملتفين حول « مسيلمة » إرباءً فاحشا ، وهو بهذا يُقدِّم بيديه إلى الموت والهلاك أعدادًا كثيرة ستلاقي حتفها في معارك الردة . . أضلَّها أولا ، وأهلكها أخيرًا . . وفي سبيل ماذا . . ؟ في سبيل أطماع لئيمة زيّنتها له نفسه ، وزخْرفَها له هواه ، ولقد أعدَّ زيد نفسه ليختم حياته المؤمنة بمحق هذه الفتنة ، لا في شخص « مسيلمة » بل في شخص من هو

أكبر منه خطرًا ، وأشدُّ جُرمًا - الرَّجَّال بن عُنفُوة -

* * *

وبدأ « يوم اليمامَة » مُكفَهرًّا شاحِبًا .

وجمع « خالد بن الوليد » جيش الإسلام ، ووزَّعه على مواقعه ودفع لواء الجيش إلى مَن . . ؟ ؟

إلى زيد بن الخطاب . .

وقاتل « بنو حنيفة » أَتباع مسيلمة قتالا مُستميتًا ضاريا . .

ومالَت المعركة في بدايتها على المسلمين ، وسقط منهم شهداء كثيرون .

ورأى زيد مشاعر الفَزع تُراوِدُ بعض أفئدة المسلمين ، فعلا رَبْوَةً هناك ، وصاح في إخوانه :

[أيها الناس . . عَضُّوا على أضراسكم ، واضربوا في عدوكم ، وامْضُوا قُدُما . . والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله ، أو ألقاه سبحانه فأكلمه بحُجَّتي] . . . ! !

ونزل من فوق الربوة ، عاضًّا على أَضراسه ، زامًّا شفتيه لا يُحرِّك لسانه بهمس .

وتركَّز مصير المعركة لديه في مصير « الرَّجَّال » ؛ فراح يخترق الخِضَمَّ المقتتل كالسهم ، باحثًا عن الرَّجال حتى أبصره . .

وهناك راح يأتيه من يمين ، ومن شمال ! ! وكلما ابتلع طوفان المعركة غريمه وأخفاه ، غاص زيد وراءه حتى يدفعه الموج إلى السطح من جديد ، فيقترب منه « زيد » ويبسط إليه سيفه ، ولكن الموج البشَرِي المحتدم يبتلع

« الرَّجال » مرة أخرى ، فيتبعه « زيد » ويغوص وراءه كي لا يفلت . .

وأخيرًا يمسك بخناقه ويطوح بسيفه رأسه المملوء غرورًا ، وكذبًا ، وخِسَّة . . .

وبسقوط الأكذوبة . أخذ عالَمها كله يتساقط ، فدب الرعب في نفس « مُسيلمة » وفي رُوع « المحكم بن الطفيل » ثم في جيش مسيلمة الذي طار مقتل « الرَّجَّال » فيه كالنار في يوم عاصف . .

لقد كان « مسيلمة » يعدهم بالنصر المحتوم ، وبأنه هو والرَّجال بن عُنفُوة ، والمحكم بن الطفيل سيقومون غَداةَ النصر بنشر دينهم وبناء دولتهم . . ! !

وها هو ذا الرَّجال قد سقط صريعًا . . إذن فنُبوّة مسيلمة كلها كاذبة . . وغدًا سيسقط المحكم ، وبعد غد مسيلمة . . ! !

هكذا أحدثت ضربة « زيد بن الخطاب » كل هذا الدَّمار في صفوف مسيلمة . .

أما المسلمون ، فما كاد الخبر يذيع بينهم حتى تشامخت عزماتهم كالجبال ، ونهض جريحهم من جديد ، حاملا سيفه ، غير عابئ بجراحه . .

حتى الذين كانوا على شفا الموت ، لا يصلهم بالحياة سوى بقية وهنانة من رَمَقٍ غارب ، مسَّ النبأ أسماعهم كالحلم الجميل ، فودُّوا لو أن بهم قُوَّةً يعودون بها إلى الحياة ليقاتلوا ، وليشهدوا النصر في روعة ختامه . .

ولكن أنَّى لهم هذا ، وقد تفتَّحت أبواب الجنة لاستقبالهم وإنهم الآن

لَيسمعون أسماءهم ، وهم يُنادَوْن للمثُول . . . ؟ ؟ ! !

* * *

رفع « زيد بن الخطاب » ذراعيه إلى السماء مبتهلا لربه ، شاكرًا نعمته . . .

ثم عاد إلى سيفه ، وإلى صمته ، فلقد أقسم بالله من لحظات ألا يتكلم حتى يتم النصر أو ينال الشهادة . .

ولقد أخذت المعركة تمضي لصالح المسلمين . . وراح نصرهم المحتوم يقترب ويُسرع . .

هنالك وقد رأى « زيد » رياح النصر مقبلة ، لم يعرف لحياته ختامًا أروع من هذا الختام ؛ فتمنًّى لو يرزقه الله الشهادة في يوم اليَمامَة هذا . .

وهبَّتْ رياح الجنَّة فملأت نفسه شوقًا ، ومآقِيَه دموعًا ، وعزمه إصرارًا . .

وراح يضرب ضَرْب الباحث عن مصيره العظيم . .

وسقط البطل شهيدًا . .

بل قولوا : صَعَد شهيدًا . .

صعد عظيمًا ، مُمَجَّدًا ، سعيدًا . .

وعاد جيش الإسلام إلى المدينة ظافرًا . .

وبينما كان عمر ، يستقبل مع الخليفة أبي بكر ، أولئك العائدين الظافرين ، راح يرمُق بعينين مشتاقتين أخاه العائد . .

وكان زيد طويلا بائن الطول ، ومن ثَمّ كان تعرّف العين عليه أمرًا ميسورًا . .

ولكن قبل أن يُجهد عمر أبصَره ، اقترب إليه من المسلمين العائدين مَن عزَّاه في زيد .

وقال عمر :

[رَحمَ الله زيدًا . .

« سَبقني إلى الحُسْنَيَيْن . .

« أسلم قبلي . .

« واستشهد قبلي . .]

* * *

وعلى كثرة الانتصارات التي راح الإسلام يظفر بها وينعم ، فإن زيدًا لم يغب عن خاطر أخيه الفاروق لحظة . .

ودائمًا كان يقول :

[ما هَبَّت الصبَّا ، إلا وجدتُ منها ريح زيد] . .

أجَلْ . .

إن الصَّبا لَتحمل ريح زيد ، وعَبير شمائله المتفوقة . .

ولكن ، إذا أَذِن أمير المؤمنين ، أضفتُ لعبارته الجليلة هذه ، كلمات تكتمل معها جوانب الإطار . .

تلك هي :

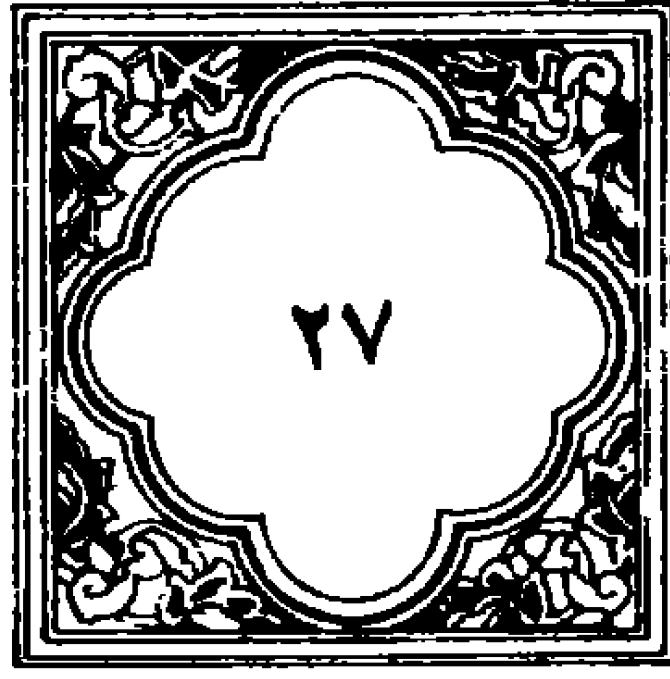
. . وما هبَّت رياح النصر على الإسلام منذ يوم اليمامة إلا وجدَ الإسلام فيها ريح زيد . . . وبلاء زيد . . وبطولة زيد . . وعظمة زيد . . ! ! !

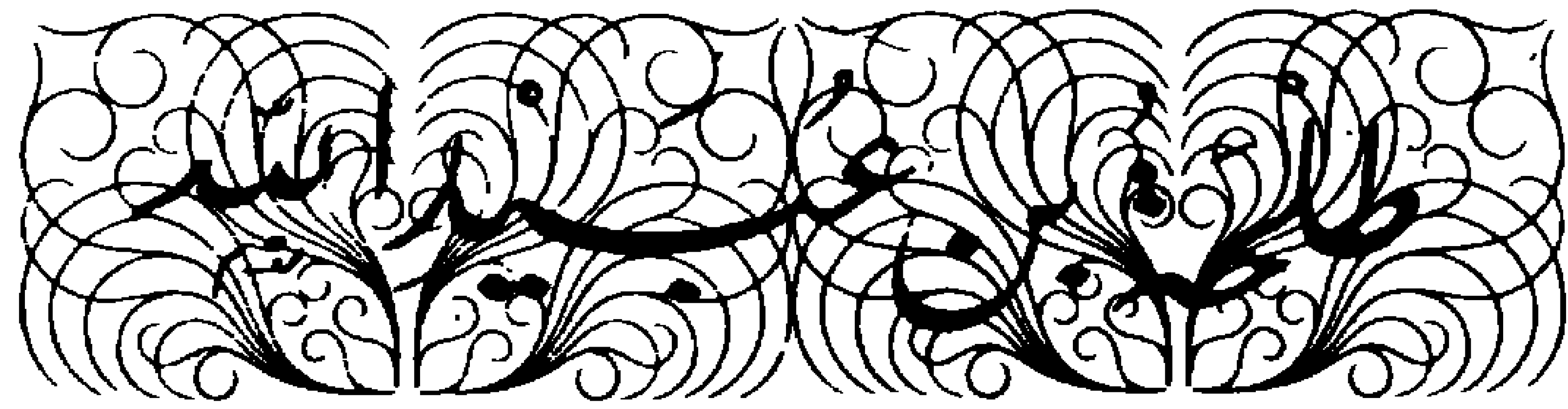
* * *

بُورِكَ آل الخطاب تحت راية الرسول صلى الله عليه وسلم . .

بوركوا يوم أسلموا . . وبوركوا أيام جاهدوا ، واستشهدوا . . . وبُوركوا يوم يُبعثون . . ! !







صَقْرُ يَوْمِ أُحُد



[مِنَ المؤمنين رجالٌ صَدَقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قَضَى نَحْبَهُ ، ومنهم مَنْ يَنتظِرُ، وما بَدَّلُوا تبديلا] . . .

تلا الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الآية الكريمة ، ثم استقبل وجوه أصحابه ، وقال وهو يشير إلى « طلحة » :

[مَنْ سَرّه أن ينظر إلى رجل يمشي على الأرض ، وقد قَضَى نحْبَه ، فلْينظر إلى طلحة] . . ! !

ولم تكن ثَمَّة بُشرى يتمناها أصحاب الرسول ، وتطير قلوبهم شوقًا إليها أكثر من هذه التي قلدها النبي طلحة بن عبيد الله . .

لقد اطمأن إذن إلى عاقبة أمره ومصير حياته . . فسيحيا ، ويموت ، وهو واحد من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ولن تنالَه فِتنة ، ولن يدركه لُغوب . . .

ولقد بشَّره الرسول بالجنة ، فماذا كانت حياة هذا المبَشَّر الكريم . . ؟ ؟

* * *

لقد كان في تجارة له بأرض بُصْرى حين لقي راهبًا من خيار رهبانها ، وأنبأه أن النبيّ الذي سيخرج في بلاد الحرَم ، والذي تنبأ به الأنبياء الصالحون قد أهلَّ عصره وأشرقت أيامُه . .

وحذَّر « طلحة » أن يفوته موكبه ، فإنه موكبُ الهدى والرحمة والخلاص . .

وحين عاد « طلحة » إلى بلده « مكة » بعد شهور قضاها في بُصْرَى وفي السَّفر ، أَلْفى بين أهلها ضجيجًا . . وسمعهم يتحدثون كلما التقى بأحدهم ، أو بجماعة منهم عن « محمد الأمين » . . . وعن الوحي الذي يأتيه . . وعن الرسالة التي يحملها إلى العرب خاصة . وإلى الناس كافة . .

وسأل « طلحة » أول ما سأل عن « أبي بكر » فعلم أنه عاد مع قافلته وتجارته من زمن غير بعيد ، وأنه يقف إلى جوار « محمد » مؤمنًا منافحًا ، أَوَّابًا . . .

وحدَّث طلحة نفسه : محمد ، وأبو بكر . . . ؟ ؟

تالله لا يجتمع الاثنان على ضلالة أبدًا [1]

ولقد بلغ « محمد » الأربعين من عمره ، وما عهدنا عليه خلال هذا العمر كذبة واحدة . . أفيكذب اليوم على الله ، ويقول : إنه أرسلني وأرسل إليَّ وَحْيًا . . ؟ ؟

هذا هو الذي يصعُب تصديقه . .

وأسرع طلحةُ الخطى مُيَمِّمًا وجهه شطر دار أبي بكْر . .

ولم يطل بينهما الحديث ، فقد كان شوقه إلى لقاء الرسول صلى الله عليه وسلم ومبايعته أسرع من دقات قلبه . .

فصحبه أبو بكر إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، حيث أسلم وأخذ مكانه في القافلة المباركة . .

وهكذا كان « طلحة » من المسلمين المبكرين .

* * *

(١) راجع كتابنا « وجاء أبو بكر » .

وعلى الرغم من جاهه في قومه ، وثرائه العريض ، وتجارته الناجحة فقد حمل حظه من اضطهاد قريش ، إذ وُكل به وبأبي بكْر نوفلُ بن خويلد وكان يدعى « أَسد قريش » ، بَيْدَ أن اضطهادهما لم يطل مدَاه ، إذ سرعان ما خجلت « قريش » من نفسها ، وخافت عاقبة عملها . . .

وهاجر « طلحة » إلى « المدينة » حين أُمر المسلمون بالهجرة ، ثم شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم – عدا غزوة بدر– فإن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد ندبه ومعه سعيد بن زيد لمهمة خارج المدينة . .

ولما أنجزاها ورجعا قافلين إلى « المدينة » . كان النبي وصحبه عائدين من غزوة بدر ، فآلم نفسيهما أن يفوتهما أجر مشاركة الرسول صلى الله عليه وسلم بالجهاد في أولى غزواته .

بيد أن الرسول أَهدى إليهما طمأنينة سابغة ، حين أنبأهما أن لهما من المثوبة والأجر مثل ما للمقاتلين تمامًا ، بل وقسم لهما من غنائم المعركة مثل من شهدوها .

* * *

وتجيءُ غزوة « أُحد » لتشهد كل جبروت قريش وكل بأسها حيث جاءت تثأر ليوم « بدر » وتؤَمِّن مصيرها بإنزال هزيمة نهائية بالمسلمين ، هزيمة حسبتها قريش أمرًا ميسورًا . وقَدَرًا مقدورًا . . ! !

ودارت حرب طاحنة سرعان ما غطت الأرض بحصادها الأليم . . . ودارت الدائرة على المشركين . . .

ثم لما رآهم المسلمون ينسحبون وضعوا أسلحتهم . ونزل الرُّماة عن

مواقعهم ليحوزوا نصيبهم من الغنائم . . .

وفجأة عاد جيش قريش من الوراء على حين بغتة . فامتلك ناصية الحرب وزمام المعركة . .

وأستأنف القتال ضراوته وقسوته وطحنه . وكان للمفاجأة أثرها في تشتيت صفوف المسلمين . .

وأبصر « طلحة » جانب المعركة الذي يقف فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فألفاه قد صار هدفًا لِقُوَى الوثنية والشرك . فسارع نحو الرسول . . .

وراح – رضي الله عنه – يجتاز طريقًا ما أطوله على قصره . . . ! طريقًا تعترض كل شبر منه عشرات السيوف المسعورة . وعشرات من الرماح المجنونة ! !

ورأى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم من بعيد يسيل من وجنته الدم ، ويتحامل على نفسه ، فجن جنونه ، وقطع طريق الهول في قفزة أو قفزتين وأمام الرسول وجد ما يخشاه . . سيوف المشركين تلهثُ نحوه ، وتحيط به تريد أن تناله بسوء . .

ووقف طلحة كالجيش اللجب ، يضرب بسيفه البتَّار يمينًا وشمالاً . .

ورأى دم الرسول الكريم ينزف ، وآلامه تئن ، فسانده وحمله بعيدًا عن الحفرة التي زلَّتْ فيها قدمه . .

كان يساند الرسول عليه الصلاة والسلام بيسراه وبصدره ، متأخرًا به إلى مكان آمِن ، بينما يمينُه – بارك اللهُ يمينَه – تضرب بالسيف وتقاتل المشركين الذين أحاطوا بالرسول ، وملأوا دائرة القتال مثل الجراد . . ! !

ولْندع الصدِّيق أبا بكر رضي الله عنه يصف لنا المشهد . . .

تقولُ عائشة :

[كان أبو بكْر إذا ذُكِرَ يوم أُحد يقولُ : ذلك كله كان « يوم طلحة » . . كنتُ أَولَ من جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لي الرسول ولأبي عبيدة بن الجراح : دُونَكُم أخاكم . . .

« ونظرنا ، وإذا به بضع وسبعون بين طعنة . . وضربة ورَمْية . . وإذا أُصبعه مقطوعة . . فأصْلحنا من شأنه] .

* * *

وفي جميع المشاهد والغزوات ، كان طلحة في مقدمة الصفوف يبتغي وجه الله ، ويفتدي راية رسوله .

ويعيش « طلحة » وسط الجماعة المسلمة ، يعبد الله مع العابدين ، ويجاهد في سبيله مع المجاهدين ، ويُرْسي بساعديه مع سواعد إخوانه قواعد الدين الجديد الذي جاء ليخرج الناس – جميع الناس – من الظلمات إلى النور . .

فإذا قضى حق ربه ، راح يضرب في الأرض ، ويبتغي من فضل الله مُنَمِّيًا تجارته الرابحة ، وأعماله الناجحة .

فقد كان « طلحة » رضي الله عنه من أكثر المسلمين ثراء ، وأنماهم ثروة . . .

وكانت ثروته كلها في خدمة الدين الذي حمل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم رايته . . .

كان يُنفق منها بغير حساب . .

وكان الله يُنَمِّيهَا له بغير حساب !

لقد لقَّبَه رسول الله صلى الله عليه وسلم بـ « طلحة الخير » و« طلحة الجود » و« طلحة الفيَّاض » إطراءًا لجوده المُفِيض .

وما أكثر ما كان يخرج من ثروته مرة واحدة ، فإذا الله الكريم يردها إليه مضاعفة .

تُحدثنا زوجته « سُعدى بنت عوف » فتقول :

[دخلتُ على طلحة يومًا فرأيته مهمومًا ، فسألته : ما شأنك . . . ؟ ؟

فقال : المال الذي عندي . . . قد كثر حتى أهَمَّني وأكْرَبني . . .

وقلت له : ما عليك . . اقْسِمْه . . .

فقام ودعا الناس ، وأخذ يقسمه عليهم حتى ما بقي منه درهم] . . .

ومرة أخرى باع أرضًا له بثمن مرتفع ، ونظر إلى كَوْمة المال ففاضت عيناه من الدمع ثم قال :

[إن رجلاً تبيت هذه الأموال في بيته لا يدري ما يطرق من أمر ، لمغرور بالله] . . .

ثم دعا بعض أصحابه وحمل معهم أمواله هذه ، ومضى في شوارع المدينة وبيوتها يوزعها ، حتى أسْحَرَ وما عنده منها درهم . . ! !

ويصف جابر بن عبد الله جود طلحة فيقول :

[ما رأيتُ أحدًا أَعْطَى لجزيل مال من غير مسألة ، مـــن طلحة بن عبيد الله] . .

وكان من أكثر الناس برًّا بأهله وبأقربائه ، فكان يعولهم جميعًا على كثرتهم . .

وقد قيل عنه في ذلك :

[. . . كان لا يدَعُ أحدًا من بني تَيْم عائلاً إلا كفاه مؤونته ، ومؤونة عياله . . .

« وكان يزوج أياماهُم ، ويخدِم عائلهم ، ويقضي دين غارِمِهم] . .

ويقول السائب بن زيد :

[صَحِبْتُ طلحة بن عُبيد الله في السَّفَر والحَضر فما وجدت أحدًا ، أعَمَّ سخاء على الدرهم ، والثوب ، والطعام مِنْ طلحة] . . ! !

وتَنْشِبُ الفتنة المعروفة في خلافة عثمان رضي الله عنه . .

ويؤيد طلحة حجة المعارضين لعثمان ، ويزكي معظمهم فيما كانوا ينشدونه من تغيير وإصلاح . .

أكان بموقفه هذا ، يدعو إلى قتل عثمان ، أو يرضى به . . ؟ ؟

كلا . . .

ولو كان يعلم أن الفتنة ستتداعى حتى تتفجر آخر الأمر حقدًا مخبولا ،

ينفس عن نفسه في تلك الجناية البَشعة التي ذهب ضحيتها « ذو النورين » عثمان رضي الله عنه . .

نقول : لوكان يعلم أن الفتنة ستتمادى إلى هذا المأزق والمنتهى لقاومها ، ولقاومها معه بقية الأصحاب الذين آزروها أول أمرها باعتبارها حركة مُعارضة وتحذير ، لا أكثر . .

على أن موقف طلحة هذا ، تحوّل إلى « عُقدة حياته » بعد الطريقة البشعة التي حوصر بها عثمان وقُتِلَ . فلم يكَد الإمام عليّ يتقبل بيعة المسلمين بالمدينة ومنهم طلحة والزبير ، حتى استأذنه الاثنان في الخروج إلى مكة للعُمْرة . .

ومن مكة توجها إلى البصرة ، حيث كانت قوات كثيرة تتجمع للأخذ بثأر عثمان . . .

* * *

وكانت « وقعة الجمل » حيث التقى الفريق المطالب بدم عثمان ، والفريق الذي يناصر عليًا . .

وكان عليّ كلما أدار خواطره على الموقف العَسِر الذي يجتازه الإسلام والمسلمون في هذه الخصومة الرهيبة ، تنتفض همومه ، وتهطل دموعه ، ويعلو نشيجه . . ! !

لقد اضْطُر إلى المأزق الوَعر . .

فبوصفه خليفة المسلمين ، لا يستطيع ، وليس من حقه أن يتسامح تجاه أي تمرد على الدولة ، أوأي مناهضة مسلحة للسلطة المشروعة . .

وحين ينهض لقمع تمرد من هذا النوع ، فإن عليه أن يواجه إخوانه

وأصحابه وأصدقاءه ، وأتباع رسوله ودينه ، أولئك الذين طالما قاتل معهم جيوش الشرك ، وخاضوا سويا تحت راية التوحيد معارك صَهَرَتهم وصَقَلَتهم ، وجعلت منهم إخوانًا بل إخوةً مُتعاضِدين . .

فأيُّ مأزق هذا . . ؟ وأيُّ ابتلاء عسير . . ؟

وفي سبيل التماس مَخرج من هذا المأزق ، وصَوْن دماء المسلمين لم يترك « الإمام عليّ » وسيلة إلا توسَّل بها ، ولا رجاء إلا تعلق به .

ولكن العناصر التي كانت تعمل ضِدَّ الإسلام ، وما أكثرها ، والتي لقيت مصيرها الفاجع على يد الدولة المسلمة ، أيام عاهلها العظيم عمر ، هذه العناصر كانت قد أحكمَت نَسْج الفتنة ، وراحت تُغذيها وتُتابع سيرها وتَفاقُمَها . . .

* * *

بكى عليٌّ بكاء غزيرًا ، عندما أبصر أُم المؤمنين « عائشة » في هودجها على رأس الجيش الذي يخرج الآن لقتاله . . .

وعندما أبصر وسط الجيش طلحة والزبير ، حَوَارِيَّيْ رسول الله . .

فنادى طلحة والزبير ليخرجا إليه ، فخرجا حتى اختلفت أعناق أفراسهم . .

فقال لطلحة :

[يا طلْحَة ، أجئتَ بِعْرس رسول الله تقاتلُ بها ، وخبأت عُرْسَك في البيت] . . ؟ ؟

ثم قال للزُّبَيْر :

[يا زُبَيْر : .

« نشَدْتُكَ الله ، أتذكُرُ يوم مَرَّ بِكَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بمكان كذا ، فقال لك : يا زبير ، ألا تُحِبُّ عليًا . . ؟ ؟

« فقلتُ : أَلَا أُحِبُّ ابنَ خالي ، وابن عمي ، ومَنْ هو عَلَى ديني . . ؟ ؟

« فقال لك : يا زُبَيْر . أمَا واللهِ لَتُقَاتِلَنّه وأنت له ظالم] . . ! !

قال الزُبير رضي الله عنه : نعم أذكُر الآن ، وكُنتُ قد نسيته . والله لا أقاتلك . .

وأقْلَعَ الزبير وطلحة عن الاشتراك في هذه الحرب الأهلية . .

أقْلَعا فَوْرَ تَبيُّنهما الأمر ، وعندما أبصرا « عمار بن ياسر » يُحاربُ في صف عَلِيّ ، وتذكَّرا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمار :

[تقتُلك الفِئة الباغية] . . .

فإن قُتِلَ « عمار » إذن في هذه المعركة التي يشترك فيها طلحة . فسيكون طلحة باغيًا . .

* * *

انسحب طلحة والزبير من القتال . ودفعا ثمن ذلك الانسحاب حياتهما ، ولكنهما لَقِيا الله قريرة أعينهما بما منَّ عليهما من بصيرة وهُدى . .

أما الزبير فقد تعقَّبه رجل اسمه « عمرو بن جرموز » وقتله غيلة وغدرًا وهو يصلي . . ! !

وأما « طلحة » فقد رماه مروان بن الحكم بسهم أوْدَى بحياته . . .

* * *

كان مقتل « عثمان » قد تشكَّل في نفسية طلحة . حتى صار – كما قلنا من قبل – عُقدة حياته . .

كل هذا . مع أنه لم يشترك في القتال . ولم يُحرض عليه . وإنما ناصَر المعارضة ضدَّه . يوم لم يكن يبدو أن المعارضة ستتمادى وتتأزّم حتى تتحول إلى تلك الجريمة البشعة . .

وحين أخذ مكانه يوم الجمل . مع الجيش المعادي لعلي بن أبي طالب والمطالب بدم عُثمان . كان يرجو أن يكون في موقفه هذا كفَّارة تُريحه من وطأة ضميره . .

وكان قبل بدء المعركة يدعو ويَضرع بصوت تخنقه الدموع . ويقول :

[اللهم خُذ مني لعثمان اليوم حتى ترضى] . .

فلما واجهه عليّ هو والزبير عَلَى النحو الذي أسْلَفْنا . أضاءت كلمات « عليّ » جوانب نفسيهما ، فرأيا الصواب وتركا أرض القتال . .

بيد أنَّ الشهادة كانت مَذْخُورَةً لهما . .

أجَلْ . . كانت الشهادة من حظ طلحة يدركها وتدركه أيَّانَ يكون . .

ألم يقل الرسول عنه :

[هذا مِمَّن قَضَى نَحْبه . وَمَنْ سَرَّهُ أن يرى شهيدًا يمشي عَلَى الأرض ، فلينظر إلى طلحة] . . ؟ ؟

لقي الشهيد إذن مصيره المقدور والكبير ، وانتهت « وقعة الجمل » . .

وأدركت أُم المؤمنين « عائشة » أنها تعجلت الأمور فغادرت البصرة إلى البيت الحرام فالمدينة ، نافضة يديها من هذا الصراع ، وزوَّدها الإمام عليّ في رحلتها بكل وسائل الراحة والتكريم . .

* * *

وحين كان – عليّ – يستعرض شهداء المعركة راح يصلي عليهم جميعًا ، الذين كانوا معه ، والذين كانوا ضدَّه . . .

ولما فَرَغ من دفن طلحة ، والزبير ، وقف يودعهما بكلمات جليلة ، اختتمها قائلا :

[إني لأرجو أن أكون أنا ، وطلحة ، والزبير ، وعُثمان من الذين قال الله فيهم : وَنَزَعْنا ما في صُدُورهم مِنْ غِلٍّ إخوانًا عَلَى سُرُر مُتقابلين] . . .

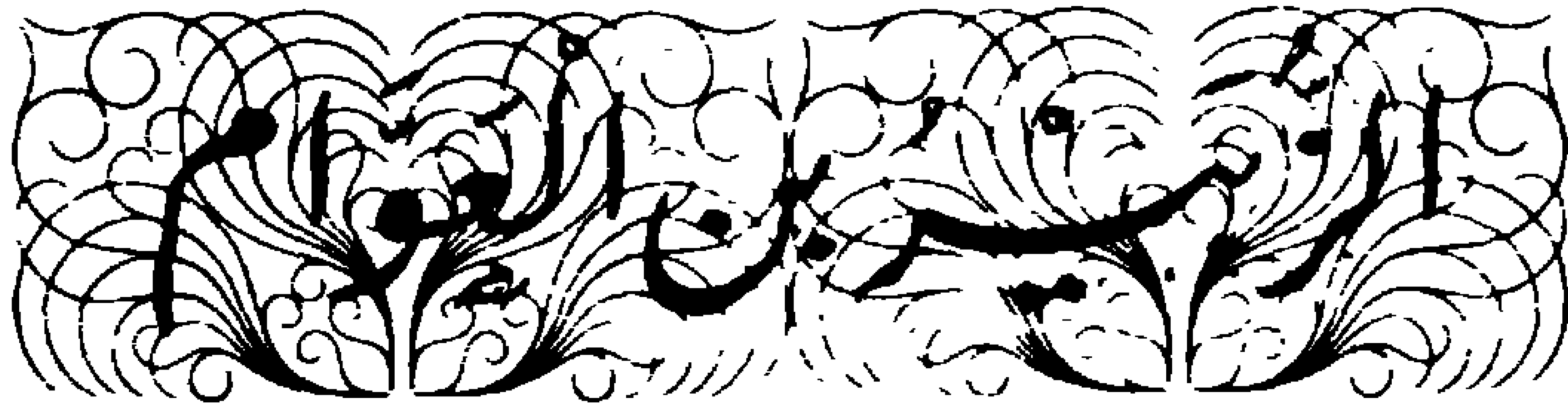
ثم ضمّ قبريهما بنظراته الحانية الصافية الآسية وقال :

[سمعت أُذُناي هاتان رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« طلحة والزبير ، جاراي في الجنة] . . .







حَوَارِيُّ رَسُولِ اللّه



لا يجيئ ذكر « طلحة » ، إلا ويُذكر الزبير معه . .

ولا يجيئ ذكر « الزبير » إلا ويذكر طلحة معه . .

فحين كان الرسول عليه الصلاة والسلام يُؤَاخي بين أصحابه في مكة قبل الهجرة ، آخى بين « طلحة » و« الزبير » .

وطالما كان عليه السلام يتحدث عنهما معًا . . مثل قوله :

[طلحة والزبير ، جَارَايَ في الجنة] .

وكلاهما ، يجتمع مع الرسول في القرابة والنسب .

أما طلحة ، فيجتمع نسبه مع الرسول في « مُرة بن كعب » .

وأما الزبير ، فيلتقي نسبه مع الرسول في « قُصَيّ بن كلاب » كما أن أمه « صفية » عمة رسول الله . .

وكل منهما – طلحة والزبير – كان أكثر الناس شَبهًا بالآخر في مقادير الحياة . .

فالتماثل بينهما كبير – في النشأة . . في الثراء . . . في السخاء . . في قوة الدين . . في روعة الشجاعة . . وكلاهما من المسلمين المبَكرين بإسلامهم . . ومن العشرة الذين بشَّرهم الرسول بالجنة . ومن أصحاب الشورى الستة الذين وكل « عمر » إليهم أمر اختيار الخليفة من بعده .

حتى مصيرهما كان كامل التماثل . . بل كان مصيرًا واحدًا . . ! !

* * *

ولقد أسلم الزبير – كما قلنا إسلامًا مُبكرًا . . إذ كان واحدًا من السبعة الأوائل الذين سارعوا إلى الإسلام . وأسْهمُوا مع طليعته المباركة في دار الأرقم . .

وكان عمره يومئذ خمس عشرة سنة . . وهكذا رزق الهُدى والنور والخير صَبيًا . .

ولقد كان فارسًا ومقدامًا منذ صِباه . حتى إن المؤرخين ليذكرون أن أوَّل سيف شُهر في الإسلام كان سيف « الزُّبَير » .

ففي الأيام الأولى للإسلام . والمسلمون يومئذ قلة يستخْفُون في دار الأرقم . . سرت إشاعة ذات يوم أن الرسول قُتِلَ . . فما كان من الزبير إلا أن استلَّ سيفه وامتشقَه . وسار في شوارع مكة – على حداثة سنـــــه – كالإعصار . . ! !

ذهب اولا . يتبيَّن الخبر . معتزمًا إن هو ألْفاه صحيحًا أن يُعمل سيفه في رقاب قريش كلها حتى يظفر بهم أو يظفروا به . .

وفي أعلى مكة لقيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فسأله ماذا به . . ؟ ؟ فأنْهى إليه « الزبير » النبأ . . فصلّى عليه الرسول ، ودعا له بالخير . ولسيفه بالغلَب .

وعلى الرغم من شرف « الزبير » في قومه فقد حمل حظه من اضطهاد قريش وعذابها .

وكان الذي تولّى تعذيبه عَمه . . كان يلفُّه في حصير ، ويدخن عليه بالناركي تزهق أنفاسه ، ويناديه وهو تحت وطأة العذاب : « اكفر برب محمد ، أدرأ عنك هذا العذاب » .

فيجيبه « الزبير » الذي لم يكن يومذاك أكثر من فتى ناشئ ، غضِّ العظام .. يجيب عمَّه في تحدٍّ رهيب :

[لا ...

والله ، لا أعود للكفر أبدًا] ...

ويهاجر « الزبير » إلى الحبشة ، الهجرتين – الأولى والثانية ، ثمَ يعود ؛ ليشهد المشاهد كلها مع رسول الله . لا تفتقده غزوة ولا معركة .

وما أكثر الطعنات التي تلقَّاها جسده واحتفظ بها بعد اندمـــال جراحاتها ، اوسمة تحكي بطولة « الزبير » وأمجادَه .. ! !

ولْنصغ لواحد من أصحابه رأى تلك الأوسمة التي تزدحم على جسده ، يحدثنا عنها فيقول :

[صحبت الزبير بن العوام في بعض أسفاره ورأيت جسده ، فرأيته مُجَذَّعًا بالسيوف ، وإن في صدره لأمثال العيون الغائرة من الطعن والرمي .

فقلت له : والله لقد شهدت بجسمك ما لم أَرَه بأحد قط .

فقال لي : أما والله ما منها جراحة إلا مع رسول الله وفي سبيل الله] ..

وفي غزوة أحد بعد أن انقلب جيش قريش راجعًا إلى مكة ، ندبه الرسول هو وأبو بكر لتعقب جيش قريش ومطاردته حتى يروا أن بالمسلمين قوة فلا يفكروا في الرجوع إلى المدينة واستئناف القتال .

وقاد أبو بكر والزبير سبعين من المسلمين ، وعلى الرغم من أنهم كانوا يتعقبون جيشًا منتصرًا إلا أن اللَّبَاقة الحربية التي استخدمها الصديق

والزبير ، جعلت قريشًا تظن أنها أساءت تقدير خسائر المسلمين ، وجعلتها تحسب أن هذه الطليعة القوية التي أجاد الزبير مع الصديق إبراز قوتها . ما هي إلا مقدمة لجيش الرسول الذي يبدو أنه قادم ليشن مطاردة رهيبة . فأغَذَّت قريش سيرها ، وأسرعَتْ خُطاها إلى مكة . . ! !

ويوم « اليرموك » كان الزبير جيشًا وحده . . فحين رأى أكثر المقاتلين الذين كان على رأسهم يتقهقرون أمام جبال الروم الزاحفة ، صاح هو : « الله أكبر » . . واخترق تِلْك الجبال الزاحفة وحده ، ضاربًا بسيفه . . ثم قفل راجعًا وسط الصفوف الرهيبة ذاتها ، وسيفه يتوهَّج في يمينه لا يَكْبو . ولا يخْبو . . !

وكان - رضي الله عنه - شديد الولَع بالشهادة ، عظيم الغرام بالموت في سبيل الله .

وكان يقول :

[إن طَلحة بن عبيد الله يُسمي بنيه بأسماء الأنبياء، وقد علِم ألّا نبي بعد محمد . .

« وإني لأسمي بَنِيَّ بأسماء الشهداء لعلهم يستشهدون] . . !

وهكذا سمَّى ولده - عبد الله بن الزبير - تيمُّنًا بالصحابي الشهيد « عبد الله بن جحش » .

وسمَّى ولده - المُنذر - تيمُّنًا بالصحابي الشهيد « المنذر بن عمرو » . .

وسمَّى - عُروة - تيمُّنًا بالصحابيِّ الشهيد « عروة بن عمرو » . .

وسمَّى - حمزة - تيمُّنًا بالشهيد الجليل « حمزة بن عبد المطلب » . .

وسمَّى - جعفرًا - تيمُّنًا بالشهيد الكبير « جعفر بن أبي طالب » . .

وسمّى – مُصعَبا – تيمُّنًا بالصحابي الشهيد « مُصعب بن عُمير » . .

وسمَّى – خالدًا – تيمُّنًا بالصحابي الشهيد « خالد بن سعيد » . .

وهكذا . راح يختار لأبنائه أسماء الشهداء . راجيا أن يكونوا يوم تأتيهم آجالهم من الشهداء . . ! !

ولقد قيل في تاريخه :

[إنه ما وَلِيَ إمارةً قط . ولا جباية . ولا خراجا . ولا شيئا إلا الغزو في سبيل الله] . .

وكانت مزيته كمقاتل . تتمثل في اعتماده التام على نفسه . وفي ثقته الكاملة بها .

فلو كان يشاركه في القتال مائة ألف . لرأيته يقاتل وكأنه وحده في المعركة . . وكأن مسئولية القتال والنصر تقع على كاهله وحده .

وكانت فضيلته كمقاتل . تتمثل في الثبات . وقوة الأعصاب . .

رأى مشهد خاله « حمزة » يوم « أحد » وقد مثَّل المشركون بجثمانه القتيل في قسوة . فوقف أمامه كالطَّوْد ضاغطا على أسنانه . وضاغطا على قبضة سيفه . لا يفكر إلا في ثأر رهيب سرعان ما جاء الوحي ينهى الرسول والمسلمين عن مجرد التفكير فيه . . ! !

وحين طال حصار « بني قريظة » دون أن يستسلموا أرسله الرسول صلى الله عليه وسلم مع علي بن أبي طالب . فوقف أمام الحصن المنيع يردد مع علي قوله :

[واللهِ لَنذُوقَنَّ ما ذاق حمزة . أولَنَفْتَحن عليهم حِصنهم] . .

ثم ألقيا بنفسيهما وحيدين داخل الحصن . .

وبقوة أعصاب مُذهِلَة . أحكما إنزال الرُّعب في أفئدة المتحصنين داخله وفتحا للمسلمين أبوابه . . ! !

ويوم « حُنَين » أبصر « مالك بن عُوف » زعيم هوازن وقائد جيوش الشرك في تلك الغزوة . . أبصره بعد هزيمتهم في « حُنين » واقفًا وسط فيلق من أصحابه ، وبقايا جيشه المنهزم . فاقتحم حَشْدهم وحده . وشتّت شَمْلَهم وحده ، وأزاحهم عن المكْمَن الذي كانوا يتربَّصون فيه ببعض زُعماء المسلمين ، العائدين من المعركة . . ! !

* * *

ولقد كان حظه من حب الرسول وتقديره عظيما . .

وكان الرسول عليه السلام يُباهي به ويقول :

[إن لكل نبي حواريًّا ، وحَوَارِيِّ الزبير بن العوام] . .

ذلك أنه لم يكن ابن عمته فحسب ، ولا زوج « أسماء » بنت أبي بكر ذات النطاقين فحسب ، بل وكان ذلك الوفي القوي . والشجاع الأبيّ ، والجوَاد السَّخيّ ، والبائع نفسه وماله لله رب العالمين :

ولقد أجاد حسان بن ثابت وصفه حين قال :

أقام على عهـــد النبي وهـــديه
حَوارِيُّه والقول بالفعل يعدلُ
أقام عَلَى منهاجـــه وطريقـــه
يُوالي وليَّ الحق ، والحقُّ أعــدلُ

هو الفارس المشهور والبطل الذي
يصول ، إذا ما كان يوم مُحجَّل
له من رَسُــول الله قُربَى قَرَيبة
ومن نُصرة الإسلام مجـد مُؤَثَّل
فكم كربة ذبَّ الزُّبير بسيفـــه
عن المصطفى ، والله يُعطي ويُجزل

* * *

كان رفيع الخِصال ، عظيم الشمائل . . وكانت شجاعته وسخاؤه كفرسَيْ رهان . . ! !

لقد كان يدير تجارة ناجحة ، وكان ثراؤه عريضًا ، لكنه أنفقه في الإسلام حتى مات مدينا . . ! !

وكان توكلُّه عَلَى الله مُنطَلَق جوده ، ومُنطَلَق شجاعته وفدائيته . .

حتى وهو يجود بروحه ، ويوصي ولده عبد الله بقضاء ديونه قال له :

[إذا أعجزك دَين ، فاستعن بمولاي] . .

وسأله عبد الله : أيَّ مَولى تعني . . ؟

فأجابه : [الله . . نعم المولى ونعم النصير] . .

يقول عبد الله فيما بعد :

[فوالله ما وقعت في كُربة من دَينه إلا قلت : يا مَولَى الزبير اقْض دينه ، فيقضيه] . .

وفي يوم « الجَمَل » ، عَلَى النحو الذي ذكرنا في حديثنا السالف عَنْ « طلحة » كانت نهاية « الزُّبير » ومصيره . .

فبعد أن رأى الحق في نَفض يديه من القتال ، تبعه نفرٌ من الذين كانوا يريدون للفتنة دوام الاشتعال ، وطعنه القاتل الغادر وهو بين يدي ربه يُصلي . .

وذهب القاتل إلى « الإمام عَليّ » يظن أنه يحمل إليه بُشرى حين يُسمعه نبأ عُدوانه عَلَى الزبير ، وحين يضع بين يديه سيفه الذي استلَبه منه ، بعد اقتراف جريمته .

لكن عليًا صاح حين علم أن بالباب قاتل الزبير يستأذن ، صاح آمرًا بطرده قائلا :

[بَشّر قاتل ابن صفيّة بالنار] . .

وحين أدْخلوا عليه سيف الزبير ، قبله الإمام وأمعن في البكاء وهو يقول :

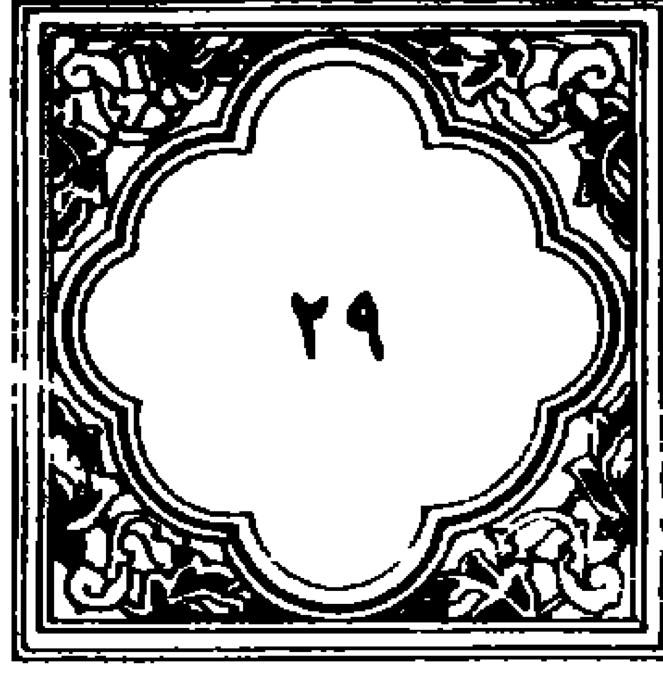
[سَيْفٌ طالما واللهِ جلاَ به صاحِبُه الكرب عن رَسُول الله] . . ! !

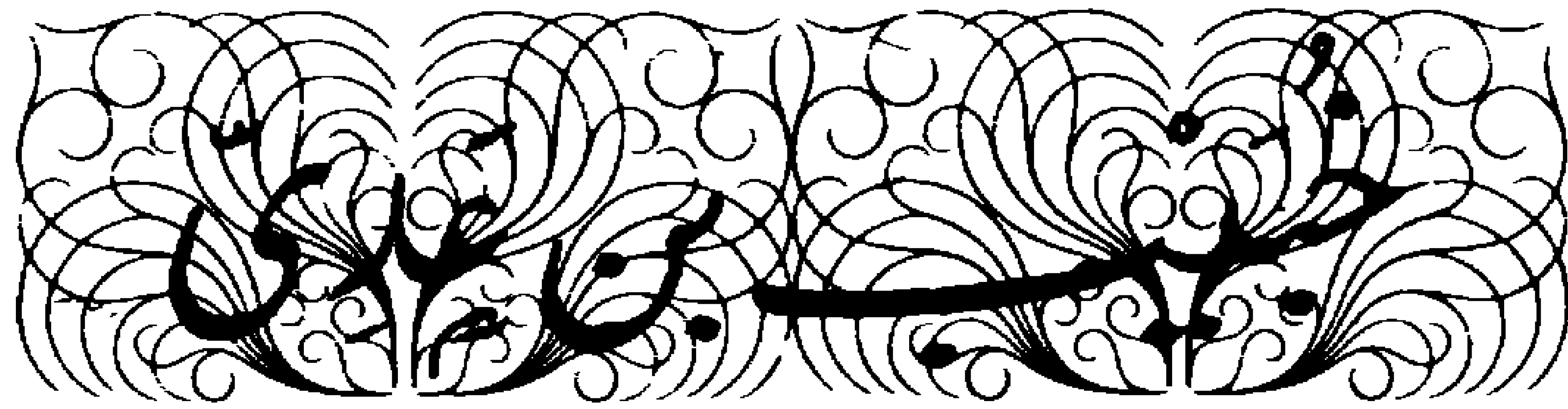
* * *

أهناك تحيَّة نوجهها للزبير في ختام حديثنا عنه ، أجمل وأجزلَ من كلمات الإمام . . ؟ ؟

سلامٌ عَلَى الزبير في مماتِه بعد محياه . .

سلامٌ ، ثم سلامٌ ، عَلَى حَواريّ رَسُول الله . .





بَطَـل.. فوقَ الصَّلِيب !!



والآن . .

أفسحوا الطريق لهذا البطل يا رجال . .

وتعالَوا من كل صَوْب ، ومن كل مكان . .

تعالوْا خِفافا ، وثِقالا . .

تعالَوْا مُسرعِين ، وخاشعين . .

واقْبِلوا ، لِتُلَقَّنوا في الفداء درسًا ليس له نَظير . . ! !

تقولون : أوَكُلُّ هذا الذي قَصَصْتَ علينا من قبل لم تكن دروسًا في الفداء ليس لها نظير . . ؟ ؟

أجَلْ ، كانت دروسًا . .

وكانت في روعتها تجلُّ عن المثيل وعن النظير . .

ولكنكم الآن أمام أستاذ جديد في فن التضحية . .

أستاذ لو فاتكم مشهده ، فقد فاتكم خير كثير ، جدّ كثير . .

إلينا يا أصحاب العقائد في كل أمة وبلد . .

إلينا يا عُشّاق السُمُوِّ من كل عصر وأمَد . .

وأنتم أيضًا يا مَنْ أثقلكم الغرور ، وظننتم بالأديان وبالإيمان ظَنَّ السَّوْء . .

تعالوا بغروركم . . !

تعالَوْا وانظروا كيف يصنع دين الله الرجال .

تعالوا وانظروا أَيَّة عِزَّة . . وأية مَنَعَة . . وأي ثبات وأَيَّ مضاء . . وأيَّ فداء . . وأيَّ ولاء . .

وبكلمة واحدة ، أية عظمة خارقة وباهرة يُفيئها الإيمان بالحق على ذويه المخلصين . . ! !

أترون هذا الجثمان المصلوب . . ؟ ؟

إنه موضوع درسنا اليوم - يا كلَّ بني الإنسان . . . !

أَجل . . .

هذا الجثمان المصلوب أمامكم هو الموضوع ، وهو الدرس ، وهو الأستاذ . .

اسمه « خُبَيب بن عَدِيّ » .

احفظوا جيدًا هذا الاسم الجليل .

احفظوه ، وانشدوه ، فإنه شرفٌ لكل إنسان . . من كل دين ، ومن كل مذهب . . من كل جنس ، وفي كل زمان . . ! !

* * *

إنه من أَوْسِ المدينة وأنصارها .

تردّدَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم مُذْ هاجر إليهم ، وآمن بالله رب العالمين .

كان عَذْب الروح ، شفّاف النفس ، وثيق الإيمان ، ريَّان الضمير

كان كما وصفه « حَسّان بن ثابت » شاعر الإسلام :

صَقْرًا توسَّط في الأنصار منصبُه
سَمْحُ السَّجِيَّة مَحْضًا غير مُؤْتَشَب

ولما رفعت « غزوة بدر » أعلامها ، كان هناك جنديًا باسلا ، ومقاتلا مقداما .

وكان من بين المشركين الذين وقعوا في طريقه إبَّان المعركة فصرعهم بسيفه « الحارث بن عامر بن نوفل » .

وبعد انتهاء المعركة ، وعودة البقايا المهزومة من قريش إلى مكة عرف بنو الحارث مصرع أبيهم ، وحفظوا جيدًا اسم المسلم الذي صرعه في المعركة : خبيب بن عَدِيّ . . ! !

* * *

وعاد المسلمون من « بدر » إلى المدينة ، يُثَابرون على بناء مجتمعهم الجديد . .

وكان « خُبيب » عابدًا ، وناسكًا ، يحمل بين جنبيه طبيعة الناسكين ، وشوق العابدين . .

هناك أَقبل على العبادة بروح عاشق . . . يقوم الليل ، ويصوم النهار ، ويُقَدِّس لله رب العالمين .

* * *

وذات يوم أراد الرسول صلوات الله عليه أن يَبْلُوَ سرائر قريش ، ويتبيَّن ما ترامى إليه من تحركاتها ، واستعدادها لغزو جديد . . فاختار من أصحابه عشرة رجال . . . من بينهم « خبيب » وجعل أميرهم « عاصم بن ثابت » .

وانطلق الركب إلى غايته حتى إذا بلغوا مكانًا بين عسفان ومكة ، نمي خبرهم إلى حيّ من « هُذَيل » يقال لهم « بنو حيان » فسارعوا إليهم بمائة رجل من أمهر رُماتهم ، وراحوا يتعقبونهم ، ويقتفون آثارهم .

وكادوا يزيغون عنهم . لولا أن أبصر أحدهم بعض نوى التمر ساقطًا على الرمال . . فتناول بعض هذا النوى وتأمله بما كان للعرب من فِرَاسة عجيبة ، ثم صاح في الذين معه :

[إنه نَوَى يثرب ، فلنتبعه حتى يدلنا عليهم] . .

وساروا مع النَّوَى المبثوث على الأرض ، حتى أبصروا على البعد ضالتهم التي ينشدون . .

وأحسَّ « عاصم » أمير العشرة أنهم يُطاردون ، فدعا أصحابه إلى صعود قمة عالية على رأس جبل . . .

واقترب الرُّماة المائة ، وأَحاطوا بهم عند سفح الجبل ، وأحكموا حولهم الحصار . .

ودعوهم لتسليم أنفسهم بعد أن أعطوهم مَوْثقًا ألَّا ينالهم منهم سوء .

والتفت العشرة إلى أميرهم « عاصم بن ثابت الأنصاري » رضي الله عنهم أجمعين .

وانتظروا بم يأمر . .

فإذا هو يقول :

[أَما أنا ، فوالله لا أنزل في ذِمَّة مشرك . .

اللهمَّ أَخبر عنا نبيَّك] . . .

وشرع الرماة المائة يرمونهم بالنبال . . . فأصيب أميرهم « عاصم » واستشهد ، وأُصيب معه سبعة واستشهدوا . . .

ونادوا الباقين ، أنَّ لهم العهد والميثاق إذا هم نزلوا .

فنزل الثلاثة : خبيب بن عدي وصاحباه . .

واقترب الرُماة من خبيب وصاحبه « زيد بن الدِّثِنَّة » فأطلقوا قِسِيَّهم ، وربطوهما بها . .

ورأى زميلهم الثالث بداية الغدر ، فقرر أن يموت حيث مات عاصم وإخوانه . .

واستشهد حيث أراد . .

وهكذا قضى ثمانية من أعظم المؤمنين إيمانًا ، وأبرهم عهدًا ، وأوفاهم لله وللرسول ذمة . . ! !

وحاول « خبيب » و « زيد » أن يَخلُصَا من وثاقهما ، ولكنه كان شديد الإحكام . .

وقادهما الرُماة البغاة إلى مكة ، حيث باعوهما لمشركيها . .

ودوَّى في الآذان اسم « خبيب ». .

وتذكَّر بنو الحارث بن عامر قتيل بدر ، تذكروا ذلك الاسم جيدًا ، وحرَّك في صدورهم الأحقاد .

وسارعوا الى شرائه . . ونافسهم على ذلك بغية الانتقام منه أكثر أهل مكة ممن فقدوا في معركة « بدر » آباءهم وزعماءهم .

وأخيرًا تواصوا عليه جميعًا وأخذوا يعدُّونه لمصير يشفي أحقادهم ،

ليس منه وحده ، بل ومن جميع المسلمين . . ! !

ووضع قوم آخرون أيديهم على صاحب خبيب « زيد بن الدَّثِنَّة » وراحوا يُصْلُونه هو الآخر عذابا . .

* * *

أسلم خبيب قلبَه ، وأمره ، ومصيره لله رب العالمين .

وأقبل على نُسُكه ثابت النفس ، رابط الجأش ، معه من سكينة الله التي أفاءها عليه ما يذيب الصخر ، ويُلاشي الهول .

كان الله معه . . وكان هو مع الله . .

كانت يد الله عليه ، يكاد يجد بَرْدَ أناملِها في صدره . . !

دخلت عليه يومًا إحدى بنات « الحارث » الذي كان أسيرًا في داره ، فغادرت مكانه مسرعة إلى الناس تناديهم لكي يبصروا عجبًا . .

[والله لقد رأيته يحمل قطفًا كبيرًا من عنب يأكل منه . . .
وإنه لموثق في الحديد . . . وما بمكة كلها ثمرة عنب واحدة . .

« ما أظنه إلا رزقًا رزقه الله خُبَيبًا] . . . . ! !

أَجَلْ . . إنه رزق آتاه الله عبده الصالح ، كما آتى مثله من قبل مريم بنت عمران ، يوم كانت :

[كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقًا . .
قال : يا مريم أنَّى لك هذا . . ؟ ؟
قالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير

حساب] . . ! !

* * *

وحمل المشركون إلى « خُبيب » نبأ مصرع زميله وأخيه « زيد بن الدَّثِنَّة » رضي الله عنه .

ظانين أنهم بهذا يسحقون أعصابه ، ويذيقونه ضِعْف الممات ، وما كانوا يعلمون أن الله الرحيم قد استضافه ، وأنزل عليه سكينته ورحمته .

وراحوا يُسَاومونه على إيمانه ، ويلوحون له بالنجاة إذا هو كفر بمحمد ، ومن قبلُ بربه الذي آمن به . . لكنهم كانوا كمن يحاول اقتناص الشمس برمْيَة نَبْل . . ! !

أَجَلْ ، كان إيمان « خُبَيب » كالشمس قوة ، وبعدًا ، ونارًا ، ونورًا . . .

كان يضيءُ كل من التمس منه الضوء ، ويُدْفِيءُ كل من التمس منهُ الدفء ، أما الذي يقترب منه ويتحدَّاه فإنه يحرقه ويسحقه . .

وإذ يئسوا مما يرجون ، قادوا البطل إلى مصيره . . وخرجوا به إلى مكان يسمى « التنعيم » حيث يكون هناك مصرعه . .

وما إن بلغوه حتى استأذنهم « خبيب » في أن يصلي ركعتين ، وأذنوا له ظانين أنه قد يجري مع نفسه حديثًا ينتهي باستسلامه وإعلان الكفران بالله وبرسوله وبدينه . .

وصلى خبيب ركعتين في خشوع ، وسلام ، وإخبات . .

وتدفقت في ..حه حلاوةُ الإيمان ؛ فودّ لو ظل يصلي ، ويصلي ويصلي . .

لكنه الْتفت صوب قاتليه وقال لهم :

[والله ، لولا أن تحسبوا أن بي جزَعًا من الموت ، لازددتُ صلاة] . . ! !

ثم شهر ذراعيه نحو السماء وقال :

[اللهم أحصِهم عددًا . . واقْتُلْهم بدَدًا] . .

ثم تصفَّح وجوههم في عزم وراح ينشد :

ولسْتُ أبالي حين أقتلُ مسلمًا على أي جَنب كان في الله مَصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يَشأ يُبارك على أوصال شِلْوٍ مُمَزَّعِ

* * *

ولعلَّه لأول مرة في تاريخ العرب يصلبون رجلا ثم يقتلونه فوق الصليب . .

لقد أعَدُّوا من جذوع النخل صليبًا كبيرًا أثبتوا فوقه خُبيبًا . . وشدوا فوق أطرافه وثاقه . . واحتشد المشركون في شماتة ظاهرة . . ووقف الرُّماة يشحذون رماحهم .

وجرت هذه الوحشيةَ كلهما في بطء مقصود أمام البطل المصلوب . . ! !

لم يُغمض عينيه ، ولم تزايل السّكينة العجيبة المضيئة وجهه .

وبدأت الرماح تنوشُه ، والسيوف تنهش لحمه .

وهنا اقترب منه أحد زعماء قريش ، وقال له :

[أتحِبُّ أن محمدًا مكانك ، وأنت سليم مُعافىً في أهلك] . ؟ ؟

وهنا لاغير ، انتفض « خُبيب » كالإعصار ، وصاح في قاتليه :

[والله ما أحِبُّ أني في أهلي وولدي ، معي عافية الدنيا ونعيمها ، ويُصاب رسول الله بشوْكَة] . .

نفس الكلمات العظيمة الشاهقة التي قالها صاحبه « زيد بن الدِّثِنَّة » وهم يهمون بقتله . . ! ! نفس الكلمات الباهرة الرائعة الصادعة التي قالها « زيد » بالأمس . . ويقولها « خبيب » اليوم . . مما جعل أبا سفيان ، وكان لم يُسلم بعد ، يضرب كفًّا بكف ويقول مشدوهًا : «والله ما رأيت أحدًا يحب أحدًا كما يُحب أصحاب محمدٍ محمدًا». . . ! !

* * *

كانت كلمات « خُبيب » هذه إيذانًا للرماح وللسيوف بأن تبلغ من جسد البطل غايتها ، فتناوَشَتْه في جنون ووحشية . .

وقريبًا من المشهد كانت تُحوِّم طيور وصُقور. كأنها تنتظر فراغ الجزارين وانصرافهم حتى تقترب هي فتنال من الجثمان الغَضّ وَجْبَة شهية . .

ولكنها سُرعان ما تنادت وتجمَّعت ، وتدانت مناقيرها كأنها تتهامَس وتتبادل الحديث والنَّجْوى .

وفجأة طارت تشق الفضاء ، وتمضي بعيدًا . . بعيدًا . . بعيدا . .

لكأنها شمَّت بحاسَّتها وبغريزتها عبير رجل صالح أوَّاب يفوح من الجثمان المصلوب ؛ فخجلَت أن تقترب منه أو تناله بسوء . . ! !

مضت جماعة الطير إلى رحاب الفضاء مُتعففة مُنصِفة .

وعادت جماعة المشركين إلى أوكارها الحاقدة في مكة باغية عادية . .

وبقي الجثمان الشهيد تحرسه فرقة من القرشيين حملة الرماح والسيوف . . ! !

كان « خُبيب » عندما رفعوه إلى جذوع النخل التي صنعوا منها صليبًا ، وعندما شدُّوا عليه الوَثاق . .

كان آئنذ ، قد يَمَّم وجهه شطر السماء وابتهل إلى ربه العظيم قائلا :

[اللهم إنا قد بلَّغنا رسالة رسولك فبلِّغه الغَدَاةَ ما يُصنَع بنا] . .

واستجاب الله دعاءه . .

فبينما الرسول في المدينة إذ غمره إحساس وثيق بأن أصحابه في محنة . . وتراءى له جثمان أحدهم مُعلقًا . .

ومن فَورِه دعا – عليه السلام – المقداد بن عمرو ، والزبير بن العوام . . فركبا فرسيهما ، ومضيا يقطعان الأرض وَثْبًا .

وجمعهما الله بالمكان المنشود ، وأنزلا جثمان صاحبهما « خُبَيْب » ، حيث كانت بقعة طاهرة من الأرض في انتظاره لتضُمَّه تحت ثَراها الرطيب .

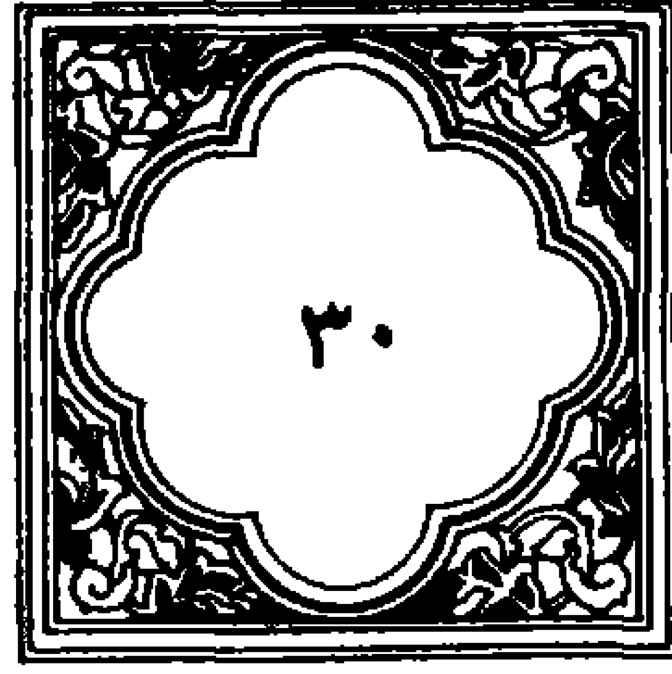
* * *

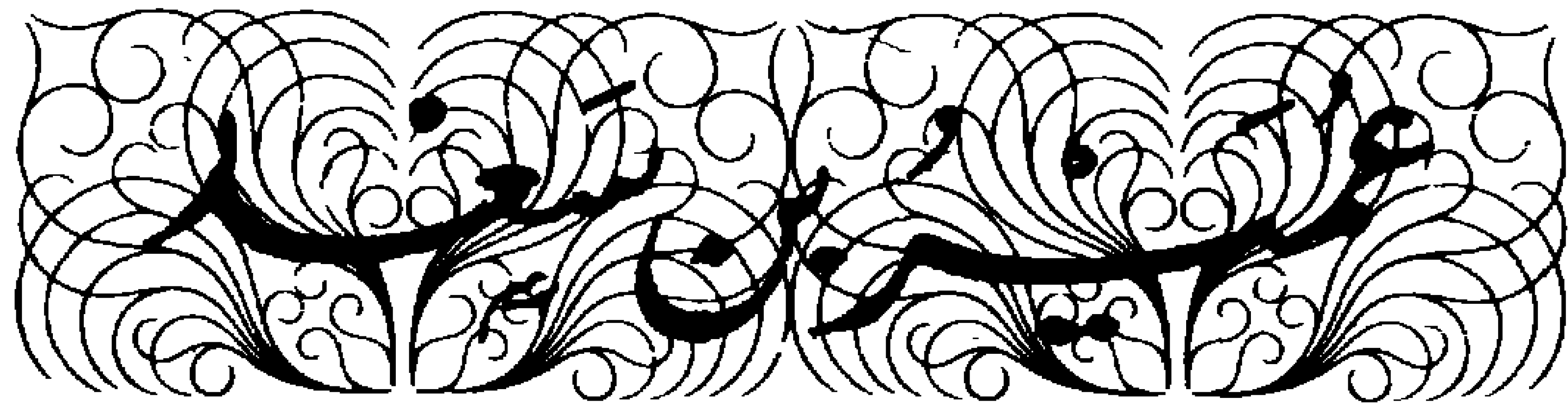
ولا يعرف أحد – حتى اليوم – أين قبر خُبَيْب .

ولعلَّ ذلك أحرى به وأجدر ، حتى يظلَّ مكانهُ في ذاكرة التاريخ ،

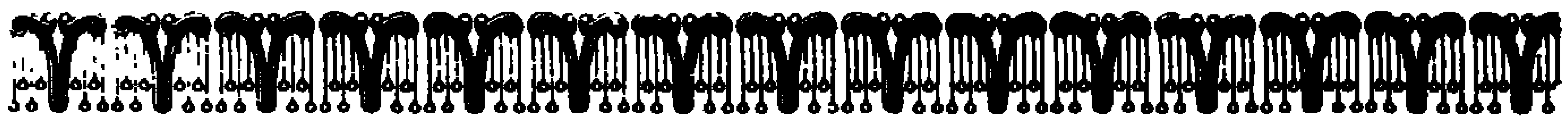
وفي ضمير الحياة ، بطلا . . فوق الصليب . . ! !







نَسِيجُ وَحْدِهِ !!



أتذكرون « سعيد بن عامر » . . ؟ ؟

ذلك الزاهد العابد الأوّاب الذي حمله أمير المؤمنين « عمر » على قبول إمارة الشام وولايتها

لقد تحدثنا عنه في الجزء الأول من كتابنا هذا ، ورأينا من زهده ومن ترفُّعه ، ومن وَرعه العجبَ كله . .

وها نحن أولاء ، نلتقي على هذه الصفحات بأخ له ، بل توْأم ، في الورع ، وفي الزهد ، وفي الترفُّع . . وفي عظمة النفس التي تجل عن النظير . . ! !

« إنه عمير بن سعد » . .

كان المسلمون يلقبونه . . « نسيج وحده » ! !

وناهيك برجل يجمع على تلقيبه بهذا اللقب أصحاب رسول الله ، بما معهم من فضل ، وفَهم ، ونور . . ! !

* * *

أبوه « سعد » القارئ رضي الله عنه . . شهد بدرًا مع رسول الله ، والمشاهد بعدها . . وظلَّ أمينًا على العهد حتى لقي الله شهيدًا في موقعة

القادسية[1] .

ولقد اصطحب ابنه إلى الرسول ، فبايع النبي وأسلم . .

ومنذ أسلم « عمير » وهو عابد مقيم في محراب الله .

يهرب من الأضواء ، ويفيئ إلى سكينة الظلال .

هيهات أن تعثر عليه في الصفوف الأولى . إلا أن تكون صلاة ، فهو يُرابط في صفها الأول ليأخذ ثواب السابقين . . وإلا أن يكون جهاد ، فهو يهرول إلى الصفوف الأولى ، راجيًا أن يكون من المستشهَدين . . !

وفيما عدا هذا ، فهو هناك عاكف على نفسه يُنمِّي بِرَّها ، وخيرها وصلاحها ، وتُقَاها . . ! !

أوّاب ، يبكي ذنبه . . ! !

مُتبتّل ، ينشد أوْبَه . . ! !

مُسافر إلى الله في كل ظَعْن ، وفي كل مُقام . .

* * *

ولقد جعل الله له في قلوب الأصحاب وُدًّا ، فكان قُرَّة أعينهم ومَهوَى أفئدتهم . .

ذلك أن قوة إيمانه ، وصفاء نفسه ، وهدوء سَمْته ، وعبير خِصاله ، وإشراق طلعته -كان يجعله فَرْحة وبهجة لكل من يجالسه ، أو يراه .

---

(١) في سيرة ابن هشام . تفيد القصة الواردة على الصفحة ١٩ ٥ من المجلد الأول طبعة الحلبي الثانية ، أن أبا عمير هو « سعد » آخر ، وأنه مات والرسول حي قبل غزوة تبوك ، ولكن بن سعد في الطبقات الكبرى جـ ٤ ص ٣٢٤ ، طبعة بيروت يذهب إلى أنه « سعد القارىء » وقد اخترنا هذا الرأي .

ولم يكن يؤثِرُ على دينه أحدًا ، ولا شيئًا .

سمع يومًا « جُلاس بن سويد بن الصامت » ، وكان قريب القرابة به . . سمعه يومًا وهو في دارهم يقول : « لئن كان الرجل صادقا ، لَنحن شرٌّ من الْحُمُر» . . ! !

وكان يعني بالرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان « جُلاس » من الذين دخلوا الإسلام رَهَبًا .

سمع « عمير بن سعد » هذه العبارة ففجَّرت في نفسه الوديعة الهادئة الغيظ والحيرة . .

الغيظ ، لأن واحدًا يزعم أنه من المسلمين يتناول الرسول بهذه اللهجة الرديئة . .

والحيرة ، لأن خواطره دارت سريعًا على مسئوليته تجاه هذا الذي سمع ، وأنكر . .

أينقل ما سمع إلى رسول الله ؟ ؟

كيف ، والمجالس بالأمانة . . ؟

أيسكت ويطوي صدره على ما سمع . . ؟

كيف . . ؟ ؟

وأين وفاؤه وولاوءه للرسول الذي هداهم الله به من ضلالة ، واخرجهم من ظلمة . . ؟

لكن حيرته لم تَطل ، فصدق النفس يجد دائمًا لصاحبه مَخْرجا . .

وعلى الفور تصرف « عمير » كرجل قوي ، وكمؤمن تقي . .

فوجه حديثه إلى « جُلاس بن سُوَيد » . .

[والله يا جُلاس ، إنك لمن أحبِّ الناس إليَّ ، وأحسنهم عندي يدًا ، وأعَزهم عليَّ أن يُصِيبه شيءٌ يكرهه . .

« ولقد قلتَ الآن مقالة ، لو أَذَعْتها عنك لآذتك . .ولو صمَتُّ عليها ، ليهلكنَّ ديني ، وإن حق الدين لأولى بالوفاء ، وإني مُبْلغ رسول الله ما قلت] . . !

وأرضى « عمير » ضميره الورع تماما . .

فهو – اولا – أدى لأمانة المجلس حقها ، وارتفع بنفسه الكبيرة عن أن يقوم بدور المتسمع الواشي . .

وهو – ثانيا – أدى لدينه حقه ، فكشف عن نفاق مريب .

وهو – ثالثًا – أعطى « جُلاسًا » فرصة الرجوع عن خطأه واستغفار الله منه حين صارحه بأنه سيبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولو أنه فعل آنئذ ، لاستراح ضمير « عمير » ولم تعد به حاجة لإبلاغ الرسول عليه السلام . . .

بيد أن « جُلاسًا » أخذته العزة بالإثم ، ولم تتحرك شفتاه بكلمة أسف أو اعتذار ، وغادرهم « عمير » وهو يقول :

[لأبلغنَّ رسول الله قبل أن ينزل وحي يُشْرِكني في إثمك] . .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلب « جلاس » فأنكر أنه قال ، بل وحلف بالله كاذبًا . . ! !

لكن آية القرآن جاءت تفصل بين الحق والباطل :

[يحلفون بالله ما قالوا . .

ولقد قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد إسلامهم ، وهَمُّوا بما لم ينالوا . . . وما نَقَمُوا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله . .

« فإن يتوبوا يَكُ خيرًا لهم ، وإن يتولَّوْا يعذبهم الله عذابًا أليمًا في الدنيا والآخرة ، وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير] . .

واضطر « جلاس » أن يعترف بمقاله ، وأن يعتذر عن خطيئته ، سيما حين رأى الآية الكريمة التي تقرر إدانَته ، تَعِدُه في نفس اللحظة برحمة الله إن هو تاب وأقلع :

[فإن يتوبوا ، يَكُ خيرًا لهم] . .

وكان تصرف « عمير » هذا خيرًا وبركة على « جُلاس » فقد تابَ وحَسُن إسلامه . . .

واخذ النبي بأُذُن عمير وقال له وهو يغمره بسناه :

[يا غلام . . .
وَفَتْ أُذُنُك . .
وصَدَّقك رَبُّك] ! !

* * *

لقد سَعِدْتُ بلقاء « عمير » لأول مرة ، وأنا اكتب كتابي « بين يدي عمر » منذ أربعة أعوام .

وبهرني ، كما لم يبهرني شيْ ، نبأه مع أمير المؤمنين . . . هذا النبأ

الذي سأرويه الآن لكم ، لتشهدوا من خلاله العظمة في أبهى مشارقها .

* * *

تعلمون أن أمير المؤمنين « عمر » رضي الله عنه كان يختار وُلاتَهُ وكأنه يختار قدَرَه . . ! !

كان يختارهم من الزاهدين الوَرِعين ، والأمناء الصادقين . . الذين يهربون من الإمارة والولاية ، ولا يقبلونها إلا حين يُكْرِههم عليها أمير المؤمنين . .

وكان رغم بصيرته النافذة ، وخبرته المحيطة ، يستأنى طويلا ، ويدقق كثيرًا في اختيار وُلاته ومُعاونيه . .

وكان لا يفتأ يردد عبارته المأثورة :

[أُريد رجلا إذا كان في القوم ، وليس أميرًا عليهم بدا وكأنه أميرهم . . وإذا كان فيهم وهو عليهم أمير ، بدا وكأنه واحد منهم] . . ! !

« أُريد واليًا ، لا يميز نفسه على الناس في ملبس ، ولا في مطعم ، ولا في مسكن . . .

« يقيم فيهم الصلاة . . . ويقسم بينهم بالحق . . . ويحكم فيهم بالعدل . . . ولا يغلق بابه دون حوائجهم] . . .

وفي ضوء هذه المعايير الصارمة ، اختار ذات يوم « عمير بن سعد » واليًا على حمص . .

وحاول « عمير » أن يخلُصَ منها وينجو ، لكن أمير المؤمنين ألزمه

بها إلزامًا ، وفرضها عليه فَرْضًا . . .

واستخار اللهَ « عمير » ، ومضى إلى واجبه وعمله . . .

وفي حمص ، مضى عليه عام كامل ، لم يصل إلى « المدينة » منه خراج . . .

بل ولم يبلغ أمير المؤمنين رضي الله عنه منه كتاب . . .

ونادى أمير المؤمنين كاتبه ، وقال له :

[اكتب إلى عمير ليأتي إلينا] . . .

وهنا أَستأذنكم في أن أنقل صورة اللقاء بين عمر وعمير ، كما هي في كتابي « بين يَدَيْ عمر »[1] .

« ذات يوم شهدت شوارع المدينة رجلا أشعث أغبر ، تغشاه وَعْثاء السفر ، يكاد يقتلع خطاه من الأرض اقتلاعا ، من طول ما لاقى من عناء ، وما بذل من جُهد . . .

« على كَتِفه اليمنى جراب وقَصْعة . . .

« وعلى كتفه اليسرى قِرْبة صغيرة فيها ماء . . !

وإنه ليتوكأ على عصًا ، لا يَؤُودُها حمله الضامر الوهنان . . ! !

وَدَلَفَ إلى مجلس « عمر » في خُطًى وئيدة . .

– السلام عليك يا أمير المؤمنين . .

ويرد عمر السلام ، ثم يسأله ، وقد آلمه ما رآه عليه من جُهدٍ وإعياء :

---

(١) ظهر في طبعته الأولى – في يونيه عام ١٩٦١ .

– ما شأنك يا عمير . . ؟ ؟

– شأني ما ترى . . أَلَسْتَ تراني صحيح البدن ، طاهر الدم ، معي الدنيا أجُرُّها بقَرْنيها . . ؟ ؟ ! !

قال عمر : – وما معك . . ؟ ؟

قال عمير : – معي جرابي أحمل فيه زادي . . .

وقَصْعَتي آكل فيها . . وإداوتي أحمل فيها وضوئي وشرابي . . وعصَاي أتوكَّأ عليها ، وأجاهد بها عَدُوًّا إن عَرَض . .

« فواللهِ ما الدنيا إلَّا تَبعٌ لمتاعي . . ! !

قال عمر : – « أجئت ماشيًا . .

عمير – « نعم . .

عمر – « أوَلم تجد من يعطيك دابة تركبها . . ؟

عمير – « إنهم لم يفعلوا . . وإني لم أسألهم . .

عمر – « فماذا عملت فيما عهدنا إليك به . . ؟

عمير – « أتيتُ البلد الذي بعثتني إليه ، فجمعتُ صُلَحَاء أهله ، وولَّيتهُم جِبايَةَ فَيْئهم وأموالهم ، حتى إذا جمعوها وضعتُها في مواضعها . . ولو بقي لك منها شيءٌ لأتيتُك به . . ! !

عمر – « فما جئتنا بشيءٌ . . ؟

عمير – « لا . . .

فصاح عمر وهو مُنبهر سعيد :

- « جدِّدوا لِعُمير عهدًا . .

وأجابه عمير في استغناء عظيم :

- « تلك أيام قد خَلَت . . لا عَمِلتُ لك ، ولا لأحــد بعدَك] . . ! !

هذه الصورة ليست « سيناريو » نرسمه ، وليست حوارًا نبتدعه . .

إنما هي واقعة تاريخية[1] ، شهدتها ذات يوم أرض المدينة عاصمة الإسلام في أيام خلده وعظمته .

فأي طراز من الرجال كان أولئك الأفذاذ الشّاهقون . . ؟ ! !

* * *

وكان عمر رضي الله عنه ، يتمنى ويقول :

[وَدِدْت لو أن لي رجالا مثل عُمير أستعين بهم على أعمال المسلمين] . .

ذلك أن « عميرًا » الذي وصفه أصحابه بحق بأنه « نسيج وحده » كان قد تفوَّق على كل ضعف إنساني يُسببه وجودنا المادي ، وحياتنا الشائكة . .

ويوم كُتب على هذا القدِّيس العظيم أن يجتاز تجربة الولاية والحكم ، لم يزدد ورعُه بها إلا مضاء ونماء وتألُّقًا . .

ولقد رسم وهو أمير على حمص واجبات الحاكم المسلم في كلمات

---

(١) يروي هذه الواقعة كتاب « حلية الأولياء » ج ١ ، وهو أحد مراجعنا التي أثبتناها في صدور الكتاب .

طالما كان يصدح بها في حشود المسلمين من فوق المنبر.

وها هي ذي :

[ألا إن الإسلام حائط مَنيع ، وبابٌ وثيق

« فحائط الإسلام العدل . . وبابهُ الحق . .

« فإذا نُقِضَ الحائط ، وحُطّم الباب ، استُفْتِحَ الإسلام .

« ولا يزال الإسلام مَنيعا ما اشتدَّ السلطان

« وليست شدة السلطان قتلا بالسيف ، ولا ضربا بالسوط . .

« ولكنْ قَضاءً بالحق . وأخذًا بالعدل] . . ! !

والآن ، ونحن نُوَدِّع عميرًا . . ونُحييه في إجلال وخشوع ، تعالَوْا نَحْنِ رؤوسنا وجباهَنا :

لخير المعلمين : محمد . .

لإمام المتقين : محمد . .

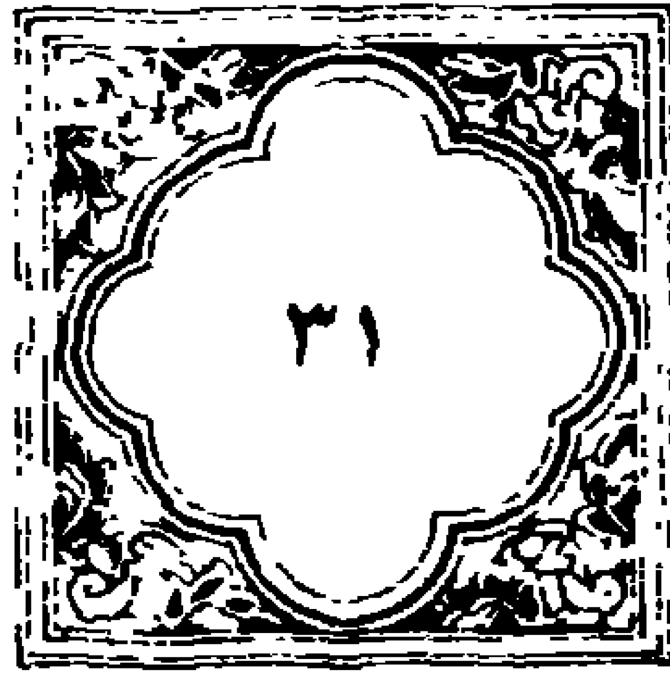
لرحمة الله المهداة إلى الناس قيْظ الحياة

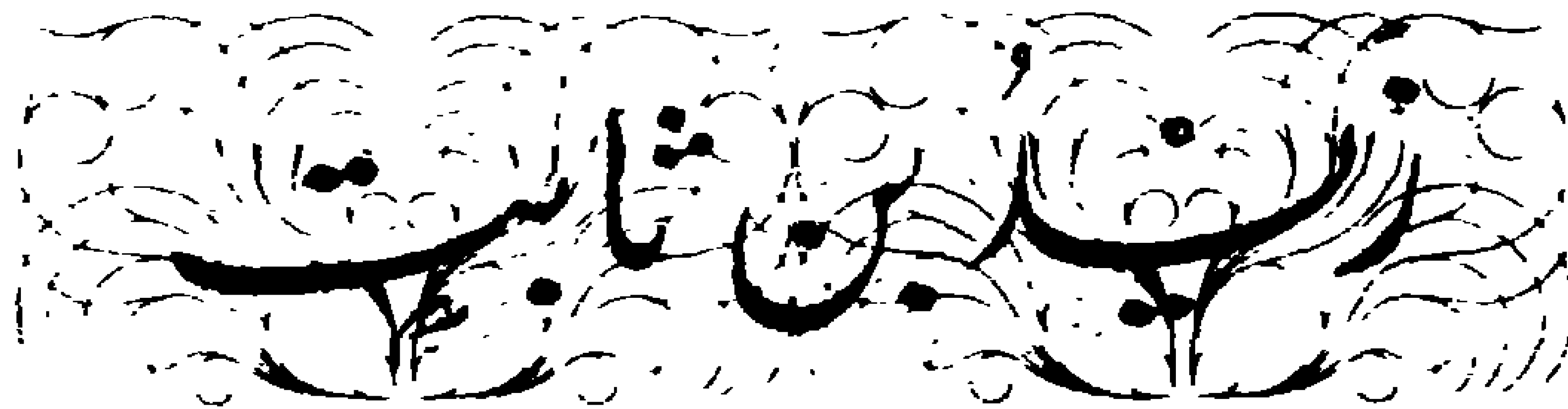
عليه من الله صلاته . وسلامه . .

وتحياته . وبركاتُه . .

وسلامٌ على آله الأطهار . .

وسلامٌ على أصحابه الأبرار . .





جامع القرآن



إذا حملتَ « المصحف » بيمينك ، واستقبلتَه بوجهك ، ومضيت تتأنّق في روضاته اليانعات ، سورة سورة ، وآية آية ، فاعلم أن من بين الذين يدينونك بالشكر والعرفان على هذا الصنيع العظيم ، رجل كبير اسمه : « زيد بن ثابت » . . ! !

وإن وقائع جمع القرآن في مصحف ، لا تذكر إلا ويذكر معها هذا الصحابي الجليل . .

وحين تُنثر زهور التكريم على ذكرى المباركين الذين يرجع إليهم فضل جمع القرآن وترتيبه وحفظه ، فإن حظ « زيد بن ثابت » من تلك الزهور ، لَحَظٌّ عظيم . .

* * *

هو أنصاريٌّ من المدينة . .

وكانت سنه يوم قدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرًا ، إحدى عشرة سنة ، وأسلم الصبي الصغير مع المسلمين من أهله . وبُورِك بدعوة من الرسول له . .

وصحبه آباؤه معهم إلى غزوة بدر ، لكن الرسول رَدَّه لِصغر سِنّه وجسمه . .

وفي غزوة «أُحُد » ذهب مع جماعة من أترابه إلى الرسول يحملون إليه ضراعتهم كي يتقبلهم في أي مكان من صفوف المجاهدين . .

وكان أهلوهم أكثر منهم ضراعة وإلحاحًا ورجاء . .

ألقى الرسول على الفرسان الصغار نظرة شاكرة ، وبدا كا نه سيعتذر عن تجنيدهم في هذه الغزوة أيضًا . .

لكن أحدهم ، وهو – رافع بن خديج – تقدم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحمل حربة ، ويحركها بيمينه حركات بارعة ، وقال للرسول عليه السلام :

[إني كما ترى رامٍ ، أُجيدُ الرَّمى فأذَن لي] . .

وحيا الرسول هذه البطولة الناشئة ، الناضرة ، بابتسامة راضية ، ثم أذن له . .

وانتفضت عروق أتْرابه . .

وتقدم ثانيهم ، وهو« سَمُرة بن جُندب » ، وراح يُلَوِّح في أدب بذراعيه المفتولتين ، وقال بعض أهله للرسول :

[إن سَمُرة يصرعُ رافعًا] . .

وحياة الرسول بابتسامته الحانية ، وأذن له . .

كانت سنُّ كل من رافع وسَمُرة ، قد بلغت الخامسة عشرة ، إلى جانب نموهما الجسماني القوي . .

وبقي من الأتراب ستة أشبال ، منهم زيد بن ثابت ، وعبد الله ابن عمر . .

ولقد راحوا يبذلون جهدهم وضراعتهم بالرجاء تارة ، وبالدمع تارة ، وباستعراض عضلاتهم تارة . .

لكن أعمارهم كانت باكرة ، وأجسامهم غضة ، فوعدهم الرسول بالغزوة المقبلة . .

وهكذا بدأ زيد مع إخوانه دوره كمقاتل في سبيل الله بدءًا من غزوة الخندق ، سنة خمس من الهجرة . .

كانت شخصيته المسلمة المؤمنة تنمو نموًّا سريعًا وباهرًا ، فهو لم يبرع كمجاهد فحسب ، بل وكمثقف متنوع المزايا ، فهو يُتابع القرآن حفظًا ، ويكتب الوحي لرسوله ، ويتفوق في العلم والحكمة ، وحين يبدأ الرسول في إبلاغ دعوته للعالم الخارجي كله ، وإرسال كتبه لملوك الأرض وقياصرتها ، يأمر زيدًا أن يتعلم بعض لغاتهم فيتعلمها في وقت وجيز . .

وهكذا تألّقت شخصية « زيد بن ثابت » وتبوأ في المجتمع الجديد مكانًا عَلِيّا ، وصار موضع احترام المسلمين وتوقيرهم . .

يقول « الشّعبي » :

[ذهب زيد بن ثابت ليركب ، فأمسك ابن عباس بالرِّكاب .
فقال له زيد : تنحَّ يا ابن عم رسول الله . . فأجابه ابن عباس : لا ، فهكذا نصنع بعلمائنا] . .

ويقول « قَبيصَة » :

[كان زيد رأسًا بالمدينة في القضاء . والفتوى ، والقراءة ، والفرائض] . . .

ويقول « ثابت بن عبيد » :

[ما رأيتُ رجلا أفْكَهَ في بيته ، ولا أوقرَ في مجلسه من

زيد] . .

ويقول « ابن عباس » :

[لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد أن زيد بن ثابت كان من الراسخين في العلم] . .

إن هذه النُّعوت التي يرددها عنه أصحابه لَتزيدنا معرفة بالرجل الذي تدَّخر له المقادير شرَف مهمة من أنبل المهام في تاريخ الإسلام كله . . مُهمّة جمع القرآن .

* * *

منذ بدأ الوحي يأخُذ طريقه إلى قلب الرسول ليكون من المُنذرين، مُستهلاً موكب القرآن والدعوة بهذه الآيات الرائعة . .

[اقرأ باسم ربك الذي خلَق ، خلَق الإنسان من عَلَق ، اقرأ وربُّكَ الأكْرَم ، الذي علَّم بالقَلَم ، علّم الإنسان ما لم يَعلَم] . . .

منذ تلك البداية ، والوحيُ يُصاحب الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويَخفُّ إليه كلما ولىَّ وجه شَطر الله راجيًا نوره وهُدَاه .

وخلال سنوات الرسالة كلها ، حيث يفرغ النبي من غزوة ليبدأ أخرى . . وحيث يُحْبط مكيدة وحربًا ، ليواجه خصومه بأخرى ، وأخرى . وحيث يبني عالمًا جديدًا بكل ما تحمله الجدَّة من معنى . .

كان الوحي يتنزّل . والرسول يتلو، ويُبلغ ، . وكان هُناك ثُلة مباركة تحرك حِرْصها على القرآن من أول يوم . فراح بعضهم يحفظ منه ما

استطاع ، وراح البعض الآخر ممن يجيدون الكتابة ، يحتفظون بالآيات مسطورة .

وخلال إحدى وعشرين سنة تقريبًا ، نزل القرآن خلالها آية آية ، أو آيات ، تِلوَ آيات ، مُلَبيا مناسبات النزول وأسبابها ، كان أولئك الحَفَظة ، والمسَجلون ، يوالون عملهم في توفيق من الله كبير . .

ولم يجئ القرآن مرة واحدة وجملة واحدة ، لأنه ليس كتابًا مؤلفا ، ولا موضوعا .

إنما هو دليل « أُمة جديدة » تُبنى على الطبيعة ، لَبِنةً لَبنة ، ويوما يوما ، تنهض عقيدتها ، ويتشكل قلبها ، وفِكرها ، وإرادتها وَفْق مشيئة إلهية ، لا تفرض نفسها من عَلٍ ، وإنما تقود التجربَةَ البشرية لهذه الأمة في طريق الاقتناع الكامل بهذه المشيئة . .

ومن ثمَّ ، كان لا بد للقرآن أن يجيء مُنجَّما ، ومُجَزَّأً ، ليتابع التجربة في سيرها النامي ، ومواقفها المتجددة . وأزماتها المتصَدِّية[1] .

توافَر الحُفَّاظ ، والكتبة ، كما ذكرنا من قبل — على حفظ القرآن وتسجيله ، وكان على رأسهم علي بن أبي طالب ، وأُبيّ بن كعب ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، وصاحب الشخصية الجليلة التي نتحدث عنها الآن : « زيد بن ثابت » رضي الله عنهم أجمعين . . .

* * *

وبعد أن تم نزولا ، وخلال الفترة الأخيرة من فترات تنزُّله ، كان الرسول يقرأه على المسلمين . . . مُرَتبًا سوره وآياته .

---

(١) راجع كتابنا — كما تحدث القرآن —

وبعد وفاته – عليه الصلاة والسلام – شُغِل المسلمون من فَوْرِهم بحروب الرِّدّة . . .

وفي معركة اليمامة . . . التي تحدثنا عنها من قبل خلال حديثنا عن « خالد بن الوليد » وعن « زيد بن الخطاب » كان عدد الشهداء من قراء القرآن وحفظته كبيرًا ومُثيرًا . . . فما كادت نار الرِّدة تخبو وتنطفئ حتى فزع عمر إلى الخليفة « أبي بكر الصديق » رضي الله عنه راغبًا إليه في إلحاح أن يُسَارعوا إلى « جمع القرآن » قبلما يدرك الموت والشهادة بقية القراء والْحُفّاظ .

واستخار الخليفة ربَّه . . وشاور صحبه . . . ثم دعا « زيد بن ثابت » وقال له :

[إنك شاب عاقل لا نتهمك] . .

وأمره أن يبدأ بجمع القرآن الكريم ، مستعينًا بذوي الخبرة في هذا الموضوع . .

ونهض زيد بالعمل الذي توقف عليه مصير الإسلام كله كدين . . !

وأبلى بلاء عظيما في إنجاز أشق المهام وأعظمها ، فمضى يجمع الآيات والسور من صدور الحفاظ ، ومن مواطنها المكتوبة ، ويُقابل ، ويُعَارض ، ويتحَرَّى ، حتى جمع القرآن مُرتبًا ومنسقًا . . .

ولقد زكَّى عمله إجماع الصحابة رضي الله عنهم الذين عاشوا يسمعونه من رسولهم صلى الله عليه وسلم خلال سنوات الرسالة جميعها ، لا سيَّما العلماء منهم والحفاظ والكتبة . .

وقال زيد وهو يُصوِّرُ الصعوبة الكبرى التي شكلتها قداسةُ المهمة

وجلالها . . .

[والله ، لو كلفوني نَقْلَ جَبَل من مكانه ، لكان أهونَ عَلَيَّ مما أمروني به من جمع القرآن] . . ! !

أجَلْ . . .

فلأن يحمل زيد فوق كاهله جبلا ، أو جبالا ، أرضى لنفسه من أن يخطئ أدنى خطأ ، في نقل آية أو إتمام سورة . .

كل هول يصمد له ضميره ، ودينه . . . إلا خطأً كهذا مهما يكن ضعيفًا وغير مقصود . . .

ولكن توفيق الله كان معه ، وكان معه كذلك وعده القائل :

[إنَّا نحن نَزَّلْنا الذكْر ، وإنا له لحافظون] . .

فنجح في مهمته ، وأنجز على خير وجه مسئوليته وواجبه .

* * *

كانت هذه هي المرحلة الأولى في جمع القرآن . . .

بيدَ أنه جُمِع هذه المرة مكتوبًا في أكثر من مصحف . . .

وعلى الرغم من أن مظاهر التفاوُت والخلاف بين هذه المصاحف كانت شكلية ، فإن التجربة أكَّدت لأصحاب الرسول عليه السلام وجوب توحيدها جميعًا في مصحف واحد .

ففي خلافة « عثمان » رضي الله عنه ، والمسلمون يواصلون فتوحاتهم وزحوفهم ، مبتعدين عن المدينة . مغتربين عنها . .

في تلك الأيام ، والإسلامُ يستقبل كل يوم أفواجًا تِلْوَ أفواج من

الداخلين فيه ، المبايعين إيَّاه ، ظهر جَلِيًّا ما يمكن أن يُفضي إليه تعدُّد المصاحف من خطر حين بدأت الألسنة تختلف على القرآن حتى بين الصحابة الأقدمين والأولين . . .

هنالك تقدم إلى الخليفة « عثمان » فريقٌ من الأصحاب رضي الله عنهم على رأسهم « حذيفة بن اليمان » مفسرين الضرورة التي تحتم توحيد المصحف . . .

واستخار الخليفة ربه وشاوَرَ صحبه . .

وكما استنجد « أبو بكر الصدِّيق » من قبل بزيد بن ثابت ، استنجد به عثمان أيضًا . . .

فجمع « زيد » أصحابه وأعوانه ، وجاؤا بالمصاحف من بيت حفصة بنت عمر رضي الله عنهما ، وكانت محفوظة لَدَيها ، وباشر « زيد » وصحبه مهمتهم العظيمة الجليلة .

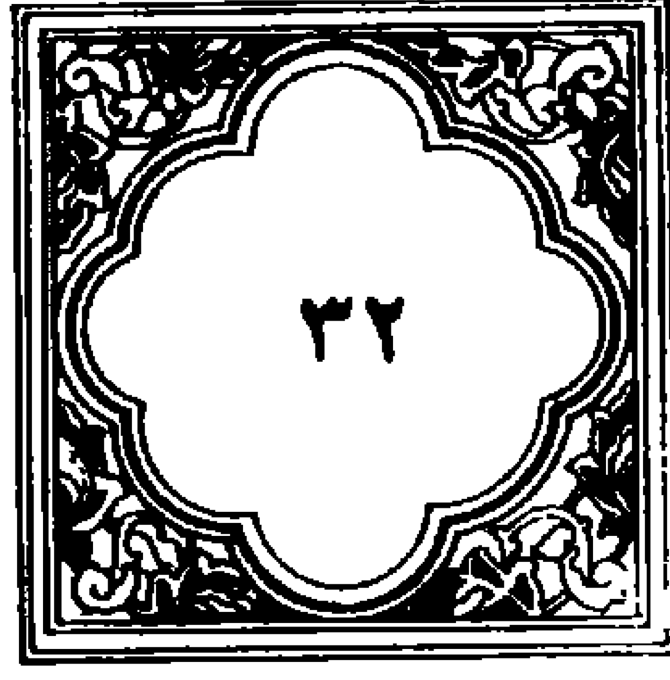
كان كل الذين يعاونون « زيدًا » من كُتَّاب الوَحْي ، ومن حفظة القرآن . . .

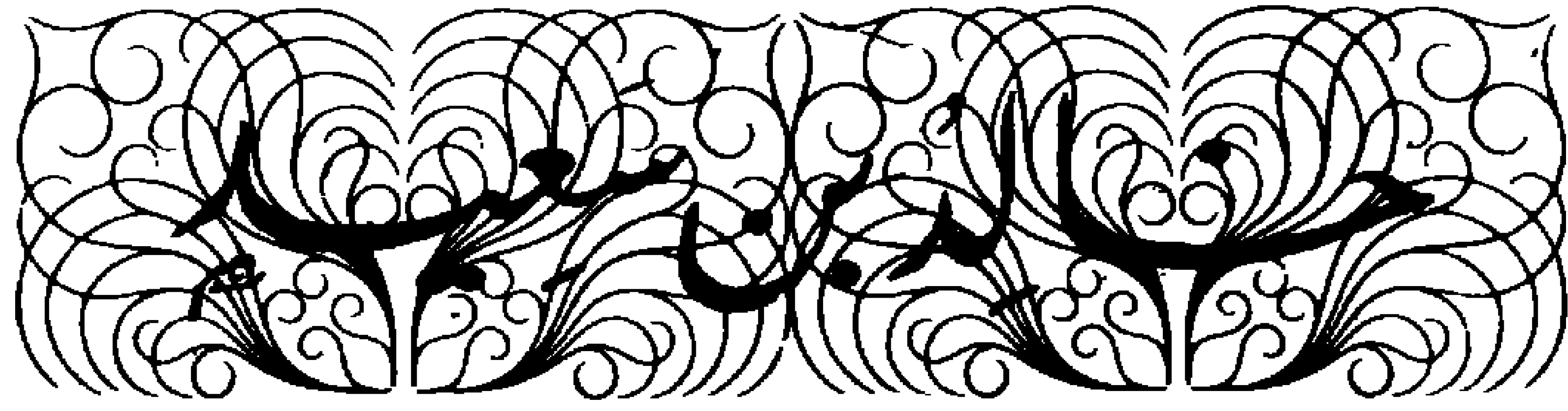
ومع هذا ، فما كانوا يختلفون – وقلّما كانوا يختلفون – إلا جعلوا رأي زيد وكلمته هي الحجَّة والفَيْصل .

* * *

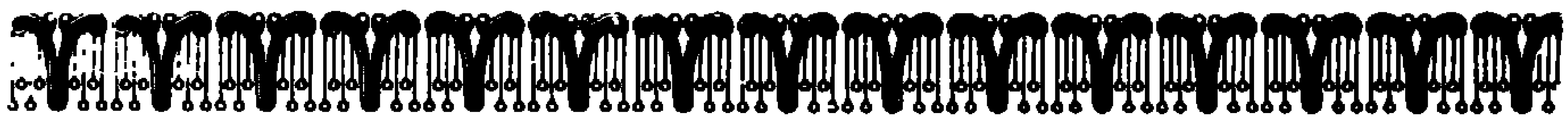
والآن ونحن نقرأ القرآن العظيم مُيَسَّرًا . . أو نسمعه مُرَتلا . . فإن الصعوبات الهائلة التي عاناها الذين اصطنعهم الله لجمعه وحفظه لا تخطر لنا على بال . . ! ! !

تماما ، مثل الأهوال التي كابدوها ، والأرواح التي بذلوها ، وهم يجاهدون في سبيل الله ، ليُقِرُّا فوق الأرض دينًا قِيَمًا ، وليبدِّدُوا ظلامها بنوره المبين . .





فدائيٌّ، من الرعيل الأول



في بيت وارف النعمة ، مزهوٍّ بالسيادة ، وَلِأبٍ له في قريش صدارة وزعامة ، وُلد « خالد بن سعيد بن العاص » وإن شئتم مزيدًا من نسبه فقولوا : ابن أُميَّة ، بن عبد شمس ، بن عبد مناف . . .

ويوم بدأت خيوط النور تسري في أنحاء مكة على استحياء ، هامسة بأن « محمدًا الأمين » يتحدث عن وحي جاءه في غار حِرَاء ، وعن رسالة تلقاها من الله ليبلغها إلى عباده ، كان قلب « خالد » يُلْقي للنور الهامس سمعه وهو شهيد . . . ! !

وطارت نفسه فرحًا ، كأنما كان وهذه الرسالة على مَوْعِد . . وأخذ يتابع خيوط النور في سيرها ومسراها . . . وكلما سمع ملَأً من قومه يتحدثون عن الدين الجديد ، جلس إليهم وأَصغى في حبور مكتوم ، وبين الحين والحين يُطعّم الحديث بكلمة منه ، أو كلمات تدفعه في طريق الذيوع ، والتأثير ، والإيحاء . . !

كان الذي يراه آنئذ ، يبصرُ شابًّا هادئ السَّمْت ، ذكيَّ الصمت ، بينما هو في باطنه وداخله ، مهرجان حافل بالحركة والفرح. فيه طبول تدق . . ورايات ترتفع . . وأبواق تدوِّي . . وأناشيد تُصلي . . وأغاريد تسبِّح . .

عيدٌ بكل جمال العيد ، وبهجة العيد وحماسة العيد ، وضجة العيد . . ! ! !

وكان الفتى يطوي على هذا العيد الكبير صدره ، ويكتم سرَّه ، فإن أباه لو علم أنه يحمل في سريرته كل هذه الحفاوة بدعوة محمد ، لأزهق حياته قربانًا لآلهة عبد مناف . . ! !

ولكن أنفسنا الباطنة حين تفعم بأمر ، ويبلغ منها حدّ الامتلاء فإنها لا تعود تملك لإفاضته دفعًا . .

وذات يوم . . .

ولكن لا . . . فإن النهار لم يطلع بعدُ ، وخالد لا زال في نومه اليقظان ، يعالج رؤيا شديدة الوطأة ، حادة التأثير ، نفاذة العبير . .

نقول إذن : ذات ليلة ، رأى خالد بن سعيد في منامه أنه واقف على شفير نار عظيمة ، وأبوه من ورائه يدفعه نحوها بكلتا يديه ، ويريد أن يطرحه فيها ، ثم رأى رسول الله يقبل عليه ، ويجذبه بيمينه المباركة من إزاره فيأخذه بعيدًا عن النار واللَّهب . . .

ويصحو من نومه مُزَوَّدًا بخطة العمل في يومه الجديد ، فيسارع من فوره إلى دار « أبي بكر » ، ويقصُّ عليه رؤياه . . . وما كانت الرؤيا بحاجة إلى تعبير . .

وقال له أبو بكر :

[إنه الخير أُريد لك . . . وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعه ، فإن الإسلام حاجزُك عن النار] .

وينطلق « خالد » باحثًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يهتدي إلى مكانه فيلقاه ، ويسأل النبيَّ عن دعوته ، فيجيبه عليه السلام :

[تؤمن بالله وحده ، لا تشرك به شيئًا . . .

« وتؤمن بمحمد عبده ورسوله . . .

« وتخلع عبَادة الأوثان التي لا تسمع ولا تبصر ، ولا تضرُّ

« ولا تنفع] . . .

ويبسط خالد يمينه ، فتتلقاها يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم في حفاوة ، ويقول خالد :

[إني أشهد ألَّا إله إلا الله . . .

وأشهد أن محمدًا رسول الله] . . ! !

وتنطلِق أغاريد نفسه وأناشيدها . .

ينطلقُ المهرجان كله الذي كان في باطنه . . . ويبلغ النبأ أباه .

* * *

يوم أسلم سعيد ، لم يكن قد سبقه إلى الإسلام سوى أربعة أو خمسة فهو إذن من الخمسة الأوائل المبكرين إلى الإسلام .

وحين يُبَاكرُ بالإسلام واحد من ولد سعيد بن العاص ، فإن ذلك – في رأي سعيد – عمل يعرضه للسخرية والهوان بين قريش ، ويهزُّ الأرض تحت زعامته .

وهكذا دعا إليه خالدًا ، وقال له : « أصحيح أنك اتبعت محمدًا وأنت تسمعه يعيب آلهتنا » . . . ؟ ؟

قال خالد :

[إنه والله لصادق . .

ولقد آمنت به واتبعته] . .

هنالك انهال عليه أبوه ضربًا ، ثم زجَّ به في غرفة مظلمة من داره ، حيث صار حبيسها . ثم راح يُضْنيه ويُرهِقُه جوعا ، وظمأ . . .

وخالد يصرخ فيهم من وراء الباب المُغلَق عليه :

[والله إنه لصادق ، وإني به لمؤمن] . .

وبدا لِسَعيد أن ما أنزل بولده من ضُرٍّ لا يكفي ، فخرج به إلى رمضاء مكة ، حيث دسَّه بين حجارتها الثقيلة الفادحة الملتهبة ثلاثة أيام لا يُوَارِيه فيها ظلّ . . ! !

ولا يبلل شفتيه قطرة ماء . . ! !

ويئس الوالد من ولده ، فعاد به إلى داره ، وراح يُغْريه ، ويرهبُه . . يَعِدُه ، ويتوعَّده . . وخالد صامد كالحق ، يقول لأبيه :

[لن أدع الإسلام لشيء ، وسأحيا به ، وأموت عليه] . .

وصاح سعيد :

[إذن فاذهب عني يا لُكَع ، فواللَّاتِ لأمنعنك القوت] . .

وأجابه خالد :

[. . والله خيرُ الرازقين] . . ! !

وغادر الدار التي تَعجّ بالرَّغَد ، من مطعم ومَلْبس وراحة . .

غادرها إلى الخصاصة والحِرمان . .

ولكنْ أيّ بأس . . ؟ ؟

أليس إيمانُه معه . . ؟ ؟

ألَمْ يَحتفِظ بكل سيادة ضميره ، وبكل حقه في مصيرِه . . ؟ ؟

ما الجوعُ إذن ، وما الحرمان ، وما العذاب . . ؟ ؟

وإذا وجد إنسان نفسه مع حق عظيم كهذا الحق الذي يدعو إليه محمد رسول الله ، فهل بقي في العالم كله شيئ ثمين لم يمتلكه من رَبح نفسه في صَفقةٍ ، اللهُ صاحبُها ، ووَاهِبُها . . ؟ ؟

وهكذا راح « خالد بن سعيد » يقهر العذاب بالتضحية ، ويتفوَّق على الحرمان بالإيمان . .

وحين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه المؤمنين بالهجرة الثانية إلى الحبشة ، كان خالد بن سعيد ، مِمَّن شدُّوا رِحالهم إليها . .

ويمكث « خالد » هناك ما شاء الله أن يمكث ، ثم يعود مع إخوانه راجعين إلى بلادهم ، سنة سبع ، فيجدون المسلمين قد فرغوا لِتوِّهم من فتح خيبر . .

ويقيم « خالد » بالمدينة وسط المجتمع المسلم الجديد الذي كان أحد الخمسة الأوائل الذين شهدوا ميلاده ، وأسَّسوا بناءه ، ولا يغزو النبي غزوة ، ولا يشهد مشهدًا ، إلا و « خالد بن سعيد » في السابقين . .

وكان « خالد » بسبقِه إلى الإسلام ، وباستقامة ضميره ونهجه موضع الحب والتكريم . .

كان يحترم اقتناعه . فلا يزيفه ولا يضعه موضع المساومة . .

قبل وفاة الرسول جعله – عليه السلام – واليا على اليمن . .

ولما ترامت إليه أنباء استخلاف أبي بكر ، ومبايعته ، غادر عمله قادما إلى المدينة . .

وكان يعرف لأبي بكر فضله الذي لا يُطاول . .

بيد أنه كان يرى أن أحق المسلمين بالخلافة واحد من بني هاشم : « العبّاس » مثلا . . « أو علي بن أبي طالب » . .

ووقف إلى جانب اقتناعه ، فلم يبايع أبا بكر . .

وظلَّ أبو بكر على حُبه له ، وتقديره إياه ، لا يُكرِهُه على أن يُبايع ، ولا يَكرهُه لأنه لم يُبايع ، ولا يأتي ذكره بين المسلمين إلا أطراه الخليفة العظيم ، وأثنى عليه بما هو أهلهُ . .

ثم تغير اقتناع خالد بن سعيد ، فإذا هو يشق الصفوف في المسجد يوما وأبو بكر فوق المنبر ، فيبايعه بيعةً صادقة وُثقَى . .

* * *

ويُسَيِّر أبو بكر جيوشه إلى الشام ، ويعقد لـ « خالد بن سعيد » لواء ، فيصير أحد أُمراء الجيوش . .

ولكن يحدث قبل تحرُّك القوات من المدينة أن يُعارض « عمر » في إمارة « خالد بن سعيد » ، ويظَلُّ يُلِحُّ على الخليفة حتى يغير قراره بشأن إمارة خالد . .

ويبلغ النبأ خالدا ، فلا يزيد على أن يقول :

[واللهِ ، ما سرَّتنا ولايتُكم ، ولا ساءنا عَزْلُكم] . . ! !

ويخفُّ الصِّدِّيق رضي الله عنه إلى دار خالد معتذرا إليه ، ومفسرا له موقفه الجديد ، ويسأله مع مَنْ مِنَ القواد والأمراء يحب أن يكون : مع عمرو بن العاص – وهو ابن عمه – ؟ أم مع شُرحبيل بن حسنة ؟

فيجيب خالد إجابة تنمّ على عظمة نفسه وتُقاها :

[ابن عَمِّي ، أحبُّ إليَّ في قرابته ، وشُرَحبيل ، أحبُّ إليَّ في دينه] . .

ثم يختار أن يكون جنديا في كتيبة « شُرَحبيل بن حسنة » . .

* * *

ودعا أبو بكر « شُرَحبيل » إليه قبل أن يتحرك الجيش ، وقال له :

[انظر خالد بن سعيد ، فاعرف له من الحق عليك ، مثل ما كنت تحبُّ أن يعرف من الحق لك ، لو كنت مكانه ، وكان مكانك . .

« إنك لتعرف مكانته في الإسلام . .

« وتعلم أن رسول الله توفي وهو له وال . .

« ولقد كُنتُ ولَّيتُه ، ثم رأيتُ غير ذلك . .

« وعسى أن يكون ذلك خيرًا له في دينه ، فما أَغْبِطُ أَحدًا بالإمارة . . ! !

« وقد خيرتُه في أُمراء الأجناد ، فاختارك على ابن عمه . . .

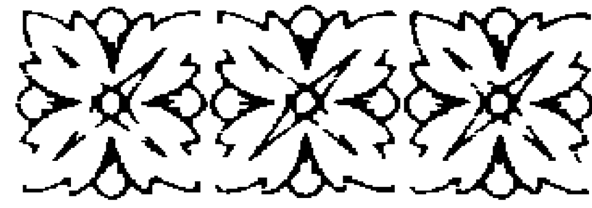
« فإذا نزل بك أمر تحتاج فيه إلى رأي التَّقي الناصح ، فليكن أولَ من تبدأ به : أبو عبيدة بن الجرّاح ، ومُعاذ ابن جبل . . وليَكُ خالد بن سعيد ثالثًا ؛ فإنك واجدٌ عندهم نُصحًا وخيرًا . .

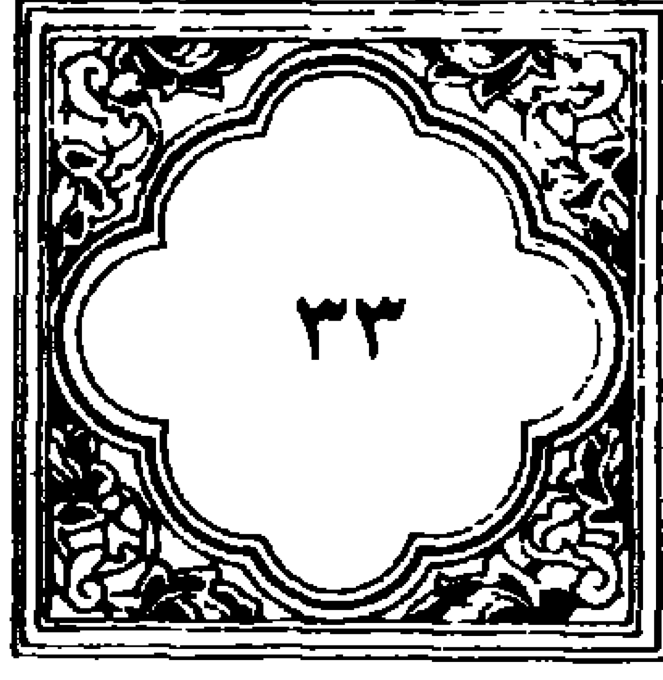
« وإياك واستبداد الرأي دُونهم ، أو إخفاءه عنهم] . .

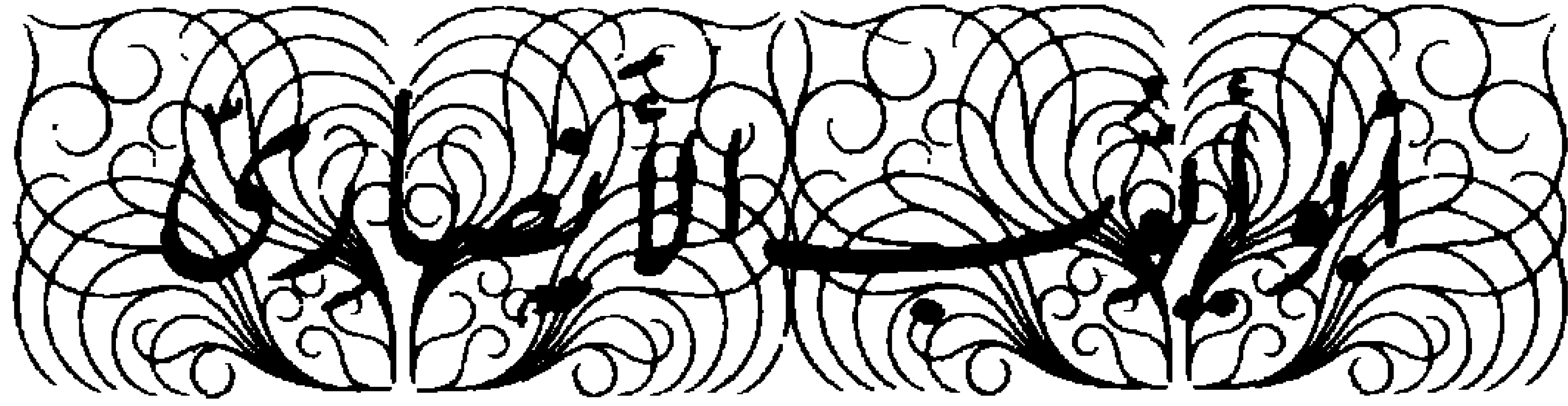
وفي موقعة « مَرْج الصُّفَر » بأرض الشام ، حيث كانت المعارك تدور بين المسلمين والروم ، رهيبة ضارية ، كان في مقدمة الذين وقع أجْرهم على الله ، شهيد جليل ، قطع طريق حياته منذ شبابه الباكر حتى لحظة استشهاده في مَسيرَةٍ صادقة مؤمنة شُجاعة . .

ورآه المسلمون وهم يتفحصون شهداء المعركة . كما كان دائمًا . هادئ السَّمت ، ذكيَّ الصَّمت ، قويَّ التصميم . فقالوا :

« اللهم ارض عن خالد بن سعيد » . . ! ! !







- انفِروا خِفافاً وَثِقالا -



كان الرسول عليه السلام يدخل المدينة مختتما بمدخله هذا رحلة هجرته الظافرة ، ومستهلا أيامه المباركة في دار الهجرة التي ادَّخر القدر لها ما لم يدخره لمثلها في دنيا الناس . .

وسار الرسول وسط الجموع التي اضطرمَت صفوفُها وأفئدتها حماسةً ، ومحبة ، وشوقًا . . ممتطيًا ظهر ناقته التي تزاحم الناس حول زمامها كل يريد أن يستضيف رسول الله . .

وبلغ الموكب دور بني سالم بن عوف ، فاعترضوا طريق الناقة قائلين : « يا رسول الله ، أقم عندنا ، فلدينا العدَد ، والعُدة ، والمنعة » . .

ويجيبهم الرسول وقد قبضوا بأيديهم على زمام الناقة :

[خلُّوا سبيلها ، فإنها مأمورة]

ويبلغ الموكب دور بني بيَاضة ، فَحيَّ بني ساعدة ، فَحيَّ بني الحارث ابن الخزرَج ، فَحَيَّ بني عديّ بن النجار . . وكل بني قبيل من هؤلاء يعترض سبيل الناقة ، مُلِحين أن يُسعدهم النبي عليه الصلاة والسلام بالنزول في دُورِهم . والنبي يُجيبهم وعلى شفتيه ابتسامة شاكرة :

[خلُّوا سبيلها ، فإنها مَأمورة] . .

لقد ترك النبي للمقادير اختيار مكان نزوله حيث سيكون لهذا المنزل خطره وجلاله . . ففوق أرضه سينهض المسجد الذي تنطلق منه إلى الدنيا بأسرها كلمات الله ونوره . . وإلى جواره ستقوم حجرة أو حُجرات

من طين وطُوب . . ليس بها من مَتاع الدنيا سوى كَفاف ، أو أطيافِ كَفاف ! ! سيَسكُنها مُعلم ، ورسول جاء الحياة لينفخ في روحها الهامد . وليمنح كل شَرَفِها وسلامها للذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا . . للذين آمنوا ولم يَلبِسُوا إيمانهم بظُلم . . للذين أخلَصُوا دينهم لله . . للذين يُصْلحون في الأرض ولا يُفسدون .

أجَل . . كان الرسول عليه السلام ممعنًا في ترك هذا الاختيار للقدَر الذي يقود خُطاه . .

من أجل هذا ، ترك هو أيضًا زِمام ناقته وأرسله ، فلا هو يَثْني به عُنقها ولا يستوقف خُطاها . . وتوجَّه إلى الله بقلبه ، وابْتَهل إليه بلسانه :

[اللهم خِرْ لِي ، واخترْ لي] . .

وأمام دار « بني مالك بن النجار » بركَت الناقة . . ثم نهضت وَطوَّفت بالمكان ، ثم عادت إلى مَبركِها الأوَّل ، وألقَتْ جِرانَها . واستقرَّت في مكانها ونزل الرسول عنها متفائلا مُستبشرًا .

وتقدم أحد المسلمين وقد تبلّج وجههُ فَرَحًا وغِبطة . . تقدم فحمل الرَّحْلَ ، وأدْخله بيته ثم دعا الرسول للدُّخُول . . وتَبِعَه رسول الله يَحُفُّ به اليُمنُ والبركة . .

أتدرون مَن كان هذا السعيد الموعود الذي بركت الناقة أمام داره ، وصَار الرسول ضَيفَه ، ووقف أهل المدينة جميعًا يغبطونه على حظوظه الوافية . . ؟ ؟

إنه بَطَلُ حديثنا هذا . . أبو أيوب الأنصاري – خالد بن زيد ، حفيد مالك بن النجّار .

* * *

لم يكن هذا أول لقاء لأبي أيوب مع رسول الله . .

فمن قبل ، وحين خرج وفد المدينة لمبايعة الرسول في مكة تلك البيعة المباركة المعروفة بـ « بيعة العقَبة الثانية » . . كان « أبو أيوب الأنصاري » بين السبعِين مُؤمنا الذين شدُّوا أيْمانهم على يمين الرسول مُبايعين ، مُناصرين .

والآن ، ورسول الله يشرف المدينة ، ويتخذها عاصمة لدين الله ، فإن الحظوظ الوافية لأبي أيوب جعلت من داره أول دار يسكُنها المهاجِر العظيم ، والرسول الكريم .

ولقد آثر الرسول أن ينزل في دوْرها الأول . . ولكن ما كاد أبو أيوب يصعد إلى غرفته في الدور العلوي حتى أخذته الرَّجفة ، ولم يستطع أن يتصوّر نفسه قائما أو نائما ، في مكان أعلَى من المكان الذي يقوم فيه رسول الله وينام . . ! !

وراح يُلِحُّ على النبي ويرجوه أن ينتقل إلى طابق الدور الأعلى فاستجاب النبي لرجائه .

ولسوف يمكث النبي بها حتى يتمَّ بناء المسجد ، وبناء حجرة له بجواره . .

ومنذ بدأت قريش تَتَنمَّر للإسلام وتشُن إغاراتها على دار الهجرة بالمدينة ، وتُؤلب القبائل ، وتُجيش الجيوش لتطفئ نور الله . .

منذ تلك البداية ، احترف أبو أيوب صناعة الجهاد في سبيل الله .

ففي بدر ، وأُحُد ، والخندق ، وفي كل المشاهد والمغازي ، كان البطلُ هناك بائعًا نفسَه ومالَه لله رب العالمين . .

وبعد وفاة الرسول ، لم يتخلَّف عن معركة كُتب على المسلمين أن يخوضوها ، مهما يَكُن بُعد الشُّقَّة ، وفداحة المَشقَّة . . !

وكان شعاره الذي يردده دائمًا ، في ليله ونهاره . . في جَهْره وإسْراره . . قول الله تعالى :

[انفِرُوا خِفافًا وثِقالا] . .

مرة واحدة . . تخلَّف عن جيش جعل الخليفةُ أميره واحدًا من شباب المسلمين ، لم يقتنع أبو أيوب بإمارته .

مرة واحدة لا غير . . ومع هذا فإن الندَم على موقفه هذا ظلّ يُزلزل نفسه ، ويقول :

[ما عَلَيّ مَن استُعمِلَ عَليّ] . . ؟ ؟

ثم لم يفُته بعد ذلك قتال ! !

كان حَسْبُهُ أن يعيش جنديًا في جيش الإسلام ، يقاتل تحت رايته ، ويذود عن حُرْمته . .

ولما وقع الخلاف بين علي ومعاوية ، وقف مع « عليّ » في غير تردّد ، لأنه الإمام الذي أُعْطِيَ بيعة المسلمين . . ولما استشْهد ، وانتهت الخلافة إلى معاوية وقف أبو أيوب بنفسه الزاهدة ، الصامدة ، التَّقية ، لا يرجو من الدنيا سوى ان يظل له مكان فوق أرض الوَغَى ، وبين صُفوف المجاهدين . .

وهكذا ، لم يكد يُبصر جيش الإسلام يتحرك صَوْب القُسطنطينية حتى ركبَ فرسه ، وحمل سَيفَه ، وراح يبحث عن استشهاد عظيم طالما حنَّ إليه واشتاق . . ! !

وفي هذه المعركة أُصيب .

وذهب قائد الجيش يعوده ، وكانت أَنفاسُه تسابق أَشواقه إلى لقاء الله . .

فسأله القائد ، وكان « يزيد بن معاوية » :

[ما حاجتك أَبا أَيوب] ؟

تُرى ، هل فينا من يستطيع أَن يتصوَّر ، أَو يتخيل ماذا كانت حاجة أَبي أَيوب . . ؟ ؟

كلا . . فقد كانت حاجته وهو يجود بروحه شيئًا يُعجز ويُعْيي كل تصوُّر ، وكل تخيُّل لبني الإنسان . . ! !

لقد طلب من « يزيد » ، إذا هومات أَن يحمل جثمانه فوق فرسه ، ويمضي به أطول مسافة ممكنة في أرض العدو ، وهنالك يدفنه ، ثم يزحف بجيشه على طول هذا الطريق ، حتى يسمع وقعَ حوافر خَيل المسلمين فوق قبره ، فيُدرِك آنئذ ، أنهم قد أدركوا ما يبتغون من نصروفوز . . . !

أتحسبون هذا شعرًا . . ؟

لا . . ولا هو بخيال . بل واقع ، وحَقٌّ شهدته الدنيا ذات يوم ، ووقفت تحدق بعينيها ، وبأذنيها ، لا تكاد تصدق ما تسمع وما ترى . . ! !

ولقد أنجز « يزيد » وصية « أبي أيوب » . .

وفي قلب القسطنطينية – وهي اليوم « استامبول » – ثوى جثمان رجل عظيم ، جدّ عظيم . . ! !

وحتى قبل أن يغمر الإسلام تلك البقاع ، كان أهل القسطنطينية من الروم ، ينظرون إلى « أبي أيوب » في قبره ، نظرتهم إلى قِدِّيس . . .

وإنَّك لتعجب إذ ترى جميع المؤرخين الذين يسجلون تلك الوقائع يقولون :

[وكان الروم يتعاهدون قبره ، ويزورونه . . ويستسقون به إذا قَحِطوا] . . ! !

* * *

وعلى الرغم من المعارك التي انتظمت حياة أبي أيوب ، والتي لم تكن تمهله ليضع سيفه ويستريح ، على الرغم من ذلك ، فإن حياته كانت هادئة ، نديَّة كنسيم الفَجْر . .

ذلك أنه سمع من الرسول صلى الله عليه وسلم حديثًا ، فَوعاه :

[إذا صلَّيت فصَلِّ صلاة مُوَدِّع . .

« ولا تَكَلَّمنَّ بكلام ، تعتذر منه . .

« والزم اليأس مما في أيدي الناس] . .

وهكذا ، لم يخضْ لسانه في فتنة . .

ولم تَهفُ نفسه إلى مطمع . .

وقضى حياته في أشواقِ عابد ، وعُزوفِ مُودِّع . .

فلما جاء أجلُه ، لم يكن له في طول الدنيا وعَرْضها من حاجة سوى تلك الأمنية التي تشبه حياته في بطولتها ، وعظمتها :

[اذهبوا بجثماني بعيدًا . . بعيدًا . . في أرض الروم ثم

كان يؤمن بالنصر، وكان يرى بنور بصيرته هذه البقاع، وقد أخذت مكانها بين واحات الإسلام، ودخَلَت مجالَ نوره وضيائه . .

ومن ثمَّ أراد أن يكون مَثواه الأخير هناك، في عاصمة تلك البلاد، حيث ستكون المعركة الأخيرة الفاصلة، وحيث يستطيع تحت ثراه الطيب، أن يُتابع جيوش الإسلام في زحفها، فيسمع خَفق أعلامها، وصهيلَ خَيلها، ووقْعَ أقدامها، وصلصلة سيوفها . . ! !

وإنه اليوم لَثاوٍ هناك . .

لا يسمع صلصلة السيوف، ولا صهيل الخيل . .

فقد قُضي الأمر، واستوت على الجُودِيِّ من أَمَدٍ بعيد . .

لكنه يسمع كل يوم من صُبحه إلى مَسائه، روعة الأذان المنطلق من المآذن المشرَعَة في الأفُق . .

أَنْ :

الله أكبر . .

الله أكبر . .

وتجيب روحه المغتبطة في دار خُلدها، وسنَا مَجدِها :

* هذا ما وعدَنا اللهُ ورسولُه *

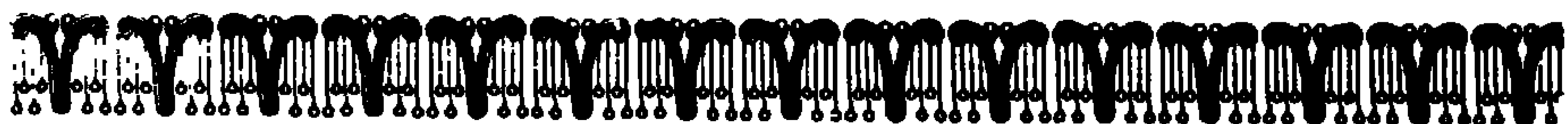
* وصـــــدَق الله ورسولُـه *





العباس بن عبد المطلب

ساقي الحرمين



في عام الرَّمادة ، وحين أصاب العباد والبلاد قحط وبيل ، خرج أمير المؤمنين عمر ، والمسلمون معه ، إلى الفضاء الرَّحْب يُصلُّون صلاة الاستسقاء ، ويضرعون إلى الله الرحيم أن يرسل إليهم الغيث والمطَر . .

ووقف عمر ، وقد أمسك يمين العباس بيمينه ، ورفعها صوْب السماء وقال :

[اللهم إنا كُنا نستسقي بنبيك وهو بيننا . . .

« اللهم وإنا اليوم نستسقي بعَمِّ نبيك ، فاسْقِنا . .]

ولم يغادر المسلمون مكانهم حتى جاءَهُم الغيث ، وهطل المطر ، يزُفُّ البُشرى ، ويمنحُ الرِّيَّ ، ويُخصِبُ الأرض . .

وأقبل الأصحاب على العباس يعانقونه ، ويُقبِّلونه ، ويتبركون به وهم يقولون :

[هنيئًا لك . .

ساقِيَ الحرَمَيْن] . . .

فمن كان « ساقِيَ الحرمين » هذا . . ؟ ؟

ومَنْ ذا الذي توسَّل به عمر إلى الله . . وعُمر مَنْ نعرف تُقًى وسَبْقًا ومكانةً عند الله وعند رسوله ولَدى المؤمنين . . ؟ ؟

إنه « العبَّاس » عَمُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

كان الرسول يُجِلُّه بقدر ما كان يُحبه ، وكان يمتدحه ويُطْري سجاياه قائلا :

[هذا بقيَّة آبائي] . . .

* * *

[هـذا العباس بن عبد المُطَّلب أجودُ قريش كَفًّـــــا وأوصَلُها] . . ! !

وكما كان « حمزة » عَمَّ الرسول وتِرْبَه ، كذلك كان العباس ، رضي الله عنهما . . .

فلم يكن يفصل بينهما في سنوات العمر سوى سنتين أو ثلاث ، تزيد في عمر العبَّاس عن عمر الرسول . .

وهكذا كان محمد ، والعباس عمه ، طفلين من سِنٍّ واحدة ، وشابَّيْن من جيل واحد . .

فلم تكن القرابة القريبة وحدها ، آصِرَةَ ما بينهما من وُدّ ، بل كانت كذلك زمالة السِّنّ ، وصداقة العمر . .

وشيءٌ آخر تضعه معايير النبي في المكان الأول دوما . . ذلك هو خُلق العباس وسجاياه . .

فلقد كان « العباس » جوادًا ، مُفرط الجود ، حتى كأنه للمكارم عَمّها أو خالها . . ! !

وكان وَصولاً للرَّحِم والأهل ، لا يَضِنُّ عليهما بجهد ولا بجاه ، ولا بمال . .

وكان إلى هذه وتلك ، فَطِنًا إلى حدِّ الدهاء ، وبفطنته هذه التي

تعزِّزها مكانته الرفيعة في قريش ، استطاع أن يدْرَأَ عن الرسول عليه الصلاة والسلام حين جهر بدعوته الكثير من الأذى والسوء . .

* * *

كان « حمزة » كما رأينا في حديثنا عنه من قبل يعالج بغي قريش ، وصَلَف أبي جهل بسيفه الماحق . .

أما العباس ، فكان يُعَالجها بفطنة ودهاء أَدَّيا للإسلام من النفع مثلما أَدَّت السيوف المدافعة عن حقه وحماه . . ! !

فالعباس لم يُعلن إسلامه إلا عام فتح مكة ، مما جعل بعض المؤرخين يعدونه مع الذين تأخر إسلامهم . . .

بَيْدَ أن روايات أُخرى من التاريخ تنبئ بأنه كان من المسلمين المبكِّرين ، غير أنه كان يكتُم إسلامه . .

يقول « أبو رافع » خادم الرسول صلى الله عليه وسلم :

[كنتُ غلامًا للعباس بن عبد المطلب ، وكان الإسلام قد دخَلَنَا أهل البيت ، فأسلم العباس ، وأَسْلَمت أُمُّ الفضل ، وأَسْلَمْتُ . . .

« وكان العباس يكتم إسلامه] . . .

هذه رواية « أبي رافع » يتحدث بها عن حال « العباس » وإسلامه قبل غزوة بدر . . .

كان العباس إذن مسْلما . .

وكان مقامه بمكة بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه خُطَّةً

أَدَّت غايتها على خير نَسَق . . .

ولم تكن قريش تخفي شكوكها في نوايا « العبّاس » . ولكنها أيضًا لم تكن تجد سبيلا لمحادَّته ، سيما وهو في ظاهر أمره على ما يرضَوْنَ من منهج ودين . .

حتى إذا جاءت « غزوة بدر » رأتها قريش فرصة تبلو بها سريرة العباس وحقيقته . .

والعباس أَدْهى من أن يغفل عن اتجاهات ذلك المكر السيئ الذي تعالج به قريش حَسَراتها ، وتنسج به مؤمراتها . . .

ولئن كان قد نجح في إبلاغ النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة أنباء قريش وتحركاتها ، فإن قريشًا ستنجح في دفعه إلى معركة لا يؤمن بها ولا يريدها . . بيد أنه نجاح موقوت لن يلبث حتى ينقلب على القرشيين خسارًا وبوارًا . .

* * *

ويلتقي الجمعان في غزوة بدر . . .

وتصطكُّ السيوف في عنفوان رهيب ، مقررة مصير كل جمع . وكل فريق . .

وينادي الرسول في أصحابه قائلا :

[إن رجالا من بني هاشم ، ومن غير بني هاشم . قد أُخْرِجوا كَرْهًا ، لا حاجة لهم بقتالنا . . فمن لقي منكم أحدهم فلا يقتله . . .

« من لَقِيَ أبا البَخْتَرِيّ بن هشام بن الحارث بن أسد فلا

يقتله . . .

« ومَنْ لقي العبَّاس بن عبد المطلب فلا يقتله ، فإنه إنما أُخْرِج مُسْتكْرهًا] . . .

لم يكن الرسول بأمره هذا يخصُّ عمه العبَّاس بمزية ، فما تلك مناسبة المزايا ، ولا هذا وقتها . .

وليس محمد – عليه الصلاة والسلام – من يرى رؤوس أصحابه تتهاوى في معركة الحقِّ ، ثم يشفع والقتال دائر لعمه ، لوكان يعلم أن عمه من المشركين . .

أَجَلْ . . .

إن الرسول الذي نُهِيَ عن أن يستغفر – مجرَّدَ استغفار – لعمه أبي طالب ، على كثرة ما أَسْدَى أبوطالب له وللإسلام من أياد وتضحيات . .

ليس هو – منطقًا وبداهة – من يجيءُ في غزوة بدر ليقول لمن يقتلون آباءهم وإخوانهم من المشركين : استثنوا عمي ولا تقتلوه . . ! !

أما إذا كان الرسول يعلم حقيقة عمه ، ويعلم أنه يطوي على الإسلام صدره ، كما يعلم أكثر من غيره ، الخدمات غير المنظورة التي أدَّاها للإسلام . . كما يعلم أخيرًا أنه خرج مُكْرَهًا ومُحْرَجا فآنئذ يصير من واجبه أن يُنقذ مَنْ هذا شأنه ، وأن يَعْصم من القتل دمه ما استطاع لهذا سبيلا . . .

وإذا كان « أبو البختري بن الحارث » وهو الذي لم يُعْرَف له إسلام يخفيه ، ولم يُناصر الإسلام سرًا كما كان يناصره العباس .

كل فضيلته أنه لم يكن يشارك سادة قريش في إنزالهم الضُّرَّ والظلم

بالمسلمين ، ولم يكن يرضى عن صنيعهم ذاك ، وأنه خرج معهم إلى غزوة بدر مُخْرَجًا ومكرهًا . .

إذا كان « أبو البختري » وهذا شأنه ، قد ظفر بشفاعة الرسول لدمه حتى لا يُهْدَر ، ولحياته كي لا تُزْهَق . .

أفلا يكون جديرًا بهذه الشفاعة ، مسلم يكتم إسلامه . .

ورجل له في نصرة الإسلام مواقف مشهودة ، وأخرى طوي عليها ستر الخفاء . . ؟ ؟

بلى . . . ولقد كان العباس ذلك المسلم . وذلك النصير .

ولْنَعُد للوراء قليلا لنرى . . .

* * *

في بيعة العقبة الثانية عندما قدم مكة في موسم الحج وفد الأنصار ، ثلاثة وسبعون رجلا وسيدتان ، ليعطوا الله ورسوله بَيْعَتَهُم ، وليتفقوا مع النبي عليه السلام على الهجرة إلى المدينة ، أنهى الرسول إلى عمه العباس نبأ هذا الوفد ، وهذه البيعة . . وكان الرسول عليه السلام يثقُ بعمه في رأيه كله . .

ولما جاء موعد اللقاء الذي انعقد سرًّا وخُفْية ، خرج الرسول وعمه العباس إلى حيث كان الأنصار ينتظرون . .

وأراد العباس أن يَعْجُم عود القوم ويتوثَّق للنبي منهم . .

ولْنَدع واحدًا من أعضاء الوفد يروي لنا النبأ ، كما سمع ورأى . . ذلكم هو « كعب بن مالك » رضي الله عنه :

[. . . وجلسنا في الشِّعْب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب . . وتكلم العباس فقال : يا معشر الخزرج . إن محمدًا منا حيث قد علمتم . وقد منعناه من قومنا فهو في عزٍّ من قومه ومَنَعَة في بلده . وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم . . .

« فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه . ومانعوه ممن خالفه . فأنتم وما تحملتم من ذلك . .

« وإن كنتم تَرَوْنَ أنكم مُسْلِموه وخاذلوه بعد خروجه إليكم . فمن الآن فَدَعُوه] . . .

كان العباس يلقي بكلماته الحاسمة الحازمة هذه . وعيناه تُحَدِّقان كعيني الصقر في وجوه الأنصار . . . يتتبع وَقْعَ الكلام وردود فعله العاجلة . . .

ولم يكتف العباس بهذا . فذكاؤه العظيم ذكاء عملي يتقصى الحقيقة في مجالها المادي . ويواجه كل أبعادها مواجهة الحاسب الخبير .

هنالك استأنف حديثه مع الأنصار بسؤال ذكي ألقاه . ذلك هو :

[صفوا لي الحرب . كيف تقاتلون عدوكم] ! ! ؟ ؟

إن العباس بفطنته وتجربته مع قريش يدرك أن الحرب لا محالة قادمة بين الإسلام والشرك . فقريش لن تتنازل عن دينها ومجدها وعنادها .

والإسلام ما دام حقًا لن يتنازل للباطل عن حقوقه المشروعة . .

فهل الأنصار – أهل المدينة – صامدون للحرب حين تقوم . . ؟ ؟

وهل هم – من الناحية الفنية – أكفاء لقريش . يجيدون فن الكرِّ والفرِّ والقتال . . ؟ ؟

من أجل هذا . ألقى سؤاله السالف :

[صفوا لِيَ الحرب . كيف تقاتلون عدوكم] . . ؟ ؟

كان الأنصار الذين يُصْغون للعباس رجالا كالأطواد . . .

ولم يكد العباس يفرغ من حديثه ، لا سيما ذلك السؤال المثير الحافز حتى شرع الأنصار يتكلمون . . .

وبدأ عبد الله بن عمرو بن حرام مجيبا على السؤال :

[نحن – والله – أهل الحرب . . . غُذِينا بها . ومَرِنَّا عليها . وورِثْناها عن آبائنا كابرا فكابرا . . .

« نَرْمي بالنَّبْل . حتى تفنى . . .

« ثم نُطاعِنُ بالرِّماح . حتى تُكْسر . . .

« ثم نمشي بالسيوف . فَنُضَارب بها حتى يموت الأعجل منا أو من عدونا] . . ! !

وأجاب العباس متهللا :

[أنتم أصحاب حرب إذن . فهل فيكم دروع] . . ؟ ؟

قالوا :

[نعم . . لدينا دروع شاملة] . .

ثم دار حديث رائع وعظيم بين رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وبين الأنصار . حديث سنعرض له – إن شاء الله – فيما بعد

* * *

هذا هو موقف العباس في بيعة العقبة . . .

وسواء عليه ، أكان يومئذ اعتنق الإسلام سرًّا ، أم كان لا يزال يفكر ، فإن موقفه العظيم هذا يحدد مكانه بين قوى الظلام الغارب ، والشروق المقبل ، ويصور أبعاد رجولته ورسوخه . . ! !

* * *

ويجيء يوم « حُنَين » ليوكد فدائية هذا الهادئ السَّمْت ، اللين الجانب . وليبرز فوق أرض المعركة ، ذلك النوع من البطولة التي تملأ الزمان والمكان حينما تدعو الحاجة إليها ، ويهيب الموقف بها ، بينما هي في غير ذلك الظرف المُلِحّ . مستكِنَّةً تحت الأضلاع . متوارية عن الأضواء . . ! !

* * *

في السنة الثامنة من الهجرة . وبعد أن فتح الله مكة لرسوله ولدينه عز على بعض القبائل السائدة في الجزيرة العربية أن يحقق الدين الجديد كل هذا النصر بهذه السرعة . . .

فاجتمعت قبائل هوازن وثقيف ونصر وجْشَم وآخرون . وقرروا شَنَّ حرب حاسمة ضد الرسول والمسلمين . . .

إن كلمة « قبائل » لا ينبغي أن تخدعنا عن ضبيعة تلك الحروب التي كان يخوضها الرسول طوال حياته . فنظن أنها كانت مجرد مناوشات جبلية صغيرة . فليس هناك حروب أشد ضراوة من حروب تلك القبائل

في معاقلها . . ! !

وإدراك هذه الحقيقة لا يعطينا تقديرًا سديدًا للجهد الخارق الذي بذله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فحسب ، بل ويعطينا تقديرًا صحيحًا وأمينًا لقيمة النصر العظيم الذي أحرزه الإسلام والمؤمنون ؛ ورؤية واضحة لتوفيق الله الماثل في هذا النجاح وذلك الانتصار . .

* * *

احتشدت تلك القبائل في صفوف لجَبَة من المقاتلين الأشداء . .

وخرج إليهم المسلمون في اثني عشر ألفًا . .

اثنا عشر ألفًا . . ؟ ؟

وممن . . ؟ ؟

من الذين فتحوا « مكة » بالأمس القريب ، وشيعوا الشرك والأصنام إلى هاويتها الأخيرة والسحيقة ، وارتفعت راياتهم تملأ الأفق دون مُشَاغب عليها أو مزاحم لها . . ! !

هذا شيئ يبعث الزهو . . .

والمسلمون في آخر المطاف بشر ، ومن ثَم ، فقد ضعفوا امام الزهو الذي ابتعثته كثرتهم ونظامهم ، وانتصارهم الكبير بمكة ، وقالوا :

[لَنْ نُغْلَبَ اليوم عن قِلّة] . . .

ولما كانت السماء تُعِدُّهم لغاية أجلَّ من الحرب وأسمى ، فإن ركونهم إلى قوتهم العسكرية ، وزهْوَهم بانتصارهم الحربي ، عمل غير صالح ينبغي أن يَبْرَأوا منه سريعًا ، ولو بصدمة شافية . . .

وكانت الصدمة الشافية هزيمة كبرى مباغتة في أول القتال ، حتى إذا ضَرَعُوا إلى الله ، وبَرِئُوا من حَوْلِهِم إلى حَوْلِه ، ومن قوتهم إلى قوته ، انقلبت الهزيمة نصرًا ، ونزل القرآن الكريم يقول للمسلمين :

[. . . ويومَ حُنَيْنٍ إذ أعجبتكُمْ كَثْرَتُكُمْ فلم تُغْنِ عنكم شيئًا ، وضَاقَتْ عليكم الأرضُ بما رَحُبَت ، ثم وَلَّيْتُمْ مُدْبِرين . . .

« ثم أنزل الله سَكينتَهُ عَلَى رسولِه وعَلَى المؤمنين ، وأنزل جنودًا لم تَرَوْها ، وعَذَّبَ الذين كفروا ، وذلك جـزاء الكافرين] . . .

* * *

كان صوت العباس يومئذ وثباته من ألمع مظاهر السكينة والاستبسال . . فبينما كان المسلمون متجمعين في أحد أودية تِهَامَة ينتظرون مجيء عدوهم ، كان المشركون قد سبقوهم إلى الوادي وكمنوا لهم في شِعَابِه وأحنائه ، شاحذين أسلحتهم ، ممسكين زمام المبادرة بأيديهم . .

وعلى حينِ غفلة ، انقضوا على المسلمين في مفاجأة مذهلة ، جعلتهم يُهْرَعون بعيدًا ، لا يَلْوِي أحد على أحد . . .

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدثه الهجوم المفاجئ الخاطف بالمسلمين ، فعلا صهوة بغلته البيضاء ، وصاح :

[إلى أين أيها الناس . . ؟ ؟

« هَلُمُّوا إليَّ . . .

« أنا النبيُّ لا كَذِب . . .

« أنا ابنُ عبد المُطَّلب] . . .

لم يكن حول النبي ساعتئذ سوى أبي بكر ، وعمر ، وعلي بن أبي طالب ، والعباس بن عبد المطلب ، وولده الفضل بن العباس ، وجعفر ابن الحارث ، وربيعة بن الحارث ، وأُسامة بن زيد ، وأيمن بن عبيد ، وقلة أخرى من الأصحاب . .

وكان هناك سيدة أخذت مكانًا عاليًا بين الرجال والأبطال . .

تلك هي « أُم سُلَيم بنت مِلْحَان » . .

رأت ذهول المسلمين وارتباكهم ، فركبت جمل زوجها « أبي طلحة » رضي الله عنهما ، وهرولت به نحو الرسول . .

ولما تحرك جنينها في بطنها ، وكانت حاملا ، خلعت بُرْدتها وشدت بها على بطنها في حزام وثيق ، ولما انتهت إلى النبي صلى الله عليه وسلم شاهرة خنجرًا في يمينها ابتسم لها الرسول وقال :

[أُم سليم . . ؟ ؟]

قالت :

[نعم . . بأبي أنت وأُمي يا رسول الله . .

« اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك ، كما تقتل الذين يقاتلونك ، فإنهم لذلك أهل] . .

وازدادت البسمة أَلَقًا على وجه الرسول الواثق بوعد ربه وقال لها :

[إن الله قد كفى وأحسن يا أُم سليم] . . ! !

* * *

هناك ورسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الموقف ، كان العباس إلى جواره ، بل كان بين قدميه آخذًا بخطام بغلته ، يتحدى الموت والخطر . .

وأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يصرخ في الناس ، وكان العباس جسيما جهوري الصوت ، فراح ينادي :

[يا معشر الأنصار . . .

يا أصحاب البَيْعَة] . . .

وكأنما كان صوته داعيَ القَدَر ونذيره . . .

فما كاد يقرع أسماع المُرْتاعين من هول المفاجأة ، المُشَتَّتين في جنبات الوادي ، حتى أجابوا في صوت واحد :

[لَبَّيْكَ . . . لَبَّيْك] . . .

وانقلبوا راجعين كالإعصار ، حتى إن أحدهم ليحرن بعيره أو فرسه ، فيقتحم عنها ويترجَّل ، حاملا درعه وسيفه وقوسه ، مُيَمِّمًا صَوْب صوت العباس . . .

ودارت المعركة من جديد . . ضارية ، عاتية . .

وصاح رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[الآن حَمِيَ الوَطِيس] . . .

وحمي الوطيسُ حقًا . .

وتدحرج قتلى هَوَازن وثقيف ، وغلبت خيلُ الله خيلَ اللّات ،

وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين . . ! !

* * *

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب العباس عمه حبًّا كبيرًا ، حتى إنه لم ينم يوم انتهت غزوة بدر ، وقضى عمه ليله في الأسر . .

ولم يُخْفِ النبي عليه السلام عاطفته هذه ، فحين سُئل عن سبب أَرَقِهِ ، وقد نصره الله نصرًا مؤزَّرًا أجاب :

[سمعتُ أنين العباس في وثاقه] . . .

وسمع بعض المسلمين كلمات الرسول ، فأسرع إلى مكان الأسرى ، وحلَّ وثاق العباس ، وعاد فأخبر رسول الله قائلا :

[يا رسول الله . . .

إني أرخيت من وثاق العباس شيئًا] . . .

ولكن لماذا العباس وحده . . ؟

هنالك قال الرسول لصاحبه :

[اذهب ، فافعل ذلك بالأسرى جميعًا] . .

أجل ، فحب النبي صلى الله عليه وسلم لعمه لا يعني أن يميزه عن الناس الذين تجمعهم معه ظروف مماثلة . .

وعندما تقرر أخذ الفدية من الأسرى ، قال الرسول لعمه :

[يا عباس . . .

افْدِ نفسك ، وابنَ أخيك عقيل بن أبي طالب ، ونوفل ابن الحارث ، وحليفك عتبة بن عمرو أخا بني الحارث بن

فهر ، فإنك ذومال] . . .

وأراد العباس أن يغادر أسره بلا فدية ، قائلا :

[يا رسول الله ، إني كُنتُ مسلمًا ، ولكـــن القوم استكرهوني] . .

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم أصرَّ على الفدية ، ونزل القرآن الكريم في هذه المناسبة يقول :

[يا أيها النبيُّ قل لمن في أيديكم من الأسْرَى إن يَعْلَمِ اللهُ في قلوبكم خيرًا يُؤْتِكم خيرًا مما أُخِذَ منكم ويغفر لكم ، واللهُ غفور رحيم] .

وهكذا فدى العباس نفسه ومن معه ، وقفل إلى مكة راجعًا . . . ولم تخدعه قريش بعد ذلك عن عقله وهُداه ، فبعد حين جمع ماله وحمل متاعه ، وأدرك الرسول بخَيْبَر ، ليأخذ مكانه في موكب الإسلام ، وقافلة المؤمنين . . . وصار موضع حب المسلمين وإجلالهم العظيم ، لا سيما وهم يرون تكريم الرسول له وحُبه إياه وقوله عنه :

[إنما العباس صِنْوُ أبي . .

فمن آذى العباس فقد آذاني] .

وأنجب العباس ذرية مباركة .

وكان حَبر الأمة « عبد الله بن عباس » واحدًا من هؤلاء الأبناء المباركين .

* * *

وفي يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من رجب سنة اثنتين وثلاثين سمع أهل العوالي بالمدينة مناديًا ينادي :

[رحم الله من شهد العباس بن عبد المطلب] .

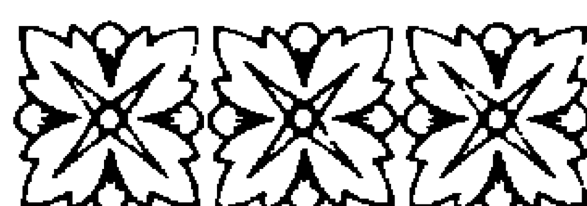
فأدركوا أن العباس قد مات . .

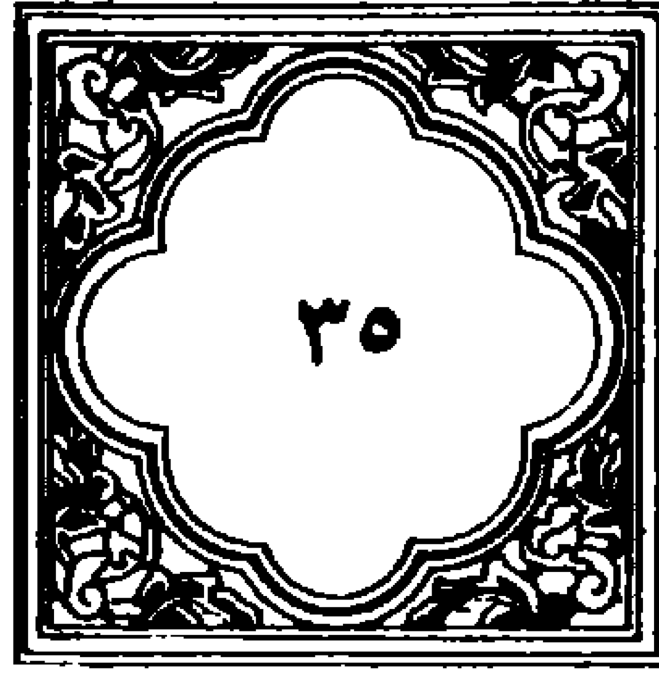
وخرج الناس لتشييعه في أعداد هائلة لم تعهد المدينة مثلها . .

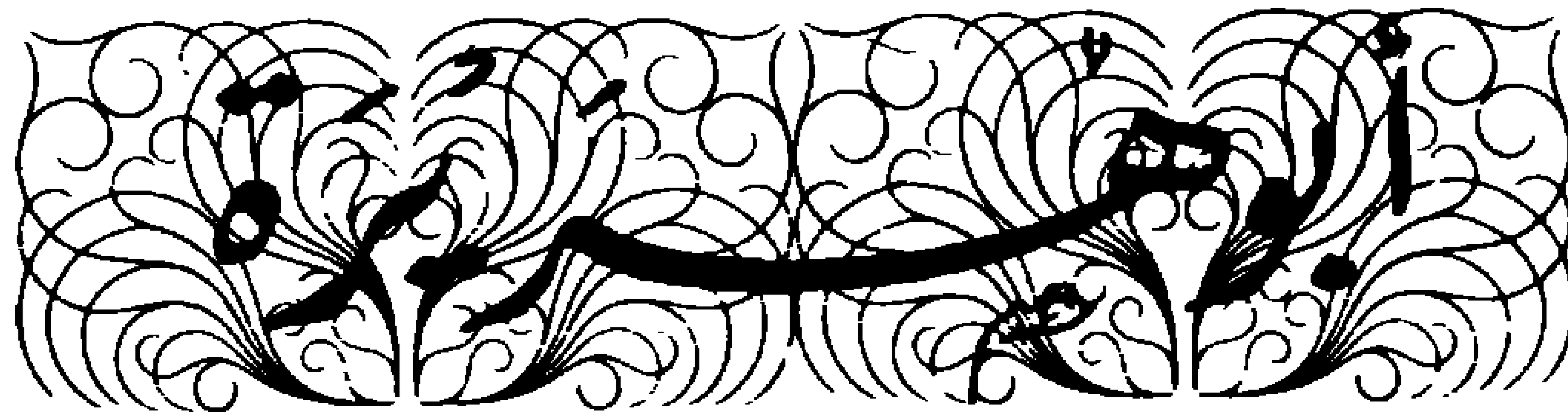
وصلى عليه خليفة المسلمين يومئذ « عثمان » رضي الله عنه .

وتحت ثرى البقيع هدأ جثمان « أبي الفضل » واستراح . .

ونام قريرَ العين ، بين الأبرار الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ! !







ذَاكِرَةَ عَصْرِ الوَحْيِ !!



صحيح أن ذكاء المرء محسوب عليه . . .

وأصحابُ المواهب الخارقة كثيرًا ما يدفعون الثمن في نفس الوقت لذي كان ينبغي أن يتلقوا فيه الجزاء والشكران . . ! !

والصحابي الجليل « أبو هريرة » واحد من هؤلاء . . .

فلقد كان ذا موهبة خارقة في سعة الذاكرة وقوتها . .

كان – رضي الله عنه – يُجيد فنَّ الإصغاء ، وكانت ذاكرته تجيد فن الحفظ والاختزان . . .

يسمع ، فيعي ، فيحفظ ، ثم لا يكاد ينسى مما وعى كلمة ولا حرفًا مهما تطاولَ العمر ، وتعاقبت الأيام . . !

من أجل هذا هيأته موهبته ليكون أكثر أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم حفظًا لأحاديثه ، وبالتالي أكثرهم رواية لها .

فلما جاء عصر الوضَّاعين الذين تخصصوا في الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اتخذوا أبا هريرة غَرَضًا ، مستغلين أسوأ استغلال سمعته العريضة في الرواية عن رسول الله عليه السلام ، وراحوا كلما لَفَّقوا حديثًا يقولون : قال أبو هريرة . . ! !

وكادوا بفعلهم هذا يضعون سمعة أبي هريرة ومكانته كمحدث عن النبي عليه الصلاة والسلام موضع الارتياب والتساؤل . لولا تلك الجهود البارة والخارقة التي بذلها أبرار كبار نذروا حياتهم وكرَّسوها لخدمة الحديث

النبوي ونفي كل زيف ودخيل عنه .

هنالك نجا « أبو هريرة » رضي الله عنه من أخْطبوط الأكاذيب والتلفيقات التي أراد المفسدون أن يتسللوا بها إلى الإسلام عن طريقة ، وأن يُحَمِّلُوهُ وِزْرَهَا وأذاها . . ! !

* * *

والآن . . . عندما تسمع واعظًا ، أو مُحَاضِرًا ، أو خطيب جمعة يقول تلك العبارة المأثورة : « عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . » .

أقول : عندما تسمع هذا الاسم على هذه الصورة . أو عندما تلقاه كثيرًا ، وكثيرًا جدًا في كتب الحديث ، والسيرة ، والفقه ، والدين بصفة عامة ، فاعلم أنك تلقى شخصية من أكثر شخصيات الصحابة إغراء بالصحبة والإصغاء . . .

ذلك أن ثروته من الأحاديث الرائعة ، والتوجيهات الحكيمة التي حفظها عن النبي عليه السلام ، قلَّ أن يوجد لها نظير . . .

وإنه – رضي الله عنه – بما يملك من هذه الموهبة . وهذه الثروة ، لمن أكثر الأصحاب مقدرة على نقلك إلى تلك الأيام التي عاشها الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم ، وإلى التحليق بك – إذا كنتَ وثيق الإيمان مُرْهَف النفس – في تلك الآفاق التي شهدت روائع محمد وأصحابه ، تعطي الحياة معناها ، وتُهْدِي إليها رُشدها ونهاها .

وإذا كانت هذه السطور قد حركت أشواقك لأن تتعرف لأبي هريرة وتسمع من أنبائه نبأ . فَدُونك الآن وما تريد . . .

إنه واحدٌ من الذين تنعكسُ عليهم ثورَة الإسلام بكل ما أحدثته من تغيرات هائلة .

فمن أَجِير إلى سَيِّد . .

ومن تائه في الزحام ، إلى عَلَم وإمام . . ! !

ومن ساجد أمام حجارة مركومة ، إلى مؤمن بالله الواحد القهار . .

وها هو ذا يتحدَّث ويقول :

[نشأت يتيمًا ، وهاجرت مسكينًا . . وكنتُ أجيرًا لِبُسْرَة بنت غزوان بطعام بطني . . ! !

«كنتُ أخْدمهم إذا نزلوا ، وأَحْدُو لهم إذا ركبوا . . .

« وها أنذا وقد زوَّجنيها الله ، فالحمد لله الذي جعل الدين قَوامًا ، وجعل أبا هريرة إمامًا] . . . !

* * *

قدم على النبي عليه الصلاة والسلام سنة سبع وهو بخيبر ، فأسلم راغبًا مشتاقًا . . .

ومنذ رأى النبي عليه الصلاة والسلام وبايعه لم يكد يفارقه أبدًا إلّا في ساعات النوم . .

وهكذا كانت السنوات الأربع التي عاشها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أسلم إلى أن ذهب النبي إلى الرفيق الأعلى .

نقول : كانت تلك السنوات الأربع عُمْرًا وحدها . . كانت طويلة

عريضة ، ممتلئة بكل صالح من القول ، والعمل ، والإصغاء .

* * *

أدرك أبو هريرة بفطرته السديدة الدور الكبير الذي يستطيع أن يخدم به دين الله .

إن أبطال الحرب في الصحابة كثيرون . . .

والفقهاء والدُّعاة والمعلمون كثيرون . . .

ولكن البيئة والجماعة تفتقد الكتابة والكُتَّاب .

ففي تلك العصور ، كانت الجماعة الإنسانية كلها ، لا العرب وحدهم ، لا يهتمون بالكتابة ، ولم تكن الكتابة من علامات التقدم في مجتمع مَّا . .

بل إن « أوربا » نفسها كانت كذلك منذ عهد غير بعيد .

وكان أكثر ملوكها وعَلَى رأسهم « شارلمان » أُمِّيين لا يقرأون ولا يكتبون ، مع أنهم في نفس الوقت كانوا على حظ كبير من الذكاء ، والمقدرة . .

* * *

نعود إلى حديثنا لنرى « أبا هريرة » يدرك بفطرته حاجة المجتمع الجديد الذي يبنيه الإسلام إلى من يحفظون تراثه وتعاليمه – كان هناك يومئذ من الصحابة كتَّاب يكتبون ولكنهم قليلون ، ثم إن بعضهم لا يملك من الفراغ ما يمكنه من تسجيل كل ما ينطق به الرسول من حديث .

لم يكن « أبو هريرة » كاتبا ، ولكنه كان حافظًا ، وكان يملك هذا

الفراغ ، أوهذا التفرُّغ المنشود ، فليس له أرض يزرعها ولا تجارة يتبعها ! !

وهو إذ رأى نفسه وقد أسلم متأخرًا ، عزم على أن يعوض ما فاته ، وذلك بأن يواظب على متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى مجالسته . .

ثم إنه يعرف من نفسه هذه الموهبة التي أنعم الله بها عليه ، وهي ذاكرته الرحبة القوية ، والتي زادت مضاء ورحابة وقوة ، بدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم لصاحبها أن يبارك الله له فيها . .

فلماذا إذن لا يكون واحدًا من الذين يأخذون على عاتقهم حفظ هذا التراث ونقله للأجيال . . ؟ ؟

أجَلْ . . هذا دوره الذي تهيئه للقيام به مواهبه ، وعليه أن يقوم به في غير تَوان . .

* * *

لم يكن « أبو هريرة » ممن يكتبون ، ولكنه كان كما ذكرنا سريع الحفظ قوي الذاكرة . . .

ولم تكن له أرض يزرعها ، ولا تجارة تشغله ، ومن ثم لم يكن يفارق الرسول في سَفَر ولا في حَضَر . .

وهكذا راح يكرِّس نفسه ودقة ذاكرته لحفظ أحاديث رسول الله عليه الصلاة والسلام وتوجيهاته . . .

فلما انتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، راح أبو هريرة يحدث ، ويُحَدِّث ، مما جعل بعض أصحابه يعجبون : أنَّى له كل هذه الأحاديث ، ومتى سمعها ووعاها . .

ولقد ألقى أبو هريرة رضي الله عنه الضوء على هذه الظاهرة . وكأنه يدفع عن نفسه مغبة تلك الشكوك التي ساورت بعض أصحابه فقال :

[إنكم لتقولون أكثَرَ أبو هريرة في حديثه عن النبي صلى الله عليه وسلم . .

« وتقولون : إن المهاجرين الذين سبقوه إلى الإسلام لا يحدثون هذه الأحاديث . . ؟ ؟

« ألا إن أصحابي من المهاجرين . كانت تشغلهم صفقاتهم بالسوق ، وإن أصحابي من الأنصار كانت تشغلهم أرضهم . . .

« وإني كنت امرءًا مسكينًا . أكثر مجالسة رسول الله . فأحضر إذا غابوا . . وأحفظ إذا نَسْوا . .

« وإن النبي صلى الله عليه وسلم حدثنا يوما فقال : من يبسط رداءه حتى يفرغ من حديثي ثم يقبضه إليه فلا ينسى شيئًا كان قد سمعه مني . . ! فبسطت ثوبي فحدثني ثم ضممته إليّ فوالله ما كنتُ نسيتُ شيئًا سمعته منه . .

« وأيْمُ الله ، لولا آية في كتاب الله ما حدثتكم بشيء أبدًا . هي : (إن الذين يكتمون ما أنزلْنَا من البيِّنَاتِ والهُدَى من بعد ما بَيَّنَّاهُ للناس في الكتاب . أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون)] . . .

هكذا يفسِّرُ « أبو هريرة » سرَّ تفرده بكثرة الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فهو – أولا – كان متفرغا لصحبة النبي أكثر من غيره . .

وهو – ثانيًا – كان يحمل ذاكرة قوية ، باركها الرسول فزادت قوة . . .

وهو – ثالثًا – لا يُحَدِّث رغبة في أن يتحدث ، بل لأن إفشاء هذه الأحاديث مسئولية دينه وحياته ، وإلا كان كاتما للخير وللحق ، وكَان مفرطًا ينتظره جزاء المُفَرِّطين . .

من أجل هذا راح يحدِّث ويُحَدِّث ، لا يصدُّه عن الحديث صادٌّ ، ولا يعتاقه عائق . . حتى قال له عمر يومًا وهو أمير المؤمنين :

[لتتركَنَّ الحديث عن رسول الله ، أو لألْحِقَنَّك بأرض دَوْس] . .

أي أرض قومه وأهله . .

على أن هذا النهي من أمير المؤمنين لا يُشكل اتهامًا لأبي هريرة ، بل هو دَعْم لنظرية كان عمر يتبنَّاها ويؤكِّدها ، تلك هي : أن عَلَى المسلمين في تلك الفترة بالذات ألّا يقرأوا ، وألّا يحفظوا ، شيئًا سوى القرآن حتى يقرّ ويثبت في الأفئدة ، والعقول . .

فالقرآن كتاب الإسلام ، ودستوره ، وقاموسه ، وكثرة الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا سيما في تلك السنوات التي أعقبت وفاته عليه السلام ، والتي يُجمع القرآن خلالها قد تسبب بَلْبلةً لا داعي لها ولا جدوى منها . . .

من أجل هذا كان « عمر » يقول :

[اشتغلوا بالقرآن ، فإن القرآن كلام الله] . .

ويقول :

[أقِلُّوا الرواية عن رسول الله إلا فيما يعمل به] .

وحين أرسل أبا موسى الأشعري إلى العراق ، قال له :

[إنك تأتي قومًا لهم في مساجدهم دَوِيٌّ بالقرآن كدويِّ النحل ، فدعهم على ما هم عليه ، ولا تشغلهم بالأحاديث ، وأنا شريكك في ذلك .] . .

كان القرآن قد جمع بطريقة مضمونة دون أن يتسرب إليه ما ليس منه . .

أما الأحاديث فليس يضمن « عمر » أن تحَرَّف أو تزيف ، أو تتخذ سبيلا للكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والنيل من الإسلام . .

وكان « أبو هريرة » يقدر وجهة نظر « عمر » ، ولكنه أيضًا كان واثقًا من نفسه ومن أمانته ، وكان لا يريد أن يكتم من الحديث والعلم ما يعتقد أن كتمانه إثمٌ وبَوَار .

وهكذا . . لم يكن يجد فرصة لإفراغ ما في صدره من حديث سمعه ووعاه إلا حدَّث وقال . .

* * *

على أن هناك سببًا هامًا ، كان له دور كبير في إثارة المتاعب حول أبي هريرة لكثرة تحدُّثه وحديثه .

ذلك أنه كان هناك يومئذ محدِّث آخر يحدِّثُ عن الرسول صلى الله عليه وسلم ويُكْثِر ويُسْرِف ، ولم يكن المسلمون الأصحاب يطمئنون

كثيرًا لأحاديثه ، ذلكم هو «كعب الأحبار» الذي كان يهوديًا وأسلم .

* * *

أراد مروان بن الحكم يومًا أن يبلو مقدرة أبي هريرة على الحفظ ، فدعاه إليه وأجلسه معه ، وطلب منه أن يحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بينما أجلس كاتبه وراء حجاب ، وأمره أن يكتب كل ما يقوله أبو هريرة . .

وبعد مرور عام ، دعاه مروان مرة أخرى ، وأخذ يستقرئه نفس الأحاديث التي كان كاتبه قد سطرها ، فما نسي « أبو هريرة » كلمة منها ! !

وكان يقول عن نفسه :

[ما من أحد من أصحاب رسول الله أكثر حديثًا عنه مني ، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو بن العاص ، فإنه كان يكتب ، ولا أكتب] . . .

وقال عنه الإمام الشافعي رضي الله عنه :

[أبو هريرة أحفظ من روى الحديث في دهره] .

وقال البخاري رضي الله عنه :

[روى عن أبي هريرة نحوًا من ثمانمائة أو أكثر من الصحابة والتابعين وأهل العلم] .

وهكذا كان أبو هريرة مدرسة كبيرة كُتب لها البقاء والخلود . .

وكان « أبو هريرة » رضي الله عنه من العابدين الأوّابين ، يتناوب مع زوجته وابنته قيام الليل كله . . . فيقوم هو ثلثه ، وتقوم زوجته ثلثه ، وتقوم ابنته ثلثه . . . وهكذا لا تمر من الليل ساعة إلا وفي بيت « أبي

هريرة » عبادة وذِكْرٌ وصلاة ! !

وفي سبيل أن يتفرغ لصحبة الرسول صلى الله عليه وسلم عانى من قسوة الجوع ما لم يُعَانِ مثله أحد . . .

وإنه ليحدثنا : كيف كان الجوع يعض أمعاءه فيشدُّ على بطنه حجرًا ويعتصر كبده بيديه ، ويسقط في المسجد وهو يَتَلَوَّى حتى يظن بعض أصحابه أن به صَرَعًا ، وما هو بمصروع . . !

ولما أسلم لم يكن يؤودُه ويضنيه من مشاكل حياته سوى مشكلة واحدة لم يكن يَرْقَأُ له بسببها جَفْن . .

كانت هذه المشكلة هي أمه : فإنها يومئذ رفضت أن تسلم . .

ليس ذلك فحسب ، بل كانت تؤذي ابنها في رسول الله فتذكره بسوء . . .

وذات يوم أسمعت « أبا هريرة » في رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يكره ، فانفضَّ عنها باكيًا محزونًا ، وذهب إلى مسجد الرسول . .

ولْنصْغ إليه وهو يروي لنا بقية النبأ :

[. . . فجئت إلى رسول الله وأنا أبكي ، فقلت : يا رسول الله ، كُنت أدعو أم أبي هريرة إلى الإسلام فتأبى عَلَيَّ ، وإني دعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره ، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة إلى الإسلام . .

« فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اهد أم أبي هريرة . . .

« فخرجت أعدو أبَشِّرُها بدعاء رسول الله ، فلما أتيت الباب إذا هو مُجاف – أي مغلق – وسمعت خَضْخَضَة الماء ، ونادتني : يا أبا هريرة مكانك . .

« ثم لبست دِرْعَها ، وعجلت عن خمارها وخرجت وهي تقول : أشهد ألَّا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله . .

« فجئت أسعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبكي من الفرح ، كما بكيت من الحزن ، وقلت : أبشر يا رسول الله ، فقد أجاب الله دعوتك . .

« قد هدى الله أم أبي هريرة إلى الإسلام . .

« ثم قلت : يا رسول الله : ادعُ الله أن يحبِّبني وأمي إلى المؤمنين والمؤمنات . .

« فقال : اللَّهم حبِّب عُبَيْدَك هذا وأمه إلى كل مؤمن ومؤمنة] . . .

* * *

وعاش « أبو هريرة » عابدًا ، ومجاهدًا . . . لا يتخلف عن غزوة ، ولا عن طاعة .

وفي خلافة « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه وَلَّاهُ إمارة البحرين .

و« عمر » كما نعلم شديد المحاسبة لولاته .

إذا وَلّى أحدهم وهو يملك ثوبين ، فيجب أن يترك الولاية يوم

يتركها وهو لا يملك من دنياه سوى ثوبيه . . . ويكون من الأفضل أن يتركها وله ثوب واحد . . ! !

أما إذا خرج من الولاية وقد ظهرت عليه أعراض ثراء ، فإنه آنئذ لا يفلِتُ من حساب « عمر » ، مهما يكن مصدر ثرائه حلالا ومشروعا !

دنيا أخرى . . . ملأها « عمر » روعة وإعجازًا . . ! !

وحين وَلِيَ « أبو هريرة » البحرين ادَّخَر مالا ، من مصادره الحلال ، وعلم « عمر » فدعاه إلى المدينة . .

ولْندع « أبو هريرة » يروي ما جرى بينهما من حوار سريع :

[قال لي عمر :

يا عدو الله ، وعدو كتابه ، أَسَرَقْتَ مال الله . . ؟ ؟

« قلت :

ما أنا بعدوّ لله ولا عدوّ لكتابه ، . . لكني عدوّ من عاداهما . .

ولا أنا من يسرق مال الله . . !

« قال :

فمن أين اجتمعَتْ لك عشرة آلاف . . ؟ ؟

« قلتُ :

خيلٌ لي تناسَلَتْ ، وعطايا تلاحَقَتْ . . .

« قال عمر : فادفعها إلى بيت مال المسلمين] . . . ! !

ودفع « أبو هريرة » المال إلى « عمر » ثم رفع يديه إلى السماء وقال :

[اللّهم اغفر لأمير المؤمنين] . . .

وبعد حين دعا عمر أبا هريرة ، وعرض عليه الولاية من جديد ، فأباها واعتذر عنها .

قال له عمر : ولماذا ؟ ؟

قال أبو هريرة :

حتى لا يُشْتَمُ عرضِي ، ويؤخَذَ مالي ، ويُضْرَب ظهري . . .

ثم قال :

وأخاف أن أقضي بغير علم

وأقول بغير حِلْم . . .

* * *

وذات يوم ، اشتد شوقه إلى لقاء الله . .

وبينما كان عُوَّاده يدعون له بالشفاء من مرضه ، كان هو يُلحُّ على الله قائلا :

[اللهم إني أحب لقاءك ، فأحِبَّ لقائي] . .

وعن ثماني وسبعين سنة مات في العام التاسع والخمسين للهجرة .

وبين ساكني البقيع الأبرار تبوَّأ جثمانه الوديع مكانًا مباركا . . .

وبينما كان مشيعوه عائدين من جنازته ، كانت ألسنتهم ترتل الكثير من الأحاديث التي حفظها لهم عن رسولهم الكريم .

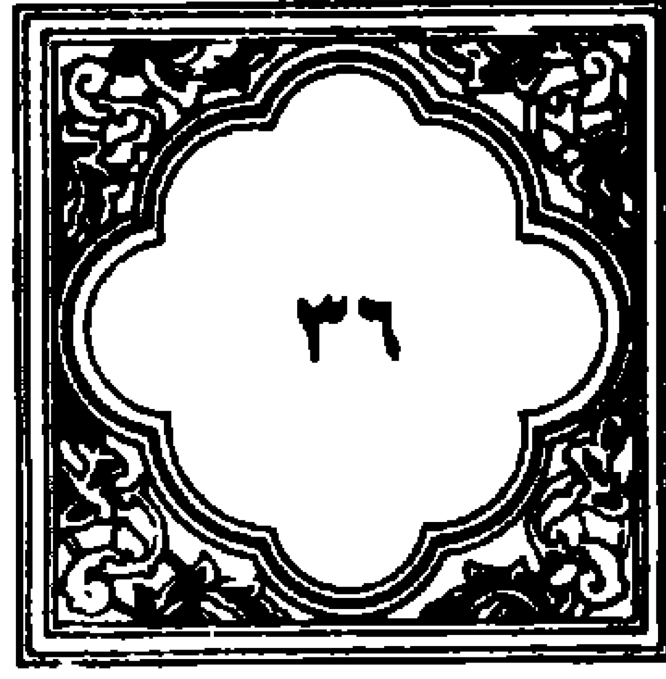
ولعل واحدًا من المسلمين الجدد كان يميل على صاحبه ويسأله :

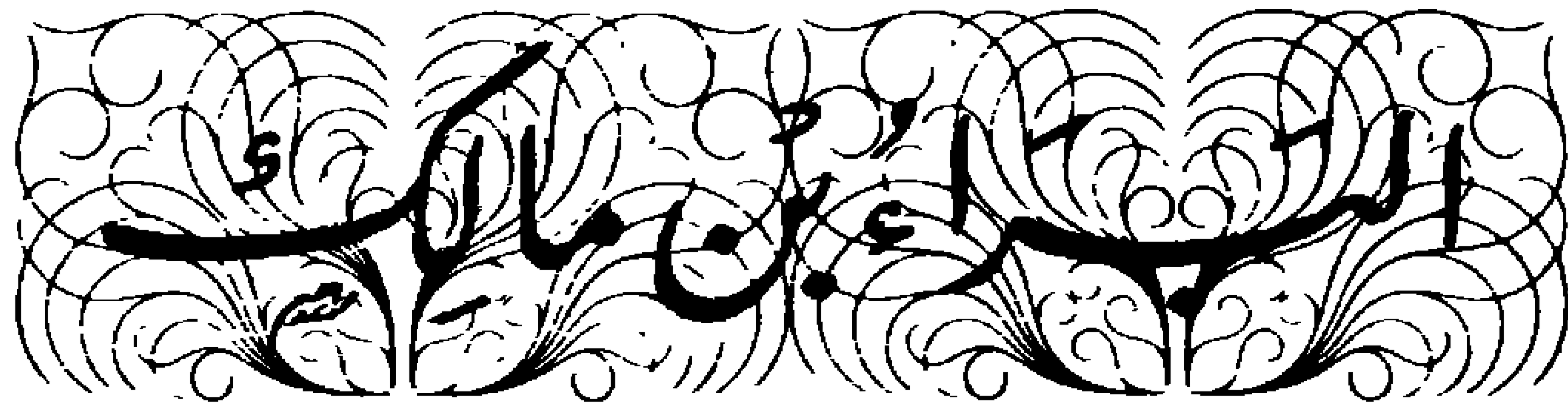
– لماذا كُنِّي شيخنا الراحل بأبي هريرة . . ؟ ؟

فيجيبه صاحبه وهو بالأمر خبير :

– لقد كَانَ اسمه في الجاهلية « عبد شمس » ، ولما أسلم سماه الرسول « عبد الرحمن » . . . ولقد كان عطوفا على الحيوان ، وكانت له هرة ، يطعمها ، ويحملها ، وينظفها ، ويؤويها . . وكانت تلازمه كظله . . .

وهكذا دُعي : أبا هريرة ، رضي الله عنه وأرضاه . . .





اللهُ، وَالْجَنَّةَ !!



هو ثاني أَخَوَيْنِ عاشا في الله ، وأعطيا رسول الله صلى الله عليه وسلم عهدًا نما وأزهر مع الأيام .

أما أولهما فهو « أنس بن مالك » خادم رسول الله عليه السلام .

أخذته أمه « أم سُلَيم » إلى الرسول وعمره يومذاك عشر سنين وقالت :

[يا رسول الله . .

هذا أنسٌ غلامك يخدمُك ، فادع الله له] . .

فقبَّله الرسول بين عينيه ودعا له دعوة ظلّتْ تحدو عمره الطويل نحو الخير والبركة . .

دعا له الرسول فقال :

[اللهم أكثر ماله ، وولده ، وبارك له ، وأدخله الجنة] . . .

فعاش تسعًا وتسعين سنة ، ورزق من البنين والحفَدة كثيرين ، كما أعطاه الله فيما أعطاه من رزق ، بستانًا رَحْبًا ممرِعًا ، كان يحمل الفاكهة في العام مرتين . . ! !

* * *

وثاني الأخوين ، هو « البَرَاء بن مالك » . . .

عاش حياته العظيمة المقدامة ، وشِعارُه :

[الله ، والجنّة] . .

ومن كان يراه ، وهو يقاتل في سبيل الله ، كان يرى عجبًا يفوق العَجَب . .

فلم يكن البَراء حين يجاهد المشركين بسيفه ممن يبحثون عن النصر ، وإن يكن النصر آنئذ أجلَّ غاية . . إنما كان يبحث عن الشهادة . .

كانت كل أمانيِّه ، أن يموت شهيدًا ، ويقضي نحبه فوق أرض معركة مجيدة من معارك الحق والإسلام . .

من أجل هذا ، لم يتخلف عن مشهد ولا غزوة . .

وذات يوم ذهب إخوانه يعودونه ، فقرأ وجوههم ثم قال :

[لعلكم ترهبون أن أموت على فراشي . .

« لا واللهِ ، لن يحرمني ربي الشهادة] . . ! !

ولقد صدَّق الله ظنه فيه ، فلم يمُت « البَراء » على فراشِه ، بل مات شهيدًا في معركة من أروع معارك الإسلام . . ! !

* * *

ولقد كانت بطولة « البَراء » يوم اليمامة خليقةً به . . خليقةً بالبطل الذي كان عمر بن الخطاب يُوصي ألا يكون قائدًا قط ، لأن جَسارته وإقدامه ، وبحثه عن الموت . .

كل هذا يجعل قيادته لغيره من المقاتلين مخاطرة تشبه الهلاك . . ! !

وقف البَراء « يوم اليمَامَة » وجيوش الإسلام تحت إمرة « خالد » تتهيأ للنزال ، وقف يتلمظ مستبطئًا تلك اللحظات التي تمرُّ كأنها السنين ، قبل أن يصدر القائد أمره بالزحف . .

وعيناه الثاقبتان تتحركان في سرعة ونفاذ فوق أرض المعركة كلها ، كأنهما تبحثان عن أصلح مكان لمصرع البطل . . ! !

أجَلْ ، فما كان يشغله في دنياه كلها غير هذه الغاية . .

حصادٌ كثير يتساقط من المشركين دعاة الظلام والباطل بحدِّ سيفه الماحق . . .

ثم ضربةٌ تُواتيه في نهاية المعركة من يدٍ مشركة ، يميل على أثْرها جسده إلى الأرض ، بينما تأخذ روحه طريقها إلى الملأ الأعلى في عُرْس الشهداء ، وأعْياد المباركين . . ! !

* * *

ونادى « خالد » : الله أكبر ، فانطلقت الصفوف المرصوصة إلى مقاديرها ، وانطلق معها عاشق الموت « البَراء بن مالك » . .

وراح يُجَنْدِل أتباع الكذّاب مسيلمة بسيفه ، وهم يتساقطون كأوراق الخريف تحت وميض بأسِه . . .

لم يكن جيش « مسيلمة » هزيلا ، ولا قليلا . . بل كان أخطر جيوش الردة جميعا . .

وكان بأعداده . وبعِتَاده . وباسْتماتة مقاتليه . خطَرًا يفوق كل خَطر . . .

ولقد أجابوا على هجوم المسلمين بمقاومة تناهَت في العُنْف حتى كادوا يأخذون زمام المبادرة وتتحول مقاومتهم إلى هجوم . .

هنالك سَرَى في صفوف المسلمين شيْ من الجزَع . وانطلق زعماؤهم وخطباؤهم يلقون من فوق صهوات جيادهم كلمات التثبيت . ويذكرون

بوعد الله . .

وكان « البَراء بن مالك » جميل الصوت عالِيَه . .

وناداه القائد « خالد » تكلم يا براء . .

فصاح البَراء بكلمات تناهَت في الجزالة ، والدَّلَالَة ، والقوة . .

تلك هي :

[يا أهل المدينة . .

« لا مدينَةَ لكم اليوم . .

« إنما هو الله ، والجنَّة] . .

كلمات تدلُّ على روح قائلها وَتُنْبِئُ بخصاله .

أجَلْ . .

إنما هو الله ، والجنَّة . . ! !

وفي هذا الموطن ، لا ينبغي أن تدور الخواطر حول شيءٍ آخر . .

حتى المدينة ، عاصمة الإسلام ، والبلد الذي خلفوا فيها ديارهم ونساءهم وأولادهم ، لا ينبغي أن يفكروا فيها ، لأنهم إذا هُزِمُوا اليوم ، فلن تكون هناك مدينة . .

وسرت كلمات « البَراء » مثل . . مِثْلَ ماذا . . . ؟

إن أي تشبيه سيكون ظلما لحقيقة أثَرها وتأثيرها . .

فلنقُل : سرت كلماتُ « البَراء » وكفى . .

ومضى وقت وجيز عادت بعده المعركة إلى نَهْجها الأوَّل . .

المسلمون يتقدمون ، يسبقهم نصر مُؤَزَّر . .

والمشركون يتساقطون في حضيض هزيمة مُنْكَرة . .

و« البَراء » هناك مع إخوانه يسيرون براية محمد صلى الله عليه وسلم إلى موعدها العظيم . .

واندفع المشركون إلى وراء هاربين ، واحتموا بحديقة كبيرة دخلوها ولاذُوا بها . . .

وبردت المعركة في دماء المسلمين ، وبدا أن في الإمكان تغيُّر مصيرها بهذه الحيلة التي لجأ إليها أتباع مسيلمة وجيشه . . .

وهنا علا « البَراء » ربوة عالية وصاح :

[يا معشر المسلمين . .

« احملوني ، وأَلْقُوني عليهم في الحديقة] . .

ألم أقُلْ لكم ، إنه لا يبحث عن النصر بل عن الشهادة . . ! !

ولقد تصوَّر في هذه الخُطَّة خير ختام لحياته ، وخير صورة لمماته . . ! !

فهو حين يُقْذَف به إلى الحديقة ، يفتح للمسلمين بابها ، وفي نفس الوقت تنوشُه سيوف المشركين وتمزق جسده ، وفي نفس الوقت كذلك تكون أبواب الجنة تأخذ زينتها وتتفتح لاستقبال عريس جديد ، ومجيد . . ! !

* * *

ولم ينتظر « البَراء » أن يحمله قومه ويقذفوا به ، فاعتلى هو الجدار ، وألقى بنفسه داخل الحديقة وفتح الباب ، واقتحمته جيوش الإسلام . .

ولكنَّ حُلْمِ « البَراء » لم يتحقق ، فلا سيوف المشركين اغْتَالَتْه ، ولا هو لقي المصرع الذي كان يُمني به نفسه . .

وصدق أبو بكر رضي الله عنه :

[احرص على الموت . .

توهَبْ لكَ الحياة] . . ! !

صحيح أن جسد البطل تلقَّى يومئذ من سيوف المشركين بضعًا وثمانين ضربة ، أثخنته ببضع وثمانين جراحة ؛ حتى لقد ظل بعد المعركة شهرًا كاملا ، يشرف « خالد بن الوليد » بنفسه على تمريضه . .

ولكن كل هذا الذي أصابه كان دون غايته وما يتمنى . .

بيد أنَّ ذلك لا يحمل « البراء » على اليأس . . فغدًا تجيء معركة . ومعركة ، ومعركة . .

ولقد تنبأ له رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه مستجاب الدعوة . . فليس عليه إلا أن يدعو ربه دائمًا أن يرزقه الشهادة ؛ ثم عليه ألا يعجَل . فلكل أجل كتاب . . ! !

ويبرأ « البراء » من جراحات يوم اليمامة . .

وينطلق مع جيوش الإسلام التي ذهبت تُشَيِّع قُوى الظلام إلى مصارعها . . هناك حيث تقوم امبراطوريتان خَرِعَتان فانيتان . الروم والفرس ، تحتلان بجيوشهما الباغية بلاد الله ، وتستعبدان عباده . .

ويضرب « البراء » بسيفه . ومكان كل ضربة يقوم جدار شاهق في بناء العالم الجديد الذي ينمو تحت راية الإسلام نموًا سريعًا كالنهار المشرق . .

* * *

وفي إحدى حروب العراق لجأ الفرس في قتالهم إلى كل وحشية دنيئة يستطيعونها . .

فاستعملوا كلاليب مثبتة في أطراف سلاسل مُحماةٍ بالنار ، يلقونها من حصونهم ، فتخطف مَنْ تنالُه من المسلمين الذين لا يستطيعون منها فكاكا . .

وكان « البراء » وأخوه العظيم « أنس بن مالك » قد وُكل إليهما مع جماعة من المسلمين أمر واحد من تلك الحصون . .

ولكن أحد هذه الكلاليب سقط فجأة ، فتعلق بـ « أنس » ولم يستطع أنس أن يمسَّ السلسلة ليخلص نفسه ، إذ كانت تتوهج لهبًا ونارا . . .

وأبصر « البَراء » المشهد . . فأسرع نحو أخيه الذي كانت السلسلة المحماة تصعد به على سطح جدار الحصن . . وقبض على السلسلة بيديه وراح يعالجها في بأس شديد حتى قصمها وقطعها . . ونجا « أنس » وألْقَى البراء ومَنْ معه نظرة على كفيه فلم يجدوهما مكانهما . . ! !

لقد ذهب كل ما فيهما من لَحم . وبقي هيكلهما العظمي مُسمَّرا مُحترقًا . . ! !

وقضى « البطل » فترة أخرى في علاج بطيء حتى بَرِئ . .

* * *

أما آن لعاشق الموت أن يبلغ غايته . . ؟ ؟

بلى – آن . . ! !

وها هي موقعة « تُستُر » تجيء ليلاقي المسلمون فيها جيوش فارس .

ولتكون لـ « البَراء » عيدًا أيَّ عيد . .

* * *

احتشد أهل الأهواز ، والفرس في جيش كثيف ليُناجزوا المسلمين . .

وكتب أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » إلى « سعد بن أبي وقاص » بالكوفة ليرسل إلى « الأهواز » جيشًا . .

وكتب إلى « أبي موسى الأشعري » بالبصرة ليرسل إلى « الأهواز » جيشًا ، قائلاً له في رسالته :

[اجعل أمير الجند سهيل بن عديّ . .

وَلْيَكُن معه البَراء بن مالك] . . .

والتقى القادمون من الكوفة بالقادمين من البصرة ليواجهوا جيش الأهواز وجيش الفرس في معركة ضارية . .

كان الأخوَان العظيمان بين الجنود المؤمنين . . أنَس بن مالك ، والبراء بن مالك . .

وبدأت الحرب بالمبارزة ، فصرعَ البراءُ وحده مائة مُبارزمن الفُرس . .

ثم التحمت الجيوش ، وراح القتلى يتساقطون من الفريقين كليهما في كثرة كاثرة . .

واقترب بعض الصحابة من البراء ، والقتال دائر ، ونادوه قائلين :

[أتذكُر يا بَراء قول الرسول عنك :

« رُبَّ أشْعَثَ أغْبَر ذي طِمْرَيْن لا يُؤْبَهُ له ، لَوْ أقسمَ عَلَى الله لأَبَرَّه ، منهم البَراءُ بن مالك . . ؟

« يا بَرَاء ، أقسِمْ عَلَى ربك ؛ لِيَهزمهم وينصرنا] . .

ورفع « البراء » ذراعيه إلى السماء ضارعًا داعيًا :

[اللهم امْنَحْنا أكْتَافَهم . . .

« اللهم اهزمهم . . .

« وانصرنا عليهم . . .

« وألْحِقْني اليوم بنبيك] . . .

وألقى على أخيه « أنس » الذي كان يقاتل قريبًا منه . . نظرة طويلة ، كأنه يُوَدِّعُه . .

وانْقَذَف المسلمون في استبسال لم تألُفه الدنيا من سواهم . .

ونُصِرُوا نصرًا مبينًا . .

* * *

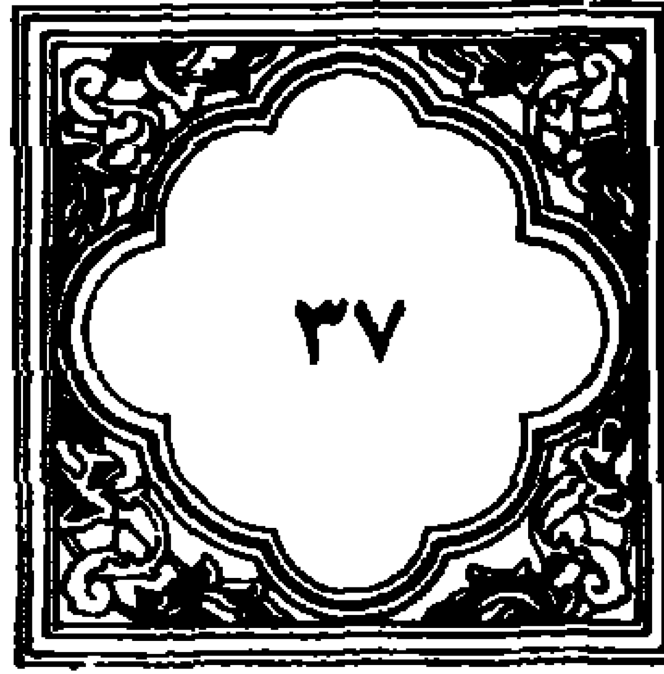
ووسط شهداء المعركة ، كان هناك البَرَاء تعلو وجهه ابتسامة هانئة كضوء الفجر . . وتقبض يُمناهُ على حَثْيَةٍ من تُراب مُضمَّخةٍ بدمـــه الطهور . .

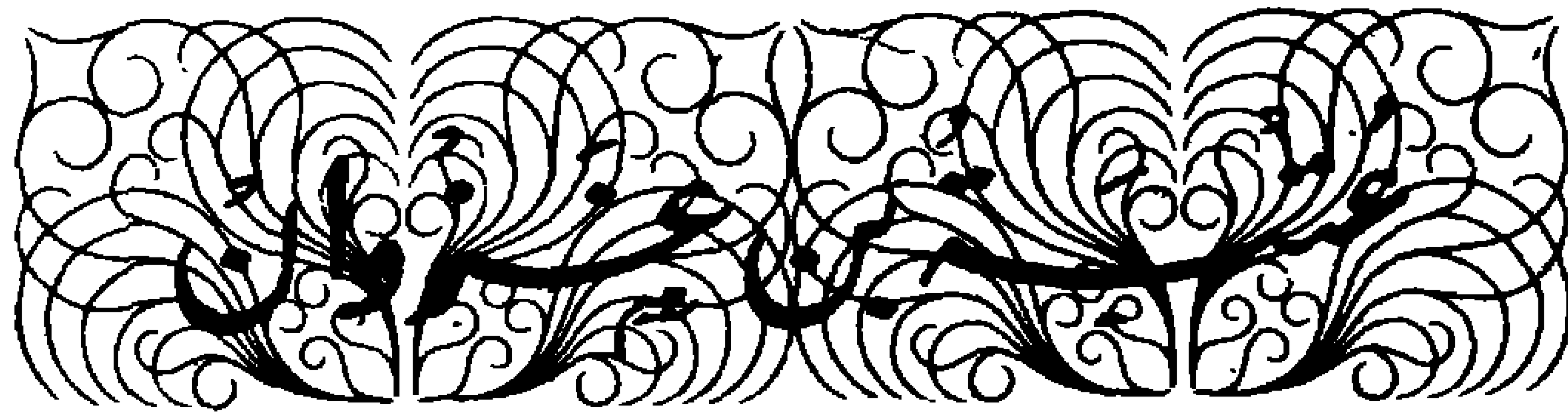
وسيفُه مُمَدَّد إلى جواره . . قويًّا غير مثلوم ، سويًّا غير مَكلوم . .

لقد بلغ المسافر داره . .

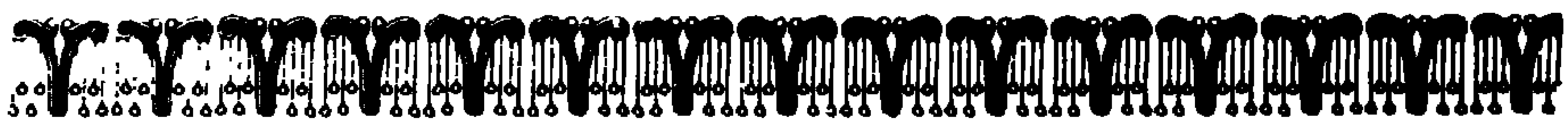
وأنهى مع إخوانه الشهداء رحلة عُمْر جليل وعظيم ، ونُودُوا :

[أنْ تِلكُمُ الجَنَّةُ ، أُورِثْتمُوها بما كنتم تعملون] . .





غـدًا، سَتَرَوْنَ الأُمَرَاءَ مِنْ بَعْدِي



مِن بين المسلمين السابقين ، والمهاجرين الأولين إلى الحبشة ، فالمدينة . . .

ومن بين الرُّماة الأفذاذ الذين أبلَوْا في سبيل الله بلاءً حسنًا ، هذا الرجل الفارع الطول ، المشرق الوجه ، المُخْبِت القلب « عُتبةُ بن غزوان » . . .

* * *

كان سابعَ سبعة سبقوا إلى الإسلام ، وبسطوا أيمانهم إلى يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مبايعين ومُتَحَدِّين قريشًا بكل ما معها من بأس وقدرة على الانتقام . . .

وفي الأيام الأولى للدعوة . . أيام العُسْرَة والهَوْل ، صمد « عتبة ابن غزوان » مع إخوانه ذلك الصمود الجليل الذي صار فيما بعد زادًا للضمير الإنساني يغتزي به وينمو على مرّ الأزمان . .

ولما أمر رسول الله عليه الصلاة والسلام أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ؛ خرج عتبة مع المهاجرين . .

بيد أن شوقه إلى النبي صلى الله عليه وسلم لم يدعه يستقر هناك ، فسرعان ما طوى البرَّ والبحر عائدًا إلى مكة ؛ حيثُ لبِثَ فيها بجوار الرسول حتى جاء ميقات الهجرة إلى المدينة ؛ فهاجر عتبة مع المسلمين . . .

ومنذ بدأت قريش تحرشاتها فَحُروبها ، وعتبة حاملٌ رِماحه

ونِبَالَه ، يرمي بها في أستاذية خارقة ، ويسهم مع إخوانه المؤمنين في هدم العالم القديم بكل أوثانه وبهتانه . .

ولم يضع سلاحه يوم رحل عنهم الرسول الكريم إلى الرفيق الأعلى ، بل ظل يضرب في الأرض . وكان له مع جيوش الفرس جهاد عظيم . .

* * *

أرسله أمير المؤمنين « عمر » إلى الأُبُلّة ليفتحها ، وليطهر أرضها من الفرس الذين كانوا يتخذونها نقطة وثوب خطرة على قوات الإسلام الزاحفة عَبْر بلاد الامبراطورية الفارسية ، تستخلص منها بلاد الله وعباده . .

وقال له « عمر » وهو يُوَدِّعه وجيشه :

[انطلق أنت ومن معك ، حتى تأتوا أقصى بلاد العرب ، وأدنى بلاد العجم . .

« وسِرْ عَلَى بركة الله ويُمنِه . .

« ادْعُ إلى الله من أجابك . .

« ومن أبى ، فالجزية . .

« وإلّا فالسيف في غير هوادة . .

« كابِدِ العدو ، واتق الله ربك] .

* * *

ومضى « عُتْبة » على رأس جيشه الذي لم يكن كبيرًا ، حتى قدم الأُبُلّة . .

وكان الفرس يحشدون بها جيشًا من أقوى جيوشهم . .

ونظم « عتبة » قواته ، ووقف في مقدمتها ، حاملا رمْحَهُ بيده التي لم يعرف الناس لها زلة منذ عرفت الرَّمي . . ! !

وصاح في جنده :

[الله أكبر ، صدق وَعْده] . .

وكأنه كان يقرأ غيبًا قريبًا ، فما هي إلا جولات ميمونة استسلمت بعدها « الأُبلة » وطهرت أرضها من جنود الفرس ، وتحرر أهلها من طغيان طالما أصلاهم سعيرًا . . وصدق الله العظيم وعده . . ! !

* * *

اختطّ « عتبة » مكان الأبلة مدينة البصرة ، وعَمَّرها وبنى مسجدها العظيم . .

وأراد أن يغادر البلاد عائدًا إلى المدينة ، هاربًا من الإمارة ، لكن أمير المؤمنين أمره بالبقاء . .

ولبث « عتبة » مكانه يُصَلي بالناس ، ويفقههم في دينهم ، ويحكم بينهم بالعدل ، ويضرب لهم – أروع المثل – في الزهد والورع والبساطة . .

ووقف يحارب الترف والسَّرَف بكل قواه حتى ضَجِرَه الذين كانوا تستهويهم المناعم والشهوات . .

هنالك وقف « عتبة » فيهم خطيبًا فقال :

[والله ، لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سابعَ سبعة وما لنا طعامٌ إلا ورق الشجر حتى قرحت أشداقُنَا . . .

« ولقد رُزِقتُ يومًا بُرْدَة ، فشققتها نصفين ، أعطيت

نصفها سعد بن مالك ، ولبستُ نصفها الآخر] . . .

* * *

كان « عتبة » يخاف الدنيا على دينه أشد الخوف . وكان يخافها على المسلمين ، فراح يحملهم على القناعة والشظف .

وحاول الكثيرون أن يحوِّلوه عن نهجه ، ويثيروا في نفسه الشعور بالإمارة . وبما للإمارة من حق ، لا سيما في تلك البلاد التي لم تتعود من قبل أمراء من هذا الطراز المتقشف الزاهد . والتي تعوَّد أهلها احترام المظاهر المتعالية المَزْهُوَّة . . فكان « عتبة » يجيبهم قائلا :

[إني أعوذ بالله أن أكون في دنياكم عظيما ، وعند الله صغيرًا] . . !

ولما رأى الضيق على وجوه الناس بسبب صرامته في حملهم على الجادَّة والقناعة قال لهم :

[غدًا تَرَوْن الأمراء من بعدي] . . .

وجاء موسم الحج ، فاستخلف على البصرة أحد إخوانه وخرج حاجًا . ولما قضى حجه ، سافر إلى المدينة ، وهناك سأل أمير المؤمنين أن يعفيه من الإمارة . .

لكن « عمر » لم يكن يُفَرِّط في هذا الطراز الجليل من الزاهدين الهاربين مما يسيل له لعاب البشر جميعًا .

وكان يقول لهم :

[تضعون أماناتِكم فوق عنقي .

ثم تتركوني وحدي . . ؟ ؟

لا والله لا أعفيكم أبدًا] . . ! !

وهكذا قال لـ « عتبة بن غزوان » . .

ولما لم يكن في وسع « عتبة » إلا الطاعة ، فقد استقبل راحلته ليركبها راجعا إلى البصرة .

لكنه قبل أن يعلو ظهرها ، استقبل القبلة ، ورفع كفيه الضارعتين إلى السماء ، ودعا ربه – عز وجل – ألا يَرُدَّه إلى البصرة ، ولا إلى الإمارة أبدًا . . .

واستجيب دعاؤه . . .

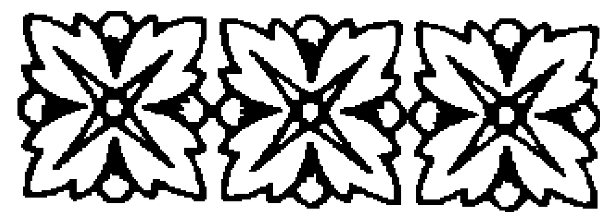
فبينما هو في طريقه إلى ولايته أدركه الموت . .

وفاضت روحه إلى بارئها ، مغتبطة بما بذلت وأعطت . . .

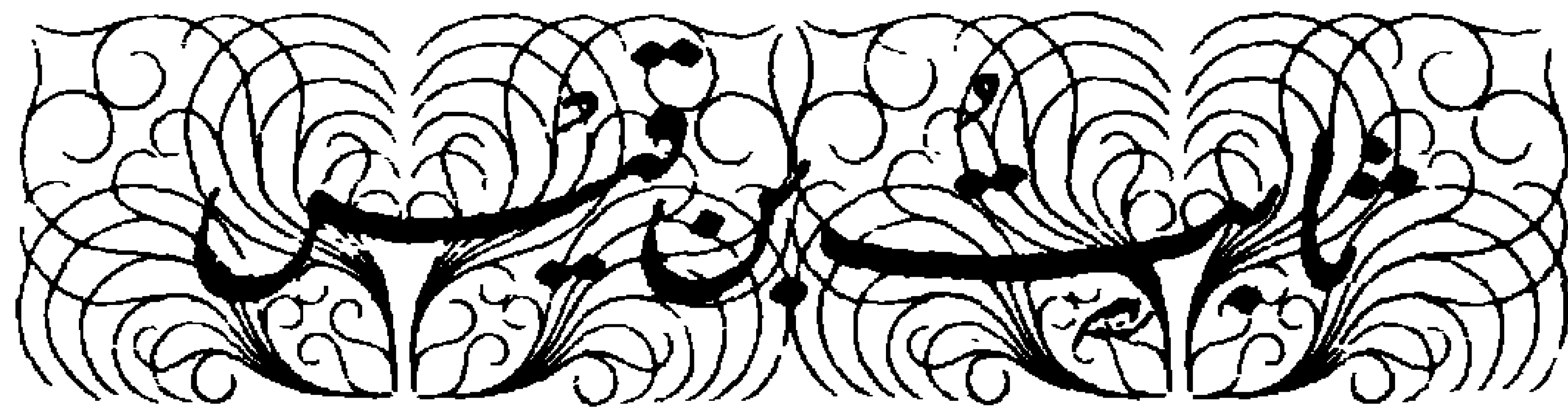
وبما زهدت وعَفَّت . .

وبما أتم الله عليها من نعمة . .

وبما هَيَّأ لها من ثواب . . .







خَطِيبُ رَسُولِ ٱللهِ



كان « حسّان » شاعر رسول الله والإسلام . . .

وكان « ثابت » خطيب رسول الله والإسلام . . .

كانت الكلمات تخرج من فمه قوية ، صادعة ، جامعة ، رائعة . .

وفي عام الوفود ، وَفَدَ على المدينة وفدُ « بني تميم » وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

[جئنا نفاخرك ، فأْذن لشاعرنا وخطيبنا] . . .

فابتسم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال لهم :

[قد أذِنْتُ لخطيبكم ، فليقل] . . .

وقام خطيبهم « عُطارد بن حاجب » ووقف يزهو بمفاخر قومه . .

ولما آذن بانتهاء ، قال النبي صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس : قم فأجِبْه . . .

ونهض « ثابت » فقال :

[الحمد لله ، الذي السماواتُ والأرض خلْقُهُ ، قضى فيهن أمره ، ووسع كُرسيُّه عِلمه ، ولم يك شيئ قط إلا من فضله . . .

« ثم كان من قدرته أن جعلنا أئمة . واصطفى من خير خلقه رسولا . . . أكرمهم نسبا . وأصدقهم حديثا . وأفضلهم

حَسَبًا ، فأنزل عليه كتابه ، وائتمنه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين . . .

« ثم دعا الناس إلى الإيمان به ، فآمن به المهاجرون من قومه وذوي رَحمِهِ . . . أكرم الناس أحسابًا ، وخيرهم فعالا . . .

« ثم كنا – نحن الأنصار – أول الخلق إجابة . .

« فنحن أنصار الله ، ووزراء رسوله] . . .

* * *

شهد « ثابت » مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة « أُحد » ، والمشاهد بعدها .

وكانت فِدَائيته من طراز عجيب . . جد عجيب . . ! !

في حروب الرِّدَّة ، كان في الطليعة دائمًا ، يحمل راية الأنصار ، ويضرب بسيف لا يكْبو ، ولا يَنْبو . . .

وفي موقعة اليمامة ، التي سبق الحديث عنها أكثر من مرة ، رأى « ثابت » وَقْعَ الهجوم الخاطف الذي شنَّه جيش « مسيلمة الكذاب » على المسلمين أوَّل المعركة ، فصاح بصوته النذير الجهير :

[والله ، ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم] . . .

ثم ذهب غير بعيد ، وعاد وقد تحنط ، ولبس أكفانه ، وصاح مرة أخرى :

[اللهم إني أبرأُ إليك مما جاء به هؤلاء . . .

– يعني جيش مسيلمة . . .

« وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء . . .

– يعني تراخي المسلمين في القتال] . . .

وانضم إليه « سالم » مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يحمل راية المهاجرين . . .

وحفر الاثنين لنفسيهما حفرة عميقة ثم نزلا فيها قائمين ، وأهالا الرمال عليهما حتى غَطَّت وسط كل منهما . . .

وهكذا وقفا . . . طَوْدَين شامخين ، نصف كل منهما غائص في الرمال مُثْبَت في أعماق الحفرة . . . بينما نصفه الأعلى – صدره وجبهته وذراعاه – يستقبلان جيوش الوثنية والكذب . .

وراحا يضربان بسيفيهما كل من يقترب منهما من جيش مُسيلمة حتى استشهدا في مكانهما ، ومالت شمس كلٍّ منهما للغروب . . ! !

وكان مشهدهما – رضي الله عنهما – هذا أعظم صيحة أسهمت في ردِّ المسلمين إلى مواقعهم . حيث جعلوا من جيش « مُسيلمة الكذاب » ترابًا تطؤه الأقدام . . ! !

* * *

و« ثابت بن قيس » . . . هذا الذي تفوَّق خطيبًا . وتفوَّق محاربًا كان يحمل نفسًا أوَّابة . وقلبًا خاشعًا مُخْبِتًا ، وكان من أكثر المسلمين وَجَلاً من الله . وحياء منه . . .

* * *

لما نزلت الآية الكريمة :

[إن الله لا يحبُّ كل مختال فخور] . . .

أغلق « ثابت » باب داره ، وجلس يبكي . . . وطال مُكْثُه على هذه الحال ، حتى نمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره ، فدعاه وسأله .

فقال ثابت :

[يا رسول الله ، إني أُحب الثوب الجميل ، والنّعْلَ الجميل ،
وقد خشيت أن أكون بهذا من المختالين] . . .

فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم وهو يضحك راضيًا :

[إنك لست منهم . . .

بل تعيش بخير . . .

وتموت بخير . . .

وتدخل الجنة] . . .

ولما نزل قول الله تعالى :

[يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صــوت
النبي . . . ولا تجْهَرُوا لهُ بالقول كجَهْرِ بعضِكم لبعض ،
أَنْ تَحْبَط أعمالُكُم وأنتم لا تشعرون] . .

أغلق « ثابت » عليه داره ، وطفِق يبكي . .

وافتقده الرسول فسأل عنه ، ثم أرسل من يدعوه . .

وجاء « ثابت » . .

وسأله الرسول عن سبب غيابه ، فأجابه :

[إني امرؤٌ جهير الصوت . .

وقد كنتُ أَرفع صوتي فوقَ صوتك يا رسول الله . .

وإذن فقد حَبِط عملي ، وأنا من أهل النار] . . ! !

وأجابه الرسول عليه الصلاة والسلام :

[إنك لست منهم . .

بل تعيش حميدًا . .

وتقتل شهيدًا . .

ويدخلك الله الجنة] . .

* * *

بقي في قصة « ثابت » واقعة ، قد لا يستريح إليها أولئك الذين حصروا تفكيرهم وشعورهم ورُؤاهُم داخل عالمهم الماديّ الضيِّق الذي يلمسونه ، أو يبصرونه ، أو يَشَمُّونه . . ! !

ومع هذا ، فالواقعة صحيحة ، وتفسيرها مُبين ومُيَسَّر لكل مَنْ يستخدم مع البَصر ، البصيرة . .

بعد أن استشهد « ثابت » في المعركة ، مَرَّ به واحد من المسلمين الذين كانوا حديثي عهد بالإسلام ورأى على جثمان « ثابت » درعه الثمينة ، فظن أن من حقه أن يأخذها لنفسه ، فأخذها . .

ولْندع راوي الواقعة يرويها بنفسه :

[. . . وبينما رجل من المسلمين نائم أتاه ثابت في منامه .

فقال له :

إني أُوصيك بوصية . فإياك أن تقول : هذا حُلْم فتضيعه . .

« إني لما استُشهدتُ بالأمس ، مَرَّ بي رجل من المسلمين . فأخذ درعي . .

« وإن منزله في أقْصى الناس . وفرسُه يَسْتَنُّ في طِوَلِه ، أي – في لجامِهِ وشكيمَته .

« وقد كفأَ على الدرع بُرْمة ، وفوق البرمة رَحْل . . .

« فأتِ خالدًا ، فمره أن يبعث فيأخذها . .

« فإذا قدمتَ المدينة على خليفة رسول الله أبي بكر ، فقل له : إن عليَّ من الدين كذا كذا . .

فلْيَقُم بسداده . . .

« فلما استيقظ الرجل من نومه ، أتى خالد بن الوليد ، فقصَّ عليه رُؤياه . .

« فأرسل خالد من يأتي بالدِّرع ، فوجدها كما وصف ثابت تمامًا . .

« ولما رجع المسلمون إلى المدينة ، قصَّ المسلم على الخليفة الرؤيا ، فأنجز وَصِيَّةَ ثابت . .

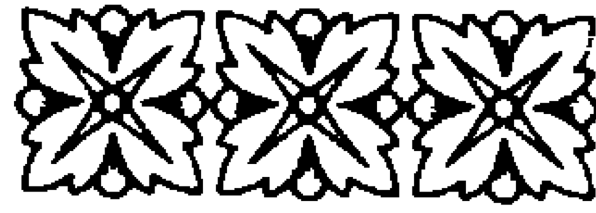
« وليس في الإسلام وصية ميِّت أُنْجزت بعد موته على هذا النحو ، سوى وصية ثابت بن قيس] . . .

* * *

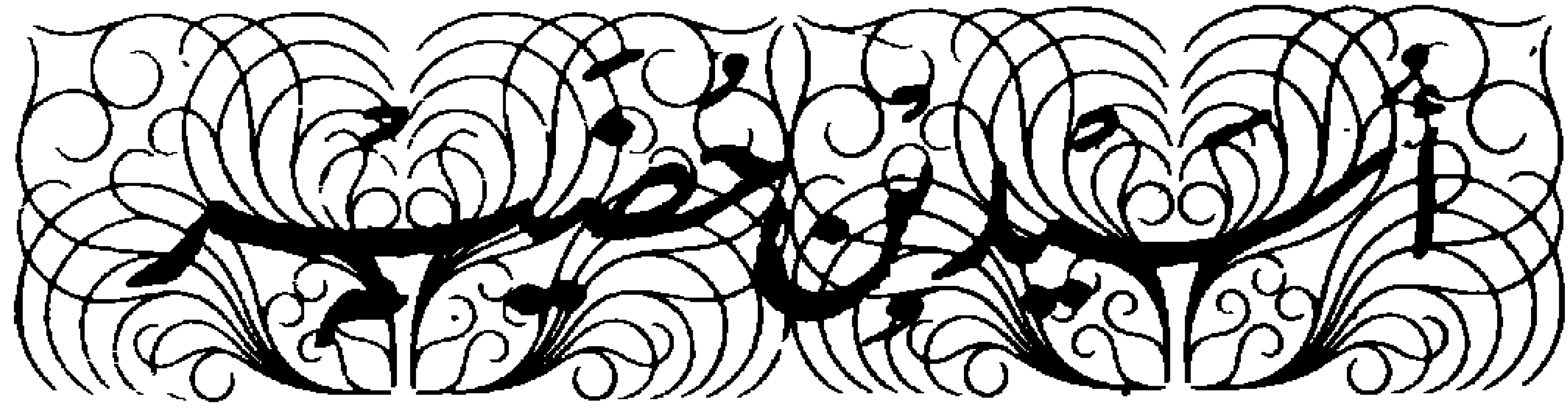
حقًّا إن الإنسان لَسِرٌّ كبير . .

[ولَا تَحْسَبَنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتًا . . .

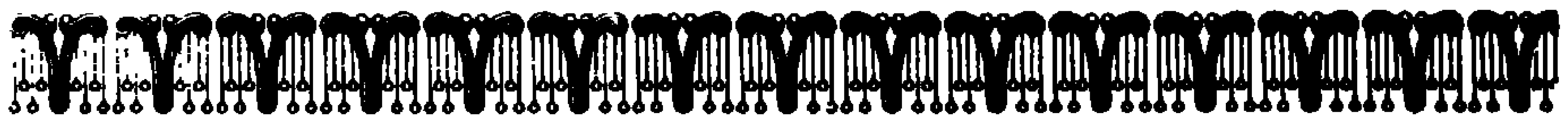
« بل أحياءٌ عند ربهم يُرْزقُون] . .







بَطَلُ يَوْمِ السَّقِيفَة



ورِث المكارم ، كابرًا عن كابر . .

فأبوه « حُضَير الكتائب » كان زعيم الأوْس ، وكان واحدًا من كبار أشراف العرب في الجاهلية ، ومقاتليهم الأشِدَّاء . .

وفيه يقول الشاعر :

لَوَانَّ المَنايا ، حِدْنَ عن ذي مهابَةٍ
لَهِبْنَ « حُضَيْرًا » يوم غلَّق واقما
يطوف به ، حتى إذا الليل جَنَّه
تبوَّأَ منهُ مَقعدًا مُتناغمـــــا

وورث « أُسَيْد » عن أبيه مكانته ، وشجاعته ، وجوده ، فكان قبل أن يسلم ، واحدًا من زعماء المدينة وأشراف العرب ، ورُماتها الأفذاذ . .

فلما اصْطفاه الإسلام ، وهُدِيَ إلى صراط العزيز الحميد ، تناهى عِزّه ، وتسامَى شَرفُه ، يوم أخذ مكانه ، واحدًا من أنصار الله وأنصار رسولِه ، ومن السَّابقين إلى الإسلام العظيم . . .

* * *

ولقد كان إسلامه يوم أسلم سريعًا ، وحاسمًا ، وشريفًا . . .

فعندما أرسل الرسول عليه السلام « مصعب بن عمير » إلى المدينة ليعلِّم ويُفقه المسلمين من الأنصار الذين بايعوا النبي على الإسلام بيعة العقَبة الأولى ، ولِيدْعُوَ غيرهم إلى دين الله .

يومئذ ، جلس أُسَيد بن حُضَيْر ، وسعد بن معاذ ، وكانا زعيمي قومهما ، يتشاوَران في أمر هذا الغريب الذي جاء من مكة يُسفِّه دينهما ، ويدعو إلى دين جديد لا يعرفونه . . .

وقال سعد لأُسَيْد : « انطلق إلى هذا الرجل ، فازْجُرْه » . .

وحمل « أُسَيْد » حربته ، وأغذَّ السَّيْر إلى حيث كان « مصعب » في ضيافة « أسعد بن زُرارة » من زعماء المدينة الذين سبقوا إلى الإسلام .

وعند مجلس « مصعب » و « أسعد بن زُرارة » رأى « أُسَيد » جمهرة من الناس تصغي في اهتمام للكلمات الرشيدة التي يدعوهم بها إلى الله ، مصعب بن عمير . .

وفاجأهم « أُسيد » بغضبه وثورته . .

وقال له مصعب :

[هل لك في أن تجلس فتسمع . . فإن رضيتَ أمرًا قَبِلْتَه ، وإن كرهته ، كَفَفْنَا عنك ما تكره] . . ؟ ؟

* * *

كان « أُسيد » رجلا . . وكان مستنير العقل ذكيَّ القلب حتى لَقَّبه أهل المدينة بـ « الكامل » . . وهو لَقَبٌ كان يحمله أبوه من قبله . .

فلما رأى « مُصعبًا » يحتكم به إلى المنطق والعقل ، غرس حربته في الأرض ، وقال لمصعب :

- لقد أنصَفْت ، هاتِ ما عندك . .

وراح مصعب يقرأ عليه من القرآن ، ويُفسِّر له دعوة الدين الجديد . .

الدين الحق الذي أُمر محمد عليه الصلاة والسلام بتبليغه ، ونشر رايته .

يقول الذين حضروا هذا المجلس :

[والله ، لقد عرفنا في وجه « أُسيد » الإسلام قبل أن يتكلم . . . عرفناه في إشراقه وتَسَهُّلِه] . . . ! !

* * *

لم يكد « مُصعب » ينتهي من حديثه حتى صاح أُسيد مبهورًا :

[ما أحسن هذا الكلام وأجمله . .

« كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين] . ؟

قال له مُصعب :

[تُطَهِّرُ بدنَك ، وثوبَك ، وتشهد شهادة الحق ، ثم تُصلي] . . .

إن شخصية « أُسيد » شخصية مستقيمة وقوية وناصعة ، وهي إذ تعرف طريقها ، لا تتردد لحظة أمام إرادتها الحازمة . . .

ومن ثَمَّ ، قام « أسيد » في غير إرجاء ولا إبطاء ليستقبل الدين الذي انفتح له قلبه ، وأشرقت به روحه ، فاغتسل وتطهَّر ، ثم سجد لله رب العالمين ، مُعْلِنًا إسلامه ، مُودِّعًا أيام وثَنيته ، وجاهِلِيَّته . . ! !

كان على « أسيد » أن يعود لسعد بن معاذ ، لينقل إليه أخبار المهمة التي كلَّفه بها . . مهمة زَجْر « مُصعب بن عمير » وإخراجه . .

وعاد إلى سعد . . .

وما كاد يقترب من مجلسه ، حتى قال سعد لمن حوله :

[أُقسم ، لقد جاءكم « أُسَيْد » بغير الوجه الذي ذهب به] . . ! ! !

أجَلْ . .

لقد ذهب بوجه طافح بالمرارة . والغضب . والتحدِّي . .

وعاد بوجه تغشاه السكينة والرحمة والنور . . ! !

* * *

وقرر « أسيد » أن يستخدم ذكاءه قليلا . .

إنه يعرف أن « سعد بن معاذ » مثله تمامًا في صفاء جوهره ، ومضاء عزمه . وسلامة تفكيره وتقديره . . .

ويعلم أنه ليس بينه وبين الإسلام سوى أن يسمع ما سمع هو من كلام الله . الذي يحسن ترتيلَه وتفسيرَه سفيرُ الرسول إليهم « مصعب ابن عمير » . .

لكنه لو قال لسعد : إني أسلمت ، فَقُم وأسْلِم . لكانت مُجابَهةً غير مأمونة العاقبة . .

إذن فعليه أن يُثير حَمِيَّة « سعد » بطريقة تدفعه إلى مجلس مُصعب حتى يسمع ويرى . .

فكيف السبيل لهذا . . ؟

* * *

كان « مُصعب » كما ذكرنا من قبل ينزل ضيفًا على أسعد بن زُرارة . .

وأسعد بن زُرارة هو ابن خالة سعد بن معاذ . .

هنالك قال أُسيد لسعد :

[لقد حُدِّثْتُ أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زُرارة ليقتلوه ، وهم يعلمون أنه ابن خالتك] . .

وقام سعد ، تقوده الحميَّة والغضب ، وأخذ الحربة ، وسار مسرعًا إلى حيث أسعد ، ومصعب ، ومن معهما من المسلمين . .

ولما اقترب من المجلس لم يجد ضوضاء ولا لَغطًا ، وإنما هي السكينة تغشى جماعة يتوسطهم مصعب بن عمير ، يتلو آيات الله في خشوع ، وهم يصغون إليه في اهتمام عظيم . .

هنالك أدرك الحيلة التي نسجها له « أُسيد » لكي يحمله على السعي إلى هذا المجلس ، وإلقاء السمع لما يقوله سفير الإسلام « مصعب بن عمير ».

ولقد صدقت فراسة « أُسيد » في صاحبه ، فما كاد سعد يسمع حتى شرح الله صدره للإسلام ، وأخذ مكانه في سرعة الضوء بين المؤمنين السابقين . . ! !

* * *

كان « أُسيد » يحمل في قلبه وفي عقله إيمانًا وثيقًا ومُضيئًا . .

وكان إيمانه يفيئ عليه من الأناة والحلم وسلامة التقدير ما يجعله أهلاً للثقة دوْمًا . .

في غزوة « بني المُصْطَلِق » تحركت مغايظ « عبد الله بن أُبيّ » فقال لمن حوله من أهل المدينة :

[لقد أَحْلَلْتمُوهُم بلادكم ، وقاسمْتموهم أموالكم . .

« أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوَّلُوا إلى غير ديارکم . .

« أما والله لئن رَجَعْنا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعَزُّ منها الأذلّ] . . .

سمع الصحابي الجليل « زيد بن أرقم » هذه الكلمات ، بل هذه السموم المنافقة المسعورة ، فكان حقًّا عليه أن يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم . . .

وتألم رسول الله عليه الصلاة والسلام كثيرًا ، وقابله أُسيد فقال له النبي عليه السلام :

– أو ما بلغك ما قال صاحبكم . . ؟ ؟

قال أُسَيد :

– وأيُّ صاحب يا رسول الله . . ؟ ؟

قال الرسول :

– عبد الله بن أُبيّ ! !

قال أسيد :

– وماذا قال . . ؟ ؟

قال الرسول :

– زعم أنه إن رجع إلى المدينة لَيخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذل .

قال أسيد :

– فأنت والله ، يا رسول الله ، تخرجه منها إن شاء الله . . .هو والله

الذليل ، وأنت العزيز . . .

ثم قال أسيد :

[يا رسول الله ، ارفُقْ به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لَينظِمون له الخرز لِيُتَوِّجُوه على المدينة مَلِكًا ، فهو يرى أن الإسلام قد سَلَبَهُ مُلْكًا] . . .

بهذا التفكير الهادئ العميق المتزن الواضح ، كان أسيد دائمًا يعالج القضايا ببديهة حاضرة وثاقبة . . .

وفي يوم السقيفة ، إثر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أعلن فريق من الأنصار ، على رأسهم « سعد بن عبادة » أحقيتهم بالخلافة ، وطال الحوار ، واحتدمت المناقشة ، كان موقف أُسَيد – وهو كما عرفنا زعيم أنصاري كبير – كان موقفه فعالاً في حسم الموقف ، وكانت كلماته كفلق الصبح في تحديد الاتجاه . .

وقف « أسيد » فقال مخاطبًا فريق الأنصار من قومه :

[تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من المهاجرين . . .

« فخليفته إذن ينبغي أن يكون من المهاجرين . .

« ولقد كنا أنصار رسول الله . .

« وعلينا اليوم أن نكون أنصار خليفته] . .

وكانت كلماته بَرْدًا ، وسلامًا . . .

* * *

ولقد عاش « أُسَيد بن حُضَيْر » رضي الله عنه عابدًا ، قانتًا ، باذلاً روحه وماله في سبيل الخير ؛ جاعلاً وصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للأنصار نصب عينيه :

[اصبروا . . حتى تلقَوْني على الحوْضِ] . . .

ولقد كان لدينه وخُلُقه موضع تكريم الصِّدِّيق وحُبِّه ، كذلك كانت له نفس المكانة والمنزلة في قلب أمير المؤمنين عمر ، وفي أفئدة الصحابة جميعًا .

وكان الاستماع لصوته وهو يرتل القرآن إحْدَى المغانم الكبرى التي يحرص الأصحاب عليها . .

ذلك الصوت الخاشع الباهر المنير الذي أخبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن الملائكة دَنَتْ من صاحبه ذات ليلة لسماعه . .

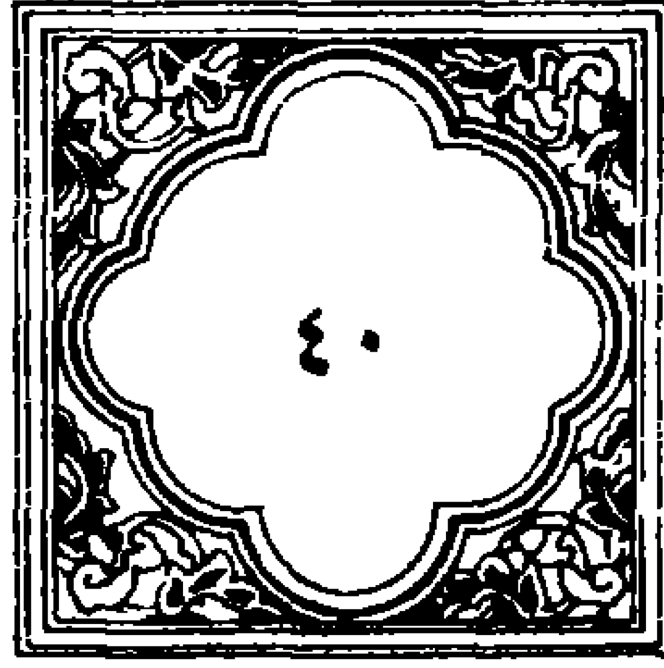
وفي شهر شعبان عام عشرين للهجرة ، مات أسيد . .

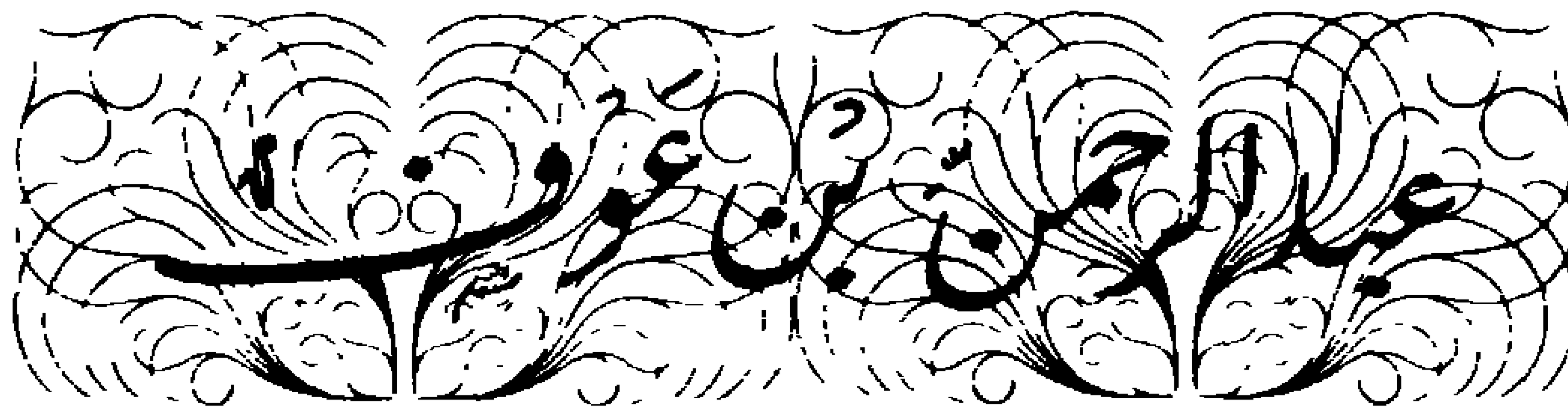
وأبى أمير المؤمنين عمر إلا أن يحمل نعشه فوق كتِفهِ . .

وتحت ثرى البقيع وَارَى الأصحاب جثمان مؤمن عظيم . .

وعادوا إلى المدينة وهم يستذكرون مناقبه ويرددون قول الرسول الكريم عنه :

[نِعْمَ الرجل . . أسَيْد بن حُضيْر] . . .





مَا يُبْكِيكَ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ؟!



ذات يوم ، والمدينة ساكنة هادئة ، أخذ يقترب من مشارفها نَقْعٌ كثيف ، راح يتعالى ويتراكم حتى كاد يغطي الأفق .

ودفعت الريح هذه الأمواج من الغُبَار الأصفر المتصاعد من رمال الصحراء الناعمة ، فاندفعت تقترب من أبواب المدينة ، وتهبُّ هبوبًا قويا على مسالكها .

وحسبها الناس عاصفة تكنس الرمال وتذروها ، لكنهم سرعان ما سمعوا وراء ستار الغبار ضجة تنبئ عن قافلة كبيرة مديدة .

ولم يمض غير وقت وجيز ، حتى كانت سبعمائة راحلة مُوقَرَة الأحمال تزحم شوارع المدينة وترجُّها رجًّا ، ونادى الناس بعضهم بعضًا ليروا مشهدها الحافل ، وليستبشروا ويفرحوا بما تحمله من خير ورزق . . .

* * *

وسألت « أم المؤمنين عائشة » رضي الله عنها ، وقد ترامت إلى سمعها أصداء القافلة الزاحفة . . .

سألت : ما هذا الذي يحدث في المدينة . . . ؟ ؟

وأُجِيبَت : إنها قافلة لعبد الرحمن بن عوف جاءت من الشام تحملُ تجارة له . . .

قالت أم المؤمنين :

– قافلة تحدث كل هذه الرَّجَّة . . ؟ !

– أجل ، يا أم المؤمنين . . . إنها سبعمائة راحلة . . ! !

وهزّت « أم المؤمنين » رأسها ، وأرسلت نظراتها الثاقبة بعيدًا ، كأنها تبحث عن ذكرى مشهد رأته ، أوحديث سمعته . . .

ثم قالت :

[أما إني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حَبْوا] . .

* * *

عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حَبْوًا . . ؟

ولماذا لا يدخلها وثبًا وهَرْوَلة مع السابقين من أصحاب الرسول . . ؟

ونقل بعض أصحابه مقالة « عائشة » إليه ، فتذكّر أنه سمع من النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحديث أكثر من مرة ، وبأكثر من صيغة .

وقبل أن تُفَضّ مغاليق الأحمال من تجارته ، حثّ خُطاه إلى بيت « عائشة » وقال لها : لقد ذكّرتِني بحديث لم أنْسَه . . .

ثم قال :

[أما إني أشهدك أنّ هذه القافلة بأحمالها ، وأقتابها ، وأحْلاسِها ، في سبيل الله عز وجل] . . .

ووزعت حُمُولة سبعمائة راحلة على أهل المدينة وما حولها في مهرجانِ برٍّ عظيم . . ! !

هذه الواقعة وحدها ، تمثل الصورة الكاملة لحياة صاحب رسول الله « عبد الرحمن بن عوف » .

فهو التاجر الناجح ، أكثر ما يكون النجاح وأوفاه . . .

وهو الثريُّ ، أكثر ما يكون الثراء وَفْرَة وإفراطًا . . .

وهو المؤمن الأريب ، الذي يأبى أن تذهب حظوظه من الدنيا بحظوظه من الدين ، ويرفض أن يتخلف به ثراؤه عن قافلة الإيمان ومثوبة الجنة . . . فهو - رضي الله عنه - يجود بثروته في سخاء وعطاء وغبطة ضمير . . ! !

* * *

متى ، وكيف دخل هذا العظيم الإسلام . . ؟

لقد أسلم في وقت مبكر جدًا . .

بل أسلم في الساعات الأولى للدعوة ، وقبل أن يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم ويتخذها مقرًا لالْتِقائه بأصحابه المؤمنين . .

فهو أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام . .

عرضَ عليه « أبو بكر » الإسلام هو و « عثمان بن عفان ، و « الزبير ابن العوام » ، و « طلحة بن عبيد الله » ، و « سعد بن أبي وقاص » ، فما غُمَّ عليهم الأمر ولا أبطأ بهم الشك ، بل سارعوا مع «الصدِّيق» إلى رسول الله يُبَايعونه ويحملون لواءه .

ومنذ أسلم إلى أن لقي ربه في الخامسة والسبعين من عمره ، وهو نموذج باهر للمؤمن العظيم ، مما جعل النبي صلى الله عليه وسلم يضعه مع العشرة الذين بشَّرهم بالجنة . . . وجعل « عمر » رضي الله عنه يضعه مع أصحاب الشورى الستة الذين جعل الخلافة فيهم من بعده قائلا : « لقد توفي رسول الله وهو عنهم راض » .

وفَوْرَ إسلام « عبد الرحمن » حَمَل حظه المناسب ، من اضطهاد قريش وتحدِّياتها . .

وحين أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بالهجرة إلى الحبشة هاجر « ابن عوف » ثم عاد إلى مكة ، ثم هاجر إلى الحبشة في الهجرة الثانية ثم هاجر إلى المدينة . . وشهد بدرًا ، وأحدًا ، والمشاهد كلها . .

* * *

وكان محظوظًا في التجارة إلى حد أثارَ عجبه ودهَشَه فقال :

[لقد رأيتني ، لو رَفَعْتُ حجرًا ، لوجدت تحته فضة وذهبًا] . . . ! !

ولم تكن التجارة عند « عبد الرحمٰن بن عوف » رضي الله عنه شَرَهًا ولا احتكارًا . .

بل لم تكن حرصًا على جمع المال وشَغَفًا بالثراء . . .

كلا . . .

إنما كانت عملا ، وواجبًا يزيدهما النجاح قُرْبًا من النفس ، ومزيدًا من السعي . . .

وكان « ابن عوف » يحمل طبيعة جيَّاشة ، تجد راحتها في العمل الشريف حيث يكون . .

فهو إذا لم يكن في المسجد يصلي ، ولا في الغزو يُجاهد فهو في تجارته التي نَمَت نُموًّا هائلا ، حتى أخذت قوافله تَفِدُ على المدينة من مصر ، ومن الشام ، محملة بكل ما تحتاجه جزيرة العرب من كساء وطعام . .

ويدلّنا على طبيعته الجياشَة هذه ، مسلكه غداة هجرة المسلمين إلى المدينة . . .

لقد جرى نهجُ الرسول يومئذ على أن يُؤاخي بين كل اثنين من أصحابه ، أحدهما مهاجر من مكة ، والآخر أنْصاري من المدينة .

وكانت هذه المؤاخاة تتم على نَسق يبهر الألْباب ؛ فالأنصاري من أهل المدينة يقاسم أخاه المهاجر كل ما يملك . . حتى فراشه ، فإذا كان متزوجًا باثنتين ، طلّق إحداهما ، ليتزوجها أخوه . . ! !

ويومئذ آخى الرسول الكريم بين عبد الرحمن بن عوف ، وسعد ابن الربيع . .

ولْنصْغ للصحابي الجليل « أنَس بن مالك » رضي الله عنه يروي لنا ما حدث :

[. . . وقال سعد لعبد الرحمن : أخي ، أنا أكثر أهل المدينة مالا ، فانظر شطر مالي فخذه ! !

« وتحتي امرأتان ، فانظر أيتهما أعجب لك حتى أُطَلِّقها ، وتتزوجها . . !

فقال له عبد الرحمن بن عوف :

[*بارَك الله لك في أهلك ومالك . . .*

دُلُّوني على السُّوق . .

« وخرج إلى السوق ، فاشترى . . . وبـــاع . . . وربح] . . . ! !

وهكذا سارت حياته في المدينة، على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته . . أداءٌ كامل لحق الدين ، وعمل الدنيا . . وتجارة رابحة ناجحة ، لورفع صاحبها – على حَدِّ قوله – حجرًا من مكانه لوجد تحته ذهبًا وفضة . . ! !

ومما جعل تجارته ناجحة مباركة ، تَحرِّيه الحلال ، ونأْيُهُ الشديد عن الحرام ، بل عن الشُّبهات . .

كذلك مما زادها نجاحًا وبركة أنها لم تكن لعبد الرحمن وحده . . . بل كان لله فيها نصيب أوفى ، يَصِلُ به أهله ، وإخوانه ، ويجهِّز به جيوش الإسلام . . .

وإذا كانت التجارة والثروات ، إنما تُحصى بأعداد رصيدها وأرباحها فإن ثروة عبد الرحمن بن عوف إنما تُعْرَف مقاديرها وأعدادها بما كان يُنْفق منها في سبيل الله رب العالمين . . ! !

لقد سمع رسول الله يقول له يومًا :

[يا ابن عَوْف إنك من الأغنياء . .

« وإنك ستدخُل الجنة حَبْوًا . .

« فَأَقْرِضِ الله يُطْلق لك قَدَمَيك] . .

ومنذ سمع هذا النُّصْحَ من رسول الله ، وهويُقرض ربه قرضًا حَسَنًا ، فيضاعفه الله له أضْعَافًا كثيرة .

باع في يوم أرضًا بأربعين ألف دينار ، ثم فرَّقها جميعًا في أهله من بني زُهْرة ، وعلى أُمَّهات المؤمنين ، وفقراء المسلمين .

وقدَّمَ يومًا لجيوش الإسلام خمسمائة فرس .. ويومًا آخر ألفًا وخمسمائة راحلة .

وعند موته ، أوصى بخمسين ألف دينار في سبيل الله ، وأوصى لكل من بقي مِمَّنْ شهدوا بدرًا بأربعمائة دينار ، حتى إن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، أخذ نصيبه من الوصية رغم ثرائه وقال : « إن مال عبد الرحمن حلالٌ صَفْوٌ ، وإن الطُّعْمة منه عافية وبركة » .

* * *

كان « ابن عوف » سَيِّدَ ماله ولم يكن عَبْدَه ..

وآية ذلك أنه لم يكن يشقى بجمعه ولا باكتنازه ..

بل هو يجمعه هَوْنًا ، ومن حلال .. ثم لا يَنْعَم به وحده ... بل يَنْعَم به معه أهله ورَحِمُه وإخوانه ومجتمعه كله .

ولقد بلغ من سَعَةِ عطائه وعَوْنه أنه كان يقال :

[أهل المدينة جميعًا شركاء لابن عوف في ماله .

« ثُلُثٌ يُقْرِضهم ..

« وثُلثٌ يقضي عنهم ديونهم ..

« وثلث يَصِلُهم ويُعْطِيهم ..] ! !

ولم يكن ثراؤه هذا ليبعث الارتياح لديه والغبطة في نفسه ، لو لم يُمكِّنه من مُناصرة دينه ، ومعاونة إخوانه .

أما بعد هذا ، فقد كان دائم الوجل من هذا الثراء ..

جيءَ له يومًا بطعام الإفطار ، وكان صائمًا ..

فلما وقعت عليه عيناه فقد شهيته وبكى وقال :

[استُشهد « مصعب بن عمير » وهو خير مني ، فكُفِّن في بردة إن غطّت رأسه ، بدت رجلاه ، وإن غطّت رجلاه بدا رأسُه .

« واستُشهد « حمزة » وهو خير مني ، فلم يوجد له ما يُكَفّن فيه إلا بردة .

« ثم بُسِطَ لنا من الدنيا ما بُسط ، وأُعطينا منها ما أُعطينا . وإني لأخشى أن نكون قد عُجِّلَتْ لنا حسناتُنا] . ! !

واجتمع يومًا بعض أصحابه على طعام عنده .

وما كاد الطعام يوضع أمامهم حتى بكى ، وسألوه :

– ما يبكيك يا أبا محمد . . ؟

قال :

[لقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما شبع هو وأهل بيته من خبز الشعير . .

« ما أرانا أُخِّرْنَا لما هو خير لنا] . . ! !

كذلك ، لم يبتعث ثراؤه العريض ذرة واحدة من الصَّلَف والكبر في نفسه . .

حتى لقد قيل عنه : إنه لو رآه غريب لا يعرفه وهو جالس مع خَدمه ، ما استطاع أن يميزه من بينهم . ! !

لكن إذا كان هذا الغريب يعرف طَرَفًا من جهاد « ابن عوف »

وبلائه ، فيعرف مثلًا أنه أُصيب يوم أُحُد بعشرين جراحة ، وأن إحدى هذه الإصابات تركت عَرَجًا دائمًا في إحدى ساقيه . . كما سقطت يوم أُحُد بعض ثناياه ، فتركَتْ هَتَمًا واضحًا في نُطْقِه وحديثه . .

عندئذ لا غير ، يستطيع هذا الغريب أن يعرف أن هذا الرجل الفارع القامة ، المضيءُ الوجه ، الرقيق البَشَرَة ، الأعرج ؛ الأهْتَم من جرَّاء إصابته يومَ أُحُد ، هو عبد الرحمن بن عوف . . ! !

رضي الله عنه ، وأرضاه . .

* * *

لقد عودتنا طبائعُ البَشر أن الثراء يُنادي السُّلْطَة . .

أي أن الأثرياء يحبون دائمًا أن يكون لهم نفوذ يحمي ثراءهم ويضاعِفُه ، ويُشْبع شهوة الصَّلَف والاستعلاء والأنانية التي يثيرها الثراء عادة . . .

فإذا رأينا « عبد الرحمن بن عوف » في ثرائه العريض هذا ، رأينا إنسانًا عجبًا يقهر طبائع البَشر في هذا المجال ويتخطاها إلى سُمُوٍّ فريد . . !

حدث ذلك عندما كان « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه يجود بروحه الطاهرة ، ويختار ستة رجال من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليختاروا من بينهم الخليفة الجديد . .

كانت الأصابع تُومئ نحو ابن عوف وتُشِير . .

ولقد فاتحه بعض الصحابة فعلًا في أنه أحق الستة بالخلافة ، فقال :

[واللهِ ، لَأَن تُؤْخَذ مُدْيَةٌ ، فتوضع في حَلْقي ، ثم يُنْفَذ

بها إلى الجانب الآخر أحَبُّ إليَّ من ذلك] . . ! !

وهكذا ، لم يكد الستة المختارون يعقدون اجتماعهم ليختاروا أحدهم خليفة بعد الفاروق « عمر » حتى أنبأ إخوانه الخمسة الآخرين أنه مُتنازل عن الحق الذي أضفاه « عمر » عليه حين جعله أحد الستة الذين يختار الخليفة منهم . . . وأنَّ عليهم أن يُجْروا عملية الاختيار بينهم وحدهم –أي بين الخمسة الآخرين . .

وسرعان ما أحلّه هذا الزهد في المنْصب مكان الحكَم بين الخمسة الأجلَّاء ، فَرَضُوا أن يختار هو الخليفة من بينهم ، وقال له الإمام عليّ :

[لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفُك بأنك أمين في أهل السماء ، وأمين في أهل الأرض] . .

واختار « ابن عوف » « عثمان بن عفان » للخلافة ، فأمضى الباقون اختياره .

* * *

هذه حقيقة رجل ثَرِيٍّ في الإسلام . .

فهل رأيتم ما صنع الإسلام به حتى رفعه فوق الثراء بكل مغرياته ومُضِلَّاتِه ، وكيف صاغه في أحسن تقويم . . ؟ ؟

وها هو ذا في العام الثاني والثلاثين للهجرة ، يجود بأنفاسه . .

وتريد أم المؤمنين عائشة أن تخصّه بشرف لم تختصّ به سواه ، فتعرض عليه وهو على فراش الموت أن يُدْفن في حجرتها إلى جوار الرسول ، وأبي بكر ، وعمر . .

ولكنه مسلم أحسن الإسلام تأديبه ، فيستحيي أن يرفع نفسه إلى هذا الجوار . . ! !

ثم إنه على موعد سابق وعهد وثيق مع « عثمان بن مظعون »[1] إذ تواثَقا ذات يوم : أيُّهما مات بعد الآخر ، يُدْفن إلى جوار صاحبه . . .

* * *

وبينما كانت روحه تتهيأ لرحلتها الجديدة ، كانت عيناه تفيضان من الدمع ، ولسانه يتمتم ويقول :

[إني أخاف أن أُحْبَسَ عن أصحابي لكثرة ما كان لي من مال] . . .

ولكن سَكِينة الله سُرعَان ما تغشَّتْه ، فكَسَتْ وجهه غُلالَة رقيقة من الغبطة المشرقة المتهلّلة المطمئنة . .

وأُرْهِفَتْ أذناه للسَّمْع . . . كما لوكان هناك صوت عَذْبٌ يقترب منهما . . .

لعله آنئذ ، كان يسمع صدق قول الرسول صلى الله عليه وسلم له منذ عهد بعيد :

[عبد الرحمن بن عوف في الجنَّة] . . .

ولعلّه كان يسمع أيضًا وَعْد الله في كتابه :

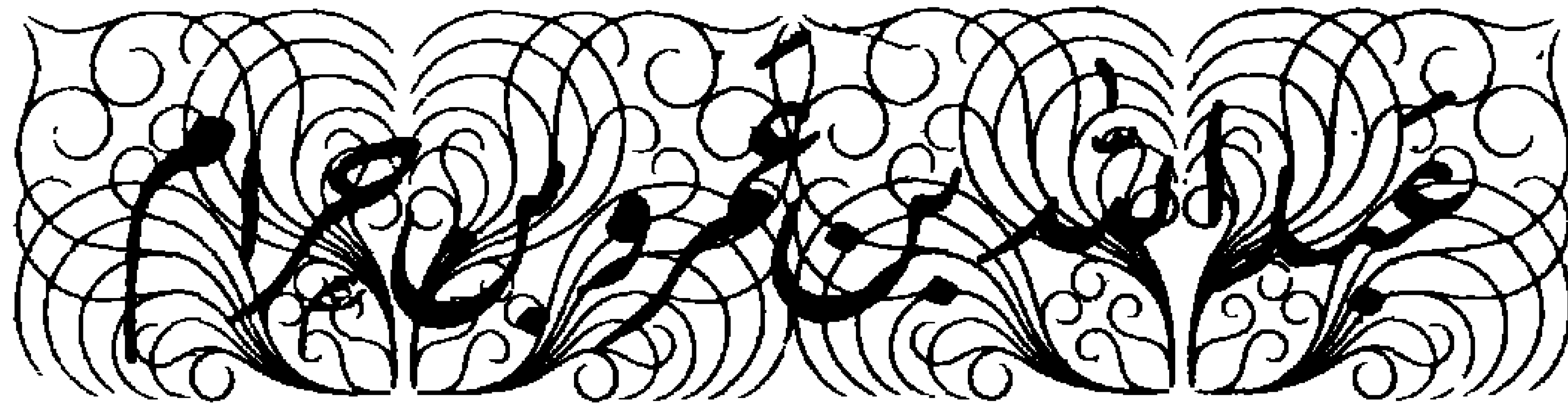
[الذينَ يُنْفِقُون أمْوَالهم في سَبيلِ الله ، ثم لا يُتْبعونَ ما أنفقوا مَنًّا ولا أذًى ، لهم أجرهم عند ربهم ولا خَوْفٌ عليهم ولا هم يحزنون] . . .

---

(١) عثمان بن مظعون ، مضت ترجمته فيما سلف من الكتاب .



أبو جابر



ظَلِيلُ المَلَائِكَة !!



عندما كان الأنصار السبعون يبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة الثانية ، كان عبد الله بن عمرو بن حرام ، أبو جابر بن عبد الله أحد هؤلاء الأنصار . .

ولما اختار رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم نقباءهم ، كان عبد الله بن عمرو أحد النُّقَباء . . . جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم نقيبًا على قومه من بني سَلَمة . .

ولما عاد إلى المدينة وضع نفسه ، وماله ، وأهله في خدمة الإسلام . .

وبعد هجرة الرسول إلى المدينة ، كان أبو جابر قد وجد كل حظوظه السعيدة في مصاحبة النبي عليه السلام ليله ونهاره . .

* * *

وفي غزوة بدر خرج مجاهدًا ، وقاتل قتال الأبطال . .

وفي غزوة أُحُد تراءى له مصرعه قبل أن يخرج المسلمون للغزو . . .

وغمره إحساس صادق بأنه لن يعود ، فكاد قلبه يطير من الفرح ! !

ودعا إليه ولده « جابر بن عبد الله » الصحابي الجليل ، وقال له :

[إني لا أراني إلا مقتولا في هذه الغزوة . . .

« بل لعلي سأكون أول شهدائها من المسلمين . .

« وإني والله ، لا أدَعُ أحدًا بعدي أحبّ إليَّ منك بعد

رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

« وإن عَلَيَّ دَيْنا ، فاقض عني ديني ، واسْتَوص بإخوتك خيرًا] . . .

* * *

وفي صبيحة اليوم التالي خرج المسلمون للقاء قريش . . .

قريش التي جاءت في جيش لَجِب تغزو مدينتهم الآمنة . .

ودارت معركة رهيبة ، أدرك المسلمون في بدايتها نصرًا سريعًا ، كان يمكن أن يكون نصرًا حاسمًا ، لولا أن الرُّماة الذين أمرهم الرسول عليه السلام بالبقاء في مواقعهم وعدم مغادرتها أبدًا أغراهم هذا النصر الخاطف على القرشيين ، فتركوا مواقعهم فوق الجبل ، وشغلوا بجمع غنائم الجيش المنهزم . . .

هذا الجيش الذي جمع فلوله سريعًا حين رأى ظهر المسلمين قد انكشف تمامًا ، ثم فاجأهم بهجوم خاطف من وراء ؛ فتحَوَّل نصر المسلمين إلى هزيمة . . .

* * *

في هذا القتال المرير ، قاتل « عبد الله بن عمرو » قتال مُوَدِّع وشهيد . . .

ولما ذهب المسلمون بعد نهاية القتال ينظرون شهدائهم . . . ذهب « جابر بن عبد الله » يبحث عن أبيه ، حتى أَلْفاه بين الشهداء ، وقد مَثّل به المشركون ، كما مَثّلوا بغيره من الأبطال . .

ووقف جابر وبعض أهله يبكون شهيد الإسلام عبد الله بن عمرو

ابن حرام ، ومر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يبكونه ، فقال :

[ابْكُوه . . .

أو لا تَبْكُوه . . .

فإن الملائكة لَتُظِلُّه بأجنحتها] . . ! ! !

* * *

كان إيمان « أبو جابر » متألقًا ووثيقًا . .

وكان حُبُّه - بل شَغَفُه - بالموت في سبيل الله منتهى أطماحه وأمانِيِّه . . .

ولقد أنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فيما بعد نبأ عظيما ، يصوره شغفه العظيم بالشهادة . .

قال عليه الصلاة والسلام لولده جابر يومًا :

[يا جابر :

ما كلم الله أحدًا قط إلا من وراء حجاب . . .

ولقد كلم أباك كِفَاحا . . - أي مُوَاجهة -

فقال له : يا عبدي ، سَلْني أُعْطِك . .

فقال : يا ربِّ ، أسألك أن تردَّني إلى الدنيا ، لِأُقتل في سبيلك ثانية . . .

قال الله له :

إنه قد سَبَق القول مني : أنهم إليها لا يُرْجعون .

قال : يا ربّ ، فأَبلغ مَنْ ورائي بما أعطيتنا من نعمة . .
فأنزل الله تعالى :

« وَلا تَحْسَبَنَّ الذينَ قُتِلوا في سبيل اللهِ أمْوَاتًا ، بل أحْيَاءٌ عندَ ربِّهم يُرْزَقُونَ ، فَرِحِينَ بما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِه ، ويستَبْشِرُونَ بالذين لم يَلْحَقُوا بهم مِنْ خَلْفهم . . . ألَّا خَوْفٌ عليهم ولا هُمْ يَحْزَنُون »] . . .

* * *

وعندما كان المسلمون يتعرفون على شهدائهم الأبرار ، بعد فراغ القتال في « أُحُد » . . .

وعندما تعرّف أهل « عبد الله بن عمرو » على جثمانه ، حملته زوجتُه على ناقتها ، وحملت معه أخاها الذي استشهد أيضًا ، وهَمَّتْ بهما راجعة إلى المدينة لتدفنهما هناك ، وكذلك فعل بعض المسلمين بشهدائهم . . .

بَيْدَ أَن مناديَ رسول الله صلى الله عليه وسلم لحق بهم وناداهم بأمر الرسول أَنْ :

[ادفنوا القتلى في مصارعهم] . . .

فعاد كل منهم بشهيده . .

ووقف النبي الكريم صلى الله عليه وسلم يُشْرِف على دَفْن أصحابه الشهداء ، الذين صدقوا ما عاهدوا اللهَ عليه ، وبذلوا أرواحهم الغالية قُرْبانًا متواضعًا لله ولرسوله . .

ولما جاء دور عبد الله بن حرام ليدفن ، نادى رسول الله صلى الله

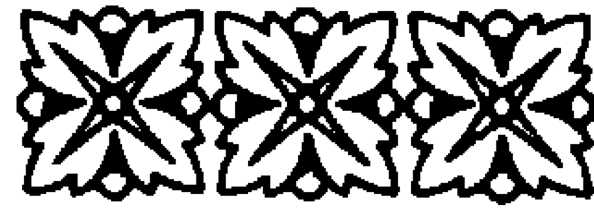
عليه وسلم :

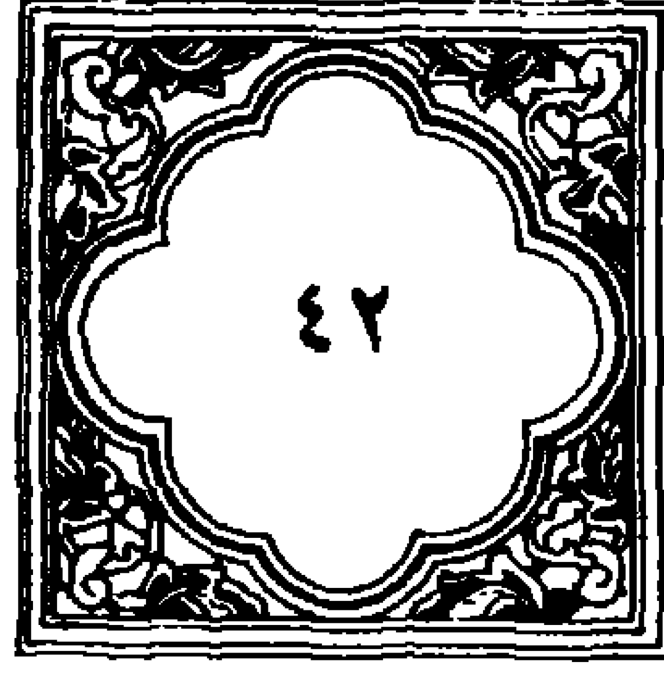
[ادفنوا عبد الله بن عمرو، وعمرو بن الجموح في قبر واحد ، فإنهما كانا في الدنيا مُتَحَابَّيْن ، مُتَصَافيين] . . .

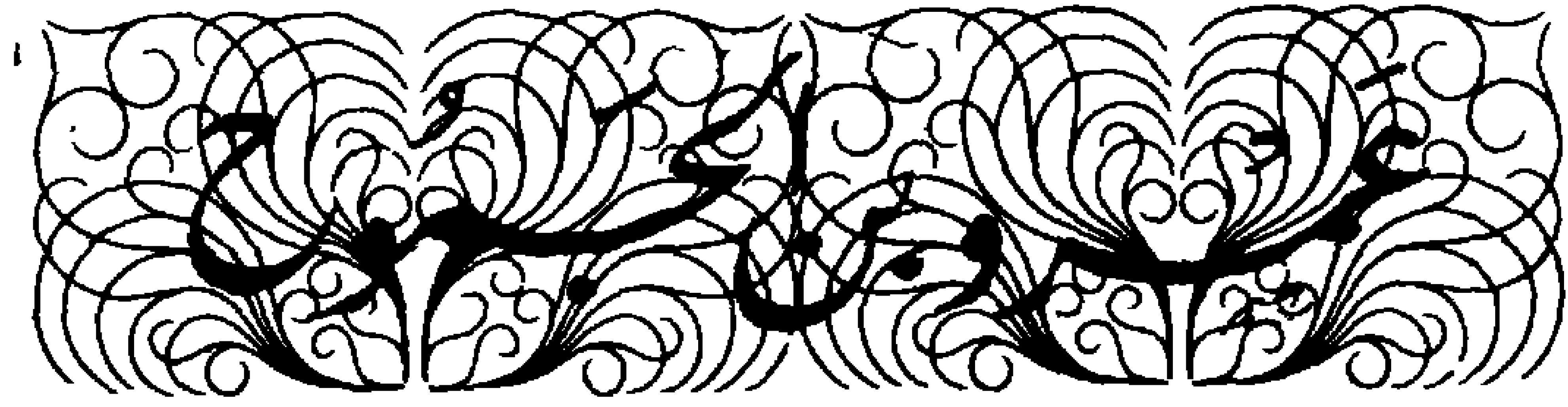
* * *

والآن . . .

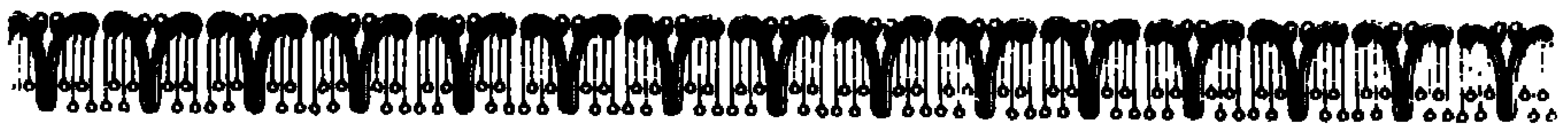
وفي خلال اللحظات التي يُعَدُّ فيها القبر السعيد لاستقبال الشهيدين الكريمين ، تَعَالَوْا نُلْقِ نظرة مُحِبَّة على الشهيد الثاني « عمرو بن الجموح » ...







أُرِيدُ أَنْ أَخْطِرَ بِعَرْجَتِي فِي الجَنَّةِ !!



إنه صِهْر عبد الله بن عمرو بن حرام ، إذ كان زوجًا لأخته « هند بنت عمرو » . .

وكان « ابن الجموح » واحدًا من زعماء المدينة . وسيدا من سادات بني سَلَمة . . .

سبقه إلى الإسلام ابنه « مُعاذ بن عمرو » الذي كان أحد الأنصار السبعين . أصحاب « بيعة العقبة » . .

وكان « معاذ بن عمرو » وصديقه « معاذ بن جبل »[1] يدعوان للاسلام بين أهل المدينة في حماسة الشباب المؤمن الجريئ . . .

وكان من عادة الناس هناك أن يتخذ الأشراف في بيوتهم أصنامًا رمزية غير تلك الأصنام الكبيرة المنصوبة في محافلها . والتي تَؤُمُّها جموع الناس . .

وعمرو بن الجموح باعتباره شريفًا وسيِّدا ، كان قد اصطنع صَنما أقامه في داره وأسماه « مَناف » . .

واتفق ولده « معاذ بن عمرو » . مع صديقه « معاذ بن جبل » على أن يجعلا من صنم « عمرو بن الجموح » سُخرِية ولَعِبا . .

فكانا يُدْلِجان عليه ليلا ، ثم يحملانه ويطرحانه في حفرة يطرح الناس فيها فضلاتهم . .

---

(١) وقد سلفت ترجمته .

ويصبح « عمرو » فلا يجد « مَنافًا » في مكانه ، ويبحث عنه حتى يجده طريح تلك الحفرة . . . فيثور ويقول :

- ويلكم ، من عَدَا على آلهتنا هذه الليلة . . ! ؟

ثم يغسله ، ويُطهِّره ، ويطيِّبه . . .

فإذا جاء ليلٌ جديد ، صنع المُعاذان « مُعاذ بن عمرو » و « معاذ بن جبل » بالصنم مثل ما يفعلان به كل ليلة .

حتى إذا سئم « عمرو » جاء بسيفه ووضعه في عنق « مَناف » وقال له إن كان فيك خير فدافع عن نفسك . . ! !

فلما أصبح لم يجده مكانه . . . بل وجده في الحفرة ذاتها طريحًا ، بيد أنه في هذه المرة لم يكن في حفرته وحيدًا . . بل كان مشدودًا مع كلب ميت في حبل وثيق .

وإذا هو في غضبه ، وأَسَفه ، ودَهَشه ، اقترب منه بعض أشراف المدينة الذين كانوا قد سبقوا إلى الإسلام . .

وراحوا ، وهم يشيرون بأصابعهم إلى الصنم المنكَّس المقرون بكلب ميت ، يخاطبون في « عمرو بن الجموح » عقله وقلبه ورُشده ، محدثِّينه عن الإله الحقِّ ، العلي الأعلى ، الذي ليس كمثله شئ . .

وعن « محمد » الصادقَ الأمين ، الذي جاء الحياة ليعطي لا ليأخذ . . ليهدي ، لا ليُضلّ . . .

وعن الإسلام ، الذي جاء يحرر البشر من الأغلال - جميع الأغلال - وجاء يحيي فيهم روح الله وينشر في قلوبهم نوره .

وفي لحظات وجد « عمرو » نفسه ومصيره . .

وفي لحظات – ذهب ، فطهّر ثوبه ، وبدنه . . . ثم تطيّب وتأنّق ، وتألّق ، وذهب عالي الجبهة مشرق النفس ، ليبايع خاتم المرسلين ، وليأخذ مكانه مع المؤمنين .

* * *

قد يسأل سائل نفسه : كيف كان رجال من أمثال « عمرو بن الجموح » . . وهم زعماء في قومهم وأشراف . . كيف كانوا يؤمنون بأصنام هازلة كل هذا الإيمان . . . ؟

وكيف لم تعصمهم عقولهم عن مثل هذا الهراء . .

وكيف نُعِدّهم اليوم – حتى مع إسلامهم وتضحياتهم – من عظماء الرجال . . ؟

ومثل هذا السؤال يبدو إيراده سهلا في أيامنا هذه حيث لا نجد طفلا يسيغ عقله أن ينصب في بيته خشبة ثم يعبدها . .

لكن في أيام خلت ، كانت عواطف البشر تتسع لمثل هذا الصنيع دون أن يكون لذكائهم ونبوغهم حيلة تجاه تلك التقاليد . . ! !

وحسبنا لهذا مثلا « أثينا » . . .

أثينا في عصر « باركليز » و « فيثاغورس » و « سقراط » . .

أثينا التي كانت قد بَلَغَت رُقِيًّا فكريا يبهر الألباب ، كان أهلها جميعًا : فلاسفة ، وحكاما ، وجماهير يؤمنون بأصنام منحوتة إيمانًا تناهى في البلاهة والسخرية ! !

ذلك أن الوجدان الديني في تلك العصور البعيدة ، لم يكن يسير في

خط مُوازٍ للتفوق العقلي . .

* * *

أسلم « عمرو بن الجموح » قلبه ، وحياته لله رب العالمين ، وعلى الرغم من أنه كان مفطورًا على الجود والسخاء ، فإن الإسلام زاد جوده مضاء ، فوضع كل ماله في خدمة دينه وإخوانه .

سأل الرسول صلى الله عليه وسلم جماعة من « بني سَلَمَة » قبيلة « عمرو ابن الجموح » فقال :

- مَنْ سَيِّدكم يا بني سَلَمة . . . ؟

قالوا : - الجدّ بن قيس ، على بخل فيه . . .

فقال عليه السلام :

[وأيُّ داء أَدْوَى من البخل ! !

بل سيدكم الجعْدُ الأبيض ، عمرو بن الجموح] . .

فكانت هذه الشهادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم تكريمًا لابن الجموح ، أي تكريم . . . !

وفي هذا قال شاعر الأنصار :

فَسَوَّد عمرَو بن الجموح لجودِهِ
وحقٌّ لعمرو بالنَّدَى أن يُسَوَّدا
إذا جاءه السُّؤَّالُ أذهب ماله
وقال : خذوه ، إنه عائد غدا

وبمثل ما كان « عمرو بن الجموح » يجود بماله في سبيل الله ، أراد أن

يجود بروحه وبحياته . .

ولكن . . كيف السبيل ؟ ؟

إن في ساقه عرجًا شديدًا يجعله غير صالح للاشتراك في قتال .

وإن له أربعة أولاد ، كلهم مسلمون ، وكلهم رجال كالأسود ، كانوا يخرجون مع الرسول صلى الله عليه وسلم في الغزو ، ويثابرون على فريضة الجهاد . .

ولقد حاول « عمرو » أن يخرج في غزوة « بدر » ، فتوسَّل أبناؤه إلى النبي صلى الله عليه وسلم كي يقنعه بعدم الخروج ، أو يأمره به إذا هو لم يقتنع . .

وفعلا ، أخبره النبي صلى الله عليه وسلم أن الإسلام يعْفيه من الجهاد كفريضَة ، وذلك لعجزه الماثل في عرجه الشديد . .

بيدَ أنه راح يُلحُّ ويرجو . فأمره الرسول بالبقاء في المدينة .

* * *

وجاءت « غزوة أُحُد » ، فذهب « عمرو » إلى النبي صلى الله عليه وسلم يتوسَّل إليه أن يأْذن له وقال له :

[يا رسول الله . . . إن بَنِيَّ يريدون أن يحبسوني عن الخروج معك إلى الجهاد . . .

« ووالله إني لأرجو أن -أَخْطِرَ- بعَرْجَتِي هـــذه في الجنة] . . .

وأمام إصراره العظيم أَذِنَ له النبي عليه السلام بالخروج ، فأخذ

سلاحه ، وانطلق يَخطِر في حبور وغبطة ، ودعا ربه بصوت ضارع :

[اللهم ارزقني الشهادة ولا تردَّني إلى أهلي] . . !

* * *

والتقى الجمعان يوم « أُحد » . . .

وانطلق « عمرو بن الجموح » وأبناؤه الأربعة يضربون بسيوفهم جيش الظلام والشرك . . .

كان « عمرو » يخطِرُ ، وسط المعمعة الصاخبة ، ومع كل خطرة يقطف سيفه رأسًا من رؤوس الوثنية . .

كان يضرب الضربة بيمينه ، ثم يتلفت حواليه في الأفق الأعلى ، كأنه يتعجل قدوم الملاك الذي سيقبض روحه ، ثم يصحبها إلى الجنة . .

أجل . . . فلقد سأل ربه الشهادة ، وهو واثق أن الله سبحانه قد استجاب له . . .

وهو مُغْرمٌ – أيُّ مُغرم – بأن يخْطِر بساقه العرجاء في الجنّة ليعلم أهلها أن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعرف كيف يختار الصِّحَاب وكيف يُرَبِّي الرجال . ! !

* * *

وجاء ما كان ينتظر .

ضربة سيف أَوْمَضت ، مُعْلِنة ساعة الزفاف . . .

زفافِ شهيد مجيد إلى جنات الخلد ، وفِرْدَوس الرحمن . . ! !

* * *

وإذ كان المسلمون يدفنون شهداءهم ، قال الرسول عليه السلام أمره الذي سمعناه من قبل :

[انظروا ، فاجعلوا عبد الله بن عمرو بن حرام وعمرو بن الجموح في قبر واحـــد ، فإنهمـــا كانا في الدنيا متحابين متصافيين] . . ! !

* * *

ودُفن الحبيبان الشهيدان الصديقان في قبر واحد ، تحت ثرى الأرض التي تَلَقَّتْ جثمانيهما الطاهرين ، بعد أن شهدت بطولتهما الخارقة .

وبعد مُضِي ست وأربعين سنة على دفنهما ورفاقهما ، نزل سيلٌ شديد غَطَّى أرض القبور ، بسبب عين من الماء أجراها هناك معاوية ، فسارع المسلمون إلى نقل رُفات الشهداء ، فإذا هُم كما وصفهم الذين اشتركوا في نقل رُفاتهم :

[لَيِّنَة أجسادهم . .

تتثنى أطرافهم] . . . ! !

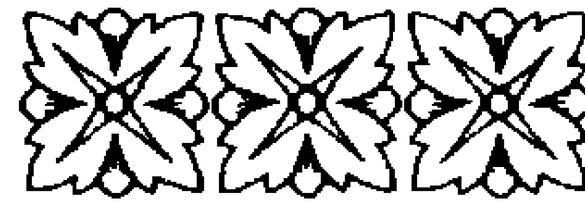
وكان « جابر بن عبد الله » لا يزال حيًّا ، فذهب مع أهله لينقل رُفات أبيه « عبد الله بن عمرو بن حرام » ، ورُفات زوج عمته « عمرو ابن الجموح » . . .

فوجدهما في قبرهما ، كأنهما نائمان . . . لم تأكل الأرض منهما شيئًا ، ولم تفارق شفاههما بَسْمَةُ الرضا والغبطة التي كانت يوم دُعِيا للقاء الله . . .

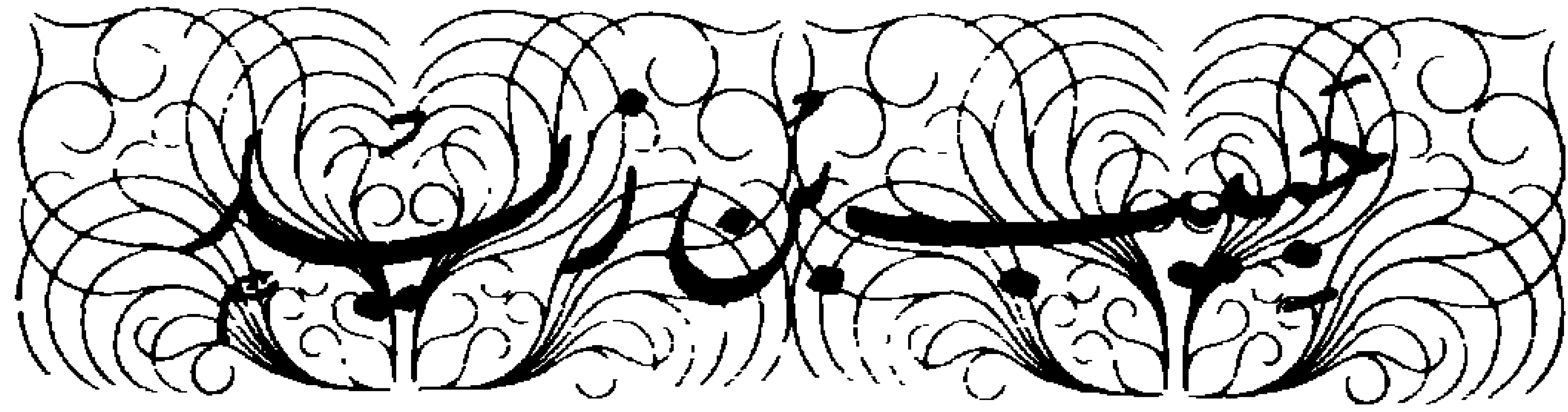
أتعجبون . . ؟

كلا ، لا تعجبوا . .

فإن الأرواح الكبيرة ، التَّقِية ، النَّقِيَّة ، التي سيطرت على مصيرها . . . تترك في الأجساد التي كانت مَوْئلا لها ، قدرًا من المناعة يدرأ عنها عوامل التحلل ، وسطوة التراب . .







أُسْطُورَةُ فِدَاءٍ وَحُبّ



في بيعة العقبة الثانية التي مر بنا ذكرها كثيرًا ، والتي بايع الرسول صلى الله عليه وسلم فيها سبعون رجلا وسيدتان من أهل المدينة ، كان « حبيب بن زيد » وأبوه « زيد بن عاصم » رضي الله عنهما من السبعين المباركين . .

وكانت أُمَّه « نُسَيبة بنت كعب » أُولى السيدتين اللتين بايعتا رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

أما السيدة الثانية ، فكانت خالته . . ! !

هو إذن مؤمن عريق جرى الإيمان في أصلابه وترائبه . . .

ولقد عاش إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة لا يتخلف عن غزوة ، ولا يقعد عن واجب . .

* * *

وذات يوم شهد جنوب الجزيرة العربية كذَّابَيْن عاتيَيْنِ يدَّعيان النبوَّة ويسوقان الناس إلى الضلال . . .

خرج أحدهما بصنعاء ، وهو الأسود بن كعب العنسي . .

وخرج الثاني باليمامة ، وهو مُسَيلمة الكذاب . . .

وراح الكذّابان يحرضان الناس على المؤمنين الذين استجابوا لله ، وللرسول في قبائلهما ، ويُحَرّضان على مبعوثي رسول الله إلى تلك الديار . .

وأكثر من هذا ، راحا يُشوّشان على النُّبوَّة نفسها ، ويعيثان في الأرض فسادًا وضلالا . .

* * *

وفوجئ الرسول يومًا بمبعوثٍ بعثه « مُسيلمة » يحمل منه كتابًا يقول فيه « من مُسيلمة رسول الله ، إلى « محمد » رسول الله . . سلام عليك . . أما بعد ، فإني قد أُشْرِكْتُ في الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ، ولقريش نصفها ، ولكنَّ قريشًا قوم يعتدون » . . ! ! !

ودعا الرسول أحد أصحابه الكاتبين ، وأملى عليه ردَّه على مسيلمة :

[بسم الله الرحمن الرحيم . . .

مِن « محمد » رسول الله ، إلى مسيلمة الكذَّاب .

« السلام على مَن اتَّبع الهدى . .

« أما بعد ، فإن الأرض لله ، يُورِثُها مَن يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين] . . !

وجاءت كلمات الرسول هذه كفلق الصبح . ففضحت كذَّاب بني حنيفة الذي ظنَّ النبوَّة مُلكا ، فراح يطالب بنصف الأرض ونصف العِباد . . !

وحمل مبعوث مسيلمة ردَّ الرسول عليه السلام إلى مسيلمة الذي ازداد ضَلالا وإضلالا . .

* * *

ومضى الكذَّاب ينشر إفْكَه وبهتانه ، وازداد أذاه للمؤمنين وتحريضه

عليهم ، فرأى الرسول أن يبعث إليه رسالةً ينهاه فيها عن حماقاته . .

ووقع اختياره عليه السلام على « حبيب بن زيد » ليحمله الرسالة إلى مسيلمة . .

وسافر « حبيب » يغذُّ الخُطى ، مُغتبطًا بالمهمة الجليلة التي ندبه إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم مُمَنِّيًا نفسه بأن يهتدي إلى الحق ، قَلبُ مسيلمة فيذهب « حبيب » بعظيم الأجر والمثوبة .

* * *

وبلغ المسافر غايته . .

وفضَّ مسيلمة الكذاب الرسالة التي أعشاه نورُها ، فازداد إمعانًا في ضلاله وغروره . .

ولما لم يكن مسيلمة أكثر من أفّاق دَعِيّ ، فقد تحلى بكل صفات الأفَّاقين الأدْعياء . . ! !

وهكذا ، لم يكن معه من المروءة ولا من العُروبة والرجولة ما يردُّه عن سفك دم رسول يحمل رسالة مكتوبة . . الأمر الذي كانت العرب تحترمه وتقدسه . . ! !

وأراد قَدَرُ هذا الدين العظيم – الإسلام – أن يُضيف إلى دروس العظمة والبطولة التي يُلْقيها على البشرية بأسرها ، درسًا جديدًا موضوعه هذه المرة ، وأستاذه أيضًا ، حبيب بن زيد . . ! !

* * *

جمع الكذّاب مسيلمة قومه ، وناداهم إلى يوم من أيامه المشهودة . . .

وجيءَ بمبعوث رسول الله صلى الله عليه وسلم – حبيب بن زيد – يحمل آثار تعذيب شديد أنزله به المجرمون ، مؤملين أن يسلبوا شجاعة روحه ، فيبدو أمام الجمع متخاذلا مستسلمًا ، مُسارعًا إلى الإيمان بمسيلمة حين يُدعى إلى هذا الإيمان أمام الناس . . وبهذا يحقق الكذاب الفاشل معجزة موهومة أمام المخدوعين به . .

* * *

قال مسيلمة لـ « حبيب » :

– أتشهد أن محمدًا رسول الله . . ؟

وقال حبيب :

– نعم : أشهد أن محمدًا رسول الله .

وكست صُفرة الخزي وجه مسيلمة ، وعاد يسأل :

– وتشهد أني رسول الله . . ؟ ؟

وأجاب حبيب في سخرية قاتلة :

– إني لا أسمع شيئًا . . ! !

وتحوَّلت صفرة الخزي على وجه الكذاب إلى سواد حاقد مخبول . .

لقد فشلت خُطته ، ولم يُجده تعذيبه ، وَتَلَقّى أمام الذين جمعهم ليشهدوا معجزته . . تلقى لطمة قوية أسقطت هيبته الكاذبة في الوحل . .

هنالك هاجٍ كالثور المذبوح ، ونادَى جلاّدَه الذي أقبل ينخس جسد « حبيب » بسِن سيفه . .

ثم راح يقطع جسده ، قطعة قطعة ، وبْضْعة بْضْعة ، وعضــوًا

عضوًا . . .

والبطل العظيم لا يزيد على همهمة يردد بها نشيد إسلامه :

[لا إله إلا الله ، محمد رسول الله] . . .

* * *

لو أن « حبيبًا » أنقذ حياته يومئذ بشيء من المسايرة الظاهرة لمسيلمة ، طاويًا على الإيمان صدره ، لما نقص إيمانه شيئًا ، ولا أصاب إسلامه سُوء . . .

ولكن الرجل الذي شهد مع أبيه ، وأمه ، وأخيه ، وخالته بيعة العقبة ، والذي حمل منذ تلك اللحظات الحاسمة المباركة مسئولية بيعته وإيمانه كاملة غير منقوصة ، ما كان له أن يوازن لحظة من نهار بين حياته ومبدئه . .

ومن ثمَّ لم يكن أمامه لكي يربح حياته كلها مثل هذه الفرصة الفريدة التي تمثّلت فيها قصة إيمانه كلها . . ثبات ، وعظمة ، وبطولة ، وتضحية ، واستشهاد في سبيل الهدى والحق يكاد يفوق في حلاوته ، وفي روعته كل ظفر وكل انتصار . . ! !

* * *

وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم نبأ استشهاد مبعوثه الكريم ، واصْطَبر لحكم ربه ، فهو يرى بنور الله مصير هذا الكذاب مُسَيْلمة ، ويكاد يرى مَصْرَعه رَأْيَ العين . .

أما « نُسَيْبة بنت كعب » أُمّ « حبيب » فقد ضغطت على أسنانها طويلا ، ثم أطلقت يمينًا مبرورة لَتَثْأَرَنَّ لولدها من « مسيلمة » ذاته ،

ولَتَغُوصَن في لحمه الخبيث برمحها وسيفها . .

وكان القَدَر الذي يرمُق آنئذ جزعها وصبرها وجلدها ، يُبْدِي إعجابًا كبيرًا بها ، ويقرر في نفس الوقت أن يقف بجوارها حتى تبرَّ بيمينها . . ! !

* * *

ودارت من الزمان دورة قصيرة . . جاءت على أثرها الموقعة الخالدة ، موقعة اليمامة . .

وجهَّز أبو بكر الصِّدِّيق خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم جيش الإسلام الذاهب إلى اليمامة حيث أعدَّ مسيلمة أضخم جيش . .

وخرجت « نُسَيبة » مع الجيش . .

وأَلْقَت بنفسها في خِضَمِّ المعركة ، في يُمناها سيف ، وفي يُسْرَاها رمْح ، ولسانها لا يكفُّ عن الصياح :

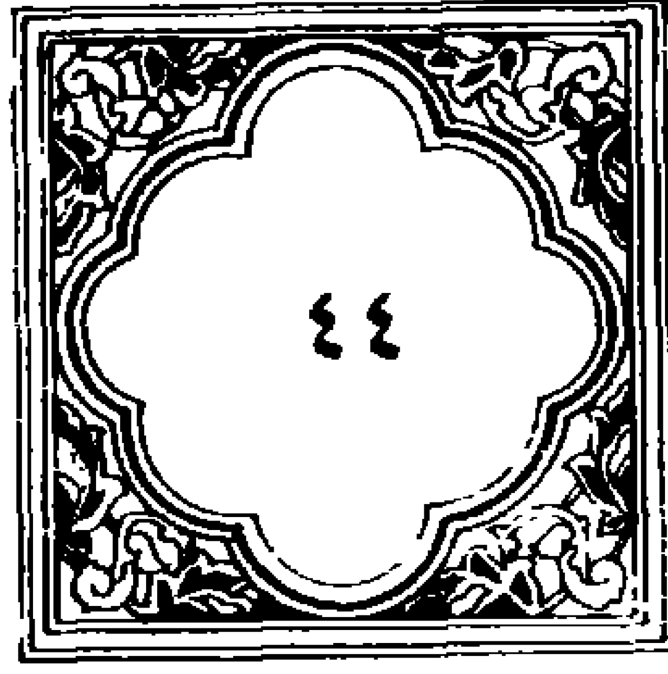
[أين عدو الله مُسَيلمة] . . ؟ ؟

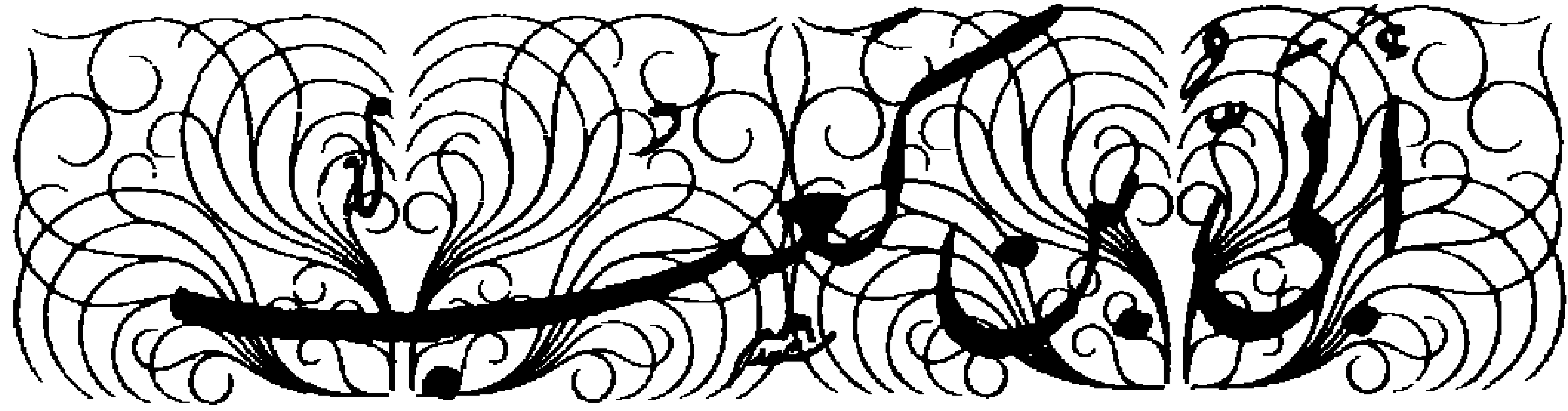
ولما قُتِلَ مسيلمة ، وسقط أتباعه كالْعِهن المنفوش ، وارتفعت رايات الإسلام عزيزة ظافرة . . وقفت « نُسَيبة » وقد مُلِئَ جسدها الجليل ، القويُّ بالجراح وطعنات الرماح . . .

وقفت تستجلي وجه ولدها الحبيب ، الشهيد « حبيب » فوجدته يملأ الزمان والمكان . . ! !

أجَلْ . . .

ما صَوَّبَتْ « نُسَيبة » بصرها نحو راية من الرايات الخفاقة المنتصرة الضاحكة إلا رأت عليها وجه ابنها « حبيب » خفاقًا . . منتصرًا . . . ضاحكًا . . .





ليهنك العلم، أبا المنذر



سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم :

[يا أبا المُنْذِر . . . ؟ ؟

أيّ آية من كتاب الله أَعْظَم . . ؟ ؟]

فأجاب قائلا :

[الله ورسوله أعلم] . . .

وأعاد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم سؤاله :

[أبا المُنْذِر . . . ؟ ؟

أيّ آية من كتاب الله أَعْظَم . . ؟ ؟]

وأجاب أُبيّ :

[الله لا إله إلا هو الحيُّ القيوم] . . .

فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدرَهُ بيده ، وقال له والغبطة تأتلق على مُحَيَّاه :

[لِيَهنِكَ العلم أبا المنذر] . . .

* * *

إن « أبا المنذر » الذي هنأه الرسول الكريم بما أنعم الله عليه من علم وفهْم هو « أُبيُّ بن كَعْب » الصحابي الجليل . .

هو أنصاري من الخزْرَج ، شهد العقبة ، وبدرًا ، وبقية المشاهد . . .

وبلغ في المسلمين الأوائل منزلة رفيعة ، ومكانًا عاليًا ، حتى لقد قال عنه أمير المؤمنين عمر رضي الله عنهما :

[أُبيّ ، سيِّد المسلمين] . . .

وكان « أُبي بن كعب » في مقدمة الذين يكتبون الوَحْيَ ، ويكتبون الرسائل . . .

وكان في حفظه القرآن الكريم ، وترتيله إياه ، وفهمه آياته ، من المتفوقين . . .

قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا :

[يا أُبيّ بن كعب . .

إني أمِرْتُ أن أعْرِض عليك القرآن] . . .

وأُبيٌّ يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يتلقى أوامره من الوحي . . .

هنالك سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم في نشوة غامرة :

[يا رسول الله – بأبي أنت وأمي – . . . وهل ذُكِرْتُ لك باسمي] . . ؟ ؟

فأجاب الرسول :

[نعم . . .

باسمك ، ونَسَبك ، في الملإ الأعلى] . . ! !

وإن مُسْلمًا يبلغ من قلب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم هذه المنزلة لهو مُسْلم عظيم ، جِدُّ عظيم . .

وطوال سنوات الصُّحْبَة ، وأُبيّ بن كعب قريب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهل من مَعِينه العذب المعطاء . .

وبعد انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ؛ ظلَّ أُبيّ على عهده الوثيق . . في عبادته ، وفي قوة دينه ، وخُلُقه . .

وكان – دائمًا – نذيرًا في قومه . .

يذكرهم بأيام الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما كانوا عليه من عهد ، وسلوك ، وزهد . .

ومن كلماته الباهرة التي كانَ يهتف بها في أصحابه :

[لقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجوهنا واحدة . . .

« فلما فارَقَنا ، اختلفت وجوهنا يمينًا وشمالا] . . .

* * *

ولقد ظلَّ مستمسكًا بالتقوى ، معتصما بالزهد ، فلم تستطع الدنيا أن تفتنه أو تخدعه . .

ذلك أنه كان يرى حقيقتها في نهايتها . . .

فمهما يعش المرء ، ومهما يتقلب في المناعم والطيبات ، فإنه مُلاَقٍ يومًا يتحول فيه كل ذلك إلى هَبَاء ، ولا يجد بين يديه إلا ما عمل من خير ، أو ما عمل من سُوء . .

وعن الدنيا يتحدث « أُبيّ » فيقول :

[إن طعامَ ابن آدمَ ، قد ضُرِب للدنيا مَثَلا . .

« فإن مَلَّحه ، وقَذَّحَه ، فانظر إلى ماذا يصير] . . ؟ ؟

* * *

وكان « أُبيٌّ » إذا تحدث للناس استشرفَتْهُ الأعناق والأسماع في شوق وإصغاء . .

ذلك أنه من الذين لم يخافوا في الله أحدًا . . ولم يطلبوا من الدنيا غرضًا . .

وحين اتسعت بلاد الإسلام ، ورأى المسلمين يجاملون وُلَاتِهم في غير حق ، وقف يرسل كلماته المنذرة :

[هَلَكوا ، ورَبِّ الكعبة . .

« هلكُوا وأهلكُوا . .

« أمَا إني لا آسَى عليهم ، ولكن آسَى عَلَى مَنْ يُهلكون من المسلمين] . .

* * *

وكان على كثرة وَرَعِه وتُقَاهُ ، يبكي كلما ذكر الله ، واليوم الآخر . .

وكانت آيات القرآن الكريم وهو يرتلها ، أو يسمعها ، تهزه وتهزُّ كل كيانه . .

على أنَّ آيةً من تلك الآيات الكريمة ، كان إذا سمعها أو تلاها تغشّاه من الأسى ما لا يوصف . .

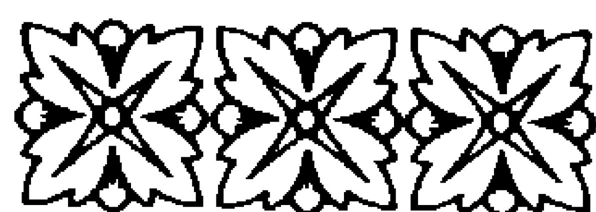
تلك هي :

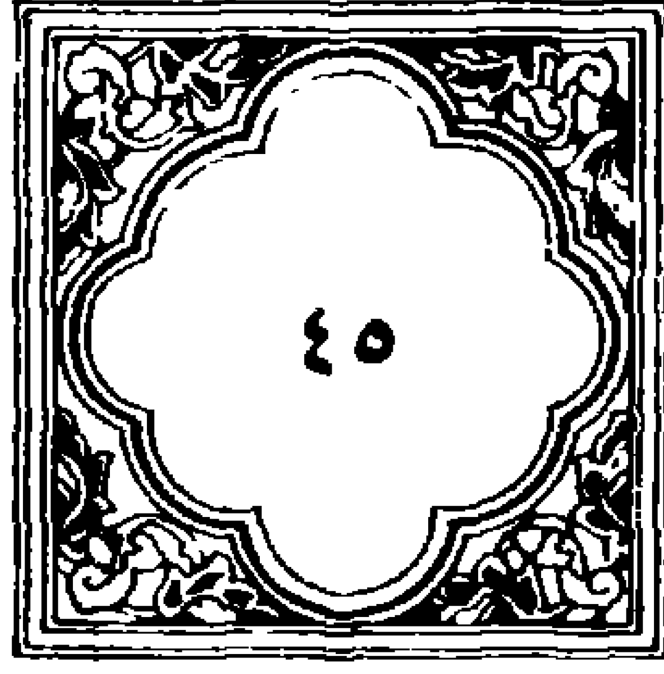
[قُلْ هوَ القادِرُ على أن يبعثَ عليكم عذابًا من فَوْقِكُمْ ، أو

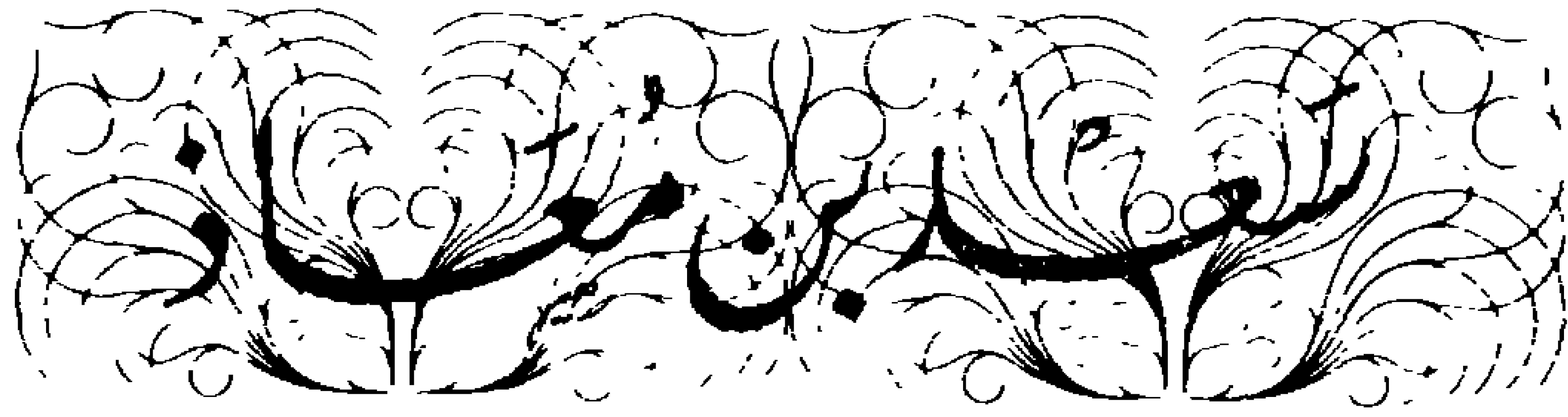
مِنْ تحتِ أرجُلِكُمْ ، أو يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا . . ويُذيق بعضكم بأسَ بعض] . .

كان أكثر ما يخشاه « أُبيّ » على الأمة المسلمة أن يأتي عليها اليوم الذي يصير فيه بأسُ أبنائها بينهم شديدًا . .

وكان يسأل الله العافية دوما . . ولقد أدركها بفضل من الله ونعمة . . ولقي ربه مؤمنًا ، وآمنًا ، ومُثَابًا . . .







هَنِيئاً لَكَ، أبَا عَمْرو



في العام الواحد والثلاثين من عمره ، أسلم . .

وفي السابع والثلاثين ، مات شهيدًا . .

وبين يوم إسلامه ، ويوم وفاته ، قضى « سعد بن معاذ » رضي الله عنه أيامًا شاهقة في خدمة الله ورسوله . .

* * *

انظروا . !

أترون هذا الرجل الوسيم ، الجليل ، الفارع الطول ، المشرق الوجه ، الجسيم ، الجزْل . . . ؟ ؟

إنه هو . . .

يقطع الأرض وثْبًا وركضًا إلى دار « أسعد بن زُرَارة » ليرى هذا الرجل الوافد من مكة « مصعب بن عمير » الذي بعث به « محمد عليه الصلاة والسلام » إلى المدينة يبشر فيها بالتوحيد والإسلام . .

أجل . . . هو ذاهب إلى هناك ليدفع بهذا الغريب خارج حدود المدينة ، حاملا معه دينه . . وتاركًا للمدينة دينها . . ! !

* * *

ولكنه لا يكاد يقترب من مجلس « مصعب » في دار ابن خالته و« أُسيد بن زُرَارة » حتى ينتعش فؤاده بنسمات حلوة هَبَّت عليه هبوب العافية . . .

ولا يكاد يبلغ الجالسين ، ويأخذ مكانه بينهم ، مُلقِيًا سمعه لكلمات « مصعب » حتى تكون هداية الله قد أضاءت نفسه ورُوحَه . . .

وفي إحدى مفاجآت القدر الباهرة المُذْهِلة ، يُلقي زعيم الأنصار حربته بعيدًا ، ويبسط يمينه مبايعًا رسول الله صلى الله عليه وسلم . . .

وبإسلام « سعد بن مُعاذ » تُشرق في المدينة شمس جديدة ، ستدور في فلكها قلوبٌ كثيرة تُسلِمُ مع « محمد » لله رَبِّ العالمين . . ! !

* * *

أسلم سعد . . . وحمل تبعات إسلامه في بطولة وعظمة .

وعندما هاجر رسول الله وصحبه إلى المدينة كانت دور بني عبد الأشهل – قبيلة سعد – مفتحة الأبواب للمهاجرين ، وكانت أموالهم كلها تحت تصرفهم في غير مَنٍّ ، ولا أذى . . . ولا حساب . . ! !

* * *

وتجيء غزوة بدر . . .

ويجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من المهاجرين والأنصار ، ليشاورهم في الأمر .

ويُيَمِّمُ وجهه الكريم شَطْرَ الأنصار ويقول :

[أشيروا عليَّ أيها الناس . .]

وينهض « سعد بن مُعاذ » قائمًا كالعَلَم . . يقول :

[يا رسول الله . .

لقد آمنا بك ، وصَدَّقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ،

وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا . .

« فامْضِ يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك . . .

« ووَالذي بعثك بالحق ، لو استَعْرَضْتَ بنا هذا البحر فَخُضْتَهُ لخضناهُ معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نَكْرَهُ أن تَلقى بنا عدونا غدًا . . .

« إنَّا لَصُبُرٌ في الحرب ، صُدُقٌ في اللقاء . .

« ولعلَّ الله يُرِيك منا ما تقرّ به عينك . .

« فَسِرْ بنا على بركة الله] . .

* * *

أهَلّتْ كلمات « سعد » كالْبُشْريَات ، وتألق وجه الرسول رضًا وسعادة وغبطة ؛ فقال للمسلمين :

[سيرُوا وأبشروا ، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين . . واللهِ . . . لكأني أنظرُ إلى مَصارع القوم] . .

* * *

وفي غزوة « أُحُد » وعندما تشتَّتَ المسلمون تحت وقع المباغتة الداهمة التي فاجأهم بها جيش المشركين ، لم تكن العين لتُخْطئ مكان « سعد بن معاذ » . .

لقد سَمَّر قدميه في الأرض بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يذود عنه ويدافع في استبسال هو له أهل ، وبه جدير ! !

* * *

وجاءت غزوة الخندق ، لتتجلّى رجولة « سعد » وبطولته تجلّيًا باهرًا ومجيدًا . .

وغزوة الخندق هذه ، آية بينة على المكايدة المريرة الغادرة التي كان المسلمون يُطارَدُون بها في غير هوادة ، من خصوم لا يعرفون في خصومتهم عدلا ولا ذِمَّة .

فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يحيَوْن بالمدينة في سلام يعبدون ربهم ، ويتواصَوْنَ بطاعته ، ويرجون أن تكُفَّ قريش عن إغاراتها وحروبها ، إذا فريق من زعماء اليهود يخرجون خِلْسَةً إلى مكةِ محرضين قريشًا على رسول الله ، وباذلين لها الوعود والعهود على أن يقفوا بجانب القرشيين إذا هم خرجوا لقتال المسلمين . . .

واتفقوا مع المشركين فعلا ، ووضعوا معًا خطة القتال والغزو . .

وفي طريقهم وهم راجعون إلى المدينة حَرَّضوا قبيلة من أكبر قبائل العرب ، هي قبيلة « غطفان » واتفقوا مع زعمائها على الانضمام لجيش قريش . .

وُضِعت خطة الحرب ، ووُزِّعت أدوارها . . فقريش وغطفان يهاجمان المدينة بجيش عَرَمرم كبير . .

واليهود يقومون بدور تخريبي داخل المدينة وحولها في الوقت الذي يباغتها فيه الجيش المهاجم . . ! !

ولما علم النبي عليه الصلاة والسلام بالمؤامرة الغادرة راح يُعِدُّ لها العدة . . فأمر بحفر خندق حول المدينة ليعوق زحف المهاجمين .

وأرسل سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة إلى « كعب بن أسد » زعيم

يهود بني قريظة ، ليتبيّنَا حقيقة موقف هؤلاء من الحرب المرتقبة ، وكان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين يهود بني قريظة عهود ومواثيق . .

فلما التَقى مبعوثا الرسول بزعيم بني قريظة فوجئا به يقول لهم :

« ليس بيننا وبين محمد عهد ولا عقد » . . ! !

* * *

عَزَّ على الرسول عليه الصلاة والسلام أن يتعرض أهل المدينة لهذا الغزو المُدَمْدِم ، والحصار المُنهِك ، ففكر في أن يعزل غطفان عن قريش ، فينقص الجيش المهاجم نصف عدده ، ونصف قوته ، وراح بالفعل يفاوض زعماء غطفان على أن ينفضوا أيديهم من هذه الحرب ، ولهم لقاء ذلك ثلث ثمار المدينة ، ورضي قادة غطفان ، ولم يبق إلّا أن يُسَجَّل الاتفاق في وثيقة ممهورة . .

وعند هذا المَدَى من المحاولة ، وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لم يَرَ من حقه أن ينفرد بالأمر ، فدعا إليه أصحابه – رضي الله عنهم – ليشاورهم . .

واهتم – عليه الصلاة والسلام – اهتمامًا خاصا برأي سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة . . فهما زعيما المدينة ، وهما بهذا أصحاب حق أوّل في مناقشة هذا الأمر ، واختيار موقف تجاهه . .

* * *

قصَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما حديث التفاوض الذي جرى بينه وبين زعماء غطفان . . وأنبأهما أنه إنما لجأ لهذه المحاولة ، رغبة منه في أن يبعد عن المدينة وأهلها هذا الهجوم الخطير ، والحصار الرهيب . .

وتقدم السَّعْدان إلى رسول الله بهذا السؤال :

[يا رسول الله . . .

أهذا رأي تختاره . أم وحي أمرك الله به] ؟ ؟

قال الرسول :

[بل أمر أختاره لكم . .

« والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالَبوكُم من كل جانب ؛ فأردتُ أن أكْسِرَ عنكم من شوكتهم إلى أمْرٍ مَّا] . .

وأحَسَّ « سعد بن مُعاذ » أن أقدارهم كرجال وكمؤمنين تواجِهُ امتحانًا . أيَّ امتحان . .

هنالك قال :

[يا رسول الله . . .

قد كنا نحن وهؤلاء على الشرك وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا من مدينتنا تمرة . إلّا قِرًى – أي كرمًا وضيافة – أو بيعًا . .

« أفحين أكرمنا الله بالإسلام . وهدانا له ، واعزنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا . . ؟ ؟

« والله مالنا بهذا من حاجة . .

« ووالله لا نعطيهم إلا السيف . . . حتى يحكم الله بيننا وبينهم] . . ! !

وعلى الفور ، عدلَ « الرسول » صلى الله عليه وسلم عن رأيه ، وأنبأ زعماء « غطفان » أن أصحابه رفضوا مشروع المفاوضة . وأنه أقرَّ رأيهم والتزم به . . .

* * *

وبعد أيام شهدت المدينة حصارًا رهيبًا . .

والحق أنه حصار اختارته هي لنفسها . أكثر مما كان مفروضًا عليها ، وذلك بسبب الخندق الذي حُفِر حولها ليكون جُنَّةً لها ووقاية . .

ولبس المسلمون لباس الحرب

وخرج « سعد بن معاذ » حاملا سيفه ورمحه وهو ينشد ويقول :

لَبِّثْ قليلا يشهَدِ الهيجا جَمَلْ ما أجْمَل الموتَ إذا حَانَ الأجل !

وفي إحدى الجولات تلقَّتْ ذراع « سعد » سهمًا وبيلا ، قذفه به أحد المشركين . .

وتفجَّرَ الدم من وريده وأُسْعِفَ سريعًا إسعافًا مؤقتًا يرقأُ به دمه ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يُحْمل إلى المسجد ، وأن تُنْصَب له به خيمة حتى يكون على قرب منه دائمًا أثناء تمريضه . .

وحمل المسلمون فتاهم العظيم إلى مكانه في مسجد الرسول . .

ورفع « سعد » بصره شَطْر السماء . وقال :

[اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبْقِني لها . .
فإنه لا قوم أحب إليَّ أن أجاهدهم من قوم آذَوا رسولك ، وكذبوه . وأخرجوه . . .

« وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فاجعل ما أصابني اليوم طريقًا للشهادة . . .

« ولا تمتني حتى تقرَّ عيني من بني قُرَيظة] . . ! !

* * *

لك الله يا سعد بن معاذ . . !

فمن ذا الذي يستطيع أن يقول مثل هذا القول ، في مثل هذا الموقف سواك . . . ؟ ؟

ولقد استجاب الله دعاءه . .

فكانت إصابته هذه طريقه إلى الشهادة ، إذ لقي ربه بعد شهر ، متأثرًا بجراحه . .

ولكنه لم يَمُت حتى شفي صدرًا من بني قريظة . .

ذلك أنه بعد أن يئست قريش من اقتحام « المدينة » ، ودبَّ في صفوف جيشها الهلع ، حمل الجميع متاعهم وسلاحهم . وعادوا مخذولين إلى « مكة » . . .

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّ تَرْك يهود بني قُرَيظة ، يفرضون على « المدينة » غدرهم كلما شاءوا ، أمر لم يعد من حقه أن يتسامح تجاهه . .

هنالك أمر أصحابه بالسير إلى « بني قريظة » . . .

وهناك حاصروهم خمسة وعشرين يوما . . .

ولما رأى هؤلاء ألَّا مَنْجَى لهم من المسلمين ، استسلموا . وتقدموا

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم برجاء أجابهم إليه ، وهو : أن يحكم فيهم « سعد بن معاذ » . . . وكان سعد حليفهم في الجاهلية . . .

* * *

أرسل النبي صلى الله عليه وسلم من أصحابه من جاءوا بسعد بن معاذ من مخيَّمه الذي كان يمّرض فيه بالمسجد . . .

جاء محمولاً على دابة ، وقد نال منه الإعياء والمرض . .

وقال له الرسول :

[يا سعد ، احكم في بني قريظة] . . .

وراح « سعد » يستعيد محاولات الغدر التي كان آخرها غزوة الخندق والتي كادت المدينة تهلك فيها بأهلها . .

وقال سعد :

[إني أرى أن يُقْتَل مُقَاتلوهم . .
وتُسْبَى ذراريهم . .
وتُقَسَّم أموالهم . . .] .

وهكذا لم يمت « سعد » حتى شُفي صدره من بني قريظة . . .

* * *

كان جُرح « سعد » يزداد خطره كل يوم ، بل كل ساعة . . .

وذات يوم ذهب رسول الله لعيادته ، فألْفَاه يعيش في لحظات الوداع فأخذ عليه السلام رأسه ووضعه في حجره ، وابتهل إلى الله قائلا :

[اللهم إنَّ سعدًا قد جاهد في سبيلك ، وصَدَّق رسولك

• قضى الذي عليه . فتَقَبَّل روحه بخير ما تقبَّلتَ به روحا] . . .
وهطلت كلمات النبي صلى الله عليه وسلم على الرُّوح المودِّعة بَرْدا وسلاما.
فحاول في جهد ، وفتح عينيه راجيًا أن يكون وجه رسول الله آخر ما تبصرانه في الحياة ، وقال :

[السلام عليك يا رسول الله . . .
أما إني لأشهد أنك رسول الله] . . .

وتَملّى النبي وجه سعد آنذاك وقال :

[هنيئًا لك أبا عمرو] . . .

* * *

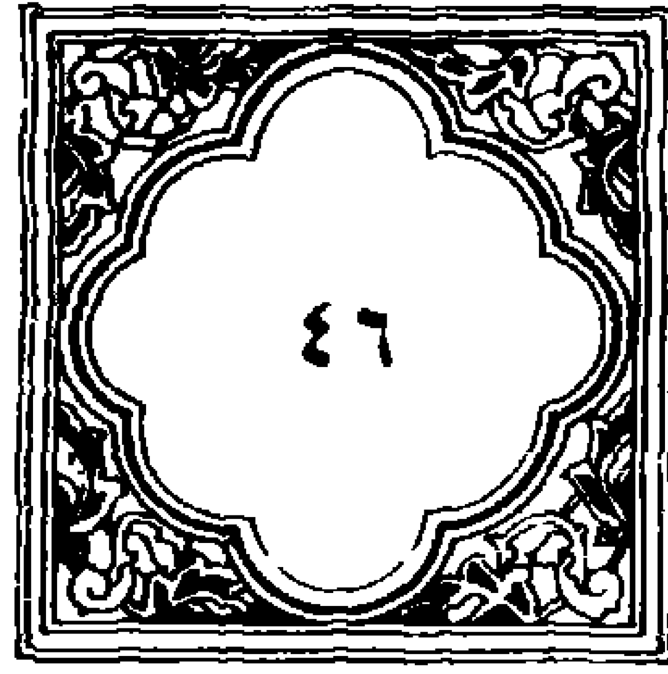
يقول « أبو سعيد الخدري » رضي الله عنه :

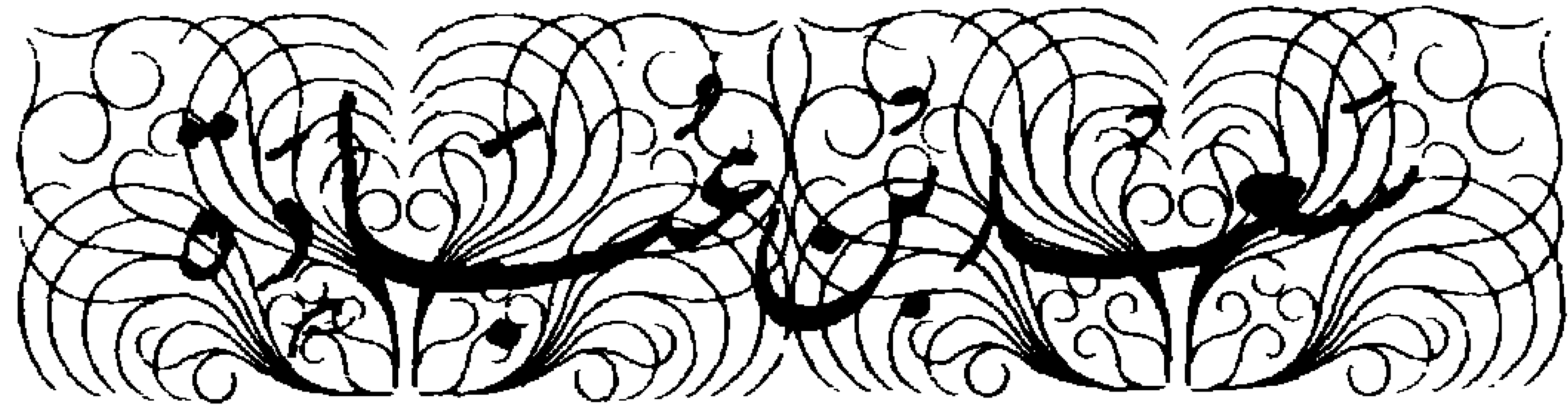
[كنت ممن حفروا لسعد قبره . . .
« وكنا كلما حفرنا طبقةً من ترابٍ ، شممنا ريح المِسْك . . .
حتى انتهينا إلى اللحْد] . . .

وكان مصاب المسلمين في « سعد » عظيما . . .

ولكن عزاءهم ، كان جليلا ، حين سمعوا رسولهم الكريم يقول :

[لقد اهتزَّ عرش الرحمن لموت سعد بن مُعاذ] . . .





حامل راية الأنصار



لا يُذكر سعد بن مُعاذ ، إلا ويُذكر معه سعد بن عُبادة . .

فالاثنان زعيما أهل المدينة . .

« سعد بن مُعاذ » زعيم الأوْس . .

و« سعد بن عُبادة » زعيم الخزرج . .

وكلاهما ، أسلم مُبَكِّرًا ، وشهد بيعة العقبة ، وعاش إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم جنديًا مطيعًا ، ومؤمنًا صدوقًا . .

ولعلَّ « سعد بن عُبادة » ينفرد بين الأنصار جميعًا بأنه حمل نصيبه من تعذيب قريش الذي كانت تنزله بالمسلمين في مكة . . ! !

لقد كان طبيعيًا أن تنال قريش بعذابها أولئك الذين يعيشون بين ظهرانيها ، ويقطنون مكة . .

أما أن يتعرض لهذا العذاب رجل من المدينة . . وهو ليس مجرد رجل . . بل زعيم كبير من زعمائها وسادتها ، فتلك مزيّة قُدِّر لابن عُبادة أن ينفرد بها . .

وذلك أنه بعد أن تمت بيعة العقبة سِرًّا ، وأصبح الأنصار يتهيأون للسفر ، علمت قريش بما كان من مبايعة الأنصار واتفاقهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الهجرة إلى المدينة حيث يقفون معه ومن ورائه ضد قوى الشرك والظلام . .

وجُنَّ جنون قريش ، فراحت تُطارد الركب المسافر حتى أدركت من

رجاله « سعد بن عُبادة » فأخذه المشركون ، وربطوا يديه إلى عُنُقه بشراك رحله وعادوا به إلى مكة ، حيث احتشدوا حوله يضربونه وينزلون به ما شاءوا من العذاب . . ! !

أَسَعْدُ بن عُبادة من يُصْنع به هذا . . ؟ ؟

زعيم المدينة ، الذي طالما أجار مستجيرهم ، وحمى تجارتهم ، وأكرم وفادتهم حين يذهب منهم إلى المدينة ذاهب . . ؟ ؟

لقد كان الذين اعتقلوه ، والذين ضربوه لا يعرفونه ولا يعرفون مكانته في قومه . .

ولكن ، أتُراهم كانوا تاركيه لو عرفوه . ؟ ؟

ألم ينالوا بتعذيبهم سادة مكة الذين أسلموا . . ؟ ؟

إن قريشًا في تلك الأيام كانت مجنونة ، ترى كل مقدرات جاهليتها تتهيأ للسقوط تحت معاول الحق ، فلم تعرف سوى إشفاء أحقادها نهجًا ، وسبيلا . .

أحاط المشركون – كما قلنا – بسعد بن عُبادة ضاربين ومعتدين . .

ولْندع سعدًا يحكي بقيَّة النبأ :

[. . . فوالله إني لفي أيديهم إذ طلع عليَّ نفر من قريش ، فيهم رجل وضيء ، أبيضُ ، شَعْشاع من الرجال . . .

« فقلت في نفسي : إن يَكُ عند أَحد من القوم خير ، فعند هذا . .

« فلما دنا مني رفع يده فلكَمني لكمة شديدة . .

« فقلتَ في نفسي : لا والله ، ما عندهم بعد هذا من خير . . ! !

« فواللهِ إني لفي أيديهم يسحبونني إذ أَوى إليَّ رجل ممن كان معهم . فقال :وَيْحَك ، أما بينك وبين أحد من قريش جِوار . . ؟

« قلت : بلى . . كُنتُ أُجِير لجبير بن مُطعم تُجَّاره ، وأمنعهم مِمَّن يريد ظلمهم ببلادي . وكُنتُ أُجِيرُ للحارث بن حرب ابن أُمَيَّة . .

« قال الرجل : فاهتف باسم الرجلين . واذكر ما بينك وبينهما من جوار . ففعلت . .

« وخرج الرجل إليهما . فأنبأهما أن رجلا من الخَزْرج يُضرب بالأبْطَح . وهو يهتف باسميهما ، ويذكر أَن بينه وبينهما جوارًا . .

« فسألاه عن اسمي . . فقال : سعد بن عُبادة . .

« فقالا : صدق واللهِ . وجاءا فخلَّصَاني من أيديهم] . .

غادر « سعد » مكة بعد هذا العدوان الذي صادفه في أوانه ، ليعلَم كم تتسلح قريش بالجريمة ضد قوم عُزَّل . يدعون إلى الخير ، والحق ، والسلام . .

ولقد شحذ هذا العدوان عزمه ، وقَرَّر أن يتفانى في نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم . والأصحاب . والإسلام . .

* * *

ويهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة .. ويُهاجر قبله أصحابه ...

وهُناك سَخَّر « سعد » أمواله لخدمة المهاجرين ..

كان « سعد » جوادًا بالفطرة وبالوراثة ..

فهو ابن عُبادة بن دُلَيْم بن حارثة الذي كانت شهرة جوده في الجاهلية أوسع من كل شهرة ..

ولقد صارَ جود « سعد » في الإسلام آية من آيات إيمانه القوي الوثيق ...

قال الرواة عن جوده هذا :

[كانت جَفْنة سعد تدور مع النبي صلى الله عليه وسلم في بيوته جميعًا] ..

وقالوا :

[كان الرجل من الأنصار ينطلق إلى داره ، بالواحد من المهاجرين ، أو بالاثنين ، أو بالثلاثة ..

« وكان سعد بن عُبادة ينطلق بالثمانين] .. ! !

من أجل هذا ، كان « سعد » يسأل ربه دائمًا المزيد من خيره ورزقه ..

وكان يقول :

[اللهم إنه لا يُصْلِحُني القليل ، ولا أَصلُح عليه] .. ! !

ومن أجل هذا ، كان خليقًا بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم له :

[اللهم اجعل صلواتِك ورحمتك على آل سعد بن عُبادة] . .

* * *

ولم يضع « سعد » ثروته وحدها في خدمة الإسلام الحنيف ، بل وضع قوته ومهارته . .

فقد كان يجيد الرمي إجادة فائقة . . وفي غزواته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت فدائيته حازمة حاسمة . .

يقول ابن عباس رضي الله عنهما :

[كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المواطن كلها رايتان . .

« مع عليّ بن أبي طالب ، راية المهاجرين . .

« ومع سعد بن عُبادة ، راية الأنصار] . .

* * *

ويبدو أَنَّ الشِّدَّة كانت طابع هذه الشخصية القوية . .

فهو شديد في الحق . .

وشديد في تشبُّثه بما يرى لنفسه من حق . .

وإذا اقتنع بأمر نهض لإعلانه في صراحة لا تعرف المداراة ، وتصميم لا يعرف المُسَايرة . .

وهذه الشِّدَّة ، أو هذا التطرُّف ، هو الذي دَفع الزعيم الأنصاري الكبير إلى مواقف كانت عليه أكثر مما كانت له . .

* * *

فيومَ فتح مكة ، جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم أميرًا على فَيْلَقٍ

من جيش المسلمين . .

ولم يكد يشارف أبواب البلَد الحرام حتى صاح :

[اليوم ، يومُ المَلْحَمة . .

اليوم ، تُسْتحلُّ الحُرْمَة] . .

وسمعها « عمر بن الخطاب » فسارع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً :

[يا رسول الله . .

« اسمع ما قال سعد بن عُبادة . .

« ما نأْمَنُ أَنْ يكون له في قريش صَوْلَة] . .

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم عليًّا كرَّم الله وجهه أن يدركه ، ويأخذ الراية منه ، ويتأمَّر مكانه . .

إن « سعدًا » حين رأى مكة مُذْعِنَةً مستسلمةً لجيش الإسلام الفاتح . . تذكَّر كل صور العذاب الذي صَبَّتْهُ على المؤمنين ، وعليه هو ، ذات يوم . .

وتذكَّر الحروب التي شنَّتها على قوم وُدَعاء . . كل ذنبهم أنهم يقولون : لا إله إلا الله ، فدفعته شِدَّتُه إلى الشماتة بقريش وتوعدها في يوم الفتح العظيم . .

* * *

وهذه الشِّدَّة نفسها ، أو قُل هذا التطرف الذي كان يُشكل جزءًا من طبيعة « سعد » ، هو الذي جعله يقف يوم السقيفة موقفه المعروف . .

فعلَى أَثَر وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، التف حوله جماعة من

الأنصار في سَقيفة « بني ساعدة » منادين بأن يكون خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار . .

كانت خلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم شرفًا لذويه في الدنيا والآخرة . . .

ومن ثَمَّ أراد هذا الفريق من الأنصار أن ينالوه ويظفروا به . .

لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد استخلف أبا بكر على الصلاة أثناء مرضه ، وفهم الصحابة من هذا الاستخلاف الذي كان مؤيدًا بمظاهر أخرى أضفاها رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي بكر . ثاني اثنين إذ هما في الغار . .

نقول : فهموا أن أبا بكر أحق بالخلافة من سواه . .

وهكذا تزعَّم « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه هذا الرأي واستمسك به . .بينما تزعَّم « سعد بن عُبادة » رضي الله عنه ، الرأي الآخر واستمسك به ، مما جعل كثيرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذون عليه هذا الموقف الذي كان موضع رَفْضهم واستنكارهم . .

* * *

ولكن « سعد بن عُبادة » بموقفه هذا ، كان يستجيب في صدق لطبيعته وسجاياه . .

فهو – كما ذكرنا – شديد التشبُّث باقتناعه ، ومُمعِن في الإصرار على صراحته ووضوحه . .

ويدلنا على هذه السَّجيَّة فيه ، موقفه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم بُعَيد غزوة « حُنَيْن » . .

فحين انتهى المسلمون من تلك الغزوة ظافرين ، راح رسول الله صلى الله عليه وسلم يُوَزِّع غنائمها على المسلمين . . واهتم يومئذ اهتمامًا خاصًّا بالمؤلَّفَةِ قلوبهم ، وهم أولئك الأشرافَ الذين دخلوا الإسلام من قريب ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يساعدهم على أنفسهم بهذا التألُّف ، كما أعطى ذوي الحاجة من المقاتلين . .

وأما أولُو الإسلام المكين ، فقد وكَلَهم إلى إسلامهم ، ولم يعطهم من غنائم هذه الغزوة شيئًا . .

كان عطاء رسول الله صلى الله عليه وسلم -مُجَرَّد عطائه- شرفًا يحرص عليه جميع الناس . .

وكانت غنائم الحرب قد أصبحت تُشكِّل دَخْلاً هامًا تقوم عليه معايش المسلمين . .

وهكذا تساءل الأنصار في مرارة : لماذا لم يعطهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حظهم من الفيئ والغنيمة . . ؟ ؟

وقال شاعرهم « حَسَّان بن ثابت » :

وَأْتِ الرسول فقل يا خيرَ مُؤْتَمَنٍ
للمؤمنين إذا ما عُدِّد البَشَــــرُ
علامَ تُدْعَى سُلَيْم ، وهي نَازِحَةٌ
قُدَّامَ قَوْمٍ ، هموا آوَوْا وهم نَصَرُوا
سَمَّاهُم اللهُ أَنصـــارًا بنصرهم
دين الهدى ، وعوانُ الحرب تَسْتَعِرُ

وســـارعوا في سبيلِ اللهِ واعترفوا

للنائبات ، وما خامُوا وما ضَجرُوا

ففي هذه الأبيات عبَّر شاعر الرسول والأنصار عن الحَرَج الذي أحَسَّه الأنصار ، إذ أعطى النبي صلى الله عليه وسلم من أعطى من الصحابة ، ولم يعطهم شيئًا . .

ورأى زعيم الأنصار « سعد بن عُبادة » . . وسمع قومه يتهامس بعضهم بهذا الأمر ، فلم يُرْضه هذا الموقف ، واستجاب لطبيعته الواضحة المُسْفِرَة الصريحة ، وذهبَ من فَوْره إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

[يا رسول الله . .

« إن هذا الحيَّ من الأنصار قد وَجَدُوا عليك في أنفسهم ؛ لما صَنَعْتَ في هذا الْفَيْءِ الذي أصَبْت . . .

« قَسَمْتَ في قومك ، وأَعطيت عطايا عِظامًا في قبائل العرب ، ولم يَكُ في هذا الحيِّ من الأنصار منها شيءٌ] . . .

هكذا قال الرجل الواضح كل ما في نفسه ، وكل ما في أَنْفُسِ قومه . . وأعطى الرسولَ صورة أمينة عن الموقف . .

وسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[وأين أنت من ذلك يا سعد] . . ؟ ؟

أي إذا كان هذا رأي قومك ، فما رأيك أنت . . ؟ ؟

فأجاب سعد بنفس الصراحة قائلاً :

[ما أنا إلّا من قومي] . .

هنالك قال له النبي : [إذن فاجمع لي قومك] . .

ولا بدَّ لنا من أن نتابع القصة إلى نهايتها ، فإن لها روعة لا تُقَاوَم . . !

جمع « سعد » قومه من الأنصار . . .

وجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فتملّى وجوههم الآسية . وابتسم ابتسامة متألقة بعرفان جميلهم وتقدير صنيعهم . .

ثم قال :

[يا مَعْشَر الأنصار . .

« ما قالَةٌ بلغتني عنكم ، وَجِدَةٌ وَجَدْتموها عَلَيَّ في أنفسكم . . ؟ ؟

« ألم آتِكُمْ ضُلّالاً فَهَدَاكُم الله . . ؟ ؟

« وعالَةً ، فأغناكم الله . . ؟ ؟

« وأَعداءً ، فَأَلَّفَ الله بين قلوبكم . . ؟ ؟

قالوا :

« بلَى ، الله ورسوله أَمَنُّ وأفضل . .

قال الرسول :

« ألا تجيبوني يا معشر الأنصار . . ؟ ؟

قالوا :

« بم نجيبك يا رسول الله . . . ؟ ؟

لله ولرسوله المَنُّ والفضل . . .

قال الرسول :

« أَمَا والله لو شئتم لقلتم ، فَلَصَدَقْتُم وَصُدِّقْتم :

« أتيتنا مُكَذَّبًا ، فَصَدَّقناك . .

« ومخذولاً ، فنصرناك . .

« وعائلاً ، فآسَيْنَاك . .

« وطريدًا ، فآويناك . .

« أَوَجَدْتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعَاعَةٍ من الدنيا تألَّفْتُ بها قومًا لِيُسْلموا ، ووكَلْتُكُمْ إلى إسلامكم . . ؟ ؟

« أَلَا تَرْضَوْنَ يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا أنتم برسول الله إلى رِحالِكم . . ؟ ؟

« فَوَالَّذِي نفسي بيده ، لولا الهجرة لَكنتُ امْرَءًا من الأنصار . . .

« ولو سلكَ الناسُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأنصار .

« اللهم ارحم الأنصار . .

وأبناء الأنصار . .

وأبناءَ أبناءِ الأنصار] . . ! !

هنالك بكى الأنصار حتى أَخْضَلُوا لحاهم . .

فقد ملأت كلمات الرسول الجليل العظيم أفئدتهم سلاما ، وأرواحهم ثراء ، وأنفسهم عافية . .

وصاحوا جميعا و « سعد بن عُبادة » معهم :

[رَضينا برسول الله قَسْمًا وحَظًّا] . . .

* * *

وفي الأيام الأولى من خلافة عمر ذهب سعد إلى أمير المؤمنين ، وبنفس صراحته المتطرفة قال له :

[كان صاحبك أبو بكر – والله – أحبَّ إلينا منك . . .

« وقد – والله – أصْبَحْتُ كارهًا لجِوَارك] . . ! !

وفي هدوء ، أجابه عمر :

[إنَّ من كَرِهَ جِوَار جاره ، تحَوَّلَ عنه] . . .

وعاد سعد فقال :

[إني متحوِّل إلى جِوَارِ من هو خير منك] . . ! !

* * *

ما كان « سعد » رضي الله عنه بكلماته هذه لأمير المؤمنين « عمر » يُنفِّس عن غيظ ، أو يُعبِّر عن كراهية . .

فإن مَنْ رضي رسول الله صلى الله عليه وسلم قَسْمًا وحظًّا ، لا يرفُض الولاء لرجل مثل عمر ، طالما رآه موضع تكريم الرسول وحبُه . .

إنما أراد « سعد » وهو واحد من الأصحاب الذين نعتهم القرآن بأنهم « رُحَمَاءُ بينهم » . .

أراد ألَّا ينتظر ظروفًا ، قد تطرأ بخلاف بينه وبين أمير المؤمنين ،

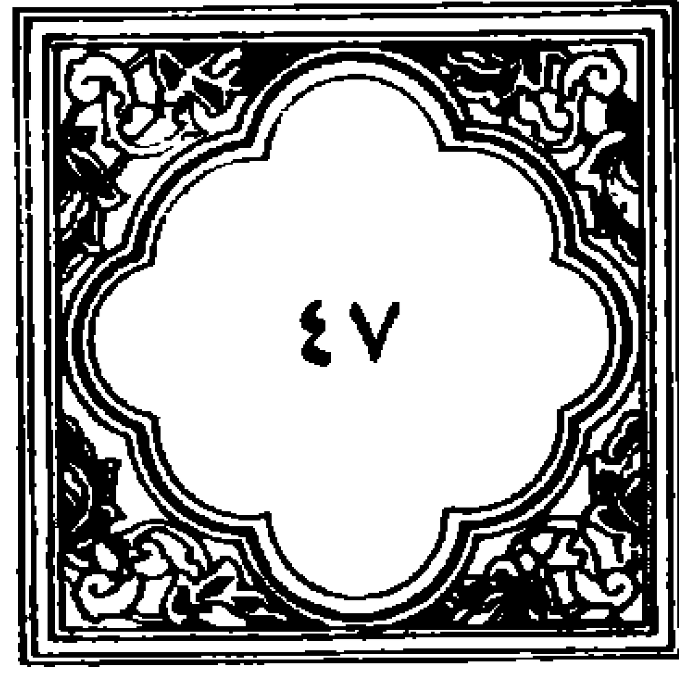
خلافٍ لا يريده ، ولا يَرضاه . .

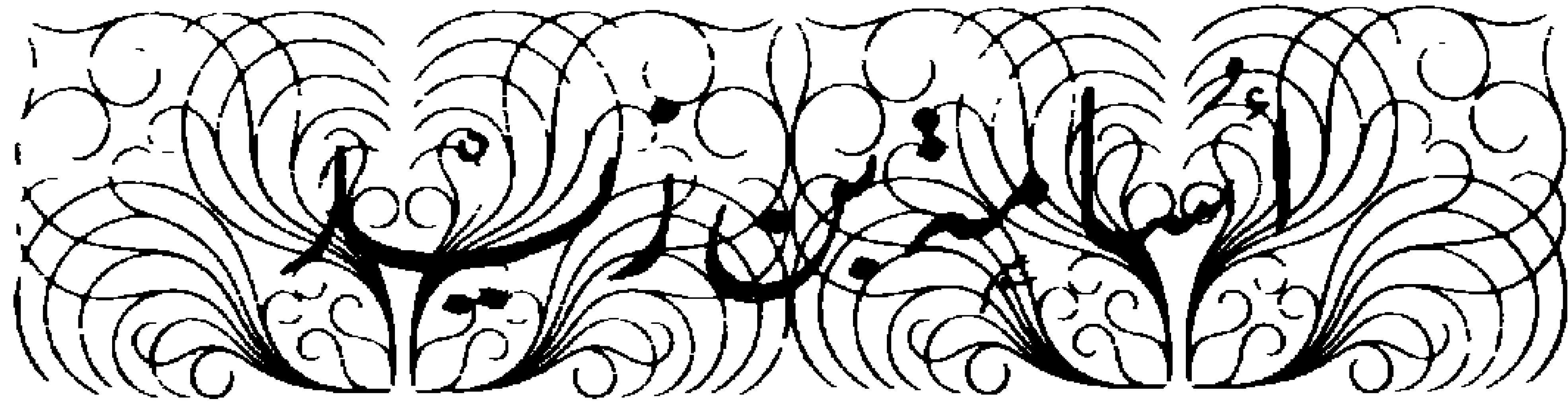
* * *

وشدَّ رحاله إلى الشام . . .

وما كاد يبلغها وينزل أرض « حُوران » حتى دعاه أَجَلُهُ ، وأفْضَى إلى جوار ربه الرحيم . . .







الحِبُّ بنُ الحِبّ



جلس أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه يقسم أموال بيت المال على المسلمين . .

وجاء دور عبد الله بن عمر ، فأعطاه « عمر » نصيبه .

ثم جاء دور « أُسامة بن زيد » ، فأعطاه « عمر » ضعف ما أعطى ولده عبدَ الله . .

وإذ كان « عمر » يعطي الناس وَفق فضلهم ، وبلائهم في الإسلام ، فقد خشيَ عبد الله بن عمر أن يكون مكانه في الإسلام آخرًا . وهو الذي يرجو بطاعته ، وبجهاده ، وبزهده ، وبورَعه ، أن يكون عند الله من السابقين . .

هنالك سأل أباه قائلا : « لقد فضَّلت عليَّ أُسامة . وقد شهدت مع رسول الله ما لم يشهد » . . ؟

فأجابه عمر :

[إن أسامة كان أحبَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك . . .

« وأبوه كان أحب إلى رسول الله من أبيك] . . !

فمن هذا الذي بَلغ هووأبوه من قلب الرسول وحُبّه ما لم يبلغه ابن عمر ، وما لم يبلغه عمر ذاته . . ؟ ؟

إنه « أُسامة بن زيد » . .

كان لقبه بين الصحابة : « الحِبّ بن الحِبّ » . .

أبوه « زيد بن حارثة »[1] خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي آثر الرسول على أبيه وأمه وأهله ، والذي وقف به النبي على جموع أصحابه يقول :

[أُشهدكم أن زيدًا هذا ابني ، يَرِثني وأَرِثُهُ] . . .

وظل اسمه بين المسلمين « زيد بن محمد » حتى أبطل القرآن الكريم عادة التبني . . .

أسامة هذا ، ابنه . . .

وأمه ، هي أم أيمن – مولاة رسول الله وحاضِنَتُه –

لم يكن شكله الخارجي يؤهله لشيء . . . أي شيء . . .

فهو كما يصفه الرواة والمؤرخون : « أسود ، أفطس » . . .

أجل . . . بهاتين الكلمتين ، لا أكثر ، يلخص التاريخ حديثه عن شكل أسامة . . ! !

ولكن ، متى كان الإسلام يعبأ بالأشكال الظاهرة للناس . . ؟

متى . . ورسوله هو الذي يقول :

[ألا رُبَّ أشعثَ ، أغبرَ ، ذي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ له ، لو أقسمَ عَلَى الله لأَبَرَّهُ] . . .

فلندع الشكل الخارجي لأسامة إذن . . .

---

(١) انظر ترجمته رضي الله عنه فيما مضى من الكتاب .

لِنَدَع بشرته السوداء ، وأنفه الأفطس ، فما لهذا كله في ميزان الإسلام مكان . . .

ولننظر ماذا كان في ولائه . . ؟ ماذا كان في افتدائه . . ؟

ماذا كان في عفته . . ؟ في استقامته . . ؟ في ورعه وإخباته . . ؟ في عظمة نفسه ، وامتلاء حياته . . . ؟ !

لقد بلغ من ذلك كله المدَى الذي هيَّأه لهذا الفيض من حب الرسول عليه الصلاة والسلام وتقديره :

[إن أسامةَ بن زيد لَمِنْ أحبِّ الناس إليَّ ، وإني لأرجو أن يكون من صالحيكم . فاستوصوا به خيرًا]

* * *

كان « أسامة » رضي الله عنه مالكا لكل الصفات العظيمة التي تجعله قريبًا من قلب الرسول . . وكبيرًا في عينيه . . .

فهو ابن مُسْلمين كريمين من أوائل المسلمين سَبْقًا إلى الإسلام ، ومن أكثرهم ولاء للرسول وقُرْبًا منه .

وهو من أبناء الإسلام الحنفاء الذين وُلِدُوا فيه ، وتلَقَّوْا رضعاتهم الأولى من فِطْرته النقية ، دون أن يدركهم من غبار الجاهلية المظلمة شيْ . . .

وهو - رضي الله عنه - على حداثة سنه ، مؤمن صُلْب ، ومسلم قوي . يحمل كل تبعات إيمانه ودينه . في ولاء مكين ، وعزيمة قاهرة . . .

وهو مُفْرط في ذكائه ، مفرط في تواضُعه ، ليس لتفانيه في سبيل الله ورسوله حدود . . .

ثم هو بعد هذا ، يمثل في الدين الجديد ، ضحايا الألوان الذين جاء الإسلام ليضع عنهم أوزار التفرقة وأوضارَها . . .

فهذا « الأسود الأفطس » يأخذ في قلب النبي ، وفي صفوف المسلمين مكانًا عليًا ؛ لأن الدين الذي ارتضاه الله لعباده قد صحح معايير الآدمية والأفضلية بين الناس ، فقال :

[إن أكْرَمَكُم عند الله أَتْقَاكُم] . . .

وهكذا رأينا الرسول عليه الصلاة والسلام يدخل مكة يوم الفتح العظيم ورديفه هذا الأسود الأفطس « أسامة بن زيد » .

ثم رأيناه يدخل الكعبة في أكثر ساعات الإسلام روعة ، وفوزًا . وعن يمينه ويساره بلال ، وأسامة . . . رجلان تكسوهما البشرة السوداء الداكنة ، ولكن كلمة الله التي يحملانها في قلبيهما الكبيرين الطاهرين أسْبغت عليهما كل الشرف ، وكل الرفعة . .

* * *

وفي سِنٍّ مبكِّرَة ، لم تجاوز العشرين ، أمَّرَ الرسول أسامة بن زيد على جيش ، بين أفراده وجنوده أبو بكر وعمر . . ! !

وسرت هَمْهمة بين نفر من المسلمين تعاظمهم الأمر ، واستكثروا على الفتى الشاب – أُسامة بن زيد – إمارة جيش فيه شيوخ الأنصار وكبار المهاجرين . . .

وبلغ همسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصعد المنبر ، وحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

[إن بعض الناس يطعنون في إمارة أسامة بن زيد . .

« ولقد طعنوا في إمارة أبيه من قبل . . .

« وإن كان أبوه لخليقًا للإمارة . . .

« وإن أسامة لخليقٌ لها . . .

« وإنه لمن أحبِّ الناس إليَّ بعد أبيه . . .

« وإني لأرجو أن يكون من صالحيكم . . .

« فاستوْصُوا به خيرًا] . . .

وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يتحرك الجيش إلى غايته ولكنه كان قد ترك وصيته الحكيمة لأصحابه :

[أنْفِذُوا بعثَ أسامة . . .

« أنفذوا بعث أسامة . . .]

وهكذا قدَّس الخليفة أبو بكر هذه الوصاة ، وعلى الرغم من الظروف الجديدة التي خلفتها وفاة الرسول . فإن الصِّدِّيق أصرَّ عَلَى إنجاز وصيته وأمره . فتحرك جيش أسامة إلى غايته . بعد أن استأذنه الخليفة في أن يَدَعَ له « عمر » ليبقى إلى جواره بالمدينة .

وبينما كان امبراطور الروم « هرقل » يتلقى خبر وفاة الرسول ، تلقى في نفس الوقت خبر الجيش الذي يغير على تخوم الشام بقيادة أسامة بن زيد ، فحيَّره أن يكون المسلمون من القوة بحيث لا يؤثر موت رسولهم في خططهم ومقدرتهم .

وهكذا انكمش الروم ، ولم يعودوا يتخذون من حدود الشام نُقَط وُثوب على مهد الإسلام في الجزيرة العربية .

وعاد الجيش بلا ضحايا . . . وقال عنه المسلمون يومئذ :

[ما رأينا جيشًا أسلم من جيش أسامة] . . ! !

* * *

وذاتَ يوم تَلقَّى أُسامة من رسول الله درسَ حياته . . درسًا بليغًا ، عاشه أُسامة ، وعاشَتْه حياته كلها منذ غادرهم الرسول إلى الرفيق الأعلى - إلى أن لقي أُسامة ربه في أواخر خلافة مُعاوية .

قبل وفاة الرسول بعامين بعثه عليه السلام أميرًا على سَرِيَّة خرجت للقاء بعض المشركين الذين يناوئون الإسلام والمسلمين .

وكانت تلك أول إمارة يتولاها « أُسامة » . .

ولقد أحرز في مهمته النجاح والفوز ، وسبقته أنباء فوزه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ففرح بها وسُرّ.

ولنستمع لأسامة يروي لنا بقية النبأ :

[. . . فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد أتاه البشير بالفتح ، فإذا هو مُتَهَلّلٌ وجهُه . . فأدْناني منه ثم قال : حَدِّثني . . .

« فجعلت أحدثه . . وذكرتُ له أنه لما انهزم القوم أدركت رجلا وأهويتُ إليه بالرمح ، فقال : لا إله إلا الله فطعنته فقتلتُه .

« فتغيَّر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

« وَيْحَكَ يا أُسامة . . !

فكَيفَ لك بلا إله إلا الله . . ؟

« وَيْحَكَ يا أُسامة . . ؟

فكيف لك بلا إله إلا الله . . ؟

« فلم يَزَلْ يُرددها عليَّ حتى لَوددتُ أني انسَلَختُ من كل عمل عملتُه . واستقبلتُ الإسلام يومئذ من جديد .

« فلا والله ، لا أقاتل أحدًا قال لا إله إلا الله بعد ما سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم] .

* * *

هذا هو الدرس العظيم الذي وجَّه حياة أُسامة الحبيب بن الحبيب منذ سمعه من رسول الله إلى أن رحل عن الدنيا راضيًا مَرْضيًا .

وإنه لَدرْسٌ بليغ .

درس يكشف عن إنسانية الرسول ، وعدله ، وسُمُوِّ مبادئه ، وعظمة دينه وخُلُقه . .

فهذا الرجل الذي أسِفَ النبي لمقتله ، وأنكَر على « أُسامة » قتلَه ، كان مشركا ومُحاربًا . .

وهو حين قال : لا إله إلا الله . . قالها والسيف في يمينه ، تتعلق به مُزَعُ اللحم التي نهشها من أجساد المسلمين . . قالها لينجو بها من ضربة قاتلة ، أو ليهيئ لنفسه فرصة يغير فيها اتجاهه ثم يعاود القتال من جديد . .

ومع هذا ، فلأنَّه قالها ، وتحرَّك بها لسانه ، يصير دمُه حرامًا وحياته آمنة ، في نفس اللحظة ، ولنفس السَّبب . . ! !

مهما تكن طَوِيَّتُه ، وسريرتُه ونواياه . .

وَوعَى « أسامة » الدرس إلى مُنتهاه . .

فإذا كان هذا الرجل ، في هذا الموقف ، ينهى الرسول عن قتله لمجرد أنه قال : لا إله إلا الله . . فكيف بالذين هم مؤمنون حقًّا ، ومسلمون حقًّا . . ؟

وهكذا رأيناه عندما نشبت الفتنة الكبرى بين الإمام علي وأنصاره من جانب ، ومعاوية وأنصاره من جانب آخر ، يلتزم حيادًا مطلقًا .

كان يحب « عليًّا » أكثر الحب ، وكان يبصر الحق في جانبه . . ولكن كيف يقتل بسيفه مسلما يؤمن بالله وبرسُله ، وهو الذي لامَه الرسول لقتله مشركا محاربًا قال في لحظة انكساره وهروبه : لا إله إلا الله . . ؟ ؟ !

هنالك أرسل إلى الإمام « عَلَيٍّ » رسالة قال فيها :

« إنك لو كُنتَ في شِدْق الأسَد ،

لأحببتُ أن أدخل معك فيه .

« ولكن هذا أمرٌ لم أرَه » . . ! !

ولَزم داره طوال هذا النزاع وتلك الحرب . .

وحين جاءه بعض أصحابه يناقشونه في موقفه قال لهم :

[لا أُقاتل أحدًا يقول لا إله إلا الله أبدًا] .

قال أحدهم له : ألم يقل الله : — « وقاتِلوهُم حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكونَ الدين كُلُّهُ لله » . . ؟ ؟

فأجابهم أسامة قائلا :

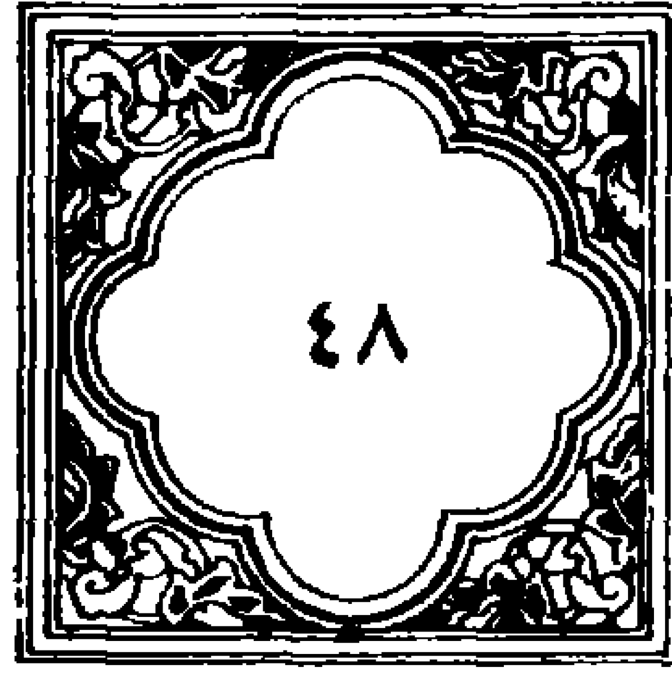
[أولئك هم المشركون ، ولقد قاتَلْناهم حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله] . .

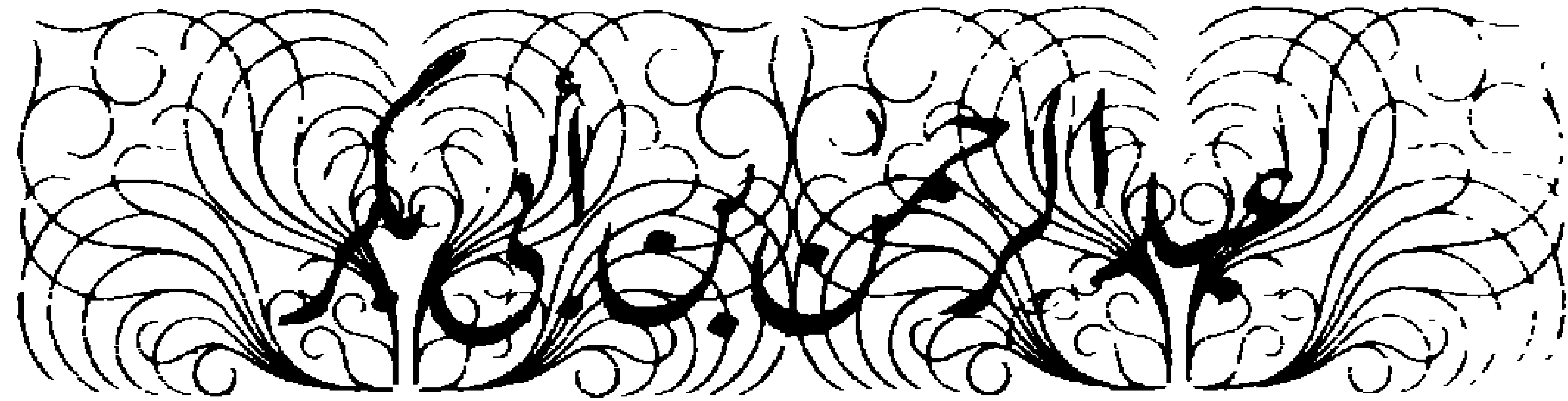
* * *

وفي العام الرابع والخمسين من الهجرة . . اشتاق « أسامة » للقاء الله .

وتملْملت روحه بين جوانحه ، تريد أن ترجع إلى وطنها الأول . .

وتفتحت أبواب الجنان ، لتستقبل واحدًا من الأبرار المتقين .





بطل حتى النهاية



هو صورة مُبينة للخلق العربي بكل أعماقه . وأبْعاده . .

فبينما كان أبوه أوَّلَ المؤمنين . . والصِّدِّيق الذي آمن بالله وبرسوله إيمانًا ليس من طرازه سواه . . وثانيَ اثنين إذْ هُما في الغار . كان هو صامدًا كالصخر مع دين قومه . وأصنام قريش . . ! !

وفي غزوة بَدر . خرج مقاتلا مع جيش المشركين . .

وفي غزوة أُحد كان كذلك على رأس الرّماة الذين جندتهم قريش لمعركتها مع المسلمين . .

وقبل أن يلتحم الجيشان . بدأت كالعادة جولةُ المبارزَة . .

ووقف « عبد الرحمن » يدعو إليه من المسلمين مَن يُبارِز . .

ونهض أبوه . . . « أبو بكر الصديق » رضي الله عنه مندفعا نحوه ليبارِزه . . لكن الرسول أمْسكَ به . وحال بينه وبين مُبارزةِ ولده .

* * *

إن العربي الأصيل لا يميزه شيء مثلما يميزه ولاؤه المطلق لاقتناعه . .

إذا اقتنع بدين . أو بفكرة استعبده اقتناعه . ولم يعد للفِكاك منه سبيل . اللهمَّ إلا إذا أزاحه عن مكانه اقتناع جديد يملأ عقله ونفسه بلا زيف . وبلا خداع .

فعلى الرغم من إجلال عبد الرحمن أباه ، وثقته الكاملة برجاحة عقله . وعظمة نفسه وخُلُقه . فإن ولاءه لاقتناعه بقي فارضًا سيادته عليه .

ولم يُغْرِه إسلام أبيه باتباعه .

وهكذا بقي واقفًا مكانه ، حاملا مسئولية اقتناعه وعقيدته ، يذود عن آلهة قريش ، ويقاتل تحت لوائها قتال المؤمنين المستميتين . .

والأقوياء الأُصَلاء من هذا الطراز ، لا يخفى عليهم الحق وإنْ طال المدى . . .

فأصالة جوهرهم ، ونورُوضوحهم وإخلاصهم ، يهديانهم إلى الصواب آخر الأمر ، ويجمعانهم مع الهدى والخير .

ولقد دقت ساعة الأقدار يومًا ، مُعلنة ميلادًا جديدًا لعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق . .

لقد أضاءت مصابيح الهُدى نفسه فكنَست منها كل ما ورَّثته الجاهلية من ظلام وزيْف . ورأى اللهَ الواحد الأحَد في كل ما حوله من كائنات وأشياء ، وغرست هداية الله ظِلّها في نفسه ورُوعه ، فإذا هو من المسلمين . . ! !

ومن فَوْره نَهض مُسافرًا إلى رسول الله ، أوّابا إلى دينه الحق .

وتألق وجه أبي بكر تحت ضوء الغبطة وهو يبصر ولده يُبايع رسول الله .

لقد كان في كفره رجلا . . وها هوذا يُسْلِم اليوم إسلام الرجال . فلا طمع يدفعه ، ولا خوف يسوقه . . . إنما هو اقتناع رشيد سديد أفاءته عليه هِدَاية الله وتوفيقه .

وانطلق عبد الرحمن يعوض ما فاته ببذل أقصى الجهد في سبيل الله ،

ورسوله ، والمؤمنين . .

* * *

في أيام الرسول عليه صلاة الله وسلامه ، وفي أيام خلفائه من بعده ، لم يتخلف عبد الرحمن عن غزوولم يقعد عن جهاد مشروع . . .

ولقد كان له يوم اليمامة بلاء عظيم ، وكان لثباته واستبساله دور كبير في كسب المعركة من جيش مسيلمة والمرتدِّين . . بل إنه هو الذي أجهز على حياة « محكم بن الطفيل » ، الذي كان العقل المدبر لمسيلمة ، كما كان يحمي بقوته أهم مواطن الحصن الذي تحصَّن جيش الردة في داخله ، فلما سقط « محكم » بضربة من عبد الرحمن ، وتشتت الذين حوله ، انفتح في الحصن مُدخل واسع كبير تدفقت منه مقـــــاتلة المسلمين . . .

وازدادت خصال عبد الرحمن في ظل الإسلام مضاءًا وصقلا . .

فولاؤه لاقتناعه ، وتصميمه المطلق على اتباع ما يراه صوابا وحقًا ، ورفضه المداجاة والمداهنة . .

كل هذا الخلق ظل جوهر شخصيته وجوهر حياته ، لم يتخل عنه قط تحت إغراء رغبة ، أو تأثير رهبة ، حتى في ذلك اليوم الرهيب ، يوم قرر معاوية أن يأخذ البيعة ليزيد بحدِّ السيف . . فكتب إلى مروان عامله على المدينة كتاب البيعة ، وأمره أن يقرأه على المسلمين في المسجد . .

وفعل مروان ، ولم يكد يفرغ من قراءته حتى نهض عبد الرحمن بن أبي بكر ليحول الوجوم الذي ساد المسجد إلى احتجاج مسموع ومقاومة صادعة فقال :

[والله ما الخيارَ أردتم لأمة محمد . ولكنكُم تريدون أن تجعلوها هَرَقلِيَّة . . كلما مات هِرَقْلٌ قام هِرَقل] . . ! !

لقد رأى عبد الرحمن ساعتئذ كل الأخطار التي تنتظر الإسلام لو أنجز معاوية أمره هذا . وحوَّل الحكم في الإسلام من شُورَى تختار بها الأمة حاكمها ، إلى قيصرية أوكِسْروية تَفْرِضُ على الأمة بحكم الميلاد والصُّدْفة قيصرا وراء قيصر . . ! !

* * *

لم يكد عبد الرحمن يصرخ في وجه مروان بهذه الكلمات القوارع . حتى أيده فريق من المسلمين على رأسهم الحسين بن علي . وعبد الله بن الزبير . وعبد الله بن عمر . .

ولقد طرأت فيما بعد ظروف قاهرة اضطرت الحسين وابن الزبير ، وابن عمر رضي الله عنهم إلى الصمت تجاه هذه البيعة التي قرر معاوية أن يأخذها بالسيف . .

لكن عبد الرحمن بن أبي بكْر ظل يجهر ببطلان هذه البيعة ، وبعث إليه معاوية من يحمل مائة ألف درهم ، يريد أن يتَّألفَه بها ، فألقاها « ابن الصِّدِّيق » بعيدًا وقال لرسول معاوية :

[ارجع إليه وقل له : إن عبد الرحمن لا يبيع دينه بدنياه] . .

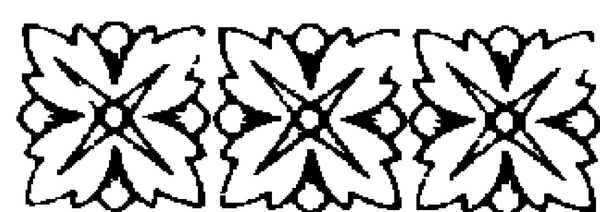
ولما علم بعد ذلك أن معاوية يشدُّ رِحاله قادمًا إلى المدينة غادرها من فوره إلى مكة . .

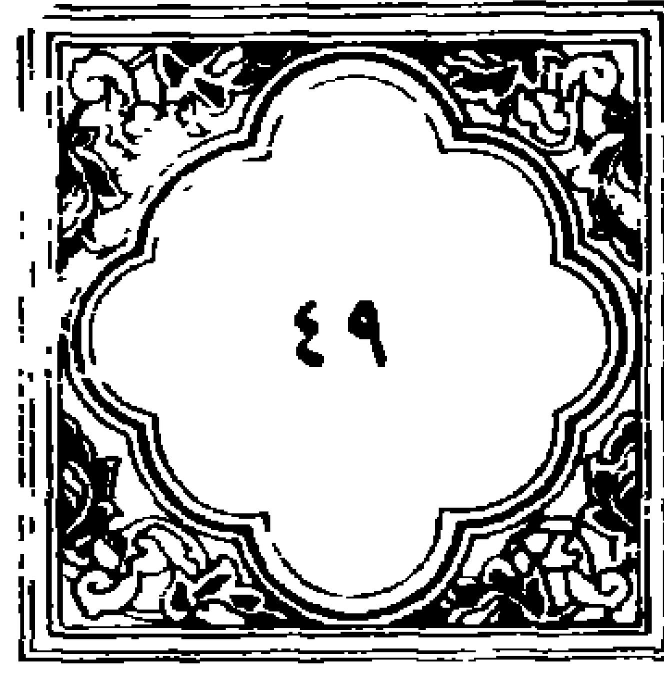
وأراد الله أن يكفيه فتنة هذا الموقف وسوء عُقْباه . . .

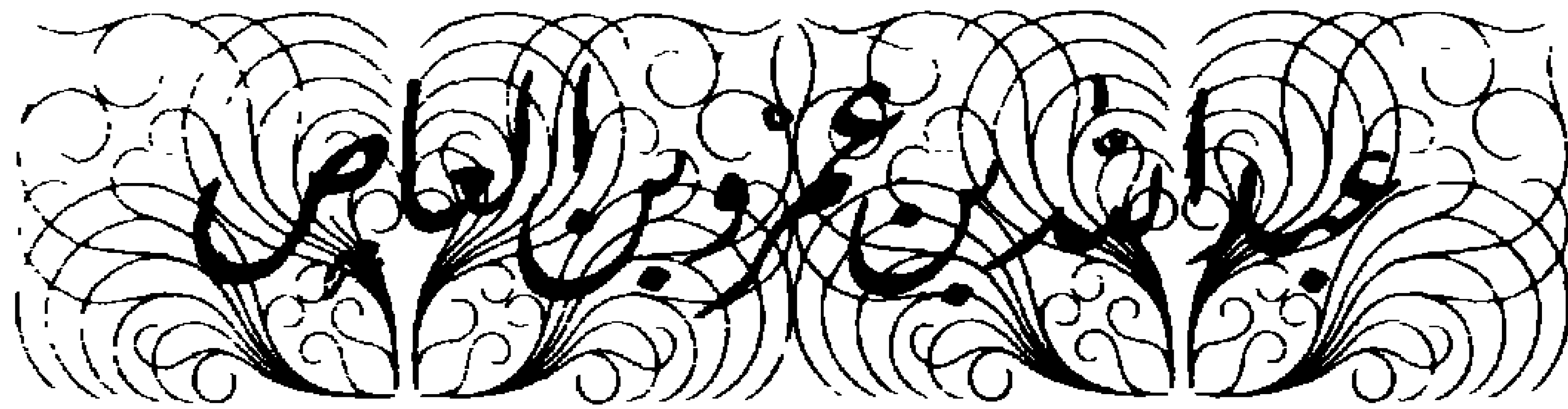
فلم يكْد يبلغ مشارف مكة ويستقر بها قليلا حتى فاضت إلى الله رُوحُه . . وحمله الرجال على الأعناق إلى أعالي مكة حيث دُفِن هناك ، تحت ثَرى الأرض التي شهدت جاهليته . .

وشهدت إسلامه . . ! !

وكان إسلامَ رَجُلٍ صادِقٍ ، حُرٍّ ، شُجاع . . .







القانت . الأوّاب



القانِتُ ، التائب ، العابدُ ، الأوَّاب ، الذي نستهل الحديث عنه لآن هو : عبد الله بن عمرو بن العاص . .

بقدر ما كان أبوه أستاذًا في الذكاء والدهاء وسعة الحيلة . . كان هو أستاذًا ذا مكانة عالية بين العابدين ، الزاهدين ، الواضحين . .

لقد أعطى العبادة وقته كله ، وحياته كلها . .

وثَمِلَ بحلاوَة الإيمان . فلم يعد الليل والنهار يتَّسعان لتعبُّده ونُسُكه . .

* * *

ولقد سَبَق أباه إلى الإسلام . ومُذ وضع يمينه في يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم مبايعًا . وقلبه مُضاءٌ كالصبح النضير بنور الله ونور طاعته . .

عكَف أولاً على القرآن الذي كان يتنزَّل مُنجَّما . فكان كلما نزلت منه آيات حفظها وفهمها . حتى إذا تمَّ واكْتمل ، كان لجميعه حافظًا . .

ولم يكن يحفظه ليكون مجرد ذاكرة قوية . تضمُّ بين دفتيها كتابا محفوظا . .

بل كان يحفظه ليعمر به قلبه . وليكون بعد هذا عبده المطيع . يُحلُّ ما أَحلَّ . ويُحرم ما حرّم . ويستجيب له في كل ما يدعو إليه ثم يعكف على قراءته . وتدبُّره . وترتيله . مُتأنقًا في روضاته اليانعات . محبور النفس بما تفيئه آياته الكريمة من غبطة . باكي العين مما تُثيره من

خَشية . . ! !

كان عبد الله قد خُلِقَ ليكون قدِّيسا عابدًا . ولا شيءَ في الدنيا كان قادرا على أن يشغله عن هذا الذي خُلِق له . وهُدِيَ إليه . .

إذا خرج جيش الإسلام إلى جهاد يلاقي فيه المشركين الذين يشنون عليه الحروب والعداوة ، وجدناه في مقدمة الصفوف يتمنى الشهادة بروح مُحِبّ ، وإلحاح عاشق . . ! !

فإذا وضعت الحرب أوزارها . فأين نراه . . ؟ ؟

هناك في المسجد الجامع ، أو في مسجد داره ، صائم نهاره ، قائمٌ ليله ، لا يعرف لسانه حديثًا من أحاديث الدنيا مهما يكن حلالا . إنما هو رَطْبٌ دائمًا بذكر الله . تاليًا قرآنه ، أو مسبحا بحمده . أو مستغفرًا لذنبه . .

وحسْبنا إدراكًا لأبعاد عبادته ونُسُكِه ، أن نرى الرسول الذي جاء يدعو الناس إلى عبادة الله ، يجد نفسه مضطرًا للتدخل كيما يحد من إيغال عبد الله في العبادة . . ! !

وهكذا ، إذا كان أحد وجهي العظة في حياة عبد الله بن عمرو ، الكشف عما تزخر به النفس الإنسانية من قدرة فائقة على بلوغ أقصى درجات التعبُّد والتجرُّد والصلاح ، فإن وجهها الآخر هو حرص الدين على القصد والاعتدال في نُشدان كل تفوُّق واكتمال ، حتى يبقى للنفس حماستها وأشواقها . .

وحتى تبقى للجسد عافيته وسلامته . . ! !

لقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عبد الله بن عمرو بن العاص

يقضي حياته على وتيرة واحدة . .

وما لم يكن هناك خروج في غزوة ، فإن أيامه كلها تتلخص في أنه من الفَجْر إلى الفجر في عبادة موصولة . . صيام وصلاة ، وتلاوة قرآن . . .

فاستدعاه النبي إليه ، وراح يدعوه إلى القَصْدِ في عبادته . .

قال له الرسول عليه السلام :

[أَلَمْ أُخْبَرْ أنك تصوم النهار ، لا تُفطر ، وتُصلّي الليل ، لا تنام . . ؟ ؟

« فـ سبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام . .

قال عبد الله :

« إني أطيق أكثر من ذلك . . .

قال النبي صلى الله عليه وسلم :

« فحسبك أ. تصوم من كل جمعة يومين . .

قال عبد الله :

« فإني أطيق أكثر من ذلك . .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« فهل لك إذن في خير الصيام ، صيام داود ، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا . . .

وعاد الرسول عليه الصلاة والسلام يسأله قائلاً :

« وعلمتُ أنك تجمع القرآن في ليلة

« وإني أخشى أن يطول بك العمر

وأن تملَّ قراءته . . ! !

« اقرأه في كل شهر مرة . .

اقرأه في كل عشرة أيام مرة . .

« اقرأه في كل ثلاثٍ مرة . .

ثم قال له :

« إني أصوم ، وأُفْطِر . .

« وأصليِّ ، وأنام . .

« وأتزوج النساء ، فمن رغِبَ

عن سُنّتي ، فليس مني »

ولقد عمَّر عبد الله بن عمرو طويلا . . ولما تقدمت به السن ووَهَن منه العظم كان يتذكر دائمًا نُصْحَ الرسول فيقول :

« يا ليتني قبلتُ رُخصة رسول الله » . .

* * *

إن مؤمنا من هذا الطرازِ ليصعُب العثور عليه في معركة – أيٍّ معركة – تدور رحاها بين جماعتين من المسلمين .

فكيف حملته ساقاه إذن من المدينة إلى « صِفّين » حيث أخذ مكانًا في جيش معاوية في صراعه مع الإمام علي . . ؟

الحق أن موقف عبد الله هذا ، جدير بالتدبّر ، بقدر ما سيكون بَعْدَ فهمنا له جديرًا بالتوقير والإجلال . .

رأينا كيف كان « عبد الله بن عمرو» مقبلا على العبادة إقبالا كاد يشكِّل خطرًا حقيقيًا على حياته – الأمر الذي كان يشغل بال أبيه دائمًا ، فيشكوه إلى رسول الله كثيرًا .

وفي المرة الأخيرة التي أمره الرسول فيها بالقصد في العبادة وحدَّد له مَواقيتَها كان عمرو حاضرًا ، فأخذ الرسول يد عبد الله ، ووضعها في يد عمرو بن العاص أبيه . . وقال له :

[افعل ما أمرتك ، وأطِعْ أباك] .

وعلى الرغم من أن عبد الله ، كان بدينه وبخلُقه ، مطيعًا لأبويه فقد كان أمر الرسول له ، بهذه الطريقة وفي هذه المناسبة ذا تأثير خاص على نفسه .

وعاش عبد الله بن عمرو عمره الطويل لا ينسى لحظة من نهار تلك العبارة الموجزة .

[افعل ما أمرتك ، وأطِعْ أباك] .

* * *

وتتابعت في موكب الزمن أعوام وأيام . .

ورفض معاوية بالشام أن يبايع عليًّا . .

ورفض عليٌّ أن يُذعِن لتمرد غير مشروع . .

وقامت الحرب بين طائفتين من المسلمين . . . ومضت « موقعة الجمَل » . . وجاءت « موقعة صِفّين » .

كان « عمرو بن العاص » قد اختار طريقه إلى جوار مُعاوية وكان

يدرك مدَى إجلال المسلمين لابنه « عبد الله » ومدَى ثقتهم في دينه ، فأراد أن يحمله على الخروج ليكسب جانب معاوية بذلك الخروج كثيرًا . . .

كذلك كان « عمرو » يتفاءل كثيرًا بوجود عبد الله إلى جواره في قتال ، وهو لا ينسى بلاءه معه في فتوح الشام ، ويوم اليرموك .

فحين همَّ بالخروج إلى « صِفِّين » دعاه إليه وقال له :

يا عبد الله : تهيَّأ للخروج ، فإنك ستقاتل معنا . .

وأجابه عبد الله :

« كيف . . ؟ وقد عهد إليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أضع سيفًا على عُنق مسلم أبدًا . . ؟ ؟

وحاول « عمرو » بدهائه إقناعَهُ بأنهم إنما يريدون بخروجهم هذا ان يَصلوا إلى قَتَلَةِ عثمان وأن يثأروا لدمه الزَّكيّ .

ثم ألقى مفاجأته الحاسمة قائلاً لولده :

[أتذكرُ يا عبد الله ، آخر عهدٍ عَهِدَه إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أخذ بيدك فوضعها في يدي وقال لك : أطِعْ أباك ؟ . .

« فإني أعزم عليك الآن أن تخرج معنا وتُقاتل » .

وخرج عبد الله بن عمرو طاعةً لأبيه . وفي عزمه ألا يحمل سيفًا ولا يقاتل مسلمًا . .

ولكن ، كيف يتمُّ له هذا . . ؟ ؟

حسبه الآن أن يخرج مع أبيه . . أما حين تكون المعركة فلله ساعتئذ أمر يقضيه . . !

ونَشِبَ القتال حاميًا ضاريًا . .

ويختلف المؤرخون فيما إذا كان عبد الله قد اشترك في بدايته أم لا . .

ونقول : بدايته . . لأن القتال لم يلبث إلا قليلا ، حتى وقعت واقعة جعلت « عبد الله بن عمرو » يأخذ مكانه جهارًا ضد الحرب ، وضدَّ معاوية . .

وذلك أن « عَمَّار بن ياسر[1] » كان يقاتل مع الإمام علي وكان « عمار » موضع إجلال مطلق من أصحاب الرسول . . وأكثر من هذا ، فقد تنبأ في يوم بعيد بمصرعه وبِقَتلَتِه .

كان ذلك والرسول وأصحابه يبنون مسجدهم بالمدينة إثْر هجرتهم اليها . . وكانت الأحجار عاتية ضخمة لا يطيق أشد الناس قوة أن يحمل منها أكثر من حجر واحد . . لكن « عمَّارًا » من فرط غبطته ونشوته ، راح يحمل حَجَرَيْن حَجَرين . وبَصُر به الرسول فتَملَّاه بعينين دامعتين وقال :

[وَيْحَ ابنَ سُمَيَّة ، تقتُله الفئَةُ الباغية]

سمع كل أصحاب الرسول المشتركين في البناء يومئذ هذه النبوءة ، ولا يزالون لها ذاكرِين .

وكان عبد الله بن عمرو أحد الذين سمعوا .

---

(١) سبقت ترجمته .

وفي بدء القتال بين جماعة عليّ وجماعة معاوية . كان « عمَّار » يصعد الروابي العالية ويُحرِّض بأعلى صوته ويصيح :

اليوم نَلْقى الأحِبَّة – محمدًا ، وصَحْبَه .

وتَواصَى بقتله جماعة من جيش معاوية . فسدَّدوا نحوه رَمْيَةً آثمة ، نَقلتْه إلى عالم الشهداء الأبرار .

وسرى النبأ كالريح أن « عَمَّارًا » قد قتل . .

وانتفض عبد الله بن عمرو ثائرًا مُهتاجًا :

– أوَ قد قُتِل عمار . . ؟ ؟

– وأنتم قاتِلوه . . ؟ ؟

– إذن . فأنتم الفِئَة الباغية .

– أنتم المقاتلون على ضلالة . ! !

وانطلق في جيش معاوية كالنذير ، يُثبط عزائمهم ، ويهتف فيهم أَنهم بُغاة ، لأنهم قتلوا عمارًا وقد تنبأ له الرسول منذ سبع وعشرين سنة على مَلأ من أصحابه بأنه ستقتله الفِئةُ الباغية . .

وحُملت مقالة عبد الله إلى معاوية ، ودعا عَمرا وولده عبد الله ، وقال لعمرو :

– [ألا تكُفَّ عنا مجنونكَ هذا . . ؟

قال عبد الله :

– [ما أنا بمجنون . ولكنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعمار : تقتُلك الفئة الباغية]

قال له معاوية :

[فلم خرَجْتَ معنا] . . ؟

قال عبد الله :

- [لِأَنّ رسول الله أمرني أن أطيع أبي . وقد أطعتُه في الخروج ، ولكني لا أقاتل معكم] .

وإذْ هما يتحاوران دخل على معاوية من يستأذن لقاتل عمـــار في الدخول ، فصاح عبد الله بن عمرو.

[ائذن له ، وبَشّرهُ بالنار] .

وأَفلَتَتْ مغايظ معاوية على الرغم من طول أناتِه ، وسعَةِ حِلمه ، وصاح بعمرو : « أَوَما تسمع ما يقول » . .

وعاد عبد الله في هدوء المتقين واطمئنانهم ، يؤكد لمعاوية أنه ما قال إلا الحق ، وأن الذين قتلوا عمَّارًا ليسُوا إلّا بُغاة . .

والتفت صَوْب أبيه وقال :

- [لولا أن رسول الله أمرني بطاعتك

ما سِرتُ معك هذا المَسير] . .

وخرج معاويةوعمرو يتفقدان جيشهما ، فرُوِّعا حين سمعوا الناس جميعًا يتحدثون عن نبوءة الرسول لعمار :

[تقتلُك الفِئة الباغية] .

وأحسَّ عمرو ومعاوية أن هذه الهمهمة تُوشك أن تتحول إلى نكوص عن معاوية وتمرُّد عليه . . ففكَّرا حتى وجدا حيلتهما التي مضيَا يَبُثَّانها في

الناس . .

قالا :

- [نعم . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمّار ذات يوم : تقتُلك الفِئَةُ الباغية . .

ونُبوءة رسول الله حق . .

وها هو ذا عمَّار قد قُتل . .

« فمن قَتَلهُ . . ؟ ؟

« إنما قَتَلهُ الذين خرَجوا به ، وحملوه معهم إلى القتال] . . ! ! !

وفي مثل هذا الهرج يمكن لأي منطق أن يروج ، وهكذا راج منطق معاوية وعمرو . .

وأستأنف الفريقان القتال . .

وعاد عبد الله بن عمرو إلى مسجده ، وعبادته . .

* * *

وعاش حياته لا يملؤها بغير مناسكه وتعبُّده . .

غير أن خروجه إلى « صِفِّين » مُجرَّد خروجه . ظلَّ مبعث قلق له على الدوام . . فكان لا تُلِمُّ به الذكرى حتى يبكي ويقول :

[مالي . ولِصِفِّين . . . ؟ ؟

« مالي . ولِقتال المسلمين] . . ؟ ؟

* * *

وذات يوم . وهو جالس في مسجد الرسول مع بعض أصحابه مرّ بهم « الحسين بن عليّ » رضي الله عنه ، فتبادلا السلام . . .

ولما مضى عنهم قال عبد الله لمن معه :

[أتحبون أن أخبركم بأحب أهل الأرض إلى أهل السماء . . ؟

« إنه هذا الذي مرَّ بنا الآن . . الحسين بن عليّ . .

« وإنه ما كلَّمني منذ صِفِّين . . .

« ولَأَنْ يرْضى عني . أَحبُّ إليّ من حْمر النَّعَم] . . ! !

واتفق مع أبي سعيد الْخُدْرِي على زيارة الحسين . .

وهناك في دار الحسين تمَّ لقاء الأكرمين . .

وبدأ عبد الله بن عمرو الحديث . فأتى على ذكر صِفِّين فسأله الحسين مُعاتبا :

[ما الذي حملَك عَلَى الخروج مع معاوية] . . ؟ ؟

قال عبد الله :

[ذات يوم شكاني عمرو بن العاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له :

« إن عبد الله يصوم النهار كله . ويقوم الليل كله . .

« فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يا عبد الله . صَلِّ ونم . . وصُمْ وأفطر . . وأَطِعْ أباك . .

« ولما كان يوم صفين أقسم عَلَيَّ أبي أن أخرج معهم ، فخرجت . . .

« ولكن ، والله ما اخترطتُ سيفًا . ولا طعنتُ برمح . ولا رَمَيْتُ بسهم] . . ! !

وبينما هو يتوقل الثانية والسبعين من عمره المبارك . .

وإذْ هو في مُصلَّاه ، يتضرَّع إلى ربه ، ويسبح بحمده . دُعي إلى رحلة الأبد ، فلبَّى الدعاء في شوق عظيم . .

وإلى إخوانه الذين سبقوه بالحسنى ، ذهبت روحه تسعى وتطير . .

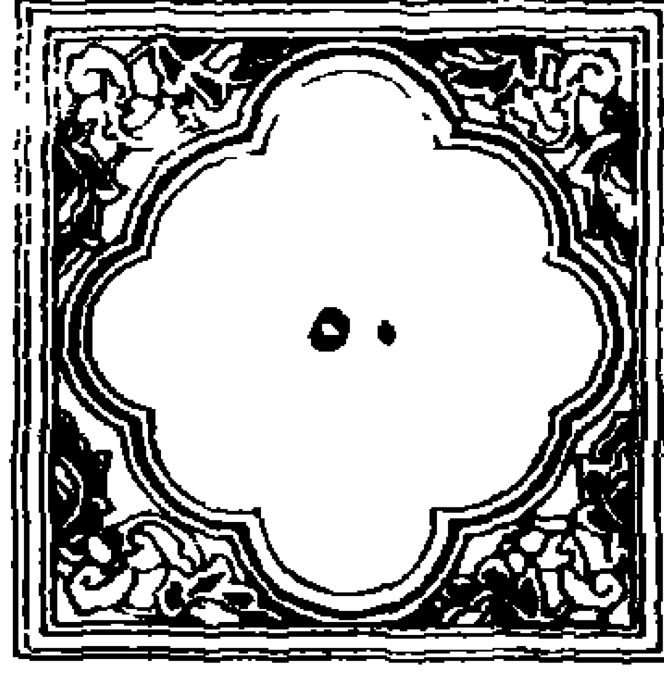
والبشير يدعوها من الرفيق الأعلى :

* يا أيتُهـــا النفسُ المُطْمَئِنَّة *

* اَرجِعي إلى ربك راضيةً مَرْضيَّة *

* فادْخُلي في عِبادي وادْخُلي جنتي *







مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّور



إنه أبو سفيان آخر . غير أبي سفيان بن حرب . .

وإن قصته ، هي قصة الهدى بعد الضلال . . والحب بعد الكراهية . . والسعادة بعد الشقوة . .

هي قصةُ رحمةِ الله الواسعة حين تفتح أبوابها للاجئ ألقى نفسه بين يدي الله بعد أن أضناه طول اللُّغوب . . ! !

تصوَّروا عشرين عاما قضاها « ابن الحارث » في عداوة موصولة للإسلام . . ! !

عشرون عاما ، منذ بُعِثَ النبي عليه السلام ، حتى اقترب يوم الفتح العظيم ، وأبو سفيان بن الحارث يشدُّ أزر قريش وحلفائها ، ويهجو الرسول بشعره ، ولا يكاد يتخلَّف عن حَشد تحشده قريش لقتال . . ! !

وكان إخوته الثلاثة : نوفل ، وربيعة ، وعبد الله . قد سبقوه إلى الإسلام . .

وأبو سفيان هذا ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ هو ابن الحارث بن عبد المُطلِب . .

ثم هو أخو النبي صلى الله عليه وسلم من الرضاعة ، إذ أرضَعَتْهُ حليمة السعدية مرضعة الرسول بضعة أيام . . .

وذات يوم نادته الأقدار لمصيره السعيد ، فنادى ولده « جعفرا » ، وقال لأهله : إنا مسافران . .

إلى أين يا ابن الحارث . . ؟ ؟

– إلى رسول الله لنسلم معه لله رب العالمين . .

ومضى يقطع الأرض بفرسه ويطويها طَيَّ التائبين . .

وعند الأبواء أبصر مُقدَّمة جيش لَجِب . وأدرك أنه الرسول قاصدا مكة ليفتحها . .

وفكَّر ماذا يصنع . . ؟ ؟

إن الرسول قد أهدَرَ دمه من طول ما حمل سيفه ولسانه ضد الإسلام . مقاتلاً وهاجيا . .

فإذا رآه أحد من الجيش . فَسيسارع إلى القصاص منه . .

وإن عليه أن يحتال للأمر حتى يلقي نفسه بين يدي رسول الله أولا . وقبل أن تقع عليه عين أحد من المسلمين . .

وتنكَّر أبو سفيان بن الحارث حتى أخفى معالِمَه ، وأخذ بيد ابنه جعفر ، وسارَ مشيا على الأقدام شوطًا طويلا ، حتى أبصر رسول الله قادما في كوكبة من أصحابه ، فتنحَّى حتى نزل الركب . .

وفجأة ألقى بنفسه أمام الرسول مُزيحا قِنَاعَهُ فعرفه الرسول . وحول وجهه عنه ، فأتاه أبو سفيان من الناحية الأخرى ، فأعرض النبي صلى الله عليه وسلم عنه . .

وصاح أبو سفيان وولده جعفر :

[نشهـــد ألّا إله إلا الله

ونشهد أن محمدا رسول الله] . .

واقترب من النبي صلى الله عليه وسلم قائلا :

[لا تثريب يا رسول الله] . .

وأجابه الرسول :

[لا تثريب يا أبا سفيان] . .

ثم أسلمه إلى علي بن أبي طالب ، وقال له :

[عَلِّم ابن عمك الوضوء والسنة ورُح به إليَّ] . .

وذهب به « علي » ثم رجع فقال له الرسول :

[نادِ في الناس أن رسول الله قد رضي عن أبي سفيان فارضوا عنه] . .

لحظة زمن ، يقول الله لها : كوني مُباركة ، فتطوي آمادًا وابعادًا من الشقوة والضلال ، وتفتح أبوابَ رحمةٍ ما لها حدود . . ! !

* * *

لقد كاد أبو سفيان يسلم ، بعد أن رأى في بدر وهو يقاتل مع قريش ما حيَّرَ لُبَّه . .

ففي تلك الغزوة تخلف أبو لهب وأرسل مكانه العاص بن هشام . .

وانتظر أبو لهب أخبار المعركة بفارغ صبره وبدأت الأنباء تأتي حاملة هزيمة قريش المنكرة . .

وذات يوم ، وأبو لهب مع نفر من القرشيين يجلسون عند زمزم ، إذ أبصروا فارسًا مقبلا فلما دنا منهم إذا هو : أبو سفيان بن الحارث . . ولم يمهله أبو لهب ، فناداه : « هَلُمَّ إليَّ يا ابن أخي . فعندك لَعمرِي الخبر . .

حدثنا كيف كان أمر الناس » ؟ ؟

قال أبو سفيان بن الحارث :

[والله ، ما هو إلا أن لقينا القوم حتى مَنَحْناهُم أكْتافَنا ، يقتلوننا كيف شاءوا ، ويأسروننا كيف شاءوا . . .

« وأيمُ الله ما لُمْتُ قريشًا . . فلقد لَقينا رجالا بيضًا عَلَى خيل بُلق ، بين السماء والأرض ، ما يشبهها شيءٌ ، ولا يقف أمامها شيءٌ] . . ! !

وأبو سفيان يريد بهذا أن الملائكة كانت تقاتل مع الرسول والمسلمين . .

فما بالُه لم يُسلم يومئذ وقد رأى ما رأى . . ؟ ؟

إن الشكَّ طريق اليقين ، وبقدر ما كانت شكوك أبي الحارث عنيدة وقوية ، فإن يقينه يوم يجيءُ سيكون صلْبًا قويا . .

ولقد جاء يومُ يقينه وهُداه . . وأسْلَمَ – كما رأينا – لله رب العالمين . .

* * *

ومن أولى لحظات إسلامه ، راح يسابق الزمان عابدًا ، ومجاهدًا ، ليمحو آثار ماضيه ، وليعوض خسائره فيه . .

خرج مع الرسول فيما تلا فتح مكة من غزوات . .

ويومَ حُنَين ، حيث نصب المشركون للمسلمين كمينًا خطيرا ، وانقضوا عليهم فجأة من حيث لا يحتسبون انقضاضًا ويبلا أطار صواب الجيش المسلم ، فولّى أكثر أجناده الأدبار وثبت الرسول مكانه ينادي :

[إليَّ أيهـــا الناس . . .

« أنا النبي لا كذب . . .

« أنا ابن عبد المُطَّلِب . . .]

في تلك اللحظات الرهيبة ، كانت هناك قلة لم تذهب بصوابها المفاجأة..

وكان منهم « أبو سفيان بن الحارث » وولده « جعفر » . .

لقد كان أبو سفيان يأخذ بلجام فرس الرسول ، وحين رأى ما رأى أدرك أن فرصته التي بحث عنها قد أهَلَّتْ . . تلك هي أن يقضي نحبه شهيدًا في سبيل الله ، وبين يَديْ رسوله . .

وراح يتشبث بِمقْوَدِ الفرس بيسراه ، ويُرسِل السيف في نحور المشركين بيمناه .

وعاد المسلمون إلى مكان المعركة حول نبيهم ، وكتب الله لهم النصر المبين . .

ولما انجلى غبارها . . نظر الرسول فوجد مؤمنًا يتشبَّث بمقود فرسه . .

إنه هو ، لا يزال مكانه منذ بدأت المعركة حتى انتهت ، وتَملَّاه الرسول ثم قال :

[مَنْ هذا . . ؟ ؟

« أخي أبو سفيان بن الحارث . . . ؟ ؟]

وما كاد أبو سفيان يسمع قول الرسول : « أخي » . . .

حتى طار فؤاده من الفرح والشرف ، فأكبَّ على قدمي الرسول يقبلهما ، ويغسلهما بدموعه . . .

وتحركت شاعريته فراح يغبط نفسه على ما أنعم الله عليه من شجاعة

وتوفيق :

لقد عَلِمتْ أفناءُ كعبٍ وعامر ... غَداةَ حُنَين حين عمَّ التضَعْضُع
بأني أخو الهيجاء، أَركبُ حدَّها ... أمام رسول الله لا أَتَتَعْتَعُ
رجاءَ ثوابِ الله ، والله راحمٌ ... إليه – تعالى – كُلُّ أَمرٍ سيرجع

* * *

وأقبل « أبو سفيان بن الحارث » على العبادة إقبالا عظيما ، وبعد رحيل الرسول عن الدنيا ، تعلقت روحه بالموت ليلحق برسول الله في الدار الآخرة . . وعاش ما عاش والموت أُمنية حياته . .

وذات يوم شاهده الناس في البقيع ، يحفر لحدًا ، ويسوِّيه ويهيئه . . فلما أبدوا دهشهم مما يصنع قال لهم :

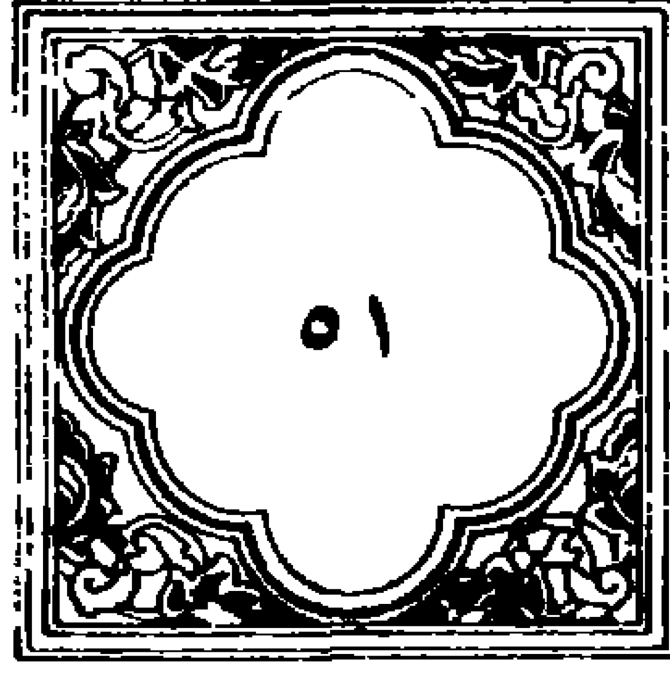
[إني أُعِدُّ قبري] . . .

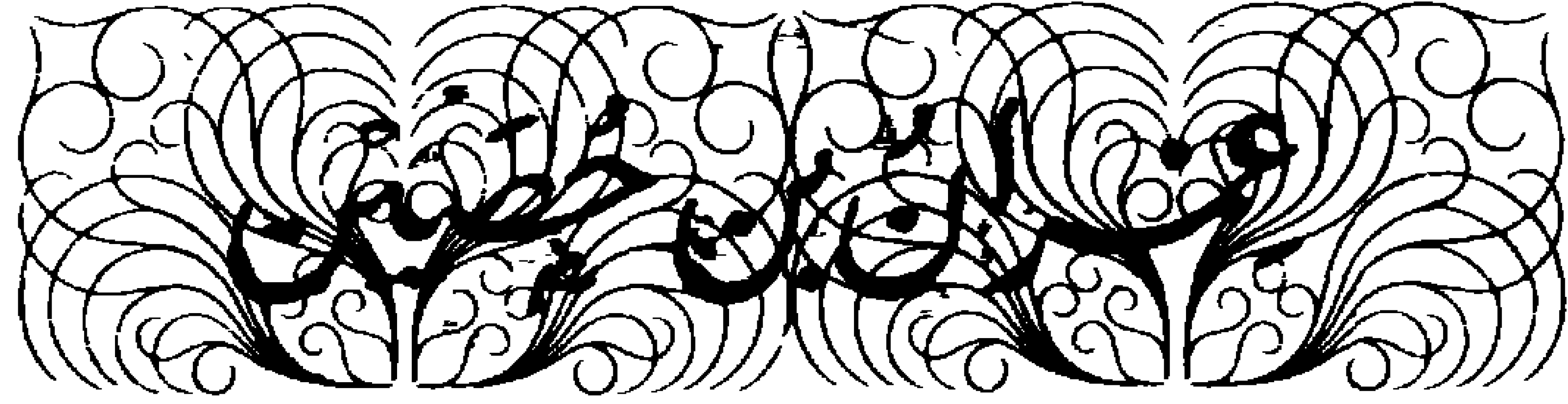
وبعد ثلاثة أيام لا غير ، كان راقداً في بيته ، وأهله من حوله يبكون . .

وفتح عينيه عليهم في طمأنينة سابغة وقال لهم :

[لا تبْكُوا عَلَيَّ ، فإني لم أَتَنطَّفْ بخطيئة منذ أَسلمت] . . ! !

وقبل أن يحني رأسه على صدره ، لوّح به إلى أعلى ، مُلقيا على الدنيا تحيَّة الوداع . . ! !





شبيه الملائكة !



عامَ خَيْبَرَ ، أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم مبايعا . .

ومنذ وضع يمينه في يمين الرسول أصبحت يده اليمنى موضع تكريم كبير . فآلى على نفسه ألا يستخدمها إلا في كل عمل طيب . وكريم . . .

هذه ظاهرة تنبئ عما يتمتع به صاحبها من حِسٍّ دقيق . .

* * *

و« عمران بن حصين » رضي الله عنه صورة رضيَّة من صور الصدق . والزهد . والورع . والتفاني في حب الله وطاعته . .

وإن معه من توفيق الله ونعمة الهدى لشيئًا كثيرًا ، ومع ذلك فهو لا يفتأ يبكي ، ويبكي ، ويقول :

[يا ليتني كُنتُ رمادا ، تَذْرُوه الرِّياح] . . . ! !

ذلك أن هؤلاء الرجال لم يكونوا يخافون الله بسبب ما يدركون من ذنب ، فقلما كانت لهم بعد إسلامهم ذنوب . .

إنما كانوا يخافونه ويخشونه بقدر إدراكهم لعظمته وجلاله . وبقدر إدراكهم لحقيقة عجزهم عن شكره وعبادته . مهما يَضْرعُوا . ويركَعُوا . ومهما يسجدوا . ويعبدوا . .

ولقد سأل أصحابُ الرسول يوما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا :

[يا رسول الله . ما لنا إذا كُنَّا عِندك رقَّتْ قلوبنا . وزهدنا

دنيانا . وكأننا نرى الآخرة رأي العين . . حتى إذا خرجنا من عندك . ولقينا أَهلَنا . وأولادنا . ودنيانا . أنْكَرْنا أنفُسنا . . ؟ ؟]

فأجابهم عليه السلام :

[والذي نفسي بيده . لو تدومون على حالكم عندي . لصافحَتْكم الملائكة عِيانًا . ولكنْ ساعةٌ . . وساعة . .]

وسمع « عمران بن حُصَيْن » هذا الحديث . فاشتعلت أشواقه . . وكأنما آلى على نفسه ألا يقعد دون تلك الغاية الجليلة ولو كَلَّفَتْهُ حياته . وكأنما لم تقنع هِمَّتُه بأن يحيا حياته ساعةً . . وساعة . . فأراد أن تكون كلها ساعة واحدة موصولة النجوى والتَّبَتُّل لله رب العالمين . . ! !

* * *

وفي خلافة أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » أرسله الخليفة الى البصرة لِيُفَقِّه أهلها ويعلمهم . . وفي البصرة حطّ رحاله . وأقبل عليه أهلها مُذْ عرفوه يتبركون به ، ويستضيئون بتقواه . .

قال الحسن البصري ، وابن سيرين :

[ما قَدِمَ البصرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أَحدٌ يَفضل عمران بن حُصَيْن . .]

كان « عمران » يرفض أن يشغله عن الله وعبادته شاغل ، واستغرق في العبادة ، واستوعَبَتْه العبادة حتى صاركأنه لا ينتمي إلى عالم الدنيا التي يعيش فوق أرضها وبين ناسِها . .

أَجَلْ . .

صار كأنه ملَك يحيا بين الملائكة ، يحادثهم ويحادثونه . . ويصافحهم ويصافحونه . . .

* * *

ولما وقع النزاع الكبير بين المسلمين . . بين فريق « علي » وفريق معاوية ، لم يقف « عمران بن حُصَيْن » موقف الحيدة فحسب ، بل راح يرفع صوته بين الناس داعيًا إياهم أن يكُفُّوا عن الاشتراك في تلك الحرب ، حاضِنًا قضيَّة السلام خير مُحْتضن . . وراح يقول للناس :

[لأن أَرْعَى أَعنزًا حَضَنيَّات في رأس جبَل حتى يدركني الموت ، أَحبُّ إليَّ من أَن أَرميَ في أَحدِ الفريقين بسهم ، أَخطأ ، أَم أَصاب] . .

وكان يوصي من يلقاه من المسلمين قائلا :

[الْزَمْ مسجدك . .

« فإن دُخِلَ عليك ، فالزم بيتك . .

فإن دَخَل عليك بيتك من يريد نفسك ومالك فقاتِلْه] . .

* * *

وحقق إيمان « عمران بن حصين » أعظم نجاح ، حين أصابه مرض مُوجع لبث معه ثلاثين عاما ، ما ضَجِرَ منه ولا قال : أُفٍّ . .

بل كان مثابرًا على عبادته قائمًا ، وقاعدًا ، وراقدًا . .

وكان إذا هوَّن عليه إخوانه وعُوَّاده أمْرَ عِلَّته بكلمات مشجعة ، ابتسم لهم وقال :

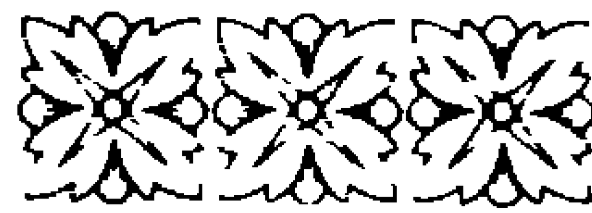
[إن أَحبَّ الأشياء إلى نفسي ، أَحبُّها إلى الله] . . ! !

وكانت وصيته لأهله وإخوانه حين أَدركه الموت :

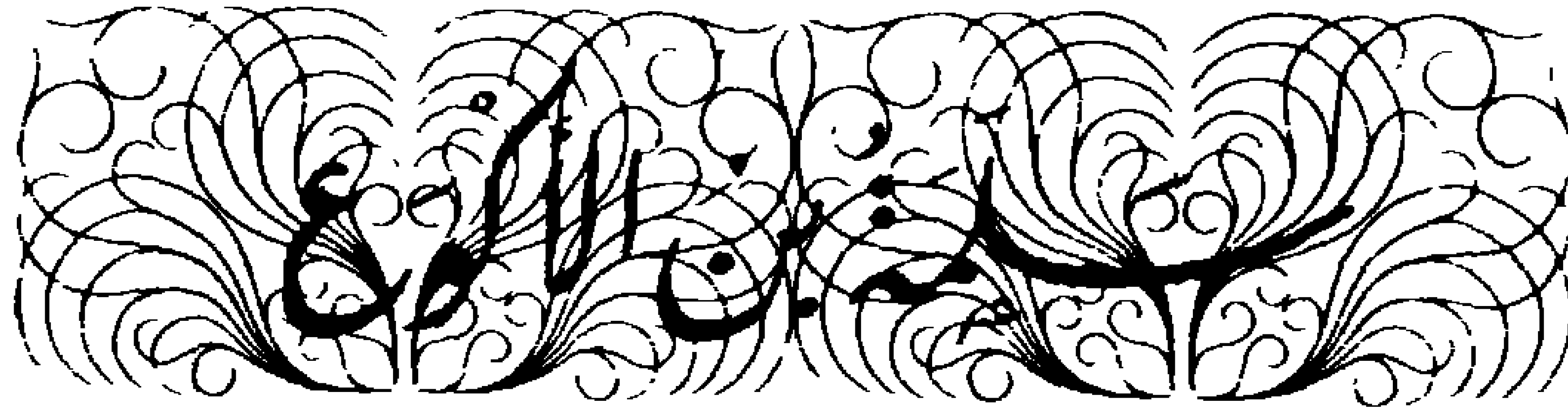
[إذا رجعتم من دَفني ، فانحَرُوا وأَطعموا] . .

* * *

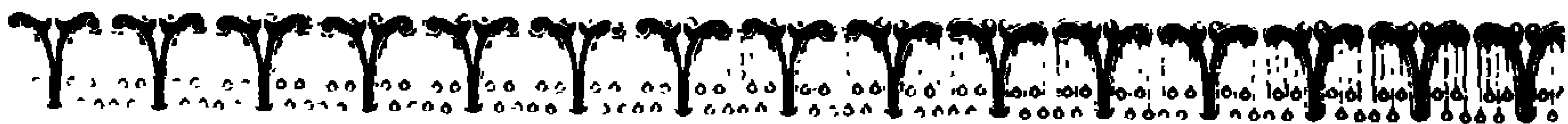
أجل . . لينحروا . وليطعموا . . فموت مؤمن مثل « عمران بن حصين » ليس موتًا . . إنما هو حفلُ زفافٍ عظيم . ومجيد ، تُزَفُّ فيه رُوحٌ عاليةٌ راضية إلى جنَّة عَرْضُها السموات والأرض أُعِدَّتْ للمتقين . . .







بطل المشاة ..



أراد ابنه « إياس » أن يُلَخّص فضائله في عبارة واحدة .

فقال :

[ما كَذَب أبي قَطّ] . . ! !

وحسْب إنسان أن يُحرز هذه الفضيلة ، ليأخذ مكانه العالي بين الأبرار والصالحين .

ولقد أحرزها « سلمَةُ بن الأكوع » وهو بها جدير .

كان سلمَة من رُماة العرب المعدودين ، وكان كذلك من المبرِّزين في الشجاعة والكرم وفِعل الخيرات .

وحين أسلم نفسَه للإسلام ، أسلمها صادقًا مُنيبًا ، فصاغَها الإسلام على نَسقِه العظيم .

وسلمَةُ بن الأكوع من أصحاب بيعة الرِّضوان .

* * *

حين خرج الرسول وأصحابه عام ست من الهجرة ، قاصدين زيارة البيت الحرام ، وتصدَّت لهم قريش تمنعهم .

أرسل النبي إليهم عثمان بن عفان ليخبرهم أن النبي جاء زائرًا ، لا مقاتلا . .

وفي انتظار عودة عثمان ، سرت إشاعة بأن « قُريشًا » قتلته ، وجلس

الرسول في ظلِّ الشجرة يتلقى بيعة أصحابه واحدًا واحدًا على الموت . .

يقول « سلَمَة » :

« بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت تحت الشجرة . ثمَّ تنحَّيْت . فلما خَفَّ الناس « قال : يا سلمة . مالك لا تبايع . . ؟ قلت : قد بَايَعْتُ يا رسول الله . قال : وأيْضًا . . فبايعته » .

ولقد وفىَّ بالبيعة خير وفاء .

بل وفىَّ بها قبل أن يعطيها . منذ شهد ألا إله إلا الله . وأن محمدًا رسول الله . .

يقول :

« غزوتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات ومع زيد بن حارثة تسع غزوات » .

* * *

كان سلمة من أمهر الذين يقاتلون مشاة . ويرمون بالنبال والرماح

وكانت طريقته تُشبه طريقة بعض حروب العصابات الكبيرة التي تتبع اليوم . . فكان إذا هاجمه عدوه تقهقَر دونه . فإذا أدبر العدو أو وقف يستريح . هاجمه في غير هوادة . . !

وبهذه الطريقة استطاع أن يطارد وحده . القوة التي أغارت على مشارف المدينة بقيادة عُيَينة بن حِصن الفِزاري في الغزوة المعروفة بغزوة « ذي قَرَد » . .

خرج في أثرهم وحده . وظَلَّ يقاتلهم ويراوغهم . ويبعدهم عن المدينة حتى أدركه الرسول في قوة وافرة من أصحابه . .

وفي هذا اليوم قال الرسول لأصحابه :

[خيرُ رَجَّالَتِنا – أي مُشاتِنا – سَلَمةُ بن الأكوع] ! !

* * *

ولم يعرف سلَمة الأسَى والجزَع إلا عند مصرع أخيه عامر بن الأكوع في حرب خَيْبر . .

وكان عامر يرتَجِزُ أمام جيش المسلمين هاتفًا :

لَاهُـمَّ لولا أنت ما اهتدَيْنا
ولا تصدَّقْنا . ولا صلَّيْنا
فأنْزِلَنْ سَكِينَـــةً علينـــا
وثبِّت الأقدامَ إن لاقَيْنـــا

في تلك المعركة ذهب « عامر » يضرب بسيفه أحد المشركين . فانثنى السيف في يده وأصابت ذُؤَابتُه منه مَقْتلا . . فقال بعض المسلمين :

– « مسكين عامر . حُرِمَ الشهادة » .

عندئذ – لا غير جَزع « سلمة » جزعا شديدا . حين ظَنَّ كما ظَنَّ غيره أن أخاه . وقد قتل نفسه خطأ . قد حُرِمَ أجر الجهاد . وثواب الشهادة .

لكن الرسول الرحيم . سرعان ما وضع الأمور في نصابها حين ذهب إليه سلمة وسأله قائلا :

- أصحيح يا رسول الله أن عامرًا حَبِطَ عملُه . . ؟

فأجابه الرسول عليه السلام :

[إنه قُتِلَ مجاهدًا

« وإن له لأجْرَيْن

« وإنه الآن لَيَسْبَحُ

« في أنهار الجنة » . . ! !

وكان « سَلمة » . . على جوده المفيض أكثر ما يكون جودًا إذا سُئِل بوجه الله . .

فلو أن إنسانًا سأله بوجه الله أن يمنحه حياته ، لما تردَّد في بَذلها .

ولقد عرف الناس منه ذلك ، فكان أحدهم إذا أراد أن يظفر منه بشيء قال له : أسألك بوجه الله . . وكان يقول :

[مَن لم يُعْطِ بوجه الله ، فَبِمَ يُعطي] . . ؟ ؟

* * *

ويوم قُتِل عثمان ، رضي الله عنه ، أدرك المجاهد الشجاع أن أبواب الفتنة قد فُتحت على المسلمين .

وما كان له وهو الذي قضى عمره يقاتل بين إخوانه أن يتحول إلى مقاتل ضد إخوانه . . !

أجل . . إن الرجل الذي حيَّا الرسولُ مهارته في قتال المشركين ليس من حقه أن يُقاتل بهذه المهارة مؤمنا ، أو يقتل بها مسلما . .

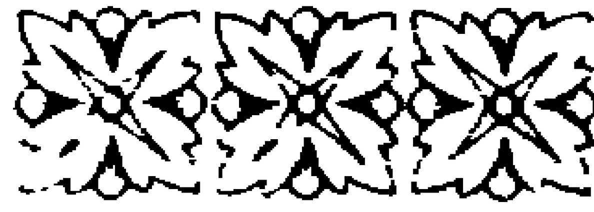
ومن ثَمَّ ، فقد حمل متاعه وغادر المدينة إلى الرَّبذَة . . نفس المكان

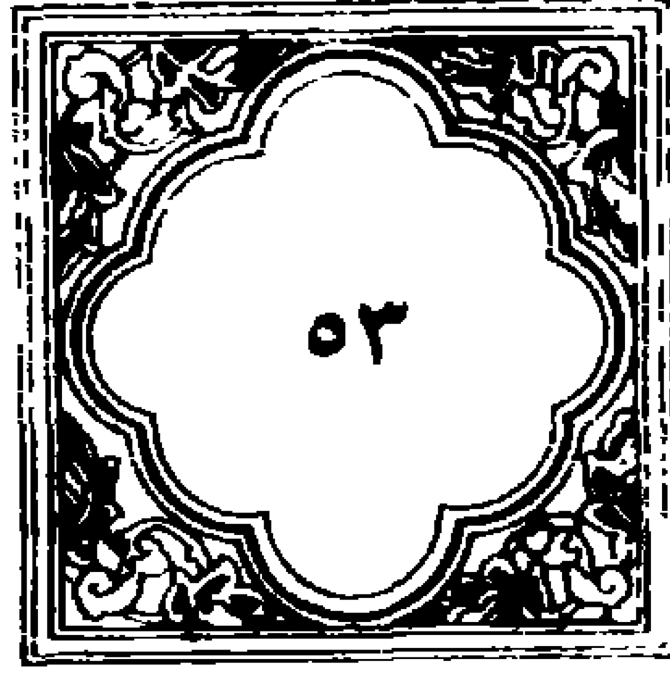
الذي اختاره « أبو ذَر» من قبل مُهاجَرًا له ، ومَصيرا .

وفي الرَّبذة عاش سلمة بقية حياته ، حتى كان يومٌ ، عام أربع وسبعين من الهجرة ، فأخذه الشوق إلى المدينة ، فسافر إليها زائرًا . . وقضى بها يومًا ، وثانيًا . .

وفي اليوم الثالث مات .

وهكذا ناداه ثَراها الحبيب الرطيب لِيضُمَّه تحت جوانحه ويُؤْوِيه مع من آوى قَبلَه من الرِّفاق المُباركين ، والشهداء الصَّالحين .







أَيّ رَجُلٍ.. وَأيّ شَهيد ؟!



كان جنينًا مُباركا في بطن أمه ، وهي تقطع الصحراء اللاهبة مغادرة مكة إلى المدينة على طريق الهجرة العظيم .

وهكذا قُدِّر لعبد الله بن الزبير أن يهاجر مع المهاجرين وهو لم يخرج إلى الدنيا بعد ، ولم تتشقَّق عنه الأرحام . . ! !

وما كادت أمه « أسماء » رضي الله عنها وأرضاها ، تبلغ « قباء » عند مشارف المدينة ، حتى جاءها المَخاض ونزل المُهاجر الجنين أرض المدينة في نفس الوقت الذي كان ينزلها المهاجرون من أصحاب رسول الله . . ! !

وحُمِلَ أول مولود في الهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في داره بالمدينة فقبَّله وحنَّكه ، وكان أول شيْ دخل جوف « عبد الله بن الزبير » ريق الرسول الكريم .

واحتشد المسلمون في المدينة ، وحملوا الوليد في مهده ، ثم طوَّفوا به في شوارع المدينة كلها مُهَلِّلين مكبّرين .

ذلك أن اليهود حين نزل الرسول وأصحابه المدينة كُبتوا واشتعلت أحقادهم ، وبدأوا حرب الأعصاب ضد المسلمين ، فأشاعوا أن كهنَتَهُم قد سَحروا المسلمين وسلَّطوا عليهم العقم ، فَلن تشهد المدينة منهم وليدًا جديدًا . .

فلما أهلَّ عبد الله بن الزبير عليهم من عالم الغيب ، كان وثيقةً دمَغ

بها القدَرُ إفكَ يهود المدينة وأبطَل بها كيدهُم وما يفترون . . ! !

إن « عبد الله » لم يبلغ مبلغ الرجال في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولكنه تلَقَّى من ذلك العهد ، ومن الرسول نفسه بحكم اتصاله الوثيق به ، كل « خامات » رجولته ومبادئ حياته التي سنراها فيما بعد ملء الدنيا وحديث الناس . . .

لقد راح الطفل ينمو نمُوًّا سريعا ، وكان خارقًا في حيويته ، وفطنته وصلابته . . .

وارتدى مرحلة الشباب ، فكان شبابُه طهرا ، وعِفَّةً ، ونُسْكا ، وبطولة تفوق الخيال . .

ومضى مع أيامه وقدَره ، لا تتغير خلائقه ، ولا تنبو به رغائبه . . إنما هو رجل يعرف طريقه ، ويقطعه بعزيمة جبارة ، وإيمان وثيـــق وعجيب . . .

* * *

وفي فتح إفريقية ، والأندلس ، والقسطنطينية . كان –وهو لم يجاوز السابعة والعشرين– بطلاً من أبطال الفتوح الخالدين . .

وفي معركة إفريقية بالذات وقف المسلمون في عشرين ألف جندي أمام عدو قوام جيشه مائة وعشرون ألفًا . .

ودار القتال ، وغَشِيَ المسلمين خطر عظيم . .

وألقى « عبد الله بن الزُّبَير » نظرة على قوات العدو فعرف مصدر قوتهم ، وما كان هذا المصدر سوى ملك البربر وقائد الجيش ، يصيح في جنوده ويحرضهم بطريقة تدفعهم إلى الموت دفعا عجيبا . .

وأدرك « عبد الله » أن المعركة الضارية لن يحسمها سوى سقوط هذا القائد العنيد . . .

ولكن أين السبيل إليه ، ودون بلوغه جيش لجِبٌ . يقاتـــــل كالإعصار . . ؟ ؟

بَيْدَ أنَّ جسارة « ابن الزبير » وإقدامه لم يكونا موضع تساؤل أبدًا . . ! !

هنالك نادى بعض إخوانه ، وقال لهم :

[احموا ظهري . واهجموا معي] . . .

وشق الصفوف المتلاحمة كالسهم صامدًا نحو القائد . حتى إذا بلَغه . هوَى عليه في كرَّة واحدة فهوَى . ثم استدار بمن معه إلى الجنود الذين كانوا يحيطون بملكهم وقائدهم فصرعوهم . . . ثم صاحوا : الله اكبر . . .

ورأى المسلمون رايتهم ترتفع هناك . حيث كان يقف قائد البربر يصدر أوامره ويحرض جيشه ، فأدركوا أنه النصر . فشدُّوا شَدَّة رجل واحد ، وانتهى كل شيء لصالح المسلمين . . .

وعلم قائد الجيش المسلم « عبد الله بن أبي سَرح » بالدور العظيم الذي قام به « ابن الزُّبَيْر » . فجعل مكافأته أن يحمل بنفسه بُشْرَى النصر إلى المدينة . وإلى خليفة المسلمين « عثمان بن عفان » . .

* * *

عَلَى أن بطولته في القتال كانت رغم تفوقها وإعجازها تتوارى أمام بطولته في العبادة

فهذا الذي يمكن أن يَنْبَعِثَ فيه الزَّهْوَ، وثنيَ الأعطاف، أكثرُ مِنْ سبب، يذهلنا بمكانه الدائم والعالي بين النّاسكين العابدين...

فلا حَسَبُه، ولا شبابُه، ولا مكانته ورفعتُه، ولا أمواله، ولا قوته... لا شيءَ من ذلك كله، استطاع أن يحول بين «عبد الله بن الزبير» وبين أن يكون العابد الذي يصوم يومه، ويقوم ليله، ويخشع لله خشوعًا يبهر الألباب..

قال عمر بن عبد العزيز يومًا لابن أبي مُلَيْكة: صِفْ لنا عبد الله بن الزبير.. فقال:

[واللهِ، ما رأيتُ نفسًا رُكّبت بين جَنْبَين مثل نفسه...

« ولقد كان يدخل في الصلاة، فيخرج من كل شيءٍ إليها...

« وكان يركع أويسجد، فتقف العصافير فوق ظهره وكاهله، لا تحسبه من طول ركوعه وسجوده إلا جدارًا، أو ثوبًا مطروحًا...

« ولقد مرَّت قذيفة منجنيق بين لحيته وصدره وهو يصلي؛ فوالله ما أحسَّ بها ولا اهتزَّ لها، ولا قطع من أجلها قراءته، ولا تعجل ركوعه].. ! !

إن الأنباء الصادقة التي يرويها التاريخ عن عبادة «ابن الزبير» لشيءٌ يشبه الأساطير...

فهو في صيامه، وفي صلاته، وفي حجه، وفي عُلوِّ همته، وشرف نفسه...

في سهره الليل – طوال عمره – قانتًا وعابدًا . .

وفي ظمأ الهواجر – طوال عمره – صائمًا مجاهدًا . . .

وفي إيمانه الوثيق بالله ، وفي خشيته الدائمة له . .

هو في كل هذا نسيج وحده . . ! !

سئل عنه ابن عباس فقال على الرغم مما كان بينهما من خلاف :

[كان قارئًا لكتاب الله ، مُتَّبِعًا سُنَّةَ رسوله . . قانتًا لله . . صائمًا في الهواجر من مخَافةِ الله . . ابن حَوَارِيٍّ رسول الله . . وأُمه « أسماء » بنت الصديق . . وخالته « عائشة » زوجة رسول الله . . فلا يجهل حقه إلا من أعماه الله] . . ! !

* * *

وهو في قوة خُلقه وثبات سجاياه ، يُزري بثبات الجبال . .

وَاضحٌ . . شريف . . قوي . . على استعداد دائم لأن يدفع حياته ثمنًا لصراحته ، واستقامة نَهجه . .

أثناء نزاعه وحروبه مع الأمويين ، زاره « الحُصَين بن نمير » قائد الجيش الذي أرسله يزيد لإخماد ثورة بن الزُّبير . .

زاره إثر وصول الأنباء إلى مكة بموت « يزيد » . .

وعرض عليه أن يذهب معه إلى الشام ، ويستخدم « الحصين » نفوذه العظيم هناك في أخذ البيعة لابن الزبير . .

فرفض « عبد الله » هذه الفرصة الذهبية ، لأنه كان مقتنعًا بضرورة القصاص من جيش الشام جزاء الجرائم البشعة التي ارتكبها رجاله خلال

غزوهم الفاجر لمدينة ـ رسول الله ـ خدمة لأطماع الأمويين . .

قد نختلف مع « عبد الله » في موقفه هذا ، وقد نتمنى لو أنه آثر السلام والصفح ، واستجاب للفرصة النادرة التي عرضها عليه « الحصين » قائد يزيد . . .

ولكنَّ وقفة الرجل – أيِّ رجُل – إلى جانب اقتناعه واعتقاده . . ونبذه الخداع والكذب ، أمر يستحق الإعجاب والاحترام . .

وعند ما هاجمه الحَجَّاج بجيشه ، وفرض عليه وعَلَى مَنْ معه حصارًا رهيبًا ، كان من بين جنده فرقة كبيرة من الأحباش ، وكانوا من أمهر الرُّماة والمقاتلين . .

ولقد سمعهم يتحدثون عن الخليفة الراحل « عثمان » رضي الله عنه حديثًا ، لا وَرَع فيه ولا إنصاف ، فعنَّفهم وقال لهم :

[والله ، ما أُحِبُّ أن أَسْتَظْهِرَ عَلَى عدوي بمن يُبغض عُثمان] . . ! !

ثم صرفهم عنه في محنة هو فيها محتاج للعون ، حاجة الغريق إلى أَمَل . . ! !

إنَّ وضوحه مع نفسه ، وصِدقه مع عقيدته ومبادئه ، جعلاه لا يبالي بأن يخسر مائتين من أكفأ الرُّماة ، لم يَعُدْ دينهم موضع ثقته واطمئنانه ، مع أنه في معركة مَصِيرٍ طاحنة ، وكان من المحتمل كثيرًا أن يغير اتجاهَها بقاءُ هؤلاء الرُّماة الأكفاء بجانبه . . ! !

* * *

ولقد كان صموده في وجه « معاوية » وابنه « يزيد » بطولة خارقة

حقًا . . .

فقد كان يرى أن « يزيد بن معاوية بن أبي سفيان » آخر رجل يصلح لخلافة المسلمين ، إن كان يصلح على الإطلاق . . وهو مُحِق في رأيه ، ف« يزيد » هذا كان فاسدًا في كل شيْ . . لم تكن له فضيلة واحدة تشفع لجرائمه وآثامه التي رواها لنا التاريخ . .

فكيف يبايعه ابن الزبير . . ؟ ؟

لقد قال كلمة الرفض قوية صادعة لمعاوية وهو حَيّ . .

وها هو ذا يقولها ليزيد بعد أن صار خليفة ، وأرسل إلى ابن الزُّبير يتوعده بشرٍّ مصير . .

هنالك قال ابن الزُّبَيْر :

[لا أُبايع « السكّير » أبدًا] . . .

ثم أنشد :

ولا أَلِينُ لغـــــير الحق أَسأْله   حتى يلين لِضِرْسِ الماضِغ الحجَرُ

* * *

وظلَّ « ابن الزُّبير » أميرًا للمؤمنين ، مُتَّخِذًا من « مكة المكرمة » عاصمة خلافته . باسطًا حكمه على الحجاز ، واليمن ، والبصرة ، والكوفة ، وخُراسان ، والشام كلها عدا « دمشق » بعد أن بايعه أهل هذه الأمصار جميعًا . . .

ولكن الأمويين لا يقرُّ قرارهم ، ولا يهدأ بالهم ، فيشنون عليه حروبًا موصولة ، يبوءُون في أكثرها بالهزيمة والخذلان . .

حتى جاء عهد « عبد الملك بن مَرْوان » حين ندب لمهاجمة « عبد الله » في مكة واحدًا من أشقى بني آدم وأكثرهم إيغالا في القسوة والإجرام . .

ذلكم هو « الحجَّاج الثقفي » الذي قال عنه « الإمام العادل عمر بن عبد العزيز » :

[لو جاءت كل أُمَّة بخطاياها ، وجئنا نحن بالحجَّاج وحده ، لرجحْناهم جميعًا] . . ! ! !

* * *

ذهب الحجاج على رأس جيشه ومرتزقته لغزو مكة عاصمة ابن الزبير ، وحاصرها وأهلَها قُرابة ستة أشهر مانعًا عن الناس الماء والطعام ، كي يحملهم على ترك « عبد الله بن الزبير » وحيدًا ، بلا جيش وبلا أعوان .

وتحت وطأة الجوع القاتل استسلم الأكثرون ، ووجد عبد الله نفسه ، وحيدًا ، أو يكاد . . وعلى الرغم من أن فُرص النجاة بنفسه وبحياته كانت لا تزال مُهيَّأة له ، فقد قرر أن يحمل مسئوليته إلى النهاية ، وراح يقاتل جيش الحجاج في شجاعة أسطورية ، وهو يومئذ في السبعين من عمره . . ! !

ولن نبصر صورة أمينة لذلك الموقف الفَذّ إلا إذا أصْغَيْنا للحوار الذي دار بين عبد الله وأمه . العظيمة المجيدة « أسماء بنت أبي بكر » في تلك الساعات الأخيرة من حياته .

لقد ذهب إليها ، ووضع أمامها صورة دقيقة لموقفه ، وللمصير الذي بدا واضحًا أنه ينتظره . .

قالت له « أسماء » :

[يا بني : أنت أعلم بنفسك – إن كنت تعلم أنك على حق ، وتدعو إلى حق ، فاصبر عليه حتى تموت في سبيله ، ولا تمكّن من رقبتك غِلمَان بني أميّة . .

« وإن كنت تعلم أنك أردتَ الدنيا ، فَلبئس العبد أنت ، أهلكْت نفسك وأهْلكْت من قُتِل معك] .

قال عبد الله :

[والله يا أمَّاهُ ، ما أردت الدنيا ولا رَكَنْتُ إليها .

« وما جُرْتُ في حـــكم الله أبدًا ، ولا ظلمتُ ، ولا غَدَرْت] . .

قالت أمُّه أسماء :

[إني لأرجو الله أن يكون عزائي فيك حسنًا إن سبَقْتَني إلى الله أو سَبقْتُك .

« اللهم ارحم طول قيامه في الليل ، وظَمأه في الهواجِر ، وبِرَّه بأبيه وبي . .

« اللهم إني أسلمْتُه لأمرك فيه ، ورضيتُ بما قضيْت ، فأثِبْني في عبد الله بن الزبير ثواب الصابرين الشاكرين . !]

وتبادلا معًا عِناق الوداع وتحيته .

وبعد ساعة من الزمان انقضَتْ في قتال مرير غير متكافئ ، تلقّى الشهيد العظيم ضربة الموت ، في وقت استأثر الحجاج فيه بكل ما في الأرض من حقارة ولُؤم ، فأبى إلا أن يصلب الجثمان الهامِد ، تشفيًا

وخِسة . . . ! !

* * *

وقامت أمُّه ، وعمرها يومئذ سبع وتسعون سنة – قامت لترى ولدها المصلوب .

وكالطَّوْد الشامخ وقفت تِجَاهَهُ لا تريم . . واقترب الحجاج منها في هوان وذِلّة . قائلا لها :

– يا أمَّاه ، إن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان قد أوصاني بك خيرًا ، فهل لك من حاجة . . ؟

فصاحت به قائلة :

[لستُ لكَ بأمّ . .

إنما أنا أمُّ هذا المصلوب على الثّنِيّة . .

« وما بي إليكم حاجة . . .

« ولكني أحدّثك حديثًا سمعتُه من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يخرج من ثَقِيفٍ كذَّاب ومُبير » . .

« فأمَّا الكذاب فقد رأيناه . وأما المُبير ، فلا أراهُ إلا أنت] ! !

وتقدم منها عبد الله بن عمر رضي الله عنه مُعزِّيًا ، وداعيًا إياها إلى الصبر ، فأجابته قائلة :

« وماذا يمنعني من الصبر ، وقد أُهْدِيَ رأس يحيي بن زكريا إلى بَغيٍّ من بغايا بني إسرائيل] . . ! !

يا لَعظمتك ، يا ابنة الصدِّيق . . ! !

أهناك كلمات أروع من هذه تُقَال للذين فَصَلوا رأس عبد الله بن الزبير عن جسده قبل أن يصلبوه . . ؟ ؟

أَجَلْ . . إن يَكُنْ رأس « ابن الزبير » قد قُدم هدية للحجاج ولعبد الملك . . فإن رأس نبي كريم هو يحيى عليه السلام قد قدم من قبل هدية لـ « سالومي » . . بَغِيّ حقيرة من بني إسرائيل ! !

ما أروعَ التشبيه ، وما أصدق الكلمات .

* * *

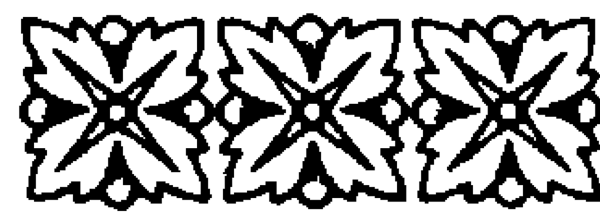
وبعد ، فهل كان يمكن لعبد الله بن الزبير أن يحيا حياته دون هذا المستوى البعيد من التّفوُّق ، والبطولة والصلاح ، وقد رَضع لِبان أم من هذا الطراز . . . ؟ ؟

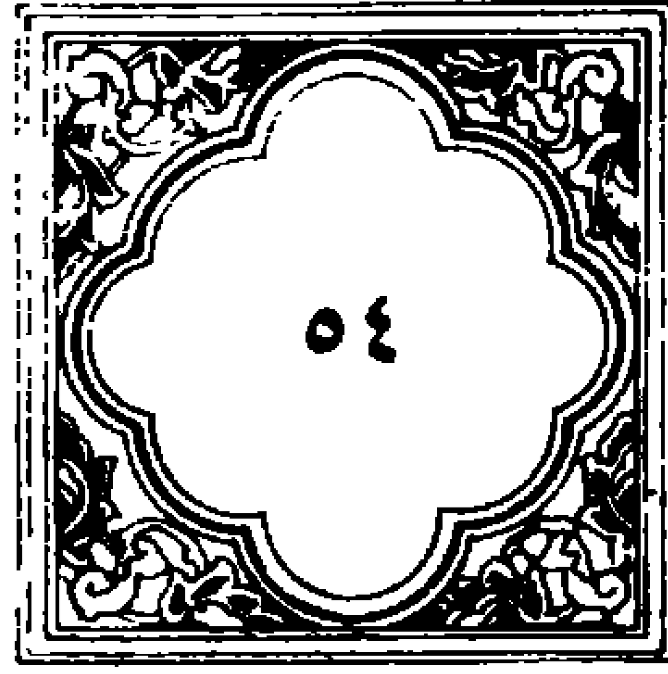
سلام على عبد الله . .

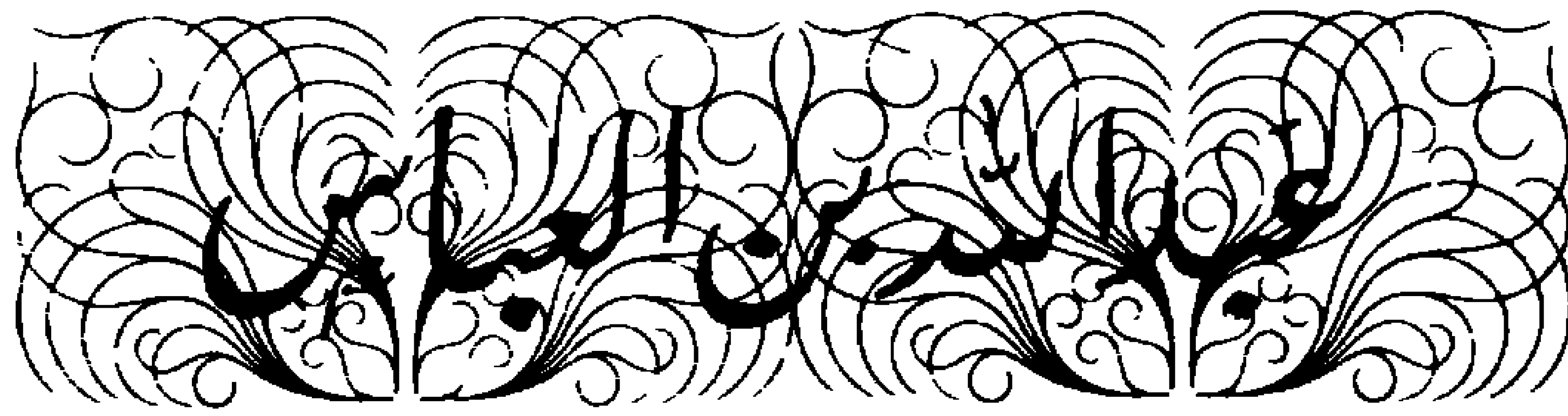
وسلام على أسماء . .

سلام عليهما في الشهداء الخالدين .

وسلامٌ عليهما في الأبرار المتّقين .







حَبْرُ هذه الأُمَّة



يُشْبه ابنُ عباس ، عبدَ الله بن الزبير في أنه أدرك الرسول وعاصره وهو غلام ، ومات الرسول قبل أن يبلغ ابن عباس سِنَّ الرجولة .

لكنه هو الآخر تلَقّى في حداثته كُلَّ خامات رجولته ، ومبادئ حياته من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان يُؤْثره ، ويُزَكّيه ، ويُعلمه الحكمة الخالصة .

وبقوة إيمانه ، وقوة خُلُقه ، وغزارة عِلمه ، اقْتَعَد ابن عباس رضي الله عنه مكانًا عليًّا بين الرجال حول الرسول .

* * *

هو ابن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ، عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولَقَبه – الحَبْر . حَبْر هذه الأمة ، هيَّأه لهذا اللقب . ولهذه المنزلة استنارةُ عقله . وذكاء قلبه . واتساع معارفه .

لقد عرف ابن عباس طريق حياته في أولَيَاتِ أيامه وازداد بها معرفة ، عندما رأى الرسول عليه الصلاة والسلام يُدْنيه منه وهو طفل ويربت على كتفه . ويدعو له قائلا :

[اللهم فقّهْهُ في الدين وعَلّمْهُ التأويل] .

ثم توالت المناسبات والفرص التي يكرر فيها الرسول هذا الدعاء ذاتَه لابن عمه – عبد الله بن عباس . . . وآنئذ ، أدرك ابن عباس أنه خُلِق

للعلم ، وللمعرفة .

وكان استعداده العقلي يدفعه في هذه الطريق دفعًا قويًا .

فعلى الرغم من أنه لم يكن قد جاوز الثالثة عشرة من عمره يوم مات رسول الله ، فإنه لم يُضيع من طفولته الواعية يومًا دون أن يشهد مجالس الرسول ويحفظ عنه ما يقول . .

وبعد ذهاب الرسول إلى الرفيق الأعلى حرص ابن عباس على أن يتعلم من أصحاب الرسول السابقين ما فاته سماعهُ وتعلُّمه من الرسول نفسه . .

هناك ، جعل من نفسه « علامة استفهام » دائمة . . فلا يسمع أن « فلانا » يعرف حكمة ، أو يحفظ حديثا ، إلا سارع إليه وتعلَّمَ منه .

وكان عقله المضيئ الطَّموح يدفعه لفحص كل ما يسمع . . فهو لا يُعْنَى بجمع المعرفة فحسب ، بل ويُعنَى مع جمعها بفحصها وفَحص مصادرها .

يقول عن نفسه :

[إن كُنتُ لأسْألُ عن الأمر الواحد ، ثلاثين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم] .

ويعطينا صُورَة لحرصه على إدراك الحقيقة والمعرفة فيقول :

[لما قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت لفتى من الانصار : هَلُمَّ فَلْنَسأل أصحاب رسول الله ، فإنهم اليوم كثير .

« فقال : يا عَجبًا لك يا ابن عباس ! ! أترى الناس

يفتقرون إليك ، وفيهم من أصحاب رسول الله من ترى . . ؟

« فترك ذلك ، وأقبلتُ أنا أسأل أصحاب رسول الله . . فإن كان لَيَبْلُغُني الحديث عن الرجل ، فآتي إليه وهو قائل في الظهيرة ، فأتَوسَّد ردائي عَلَى بابه ، يَسْفي الريحُ عَلَيَّ من التراب ، حتى ينتهي من مَقِيله ، ويخرج فيراني ، فيقول : يا ابن عَمِّ رسول الله ما جاء بك . . ؟ ؟ هلا أرسلت إليَّ فآتيك . . ؟ ؟ فأقول : لا ، أنت أحق بأن أسعى إليك ، فأسأله عن الحديث وأتعلم منه] . .! ! !

هكذا راح فَتَانا العظيم يسأل ، ويسأل ، ويسأل . . ثم يفحص الإجابة مع نفسه ، ويناقشها بعقل جريئ .

وهو في كل يوم ، تنمو معارفه ، وتنمو حكمته ، حتى توفرت له في شبابه الغَضّ حكمة الشيوخ وأَنَاتُهم ، وحصَافَتُهم ، وحتى كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يحرص على مشورته في كل أمر كبير . . وكان يُلقبُه بـ « فتى الكُهُول » . . ! !

سئل ابن عباس يومًا : « أنَّى أصَبْتَ هذا العلم » . . ؟ ؟

فأجاب :

[بِلسانٍ سَؤُول . . .

« وقَلبٍ عَقُول] . . .

فبلسانه المتسائل دوما ، وبعقله الفاحِص أبدًا ، ثم بتواضعه ودَماثَةِ خُلُقِه ، صار ابن عباس « حَبْر هذه الأمَّة » . . .

ويصفه « سعد بن أبي وقاص » بهذه الكلمات :

[ما رأيت أحدًا أحْضَر فهمًا ، ولا أكبر لُبًّا ، ولا أكثرَ علمًا ، ولا أوسَعَ حِلمًا من ابن عباس . .

« ولقد رأيت « عمر » يدعوه للمعضلات . وحولَهُ أهل بَدْرٍ من المهاجرين والأنصار فيتحدث ابن عباس ، ولا يُجاوِزُ عمر قوله] . . .

وتحدث عنه عبيد الله بن عُتبة فقال :

[ما رأيتُ أحدًا كان أعلم بما سبَقه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من ابن عباس . .

« ولا رأيت أحدًا ، أعلم بقضاء أبي بكر ، وعمر ، وعُثمان منه . .

« ولا أَفْقَه في رأي منه . .

« ولا أعْلَمَ بشعر ولا عَربية ، ولا تفسير للقرآن ، ولا بحساب وفريضة منه . .

« ولقد كان يجلس يومًا للفقه . . ويومًا للتأويل . . ويومًا للمغازي . . ويومًا للشعر . . ويومًا لأيام العرب وأخبارها . . .

« وما رأيتُ عالمًا جلس إليه إلا خضَع له ، ولا سائلاً سأله ، إلَّا وجد عنده عِلْمًا] . . ! !

* * *

ووصفه مسلم من أهل البصرة ، وكان ابن عباس قد عمل واليًا عليها للإمام عليّ بن أبي طالب ، فقال :

[إنه آخِذٌ بثلاث ، تاركٌ لثلاث . .

« آخِذٌ بقلوب الرجال إذا حدَّث . .

« وبحُسْن الاستماع إذا حُدِّث . .

« وبأَيْسرِ الأمْرَينِ إذا خُولِف . .

« وتارِكٌ المِرَاء . .

« ومُصادقَةَ اللئام . .

« وما يُعْتَذَرُ مِنْه] . . ! !

* * *

وكان تنوُّع ثقافته ، وشمولُ معرفته مما يبهَرُ الألْباب . . فهو الحَبْر الحاذق الفَطِن في كل علم . . في تفسير القرآن وتأويله . . وفي الفقه . . وفي التاريخ . . وفي لغة العرب وآدابهم ، ومن ثَمَّ فقد كان مقصد الباحثين عن المعرفة ، يأتيه الناس أفواجًا من أقطار الإسلام ، ليسمعوا منه ، وليتفقَّهوا عليه . .

حدَّث أحد أصحابه ومعاصريه فقال :

[لقد رأيتُ من ابن عباس مجلسًا ، لو أن جميع قريش فخُرتْ به ، لكان لها به الفخر . .

« رأيتُ الناس اجتمعوا عَلَى بابه حتى ضاق بهم الطريق ، فما كان أحد يقدر أن يجيءَ ، ولا أن يذهَب . .

« فدخلتُ عليه فأخبرتُه بمكانهم عَلَى بابه ، فقال لي : ضَعْ لي وضوءًا ، فتوضَّأَ وجلس ، وقال : اخرج إليهم ،

فادْعُ من يريد أن يسأل عن القرآن وتأويله . . .

« فَخرجْتُ فآذَنْتُهم : فدخلوا حتى ملأوا البيت ، فما سألوا عن شيءٍ إلا أخبرهُم وزادهُم . .

« ثم قال لهم : إخوانُكم . . فخرجوا لِيُفْسِحوا لغيرهم . .

« ثم قال لي : اخرج فادْعُ من يريد أن يسأل عن الحلال والحرام . .

« فخرجت فآذَنتُهم ، فدخلوا حتى مَلأوا البيت ، فما سألوه عن شيءٍ إلا أخبرهم ، وزادهم . .

« ثم قال : إخوانكم . . فخرجوا . .

« ثم قال لي : ادْعُ من يريد أن يسأل عن الفرائض ، فآذنتهم ، فدخلوا حتى ملأوا البيت ، فما سألوه عن شيءٍ إلا أخبرهم وزادهم . .

« ثم قال لي : ادع من يريد أن يسأل عن العربيَّة ، والشّعْر . .

« فآذنتهم فدخلوا حتى ملأوا البيت ، فما سألوه عن شيءٍ إلا أخبرهم ، وزادهم] . . . ! !

وكان ابن عباس يمتلك إلى جانب ذاكرته القوية ، بل الخارقة ، ذكاءً نافذًا ، وفِطْنةً بالغة . .

كانت حُجّتُه كضوء الشمس أَلَقًا ، ووضوحا ، وبهجة . . وهو في حواره ومنطقه ، لا يترك خصمه مُفعمًا بالاقتناع فحسب ، بل ومُفعمًا بالغبطة من روعة المنطق وفطنة الحوار . .

ومع غزارة عِلمه ، ونفاذ حجته ، لم يكن يرى في الحوار والمناقشة معركة ذكاء ، يزهو فيها بعلمه ، ثم بانتصاره على خَصمه . . بل كان يراها سبيلا قويمًا لرؤية الصواب ومعرفته . .

ولَطالما روَّع الخوارج بمنطقه الصارم العادل . .

بعث به الإمام « علي » كرم الله وجهه ذات يوم إلى طائفة كبيرة منهم فدار بينه وبينهم حوار رائع وجَّه فيه الحديث وساق الحجة بشكل يبهر الألباب . .

ومن ذلك الحوار الطويل نكتفي بهذه الفقرة . .

سألهم ابن عباس :

[– ماذا تَنقِمون من عَليّ . . ؟ ؟]

قالوا :

[– نَنْقِمُ منه ثلاثًا :

« أولَاهُن : أنه حكَّم الرجال في دين الله ، والله يقول : إنِ الحكْمُ إلا لله . .

« والثانية : أنه قاتَل ، ثم لم يأخذ من مقاتِليه سَبْيًا ولا غنائم ؛ فلَئِن كانوا كفارًا ، فقد حلَّت له أموالهم ، وإن كانوا مؤمنين ، فقد حُرِّمَتْ عليه دماؤهم . . ! !

« والثالثة : رضي عند التحكيم أن يخلع عن نفسه صفة أمير المؤمنين ، استجابة لأعدائه ، فإن لم يكن أمير المؤمنين ، فهو أمير الكافرين . .]

وأخذ ابن عباس يُفَنّد أهواءهم ، فقال :

[أمَّا قولكُم : إنه حكَّم الرجال في دين الله ، فأيُّ بأس . . ؟

« إن الله يقول : يا أيها الذين آمنوا ، لا تقتُلوا الصَّيْدَ وأنتُم حُرُم ، ومن قتَله منكم مُتَعمدًا فجزاءٌ مِثلُ ما قتَل من النعم يحكم به ذوا عَدْل منكم . . .

« فَنَبئوني بالله : أَتحكيم الرجال في حَقْن دماء المسلمين أحق وأوْلىَ ، أم تحكيمهم في أرْنَب ثمنهـــــا ربع درهم . . ؟ ؟ ! !

وتلَعثم زعماؤهم تحت وطأة هذا المنطق الساخر والحاسم . . واستأنف حَبْر الأمة حديثه :

« وأمَّا قولُكُم : إنه قاتل فلم يسْبُ ولم يغنم ، فهل كنتم تريدون أن يأخذ عائشة زوج الرسول وأُم المؤمنين سَبْيًا ، ويأخذ أسلابها غنائم . . ؟ ؟

وهنا كَستْ وجوههم صفرةُ الخجل ، وأخذوا يُوَارُون وجوههم بأيديهم . . وانتقل ابن عباس إلى الثالثة :

« وأمَّا قولُكم : إنه رَضي أن يخلع عن نفسه صفة أمير المؤمنين ، حتى يتمَّ التحكيم ، فاسمعوا ما فعله رسول الله يوم الحديبية ، إذ راح يُمْلي الكتاب الذي يقوم بينه وبين قُريش ، فقال للكاتب : اكتب. هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله . . فقال مبعوث قريش : والله لوكُنَّا نعلم أنك رسول الله ما صَدَدْنَاكَ عن البيت ولا قاتَلْنَاك . .

فاكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله . . فقال لهم الرسول : والله إني لرسولُ الله وإن كَذَّبْتُم . . ثم قال لكاتب الصحيفة : اكتب ما يشاؤون : اكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله] . !

واستمرَّ الحِوارُ بين ابن عباس والخوارج على هذا النَّسَق الباهر المعجز . . وما كاد ينتهي النقاش حتى نهض منهم عشرون ألفًا ، معلنين اقتناعهم ، ومعلنين خروجهم من خُصومَة الإمام علي . . ! !

* * *

ولم يكن ابن عباس يمتلك هذه الثروة الكبرى من العلم فحسب . بل كان يمتلك معها ثروة أكبر ، من أخلاق العلم وأخلاق العُلماء .

فهو في جوده وسخائه إمام وعَلَم . .

إنه لَيفيض على الناس من ماله . . بنفس السَّماح الذي يُفيض به عليهم مِنْ علْمه . . ! !

ولقد كان معاصروه يتحدثون فيقولون :

[ما رأينا بيتًا أكثرَ طعامًا ، ولا شرابًا ، ولا فاكهةً ، ولا عِلْمًا – من بيت ابن عباس] . . ! !

وهو طاهر القلب ، نَقِيّ النفس ، لا يحمل لأحدٍ ضغْنًا ولا غِلاً .

وهِوايتُه التي لا يشبع منها ، هي تَمَنِّيه الخير لكل من يعرف ومن لا يعرف من الناس . .

يقول عن نفسه :

[إني لآتي على الآية من كِتاب الله فأوَدُّ لو أن الناس جميعًا عَلِموا مثلَ الذي أعلَم . .

« وإني لأسمعُ بالحاكم من حكام المسلمين يقضي بالعدل ، ويحكُم بالقِسْط ، فأفرَحُ به ، وأدعو له . . ومالي عنده قضيَّة . . ! !

وإني لأسْمَعُ بالغيث يصيب للمسلمين أرضًا فأفرح به ، ومالي بتلك الأرض سائِمَة . . ! !] .

* * *

وهو عابد قانت أوَّاب . . يقوم من الليل ، ويصوم من الأيام ، ولا تُخطئ العين مَجرَى الدموع تحت خَدَّيه ، إذ كان كثير البكاء كلما صلى . . وكلما قرأ القرآن . .

فإذا بَلغ في قراءته بعض آيات الزَّجر والوعيد ، وذِكْرَ الموت ، والبعث – علا نشيجه ونحيبُه .

* * *

وهو إلى جانب هذا شجاع ، أمين ، حصيف . . ولقد كان له في الخلاف بين علي ومعاوية آراء تدلُّ على امتداد فطنته ، وسَعَة حيلته .

وهو يُؤْثِرُ السلام على الحرب . . والرِّفْق على العُنف . . والمنطق على القَسْر . .

عندما هَمَّ الحسين رضي الله عنه بالخروج إلى العراق ليقاتل زيادًا ، ويزيد ، تعلَّق ابن عباس به واسْتماتَ في محاولة مَنْعه . . فلما بلَغه فيما بعد نبأ استشهاده ، أقَضَّهُ الحزن عليه ، ولزم داره . .

وفي كل خلاف ينشِب بين مسلم ومسلم ، لم تكن تجد ابن عباس إلا حاملاً راية السلم ، والتفاهم ، واللّين . .

صحيح أنه خاض المعركة مع الإمام علي ضد معاوية . ولكنه فعل ذلك لأن المعركة في بدايتها كانت تمثل رَدْعًا لازمًا لحركة انشقاقٍ رهيبة ، تهدد وحدة الدين ووحدة المسلمين .

* * *

وعاش ابن عباس يملأ دنياه عِلْمًا وحكمة ، وينشر بين الناس عَبيره وتقواه . .

وفي عامه الحادي والسبعين ، دُعِيَ للقاء ربه العظيم . .

وشهدت مدينة الطائف مشهدًا حافلا لمؤمن يُزَفُّ إلى الجنان .

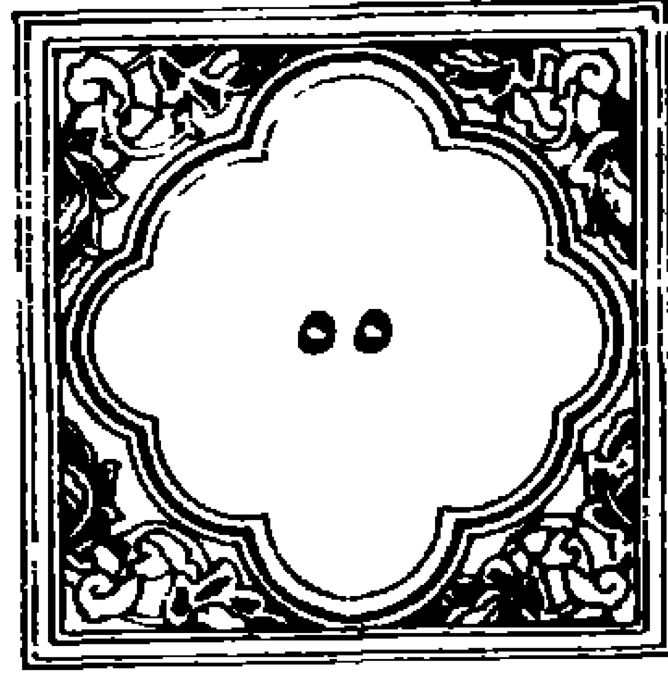
وبينما كان جثمانه يأخذ مُستقرَّه الآمِنَ في قبره ، كانت جنبات الأفق تهتز بأصداء وَعْدِ الله الحق :

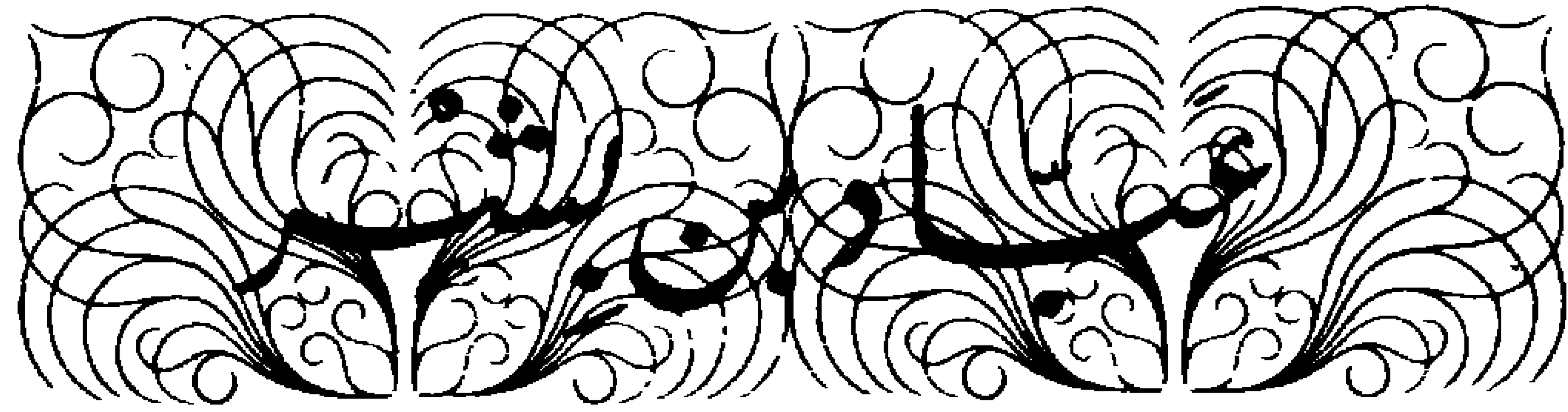
[يا أيَّتها النفسُ المُطْمَئِنَّة . .

« ارْجعي إلى رَبكِ راضِيَةً مَرْضِيَّة .

« فادْخُلي في عبادي . .

« وادْخُلي جَنَّتي] . .





مَعَهُ مِنَ اللهِ نُور !



عندما نزل « مُصعب بن عمير » المدينة مُوفدًا من لَدُنْ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليُعلِّم الأنصار الذين بايعوا الرسول على الإسلام ، ولِيقِيم بهم الصلاة – كان « عبَّاد بن بشر » رضي الله عنه واحدًا من الأبرار الذين فتح الله قلوبهم للخير ، فأقبل على مجلس « مُصْعَب » وأصغى إليه ثم بسط يمينه يبايعه على الإسلام . ومن يومئذ أخذ مكانه بين الأنصار الذين رضي الله عنهم ورضُوا عنه . .

وانتقل النبي إلى المدينة مُهاجرًا ، بعد أن سبقه إليها المؤمنون بمكة .

وبدأت الغزوات التي اصطدمت فيها قُوَى الخير والنور مع قُوَى الظلام والشرّ.

وفي كل تلك المغازي ، كان « عَباد بن بِشْر» في الصفوف الأولى يجاهد في سبيل الله مستبسلاً مُتفانيًا بشكل يبهر الألباب .

* * *

ولعلَّ هذه الواقعة التي نرويها الآن تكشف عن شيءً من بطولة هذا المؤمن العظيم . .

بعد أن فرغ رسول الله والمسلمون من غزوة « ذات الرِّقاع » نزلوا مكانًا يبيتون فيه ، واختار الرسول للحراسة نفرًا من أصحابه يتناوَبونَها وكان منهم « عمار بن ياسر » و« عباد بن بشر» في نَوْبَةٍ واحدة .

ورأى « عبَّادٌ » صاحبه « عمارًا » مجهدًا ، فطلب منه أن ينام أول

الليل على أن يقوم هو بالحراسة حتى يأخذ صاحبه من الراحة حظًا يمكنه من استئناف الحراسة بعد أن يصحو.

ورأى « عباد » أن المكان من حوله آمِن ، فَلِمَ لا يملأ وقته إذن بالصلاة ، فيذهب بمثوبتها مع مَثُوبَةِ الحراسة . . ؟ !

وقام يصلي . .

وإذ هو قائم يقرأ بعد فاتحة الكتاب سورةً من القرآن ، اخترم عَضُدَه سهم ، فنزعه واستمر في صلاته . . !

ثم رماه المهاجم في ظلام الليل بسهم ثالث نزعه وأنهى تلاوته . .

ثم ركع ، وسجد . . وكانت قُواه قد بدَّدها الإعْياء والألم ، فمدَّ يمينه وهو ساجد إلى صاحبه النائم بجواره ، وظلَّ يهزُّه حتى استيقظ . .

ثم قام من سجوده وتلا التشهُّد . . وأتم صلاته .

وصحا « عمار » على كلماته المتهدجة المتعَبَة تقول له :

[قم للحراسة مكاني ، فقد أصبْت] .

ووثب « عمار » محدثًا ضجة وهرولة أخافت المتَسللين ، ففرُّوا ثم التفت إلى « عباد » وقال له :

[سبحان الله . .

هَلَّا أيقظتني أوَّلَ ما رُميت] . . ؟ ؟

فأجابه « عباد » :

[كنت أتلو في صلاتي آيات من القرآن ملأت نفسي رَوْعة فلم أحب أن أقطعها .

« ووالله ، لولا أن أضيعَ ثَغْرًا أمرني رسول الله بحفظه ، لآثرت الموت على أن أقطع تلك الآيات التي كنت أتلوها] . . ! !

* * *

كان « عباد » شديد الولاء والحب لله ، ولرسوله ، ولدينه . .

وكان هذا الولاء يستغرق حياته كلها وحسَّه كله .

ومنذ سمع النبي عليه الصلاة والسلام يقول مخاطبًا الأنصار الذين هو منهم :

[يا مَعْشَرَ الأنصار . .

« أنتم الشعار ، والناسُ الدثار . .

فلا أوتَيَنَّ مِن قِبَلكم] .

نقول : منذ سمع « عباد » هذه الكلمات من رسوله ، ومُعلمِه ، وهاديه إلى الله ، وهو يبذُل روحه وماله وحياته في سبيل الله وفي سبيل رسوله . .

في مَواطن التضحية والموت ، يجيءُ دوما أولا . . .

وفي مواطن الغنيمة والأخذ ، يبحث عنه أصحابه في جهد ومَشقَّة حتى يجدوه . . !

وهو دائمًا :

عابد – تستغرقه العبادة . .

بطل – تستغرقه البطولة . .

جواد – يستغرقه الجود . .

مؤمن قوي ، نذر حياته لقضية الإيمان . . ! !

ولقد عُرِف له هذا كله بين أصحاب الرسول . .

وقالت أُم المؤمنين « عائشة » رضي الله عنها :

[ثلاثة من الأنصار لم يجاوزهم في الفضل أحد :

« سعد بن مُعاذ . .

« وَأُسَيْد بن حُضَير . .

« وعباد بن بِشْر] . . .

* * *

وعرف المسلمون الأوائل – عبادًا – بأنه الرجل الذي معه من الله نور . .

فقد كانت بصيرته المجلُوَّة المضاءة تهتدي إلى مواطن الخير واليقين في غير بحث أو عَناء . .

بل ذهب إيمان إخوانه بنوره إلى الحد الذي أسْبَغوا عليه فيه صورة الحِسِّ والمادَّة ، فأجمعوا على أن « عبادًا » كان إذا مشى في الظلام انبعثت منه أطيافُ نور وضَوْء ، تضيءُ له الطريق . .

* * *

وفي حروب الرِّدّة ، بعد وفاة الرسول عليه السلام ، حمل « عباد » مسئولياته في استبسال منقطع النظير . .

وفي موقعة « اليمَامة » التي واجه المسلمون فيها جيشًا من أقسى وأمهر

الجيوش تحت قيادة « مسيلمة الكذاب » أحسّ « عبّاد » بالخطر الذي يتهدد الإسلام . .

وكانت تضحيته ، وعُنفُوانه يتشكَّلان وفْق المهامِّ التي يلقيها عليه إيمانه ، ويرتفعان إلى مستوى إحساسه بالخطر ارتفاعًا يجعل منه فدائيا لا يحرص على غير الموت والشهادة . .

* * *

وقبل أن تبدأ معركة « اليمامة » بيوم ، رأى في منامه رؤيا لم تلبث أن فسرت مع شمس النهار ، وفوق أرض المعركة الهائلة الضارية التي خاضها المسلمون . .

ولنَدَع صحابيا جليلا هو « أبو سعيد الخدْرِيُّ » رضي الله عنه يقص علينا الرؤيا التي رآها « عباد » وتعبيره لها . ثم موقفه الباهر في القتال الذي انتهى باستشهاده . .

يقول أبو سعيد :

[. . قال لي – عبّاد بن بشر – يا أبا سعيد رأيت الليلة ، كأنَّ السماء قد فُرِجَتْ لي ، ثم أطْبَقَت عَلَيّ . .

« وإني لأراها إن شاء الله الشهادة . . ! !

« فقلت له : خيرًا واللهِ رأيت . .

« وإني لأنظر إليه يوم اليمامة . وإنه لَيصِيحُ بالأنصار : احطموا جُفون السيوف ، وتميَّزوا من الناس . . .

« فسارع إليه أربعمائة رجل ، كلهم من الأنصار ، حتى انتهوا إلى باب الحديقة ، فقاتلوا أشَدَّ القتال . .

« واستُشْهِدَ – عباد بن بشر رحمه الله . .

« ورأيت في وجهه ضربًا كثيرًا ، وما عرفتُه إلا بعلامة كانت في جسده] . . ! !

* * *

هكذا ارتفع « عباد » إلى مستوى واجباته كمؤمن من الأنصار ، بايع رسوله على الحياة لله . والموت في سبيله . .

وعندما رأى المعركة الضارية تتجه في بدايتها لصالح الأعداء ، تذكَّر كلمات الرسول لقومه الأنصار :

[أنتم الشعار . .

« فلا أوتَيَنَّ من قِبَلكُم] . . .

وملأ الصوت رُوعه وضميره . .

حتى لكأنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام قائم الآن يردد كلماته هذه . .

وأحس « عباد » أن مسئولية المعركة كلها إنما تقع على كاهل الأنصار وحدهم . . أو على كاهلهم قبل سواهم . .

هنالك اعتلى ربوة وراح يصيح :

[يا معشر الأنصار . .

« احطموا جفون السيوف . .

« وتميزُوا من الناس] . .

وحين لبَّى نداءه أربعمائة منهم قادهم هو و « أبو دجانة » و « البراء ابن مالك » إلى حديقة الموت حيث كان جيش « مسيلمة » يتحصن . .

وقاتل البطل القتال اللائق به كرجل .. وكمؤمن .. وكأنْصَارِيّ ..

* * *

وفي ذلك اليوم المجيد استشهد «عباد» ..

لقد صدقَتْ رؤياه التي رآها في منامه بالأمس ..

ألم يكن قد رأى السماء تفتح ، حتى إذا دخل من تلك الفرجة المفتوحة ، عادت السماء فطويت عليه ، وأُغْلقَتْ ؟ ؟

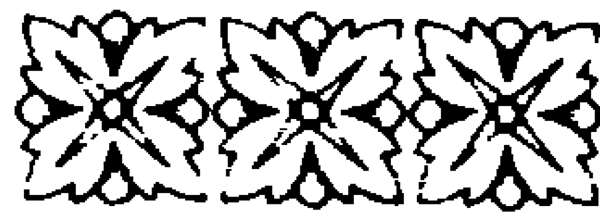
وفسرها هو بأن روحه ستصعد في المعركة المنتظرة إلى بارئها وخالقها ..؟

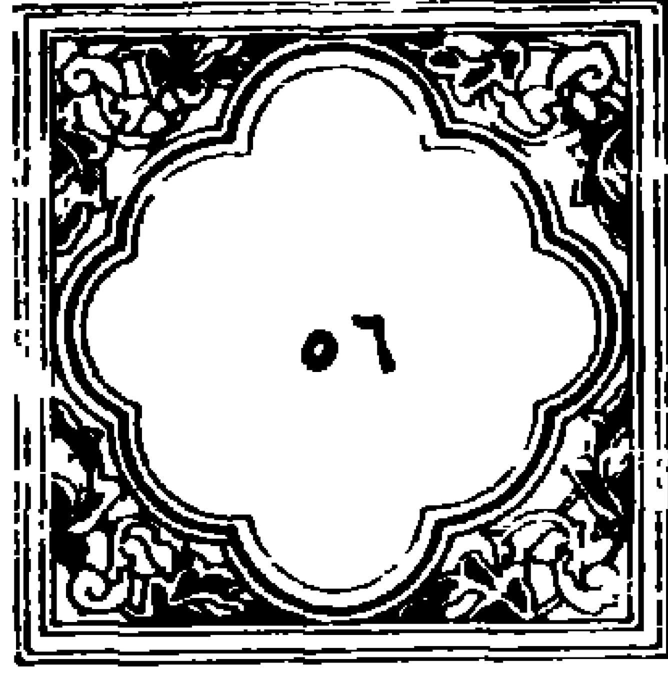
* * *

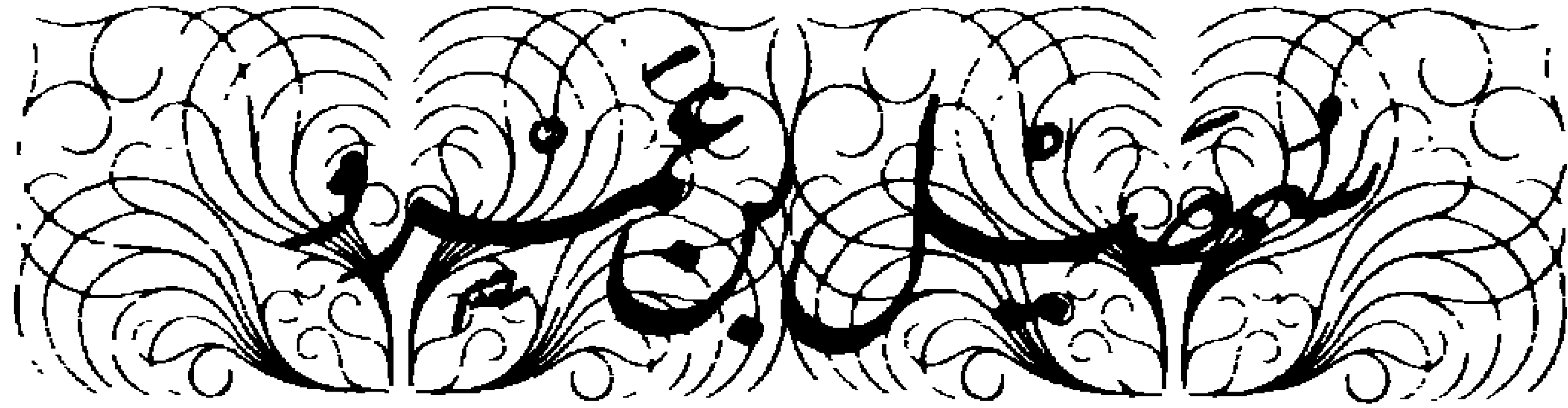
لقد صَدَقَت الرؤيا ، وصدق تعبيره لها ..

ولقد تفتَّحت أبواب السماء لتستقبل في حُبور ، رُوح عباد بن بشر ..

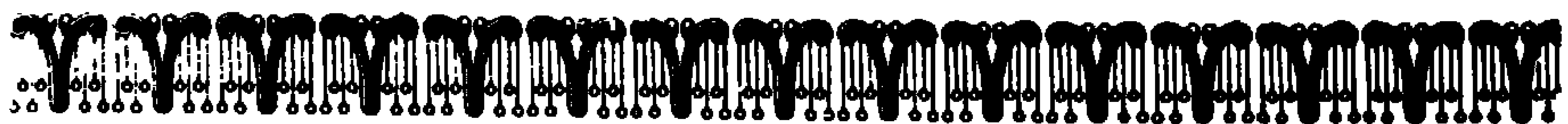
الرجل الذي كان معه من الله نور ... ! !







مِنَ الطُّلَقاء ، إلى الشُّهداء !



عندما وقع أسيرًا بأيدي المسلمين في « غزوة بدر » اقترب « عمر بن الخطاب » من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

[يا رسول الله . . دَعْني أنزع ثَنِيَّتَيْ سهيل بن عمرو حتى لا يقوم عليك خطيبًا بعد اليوم] . .

فأجابه الرسول العظيم :

[كلا يا عمر . .

« لا أُمَثِّلُ بأحد ، فيُمثل الله بي ، وإن كُنتُ نبيًا] . . ! !

ثم أدنى عمر منه ، وقال عليه السلام :

« يا عمر . .

« لعلَّ سُهيْلاً يقف غدًا موقفًا يسرُّك] . . ! !

* * *

ودارت الأيام . .

وصدقت نبوءة الرسول . .

وتحوَّل أعظم خطباء قريش « سهيل بن عمرو » إلى خطيب باهر من خطباء الإسلام . .

وتحوَّل المشرك اللدود . . إلى مؤمن أوَّاب ، لا تكف عيناه عن البكاء من خشية الله . . ! !

وتحوَّل واحد من كبار زعماء قريش وقادة جيوشها ، إلى مقاتل صُلْب في سبيل الإسلام . . مقاتل عاهد نفسه أن يظلَّ في رباط وجهاد حتى يدركه الموت على ذلك ، عسى الله أن يغفر ما تقدم من ذنبه . . ! !

فَمَنْ كان ذلك المشرك العنيد . والمؤمن التقي الشهيد . . ؟ ؟

* * *

إنه « سهيل بن عمرو » . .

واحد من زعماء قريش المبرِّزين ، ومن حكمائها وذَوِي الفطنة والرأي فيها . .

وهو الذي انتدبته قريش ليقنع الرسول بالعدول عن دخول مكة عام الحديْبِيَة . .

ففي أخريات العام الهجري السادس خرج الرسول وأصحابه إلى مكة ليزوروا البيت الحرام ، ويُنْشِئوا عُمرة – لا يريدون حربًا – وليسوا مستعدين لقتال . .

وعلمت قريش بمسيرهم إلى مكة ، فخرجت لتقطع عليهم الطريق ، وتصدهم عن وِجْهَتهم . .

وتأزَّم الموقف ، وتوترت الأنفس . .

وقال الرسول لأصحابه :

[لَا تدعُوني قريش اليوم إلى خُطَّة يسألونني فيها صِلَة الرَّحِم إلّا أعْطَيتُهم إياها] . .

وراحت قريش تُرسل رُسُلَها ومندوبيها إلى النبي عليه الصلاة والسلام ،

فيخبرهم جميعًا أنه لم يأت لقتال - إنما جاء يزور البيت الحرام ، ويُعظم حُرُماته :

وكلما عاد إلى قريش أحد مندوبيها ، أرسلوا من بعده آخر أقوى شكيمة ، وأشدَّ إقناعًا حتى اختاروا « عروة بن مسعود الثقفي » وكان من أقواهم وأفطنِهم . . وظنت قريش أن « عروة » قادر على إقناع الرسول بالعودة .

ولكنه سرعان ما رجع إليهم يقول لهم :

[يا معشر قريش . . .

إني قد جئتُ كِسْرَى في مُلْكهِ ، وقيْصَرَ في مُلْكهِ ، والنَّجاشيَّ في مُلكه . .

« وإني والله ما رأيت مَلِكا قط يُعظِّمُه قومه ، كما يُعظِّم أصحابُ محمدٍ محمدًا . . ! !

« ولقد رأيت حوله قومًا لَن يُسْلموه لسوء أبدًا . .

فانظروا رأيكم » . . ! ! !

* * *

عندئذ آمنت قريش أنه لا جَدْوَى من محاولاتها وقررت أن تلجأ إلى المفاوضة والصُّلْح . . واختارت لهذه المهمة أصلح زعمائها لها . .وكان « سهيل بن عمرو » . .

* * *

رأى المسلمون « سهيلا » وهو مقبل عليهم فعرفوه ، وأدركوا أن

قريشًا آثرت طريق التفاهم والمصالحة ، ما دامت قد بعثت آخر الأمر « سُهَيْلاً » . .

وجلس « سهيل » بين يدي الرسول ، ودار حوار طويل انتهى بالصلح . . .

وحاول « سهيل » أن يكسب لقريش الكثير . . وساعده على ذلك – التسامُح النبيل والمجيد الذي كان الرسول عليه الصلاة والسلام يدير به التَفاوُض والصُّلْح . .

ومضت الأيام . ينادي بعضها بعضًا ، حتى جاءت السنة الثامنة من الهجرة . . وخرج الرسول والمسلمون لفتح مكة بعد أن نَقضَت قريش عهدها وميثاقها مع رسول الله .

وعاد المهاجرون إلى وطنهم الذي أخرجوا منه بالأمس كارهين . .

عادوا ، ومعهم الأنصار الذين آوَوْهُم في مدينتهم وآثروهم على أنفسهم . .

وعاد الإسلام كله ، تخفق في جو السماء راياته الظافرة . .

وفتحت مكة جميع أبوابها . .

ووقف المشركون في ذُهول . .

تُرى ماذا سيكون اليوم مصيرهم ، وهم الذين أعملوا بأسَهم في المسلمين من قبل قتلاً ، وحرْقًا ، وتعذيبًا ، وتجويعًا . . ؟ !

ولم يشأ الرسول الرحيم أن يتركهم طويلا تحت وطأة هذه المشاعر المُذِلَّة المنْهكة .

فاستقبل وجوههم في تسامُح وأناة ، وقال لهم ونبرات صوته الرحيم تقطر حنانًا ، ورفقًا :

[يا معشر قريش . .

« ما تظنون أني فاعِلٌ بكم] . . ؟ ؟

هنالك تقدم خَصْم الإسلام بالأمس « سهيل بن عمرو » وقال مجيبا :

[نظن خيرًا ، أخٌ كريم ، وابن أخ كريم]

وتألقت ابتسامة من نور على شفتي حبيب الله وناداهم :

[اذهبوا . .

« فأنتم الطُّلقاء] . . ! !

لم تكن هذه الكلمات من الرسول المنتصر لتدَعَ إنسانًا حيَّ المشاعر إلا أحالتْهُ ذَوْبا من طاعة وخجل ، بل وندم . .

وفي نفس اللحظة استجاش هذا الموقف الممتلئ نُبلا وعظمة ، كل مشاعر « سهيل بن عمرو » فأسلم لله رب العالمين .

ولم يكن إسلامه ساعتئذ ، إسلام رجل منهزم مستسلم للمقادير .

بل كان – كما سيكشف عنه مستقبله فيما بعد – إسلامَ رجل بهرتْه وأسَرَتْه عظمةُ « محمد » وعظمةُ الدين الذي يتصرَّف « محمد » وَفْق تعاليمه ، ويحمل في ولاء هائل رايتَه ولواءه . . ! !

* * *

أُطْلِق على الذين أسلموا يوم الفتح اسم « الطُّلَقاء » . . أي الذين نقلهم عَفوُ الرسول من الشرك إلى الإسلام حين قال لهم :

[اذهبوا ، فأنتم الطُّلقاء] .

بَيْدَ أن نفرا من أولئك الطُّلقاء جاوزوا هذا الخَطّ بإخلاصهم الوثيق . وسَمَوْا إلى آفاق بعيدة من التضحية والعبادة والطهر ، وضَعَتْهم في الصفوف الأولى بين أصحاب النبي الأبرار ومن هؤلاء « سهيل بن عمرو » .

* * *

لقد صاغه الإسلام من جديد .

وصقل كل مواهبه الأولى . وأضاف إليها . ثم وضعها جميعا في خدمة الحق . والخير . والإيمان . .

ولقد نعتوه في كلمات فقالوا :

[السَّمْح . الجواد . .

« كثير الصلاة . والصوم . والصدقة . وقراءة القرآن ، والبكاء من خشية الله] . . ! !

وتلك هي عظمة « سُهَيْل » .

فعلى الرغم من أنه أسلم يوم الفَتْح . لا قبْله ، نراه يصدُق في إسلامه وفي يقينه ، إلى المدى الذي يتفوق فيه على كل نفسه . ويتحوَّل إلى عابد ، زاهد ، وإلى فدائي مجاهد في سبيل الله والإسلام .

ولما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى ، لم يكد النبأ يبلغ مكَّة . وكان « سهيل » يومئذ مقيما بها . حتى غَشِيَ المسلمين هناك من الهرج والذهول ما غشي المسلمين بالمدينة .

وإذا كان ذُهول المدينة ، قد بدَّدَه « أبو بكر » رضي الله عنه ساعتئذ

بكلماته الحاسمة :

[مَن كان يعبدُ محمدًا ؛ فإن محمدًا قد مات . . .

« ومن كان يعبدُ الله ، فإن الله حَيٌّ لا يموت] . .

فسيأخذنا العَجَب حين نرى « سُهَيلا » رضي الله عنه هو الذي وقف بمكة ، نفس موقف أبي بكر بالمدينة .

فقد جمع المسلمين كلهم هناك ، ووقف يبهرهم بكلماته الناجعة ، يخبرهم أن محمدًا كان رسول الله حقًا . . وأنه لم يمُتْ حتى أدى الأمانة ، وبَلَّغ الرسالة . وأن واجب المؤمنين به أن يُمْعِنُوا من بعده في السير على مَنهجِه .

وبموقف « سُهيل » هذا ، وبكلماته الرشيدة وإيمانه الوثيق ، دَرأ الفتنة التي كادت تقتلع إيمان بعض الناس بمكة حين بلغهم نبأ وفاة الرسول . . ! !

وفي هذا اليوم أكثر من سواه تألّقت نُبوءَة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ألم يقُل لعمر يوم استأذنه في نزع ثَنِيتي سهيل أثناء أسْرِه ببدر :

[دَعْهَا ، فلعلّها تسرُّك يومًا] . . ؟ !

ففي هذا اليوم . . وحين بلغ المسلمين بالمدينة موقف سهيل بمكة وخطابه الباهر الذي ثبت الإيمان في الأفئدة – تذكَّر « عمر بن الخطاب » نبوءة رسوله . . وضحك طويلا ، إذ جاء اليوم الذي انتفع فيه الإسلام بِثَنِيَّتَيْ سُهَيْل اللتين كان عمر يريد تهشيمها واقتلاعهما . . ! !

* * *

عندما أسلم سهيل يوم الفتح .

وبعد أن ذاق حلاوة الإيمان ، أخذ على نفسه عهدًا لَخَّصه في هذه الكلمات :

[والله لا أدَعُ موقفًا وقفتُه مع المشركين ، إلا وقفت مع المسلمين مثله . . ولا نفقةً أنفقْتها مع المشركين ، إلّا أنفقْت مع المسلمين مثلها ، لعلَّ أمري أن يَتْلوَ بعضُـــه بعضًا] . . ! !

ولقد وقف مع المشركين طويلا أمام أصنامهم . .

فليقف الآن طويلا وطويلا مع المؤمنين بين يدي الله الواحد الأحد .

وهكذا راح يصلي . . ويصلي . .

ويصوم . . ثم يصوم . .

ولا يدع عبادة تجلو روحه ، وتقربه من ربه الأعلى إلا أخذ منها حظًا وافيًا . .

كذلك كان في أمسه يقف مع المشركين في مواطن العدوان والحرب ضد الإسلام .

فليأخذ الآن مكانه في جيش الإسلام ، مقاتلاً شجاعًا ، يطفئ مع كتائب الحق نار فارس التي يعبدونها من دون الله ، ويحرقون فيها مصاير الشعوب التي يستعبدونها . . ويُدمْدِمُ مع كتائب الحق أيضًا على ظلمات الرومان وظُلمهم . . وينشر كلمة التوحيد والتقوى في كل مكان . .

وهكذا خرج إلى الشام مع جيوش المسلمين ، مشاركا في حروبها .

ويوم « اليرْمُوك » حيث خاض المسلمون موقعة تناهَت في الضراوة والعُنف والمخاطرة . .

كان « سهيل بن عمرو » يكاد يطير من الفرح ، إذ وجد هذه الفرصة الدَّسمَةَ لكي يبذُل من ذات نفسه في هذا اليوم العصيب ما يمحق به خطايا جاهليته وشِرْكه . .

* * *

وكان يحب وطنه « مكة » حبا ينسيه نفسه . .

ومع ذلك ، فقد أبى أن يرجع إليها بعد انتصار المسلمين بالشام . وقال :

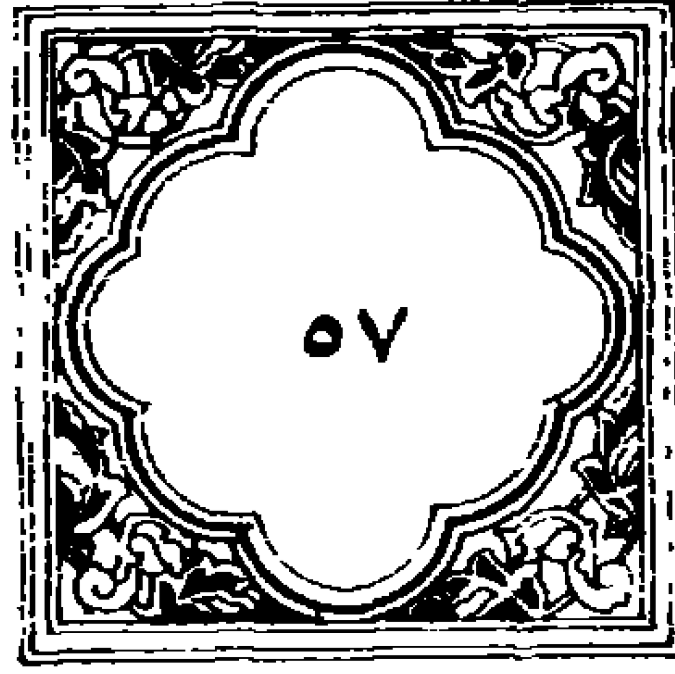
[سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مُقام أحدكم في سبيل الله ساعة ، خيرٌ له من عمله طوال عمره . .

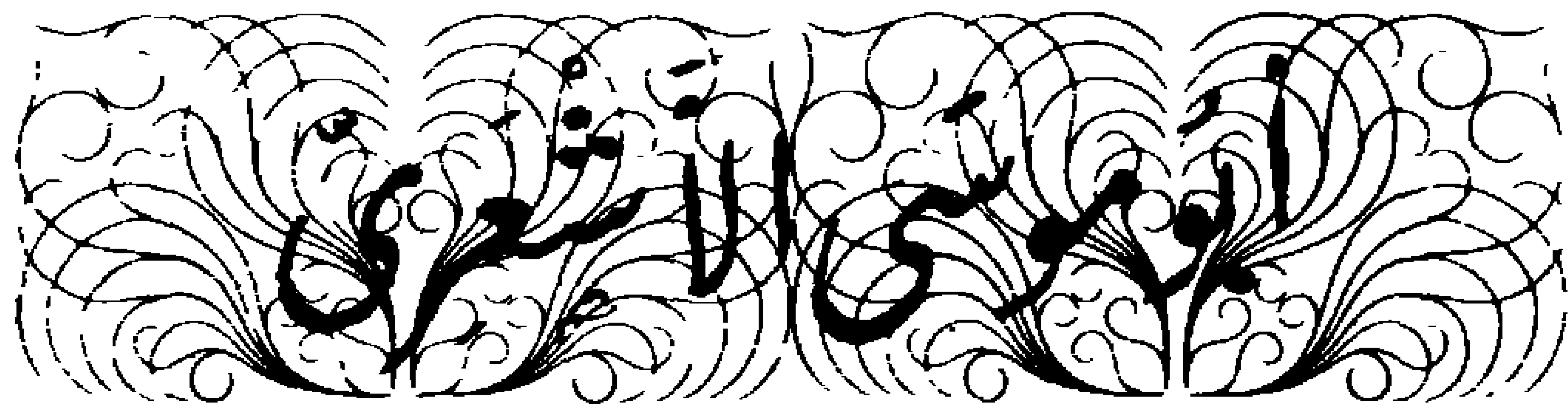
« وإني لمرابطٌ في سبيل الله حتى أموت ، ولن أرجع إلى مكة] . . ! !

* * *

ووفَّى « سُهَيل » عهده . .

وظلَّ بقية حياته مُرابطًا ، حتى جاء موعد رحيله ، فطارت روحه مسرعةً إلى رحمةٍ من الله ورضوان . .





الإخلاص.. وَلْيَكُنْ مَا يَكُون



عندما بعثه أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » إلى البصرة ، ليكون أميرها وواليهَا ، جمع أهلها وقام فيهم خطيبًا فقال :

[إن أمير المؤمنين عمر بعثني إليكم ، أعلِّمكم كتاب ربكم ، وسنة نبيكم ، وأُنَظِّف لكم طرقكم] . . . ! !

وغَشِيَ الناسَ من الدهش والعجب ما غَشِيَهُم ، فإنهم ليفهمون كيف يكون تثقيف الناس وتفقيههم في دينهم من واجبات الحاكم والأمير ، أما أن يكون من واجباته تنظيف طرقاتهم ؛ فذاك شيء جديد عليهم بل مُثير وعجيب . .

فمن هذا الوالي الذي قال عنه الحسن رضي الله عنه :

[ما أتى البصرة راكب خيرٌ لأهلها منه] . . ؟ ؟

* * *

إنه « عبد الله بن قيس » المَكْنيُّ بـ « أبي موسى الأشْعَرِي » . .

غادر « اليمن » بلده ووطنه إلى « مكة » فَوْرَ سماعه برسول ظهر هناك يهتف بالتوحيد ، ويدعو إلى الله على بصيرة ، ويأمر بمكارم الأخلاق . .

وفي مكة ، جلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وتَلَقَّى عنه الهدى واليقين . .

وعاد إلى بلاده يحمل كلمة الله ، ثم رجع إلى الرسول عليه السلام إثر فراغه من فتح خَيْبَر . .

ووافق قدومه قدوم « جعفر بن أبي طالب » مُقبلا مع أصحابه من الحبَشة فأسْهَم الرسول لهم جميعًا . .

وفي هذه المرة لم يأت « أبو موسى » وحده ، بل جاء معه بضعة وخمسون رجلا من أهل « اليمن » الذين لَقَّنهم الإسلام ، وأخَوان شقيقان له ، هم : أبو رُهْم ، وأبو بُردَة . .

وسمَّى الرسول هذا الوفد . . بل سمَّى قومهم جميعًا بالأشْعَرِيين . .

ونعتهم الرسول عليه الصلاة والسلام بأنهم أرقُّ الناس أفئدة . .

وكثيرا ما كان يضرب بهم المثل الأعلى لأصحابه . فيقول فيهم وعنهم :

[إن الأشْعَرِيّين إذا أرْمَلُوا في غَزْو ، أوْ قَلَّ في أيديهم الطعام ، جَمعوا ما عندهم في ثوب واحد . ثم اقتسموه بالسَّوِيَّة .
« فَهُمْ مِنّي . . وأنا مِنْهُم] . . . ! !

* * *

ومن ذلك اليوم أخذ « أبو موسى » مكانه الدائم والعالي بين المسلمين والمؤمنين ، الذين قُدِّرلهم أن يكونوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلامذته ، وأن يكونوا حَملَة الإسلام إلى الدنيا في كل عُصورها ودُهورها . .

* * *

« أبو موسى » مزيج عجيب من صفات عظيمة . .

فهو مقاتل جسور ، ومناضل صُلْب إذا اضْطُرَّ لقتال . .

وهو مُسالم ، طيب ، وديع إلى أقصى غايات الطيبة ، والوداعة . . ! !

وهو فقيه ، حصيف ، ذكيّ ، يجيد تصويب فهمه إلى مغاليق الأمور ، ويتألق في الإفتاء والقضاء ، حتى قيل :

[قضاة هذه الأمة أربعة :

« عمر ، وعليّ ، وابو موسى ، وزيد بن ثابت] . . ! !

ثم هو مع هذا ، صاحب فِطرة بريئة ، مَنْ خدعَهُ في الله ، انخدَعَ لَه . . ! !

وهو عظيم الولاء لمسئولياته . .

وكبير الثقة بالناس . .

لو أردنا أن نختار من واقع حياته شعارًا ، لكانت هذه العبارة :

[الإخلاص ، وليكن ما يكون] . . .

في مواطن الجهاد ، كان « الأشعري » يحمل مسئولياته في استبسال مجيد مما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عنه :

[سيد الفوارس ، أبو موسى] . . ! !

وإنه ليرينا صورة من حياته كمقاتل فيقول :

[خرجنا مع رسول الله في غَزاة ، نُقِّبَتْ فيها أقدامنا ، ونقّبَتْ قدماي ، وتساقَطتْ أظفاري ، حتى لَفَفْنا أقدامنا بالخِرَق] . . ! !

وما كانت طيبتُه وسلامة طويته لِيغريا به عَدُوًّا في قتال . .

فهو في موطن كهذا يرى الأمور في وضوح كامل ، ويحسمها في عزم أكيد . .

ولقد حدث والمسلمون يفتحون بلاد فارس أن هبط الأشعري بجيشه على أهل أصْبَهان الذين صالحوه على الجزية فصالحهم . .

بيد أنهم في صلحهم ذاك لم يكونوا صادقين . . إنما أرادوا أن يهيئوا لأنفسهم فرصة الإعداد لضربة غادرة . .

ولكن فطنة « أبي موسى » التي لا تغيب في مواطن الحاجة إليها كانت تستشِفُّ أَمْرَ أولئك وما يُبَيِّتون . . فلما همُّوا بضربتهم لم يؤخذ القائد على غِرَّة ، وهنالك بارَزَهْم القتال فلم ينتصف النهار حتى كان قد انتصر انتصارًا باهرًا . . ! !

* * *

وفي المعارك التي خاضها المسلمون ضد امبراطورية الفرس ، كان « لأبي موسى الأشعري » رضي الله عنه . بلاؤه العظيم وجهاده الكريم . . .

وفي موقعة « تُسْتَر » بالذات ، حيث انسحب الهُرْمزان بجيشه إليها وتحصَّن بها ، وجمع فيها جيوشًا هائلة ، كان « أبو موسى » بطل هذه الموقعة . . .

لقد أمدَّهُ أمير المؤمنين « عمر » يومئذ بأعداد هائلة من المسلمين ، على رأسهم « عمار بن ياسر » و « البَرَاء بن مالك » و « أَنَس بن مالك » ، و « مَجْزَأة البكري » و « سَلَمة بن رجاء » . .

والتقى الجيشان . .

جيش المسلمين بقيادة « أبي موسى » . . وجيش الفرس بقيادة الهرمزان » في معركة من أشد المعارك ضراوة وبأسًا . .

وانسحب الفرس إلى داخل مدينة « تُسْتَر » المُحصنة . .

وحاصرها المسلمون أيامًا طويلة ، حتى أعمل أبو موسى عقله وحيلَتَه . . .

وأرسل مائتي فارس مع عميل فارسي ، أغراه « أبو موسى » بأن يحتال حتى يفتح باب المدينة ، أمام الطليعة التي اختارها لهذه المهمة . .

ولم تكد الأبواب تُفتح ، وجنود الطليعة يقتحمون الحِصْن حتى انقض « أبو موسى » بجيشه انقضاضًا مُدمْدمًا . .

واستولى على المعقل الخطير في ساعات . واستسلم قادة الفرس ، حيث بعث بهم أبو موسى إلى المدينة ليرى أمير المؤمنين فيهم رأيه . .

* * *

على أن هذا المقاتل ذا المِراس الشديد ، لم يكن يغادر أرض المعركة حتى يتحول إلى أوَّاب ، بَكّاء ، وديع كالعصفور . . !

يقرأ القرآن بصوت يهز أعماق من يسمعه . . حتى لقد قال عنه الرسول :

« لقد أوتيَ أبو موسى مزمارًا من مَزامير آل داود » . !

وكان عمر رضي الله عنه كلما رآه دعاه ليتلُوَ عليه من كتاب الله . . قائلا له :

« شَوِّقْنا إلى ربنا ، يا أبا موسى » . .

كذلك لم يكن يشترك في قتال إلا أن يكون ضد جيوش مشركة ، جيوش تقاوم الدين وتريد أن تُطفئ نور الله . .

أما حين يكون القتال بين مسلم ومسلم ، فإنه يهرب منه ولا يكون له فيه دور أبدًا .

ولقد كان موقفه هذا واضحًا في نزاع علي ومعاوية ، وفي الحرب التي اسْتَعَرَ بين المسلمين يومئذ أُوَارُها .

ولعلَّ هذه النقطة من الحديث تَصِلُنا بأكثر مواقف حياته شهرة ، وهو موقفه في التحكيم بين الإمام علي ومعاوية .

هذا الموقف الذي كثيرًا ما يُؤْخذ آية وشاهدًا على إفراط أبي موسى في الطيبة إلى حد يسهل فيه خِداعُه .

بيد أن الموقف كما سنراه ، ورغم ما عسَى أن يكون فيه من تَسرُّع أو خطأ ، إنما يكشف عن عظمة هذا الصحابي الجليل – عظمة نفسه ، وعظمة إيمانه بالحق ، وبالناس . . إنّ رَأي « أبي موسى » في قضية التحكيم يتلخص في أنه وقد رأى المسلمين يقتل بعضهم بعضًا ، كل فريق يتعصب لإمام وحاكم . . كما رأى الموقف بين المتقاتلين قد بلغ في تأزُّمِه واستحالة تصفيته المَدَى الذي يضع مصير الأمة المسلمة كلها على حافة الهاوية .

نقول : إن رأيه وقد بلغت الحال من السوء هذا المبلغ ، كان يتلخص في تغيير الموقف كله والبدء من جديد .

إن الحرب الأهلية القائمة يومذاك إنما تدور بين طائفتين من المسلمين تتنازعان حول شخص الحاكم ، فليتنازل الإمام علي عن الخلافة مؤقتا ، ولْيتنازل عنها معاوية ، على أن يرد الأمر كله من جديد إلى المسلمين يختارون بطريق الشورى الخليفة الذي يريدون .

هكذا ناقش « أبو موسى » القضية ، وهكذا كان حلُّه لها .

صحيح أن الإمام عليًا كرم الله وجهه بويع بالخلافة بيعة صحيحة .

وصحيح أن كل تمرُّد غير مشروع لا ينبغي أن يمكَّن من غرضه في إسقاط الحق المشروع . بيد أن الأمور في النزاع بين الإمام ومعاوية ، وبين أهل العراق وأهل الشام كانت – في رأي أبي موسى – قد بلغت المدَى الذي يفرض نوعًا جديدًا من التفكير ومن الحلول . . فعصيان معاوية ، لم يعد مجرد عصيان . . وتمرد أهل الشام لم يعد مجرد تمرُّد . . والخلاف كله لم يعد مجرد خلاف في الرأي ولا في الاختيار . .

بل إن ذلك كله تطوَّر إلى حرب أهلية ضارية ذهب فيها آلاف القتلى من الفريقين . . ولا تزال تهدد الإسلام والمسلمين بأسوأ العواقب .

فإزاحة أسباب النزاع والحرب ، وتنحية أطرافه ، مثَّلا في تفكير أبي موسى نقطة البدء في طريق الخلاص . .

ولقد كان من رأي « الإمام علي » حينما قبل مبدأ التحكيم ، أن يُمثل جبهته في التحكيم « عبد الله بن عباس » ، أو غيره من أصحابه . لكن فريقًا كبيرًا من ذوي البأس في جماعته وجيشه فرض عليه « أبا موسى الأشعري » فرضًا .

وكانت حجتهم في اختيارهم « أبا موسى » أنه لم يشترك قط في النزاع بين علي ومعاوية منذ بدأ النزاع . بل اعتزل كلا الفريقين بعد أن يئس من حملهما على التفاهم والصلح ونبذ القتال . فهو بهذه المثابَة أحق الناس بالتحكيم . .

ولم يكن في دين أبي موسى ، ولا في إخلاصه وصِدْقه ما يريب الإمام . . لكنه كان يدرك نوايا الجانب الآخر ويعرف مَدى اعتمادهم على

المناورة والخدعة . وأبو موسى رغم فقهه وعلمه يكره الخداع والمناورة ، ويحب أن يتعامل مع الناس ، بصدقه ، لا بذكائه . ومن ثمَّ خشي الإمام « عَليّ » أن ينخدع أبو موسى للآخرين ، ويتحول التحكيم إلى مناورة من جانب واحد . تزيد الأمور سُوءًا . .

* * *

بدأ التحكيم بين الفريقين . .

أبو موسى الأشعري – يمثل جبهة الإمام علي .

وعمرو بن العاص – يمثل جانب معاوية .

والحق أن « عمرو بن العاص » اعتمد على ذكائه الحاد وحيلته الواسعة في أخذ الراية لمعاوية .

ولقد بدأ الاجتماع بين الرجلين – الأشعري ، وعمرو – باقتراح طرحه أبو موسى – هو أن يتفق الحكمان على ترشيح « عبد الله بن عمر » بل وعلى إعلانه خليفة للمسلمين ، وذلك لما كان ينعم به « عبد الله بن عمر » من إجماع رائع على حبه وتوقيره وإجلاله .

ورأى عمرو بن العاص في هذا الاتجاه من أبي موسى فرصة هائلة فانتهزها . .

إن مغزى اقتراح أبي موسى ، أنه لم يعد مُرتبطًا بالطرف الذي يمثله – وهو الإمام علي . .

ومعناه أيضًا أنه مستعد لإسناد الخلافة إلى آخرين من أصحاب الرسول بدليل أنه اقترح عبد الله بن عمر . .

وهكذا عثر « عمرو » بدهائه على مدخل فسيح إلى غايته ، فراح يقترح « معاوية » . . ثم اقترح ابنه « عبد الله بن عمرو » وكان ذا مكانة عظيمة بين أصحاب الرسول عليه وعليهم الصلاة والسلام .

ولم يَغبْ ذكاء أبي موسى أمام دهاء عمرو . . فإنه لم يكد يرى « عَمْرًا » يتخذ مبدأ الترشيح قاعدة للحديث والتحكيم حتى لوى الزمام إلى وجْهةٍ أسلم ، فجابَهَ عمرًا بأن اختيار الخليفة حق للمسلمين جميعًا ، وقد جعل الله أمرَهُم شُورَى بينهم ؛ فيجب أن يُترك لهم وحدهم وجميعهم حق الاختيار . .

وسوف نرى كيف استغلَّ « عمرو » هذا المبدأ الجليل لصالح معاوية . .

ولكن قبل ذلك لنستمع إلى نص الحوار التاريخي الذي دار بين أبي موسى وعمرو بن العاص في بدء اجتماعهما ، ننقله عن كتاب « الأخبار الطوال » لأبي حنيفة الدينَوري :

أبو موسى – يا عمرو . هل لك فيما فيه صلاح الأمة ورِضا الله . . ؟

عمرو – وما هو . . ؟

أبو موسى – نولِّي عبد الله بن عمر ، فإنه لم يُدخل نفسه في شيء من هذه الحرب .

عمرو – وأين أنت من معاوية . . ؟

أبو موسى – ما معاوية بموضع لها ولا يستحقها .

عمرو – ألستَ تعلم أن « عثمان » قُتل مظلومًا . . ؟

أبو موسى – بلى . .

عمرو — فإن معاوية وَلِيُّ دَم عثمان ، وبيتُه في قريش ما قد علمت . فإن قال الناس لِم وُليَ الأمر وليست له سابقة ؟ فإن لك في ذلك عذرًا . تقول : إني وجدته وليَّ عثمان ، والله تعالى يقول : [ومَن قُتِلَ مظلومًا فقد جَعَلْنا لوليه سلطانًا] . . !

وهو مع هذا ، أخو « أم حبيبة » زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أحد أصحابه . .

أبو موسى— اتق الله يا عمرو . .

أمَّا ما ذكرت من شرف معاوية ، فلوكانت الخلافة تُستحقُّ بالشرف لكان أحقَّ الناس بها « أبْرهَة بن الصبَّاح » فإنه من أبناء ملوك اليمن التَّبابِعة الذين ملكوا شرق الأرض وغربها . . ثم أي شرف لمعاوية مع علي بن أبي طالب . . ؟ ؟

« وأما قولك : إن معاوية وليُّ عثمان ، فأوْلىَ منه ابنه « عمرو ابن عثمان » . .

ولكن إن طاوعتني أحيَيْنا سنة « عمر بن الخطاب » وذِكْرَه ، بتوليتنا ابنه عبد الله الحَبر . .

عمرو — فما يمنعك من ابني عبد الله مع فضله وصلاحه وقديم هجرته وصُحبته . . ؟

أبو موسى— إن ابنَكَ رجلُ صدق ، ولكنك قد غمَسْتَه في هذه الحروب غمسًا ، فَهَلُمَّ نجعلها للطَّيب بن الطيب . . عبد الله بن عمَر .

عمرو — يا أبا موسى ، إنه لا يصلح لهذا الأمر إلا رجل له ضِرْسان يأكل بأحدهما ، ويُطعم بالآخر . . ! !

أبو موسى – وَيحَكَ يا عمرو . إن المسلمين قد أسندوا إلينا الأمر بعد أن تقارَعُوا بالسيوف ، وتَشَاكُّوا بالرماح ، فلا نردَّهم في فتنة .

عمرو – فماذا ترى . . ؟

أبو موسى – أرى أن نخلْع الرجلين – عليًّا ومعاوية – ثم نجعلها شُورَى بين المسلمين . يختارون لأنفسهم من أحبُّوا .

عمرو – رضيت بهذا الرأي فإن صلاحَ النفوس فيه . .

إن هذا الحِوار يغير تمامًا وجه الصورة التي تعوَّدْنا أن نرى بها « أبا موسى الأشعري » كلما ذكرنا واقعة التحكيم هذه . .

إن « أبا موسى » كان أبعد ما يكون عن الغفلة . .

بل إنه في حواره هذا كان ذكاؤه أكثر حركة من ذكاء « عمرو بن العاص » المشهور بالذكاء وبالدهاء . .

فعندما أراد « عمرو » أن يجرِّع « أبا موسى » خلافة معاوية بحجة حسبه في قريش . وولايته لدم عثمان ، جاء ردُّ « أبي موسى » حاسمًا لامعًا كحدِّ السيف . . . ! !

– إذا كانت الخلافة بالشرف ، فأبرهة بن الصباح سليل الملوك أولى بها من معاوية . .

– وإذا كانت بولاية دم عثمان والدفاع عن حقه ، فابن عثمان رضي الله عنه ، أوْلى بهذه الولاية من معاوية . .

* * *

لقد سارت قضية التحكيم بعد هذا الحوار في طريق يتحمل مسئوليتها « عمرو بن العاص » وحده . .

فقد أبرأ « أبو موسى » ذمته بردِّ الأمر إلى الأمة ، تقول كلمتها وتختار خليفتها . .

ووافق « عمرو » والتزم بهذا الرأي . .

ولم يكن يخطر ببال « أبي موسى » أن « عَمْرًا » في هذا الموقف الذي يهدد الإسلام والمسلمين بشر كارثة ، سيلجأ إلى المناورة ، مهما يكن اقتناعه بمعاوية . .

ولقد حذّره « ابن عباس » حين رجع إليهم يخبرهم بما تم الاتفاق عليه . . حذره من مناورات « عمرو » وقال له :

[أخشى والله أن يكون عمرو قد خدَعك . فإن كنتما قد اتفقتما عَلَى شيْ فقدِّمه قبلك ليتكلم ، ثم تكلم أنت بعده] . . ! !

لكن « أبا موسى » كان يرى الموقف أكبر وأجلَّ من أن يُناورَ فيه « عمرو » . . ومن ثم لم يخالجه أي ريب أو شك في التزام « عمرو » بما اتفقا عليه . .

واجتمعا في اليوم التالي . . . « أبو موسى » ، ممثلا لجبهة « الإمام عليّ » و« عمرو بن العاص » ممثلا لجبهة « معاوية » . .

ودعا « أبو موسى » « عَمْرًا » ليتحدث . . فأبى « عمرو » وقال له :

[ما كُنتُ لأتقدَّمَك وأنت أكثر مني فضلا . . وأقدمُ هجرة . . وأكبر سنًا] . . ! !

وتقدم « أبو موسى » واستقبل الحشود الرابضة من كلا الفريقين . .

وقال :

[أيها الناس . . إنا قد نظرنا فيما يجمع الله به ألفة هذه الأمة ويصلح أمرها ، فلم نَرَ شيئًا أبلغ من خلع الرجلين – عليّ ومعاوية – وجَعلها شورى يختار الناس لأنفسهم من يرونه لها . .

« وإني قد خَلَعْتُ عليًا ومعاوية . .

« فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من أحببتم] . .

وجاء دور « عمرو بن العاص » . ليعلن خَلْعَ معاوية . كما خلع « أبو موسى » عليًا ، تنفيذًا للاتفاق المبرم بالأمس . .

وصعد « عمرو » المنبر . وقال :

[أيها الناس ، إن أبا موسى قد قال ما سمعتم ، وخلع صاحبه . .

« ألَا وإني قد خَلَعْتُ صاحبه كما خلعه ، وأُثْبِتُ صاحبي معاوية ، فإنه وليُّ أمير المؤمنين « عثمان » والمطالب بدمه ، وأحقُّ الناس بمقامه . .] ! !

ولم يحتمل « أبو موسى » وقع المفاجأة . فَلَفح « عمرًا » بكلمات غاضبة ثائرة . .

وعاد من جديد إلى عُزْلته ، وأغَذَّ خطاه إلى مكة . . إلى جوار البيت

الحرام ، يقضي هناك ما بقي له من عُمر وأيام . .

* * *

كان « أبو موسى » رضي الله عنه موضع ثقة الرسول وحبه ، وموضع ثقة خلفائه وأصحابه وحبهم . .

ففي حياته عليه الصلاة والسلام ولاه مع « معاذ بن جبل » أمر اليمن . .

وبعد وفاة الرسول عاد إلى المدينة ليحمل مسئولياته في الجهاد الكبير الذي خاضته جيوش الإسلام ضد فارس والروم . .

وفي عهد « عمر » ولاه أمير المؤمنين البصرة . .

وولاه الخليفة « عثمان » الكوفة . .

* * *

وكان من أهل القرآن ، حفظًا ، وفقهًا ، وعملاً . .

ومن كلماته المضيئة عن القرآن :

[اتَّبِعوا القرآن . . .

« ولا تطمعوا في أن يَتْبَعكم القرآن] . . ! !

وكان من أهل العبادة المثابرين . .

وفي الأيام القائظة التي يكاد حرها يزهق الأنفاس ، كنت تجد « أبا موسى » يلقاها لقاء مشتاق ليصومها ويقول :

[لعلَّ ظمأ الهواجر يكون لنا رِيًّا يوم القيامة] . .

* * *

وذات يوم رطيب جاءه أجلهُ . .

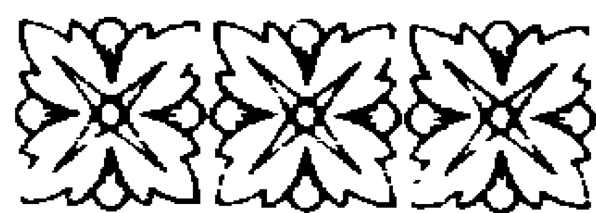
وكَسَت محيَّاه إشراقةُ من يرجو رحمة الله وحُسن ثوابه . .

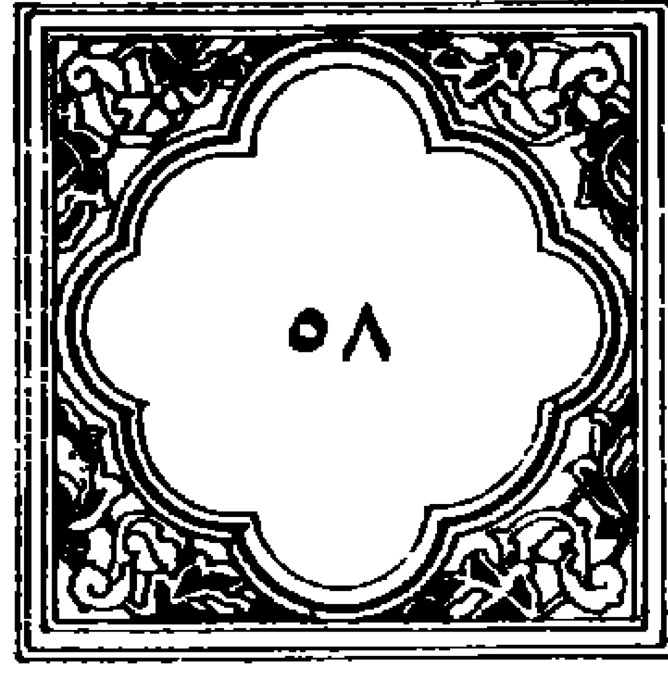
والكلمات التي كان يرددها دائمًا طوال حياته المؤمنة ، راح لسانه الآن وهو في لحظات الرحيل يرددها . .

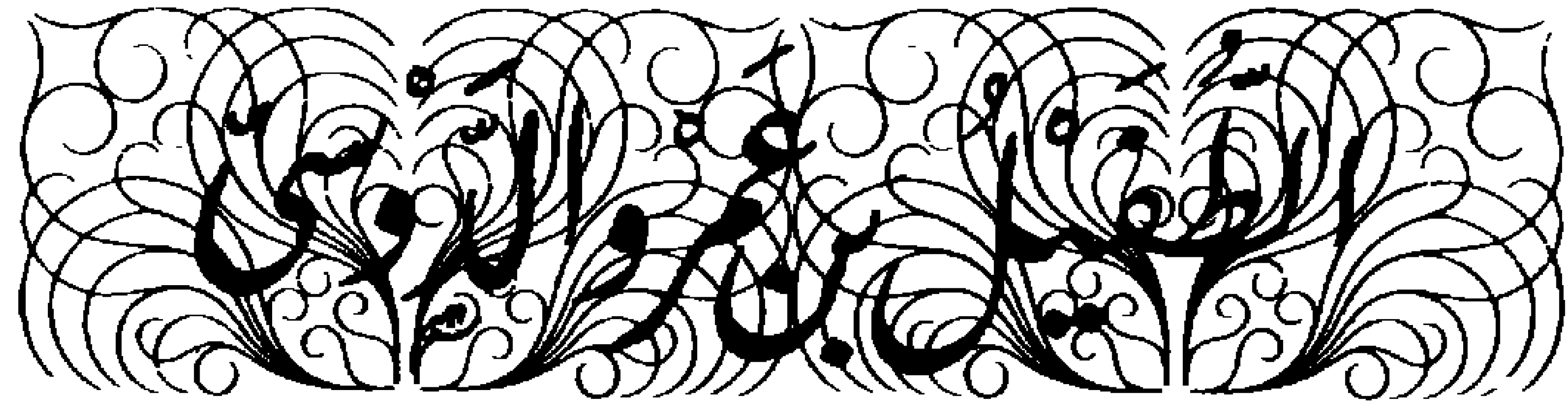
تلك هي :

[اللهم أنت السلام . . .

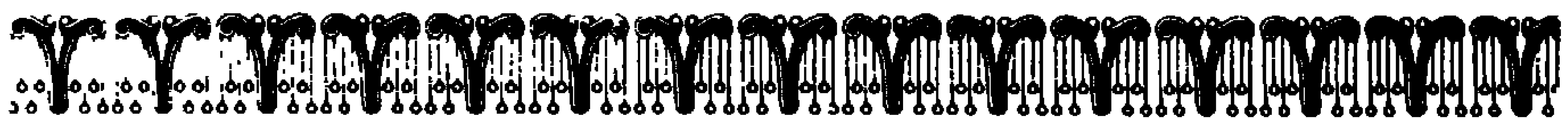
ومنك السلام] . .







الفِطْـرَةُ الرّاشِـدَة



في أرض « دَوْسٍ » نشأ بين أسرة شريفة كريمة . .

وأوتِي موهبة الشعر ، فطار بين القبائل صيتُه ونبوغه . .

وفي مواسم « عُكاظ » حيث يأتي شعراء العرب من كل فَجّ ، وحيث يجتمع الناس ويحتشدون ، ويتباهَوْن بشعرائهم ، كان « الطفيل » يأخذ مكانه في المقدمة . .

كما كان يتردد على مكة كثيرًا في غير مواسم « عكاظ » . .

وذات مرَّة كان يزورها ، وقد شرع الرسول يجهر بدعوته . .

وخشيت قريش أن يلقاه « الطُّفَيل » ويسلم ، ثم يضع موهبته الشعرية في خدمة الإسلام ، فتكون الطَّامَّة على قريش وأصنامها . .

من أجل ذلك أحاطوا به . . وهيأوا له من الضيافة كل أسباب الترف والبهجة والنعيم ، ثم راحوا يحذرونه لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقولون له :

[إن له قولاً كالسِّحر ، يُفرّق بين الرجل وأبيه . . والرجل وأخيه . . والرجل وزوجته . . وإنا نخشى عليك وعَلَى قومك منه ، فلا تكلمه ولا تسمع منه حديثًا] . . ! !

ولْنُصْغِ للطُّفيل ذاته يروي لنا بقية النبأ ، فيقول :

« فواللهِ ما زالوا بي ، حتى عزمتُ عَلَى ألا أسمع منه شيئًا ولا ألقاه . . .

« وحين غدوْتُ إلى الكعبة حَشوْتُ أذُنَيَّ كُرْسُفًا ، كي لا أسمع شيئًا من قوله ، إذا هو تحدث . .

« وهناك وجدتُه قائمًا يصلي عند الكعبة . فقمت قريبًا منه . فأبى الله إلا أن يسمعني بعض ما يقرأ ، فسمعت كلامًا حسنًا . . .

« وقلتُ لنفسي : وَاثُكْلَ أمي . . واللهِ إني لرجلٌ لبيبٌ شاعر . لا يخفى عَلَيَّ الحسن من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من الرجل ما يقول . فإن كان الذي يأتي به حسن قبلتُه ، وإن كان قبيحًا تركتُه . . .

« ومكثتُ حتى انصرف إلى بيته ، فاتبعته حتى دخل بيته ، فدخلتُ وراءه ، وقلتُ له : يا محمد ، إن قومك قد حدثوني عنك كذا وكذا . .

« فواللهِ ما بَرِحُوا يخوِّفونني أمْرَك حتى سَدَدتُ أذُنيَّ بكرْسُفٍ لئلا أسمع قولك . .

« ولكن الله شاء أن أسمع ، فسمعتُ قولاً حسنًا ، فاعْرِض عَلَيَّ أمْرَك . .

« فعرض الرسول عَلَيَّ الإسلام ، وتلا عَلَيَّ من القرآن . . .

« فلا واللهِ ، ما سمعتُ قولا قط أحسنَ منه ، ولا أمرًا أعْدَلَ منه . . .

« فأسلَمتُ ، وشَهِدْتُ شهادة الحق ، وقلت : يا رسول الله : إني امْرُؤٌ مُطاعٌ في قومي وإني راجعٌ إليهم ، وداعيهم

إلى الإسلام ، فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عَونًا فيما أدعوهم إليه ، فقال عليه السلام : اللهم اجعل لَهُ آيَةً] . .

* * *

لقد أثنى الله تعالى في كتابه على « الذين يسمعون القول فيتَّبعون أحسَنَه » . .

وها نحن أولاء نلتقي بواحد من هؤلاء . . .

إنه صورة صادقة من صُور الفطرة الرشيدة . .

فما كاد سمعُه يلتقط بعض آيات الرُّشد والخير التي أنزلها الله على فؤاد رسوله ، حتى تفتَّح كل سمعه ، وكل قلبه . وحتى بسط يمينه مُبايعا . . ليس ذلك فحسب . . بل وحمَّل نفسه من فَوْره مسئولية دعوة قومه وأهله إلى هذا الدين الحق ، والصراط المستقيم . . !

من أجل هذا ؛ نراه لا يكاد يبلغ بلده وداره في أرض « دَوْس » حتى يُواجه أباه بالذي في قلبه من عقيدة وإصرار ، ويدعو أباه إلى الإسلام بعد أن حدَّثه عن الرسول الذي يدعو إلى الله . . حدثه عن عظمته . . عن طهره وأمانته . . عن إخلاصه وإخْباتِه لله رب العالمين . . .

وأسلم أبوه في الحال . .

ثم انتقل إلى أمه ، فأسلمت . .

ثم إلى زوجه ، فأسلمت . .

ولما اطمأن إلى أن الإسلام قد غمَر بيته ، انتقل إلى عشيرته ، وإلى أهل « دَوْس » جميعًا . . فلم يُسْلِم منهم أحد سوى أبي هريرة رضي الله عنه . .

ولقد راحوا يخذلونه . وَينأَوْنَ عنه . حتى نفد صبره معهم وعليهم فركب راحِلَته . وقطع الفيافي عائدًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو إليه . ويتزوَّد منه بتعاليمه . .

وحين نزل « مكة » سارع إلى دار الرسول تحدوه أشواقُه .

وقال للنبي :

[يا رسول الله . .

إنه قد غَلَبني على دَوْسٍ الزِّنا . والرِّبا ، فادْعُ الله أن يُهلِكَ دَوْسا] . . ! !

وكانت مفاجأةً أذهلت « الطفيل » حين رأى الرسول يرفع كفيه إلى السماء وهو يقول :

[اللَّهُمَّ اهْدِ دوْسا وأتِ بهم مُسْلِمين] . . ! !

ثم الْتفَت إلى الطُّفيل . . وقال له :

[ارجع إلى قومك فادْعُهم وارفُقْ بهم] .

ملأ هذا المشهد نفس « الطفيل » رَوعة . وملأ روحه سلامًا . وحمد الله أبلغ الحمد أن جعل هذا الرسول الإنسان الرحيم مُعَلِّمَه وأُستاذَه . وأن جعل الإسلام دينَه وملاذه .

ونهض عائدًا إلى أرضه وقومه .

وهناك راح يدعوهم إلى الإسلام في أناةٍ ورِفق ، كما أوصاه الرسول عليه السلام .

وخلال الفترة التي قضاها بين قومه ، كان الرسول قد هاجر إلى المدينة – وكانت قد وقعت غزوة « بدر » ، و « أُحد » و « الخندَق » .

وبينما رسول الله في « خَيْبَر » بعد أن فتحها الله على المسلمين – إذا موكب حافل ينتظم ثمانين أسرة من « دَوْس » أقبلوا على الرسول مُهلّلين مُكبّرين . .

وبين يديه جلسوا يُبايعون تِباعًا . .

ولما فرغوا من مشهدهم الحافل ، وبيعتهم المباركة جلس « الطفيل بن عمرو » مع نفسه يسترجع ذكرياته ويتأمل خُطاه على الطريق . . ! !

تذكَّر يوم قدم إلى الرسول يسأله أن يرفع كفيه إلى السماء ويقول : « اللهم أهلِك دوسًا » . . فإذا هو يبتهل بدعاء آخر أثار يومئذ عجبه . .

ذلك هو :

[اللهم اهْدِ دَوْسًا وأتِ بهم مسلمين] ! !

ولقد هدى الله دوسًا . .

وجاء بهم مسلمين . .

وها هم أولاء . . ثمانون بيتًا ، وعائلة منهم ، يُشكِّلون أكثرية أهلها ، يأخذون مكانهم في الصفوف الطاهرة خلف رسول الله الأمين .

* * *

ويُواصل « الطُّفَيل » عمله مع الجماعة المؤمنة . .

ويوم فتح مكة ، كان يدخلها مع عشرة آلاف مسلم لا يَثْنُون أعطافهم زهوًا وصَلَفًا ، بل يحنون جباهَهُم في خشوع وإجلال ، شكرًا لله الذي

أثابهم فتحًا قريبًا ، ونصرًا مبينًا . .

ورأى « الطفيل » رسولَ الله وهو يهدم أصنام الكعبة ، ويطهرها بيده من ذلك الرِّجْس الذي طال مداه . .

وتذكَّر « الدوْسِيُّ » من فَوْره صنمًا كان لعمرو بن حُمَمَة . طالما كان « عمرو » هذا يصطحبه إليه حين ينزل ضيافته ، فيتخشَّع بين يديه ، ويتضرع إليه . . ! !

الآن حانت الفرصة ، ليمحو « الطفيل » عن نفسه إثْم تلك الأيام . . هنالك تقدم من الرسول عليه الصلاة والسلام يستأذنه في أن يذهب ليحرق صَنم عمرو بن حُمَمَة وكان هذا الصنم يُدْعَى – ذا الكَفَين – وأذِن له النبي عليه السلام .

ويذهب (الطفيل) ويوقد النار عليه . . وكلما خَبَتْ زادها ضِرامًا وهو يُنشد ويقول :

يا ذا الكَفَيْنِ ، لَسْتُ ، من عُبَّادكا
ميلاَدُنا أَقدمُ من ميلاَدِكا ! !
إني حشَوْتُ النـــار في فؤادكـــا

وهكذا عاش مع النبي ، يصلي وراءه ، ويتعلم منه ، ويغزو معه .

وينتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى ، فيرى الطفيل أن مسئوليته كمسلم لم تنته بموت الرسول – بل إنها لَتكاد تبدأ . . .

وهكذا لم تكد حروب الردة تنشب حتى كان الطفيل يُشمّر لها عن ساعدٍ وساقٍ ، وحتى كان يخوض غمراتِها وأهوالَها في حنانِ مشتاقٍ إلى الشهادة . .

اشترك في حروب الردة حربًا . . حربًا . .

وفي موقعة « اليمامة » خرج مع المسلمين مصطحبًا معه ابنه « عمرو ابن الطفيل » .

ومع بدء المعركة راح يوصي ابنه أن يقاتل جيش الكذَّاب مسيلمة قتال من يريد الموت والشهادة . .

وأنبأه أنه – أي الطُّفيل – يُحسُّ أنه سيموت في هذه المعركة .

وهكذا حمل سيفه وخاض القتال في تفانٍ مجيد . .

لم يكن يدافع بسيفه عن حياته .

بل كان يدافع بحياته عن سيفه .

حتى إذا مات هو وسقط جسده ، بقي السيف سليمًا مرهفًا لتضرب به يدٌ أخرى لم يسقط صاحبها بعد . . ! !

وفي تلك الموقعة استُشهد الطفيل الدوسيُّ رضي الله عنه . .

وهوى جَسده تحت وقع الطعان ، وهو يلوح لابنه الذي لم يكن يراه وسط الزحام . . ! !

يُلَوِّحُ له وكأنه يهيب به ليتبعه ويلحق به . .

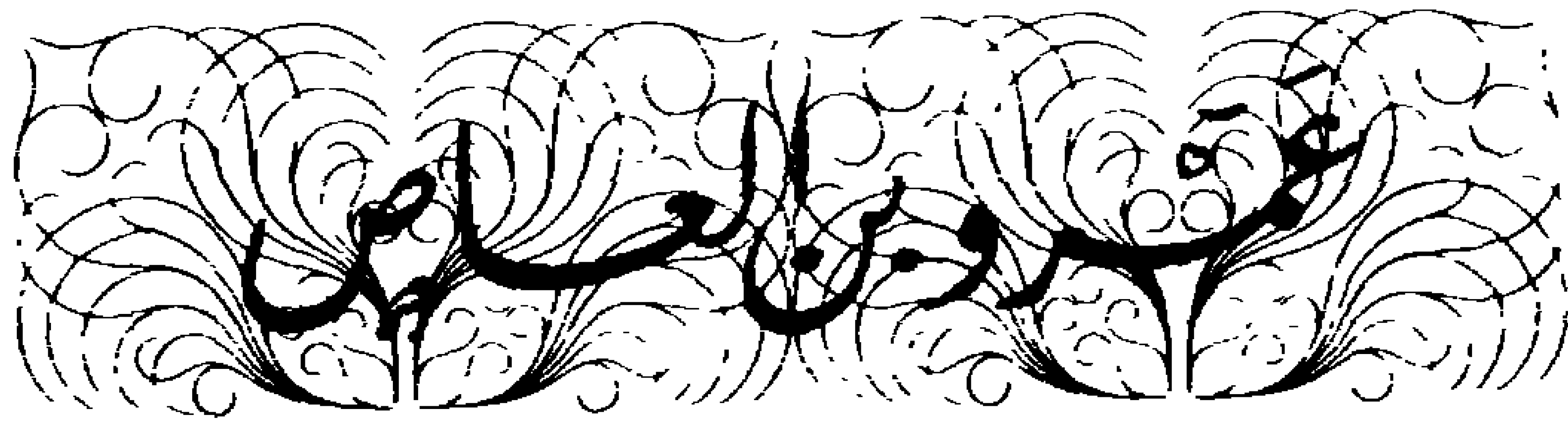
ولقد لحق به فعلا . . ولكن بعد حين . .

ففي موقعة « اليرموك » بالشام خرج « عمرو بن الطفيل » مجاهدًا . . وقضى نحْبه شهيدًا . .

وكان وهو يجود بأنفاسه ، يبسط ذراعه اليمنى ويفتح كفّه ، كما لو كان سيصافح بها أحدًا . . ومَنْ يدري . . ؟ ؟

لعله ساعتئذ كان يصافح رُوح أبيه . . ! !





مُحَرِّرُ مِصْرَ مِنَ الرُّومَانِ



كانوا ثلاثة في قريش ، أتعبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعنف مقاومتهم دعوتَه وإيذائِهم أصحابه . .

وراح الرسول يدعو عليهم ، ويبتهل إلى ربه الكريم أن ينزل بهم عقابه . .

وإذ هو يدعو ، ويَدْعو ، تنزَّل الوحي على قلبه بهذه الآية الكريمة . .

[ليس لَكَ مِنَ الأمْرِ شيْءٌ ، أوْ يتوبَ عليهم ، أو يُعَذِّبهم ، فإنهم ظالمون] . .

وفهم الرسول من الآية أنها أمر له بالكَفِّ عن الدعاء عليهم ، وتَرك أمرهم إلى الله وحده . .

فإمّا أن يظلُّوا على ظُلمهم ، فيحلُّ بهم عذابُه . .

أو يتوب عليهم ، فيتوبوا ، وتدركهم رحمتُه . .

كان « عمرو بن العاص » أحد هؤلاء الثلاثة . .

ولقد اختار الله لهم طريق التوبة ، والرحمة ، فهداهم إلى الإسلام . . .

وتحول « عمرو بن العاص » إلى مسلم مناضل . . وإلى قائد من قادة الإسلام البواسل . .

وعلى الرغم من بعض مواقف « عمرو » التي لا نستطيع أن نقتنع بوجهة نظره فيها ، فإن دوره كصحابيّ جليل بذَلَ وأعطى ، ونافح وكافح ، سيظل يفتح على مُحيَّاه أعيننا وقلوبنا . .

وهنا في مصر بالذات ، سيظل الذين يرون في الإسلام دينًا قيمًا مجيدًا . . ويرون في رسوله رحمة مُهداة ، ونعمة مُزجاة ، ورسول صِدْق عظيم ، دعا إلى الله على بصيرة ، وألهم الحياة كثيرا من رُشدها وتُقاها . .

سيظل الذين يحملون هذا الإيمان مَشْحُوذِي الولاء للرجل الذي جعلته الأقدار سببًا – وأيَّ سبب – لإهداء الإسلام إلى مصر ، . وإهداء مصر إلى الإسلام . . فَنِعْمت الهديّة . ونِعْمَ مُهديها . .

ذلكم هو : « عمرو بن العاص » رضي الله عنه . .

* * *

ولقد تعود المؤرخون أن ينعتوا « عَمْرًا » بـ « فاتح مصر » . .

بيد أنا نرى في هذا الوصف تجوُّزا وتجاوُزًا . ولعل أحق النعوت بعمرو – أن ندعُوَه – « مُحرر مصر » . .

فالإسلام لم يكن يفتح البلاد بالمفهوم الحديث للفتح ، إنما كان يحررها من تسلُّط امبراطوريتين سامَتا العباد والبلاد سوء العذاب ، تانِكَ هما : امبراطورية الفرس . . وامبراطورية الروم . .

ومصر بالذات . يوم أهلَّت عليها طلائع الإسلام كانت نهبا للرومان . وكان أهلها يقاومون دون جَدْوَى . .

ولما دوَّت فوق مشارِف بلادهم صيحات الكتائب المؤمنة أن :

[الله أكبر . .

الله أكبر] . .

سارعوا جميعًا في زحام مجيد صَوْب الفجر الوافد وعانقوه ، واجدين

فيه خلاصهم من « قيصر » ومن « الرومان » . .

فعمرو بن العاص ورجاله ، لم يفتحوا مصر إذن . . إنما فتحوا الطريق أمام مصر لِتَصِلَ بالحق مصايرها . . وتربط بالعدل مقاديرها . . وتجد نفسها وحقيقتها في ضوء كلمات الله ، ومبادئ الإسلام . .

ولقد كان – رضي الله عنه – حريصًا على أن يباعد أهل مصر وأقباطها عن المعركة ، ليظلَّ القتال محصورًا بينه وبين جنود الرومان الذين يحتلون البلاد ويسرقون أرزاق أهلها . .

من أجل ذلك نجده يتحدث إلى زعماء النصارى يومئذ وكبار أساقفتهم ، فيقول :

[. . إن الله بعث « محمدًا » بالحق وأمره به . .

« وإنه – عليه الصلاة والسلام – قد أدَّى رسالته ، ومضى بعد أن تركَنا عَلَى الواضِحَة – أي الطريق الواضح المستقيم – . . .

« وكان مما أمَرنا به الإعْذارُ إلى الناس ، فنحن ندعوكم إلى الإسلام . .

« فمَن أجابنا ، فهو مِنَّا ، له ما لنا ، وعليه ما علينا . .

« ومَنْ لم يُجِبْنا إلى الإسلام ، عرَضْنا عليه الجزْية – أي الضَّرائب – وبذلنا لهُ الحمايَةَ والمَنَعة . .

« ولقد أخبرنا نبينا أن مصر ستفتح علينا ، وأوصانا بأهلها خيرًا فقال : « ستُفتَح عليكم بعدي مصر ، فاستَوْصُوا

بِقِبْطها خيرًا ، فإن لهم ذِمَّةً ورَحِما »[1] . .

فإن أجبتمونا إلى ما ندعوكم إليه كانت لكم ذِمَّة إلى ذِمَّة] . . .

وفرغ « عمرو » من كلماته . فصاح بعض الأساقفة والرهبان قائلا :

[إن الرَّحِم التي أوصاكم بها نبيكم ، لهي قرابةٌ بعيدة ، لا يصل مِثلَها إلا الأنبياء] . . ! !

وكانت هذه بداية طيبة للتفاهم المرجو بين « عمرو » واقباط مصر . . وإن يكن قادة الرومان قد حاولوا العمل لإحباطها . .

* * *

و« عمرو بن العاص » ، لم يكن من السابقين إلى الإسلام ، فقد أسلم مع « خالد بن الوليد » قُبيل فتح مكة بقليل . .

ومن عَجبٍ أن إسلامه بدأ على يد « النجاشي » بالحبشة وذلك أن « النجاشي » يعرف « عمرًا » ويحترمه بسبب تردده الكثير على الحبشة والهدايا الجزيلة التي كان يحملها « للنجاشي » ، وفي زيارته الأخيرة لتلك البلاد جاء ذكر الرسول الذي يهتف بالتوحيد وبمكارم الأخلاق في جزيرة العرب . .

وسأل عاهل الحبشة « عمرًا » ، كيف لم يؤمن به ويتبعه ، وهو رسول من الله حقًا . . ؟ ؟

---

(١) يشير الحديث إلى أن قبط مصر يومئذ كانوا بمثابة أخوال إسماعيل عليه السلام . . ذلك أن أم إسماعيل هي « السيدة هاجر » وكانت قبطية من مصر ، بنى بها « إبراهيم » عليه السلام حين قدم مصر وأهديت إليه ، فأنجبت له إسماعيل .

وسأل « عمرو » النجاشيَّ قائلا :

[أهو كذلك ؟ ؟]

وأجابه النجاشي :

[نعم . . فأطِعْني يا عمرو واتبعه ، فإنه والله لعلَى الحق ، ولَيَظْهَرنَّ عَلَى من خالفه] . . ؟ !

وركب « عمرو » ثَبَجَ البحر من فَوْره ، عائدًا إلى بلاده ، ومُيَمِّمًا وجهه شَطْر المدينة ليُسلم لله رب العالمين . .

وفي الطريق المفضية إلى المدينة التقى « بخالد بن الوليد » قادمًا من مكة ، ساعيًا – هو الآخر – إلى الرسول ليبايعه على الإسلام . .

ولم يكد الرسول يراهما قادمين حتى تهلل وجهه وقال لأصحابه :

[لقد رَمَتْكُم مكَّةُ بفَلَذَاتِ أكْبادِها] . . .

وتقدم « خالد » فبايع . .

ثم تقدم « عمرو » فقال :

[يا رسول الله . . .

« إني أبايعك على أن يغفر الله لي ما تقدَّم من ذنبي] . .

فأجابه الرسول عليه السلام قائلا :

[يا عمرو . .

بايعْ ، فإن الإسلام يَجُبُّ ما كان قَبْلَه] . .

وبايع « عمرو » ووضع دهاءه وشجاعته في خدمة الدين الجديد .

وعندما انتقل « الرسول » إلى الرفيق الأعلى ، كان « عمرو» والِيَه على عُمان . .

وفي خلافة « عمر» أبلى بلاءه المشهود في حروب الشام ، ثم في تحرير مصر من حكم الرومان .

* * *

ويا ليت « عمرو بن العاص » كان قد قاوم في نفسه حب الإمارة . .

إذن لكانَ قد تفوَّق كثيرًا على بعض المواقف التي ورَّطه فيها هذا الحب . . .

على أن حُب « عمرو» الإمارة ، كان إلى حد مَّا ، تعبيرًا تلقائيًا عن طبيعته الجياشة بالمواهب . .

بل إن شكله الخارجي ، وطريقته في المشي ، وفي الحديث ، كانت تُومِئُ إلى أنه خلق للإمارة . . ! ! حتى لقد رُوِيَ أن أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رآه ذات يوم مقبلا ، فابتسم لِمِشْيَته وقال :

[ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أميرًا] . . !

والحق أن « أبا عبد الله » لم يَبْخَسْ نفسه هذا الحق . .

وحتى حين كانت الأحداث الخطيرة تجتاح المسلمين . . كان « عمرو» يتعامل مع هذه الأحداث بأسلوب أمير . . أمير ، معه من الذكاء ، والدهاء ، والمقدرة ما يجعله واثقًا بنفسه مُعتزًّا بتفوُّقه . . ! !

ولكن معه كذلك من الأمانة ما جعل « عمر بن الخطاب » وهو الصارم في اختيار وُلاته ، يختاره واليًا على فلسطين والأردن ، ثم على مصر طوال حياة أمير المؤمنين عمر . .

حتى حين علم أمير المؤمنين أن « عَمْرًا » قد جاوز في رخاء معيشته الحد الذي كان أمير المؤمنين يطلب من ولاته أن يقفوا عنده ، ليظلوا دائمًا في مستوى ، أو على الأقل قريبين من مُستوى عامة الناس . .

نقول : حتى حين علم الخليفة عن « عمرو » كثرة رخائه ، لم يَعْزِله ، إنما أرسل إليه « محمد بن مَسْلمة » وأمره أن يُقاسم « عَمرًا » جميع أمواله وأشيائه . فيبقي له نصفها ويحمل معه إلى بيت المال بالمدينة نصفَها الآخر .

ولو قد علم أمير المؤمنين أن حب عمرو للإمارة يحمله على التفريط في مسئولياته . لما احتمل ضميره الرشيد إبقاءه في الولاية لحظة .

* * *

وكان « عمرو » رضي الله عنه حادَّ الذكاء . قويّ البديهة عميق الرؤية . .

حتى لقد كان أمير المؤمنين « عمر » رضي الله عنه ، كلما رأى إنسانًا عاجز الحيلة ، صَكَّ كفّيْه عَجبًا وقال :

[سبحان الله . . ! !

إن خالق هذا . وخالق عمرو بن العاص إله واحد] ! !

كما كان بالغ الجرأة ، مِقداما . .

ولقد يمزج جرأته بدهائه في بعض المواطن . فيُظَنّ به الجبن أو الهلَع . . بيد أنها سعةُ الحيلة ، كان عمرو يجيد استعمالها في حِذق هائل ليخرج نفسه من المآزق المهلكة . . !

ولقد كان أمير المؤمنين « عمر » يعرف مواهبه هذه ويقدرها قدرها .

من أجل ذلك ، عندما أرسله إلى الشام قبل مجيئه إلى مصر ، قيل لأمير المؤمنين : إن على رأس جيوش الروم بالشام « أرطبونا » أي قائدًا وأميرا من الشجعان الدُّهاة . . فكان جواب « عمر » :

[لقد رَمَيْنَا أَرْطَبون الروم ، بأرْطبون العرب ، فلننظر عَمَّ تَنفَرج الأمور] . . ! !

ولقد انفَرجت عن غلبة ساحِقة لأرطبون العرب ، وداهيتهم الخطير عمرو بن العاص – على أرطبون الروم الذي ترك جيشه للهزيمة وولى هاربًا إلى مصر . التي سيلحقه بها « عمرو » بعد قليل . . ليرفع فوق ربوعها الآمنة راية الإسلام .

* * *

وما أكثر المواقف التي تألَّق فيها ذكاء « عمرو » ودهاؤه .

وإن كنا لا نحسب منها بحال موقفه من أبي موسى الأشعري في واقعة التحكيم حين اتفقا على أن يخلع كل منهما عليًّا ومعاوية ، ليرجع الأمر شورى بين المسلمين ، فأنفذ « أبو موسى » الاتفاق . وقَعَد عن إنفاذه عمرو . .

وإذا أردنا أن نشهد صورة لدهائه ، وحِذْق بديهته ، ففي موقفه من قائد « حِصن بابليون » أثناء حربه مع الرومان في مصر – وفي رواية تاريخية أخرى أنها – أي الواقعة التي سنذكرها وقعت في اليرموك مع أرطبون الروم . .

إذ دعاه الارطبون والقائد ليحادثه ، وكان قد اعطى أمرًا لبعض

رجاله بإلقاء صخرة فوقه إثر انصرافه من الحصن ، وأعِدَّ كل شيءٍ ليكون قتل « عمرو » أمرًا محتومًا . .

ودخل عمرو على القائد ، لا يريبه منه شيءٌ ، وانفض لقاؤهما .

وبينما هو في طريقه إلى خارج الحصن ، لمح فوق أسواره حركة مريبة حركت فيه حاسَّة الحذَر بشدّة .

وعلى الفور تصرَّف بشكل باهر .

لقد عاد إلى قائد الحصن في خطوات آمنة مطمئنة وئيدة ومشاعر مُتهللة واثقة ، كأن لم يُفَزِّعْه شيءٌ أبدًا ، ولم يُثِرْ شكوكه أمر ! ! .

ودخل على القائد . . وقال له :

– لقد بادَرني خاطر أردتُ أن أطلعك عليه . . إن معي حيث يقيم أصحابي ، جماعة من أصحاب الرسول السابقين إلى الإسلام ، لا يقطع أمير المؤمنين أمرًا دون مَشورتهم ، ولا يرسل جيشًا من جيوش الإسلام إلا جعلهم على رأس مقاتلته وجنوده – وقد رأيت أن آتِيَك بهم ، حتى يسمعوا منك مثل الذي سمعت ، ويكونوا من الأمر على مثل ما أنا عليه من بيِّنة . .

وأدرك قائد الروم أن « عمرًا » بسذاجة قد منَحه فرصة العمر . . ! ! فليوافقه إذن على رأيه ، حتى إذا عاد ومعه هذا العدد من زعماء المسلمين وخيرة رجالهم وقوادهم ، أجهز عليهم جميعًا ، بدلا من أن يجهز على « عمرو » وحده . .

وبطريقة غير منظورة أعطى أمره بإرجاء الخطة التي كانت مُعدَّة

لاغتيال « عمرو » . .

وودّع « عمرًا » بحفاوة ، وصافحه بحرارة . .

وابتسم داهية العرب ، وهو يغادر الحِصْن . . !

وفي الصباح عاد « عمرو » على رأس جيشه إلى الحصن ، ممتطيًا صهوة فرسه ، التي راحَتْ تُقَهْقِهُ في صهيل شامتٍ وساخِرٍ.

أجَلْ . . . فهي الأخرى كانت تعرف من دهـــاء صاحبها الشيء الكثير . . ! ! !

* * *

وفي السنة الثالثة والأربعين من الهجرة ؛ أدركت الوفاة « عمرو بن العاص » بمصر ، حيث كان واليًا عليها . .

وراح يستعرض حياته في لحظات الرحيل فقال :

[. . كنت أول أمري كافرًا . . وكنت أشد الناس على رسول الله ، فلو مِتُّ يومئذ لوجَبَتْ لي النار . .

« ثم بايَعْتُ رسول الله ، فما كان في الناس أحد أحبّ إليّ منه ، ولا أجَلّ في عينيّ منه . . ولو سُئِلْتُ أن أنْعَتَه ما استطعت ، لأني لم أكن أقدر أن أملأ عيني منه إجلالا له . .

فلو متُّ يومئذ لَرجوتُ أن أكون من أهل الجنة . .

« ثم بُليتُ بعد ذلك بالسلطان ، وبأشياء لا أدري أهي لي ، أم عَلَيَّ] . . .

* * *

ثم رفع بصره إلى السماء في ضَراعة ، مناجيًا ربه الرحيم العظيم قائلا :

[اللهم لا بريئ فأعْتَذِر ، ولا عزِيزٌ فأنْتَصِرْ ،

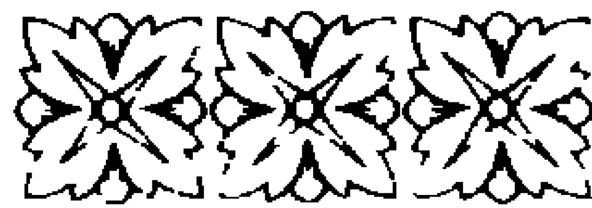
« وإلا تُدْرِكْني رحمتُك أكُن من الهالكين] ! !

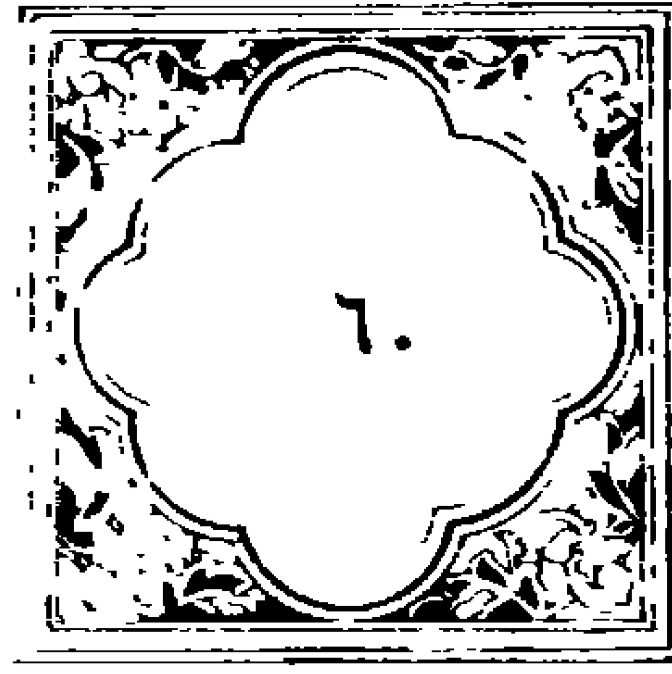
وظل في ضراعاته ، وابتهالاته حتى صعدت إلى الله رُوحُه . وكانت آخر كلماته : لا إله إلا الله . .

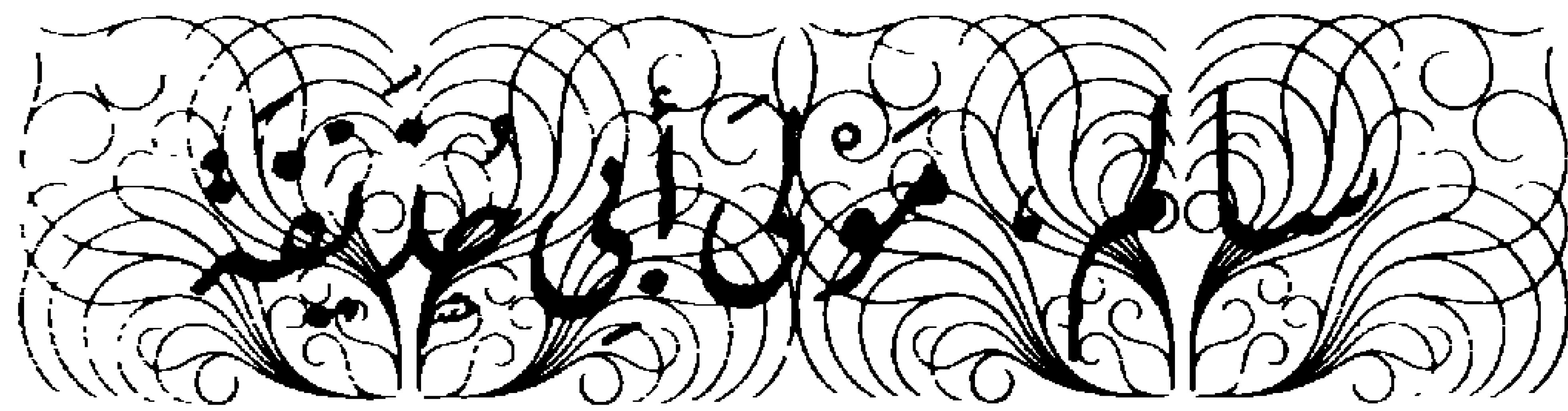
* * *

وتحت ثَرَى مصر ، التي عَرَّفها « عمرو » طريق الإسلام ، ثَوَى رُفاتُه . .

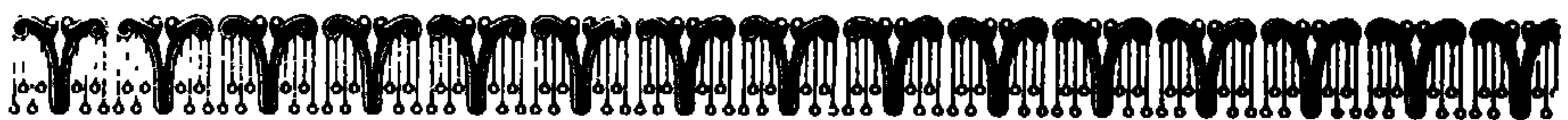
وفوق أرضها الصُّلْبَة ، لا يزال مجلسه حيث كان يُعلِّم ، ويقضي ، ويَحكم . . قائمًا عَبْر القرون تحت سقف مسجده العتيق - جامع عمرو - أول مسجد في مصر ذُكِر فيه اسم الله الواحد الأحد ، وأعلنت بين أرجائه ومن فوق منبره كلمات الله ، ومبادئ الإسلام .







.. بَلْ نِعْمَ حَامِلُ القُرْآن !



أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه يومًا ، فقال :

[خُذُوا القرآن من أربعة :

« عبد الله بن مسعود . .

« وسالم مولى أبي حُذَيفة . .

« وأُبيّ بن كعب . .

« ومُعاذ بن جبل . .]

ولقد التقينا من قبل بابن مسعود ، وأبيّ ، ومُعاذ . .

فمن هذا الصحابي الرابع الذي جعله الرسول حُجَّةً في تعليم القرآن ومَرْجعًا . . ؟ ؟

إنه « سالم مولَى أبي حُذيفة » . .

كان عبدًا رقيقًا ، رفع الإسلام من شأنه حتى جعل منه ابنًا لواحد من كبار المسلمين كان قبل إسلامه شريفًا من أشراف قريش ، وزعيمًا من زعمائها . .

ولما أبطل الإسلام عادة التَّبَنِّي ، صار أخًا ، ورفيقًا ، ومولًى للذي كان يتبناه ، وهو الصحابيّ الجليل : « أبو حُذَيْفَةَ بن عُتْبة » . .

وبِفَضلٍ من الله ونِعمةٍ على « سالم » بلغ بين المسلمين شأوًا رفيعًا وعاليًا ، أهَّلَتْه له فضائل رُوحه ، وسُلوكه ، وتقواه . .

وعُرف الصحابي الجليل بهذه التسمية : « سالم مولى أبي حذيفة » . .

ذلك أنه كان رقيقًا وأعتِق . .

وآمن بالله وبرسوله إيمانًا مُبَكِّرًا . .

وأخذ مكانه بين السابقين الأولين . .

وكان حذيفة بن عتبة ، قد باكرَ هو الآخر وسارع إلى الإسلام تاركًا أباه « عُتبة بن ربيعة » يَجْتَرُّ مغايِظَه وهمومه التي عكَّرت صفو حياته ، بسبب إسلام ابنه الذي كان وجيهًا في قومه ، وكان أبوه يُعِدُّه للزعامة في قريش . .

* * *

وتَبَنّى « أبو حذيفة » « سالما » بعد عتقه ، وصار يدعى بـ « سالم بن أبي حذيفة » . .

وراح الاثنان يعبدان ربهما في إخْباتٍ ، وخشوع . . ويصبران أعظم الصبر على أذى قريش وكيدها . .

وذات يوم نزلت آية القرآن التي تبطل عادة التبني . .

وعاد كُلُّ مُتَبَنّى ليحمل اسم أبيه الحقيقي الذي وَلَده وأنجبه . .

فـ « زيد بن حارثة » مثلا ، الذي كان النبي عليه السلام قد تبناه ، وعُرف بين المسلمين « زيد بن محمد » ، عاد يحمل اسم أبيه « حارثة » فصار « زيد بن حارثة » ولكنَّ « سالما » لم يكن يعرف له أب ، فوالَى أبا حذيفة ، وصار يُدعَى « سالم مولى أبي حذيفة » . .

ولعلَّ الإسلام حين أبطل عادة التبني ، إنما أراد أن يقول للمسلمين :

لا تلتمسوا رَحمًا ، ولا قُربى ، ولا صِلَةً توكّدون بها إخاءكم ، أكبر ولا أقوى من الإسلام نفسه . . والعقيدة التي يجعلكم بها إخوانًا . . ! !

ولقد فهم المسلمون الأوائل هذا جيدًا . .

فلم يكن شيءٌ أحبَّ إلى أحدهم بعد الله ورسوله ، من إخوانهم في الله وفي الإسلام . .

ولقد رأينا كيف استقبل الأنصار إخوانهم المهاجرين ، فشاطروهم أموالهم ، ومساكنهم ، وكل ما يملكون . . ! !

وهذا هو الذي رأيناه يحدث بين « أبي حذيفة » الشريف في قريش ، مع « سالم » الذي كان عبدًا رقيقًا ، لا يُعرف أبوه . .

لقد ظلّا إلى آخر لحظة في حياتَيْهما أكثر من أخَوين شقيقين — حتى عند الموت — ماتا معًا . . الروح مع الروح . . والجسد إلى جوار الجسد . . ! !

تلك عظمة الإسلام الفريدة . .

بل تلك واحدة من عظائمه ، ومزاياه . . ! !

* * *

لقد آمن « سالم » إيمان الصادقين . .

وسلك طريقه إلى الله سلوك الأبرار المتقين . .

فلم يعد لحسبه ، ولا لموضعه من المجتمع أي اعتبار . .

لقد ارتفع بتقواه وبإخلاصه إلى أعلى مراتب المجتمع الجديد الذي جاء الإسلام يُقيمه ويُنْهِضه على أساس جديد عادل وعظيم . .

أساسٍ تلخصه الآية الجليلة :

[إن أكْرَمَكُم عند اللهِ أتقاكم] . . ! !

والحديث الشريف :

[ليس لِعربِيّ عَلَى عَجَمِيّ فضل إلا بالتقوى] . .

و[ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى] . . ! !

* * *

في هذا المجتمع الجديد الرشيد ، وجد أبو حذيفة شرفًا لنفسه أن يوالي من كان بالأمس عبدًا . .

بل ووجد شرفًا لأسرته ، أن يزوج « سالما » ابنة أخيه « فاطمة بنت الوليد بن عُتبة » . . ! !

وفي هذا المجتمع الجديد ، والرشيد ، الذي هدَّم الطبقية الظالمة ، وأبطل التمايز الكاذب ، وجد « سالم » بسبب صِدْقه ، وإيمانه ، وبلائه ، وجد نفسه في الصف الأول دوما . . ! !

أجلْ . . لقد كان إمامًا للمهاجرين من مكة إلى المدينة طوال صلاتهم في مسجد قُباء . . ! !

وكان « حُجَّةً » في كتاب الله ، حتى أمر النبي المسلمين أن يتعلموا منه . . ! !

وكان معه من الخير ، والتفوُّق ما جعل الرسول عليه السلام يقول له :

[الحمد لله ، الذي جعَل في أُمَّتي مثلك] . . ! !

وحتى كان إخوانه المؤمنون يسمونه :

[سالم من الصالحين] . . ! !

* * *

إن قصة « سالم » كقصة « بلال » وكقصة عشرات العبيد ، والفقراء الذين نفض الإسلام عنهم عَواديَ الرِّقّ والضعف ، وجعلهم في مجتمع الهدى والرشاد أئمة ، وزعماء ، وقادة . .

* * *

كان سالم مُلْتَقًى لكل فضائل الإسلام الرشيد . .

كانت الفضائل تزدحم فيه وحوله . . وكان إيمانه العميق الصادق يُنَسّقها أجمل تنسيق . .

وكان من أبرز مزاياه ، الجهر بما يراه حقًّا . .

إنه لا يعرف الصَّمْتَ تجاه كلمة يرى من واجبه أن يقولها . .

ولا يخون الحياة بالسكوت عن خَطأٍ يَؤُودُها . .

* * *

بعد أن فُتِحت مكة للمسلمين ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض السرايا إلى ما حول مكة من قرًى وقبائل ، وأخبرهم أنه عليه السلام ، إنما يبعث بهم دُعاة ، لا مُقاتلين . .

وكان على رأس احدى هذه السرايا « خالد بن الوليد » . .

وحين بلغ « خالد » وِجْهتَه ، حدَث ما جعله يستعمل السيف ، ويريق الدم . .

هذه الواقعة التي عندما سمع النبي صلى الله عليه وسلم نبأها ، اعتذر إلى ربه طويلا ، وهو يقول :

[اللهم إني أبْرَأ إليك مما صنع خالد] . . ! !

والتي ظَلَّ أمير المؤمنين « عمر » يذكرها له ويأخذها عليه ، ويقول : « إن في سيف خالد رهَقًا » . .

كان يصحب « خالدًا » في هذه السَّرِيَّة . . « سالم » مولىَ أبي حُذيفة مع غيره من الأصحاب . .

ولم يكد « سالم » يرى صنيع « خالد » حتى واجهه بمناقشة حامية ، وراح يُعدِّد له الأخطاء التي ارتُكِبَتْ . .

و« خالد » القائد ، والبطل العظيم في الجاهلية ، والإسلام ، ينصت مرة ، ويدافع عن نفسه مرة ثانية ، ويشتد في القول مرة ثالثة ، « وسالم » مستمسك برأيه ، يعلنه في غير تهيُّب أو مُداراة . .

لم يكن « سالم » آنئذ ينظر إلى « خالد » كشريف من أشراف مكة . . بينما هو من كان بالأمس القريب رقيقًا . .

لا . . فقد سوَّى الإسلام بينهما . . ! !

ولم يكن ينظر إليه كقائد تُقدَّسُ أخطاؤه . . بل كشريك في المسئولية والواجب . . ! !

ولم يكن يصدُر في معارضته خالدًا عن غَرض ، أو شهوة ، بل هي النصيحة التي قدَّس الإسلام حقها ، والتي طالما سمع نبيَّه عليه السلام يجعلها قِوام الدين كله حين يقول :

[الدينُ النصيحة . .

« الدينُ النصيحة . .

« الدينُ النصيحة] . .

* * *

ولقد سأل الرسولُ عليه السلام ، عندما بلغه صنيع « خالد بن الوليد ».. سأل عليه السلام قائلا :

[هل أنكَرَ عليه أحد] . . ؟ ؟

ما أجله سؤالاً ، وما أروعه . . ؟ ؟ ! !

وسَكَن غَضبُه عليه السلام حين قالوا له :

[نعم . . راجَعَه – سالم – وعارَضَه] . .

وعاش « سالم » مع رسوله والمؤمنين . .

لا يتخلف عن غزوة ، ولا يقعد عن عبادة . .

وكان إخاؤه مع « أبي حذيفة » يزداد مع الأيام تفانيًا وتماسُكا . .

* * *

وانتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى . .

وواجهت خلافة أبي بكر رضي الله عنه مؤامرات المرتدِّين . .

وجاء يوم اليمامَة . .

وكانت حربًا رهيبة ، لم يُبْتَلَ الإسلام بمثلها . .

وخرج المسلمون للقتال . .

وخرج سالم وأخوه في الله أبو حذيفة . .

وفي بدء المعركة لم يصمد المسلمون للهجوم . . وأحسَّ كل مؤمن هناك أن المعركة معركتُه . . والمسئولية مسئوليتُه . .

وجمعهم « خالد بن الوليد » من جديد . .

وأعاد تنسيق الجيش بعبقرية مذهلة . .

وتعانق الأخوان « أبو حذيفة » و « سالم » وتعاهدا على الشّهادة في سبيل الدين الحق الذي وهبهما سعادة الدنيا والآخرة . .

وقذفا نفسيهما في الخِضَمِّ الرَّهيب . . ! !

كان « أبو حذيفة » ينادي :

[يا أهل القرآن . .

« زينوا القرآن بأعمالكم] . .

وسيفه يضرب كالعاصفة في جيش مسيلمة الكذاب .

وكان « سالم » يصيح :

[بئس حامل القرآن أنا . . .

« لو هُوجم المسلمون من قِبَلِي] . . ! !

حاشاك يا سالم . . بل نِعْمَ حامل القرآن أنت . . ! !

وكان سيفه صَوَّالاً جوالاً في أعناق المرتَدِّين ، الذين هبُّوا ليعيدوا جاهلية قريش . . ويطفئوا نور الإسلام .

وهوى سيف من سيوف الردَّة على يمناه فبترها . وكان يحمل بها

راية المهاجرين بعد أن سقط حاملها « زيد بن الخطاب » . .

ولما رأى يمناه تُبْتَر ، الْتقط الرَّاية بيُسْرَاه وظَلَّ يُلَوِّح بها إلى أعْلَى وهو يصيح تاليًا الآية الكريمة :

[وكَأَيٍّ مِنْ نَبيّ قاتَلَ معهُ رِبيّون كثير ، فما وَهَنُوا لما أصابهم في سَبيلِ اللهِ وما ضَعُفُوا وما اسْتَكَانُوا والله يُحِبُّ الصابرين] . .

ألا أعْظِم به من شِعَار . . ذلك الذي اختاره يوم الموت شعارًا له . ! !

* * *

وأحاطت به غاشية من المرتدين فسقط البطل . . ولكن روحه ظلت تتردَّد في جسده الطاهر . حتى انتهت المعركة بقتل « مسيلمة الكذاب » واندحار جيشه وانتصار جيش المسلمين . .

وبينما المسلمون يتفقدون ضحاياهم وشهداءهم وجدوا « سالما » في النزع الأخير . .

وسألهم :

ما فعل أبو حذيفة . . ؟ ؟

قالوا : استشْهد . .

قال : فأضْجِعُوني إلى جواره . .

قالوا : إنه إلى جوارك يا سالم . . لقد استشهد في نفس المكان . . ! !

* * *

وابتسم ابتسامته الأخيرة . .

ولم يعد يتكلم . . ! !

لقد أدرك هو وصَاحِبهُ ما كانا يرجُوَان . . ! !

معًا أسلما . .

ومعًا عاشا . .

ومعًا استُشهدا . .

يا لرَوْعَة الحظوظ ، وجمَالِ المقادير . . ! !

* * *

وذهب إلى الله ، ذلك المؤمن الكبير الذي قال عنه عمر بن الخطاب ، وهو يموت :

[لو كان « سالم » حيًّا ، لَوَلَّيْتُه الأمر من بعدي] . . ! !



وَبعْدُ . . .

. . الآن ونحن نُوَدِّع هذا النفَر الجليل من أصحاب محمد رسول الله صلى الله وسلّم عليه وعليهم أجمعين . .

أتُرَانا وفَّيْنَا الحديث حقّه . . ؟

أتُرَانا أحْصَيْنا أولئك الرجال الأفذاذ عددًا . . ؟

كلا . . .

لقد استَشْرَفْنَا عظَمتهم من قريب ، وصَحِبْنا خلال لحظات مُشرقة ، ثُلَّةً مُباركةً منهم ، إذ لم تُسْعِفْنا الحظُوظ بصحبتهم جميعًا . .

إن الرجال « الستّين » الذين قَدَّمهم هذا الكتاب ، لَيَنُوبون عن الألوف العديدة والمجيدة من إخوانهم الذين رأوا الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعاصروه ، وآمنوا به ، وجاهدوا معه . .

ففي صُوَر هؤلاء الستين الأبرار ، نرى صُوَر جميع الأصحاب . .

نرى إيمانهم ، وثَبَاتهم ، وبُطُولَتهم ، وتضحياتهم ، وولاءهم . .

نرى البذلَ الذي بَذلُوا . .

والنصرَ الذي أحْرَزُوا . .

والدَّور الذي نهضوا به لتحرير البشرية بأسرها من وَثَنِيَّةِ الضمير ، وضياع المصير . . ! !

* * *

هؤلاء الرجالُ الستُّون – إذن – هم نموذَجٌ باهر ورائع . نستقبله ونستَجْليه ، ونرى فيه أبطالَ وجنودَ أعظم حقبة من حقب النضال الإنساني عامة . والدِّيني خاصَّة . .

تلك الحِقْبَة التي تهدّم فيها العالم القديم تحت مطارق الحقيقة الجديدة التي جاءت تُعلن توحيد الربّ ، وتوحيد الخلق . .

فلا أصنام ، ولا أوثان . .

ولا أباطرة ، ولا قياصِرَة . .

إنما الله إلٰهٌ واحد . .

وإنما الناس سَوَاسِيَةٌ كأسنانِ المشْط . .

* * *

ولستُ أريد أن أعيد ما كتبتُه من قبل عن الأسباب التي صِيغَ منها وبها هذا الإيمانُ المُذْهِلُ الذي مُلِئَت به أفئدة أولئك الرجال . .

فهناك في أول هذا الكتاب ، وتحت عنوان « النور الذي اتَّبعوه » هيَّأ لي توفيقُ الله ونعمتُه تجْلِيَةَ جوهر تلك العوامل والأسباب .

* * *

إن « محمدًا » بصدقه ، وبثباته ، وبطُهره ، وبعظمته ، لم يكن لِيَعْكِسَ على الذين حَوْله إلا إيمانًا من هذا الطراز . .

إيمان رجال عرفوه جيدًا . . ورأوه في كل كماله وجلالِه . . في كل إنسانيته وربَّانِيَّتِه . . في كل سموِّه وتواضعه . . في كل روعته وبساطته . . في كل قوته ورحمته . .

رأوه . . ورأوْا نُبْلَ بواعِثِه ، واستقامة نَهجه ، فلم يعد للشّك عليهم بعد إيمانهم به أيُّ سلطان . . بل إنهم لم يستعملوا حقهم المشروع في أن يسألوه معجزة تُزَكي أمامَهم نُبُوَّتَه ورسالته . . ! !

كل أمة سألت نبيها معجزة ، حتى تؤمن به . . إلا أصحاب محمد . . إلا الرِّجَالَ حول الرسول . . لم يقولوا له قط : أَرِنَا معجزة تدلنا على صدقك . . لأن « محمدًا » كان هو المعجزة . . ! !

والتماسُ معجزة أخرى خارجَ ذاتِه ، وشخصيته ، ومبادئه ، سَذَاجَةٌ لا يتورط فيها مثل هذا الطراز من الرجال ذوي الألْبَاب ، سيَّما بعد أن ملأت قلوبَهم هدايةُ الله . وغمرتِ بصائرهم أنوار رسوله . . ! !

* * *

إن إيمان هذا الرَّعِيلِ الأوَّل من المسلمين لَيُضْفِي على البشرية كلها في شَتَّى أدْيَانها ، وأزمانها ، وأجناسها من الثقة ما يجدد لها على الدوام شبابها النضير ، وعزمَها القدير . .

فهم أولَ الأمر وآخرَه ، بَشَرٌ من الناس . .

كانوا يحيون داخل ظروف ، لم تكن في ظاهرها قادرة على أن تجعل منهم ما استطاعوا فيما بعد أن يَكُونُوه . .

وهم كمجتمع ، لم يكونوا قد أحرزوا بعد ، كل الصفات اللازمة لقيام مجتمع . .

فهم قبائل متنافرة . . متصارعة . . تقودها الفَرْدِيَّة المغلقة الصارِمَة . .

وهم كقُوَّة سياسية ، لم يكونوا قبل الإسلام شيئًا مذكورًا . .

وكقوة اقتصادية ، كانوا من أكثر الناس فقرًا . .

وكقوة عَدَدِية ، كانوا من أقل الناس عددًا . .

فما الذي حدث . حتى صار هؤلاء الأقلُّون في كل شيء ، بُنَاةَ عَالَمٍ جديد رائع القَسَمَات . . ؟ ؟

أهي قوة السلاح وكثرة الجيوش . ؟ ؟

لقد كان « الإسكندر » من قبلهم . و « جنكيزخان » من بعدهم أوفر سلاحًا وأكثر جُندًا . .

فأين الإسكندر اليوم . وأين جنكيزخان . . ؟ ؟

ماذا بقي منهما ، ومن جيوشهما الغاربة . ومن انتصاراتهما المروعة . . ؟ !

ماذا بقي من كل ذلك في ضمير الحياة ، وفي ضمائر البشر . . ؟ !

لا شيء . . .

إذن لم تكن القوة الماديّة في كل صورها ، هي التي جعلَت من أصحاب الرسول ما رأيْنا . .

إنما هو الإيمان . . الإيمان بالحق ، وبالخير . .

ومن قبل هذا ، الإيمان برب الحق والخير . .

وهذا هو الدرس الصادق الذي ألقاه ويلقيه على البشر جميعًا . . محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذين آمنوا معه . .

* * *

إن الظلام يتحول إلى نور . .

والفوضى تتحول إلى نظام . .

والضعف يتحول إلى قوة . .

والضياع يصير مَنَعَة . .

والمهانة تصبح عَظَمَة . .

والجهالة تُضْحي معرفة . .

والعَدَم يصير وَفْرَة . .

وجميع الأشواك تُضْحي أزاهير ، عندما يكرِّس الناس حياتهم لقضية الحق والخير . .

هذا ، هو ما صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه معه . .

وهذا ، هو ما صنعه من قبل ، المرسَلُون كافّة ، وأصحابهم المؤمنون . .

وهذا ، هو الدرس الذي تركوه . .

* * *

ولأِنَّ الحق والخير ، كانا جَوْهر الدور الذي قام به الرسول وصَحْبُه . .

ولأِنَّ الإيمان الصادق ، الطاهر ، الشجاع كان نَهْجَهم وسَبِيلَهم . .

. . لأِنَّ ذلك كذلك – رأيناهم – محمدًا وصَحْبَه – يُوَرِّثون البشرية خير ميراث . . .

ورأيناهم يملأون الضمير الإنساني عافية ، ونورًا ، ورُشْدًا . .

واليوم ، تحمل أكثر إذاعات الدنيا آيات القرآن العظيم الذي كان للرسول صلى الله عليه وسلم ولأصحابه إمامًا ونورًا ، لتذيعها جَهَرَةً وإعلانًا . .

أكثر إذاعات الدنيا . . حتى الدول التي لها دين غير الإسلام . .

وحتى الدول التي لا تؤمن بدين . .

أكثرها ، في إذاعاته الموجهة باللسان العربي ، يَسْتهلُّ بَرامجه بآيات القرآن . . ! !

وفي كل بقاع الأرض . .

بين الشعوب المسلمة . .

والشعوب المسيحية . .

وبين اليهود ، والهندوكيين ، والبوذيين . .

وفوق روع الدول التي لا تؤمن بدين أيضًا . .

بين هؤلاء ، وهؤلاء . . ترتفع المآذن الشامخة لِتُدَوِّيَ من فوقها نفس الكلمات التي دَوَّى بها صوت مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم منذ ألف وأربعمائة عام . . .

الله أكبر . . الله أكبر

أشهد ألا إله إلا الله

أشهد أن محمدًا رسول الله

حيَّ على الصلاة

حيَّ على الفلاح

في كل مكان من الأرض ، يُتْلَى قُرْآن هذا الدين . .

وفي كل مكان من الأرض ، تنهض مساجده . .

وفي كل مكان من الأرض ، تذاع مبادئه . .

أية قوة وهَبته هذا الخلود . . ؟ ؟ ! !

إنها نفس القوة التي رأيناها من قبل تمنح هذا الدين ورجالَهُ قدرة خارقة وفائقة على تغيير الدنيا ، وتغيير ما فيها من ناسٍ ، وقِيَم ، ومصاير . .

إنها قوة الإيمان بالحق ، وبالخير . .

ومن قبل هذا ، الإيمان بربِّ الحق ، والخير . .

وبالرسول ، بل وبالرُّسُل الذين نذروا حياتهم للحق وللخير . .

الذين أعطوا كل شيئ ، ولم يأخذوا شيئًا . . ! !

* * *

بَقِيَتْ في هذه الخاتمة كلمةٌ تُقال . .

إنه سؤال يراود الخاطر حتما ، بعد أن طالَعنا تلك المشاهد المضيئة التي رأينا خلالها أولئك الرجال الستّين من أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام . .

هذا السؤال هو : كيف أمْكَن للخصومة والخلاف ، أن تفسد العلاقات الوُثْقَى بين أولئكَ الإخْوَة الراشدين . . وكيف غَلَبَتْهُمْ على إخائهم الباهر تلك الحرب الأهلية التي نشبت بين أنصار عليّ ، وأنصار معاوية ، والتي رأينا - عَرَضًا - بعض أنبائها ، خلال صفحات الكتاب.. ؟

والجواب عن هذا السؤال يرجع بنا إلى فضيلة الإيمان عند أولئك الأصحاب ، ثم إلى عوامل أخرى تاريخية . .

أجَلْ . . إن إيمانهم الواضح ، والصادق ، والحاسم ، جعلهم من أصحاب الطريق الواحد . .

لم يكن للحق عندهم سوى وجه واحد يعرفونه ويتْبعونه . . وليست له وجوه كثيرة مُنْتَحَلَة يتأرجح بينها المُتأرْجحون وَفْقَ أهوائهم ومصالحهم

ولما كان الرسول عليه السلام عائشًا بينهم ، كان الاهتداء إلى الحق الذي يختلف فيه الناس أمرا مُيَسَّرًا :

فالوحي ، أو الرسول ، أو هما معًا يفصلان في كل مُشتبه من الأمور .

فلما رحل الرسول عنهم ، لم يختلفوا قط فيما سبق أن فصَل الله فيه ، أو فصَل فيه رسولُه .

ولما قُتل « عثمان » رضي الله عنه ، وكان مقتله مسبوقًا ومصحوبا بفتنة وبيلة هزَّت كل أقطار الإسلام يومئذ ، نجَم عن هذا الحادث الرهيب موقف اتَّسع للخلاف في الرأي وفي التقدير .

وصار محتوما على الصحابة أن يحدد كلٌّ موقفه ويختار جانبا من جوانب الرأي المتعددة

وكانت طريقتهم في الاختيار كطريقتهم في الإيمان . . الوضوح والحَسْم . . فلا تردُّد ، ولا نفاق . .

فالمقتنعون بوجهة النظر التي يتزعمها الإمام علي ، اختاروا جانبه .

والمقتنعون بوجهة النظر التي يتزعمها معاوية ، اختاروا جانبه .

والمقتنعون بخطأ الاتجاهين ، اختاروا وجهةً ثالثة تمثَّلت في حمل الفريقين المتنازعين على نبذ الخلاف ، فلما أفْلَت الزمام اختاروا الحياد ، واعتزلوا النزاع . .

هذا ، فيما يخصّ الأصحاب السابقين إلى الإسلام الذين عاصروا

الرسول ، وجاهدوا معه قُوى الشرك والظلام :

على أن هؤلاء الأصحاب لم يكونوا أيام النزاع بين علي ومعاوية يمثلون وحدهم « مركز الثِّقَل » في الدولة الإسلامية . .

ذلك أن الدولة أيامئذ ، كانت قد اتسعت اتساعًا هائلا وبرزَت فيها قُوى جديدة ، أخذت تشارك في الأحداث وتُوجِّهها . .

وليس أدلَّ على ذلك من أن المؤامرة التي استهدفت حياة الخليفة عثمان ، والأجهزة التي تولَّت تنفيذها ، إنما جاءت من خارج المدينة ، بل من خارج الجزيرة العربية كلها . . من أقطار الإسلام البعيدة . .

فهذه القُوَى الجديدة لعبت دورًا لم يكن في وُسْع الصحابة الكبار أن يدفعوه . . دَوْرًا خطيرًا وفعَّالاً في تحويل النزاع بين علي ومعاوية إلى حرب وقتال . .

بل إن أهل الشام في جانب معاوية ، وأهل العراق في جانب علي ، صاروا – في التطور الأخير للنزاع – أصحاب الدور الحقيقي في هذه الحرب . .

حتى إن الحرب في التحليل النهائي لها ، لم تكن بين معسكرين إسلاميين بقدر ما كانت بين معسكرين إقليميين . . أهل الشام في جانب وأهل العراق في جانب آخر . . ! !

وهناك قوة ثالثة لا يمكن تجاهلها . . قوة شرِّيرة لم تَنَمْ عن الإسلام لحظة منذ انتزع الصولجان من يدها وسوَّى بسلطانها التراب .

تلك القوة المتمثلة في بقايا فارس والروم ، والتي ظلَّت تُمارس كَيْدها للإسلام عن طريق عملائها الكثيرين الذين تسلّلوا إليه متظاهرين باعتناقه ،

والذين استطاع بعضهم أن يُحدث داخل صفوف المسلمين من التخريب والهدم ما عجزت عنه الامبراطوريتان المنهزمتان . . ! !

* * *

هذه نظرة سريعة في ظروف ذلك الموقف الصعب الذي اجتازه الصحابة ، والإسلام كله في تلك الأيام . . على أنه لا ينبغي أن نتجاهل حقيقة أخرى – هي أن كلًّا من زعماء المعسكرين المتحاربين ، لم يكن يحسب قط أن الأمور ستتطور إلى هذا المدى الرهيب . .

فالإمام عليّ ومن معه ، كانوا يرون في زحفهم إلى الشام مجرد حملة تخويف ، لن يلبث معاوية أن يُفيق معها على قوة سلطان الدولة ، فيحترمه ويطيعه . .

ومعاوية ومن معه ، كانوا يعتقدون أن الإمام عليًا إنما يَعْجُم عُودَهم ، ويَبْلُوَ استعدادهم ، فإذَا وجد ما هم عليه من القوة والعُدة ، فإنه سيلتمس لتسوية الخلاف طريقًا أخرى غير الحرب . . لكن الأمور تطورت تطورًا بعيدًا . .

وإن تطورها المُباغت والبعيد ، لَيكشِف عن القُوَى المخبوءة التي كانت تعمل في جوف كل معسكر ، لتحوِّل النزاع إلى حرب وقتال . .

* * *

والآن لنختم حديثنا عن تلك الحرب بهذه الواقعة .

كان « الزبير » رضي الله عنه يقاتل في صف معاوية . . وفي نهاية المعركة تبيَّن له خطأ اشتراكه في الحرب ، فانسحب منها .

بيد أن نفرًا من المتحاربين تعقبوه ، وطعنوه طعنة قاتلة وهو قائم

يصلي . .

واستلَب القاتل سيف « الزبير » ، وقطع الأرض وثْبًا إلى الإمام علي – يريد أن يزُف إليه بشرى مقتل « الزبير » ويضع بين يديه سيفه الذي قاتل به ضد علي مع معاوية . .

ووقف بباب الإمام . . يستأذن في الدخول . .

وعلم « عليٌّ » ما حدث . فصاح آمرًا بطرد القاتل وهو يقول :

[بَشِّرْ قاتِلَ ابن صفية بالنار] .

يعني بابن صفية « الزبير » رضي الله عنه . .

وأمر بأن يُجرَّد من سيف « الزبير » وأن يجيئوه بالسيف . .

وحُمل سيف « الزُّبَير » إلى الإمام علي ، فراح يقبله ويبكي ويقول :

[سَيفٌ طالَمَا واللهِ جَلا بِه صاحِبُه الكَرْبَ عن رسول الله] !

* * *

هذا مشهد عظيم يُضفي على ذلك الخلاف وعلى مضاعفاته المؤلمة كثيرًا من السَّكينة ، ويُفيءُ علينا ونحن نتذكره كثيرًا من الفهم وحسن التقدير . .

* * *

والآن ونحن نُودِّع أولئك الرجال الذين عشنا معهم على صفحات الكتاب أوقاتًا مُفعمة بالغبطة والسعادة . . نسجد لله شاكرين أنْعُمَه . . راجين المزيد من نعمته ، ورحمته ، وعافيته . .

* * *

وفي خشوع وإجلال ، نقول للمعلّم العظيم ، خاتمِ المُرسلِين :

- السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته . . .

- وجزاك الله عما أعطيْت ، وهدَيْت ، خير الجزاء . .

وفي شوق مُتجدِّد ومُفيض ، نقول لأصحابه المُباركين :

أيها الأبْرار : وداعًا . . ! !

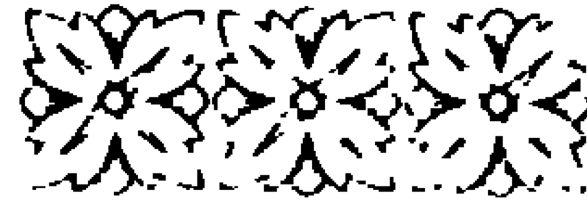
* * *

ولكن . . متَى غابوا ، حتى يُقال لهم ودَاع . . . ؟ ؟

فلْتكُن تحيتُنا لهم : سلام . . .

سلام ، أزْجَيْناه - خاشعين - عند البدء . .

ونُزْجِيهِ - خاشعين - عند الختام .



فهرست

